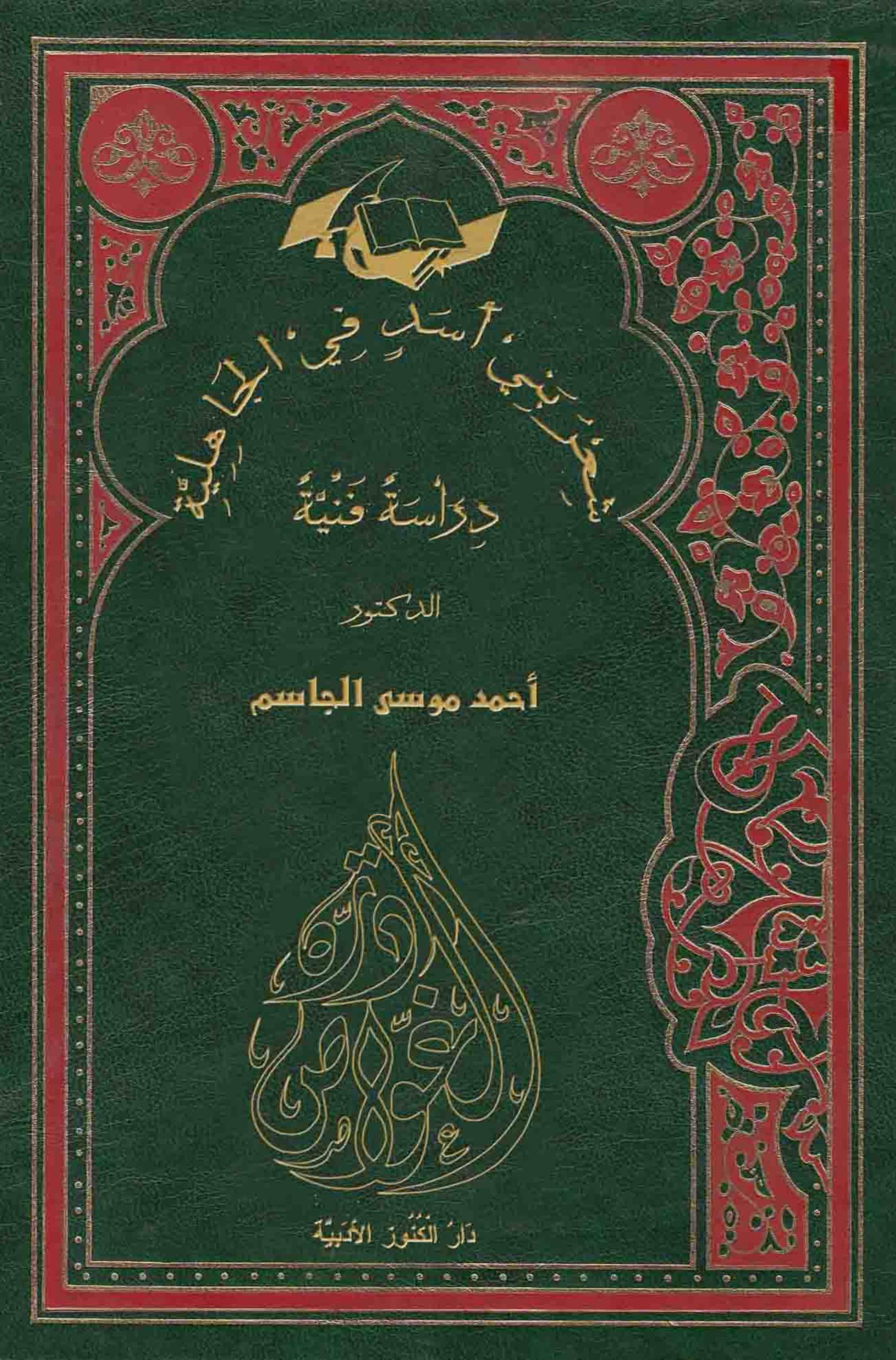

شعر بني أسد في الجاهلية
دراسة فنية
الدكتور
أحمد موسى الجاسم
دار الكنوز الأدبية

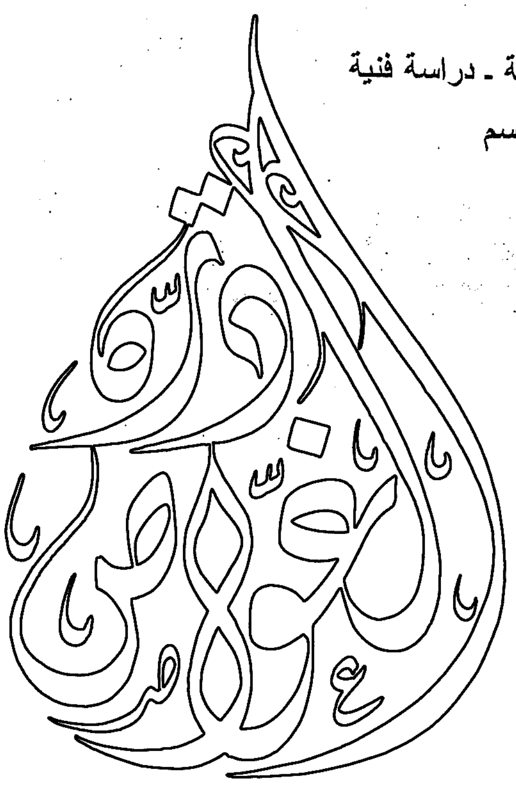

درة الغواص




الدكتور

**أحمد موسى الجاسم**

دَارُ الْكُنُوز الأدَبيَّة




• شعر بني أسد في الجاهلية - دراسة فنية

• الدكتور أحمد موسى الجاسم

• الطبعة الأولى ١٩٩٥



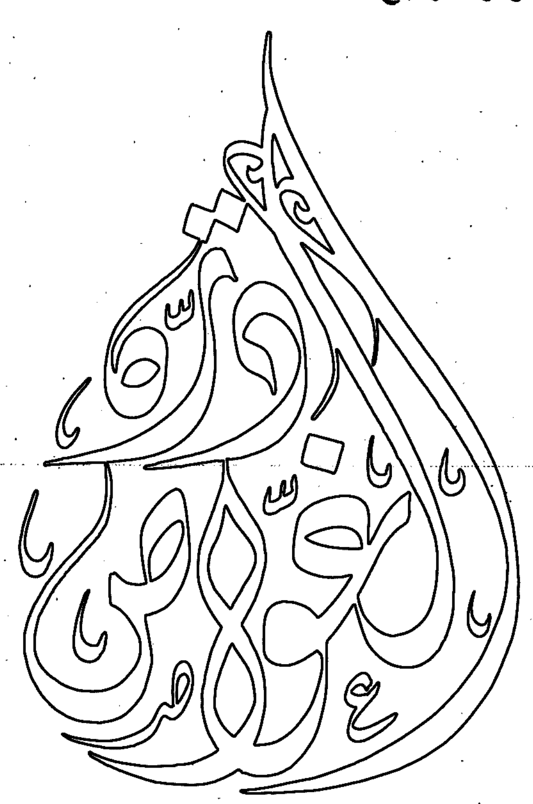


• دار الكنوز الأدبية

• ص.ب: ٧٢٢٦ - ١١

• بيروت - لبنان

# فهرس المحتويات





# المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى صحبه ومن والاه، وبعد، فإن دراسة الأدب الجاهلي قد استهوتني منذ ما يزيد على خمسة عشر عاماً، ليقيني بأصالة هذا الأدب واستيعابه لكثير من جوانب الحياة، فالشعر الجاهلي يشكل الأصل الذي تفرعت عنه المنابع الأدبية لهذه الأمة الكريمة فيما تلا ذلك من عصور.

وعلى هذا: وجب أن تكون دراسته دراسة دقيقة واعية وما أظن ذلك ممكناً إلا إذا تتبعنا ظواهر هذا الأدب ولاحظنا جوانبه المتميزة، بصورة منفردة، وهكذا وجدت نفسي مدفوعاً إلى دراسة جانب من جوانب هذا التراث الأدبي الجاهلي، وهو دراسة شعر قبيلة بني أسد بن خزيمة في تلك الحقبة الزمنية البعيدة، ولم يكن الأمر ميسوراً، ولا الطريق ممهدة، فقد طالت رحلتي مع الاسديين على مدى يربو على ثلاث سنوات، وقبيلة بني أسد بن خزيمة هذه تعد من أعظم القبائل المضرية شأناً في الجاهلية، وكان لدورها الذي لعبته آثار بعيدة على الحياة في شبه الجزيرة العربية من وجوه عدة مما أدى إلى ذيوع صيت هذه القبيلة وارتفاع شأنها بين القبائل العربية الأخرى.

ذلك الدور الذي تمثل في قتل بني أسد لحجر بن الحارث الكندي آخر ملوك كندة من أسرة آكل المرار، فكان الاسديون بهذا الشرارة الأولى لثورة عرب الشمال على سلطة عرب الجنوب عليهم، وليس أدل على قوة هذه القبيلة ومنعتها من تهديدها لحاضرة الدعوة الإسلامية، وهي المدينة المنورة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها، الأمر الذي أدى إلى توجيه السرايا لتأديب هذه القبيلة الكبيرة متعددة الأفخاذ والبطون.

ولما كانت حياة الشعراء مرتبطة بقبائلهم إلى حد بعيد كان من الضروري أن تبدأ دراستنا هذه بإلقاء نظرة على حياة هذه القبائل الأسدية في الجاهلية لنتمكن من تكوين فكرة عن هذه القبائل، والعشائر والبطون، ولنقف على المؤشرات التي داخلت حياة هؤلاء الأسديين سواء أكان ذلك من خارج شبه الجزيرة أم من داخلها، ولنحدد مكان كل شاعر من شعرائها الذين وصلت إلينا أشعارهم فكان الباب الأول من هذه الدراسة منصباً على تاريخ هذه القبائل الأسدية منذ القرن الرابع الميلادي، وقد خصص هذا الباب الذي يتكون من فصلين اثنين: الأول منهما تحدثت فيه عن علاقة هذه القبيلة بمن جاورها من القبائل العربية، والإمارات العربية التي قامت على أطراف شبه الجزيرة كأمارة الحيرة، وإمارة الغساسنة في جنوب الشام، وإمارة كندة في

وسط شبه الجزيرة العربية، وتناولت حياة هذه القبيلة سياسياً ودينياً واجتماعياً، بشيء من الإيجاز للوقوف على أوجه النشاط لأفرادها، كما أشرت في هذا الفصل إلى حروب هذه القبيلة، وأيامها، وتحالفاتها مع غيرها من القبائل، وكان الفصل الثاني من هذه الدراسة مختصاً بالحديث عن مصادر شعر هذه القبيلة، وقد راعيت في أثناء حديثي عن مصادر شعر الأسديين الترتيب الزمني لهذه المصادر التي أوردت بعضاً من أشعارهم وأخبارهم.

وقد وقفت في هذا الفصل عند قضية الانتحال والشك في بعض الشعراء الاسديين، وحاولت قدر جهدي أن أتحرى الحقيقة في هذه القضية التي تحدث فيها غير واحد من الأدباء، والنقاد، قديماً وحديثاً.

وأما الباب الثاني: فقد جعلته يدور حول شعراء بني أسد الجاهليين متخذاً في ذلك منهجاً في دراسة أشعارهم يقوم على اعتبار أن القبيلة هي المحور الذي كان يدور الشعراء حوله، فتناولت في الفصل الأول من هذا الباب شعراء بني أسد الأحرار الصرحاء من أبنائهم كعبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي خازم، والجميح وحاجب بن حبيب، والكميت بن معروف، وغيرهم من المقلين والمغمورين من أبناء هذه القبيلة، وحاولت أن أستخلص بعض سمات تربط بين هؤلاء الشعراء الاسديين مبيناً ما لكل شاعر منهم من خصوصية في المعالجة الشعرية، وفي النظرة إلى القضايا القبلية والشخصية، التي كانت تعترض حياة الشاعر الأسدي.

وخصصت الفصل الثاني من هذا الباب لدراسة شعر الموالي من بني أسد، وقد استأثر سحيم عبد بني الحسحاس بهذا الفصل كله بوصفه الشاعر المولى الوحيد في هذه القبيلة ممن وصلت إلينا أشعارهم، وقد بذلت ما يمكنني بذله لإلقاء الضوء على هذه الشخصية الشاعرة، وحاولت الإحاطة بمجمل الظروف التي اكتنفت حياة هذا الشاعر مما أدى إلى تميزه في شعره عن غيره من شعراء قبيلته.

وقد قدر للباب الثالث من هذه الدراسة أن يتجه إلى النتاج الشعري لشعراء بني أسد، وقد رأيت أن أقسمه إلى فصلين اثنين: عالج الفصل الأول منهما 'الشعر القبلي' وهو ما صدر عن وجدان قبلي من الشاعر، وارتباط بالجماعة وأعرافها، وتقاليدها المتعارف عليها، ثم تحدثت في الفصل الثاني من هذا الباب عن 'الشعر الفردي' وهو ما صدر عن هؤلاء الشعراء بوجدان فردي عبَّروا من خلاله بوصفهم شعراء يعيشون ضمن إطار القبيلة العام.

وكان لابد لي من الوقوف على خصائص هذا الشعر من حيث موضوعاته، ووسائل الأداء الفني فيه، ونهج القصيدة عند هؤلاء الشعراء، مبيناً ما وسعني الجهد ما تفردوا به عن غيرهم، وما شاركوا به الشعراء الجاهليين عموماً.

وأما الباب الرابع والأخير من هذه الدراسة، فقد كان دراسة فنية لذلك الكم الشعري الذي تناولناه بالتحليل في الأبواب الثلاثة السابقة، ويقع في فصلين الأول منهما يبحث في بناء القصيدة وموسيقاها عند هؤلاء الشعراء من بناء، وموضوع، ووسائل أداء، وقد حاولت توضيح ما التقى فيه شعراء هذه القبيلة في هذا الصدد، وما انفرد به بعضهم، وقد بدا لي أن الشعراء الأسديين كانوا يميلون إلى القصائد القصيرة كما أن بعضهم كان كثير الاضطراب في أوزانه الشعرية.

وكان الفصل الأخير من هذه الدراسة متجهاً إلى دراسة الصورة الفنية عند شعراء هذه القبيلة، وقد تناولت فيه نماذج من تصويرهم الشعري لأبرز المظاهر البيئية وغيرها، وحاولت جهدي أن أكشف عن دلالات هذه الصور الفنية، وأن أقف على بعض أبعادها التي ربما قصدوا إليها من تصويرهم هذا، مبيناً السُبل التي لجأ إليها هؤلاء الشعراء في أثناء إبداعهم لتلك الصور، مما يكشف لنا عن رؤية الشاعر، ومواقفه إزاء بعض الظواهر، والصراعات، التي كانت تحفل بها البيئة الجاهلية، ويتعرض لها الإنسان الجاهلي في كل يوم من أيام حياته.

وقد رأيت أن ألحق بهذه الدراسة شعر نخبة من شعراء بني أسد الجاهليين، والمخضرمين، ممن ليست لهم دواوين شعرية، وممن لم تجمع أشعارهم من قبل، فجاء هذا الملحق شاملاً لأكثر من ثلاثين شاعراً وشاعرة من هذه القبيلة العربية، وقد جمعت فيه لكل شاعر ما استطعت من شعره مما جاء في المصادر القديمة.

وأخيراً لا بد لي من رد الفضل إلى أهله، وإرجاعه إلى ذويه في إخراج هذه الدراسة إلى النور، فأتوجه بالشكر الجزيل والتقدير، والعرفان لأستاذي الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة حفظه الله على ما بذل من جهد، ونصح، وإرشاد لي حين كانت تعثر بي خطواتي، كما أتوجه بالشكر الجزيل، والتقدير، والاحترام، للأستاذين الجليلين الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد، والأستاذ الدكتور سعيد حسين منصور على تفضلهما علي بمناقشة هذه الرسالة، والإفادة من علمهما الغزير.

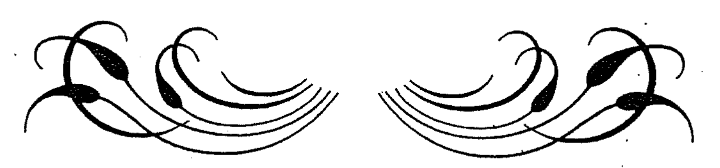
وحسبي أنني بذلت قصارى جهدي في هذا البحث للوصول إلى جادة الصواب، وعلى أية حال، فان هذا البحث يعد خطوة في تتبع مسار هذه القبيلة الكبيرة التي يصعب على الباحث أن يحيط بحركتها الواسعة في ذلك العصر البعيد، وفوق كل ذي علم عليم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

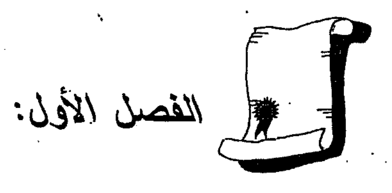


# الباب الأول

# بَنُو أَسَدٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . الْمَوْطِنُ وَالْبِيئَةُ وَالْقَبِيلَةُ



## في هذا الباب:



الفصل الأول:

الْقَبِيلَةُ وَالْمَوْطِنُ وَطَبِيعَةُ الْحَيَاةُ



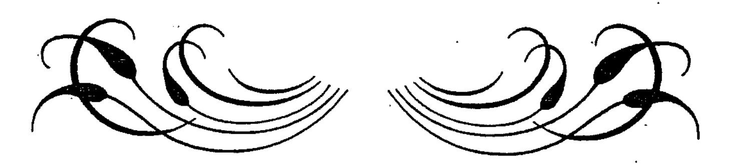
الفصل الثاني:

مَصَادِرُ شِعْرِ بَنِي أَسَدٍ



# الفصل الأول

# القبيلة والموطن وطبيعة الحياة



## في هذا الفصل:

بنو أسد في الجاهلية

أنساب القبيلة

مواطن بني أسد الأساسية

علاقة بني أسد بالمناذرة والغساسنة

حياة بني أسد الاجتماعية

الحياة الدينية والعقلية للقبيلة

# بنو أسد في الجاهلية:

لعل أول ما يصادف المتتبع تاريخ قبيلة بني أسد بن خزيمة في العصر الجاهلي ذلك النقش الذي اكتشف في أوائل هذا القرن في قرية النمارة بمحافظة السويداء في سوريا، حيث تم اكتشافه عام ١٩٠٥ ميلادية.

ويرجع تاريخ هذا النقش إلى القرن الرابع الميلادي "٣٢٨م"، وقد وجد على قبر ملك من ملوك الحيرة يدعى امرأ القيس بن عمرو، ويذكر النقش أن هذا الملك قد امتد سلطانه على العرب كلهم، وملك قبيلتي أسد ونزار وملوكهم، وشتت مذحجا بالقوة[١].

ويميل الدكتور شوقي ضيف إلى أن هذا النص له دلالة سياسية، وهي محاولة إيجاد وحدة سياسية للعرب الشماليين بعد أن دمر الرومان دولتيهم في البتراء وتدمر[٢].

أما عن قبيلتي أسد، فالمظنون أنه قصد بهما بطنين كبيرين من قبيلة أسد بن خزيمة كان لهما - فيما يبدو - السيطرة على باقي البطون من هذه القبيلة، والمرجح أن أحد هذين الفرعين هم بنو دودان بن أسد، ففيهم كان البيت والعدد، كما أورد ابن حزم[٣] وقد تحدث النويري في نهاية الأدب عن بني دودان، فعدد خمس قبائل جميعها ينحدر من دودان ابن أسد[٤] ولعل هذا الفرع من أسد كان عماد القبيلة في مواجهة أعدائها، وطبيعي أن هزيمتهم تعني هزيمة بني أسد كلهم، ويبدو أن نفوذ بني دودان بن أسد قد امتد حتى القرن الخامس الميلادي، فان صح ما نقول: أدركنا لماذا صب امرؤ القيس بن حجر الكندي غضبه على هذا الفرع من بني أسد حين قتلوا أباه حجر بن الحارث في قوله:

قُولُوا لِدودَانَ عَبِيْدِ العَصَا ... مَا غَرَّكُمْ بالأَسَدِ الباسِلِ[٥]

وتشير الروايات إلى أن الذي قتل أباه أو المتسبب في قتله هو علباء بن حارثة بن هلال، وهو - كما أوضحت سابقاً - من عشيرة كاهل بن أسد وليس من عشيرة دودان بن أسد[٦].

وقصارى القول: أن بني أسد بن خزيمة كانوا في أوائل القرن الرابع الميلادي ينضوون تحت لواء ملك من ملوك لخم الذين حكموا الحيرة في ذلك الزمان، وأن هذا الملك قد ملك العرب كلها، وهو ابن عمرو بن عدي الذي ورث الملك عن جذيمة الأبرش صاحب الزباء المشهور، غير أن علاقة بني

---

١- انظر دائرة المعارف الإسلامية الجزء الثالث ص ٢٨١ الترجمة العربية، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي طبع بغداد الجزء الثاني ص ٢٣٨، وانظر تاريخ جرجي زيدان طبع دار الهلال ص ٢١٩ وما بعدها.

٢- انظر العصر الجاهلي لشوقي ضيف طبع دار المعارف ص ٣٦ - ٣٧.

٣- انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم طبع دار المعارف ص ١٩٤.

٤- انظر نهاية الأرب الجزء الثاني نسب بني أسد.

٥- انظر ديوان امرئ القيس طبع دار المعارف ص ١١٩.

٦- انظر مخطط النسب في هذا البحث.

أسد بملوك لخم بعد امرئ القيس بن عمرو يكتنفها الغموض، والباحث فيها لا يظفر بطائل، وإنما تبدو في قليل من الوضوح في عهد المنذر بن ماء السماء، ذلك الذي بدأ نفوذه يتعاظم على قبائل عرب الشمال بعد زوال ملوك كندة الذين تشير الروايات إلى أن القبائل النزارية تفاسد أمرها، وغلب عليها السفهاء والأقوياء في عهد الحارث بن عمرو بن حجر بن آكل المرار الذي كان ملكاً على الحيرة من قبل قباذ بن فيروز ملك الفرس، وتقول هذه الروايات أن أشراف هذه القبائل وأهل العتب فيها لجئوا إلى الحارث بن عمرو، وشكوا إليه سوء أحوالهم، ورجوه أن يملّك أبناءه عليهم حقنا للدماء، فأجابهم الحارث إلى ذلك(١).

وعلى الرغم من أن هذه الروايات قد شابها شيء من الخلط في تحديد القبائل التي ملّك عليها الحارث أبناءه، وكذلك في تحديد أسماء هؤلاء الأبناء، وعددهم إلا أنها أجمعت على أن حجر بن الحارث قد ملك على بني أسد، وأنه كان يأخذ منهم إتاوة كل عام، ولكن بني أسد وهم قبيلة جبلت على حب التمرد والثورة على النحو الذي سنراه فيما بعد ـ قد تمردوا على دفع الإتاوة، وثاروا على رسل الملك حجر الذين أرسلهم لجبايتها، وضربوهم حتى ضرجوهم بدمائهم، وكان حجر يوم ذاك في تهامة، فلما سمع بهم جمع لهم الجند من ربيعة وقيس وكنانة، وسار إليهم، ولم يستطع بنو أسد أن يجابهوا هذه الجموع لا عن ضعف أو قلة في العدد ـ كما قال الدكتور عزة حسن في مقدمته لديوان بشر بن أبي خازم(٢) ـ وإنما لأن حجراً كانت له قوة عظمى لا يقدرون عليها، فلقد كان أبوه ملكاً على الحيرة من قبل ملوك الفرس، وكان أخوته ملوكاً على سائر القبائل النزارية، من هنا كانت النصرة لحجر عليهم حيث أخذ أشرافهم وقتلهم بالعصا، وأباح أموالهم ونفاهم إلى تهامة، وآلى على نفسه ألا يساكنوه في أرض قط، وحبس جماعة من سادتهم غير أن عبيد بن الأبرص الذي كان نديماً له استعطفه بقصيدة جاء فيها:

يا عينُ فابكي ما بني أَسَدٍ فَهُمْ ... أَهْلُ النَّدامَهْ

أَهْلُ القِبابِ الحُمْرِ والنَّعَمِ ... المُؤَبَّلِ والمُدامَهْ

خَلاًّ أَبَيْتَ اللَّعْنَ خَلاًّ ... إنَّ فيما قُلْتَ آمَهْ

في كُلِّ وادٍ بينَ يَثْرِبَ فالقُصُوْرِ ... إلى اليَمامَهْ

تَطْرِيبُ عانٍ أوْ صِياحُ مُحَرَّقٍ ... أوْ صَوْتُ هامَهْ

وَمَنَعْتَهُمْ جَدّاً فَقَدْ خَلّوا ... عَلَى وَجَلٍ تِهامَهْ

إمَّا تَرَكْتَ تَرَكْتَ عَفْواً ... أوْ قَتَلْتَ فلا مَلامَهْ

أَنْتَ المَلِيكُ عَلَيْهِمُ وَهُمُ ... العَبِيدُ إلى القِيامَهْ

ذَلّوا لِسَوْطِكَ مِثْلَما ... ذَلَّ الأُشَيْقِرُ ذو الخِزامَهْ(٣)

ونستنتج من قول عبيد أن قومه كانوا سادة وأهل قباب ونعم كثيرة، وأنهم كانوا منتشرين من

---

١ـ انظر إلى تلك الروايات ومعجم البلدان لياقوت الحموي ـ الجزء الثالث ص ٤٢٨، والكامل لابن الأثير طبع المطبعة الأزهرية الجزء الأول ص ٢٣١ وتاريخ ابن خلدون طبع نهضة مصر الجزء الثاني ص ٥٠ وما بعدها.

٢ـ انظر مقدمة ديوان بشر بن أبي خازم تحقيق الدكتور عزة حسن طبع دمشق ١٩٧٢، الطبعة الثانية ص ٢٤.

٣ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

يثرب والقصور إلى اليمامة - ولعل عبيداً يزيد بها قصور الحيرة - وقوم هذا شأنهم لا يوصفون بالضعف ولا بالقلة، بل الأمر على خلاف ذلك، إذ كان إحساسهم بالقوة والكثرة هو الذي دفعهم إلى الثورة على حجر وإبائهم دفع الإتاوة إليه وتجرئهم على رسله بالضرب. ولكن هذه الثورة لم يكن وقتها قد حان فقد كانت مبكرة، حيث كانت أسرة آكل المرار تبسط نفوذها وسطوتها على سائر قبائل نزار ويؤيدهم في ذلك ملك الفرس قباذ بن فيروز.

وسرعان ما تبدل الأمر في شبه الجزيرة العربية عقب ثورة بني أسد، فقد هلك قباذ ملك فارس الذي كان قد طرد المنذر بن ماء السماء عن حكم الحيرة وولى مكانه الحارث بن عمرو، وخلفه في الحكم ابنه أنو شروان الذي تقول الروايات أنه كان على خلاف مع أبيه، في اعتناقه الزندقة وتوليته الحارث بن عمرو على الحيرة، فلما اعتلى عرش فارس صلب فردك منشئ هذا الدين وقتل الآلاف من أتباعه وخلع الحارث بن عمرو عن ملك الحيرة وولى مكانه المنذر بن ماء السماء، وكان في هذا كله بداية لزوال سلطة أسرة آكل المرار من الحيرة إذ ظل الحارث مطارداً من قبل المنذر حتى قتل أو مات كما يروى[1].

وحين مات الحارث بن عمرو ضعف أمر أبنائه الذين ملكهم على القبائل النزارية، وممن ثم أصبحت الفرصة مهيأة لبني أسد كي يثوروا على حجر ثورتهم الثانية، وربما كان للمنذر يد في إذكاء نار هذه الثورة وهذا الأمر غير مستبعد من المنذر العدو اللدود لأسرة آكل المرار. وقد اختلفت الروايات في وصف هذه الثورة على أنها جميعها تؤكد مقتل حجر على يد بني أسد وانتهاء ملكه عليهم[2].

وتقول الروايات: أن امرأ القيس بن حجر حاول أن يثأر لأبيه، وأن يستعيد هذا الملك الضائع، ولكن الظروف كلها لم تكن لتسعفه على ذلك، فقد وقفت بنو أسد وقفة صلبة في وجهه، وكان المنذر يعمل على تقليص نفوذه من شبه الجزيرة، ونفوذ أسرته بشتى السبل، فقامت فتنة يوم الكلاب الأول بين أخوة حجر شرحبيل وسلمة "أعمام امرئ القيس" حيث قتل سلمة أخاه شرحبيل، وأزال ملكه، وثارت بقية القبائل الأخرى على أعمامه، ولم يسلم منهم سوى سلمة بن الحارث الذي هزمته نزار يوم خزازى على يدي كليب وائل - كما يقول ياقوت في معجم البلدان[3].

كل هذا لم يكن لصالح امرئ القيس طالب الثأر، ولم يمكنه من النيل من بني أسد، وإرجاع ملك أبيه على الرغم من المواقع التي دارت بينه وبينهم، ثم انتهى به الأمر - أخيراً - إلى الذهاب إلى قيصر الروم يطلب معونته على الثأر لأبيه، وإرجاع ملكه يقول:

هُوَ الْمُنْزِلُ الأُلاَّفُ مِنْ جَوِّ نَاعِطٍ ... بَنِي أَسَدٍ حَزْناً مِنَ الأَرْضِ أَوْعَرَا
وَلَوْ شَاءَ كَانَ الغَزْوُ مِنْ أَرْضِ حِمْيَرٍ ... وَلَكِنَّهُ عَمْداً إلى الرُّومِ أَنْفَرَا
بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ ... وَأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا ... نُحَاوِلُ مُلْكاً أو نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[4]

---

١- انظر الأغاني لأبي الفرج - طبع دار الكتب - الجزء التاسع ص ٧٩ وما بعدها.

٢- انظر المصدر السابق وجميع المصادر التي أشرت إليها من قبل والتي تناولت قصة حجر مع بني أسد.

٣- انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ص ٤٢٨.

٤- انظر ديوان امرئ القيس طبع دار المعارف ص ٦٥ - ٦٦.

وتشير الروايات إلى أن قيصر الروم قد استجاب له في بادئ الأمر، ولكن بني أسد تمكنوا من إفساد مسعاه في بلاد القيصر، ومن الكيد به هناك، وقد تم ذلك على يدي الطماح بن قيس والد الشاعر الجميح، وكانت عاقبة ذلك أن مات في الطريق قرب أنقرة[1] وقد ذكره امرؤ القيس حين قال:

لَقَدْ طَمِحَ الطَّمَّاحُ مِنْ بُعْدِ أَرْضِهِ لِيُلْبِسَنِيْ مِنْ دَائِهِ مَا تَلَبَّسَا[2]

وبموته انتهى أمر بني أسد مع أسرة آكل المرار، تلك الأسرة التي خلفت علاقتها مع بني أسد لنا ديوان عبيد بن الأبرص وديوان بشر بن أبي خازم، ففي ديوان الأول ما يدل وما يشير بكل وضوح على علاقة عبيد بحجر وعلى اتخاذ الأخير لعبيد نديماً له.

كما نجد قصيدة أخرى يمدح فيها عبيد شراحيل بن الحارث بن عمرو الذي ملكه أبوه على بني عامر فقتلته. يقول عبيد:

وَإِلى شُراحِيْلَ الهُمَامِ بِنَصْرِهِ نَصْرُ الأَشَاءِ سَرِيَّهُ مُسْتَرْغَدُ
مَنْ سَيْبُهُ سَحُّ الفُراتِ وَحَمْلُهُ مُزْنُ الجِبَالِ وَنَيْلُهُ لا يَنْفَدُ[3]

ونجد قصيدة ثالثة يمدح فيها أبا كرب عمرو بن الحارث، الذي كان ملكاً على بكر بن وائل بن ربيعة حيث يقول:

أَبْلِغْ أَبَا كَرِبٍ عَنِّي وَأُسْرَتَهُ قَوْلاً سَيَذْهَبُ غَوْراً بَعْدَ إِنْجَادِ
يا عمرو ما رَاحَ مِنْ قَوْمٍ وَلاَ ابْتَكَرُوا إِلاّ وَلِلْمَوْتِ فِي آثارِهِمْ حَادِي[4]

وفي ديوانه قصائد ومقطوعات مختلفة يسخر فيها من امرئ القيس حين أراد أن يثأر لأبيه منهم، ويعيد ملكه (انظر الديوان ص ٤٤ - ٦٨ - ١٠٠ - ١٢٩ - ١٤١)

أما بشر بن أبي خازم فإننا نجد في ديوانه قصيدة واحدة يمدح فيها عمرو بن الحارث المعروف بابن أم اياس، وهي القصيدة البائية التي يقول في مطلعها:

أَطْلاَلُ مَيَّةَ بِالتِلاعِ فَمِثْقَبِ أَضْحَتْ خَلاَءً كَاطِّرَادِ المُذْهَبِ[5]

والمرجح عندي أن قصائد المديح التي قالها كل من الشاعرين إنما كانت بدون شك قبل أن تسوء العلاقة بين بني أسد وأسرة آكل المرار، وثورة بني أسد على حجر ومقتله على أيديهم.

---

١- انظر الكامل لابن الأثير المطبعة المنيرية بمصر الجزء الأول ص ٣٠٩.
٢- انظر ديوان امرئ القيس طبع دار المعارف ص ١٠٨.
٣- انظر ديوان عبيد بن الأبرص - تحقيق الدكتور حسين نصار ص ٤٢ - ٣، وانظر طبعة دار صادر ص ٥٩ - ٦٠.
٤- انظر المصدر السابق - تحقيق الدكتور حسين نصار ص ٤٨.
٥- انظر ديوان بشر بن أبي خازم تحقيق الدكتور عزة حسن الطبعة الثانية دمشق ١٩٧٢ ص ٣٣.

## أنساب القبيلة:

من المعروف أن قبيلة بني أسد بن خزيمة تعود في نسبها إلى العرب الشماليين (العدنانيين) فهي ترجع إلى أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان[١]. وتعد هذه القبيلة من أكبر القبائل العربية شأناً وأجلّها قدراً، وقد لعبت دوراً مهماً في إذكاء نار الثورة بين عرب الشمال وعرب الجنوب، فمقتل حجر بن الحارث على يد أحد أبنائها كان الشرارة التي أشعلت نيران الحرب بين العدنانيين واليمنيين، وكانت بداية النهاية لسلطة عرب الجنوب على عرب الشمال.

وقد تفرع عن أسد بن خزيمة حسب رواية صاحب العقد الفريد: دودان بن أسد، ومنهم كاهل بن عمرو بن صعب، وحلمة فأما بنو حلمة فتقول الرواية أن امرأ القيس أفناهم بأبيه. ومنهم غنم بن دودان وثعلبة بن دودان، ومنهم بنو الصيداء بن عمرو بن قعين، ومنهم حجوان أو جحوان ومنهم بنو فقعس، وبنو الصيداء، ومنهم بنو غاضرة، ومنهم القارة أرمى حي في العرب وقد قيل: أنصف القارة من راماها[٢].

ويذكر ابن حزم في جمهرته ـ عن ابن الكلبي خمسة أولاد لأسد بن خزيمة هم: دودان بن أسد، وكاهل بن أسد، وعمرو بن أسد، وصعب بن أسد، وحلمة بن أسد، ويكون كل واحد من هؤلاء عشيرة[٣] فأما بنو حلمة فلم يذكر لهم شأن ويبدو أنهم كانوا قليلي العدد، ومن عشيرة صعب بن أسد تفرع بنو النعامة (بنو جعدة) وكذلك بنو البجير. أما عشيرة عمرو بن أسد فقد تفرع عنها بنو القليب، وبنو معرض، ومنهم الشاعر المشهور الأقيشر، أما بنو القليب فمنهم أيمن بن حزيم، وقد عدَّ صاحب العقد هذا الشاعر بالإضافة إلى الأقيشر أنهما ينحدران من بني غنم بن دودان وهذا مخالف لما ذكره صاحب معجم الشعراء أيضاً، ومخالف لما جاء في الأغاني عن نسب الأقيشر، والى بني الهالك ومنهم سماك بن خزمة الذي بنى مسجداً في الكوفة يعرف به[٤].

وأما عشيرة كاهل بن أسد فعنها تفرع بنو مازن بن كاهل، ومنهم علباء بن حارثة بن هلال قاتل حجر بن الحارث والد امرئ القيس الشاعر المشهور أو المحرض على قتله وفيه يقول امرؤ القيس:

وَأَفْلَتَهُنَّ عِلْبَاءٌ جَرِيضاً ... وَلَوْ أَدْرَكْتَهُ صَفِرَ الوِطَابِ[٥]

---

١ـ انظر العقد الفريد ـ تحقيق إبراهيم الأبياري ـ الطبعة الثالثة ١٩٧١ ـ الجزء الثالث ص ٤٠ ـ ٤٢ وص ٣٤٢.

٢ـ انظر المصدر السابق ص ٣٤٠ الجزء الثالث.

٣ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٠.

٤ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٠ وانظر العقد الفريد الجزء الثالث طبع دار النشر والتأليف ص ٣٤١ وانظر الأغاني طبع دار الكتب الجزء الحادي عشر ص ٢٥١.

٥ـ انظر العقد الفريد لابن عبد ربه الجزء الثالث ص ٣٤٢ ط. دار النشر والتأليف ـ وانظر البيت في ديوان امرئ القيس ص ٦٧ تأليف حسن الندوى الطبعة الثالثة ١٩٥٣.

وأما عشيرة دودان بن أسد فهي أكبر عشائر بني أسد وفيهم البيت والعدد حسب رواية ابن حزم[١] وقد تفرع عن بني دودان بطون وأفخاذ ترجع في الأصل إلى بني ثعلبة بن دودان وبني غنم بن دودان، فمن بني غنم تفرع بنو كبير ومنهم أبو أحمد بن جحش الشاعر. وبنو عامر وبنو مالك وهؤلاء يعدهم النويري وجوه بني أسد ويقول بأنهم قبيلة[٢]. وأما بنو ثعلبة بن دودان فقد تفرع عنهم بنو الحارث الحلاف بن سعد، ومنهم الشاعران عبيد بن الأبرص وعمرو بن شأس بن بلى[٣]. وتفرع أيضاً بنو مالك بن سعد بن ثعلبة، ومن هؤلاء الشاعر المتشيع الكميت بن زيد، ومن بني مالك بن ثعلبة تفرع بنو سعد بن مالك.

ومن هؤلاء عمرو بن مسعود الذي تذكر الروايات أن المنذر بن ماء السماء بنى عليه الغرى، ومنهم الشاعر "الأشعر الرقيان" وهؤلاء هم موالي الشاعر الأموي المخضرم الحسين بن مطير[٤]. ومن هؤلاء الشاعران الجاهليان مرة بن الرواع وأخوه كعب بن الرواع ويزعمون أن امرأ القيس بن حجر كان يعلم قيانه أشعار ابن الرواع[٥].

وتفرع بنو غاضرة فمنهم الشاعر الجاهلي قيس بن هلال وهو من الشعراء الفرسان ويقال أنه أغار على إبل للنعمان بن المنذر ملك الحيرة وأنشد:

إنِّــي امْــرُؤٌ جَــرَّ لِبَنِيَّــيْ أَمْكُــنٌ ... لَــمْ يَسْــتَطِعْ قَتْلِــى وَلاَ إِيثَــاقِي[٦]

ومنهم فضالة بن هند الذي تقول الروايات أنه قتل شريح بن الحصين النمري يوم الرثاء وأنشد:

يــا وَيْــحَ أُمِّ نُمَــيْرٍ بَعْــدَ فارِسَــهاْ ... إذ الفــوارِسُ تَحْمِــى عَــوْرَةَ الظُّعُــنِ[٧]

وتفرع كذلك بنو عمرو: ومن هؤلاء الحسحاس بن هند وهو ابن نفاثة بن سعد بن عمرو بن مالك بن ثعلبة بن دودان، ومن موالي هؤلاء الشاعر عبد بني الحسحاس سحيم[٨]. ومنهم بنو مالك بن مالك بن ثعلبة ويقال لهم "بنو الزنية" وقد سماهم رسول الله "ص" "بنو رشدة" ولكنهم رفضوا تغيير اسمهم، ومن هؤلاء الشاعر الجاهلي الإسلامي المخضرم "الحضرمي بن عامر" وهو من الشعراء الفرسان ويقال أنه كان في وفد بني أسد إلى المدينة المنورة، ومنهم كذلك "ضرار بن الأزور"[٩] أما الحارث بن ثعلبة فقد تفرع عنه والبة وسعد وقعين، وقد ذكر النويري أن بني سعد "قبيلة" وذكر ابن

---

١ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٠.

٢ـ انظر نهاية الأرب طبع دار الكتب الجزء الثاني نسب بني أسد.

٣ـ انظر العقد الفريد لابن عبد ربه الجزء الثالث ص ٣٤١، وانظر المؤتلف والمختلف ص ٥٠ وانظر ترجمة عمرو بن شأس في الأغاني طبع دار الكتب الجزء الحادي عشر ص ١٩٦.

٤ـ انظر مقدمة ديوان الحسين بن مطير تحقيق الدكتور محسن فياض طبع بغداد.

٥ـ انظر معجم الشعراء ص ٢٩٤ ـ وانظر المؤتلف والمختلف ص ١٢٧.

٦ـ انظر معجم الشعراء ص ٢٩٤ ـ وانظر المؤتلف والمختلف ص ١٢٧.

٧ـ انظر معجم الشعراء ص ٢٠٣ وص ١٧٦.

٨ـ انظر خزانة الأدب للبغدادي ـ الجزء الأول ـ ص ١٧٢ ـ وانظر ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ـ تحقيق عبد العزيز الميمني.

٩ـ انظر المؤتلف والمختلف ص ٨٤ ـ وانظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٠ ـ ١٩٣.

"قبيلة" وذكر ابن حزم أنه كان فيهم عدد من الشعراء لكنه لم يحدد لنا أسماءهم[١].

أما بنو والبة فيذكر ابن حزم أنهم أبلوا بلاءً حسناً في القادسية وكان منهم شعراء كثيرون منهم بشر بن أبي خازم الشاعر المشهور وقد بن مالك بن حبيب الذي ذكره النابغة الذبياني:

وَلِرَهْطِ حَرَّابٍ وَقَدٌ سَوْرَةٌ ... في المَجْدِ لَيْسَ غُرابُها بِمَطَارِ

ومنهم جمل والأختم وزياد، ومالك بن حجوان الشاعر الجاهلي، وثوب بن تلدة أحد المعمرين في الجاهلية ثم أدرك الإسلام وعاصر معاوية بن أبي سفيان[٢].

وأما بنو قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان فهم أكثر بني الحارث ويعدهم النويري "قبيلة"[٣] وعنهم تفرع بنو عمرو بن قعين وبنو نصر بن قعين وبنو كلفة بن قعين وهؤلاء لم يرد لهم ذكر في كتب الأنساب ـ ويبدو أنهم كانوا قلة ـ فأما بنو عمرو بن قعين فقد تفرعوا إلى طريف والصيداء وكعب الذي يقول عنه ابن حزم أن له بقية[٤] وعدَّ النويري أبناءه "قبيلة"[٥] ولبني الصيداء بن عمرو بن قعين بطون كثيرة ومنهم الحارث ابن ورقاء الذي مدحه زهير بن أبي سلمى، والصامت بن الأفقم قاتل ربيعة بن مالك والد الشاعر المعروف لبيد بن ربيعة صاحب إحدى المعلقات[٦] وأما بنو نصر بن قعين فقد تفرعت عنهم بطون كثيرة منهم عامر بن عبد الله بن طريف صاحب لواء بني أسد في الجاهلية، ومنهم ذؤاب بن ربيعة قاتل عتيبة بن الحارث بن شهاب فارس بني تميم في الجاهلية وربيعة بن عبيدة الذي رثا ابنه ذؤابا عندما قتله الربيع بن عتيبة بن شهاب بأبيه، ومنهم العلاء بن منظور الذي ولي شرطة الكوفة[٧].

كما تفرع عن بني عمرو بن قعين بنو الصيداء وبنو الصيداء هم الذين عناهم زيد الخيل بقوله:

يَا بَنِي الصَّيْدَاءِ رُدُّوا فَرَسِي ... إنَّمَا يُصْنَعُ هذا بالذَّلِيلِ

أَحْمِلُ الـزِقَ علـى مِسْحَبِهِ ... فَيَظَلُّ الضيفُ نَشْواناً يَمِيلُ[٨]

وأما طريف بن عمرو بن قعين فقد تفرع عنه بنو فقعس وبنو منقذ وبنو أعيا وبنو قيس، وهؤلاء يعتبرون قبيلة، ومنهم الطماح بن قيس الذي كاد لامرئ القيس عند قيصر الروم وهو أبو الشاعر الجميح منقذ بن الطماح الذي اختار له المفضل الضبي شعراً في مفضلياته وقد ذكره امرؤ القيس وقال فيه:

---

١ـ انظر نهاية الأرب للنويري نسب بني أسد ـ وانظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٤.

٢ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٢، وانظر معجم الشعراء الصفحات ٢٢٤ و ٢٥٨، وانظر المؤتلف والمختلف ص ٦٩.

٣ـ انظر نهاية الأرب للنويري الجزء الثاني نسب بني أسد.

٤ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٤.

٥ـ انظر نهاية الأرب للنويري الجزء الثاني نسب بني أسد.

٦ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٤.

٧ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٤، وانظر المؤتلف والمختلف ص ١٢٥، وانظر حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ـ الجزء الثاني ص ٨٤٣.

٨ـ انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ص ٣٤١ الجزء الثالث، وانظر سمط الآلي تحقيق عبد العزيز الميمني الجزء الأول ص٥٩.

لَقَدْ طَمِحَ الطَّمَّاحُ مِنْ بُعْدِ أَرْضِهِ ... لِيُلْبِسَنِي مِنْ دَائِهِ مَا تَلَبَّسَا[١]

وأما بنو منقذ بن طريف فمنهم شعراء كثيرون من أشهرهم حاجب بن حبيب الذي روى له المفضل الضبي قصيدتين وهو شاعر جاهلي[٢] ومنهم قيس بن بجرة ومطير بن الأشيم وكلاهما جاهلي، وقيس هذا هو أعشى بني أسد، ومن أشهر شعرائهم في الإسلام عبد الله بن الزبير الأسدي[٣].

وعن بني فقعس تفرع حجوات ودثار الذي قال عنه أمرؤ القيس:

كَأَنَّ دِثَاراً حَلَّقَتْ بِلَبُونِهِ ... عُقَابُ تنوفى لا عقاب القواقل[٤]

وعن حجوات تفرع كثير من الرجال المشهورين والذين لعبوا دوراً في حياة القبيلة سواء أكان ذلك في الجاهلية أم في الإسلام. فمنهم خالد بن نضلة سيد بني أسد في الجاهلية، وطليحة بن خويلد مدعي النبوة في خلافة أبي بكر الصديق، وربيعة قاتل صخر بن عمرو بن الشريد أخي الشاعرة المشهورة الخنساء بنت عمرو بن الشريد[٥].

ومن شعرائهم الكميت بن ثعلبة والكميت بن معروف الذي ذكره ابن سلام بقوله: أنه أشعر الكمت قريحة[٦]. ومنهم كليب بن نوفل ومقلس بن لقيط بن حبيب وكلاهما جاهلي[٧] ومنهم أبو المهوش الشاعر الهجّاء المشهور في بني تميم[٨] وهناك بعض الشعراء الآخرين الذين ينسبون إلى فقعس ومن هؤلاء عمرو بن مرتد وعمرو بن مسعود وكلاهما جاهلي[٩]. ويذكر ابن حزم أن فيهم شعراء كثيرين[١٠].

ونستطيع القول بعد أن وقفنا على تاريخ وأنساب هذه القبيلة أن قبيلة بني أسد ابن خزيمة، تعد من القبائل العربية الشمالية عظيمة الشأن ينتهي نسبها إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وقد حظيت هذه القبيلة - شأنها شأن غيرها من القبائل الكبيرة ـ باهتمام علماء الأنساب والإخباريين والرواة، فأفاضوا في ذكرها وفي تفصيل أنسابها وفي تتبع مواطنها ومنازلها في العصرين الجاهلي والإسلامي، وهي قبيلة ذات بطون كثيرة ـ فعلى الرغم من ذلك ـ فان الباحث لا يستطيع أن يستجلي الصورة الواضحة لأنساب ومواطن هذه القبيلة، وقد حاولنا جاهدين الكشف عن تلك

---

١ـ انظر المفضليات طبع دار المعارف ص ٢٤ وما بعدها، وانظر ديوان امرئ القيس طبع دار المعارف بمصر ص ١٠٨.

٢ـ انظر المرجع السابق "المفضليات" ص ٣٦٨.

٣ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٤ وانظر الأغاني طبع دار الكتب الجزء الرابع عشر ص ٢١٧، وانظر المزرباني ص ٢٠٣ وص ٤٣٩.

٤ـ انظر ديوان امرئ القيس، طبع دار المعارف ص ٩٤ وقد ورد البيت عند ابن حزم لاعقاب القواعل، والقواعل لا معنى لها إذ لم أجد معناها في المعاجم.

٥ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٤.

٦ـ انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام طبع المدني تحقيق شاكر ص ١٩٥.

٧ـ انظر المرزباني في معجم الشعراء ص ٣٣٧ وانظر الحماسة لأبي تمام بشرح المرزوقي الجزء الثالث ١١١٩.

٨ـ انظر خزانة الأدب للبغدادي الجزء الثالث ص ٨٥.

٩ـ انظر المرزباني ص ٢٧ ـ ٢٨.

١٠ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٤.

الأنساب والمواقع التي سكنوها، آخذين بعين الاعتبار ما يجب على الباحث من حرص ودقة في تتبع الأخبار مقارنين بينها ملتزمين جانب الحيطة والحذر[١].

لقد توفر لبني أسد بن خزيمة العديد من الأسباب القوية التي أدت إلى ذيوع صيت هذه القبيلة وبالتالي إلى تمسك أفرادها بأنسابهم والى المحافظة على وشائج القربى فيما بينهم. فأنسابهم ترفعهم إلى جد كريم المحتد وهو أسد بن خزيمة، وحياتهم البدوية غير المستقرة روضتهم على تحمل كل صعب، ونحن نوافق ابن خلدون على رأيه حين قال: إن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر ومن في معناهم وذلك لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن فلا ينزع إليهم أحد من الأمم يأنس بهم ويعيش معهم ـ فيؤمن عليه من أجل ذلك ـ من اختلاط أنسابهم وفسادها ولا تزال محفوظة صريحة[٢].

وقد كان لحياة بني أسد البدوية أثر كبير في تمسكهم بأنسابهم وحفاظهم عليها من الاختلاط، كما كان لهذه الحياة البدوية أثر آخر هو شدة التحامهم في مواجهة ظروف الحياة ومقارعة الغازين والطامعين.

وتاريخ بني أسد حافل بالحروب والغزوات سواء أكان ذلك في الجاهلية أم في الإسلام، فقد حارب رجالها في الجاهلية كثيراً من القبائل الأخرى - ومن هذه القبائل ـ كما سنرى في الفصول التالية ـ الغساسنة - وبنو عبس - وبنو عامر بن صعصعة وكندة وطيء وجسم بن معاوية وتميم وغيرها من القبائل، فلا عجب بعد ذلك أن نراها منتشرة على النحو الذي رأينا في مواطنها، وأن تحتل أخصب المراعي في منطقة القصيم ومنطقة حائل وتيماء.

يقول د. جواد علي: وتقع مواطن أسد الرئيسية في القرن السادس للميلاد في جنوبي جبلي أجأ وسلمى ويسميان اليوم "جبل شمر" على جانبي بطن الرمة، غير أن فروعها منتشرة وممتدة في مناطق واسعة من المدينة إلى نهر الفرات ولكنها لم تكن سيدة هذه الأرضين بل كانت تعيش مع هذه القبائل متفرقة وقد ذكرهم بطليموس في جغرافيته باسم: ASATYNOI الساكنة في أرض تسمى بهذا الإسم[٣] ونميل إلى الأخذ بصحة هذا الرأي، فقبيلة أسد كانت تسكن شمالي نجد وشرقه ـ كما رأينا ـ ونقش النمارة يثبت أنهم كانوا كذلك وقد ذكر غير شاعر من شعرائهم تيماء وغيرها على أنها من منازلهم[٤]. ونستنتج من كلام بطليموس عن بني أسد ـ الذين ذكرهم غير مرة وقال عنهم: أنهم كانوا يعيشون في بلاد العرب الوسطى إلى الغرب من أوانويتاي "أي تنوخ" وربما معها إلى خط الفرات قبل منتصف القرن الثالث الميلادي ـ أن هذه القبيلة قد تمتعت بشأن رفيع منذ القدم[٥]. مما

---

١ـ هناك من زاد بعض الفروع على بني أسد كابن حبيب الذي زاد بني حميس بن ناشرة ابن نصر بن سواءة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان وذكر أنهم لا يزيدون على اثني عشر رجلا ـ انظر المحبر ص ٢٥٦، واليعقوبي الذي زاد ابناً لأسد يدعى هنداً و لم يذكره أحد غيره من الرواة أو علماء الأنساب. انظر تاريخ اليعقوبي ص ١٨٩ ـ ١٩٠ وهناك أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد الذي يزيد أخا لأسد يدعى الهون ومن نسله كما يقول "بنو القارة" و لم أر من وافقه على ذلك. انظر العقد الفريد ص ٣٤١ الجزء الثالث.

٢ـ انظر مقدمة ابن خلدون ص ١٢٩، وهناك رأي آخر للدكتور عبد الجليل طاهر يوافق فيه رأي ابن خلدون في العصبية وذلك في كتاب "البدو والعشائر" في البلاد العربية ـ طبع الجامعة العربية معهد الدراسات العالية ١٩٥٥ صفحات من ١ ـ ٨.

٣ـ انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ـ الجزء الثالث ـ ص ٢٤٥.

٤ـ انظر هذا البحث ص ١٦ (مواطن بني أسد).

٥ـ انظر دائرة المعارف الإسلامية ص ٢٨٠ وانظر جغرافية بطليموس ص ٤٧٤ نقلا عن جواد علي ص ٢٤٥ ـ الجزء الثالث.

جعلها مهابة الجانب بين القبائل كافة.

وهكذا فإننا نستطيع أن نطمئن إلى أنساب قبيلة بني أسد بن خزيمة صحيحة وصريحة، وذلك لما قدمناه من أنها قبيلة متبدية كثيرة الأفخاذ والبطون عزيزة الجانب دائمة الحروب شهيرة الذكر، ولما كان لذلك كله من أثر في حرص أبنائها على حفظ أنسابهم والتمسك بها.



## مواطن بني أسد الأساسية:

من المعروف أن العرب البداة لم يكن لهم موطن ثابت أو مستقر دائم في الإقليم الذي يتخذونه موطناً لهم، فقد كانوا يتوخون في ترحالهم وتنقلهم وحربهم أو سلمهم شيئين: الماء والكلأ.

وقد تنتشر أفخاذ وبطون القبيلة الواحدة ـ أحياناً ـ بين أراضي أكثر من منطقة أو إقليم من أقاليم شبه الجزيرة الخمسة كما تقول الروايات[١].

ويبدو أن مواطن بني أسد بن خزيمة قبل الإسلام كانت في تهامة، ثم انتشروا بعد ذلك في نجد وعلى أطراف اليمامة. ذلك أن رواية البكري تفيد بهذا، يقول البكري :ولم يبق من ولد عدنان إلا ربيعة ومضر ومن كان معهم أو دخيلا فيهم أو مجاوراً لهم ثم كثروا وتضايقوا في منازلهم فانتشرت ربيعة في ذات عرق والعقيق وما والاها من بلاد نجد وتهامة معهم كندة يغزون معهم المغازي ويصيبون الغنائم ويتناولون أطراف الشام وناحية اليمن[٢].

ويضيف البكري في روايته فيقول: "فكانت لهذيل جبال من جبال السراة ولهم صدور أوديتها وشعابها الغربية، ومسايل تلك الشعاب والأودية على قبائل خزيمة بن مدركة في منازلها، ونزلت خزيمة بن مدركة أسفل من هذيل، واستطاعوا في تلك التهائم إلى أسياف البحر، فسالت عليهم الأودية التي هذيل في صدورها وأعاليها"[٣].

ويبدو أن البكري كان على صواب في هذا، فلو تأملنا أشعار هذه القبيلة جيداً لاتضح لنا صحة ذلك، يقول عبيد بن الأبرص مخاطباً حجر بن الحارث:

حَلَّا أَبَيْتَ اللَّعْنَ حَلّا ... إِنَّ فِيمَا قُلْتَ آمَّهْ
فِي كُلِّ وادٍ بَيْنَ يَثْرِ ... بَ فَالقُصُورِ إلى اليَمَامَهْ
تَطْرِيبُ عانٍ أوْ صِيَاحُ ... مُحَرَّقٍ أَوْ صَوْتُ هَامَهْ
وَمَنَعْتَهُمْ نَجْداً فَقَدْ ... حَلُّوا عَلَى وَجَلٍ تِهَامَهْ[٤]

ونحن نرى في الأبيات السابقة إشارات واضحة إلى موطن هذه القبيلة، ونلحظ أن مبادرة حجر بن الحارث بنفيهم إلى تهامة لم تكن لتتم لولا أن لهم جذوراً في تلك المنطقة، فأراد أن يعيدهم إليها لما رفضوا دفع الإتاوة له وتجرأوا على رسله، ومن الطبيعي أن تنتشر بطون هذه القبيلة فيما جاورها من الأماكن فقد كانوا يرتحلون إلى المناطق والأقاليم المجاورة إما غازين أو طالبين حياة الخصب

---

١ـ انظر صفة جزيرة العرب للهمذاني تحقيق ابن بليهد النجدي ص ٤٧ حيث يقسم شبه الجزيرة إلى نجد والحجاز والعروض واليمن وتهامة، ويوافقه على هذا التقسيم أبو الفداء في تقويم البلدان ص ٧.٨.

٢ـ انظر معجم مااستعجم للبكري تحقيق مصطفى السقا ـ الطبعة الأولى ١٩٤٥، الجزء الأول ص ٧٩ ـ ٨٠ مطبعة لجنة التأليف والترجمة.

٣ـ انظر المرجع السابق ص ٨٨ الطبعة نفسها.

٤ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ـ تحقيق الدكتور حسين نصار ص ١٢٥ ـ ١٢٦ الطبعة الأولى ١٩٥٧.

والامراع.

وعلى هذا الأساس سنحاول تحديد المواطن الأساسية الأولى لهذه القبيلة، ثم نحاول أن نتبين الأماكن التي ارتحلت إليها بطون القبيلة وعشائرها وأفخاذها فنزلت بها، وسيكون اعتمادنا في ذلك على المصادر القديمة وبخاصة أشعار الأسديين الجاهليين الذين سندرسهم في هذا البحث. وهدفنا من ذلك التعرف إلى مواطن القبيلة وتتبع حركاتها معرفة بعض التأثيرات التي خلفتها طبيعة هذه المنازل والبيئات في حياة القبيلة وشعرائها.

ولقد مرت بنا رواية البكري ومن هذه الرواية نتبين أن أصل منازل بني أسد بن خزيمة كان في تهامة وما والاها من أماكن، وأول تهامة مشرف على بحر القلزم "البحر الأحمر" مما يلي غربيه وشرقيها بناحية صعدة ونجران وشماليها حدود مكة وجنوبها من صنعاء على نحو من عشر مراحل[1] ويقال سميت تهامة لتغير هوائها من قولهم تهم الدهن إذا تغيرت رائحته[2] ويضاف جزء تهامة الشمالي إلى الحجاز والجنوبي إلى اليمن فيقال: تهامة الحجاز وتهامة اليمن. هذا وإننا لنجد كثيراً من الإشارات في شعر عبيد بن الأبرص الأسدي وغيره من شعراء بني أسد بن خزيمة التي تشير إلى بعض المواضع والمنازل لهذه القبيلة. يقول عبيد بن الأبرص مشيراً إلى بعض هذه المواطن والأماكن:

أَقْفَرَ مِنْ مَيَّةَ الدَّوافِعُ مِنْ ... خَبْتٍ فَلُبْنى فَيْحَانَ فالرِّجَلُ
فالقُطَبِيَّاتُ فالدَّكادِكُ فَال ... هَيْجُ فَأعلى هبيرةِ السَّهَلُ
فالجُمُدُ الحافِظُ الطريقَ مِنَ الـزَّ ... يْغِ فَصَحْنُ الشَّقيقِ فالأُمُلُ
فالطَّلْبُ فالحَدُّ مِنْ تَبَالَةَ لا ... عَهْدَ لَهُ بالأَنِيسِ مافَعَلُوا[3]

وبالنظر إلى هذه الأماكن التي يذكرها عبيد نلاحظ أنها على رقعة واسعة شاسعة من الأرض تشمل معظم تهامة ونجد، وتحتوي على مساحات كبيرة من السهول والهضاب والأودية، وتشكل أغلب البقاع الواقعة بين الحجاز والعراق والعروض وتغلغل بعضها ببعض، ومن شأن عدم الوضوح بالحدود هذا أن يوجد نوعاً من تداخل أطراف الأقاليم بعضها ببعض، ولعلنا بهذا نستطيع أن نفسر توزع بعض عشائر وبطون قبيلة بني أسد بن خزيمة على تلك الأقاليم، فاتخذت من بعض مواضعها مرابع لها بالإضافة إلى موطنها الأول الذي يذكر في أشعارهم بكل اعتزاز[4].

ويمكن لنا أن نفسر نقطة أخرى في أيام القبيلة وحروبها وكثرتها وذلك لمجاورتها عدداً لا بأس عليه من القبائل داخل نجد وخارجه، فقد جاورها من الشمال قبيلة طيء وقبيلة كلب، ومن الجنوب قبيلة بني هلال وبني عامر بن صعصعة، ومن الغرب غطفان وسليم، ومن الشرق جديلة وكندة.

ويطالعنا الاصطخري في مسالكه برواية تقول: "أن منازل بني أسد تبدأ من قرب السماوة إلى حد البادية قرب البصرة"[5] ومن الملاحظ هنا امتداد بني أسد نحو الشرق ولعل هذا قد حدث

---

١ـ انظر مسالك الممالك للاصطخري الكرخي ص ٢٣.

٢ـ انظر معجم ما استعجم للبكري الجزء الأول ص ٣٢٢.

٣ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار ص ٩٥ ـ ٩٦.

٤ـ انظر رواية البكري من أن قبيلة أسد بن خزيمة قد نزلت أولاً مع قبائل ربيعة شمالي تهامة محاذية قبائل هذيل مستطيلة أسياف البحر ص ٨٨.

٥ـ انظر مسالك الممالك للاصطخري الكرخي ص ٢٢ طبع بغداد.

فترة معينة نتيجة لغزو أو لقحط ألمّ ببعض بطون القبيلة. ويؤيد هذا جواد علي في تاريخه حيث يقول: أن بطون بني أسد كانت منتشرة في مناطق واسعة تمتد من المدينة إلى نهر الفرات أي أنها كانت شرقي تيماء وغربي الكوفة وبينهم وبينها خمس ليال[١].

ويذكر محمد بن عبد الله النجدي بعض الأودية التي كانت تخص بني أسد وأكبر هذه الأودية واديان: وادي بزاخة ووادي سميراء. ومن الجبال رمان وحبش وغمار[٢].

والمظنون أن بلاد طيء كانت في الأصل جزءاً من بلاد بني أسد وأن جبلي أجأ وسلمى كانا لبني أسد أيضاً، ويبدو أن طيئاً عندما هجرت ديارها في قديم الزمن مع القبائل اليمنية المهاجرة إلى الشمال حاربت بني أسد وسلبت هذا الجزء الذي جاورت فيه بني أسد بما في ذلك الجبلين أجأ وسلمى[٣].

ونجد أحد شعراء أسد وهو أبو العلاء قبيصة بن جابر الأسدي يقول حول هذا مؤيداً ما تقدم ذكره:

لَنَا الحِصْنَان مِنْ أَجَأ وَسَلْمَى ... وَشَرقِيًّا هُمَا دُوْنَ انْتِحَالْ
وَتَيْماءُ الّتِي مِنْ عَهْدِ عَادٍ ... حَمَيْنَاهَا بِأَطْرافِ العَوالِي[٤]

ويذكر ابن حزم في الجمهرة أن بني غنم بن دودان قد هاجر جماعة منهم وارتحلوا إلى الحجاز، فنزعوا فيه، وحالفوا بني عبد شمس بن مناف، وكانوا ينسبون إليهم[٥]. ولكننا لا نعلم شيئاً عن هذه الهجرة، ولا متى حدثت، ولا متى تم التحالف بين الطرفين، إلا أننا نرجح وجود حلف قديم بين بني أسد، وبين قريش - بعامة - ودليلنا على ذلك أنه في حروب الفجار التي جرت بين قيس وكنانة، فقد كان بنو أسد يأخذون جانب أبناء عمومتهم من كنانة على أساس حلفهم مع قريش، وكان الشاعر بشر بن أبي خازم الأسدي على رأس قومه يوم عكاظ مع أنه لا ينحدر من بني غنم بن دودان، وإنما من بني الحارث ابن ثعلبة بن دودان[٦].

وقد حدد المؤلفون القدامى إقليم الحجاز، وغيره من أقاليم شبه الجزيرة العربية فقالوا في نجد: "وهو ما كان من حد اليمامة إلى قرب المدينة راجعاً على بادية البصرة حتى تمتد على البحرين إلى البحر الأحمر ضمن نجد"[٧] أما الحجاز فهو جبل يقبل من اليمن، ويتصل بالشام، وفيه المدينة المنورة، والحجاز من المدينة إلى تبوك، وأيضاً من المدينة إلى طريق الكوفة، أما سروات الحجاز فهي الأماكن التي تشرف على تهامة[٨] وسمى الحجاز حجازاً - كما هو متعارف عليه - لأنه حجز بين تهامة ونجد، فهو إقليم جبلي كانت فيه بعض الحواجز كمكة والمدينة والطائف.

---

١- انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي طبع بغداد الجزء الثالث ص ٢٤٥.

٢- انظر صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من آثار الجزء الأول الصفحة ١٤ طبع دار اليمامة.

٣- انظر نهاية الأرب ص ٣٨ "القلقشندى".

٤- انظر حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي الجزء الثاني ص ٧٠٦.

٥- انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٢.

٦- انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ص ٢٧٣ الجزء الأول.

٧- انظر معجم ما استعجم للبكري ص ٧٩ - ٨٠ وتقويم البلدان لأبي الفداء ص ٧٨.

٨- انظر تقويم البلدان لأبي الفداء ص ٧٩.

وقد ذكر المدائني أن نجداً هو الناحية التي بين الحجاز والعراق[١]. ويؤخذ على المدائني أنه لم يحدد لنا إقليم نجد بصورة دقيقة كما حدده غيره ـ ممن ذكرنا ـ كالاصطخري، والبكري.

والواقع أنه إزاء اتساع هذه المنطقة التي تمتد من البحر الأحمر حتى مشارف البصرة في العراق لا يستطيع الباحث أن يحدد بدقة أين كانت منازل هذه البطون الأسدية، ونحن لا نجد غرابة في انتشارهم الواسع هذا ـ على النحو الذي رأينا ـ فقبيلة قوية منيعة مرهوبة الجانب كقبيلة بني أسد بن خزيمة كانت في حروب مستمرة مع القبائل الأخرى واترة وموتورة، ويبدو أنها كانت تنتصر كثيرا في هذه الحروب، وما كان هذا ليحدث لولا امتلاكها للأسباب التي مكنتها من هذا الانتصارات، فهي كثيرة العدد والعدة، غزيرة الجانب، تقصدها القبائل الأخرى لتخطب ودها، ولتعقد معها الأحلاف ـ كما سنرى ـ

وكان لشعرائها الحق في أن يفخروا بشجاعة قبيلتهم وانتصاراتها على القبائل الأخرى، وحمايتهم لحلفائهم، ولعل في قول شاعرهم عبيد بن الأبرص ما يدل على ذلك. يقول عبيد مخاطباً أحد حلفاء بني أسد:

دَعَا مَعاشِرَ فاسْتَكَّتْ مَسامِعُهُم ... يَالَهْفَ نَفْسِيَ لَوْ تَدْعُو بني أَسَدِ
تَدْعُو إذَنْ حامِيَ الكُماةِ لاكَسِلاً ... إذا السيوفُ بأيدي القَوْمِ كالوَقَدِ
لَوْ هُمْ حُماتُكَ بالمَحْمى حَمَوْكَ وَلَمْ ... تُتْرَكْ لِيَوْمٍ أقامَ الناسَ في كَبَدِ
كما حَمَيْناكَ يَوْمَ النَّعْفِ مِنْ شَطِبٍ ... والفَضْلُ لِلْقَوْمِ مِنْ ريحٍ وَمِنْ عَدَدِ[٢]

وإذا ما أمعنا في النظر إلى شعر شعراء هذه القبيلة، وتفحصنا الروايات والأخبار عن مواطن هذه القبيلة، لوجدناها تتركز في منطقتين اثنتين: منطقة القصيم، ومنطقة جائل، وذلك بالإضافة إلى موطنها الأساسي في تهامة، ومن هذه المواضع امتدت، وانتشرت على طريق الكوفة والبصرة. وتقول بعض الروايات: أن قسماً من بني أسد بن خزيمة هاجر باتجاه بلاد الشام "منطقة حلب" ليشكل هناك نواة إمارة الحمدانيين وذلك في أواخر العصر العباسي حيث تعرض أبناء هذه القبيلة لضغط من الخلفاء العباسيين نتيجة لتشيّعهم، والمعروف أن قبيلة بني أسد تعد من أكثر القبائل العربية تشيعا[٣].

ويذكر صاحب كتاب "بلاد العرب" أن قبيلة بني أسد كانت تعيش شمال وادي ثادق في وسط منطقة القصيم، وكان أسفله لبني عبس وكانت لهم ماءة تسمى الجريرة قرب ثادق الذي ينتهي إلى وادي الرمة، وكان لهم وادي الجرير الذي يفرغ في ثادق، وتقول الرواية كذلك: "والجرير يفرغ في

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ٧٨.

٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار ص ٥٨ ـ ٥٩ ويوم النعف كان فيما يبدو بين غسان وأحد أحلاف بني أسد والشاعر يلوم الحليف لأنه لم يستنجد بأسد كما حدث ومنعوه في يوم شطب.

٣ـ انظر معجم قبائل العرب لعمر رضا كحالة الجزء الأول ص ٢١ وما بعدها طبع دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٨ وانظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٦٣٤ حيث يورد أبياتا شعرية لبعض بني أسد حول تشيعهم:

رعايا لثارات الحسين فأقبلت ... كتائب من همدان بعد هزيع
ومن مذحج جاء الرئيس ابن مالك ... يقود جموعا عفيت الجموع
ومن أسد وفي يزيد لنصره ... بكل فتى حامى الذمار منيع

ويزيد هو: يزيد بن أنس الأسدي من كبار أصحاب المختار بن عبيد الذي طالب بدم الحسين.

ثادق، وثادق واد ضخم يفرغ في الرمة أعاليه لبني أسد وأسفله لبني عبس"[١] ويضيف المؤلف قائلا: "وكان لأسد أيضاً خزار الأنعمين ومتالع وهو جبل تشاركهم فيه غنى، وهذه المواضع كلها تقع ـ حاليا ـ قرب دخنة الحالية في جنوب الرس"[٢].

ويقول صاحب الكتاب في موضع آخر: "وتنظر من رامة إلى أبانين وقطن وساق المغروين وهو جبل دقيق طويل كأنه قنه وهو لبني أسد بن خزيمة تشاركهم فيها غطفان"[٣]

كذلك القنان ـ وهو جبل في أصطحه بلاد بني أسد ـ من أماكنهم وفيه يقول نهشل بن جرى: "وهو شاعر من نهشل بن دارم من تميم":

ضَمِنَ القِنَانُ لِفَقْعَسٍ سَوْءاتِها     إِنَّ القِنَانَ لفقعس لَمُعَمِّرُ[٤]

وبجانبه القناة، وهي ماء لبني أسد ـ أيضاً ـ وأبان الأبيض لبني أسد وهو غرب الرمة في القصيم الحالية، أما أبان الأسود فلبني فزارة. يقول بشر بن أبي خازم:

يَؤُمُّ بها الحُداةُ مياه نَخْلٍ     وَفِيها عَنْ أبانينِ ازْوِرارُ[٥]

ومن أماكنهم النسار، وتعرف اليوم باسم النسر، وتقع جنوب القصيم على حدود الرياض، وفيها حدثت الوقعة المشهورة بيوم النسار، وكانت بين أسد وطيء وغطفان، وهم حلفاء ضد بني عامر بن صعصعة وبني تميم، وفيها يقول بشر بن أبي خازم:

غَضِبَتْ تَمِيمٌ أَنْ تُقَتَّلَ عامِرٌ     يَوْمَ النِّسارِ فَأُعْقِبُوا بالصَّيْلَمِ[٦]

ويقول في موضع آخر عن هذا اليوم المشهور:

وَيَوْمُ النِّسارِ وَيَوْمُ الجِفَا     رِ كَانَا عَذَاباً وَكَانَا غَرَامَا
فَأَمَّا تَمِيمٌ تَمِيمُ بنُ مُرٍّ     فَأَلْفَاهُمُ القَوْمُ رَوْبَى نِيَامَا
وَأَمَّا بَنُو عامِرٍ بالنِّسارِ     غَداةَ لَقُونا فَكَانُوا نَعَامَا[٧]

وقد ورد ذكر هذا اليوم في ديوان عبيد بن الأبرص ـ أيضا ـ حيث يقول:

وَلَقَدْ أَتَانِي عَنْ تَمِيمٍ أَنَّهُمْ     ذَئِرُوا لِقَتْلَى عَامِرٍ وَتَغَضَّبُوا
وَلَقَدْ تَطاوَلَ بالنِّسارِ لِعَامِرٍ     يَوْمٌ تَشِيبُ لَهُ الرؤوسُ عَصَبْصَبُ[٨]

---

١ـ انظر بلاد العرب للأصفهاني ص ٧٢ وانظر معجم البلدان لياقوت الجزء الثاني ص ١٣١.
٢ـ انظر بلاد العرب للأصفهاني ص ٣٨٦.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٣٨٧ وانظر لسان العرب مادة أبان.
٤ـ انظر معجم البلدان لياقوت الجزء الثالث ص ٤٤ والأصطح: والوسط. وانظر بلاد العرب للأصفهاني ص ٣٨٨.
٥ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم تحقيق الدكتور عزة حسن طبع دمشق ص ٦٢.
٦ـ انظر المجاز بين اليمامة والحجاز نشر دار اليمامة لعبد الله بن محمد بن خميس النجدي والصفحة ١٩٠ وانظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٨٠.
٧ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٩٠ تحقيق الدكتور عزة حسن ط. دمشق.
٨ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار ص ٦.

ومن أمكنة أسد ذات الشقوق ذلك أن حمزة النهشلي - كما تقول الرواية - قد حرم على نفسه الخمر حتى يثأر لتميم على بني أسد، وأغار عليهم في ذات الشقوق فقاتلهم[١] وكذلك بسيان من مواطنهم، وتقع قرب وجدة والشبيكية الحالية، وفيها جرت وقعة مشهورة لبني قشير على بني أسد قال فيها المساور بن هند:

وَنَحْنُ قَتَلْنا ابْنَىْ طميَّةَ بالعصا ... وَنَحْنُ قَتَلْنا يومَ بِسيانَ مُسْهِرَا

وقال فيها دريد بن الصمة:

رَدَدْنَا الحَيَّ مِنْ أَسَدٍ بِضَرْبٍ ... وَطَعْنٍ يَتْرُكُ الأَبْطَالَ زُورا

تَرَكْنَا مِنْهُمُ سَبعِينَ صَرْعَى ... بِبِسْيَانٍ وَأَبْرأْنَا الصُّدُورَا[٢]

وكان ممكن لصوص بني عامر وسليم وعبس في هذه المنطقة - كما تفيد الرواية السابقة - والعرف من مواطن بني أسد - أيضا - وفيه يقول الكميت بن زيد:

أَأَبْكاكَ بِالعُرُفِ الْمَنْزِلُ ... ومَا أَنْتَ والطَّلَلُ الْمُحْوِلُ[٣]

وقال العامري: والعرف ببلاد أسد فقلت ما هي؟ فقال: بها قفاف ورمال وغير ذلك، وكذلك الشبكة وهي ماء لبني أسد ومثلها أوضاح والدنية والرجعية ولعلها الرجيع الذي استشهد فيه بعض الصحابة الكرام أيام الردة[٤].

ومن منازل بن أسد شرج وهي ماء شرقي الأجفر قريبة من فيد في منطقة حائل هي الأخرى لبني أسد، ويذكرها الحسين بن مطير الأسدي قائلا:

عَرَفْتُ مَنازِلاً بشِعَابِ شَرْجٍ ... فَحَيَّيْتُ المَنَازِلَ وَالشِّعَابَا

مَنَازِلُ هَيَّجَتْ لِلْقَلْبِ شَوْقاً ... وَلِلْعَيْنَيْنِ دَمْعاً وانْتِحَابَا[٥]

ومن منازلهم الشيقان. وهما جبلان أو ماء ديار في ديار بني أسد وأنشد بشر بن أبي خازم فيهما:

دَعُوا مَنْبِتَ الشِّيقَيْنِ إِنَّهُما لَنَا ... إِذا مُضَرُ الحَمْرَاءُ شُبَّتْ حُرُوبُهَا[٦]

ويذكر ياقوت في معجمه أن صعائق من ديار بني أسد، ويضيف قائلا: أن حربا قد نشبت في

١- انظر المجاز بين اليمامة والحجاز ص ١٩٦.
٢- انظر المصدر السابق ص ٢٠٥.
٣- انظر المجاز بين اليمامة والحجاز ص ٢٠٦.
٤- انظر بلاد العرب للأصفهاني ص ٤٧ وانظر معجم البلدان لياقوت الصفحات ٨ من المجلد الثالث ٢٩ من المجلد الأول.
٥- انظر معجم البلدان لياقوت المجلد الثالث ص ٣٣٤.
٦- انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٩ وانظر معجم البلدان لياقوت المجلد الثالث ص ٣٨٥.

هذا الموضع لكنه لم يحدد متى كانت ومن اشترك فيها؟[١] ومن الجبال التي تخص بني أسد جبل صفر قرب المدينة جبل قطن ويقع في الجزء الشمالي الغربي من القصيم، وقال الأصمعي: هو فيما بين الغوارة والمغرب وبه مياه منها السليع والعاقرة والثيلة والممها[٢].

ومن منازلهم ناجية وهي بلدة صغيرة على طريق المدينة بعد أثال ومثلها بنوان وهو ماء لبني أسد بنجد[٣] ويذكر عبيد بن الأبرص الأسدي في شعره بعض الأمكنة التي تواجدوا فيها فيقول:

لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدَّفِينِ بِبَالِي ... فَلِوَى ذِرْوَةٍ فَجَنْبَيْ أُثَالِ
فَالْمَرَوْرَاتُ فالصَّفِيحَةُ قَفْرٌ ... كُلُّ وَادٍ وَرَوْضَةٍ مِحْلاَلِ[٤]

ويذكر ياقوت غير مكان من ديار بني أسد كوادي طثرة والفراء والغمر والغربات وهذا المكان الأخير ذكره أحد شعرائهم ـ ويبدو أنه قد قتل فيه بعض بني أسد ـ يقول شاعرهم:

أَلاَ يَا طَالَ بالغُرَبَاتِ لَيْلِي ... وَمَا يَلْقَى بَنُو أَسَدٍ بِهِنَّهْ
وَقَائِلَةٍ: أَسِيتَ فَقُلْتُ: جَيْرٌ ... أَسِيٌّ إِنَّنِي مِنْ ذَاكَ إِنَّهْ[٥]

ويصعب على الباحث إحصاء الأماكن التي وردت في معجم ياقوت والتي تخص بني أسد وبخاصة في المجلدات الخمسة الأول فمن شاء الاستزادة فليرجع إليها، وينطبق هذا على كتاب بلاد العرب للأصفهاني حيث يذكر أماكن كثيرة كلها يخص بني أسد، ولكننا سنحاول ذكر أهم تلك الأماكن أية كلا الكتابين، أو التي نظن أن لها علاقة ببعض أحداث القبيلة، أو حروبها، وسنقدم تلك التي ذكرت في أشعار شعرائهم، ومن هذه الأماكن ما ذكره سحيم عبد بني الحسحاس في شعره وهو أبرق الخوجاء. يقول سحيم:

هِيَ الدِّيَارُ عَفَاهَا القَطْرُ والْمَوْرُ ... حَيْثُ ارْتَقَى أَبْرَقَ الْخَوْجَاء فالدُّورِ[٦]

وكذلك الحبس وهو جبل لبني أسد ذكره منظور بن فروة الأسدي في شعره:

هَلْ تَعْرِفِ الدَّارَ عَفَتْ بِالْحُبْسِ ... غَيْرَ رَمَادٍ وإِثَافٍ عُبْسِ
كَأَنَّهَا بَعْدَ سِنِينٍ خَمْسِ ... وَرِيدَةٌ تُذْرِى خُطَامَ اليُبْسِ[٧]

ومثله سهل خو الذي يخص بني أسد، وهو سهل واسع وقعت فيه معركة كبيرة بين الأسديين

---

١ـ انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ص ٤٠٨٥ جـ ٣.
٢ـ انظر معجم البلدان لياقوت ٤١٣ جـ ٣ و ٣٧٤ جـ ٤ وانظر بلاد العرب للأصفهاني ص ٦٣.
٣ـ انظر معجم البلدان لياقوت المجلد الخامس ص ٢٥٠ وما بعدها.
٤ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار ص ١٠٥ وقد وردت في بعض الطبعات ذبال بدلا من أثال. وتقع هذه الأماكن حاليا في منطقة القصيم بالمملكة السعودية.
٥ـ انظر معجم البلدان لياقوت الحموي المجلد الرابع الصفحات ٢١، ١٩٢، ٢١٢، كما يذكر ياقوت أن الغمر وهو ماء بحذاء توز التي تقع على طريق مكة إلى البصرة للقادم ونستدل من هذا أن الأسديين بدؤوا ينتشرون باتجاه الشمال الشرقي من نجد.
٦ـ انظر معجم البلدان المجلد الأول ص ٦٧ ولم يتعرض الأستاذ الميمني لهذا البيت في جمعه لشعر سحيم.
٧ـ انظر معجم البلدان لياقوت الحموي المجلد الثاني ص ٢١٣.

وبين بني يربوع من تميم، وفيه قتل ذؤاب بن ربيعة البربوعي فقال في ذلك مالك بن نويرة:

وَهَـوَّنَ وَجْـدِي إِذْ أَصَـابَتْ رِماحُنَـا عَشِيَّةَ خَـوٍّ رَهْـطَ قَيْـسِ بـنِ جَـابِرِ(١)

ومن منازلهم غبراء الحبيبة وقد جاء ذكرها في شعر شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول:

فَـإِنْ تَـكُ غَـبْرَاءُ الْحُبَيِّبَـةِ أَصْبَحَـتْ خَلَتْ مِنْهُمُ واسْتَبْدَلَتْ غَـيْرَ أَبْـدَالِ(٢)

ومن المنازل التي سكنها بنو أسد سميراء، وهي التي عسكر بقربها طليحة الأسدي حين ادعى النبوة في خلافة أبي بكر الصديق وتقع جنوب حائل وقد ذكرها الشاعر مطير بن أشيم الأسدي:

أَلاَ أَيُّهَـا الرُّكْبَـانُ إِنَّ أَمَـامَكُمْ سُـمَيْرَاءَ مَـاءٌ رِيُّـهُ غَـيْرُ مُجْهَـلِ(٣)

كما يذكر صاحب بلاد العرب أن لينة وهي من أعظم مياه بني أسد كانت من ديارهم وتقع اليوم شمال مدينة حائل(٤).

كانت تلك أهم المواطن التي نطمئن إلى أن بني أسد قد استقروا فيها لفترات طويلة، والتي أجمع المؤلفون القدامى على أنها من منازهم، ويسترعي انتباهنا أنها في معظمها تقع بين منطقتي حائل والقصيم في نجد أما عن انتشار بعض بطون هذه القبيلة في منازل أخرى فهذا ما سنحاول الوقوف عليه في الصفحات التالية بما نتوخى أن يكون في خدمة هذا البحث وبما يعمق وشائج الترابط فيه. وإزاء بحثنا في المصادر والمراجع القديمة نجد أن بعض هذه البطون قد وصل إلى الكوفة والبصرة شرقاً كما يذكر ياقوت الحموي أن حلة بن فريد مدينة الحلة في العراق وسميت باسمه وهي تقع بين الكوفة وبغداد(٥).

كما نجد رواية أخرى لياقوت مفادها أن بعض أفخاذ بني أسد قد وصل إلى دمشق أيام مروان بن عبد الملك وهم بنو الهزيم ودهج من بني أسد بن خزيمة(٦).

ويضيف ياقوت قائلا ومحددا منازل بني النعامة "بنو جعدة" بن عبد الله بن صعب ابن أسد في الثنيان والربائع وهما جبلان. يقول الراجز فيهما:

أَرَّقَنِـي اللَّيْلَـةَ بَـرْقٌ لاَمِـعُ مِـنْ دِمْنَـةِ الثُّنْيَـانِ والرَّبَـائِعُ(٧)

كما سكنت سواءة ونصر وادي الأجفر وهو الأجيفر قرب السبعان في وسط حائل(٨) كما سكنت نصر وادي الثلبوت القريب من وادي الرمة والذي يقول فيه الشاعر مرة بن عياش النصري

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ٤٠٧ المجلد الثاني.

٢ـ انظر المصدر السابق ص ١٨٥ المجلد الرابع وانظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار ص ١١٣.

٣ـ انظر معجم البلدان لياقوت المجلد الثالث ص ٢٥٥.

٤ـ انظر كتاب بلاد العرب للأصفهاني ص ٣٢٧.

٥ـ انظر معجم البلدان لياقوت الحموي المجلد الثاني ص ٢٩٤.

٦ـ انظر المصدر السابق لياقوت المجلد الأول ص ٥٠.

٧ـ انظر معجم البلدان لياقوت المجلد الأول ص ٦٨.

٨ـ انظر بلاد العرب للأصفهاني الجزء الثاني ص ٥٨ وانظر ياقوت ص ٢٥٤ المجلد الرابع.

الأسدي:

وَلَقَـدْ أَرَى الثَّلْبُـوتَ يَـأْنَفُ نَبْتَـهُ حَـيٌّ كَـأَنَّهُمُ أُولُـوا سُـلْطَانِ
زَلَهُـمْ بِـلادٌ طَالَمـا عُرِفَـتْ بِهِـمْ صَحْـنُ المَـلاَ وَمَدافِـعُ السَّـبْعَانِ(١)

أما بنو الحارث بن ثعلبة بن دودان فقد سكنوا أبان الأسود في عزب القصيم والسليلة قرب قطن(٢).

وسكن بنو قيس بن ثعلبة بن دودان منطقة نميلة قرب ثادق بالقصيم، وكان بجوارهم أبناء عمومتهم بنو عبس بن قعين الذين اتخذوا من ماء غمر قرب الفرقدة بالقصيم منزلا لهم(٣).

ويضيف ياقوت محددا منازل بقية بطون وأفخاذ بني أسد بن خزيمة قائلا: أما بنو عمرو بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان فكانت بالعمرية وهي بالقصيم حاليا. أما وسط القصيم فقد سكنه بنو أعيا وهم من أسد واتخذوا من الرس منزلا لهم وقد جاورهم في الرسيس بنو كاهل من أسد(٤).

أما بنو منقذ وهم من بني أعيا من أسد فقد سكنوا صبيغا في القصيم ـ ولا تزال معروفة بهذا الاسم إلى يومنا هذا ـ وكان إلى الشمال منهم كما يحدد ياقوت بنو حزن ابن وهب بن أعيا بن طريف من أسد حيث سكنوا منطقة السلامية في شمال مدينة حائل حاليا، يجاورهم في القليب بنو غير بن نصرة من بني أسد بن خزيمة(٥).

ويحدد ياقوت منازل بني والبة وهم من أسد في أكثر من مكان فقد ذكر أنهم كانوا في النبهانية ـ وهي قرية ضخمة في وسط القصيم، ولكنه يعود إلى القول بأنهم اتخذوا من منطقة ابان الأسود منزلا لهم في الوقت الذي ذكر فيه أن هذه المنطقة سكنها بنو الحارث بن ثعلبة بن دودان(٦) ويبدو أن بني والبة قد نزلوا في منطقة ابان الأسود بعد رحيل بني الحارث عنها، أو أن ذلك حدث في سنة من سنوات القحط. إذ ليس من الغريب أن يحل فخذ من أفخاذ القبيلة الواحدة على فخذ آخر في وقت من الأوقات وهم على ما هم عليه من الترابط والتلاحم. ومن الطبيعي أن يشترك في المرعى أكثر من فخذ أو بطن. على أن الثابت أن بني والبة كانوا في أبان الأسود كما يقول البكري(٧).

أما بنو غاضرة فقد سكنوا زبالة ـ وهي بطريق مكة إلى الكوفة، ويذكر ياقوت أن واقعة قد جرت في هذه المنطقة ولكنه لم يحدد زمانها ولا مع من كانت(٨) ويبدو أن بني غاضرة هؤلاء قد انتشروا شرقا فسكنوا منطقة الناضرية التي سميت باسمهم وهي قرية قرب كربلاء(٩) ومن منازلهم الثلماء والحبس والقنة وقد سكنها بنو مرة من أسد وكذلك الذنائب التي سكنها بنو البكاء، وتسمى

---

١ـ انظر معجم البلدان لياقوت الحموي الجزء الثاني ص ٨٢ والثلبوت كما يحدده ياقوت واد يمتد إلى وادي الرمة من تحت ماء الحاجز.
٢ـ انظر معجم البلدان لياقوت ص ٦٣ الجلد الأول.
٣ـ انظر معجم البلدان لياقوت ص ٢٥٨ المجلد الخامس وانظر بلاد العرب للأصفهاني ص ٦٣.
٤ـ انظر معجم البلدان لياقوت المجلد الرابع ص ١٥٦ وانظر ص ٤٣ في المجلد الثالث من المرجع نفسه.
٥ـ انظر معجم البلدان لياقوت الصفحات ٣٩٣ من المجلد الثالث و ٢٣٤ و١٢٩ من المجلد نفسه.
٦ـ انظر معجم البلدان لياقوت الصفحات ٢٥٨ المجلد الخامس وص ٦٣ من المجلد الأول.
٧ـ انظر معجم ما استعجم للبكري الجزء الأول ص ٩٣.
٨ـ انظر معجم البلدان لياقوت المجلد الثالث ص ١٢٩ والمجلد الرابع ص ١٨٣.
٩ـ انظر المصدر السابق ص ١٨٣ المجلد الرابع.

اليوم المذنب - وهي على طريق البصرة إلى مكة، وسكن بنو سعد - وهم من أسد بن خزيمة - ماء الغميم ونزل بنو بثهاني بفيد شرقي حائل[١].

تلك هي أهم المنازل والمواطن - كما تؤكد الأمثلة والشواهد في المصادر القديمة - التي نزل بها بنو أسد بنو خزيمة ويبدو أنهم كانوا متركزين في منطقتي القصيم وحائل في نجد قبل الإسلام وفي أثنائه وقد أشار إلى ذلك شعراء القبيلة وذكروا الكثير منها. ولئن كان بعض بني أسد قد سكنوا بعض القرى الصغيرة فان ذلك لا يعني أنهم تحضروا وهجروا حياة البداوة، وما كانت تلك القرى إلا محطات للاستراحة تطلبتها ظروف حياتهم. والملاحظة الجديرة منا بالوقوف والتأمل هي امتداد هذه القبيلة على طريق مكة - البصرة - بوجه خاص حتى أن ياقوت الحموي ينقل رواية تقول: أن بني حلة بن مزيد - وهم من بني أسد بن خزيمة - قد بنوا مدينة - الحلة - بين الكوفة وبغداد وكان ذلك حوالي ٥٨٨ هجرية ثم اتجهوا نحو الشمال قرب الموصل فاستقروا هناك زمناً[٢].

ويرى بعض الباحثين أن إمارة الحمدانيين التي قامت في جهات حلب إنما هي امتداد لبني حلة في العراق[٣].

ولهذا نكون قد أتينا على معظم ديار بني أسد بن خزيمة في الجاهلية وقد حاولنا قدر المستطاع أن نثبت من الروايات والأخبار و لم ندخر جهدا في تلمس وجه الحقيقة للوصول إلى صورة واضحة القسمات عن مواطن هذه القبيلة وسوف تتضح الصورة أكثر من ذي قبل في أثناء حديثنا عن أيام قبيلة بني أسد بن خزيمة وحروبها وغزواتها.



١- انظر معجم البلدان لياقوت الصفحات ٨٣ من المجلد الثاني ص ٧ من المجلد الثالث وص ٢٥٨ من المجلد الخامس وص ٦٨ من المجلد الرابع وص ٢١٥، ٢٨٢ من المجلد نفسه.

٢- انظر معجم البلدان لياقوت ص ٢٩٤ المجلد الثاني.

٣- انظر معجم قبائل العرب لعمر رضا كحالة ص ٢١ وما بعدها.

## علاقة بني أسد بالمناذرة والغساسنة:

تجمع الروايات على أن العلاقة بين بني أسد بن خزيمة وبين اللخميين في الحيرة علاقة قديمة يكتنفها الغموض في أغلب الفترات الزمنية. ولا يستطيع الباحث أن يصل إلى صورة هذه العلاقة بشكل واضح وجلي باستثناء فترة حكم المنذر بن ماء السماء الذي كان قد خلع من قبل قباذ بن فيروز ملك الفرس وولى مكانه الحارث بن عمرو جد امرئ القيس، ولما مات قباذ وجاء ابنه كسرى انو شروان إلى الحكم أعاد المنذر إلى الحيرة وطرد منها الحارث بن عمرو، وبعودة المنذر ملكا على الحيرة مرة أخرى دانت له معظم القبائل النزارية في نجد وشرقي الجزيرة العربية بوجه عام[١].

والواقع أن علاقة بني أسد بملوك لخم تعود في أصولها إلى عهد امرئ القيس بن عمرو بن عدي في الربع الأول من القرن الرابع الميلادي. وقد ورد في نقش النمارة أن أسدا كانت مجاورة لتنوخ قبل منتصف القرن الثالث الميلادي وهم يظهرون في النقش على اعتبار أنهما "الأسدان" ولا نستبعد أن تكون هناك صلة قرابة بينهما وهذا الرأي يقبله بعض النسابة العرب الذين يرجحون أن تكون نواة تنوخ من أسد، وليس بمعروف إلى أي مدى بقيت أسد وتنوخ تحت حكم ملوك لخم وقد عاش بعض سلالتها وهم بنو القين حتى العصور الإسلامية إلى الجنوب الشرقي من حوران على الحد الشرقي للبلقاء هابطين إلى جزيرة العرب[٢].

ولا يرى الباحث أي طائل من خلال تتبعه لعلاقة هذه القبيلة بملك الحيرة المنذر بن ماء السماء خلا بعض النتف الصغيرة المتفرقة التي لا يعتمد عليها في الوصول إلى حكم قاطع على هذه العلاقة، فنحن لا ندري هل أذعنت بنو أسد بكاملها لهذا الملك اللخمي؟ أم أنها لم تكن كذلك؟ وأجدني أميل إلى أن هذه العلاقة لم تكن على ما يرام من الوفاق والوئام ذلك أن الروايات تحدثنا عن نديمين أسديين للمنذر بل هما من سراة بني أسد أحدهما عمرو بن مسعود، والثاني خالد بن المضلل، وأنه قتلهما بعد أن شرب الخمر حتى غاب عن وعيه فلما ندم على ما فعله، فدفنهما وبنى لهما غريين، وأمر الوفود التي تفد إلى الحيرة أن تمر بينهما[٣]، وقد ظل ذكر الغريين يتردد في أشعار العرب بعامة، وبني أسد بخاصة ـ بغض النظر عما إذا كانت هذه القصة من قبيل الأسطورة أو الحقيقة ـ لكن المستفاد منها هو أن المنذر قتل سيدين من سادة أسد وهذا أحد شعرائهم يرثي هذين السيدين فيقول:

يَـا قَـبْرُ بَيْـنَ آلِ مُحَـرِّقٍ ... جَادَتْ عَلَيْكَ رَوَاعِدٌ وَبُرُوقُ
أَمَّا الْبُكَاءُ فَقَلَّ عَنْكَ كَثِيرُهُ ... وَلَئِنْ بَكَيْتُ فَلِلْبُكَاءِ خَلِيقُ[٤]

---

١ـ انظر الكامل لابن الأثير الجزء الأول ص ٥٥، وانظر دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثالث مطبعة الشعب ص ٢٧٨ وما بعدها. وانظر الأغاني طبع دار الكتب الجزء التاسع ص ٧٩.

٢ـ انظر دائرة المعارف الإسلامية ص ٢٨٠.

٣ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ومقدمته وانظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٤.

٤ـ الأشباه والنظائر ص ٨٦ جزء أول تحقيق د. محمد يوسف طبع لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٨.

وهذا شاعر آخر من شعراء أسد يرثيهما بقوله:

أَلاَ بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرَيْ بَنِي أَسَدِ ... بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ(١)

عبيد بن الأبرص الأسدي على يدي المنذر ـ أيضا ـ في يوم بؤسه
ولسنا بحاجة إلى ذكر قصة عبيد بن الأبرص الأسدي على يدي المنذر ـ أيضا ـ في يوم بؤسه المتعلق بالقصة السابقة للغربيين، فقد ذكرتها المصادر السابقة كلها بيد أننا لا ندري الدوافع الحقيقية التي جدت بالمنذر لقتل هذا الشاعر، وربما كان لعلاقة عبيد بن الأبرص بأسرة آكل المرار ـ وهي علاقة طيبة قبل مقتل حجر بن الحارث ـ أثر في دفع المنذر لقتله، وربما كان للقصائد التي مدحهم عبيد بها أثر ذلك أيضا، ولو أننا لا نجد الكثير منها في ديوانه الذي وصل إلينا. ومن المعروف أن المنذر يعد أشد ملوك لخم وأكثرهم عداوة لتلك الأسرة التي كانت السبب في خلعه من حكم الحيرة، وتشرده في بلاد فارس، حتى أعاده إليها كسرى أنو شروان بعد أن آل الأمر إليه بوفاة والده، ولم يهدأ للمنذر بال منذ عودته إلى الحيرة فأخذ يؤلب القبائل ويدس الدسائس على أولاد الحارث، ومن تحت حكمهم إلى أن نجح في مسعاه واستطاع أن يجتث جذورهم، وأن يعيد معظم القبائل الشمالية إلى سلطته، ولكل ما سبق فإننا نرجح أن تلك العلاقة التي ربطت بين المنذر وبين بني أسد لم تكن علاقة حب وود بقدر ما كانت علاقة دماء وثأر، وحقد، فهو قد قتل ثلاثة من سراتهم أحدهم شاعر واسع الشهرة له مكانته في قبيلته بل في قبائل نجد بأسرها.

ولم تكن علاقة عمرو بن هند ببني أسد بأحسن من علاقة أبيه المنذر، وتشير إحدى الروايات إلى أن عمرا هذا قد قتل أخا الشاعر الأسدي الأشعر الرقبان فما كان من الأخير إلا أن سرق ولدين من أولاد عمرو وذبحهما وفي ذلك يقول:

إِنَّـا كَذَلِـكَ كَـانَ عَادَتُنَـا ... لَـمْ نُقْضِ مِـنْ مَلِـكٍ عَلَـى وِتْـرِ(٢)

وقد خلفه في الحكم عمرو قابوس وجاء من بعده المنذر الرابع، وأخيرا أبو قابوس النعمان بن المنذر، وهؤلاء جميعا لم أجد لهم شيئا يذكر مع بني أسد، سوى أبي قابوس النعمان بن المنذر الذي تشير الروايات إلى أن الشاعر الأسدي الجميح "منقذ بن الطماح" قد أغار على ابل له(٣)، وكذلك تشير الروايات إلى أن الشاعر الجاهلي الأسدي قيس بن هلال فارس ذات الحلال أغار على ابله أيضا، وقال في ذلك شعرا(٤).

والنعمان بن المنذر هذا هو صاحب النابغة الذبياني، وقد زعم بعض الباحثين أن عبيدا قد نادم ملوك الحيرة مع النابغة(٥)، بيد أنني لم أظفر في ديوان عبيد علي ما يشير إلى ذلك، فعبيد عرف المنذر بن ماء السماء من ملوك الحيرة ولم يعرف النعمان بن المنذر الذي حكم الحيرة ما بين ٥٨٥ إلى ٦١٣م بينما حكم المنذر بن ماء السماء الحيرة ما بين ٥٥٤م حيث قتل على يد الحارث

---

١ـ انظر جمهرة الأنساب لابن حزم ص ١٩٤.

٢ـ انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ١٩ تحقيق عبد الستار فراج طبع القدس القاهرة ١٣٥٤ هـ.

٣ـ انظر شرح المفضليات طبع درا المعارف ص ٣٤.

٤ـ انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ١٧٦.

٥ـ انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان طبع دار المعارف ص ١١٠.

الغساني[١].

وتشير رواية أخرى إلى أن الشاعر الأسدي بشر بن أبي خازم كان ممن يفدون على النعمان بن المنذر هذا، ولكنني لم أجد في ديوان بشر ما يدل على ذلك، وقد ناقش الدكتور عزة حسن هذه الرواية ورد عليها موضحا عدم صحتها[٢].

ونخلص من هذا كله إلى أن علاقة بني أسد بالمناذرة كانت مشوبة بدماء وثارات وأحقاد، مما يدل على أن نفوذ المناذرة لم يكن قويا على بني أسد كنفوذ أمراء كثيرة من أسرة آكل المرار، ولكنهم يظلون على كل حال يتطلعون إلى الحيرة، والى كسب ود أمرائها شأنهم في ذلك شأن أغلب القبائل العربية في تلك الفترة لاسيما النعمان بن المنذر منهم الذي كانت له قوافل تجارية تجوب أنحاء الجزيرة العربية وأسواقها، وكان بنو أسد وجيرانهم من غطفان وطيء يحمون هذه التجارة، ويؤمنون الطريق لإيصالها إلى الحجاز مقابل أجر معين، وقد ظل الغموض مسيطرا على هذه العلاقة بوجه عام في غالب الأحيان.

أما علاقتهم بالغساسنة فلم تكن بأحسن حالا من علاقتهم بالمناذرة، فإذا كان الهدوء يسود في بعض الأوقات بين بني أسد وبين المناذرة فان علاقتهم بالغساسنة كانت علاقة حرب لا هوادة فيها في غالب الأحيان، وذلك أن أمراء الغساسنة كانوا حلفاء للروم ـ كما تشير الروايات ضد هجمات الفرس والمناذرة والقبائل العربية المغيرة على أطراف مملكة الروم، وقد نشبت الحروب في القرن السادس الميلادي بين الحارث الغساني والمنذر أمير الحيرة في البادية الواقعة جنوب تدمر. وتقول الروايات أن المنذر قد تقدم بجيوشه حتى بلغ بها إنطاكية. وفي سنة ٥٤١م حارب الحارث بن جبلة في العراق إلى جانب الروم، وفي سنة ٥٥٤م أحرز الحارث هذا نصرا على المنذر بن ماء السماء في معركة قرب قنسرين وتقول الرواية أن المنذر قد قتل في هذه المعركة "عين أباغ"[٣].

وقد حاول الغساسنة إخضاع القبائل العربية في نجد تحت سيطرتهم وكان لهم جيوش تجوب شبه الجزيرة العربية وبخاصة القسم الشمالي منها، وليس من الغريب أن تدين لهم معظم القبائل هناك بالطاعة. وتقول هذه الروايات أن هذه الجيوش قد دخلت مع قبيلة بني أسد في حروب ضارية، وأن كثيرا من الأسرى الأسديين وحلفائهم الذبيانيين قد وقع في أيدي الغساسنة بعد إحدى المعارك التي وقعت في عهد عمرو ابن الحارث الأصغر، الأمر الذي دفع بالنابغة الذبياني الذي كان صديقا لهم أن يذهب إلى هذا الأمير الغساني مادحا متوسلا لإطلاق هؤلاء الأسرى فأكرمه عمرو وأطلق أسرى القبيلتين[٤] وفي ذلك يقول النابغة:

إِنِّـي كَـأَنِّي لَـدَى النُّعْمَـان خَـبَّرَهُ ... بَعْـضُ الأَوُدِّ حَدِيثـاً غَـيْرَ مَكْـذُوبِ

بِـأَنَّ حِصْنَـاً وَحَيّـاً مِـنْ بَنِـي أَسَـدٍ ... قَـامُوا فَقَـالُوا: حِمَانَـا غَـيْرُ مَقْـرُوبِ

ضَلَّـتْ حُلُومُهُـمُ عَنْهُـمْ وَغَرَّهُـمُ ... سَـنُّ الْمُعِيـدِيِّ فِـي رَعْـيٍ وَتَغْرِيـبِ

---

١ـ انظر أمراء غسان لنولدكه ص ١٨ وانظر العرب قبل الإسلام لجورجي زيدان طبع دار الهلال تعليق حسين مؤنس ص ٣٢٦، وانظر التاريخ الإسلامي العام للدكتور علي إبراهيم حسن طبع مكتبة الفلاح بالكويت ١٩٧٧ ص ٨٩-٩٢.

٢ـ انظر مقدمة ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢١ الطبعة الثانية دمشق وقد وردت الرواية على لسان أبي الفرج في الأغاني ـ الجزء السادس عشر ص ٩٥ ـ ٩٦.

٣ـ انظر أمراء غسان لنولدكه ص ١٨ ترجمة الدكتور بندلي جوزي.

٤ـ انظر الأغاني ـ طبع ساسي الجزء التاسع ص ١٥٩.

قَــادَ الجيــادَ مِــنَ الجَــوْلان قائِظَــةً ... مِــنْ بَيْــنِ مُنْعَلَــةٍ تُزْجــى وَمَجْنُــوبِ
فَــإذا وُقِيتُ بحَمْـدِ اللّــهِ شَــرّتَهَا ... فَــانْجيْ فِــزَارَ إلى الأطْـوادِ فــاللُّوبِ
ولا تُلاقِــي كَمَــا لاقَــتْ بنــو أَسَـدٍ ... فَقَــدْ أَصــابَتْهُمْ مِنهــا بشَــؤْبوبِ
لَــمْ يَبْــقَ غَــيْرَ طَريـدٍ غَــيْرَ مُنْفَلِـتٍ ... وَمُوثَــقٍ فِــي حِبَــالِ القَــدِّ مَسْـلوبِ(١)

وتطالعنا أبيات في ديوان عبيد بن الأبرص يستفاد منها أنه في عهد الحارث الأعرج انتصرت قبيلة بني أسد على الغساسنة انتصارا كبيرا كان له وقعه وصداه يقول عبيد:

فانتجعْنــا الحــارثَ الأعْــرَجَ فِــي ... جحفــلٍ كــاللَّيْلِ خَطَّــارِ العَوالِــي
يَــوْمَ غَادَرْنــا عَدِيّــاً بالقنــا الــ ... ذُبَّـلِ السُّـمْرِ صَرِيعــاً فِــي المَجَــالِ(٢)

ونقع في ديوان عبيد على أكثر من إشارة لأكثر من معركة بين بني أسد والغساسنة مما يدل على أن مشاعر العداء قديمة بين الطرفين، لاسيما وأن مساكن بني أسد كانت على تخوم الإمبراطورية الرومانية بما فيها مملكة غسان في حوران، ويبدو أن الحرب كانت سجالا بين الطرفين فهذا عبيد بن الأبرص يشيد بأحد انتصارات قبيلته على الغساسنة بقوله:

حَتّــى تَعَــاطَيْنَ غَسّــاناً لِحَرْبِهِــمِ ... يَـوْمَ المُـرارِ وَلَـمْ يُلْـوُوا عَلَـى أَحَـدِ(٣)

وفي ديوان النابغة نجد أكثر من إشادة واعتزاز بانتصارات أسد على الغساسنة يقول النابغة مدافعا عن بني أسد وعن الحلف الذي يربط ذبيان بأسد:

وَهُــمْ زَحَفُــوا لِغَسّــان بزَحْــفٍ ... رَحيــبِ السِـرْبِ أَرْعَــنَ مُرْجَحِـنٍّ
بِكُــلِّ مُجَــرَّبٍ يَسْــمُو ... علــى أَوْصــالِ زَيَّــالٍ مِسَــنٍّ
وَضُمّــرٍ كــالقِداحِ مُسَــوَّماتٍ ... عليهــا مَعْشَــرٌ أَشْـباهُ جِــنٍّ(٤)

وإذن فالعلاقة بين بني أسد وبين الغساسنة لم تكن كذلك علاقة حب إنما كانت علاقة حروب ودماء، انتصار أو هزيمة، وما يترتب على ذلك من افتخار بالنصر أو تملق لإطلاق سراح الأسرى. ولعل السبب في ذلك العداء يعود إلى غارات بني أسد على قوافل تجارة الغساسنة التي كانت تجوب شبه الجزيرة العربية، والتعرض لها ونهبها أو الرفض بالتسليم لسلطة ونفوذ الغساسنة على هذه القبيلة التي يهم الغسانيين أمرها لوقوعها في أقصى الشمال وتحكمها في الطريق التجاري والقوافل من الحجاج القاصدين مكة(٥).

---

١ - انظر ديوان النابغة الذبياني - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبع دار المعارف ص ٥١ - ٥٢ وحصن هو حصن بن حذيفة الغزاري وكان قد أصاب في غسان قبل ذلك بعام والحي من بني أسد هم بنو قعين.

٢- انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٢١، ١٢٥ ويقال أن عديا هذا هو ابن أخت الحارث الأعرج.

٣- انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٥٦.

٤- انظر ديوان النابغة الذبياني ص ١٢٨.

٥ - انظر رأي تشارلز لايل في مقدمة ديوان عبيد بن الأبرص. وانظر العرب في سوريا قبل الإسلام لرينيه ديسو ترجمة عبد الحميد الدواخلي ص ٣٤ وما بعدها.

ويبدوا أن بني سعد بن ثعلبة بن دودان ـ وهم قوم عبيد ـ قد تعرضوا لخسائر فادحة من جراء هجمات الغساسنة عليهم بقيادة الحارث الأعرج. ونجد في ديوان عبيد ما يشير إلى ذلك والى تفرق بني سعد بن ثعلبة بين القبائل والبطون ومن ذلك قوله:

لِمَنْ طَلَلٌ لَمْ تَعْفُ مِنْهُ المَذَانِبُ  فَجَنْبا حِبِرٍّ قَدْ تَعَفَّى فَوَاهِبُ

ويا رُبنى سَعْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الأُلى  أَذاعَ بِهِمْ دَهْرٌ على النّاسِ رائِبُ

فَأَذْهَبَهُمْ ما أَذْهَبَ النّاسَ قَبْلَهُمْ  ضِراسُ الحُروبِ والمَنايا العواقِبُ(١)

وزبدة القول في علاقة بني أسد بكل من الإمارات العربية الثلاث المناذرة والغساسنة وأسرة آكل المرار (كندة) أنها لم تكن علاقات ودية، فهي في الغالب الأعم علاقات حرب ودم وتمرد، ولعل في هذا بعض التفسير المقنع على وجود روح الثورة عند أبناء هذه القبيلة وعلى إعجابهم وغرورهم بأنفسهم وبخاصة منذ أن قتلوا حجر بن الحارث، ولعلنا نستطيع بهذا أن نفسر تمردهم وتشيعهم فيما بعد حين انضووا تحت لواء الإسلام.



١ ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٨.

## حياة بني أسد الاجتماعية:

لم تكن قبيلة بني أسد بن خزيمة بمعزل عن العوامل التي حددت حياة المجتمع البدوي وشكلت ظروف تلك الحياة وقيمها. فهي برمتها جزءاً من هذا المجتمع قد خضعت لهذه العوامل وتأثرت بها، ومن ثم فقد تمثلت فيها سمات هذه البيئة العامة.

ويبقى علينا أن نتناول حيوات هذه القبيلة وظروف معيشتها ودراسة بيئتها التي عاشت فيها. وسنحاول تحديد كل هذه المعالم آخذين بعين الاعتبار ذلك الفرع من بني أسد وهو بنو غنم بن دودان فقد هجر هذا الفرع نجداً واستقر في مكة وحالف قريشاً وعاش عيشتها. فهؤلاء كانت حياتهم تختلف عن حياة أهل البادية لأنهم أهل حضر ولأن الحياة في مكة كانت تعتمد على التجارة عصب الحياة في المجتمع المكي.

والواقع أننا لا نعرف على وجه الدقة متى هاجر بنو غنم بن دودان إلى مكة وحالفوا بني أمية بن عبد شمس، ولكنها على أية حال هجرة قديمة وبالتالي فقد امتزجوا بشكل كلي في المجتمع القرشي وأصبحوا جزءاً منه وتداخلوا فيه بالمصاهرة والنسب. وصارت صلاتهم بقريش أقوى من صلة الحليف بالحليف، لأنها صلة تقويها القربى ويشدها الرحم. إذ أن بني أسد وكنانة ينتميان إلى أب واحد هو خزيمة بن مدركة وهذا ما عبر عنه أبو أحمد بن جحش بن رئاب حين عاتب أبا سفيان بن حرب ـ حين عدا على دارهم وباعها نكاية بهم لأنهم هاجروا مع النبي "صل" إلى المدينة ـ فهو يذكره بهذه القربى وبالحلف القائم بينهما:

أَبْلِغْ أبا سُفْيانَ عَنْ ... أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ نَدَامَهْ
دارُ ابْنِ عَمِّكَ بِعْتَها ... تَقْضِي بِها عَنْكَ الغَرَامَةْ
وحليفُكُمْ باللّهِ ربِّ ... النَّاسِ مُجْتَهِدُ القَسَامَةْ(١)

ولا أريد الوقوف عند هذا الفرع طويلاً لأنهم كانوا مشاركين لقريش في كل شيء تقريباً، ومما يقال فيهم يمكن أن يقال عن حياة القريشيين في بلدهم المستقر. وإنما الذي يهمنا حقاً هو تلك القبائل من أسد التي كانت تسكن صحراء نجد والتي غلبت عليها البداوة الصرفة، فهي لا تختلف في أسلوب حياتها عن سائر قبائل نجد الأخرى حيث كانت تخضع للنظام القبلي المألوف الذي كان يسود قبائل البدو جميعاً.

وقد عبر ابن خلدون عن هذا فقال: "وكان النظام القبلي دعامة الحياة السياسية في الممالك العربية والإمارات وفي حواضر الحجاز وعلى تخوم الشام والعراق، فلم تنصهر القبائل التي نزلت في هذه المدن والحواضر في شعب واحد كالشعب الروماني أو الفارسي، وإنما ظلت تحتفظ بتنظيمها القبلي على الرغم من اختلاط أنسابها وتداخل شعوبها بحكم اختلاطها بغير العرب ممن لا يعتبرون

١ـ انظر سيرة ابن هشام ص ١٠٥ طبع درا الجيل بيروت ـ الجزء الثاني.

المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم»[١].

ومن الملاحظ أن احتفاظ القبائل ببداوتها ووحشيتها يضمن لها الاحتفاظ بقوتها والتغلب على غيرها وذلك لأنها تعتمد في حياة البادية على العصبية مصدر قوتها، أما إذا اختلطت هذه القبائل بغيرها وبمناطق متحضرة فان خشونتها لا تلبث أن تتلاشى وتزول[٢].

ومن المعروف أن النظام القبلي لم يعرف الرئاسة المطلقة وإنما كان في كل قبيلة نفر من السادة يعترف لهم أفراد القبيلة بسلطان أزلي ويوقرون آراءهم، وكان أعظم هؤلاء السادة عادة يعتبر سيد القوم، وواجباته كثيرة ولكنها ليست محددة، فهو يمثل القبيلة ويتحمل دفع الدية عمن يعجز عن دفعها من أفراد قبيلته ويطعم الضيوف وما إلى ذلك. فإذا دخلت القبيلة في خصومة أصبحت رئاسته مطلقة تقريباً في هذه الحالة[٣] فالفرد يلبي نداء قبيلته إذا دعته إلى نصرتها في ساعات الخطر، وينصر إخوانه ظالمين كانوا أم مظلومين ثم أنه يقبل تحمل بعض المسؤوليات العامة في القبيلة فيسهم في دفع الديات للقتلى من القبيلة الأخرى، أو الفداء عن الأسرى من أبناء قبيلته. ولهذا فان روح المساواة كانت الدعامة الأساسية التي قام عليها المجتمع القبلي. و لم يكن العربي مؤمناً بمبدأ الوراثة بالحكم بل كانوا يأنفون منه. وقد عبر عامر بن الطفيل الشاعر الجاهلي وأحد سادات بني عامر بن صعصعة عن ذلك بقوله

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنَ سَيِّدِ عامرٍ ... وفي السِرِّ منها والصريحِ المُهَذَّبِ
فما سَوَّدَتْنِي عامرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... أَبَى اللهُ أَنْ أَسمو بأُمٍّ ولا أَبِ
ولكنني أَحْمِي حِمَاها وأَتَّقِي ... أَذَاها وأَرمِي مَنْ رَمَاهَا بِمِقْنَبِ[٤]

ولقد كانت قبيلة بني أسد تزخر بالسادة والأشراف المشهورين ممن جاء ذكرهم في المصادر، ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر، خالد بن نضلة الذي ورد ذكره عند ابن حزم بأنه سيد بني أسد وعامر بن عبد الله بن طريف صاحب لواء بني أسد في الجاهلية[٥].

ومنهم الحارث بن ورقاء وهو الذي مدحه زهير بن أبي سلمى[٦] وعلباء بن حارثة بن هلال قاتل حجر وقائد بني أسد في معاركها ضد امرئ القيس بن حجر الكندي. ونوفل ابن ربيعة بن خدان الذي أغار على ثقل الملك حجر بن الحارث فساقه وأصاب جاريتين من جواريه. ومنهم الطماح بن قيس بن عمرو الذي أرسلته بنو أسد ليفسد مسعى امرئ القيس لدى قيصر الروم[٧].

ومنهم أيضاً شأس بن بلي أبو الشاعر عمرو بن شأس الذي نصح تميما وذبيان يوم جبلة بألا

---

١ـ انظر مقدمة ابن خلدون الجزء الثاني ص ٤٢٦ وانظر فيه هذا المجال تاريخ العرب لفيليب حتي ص ٣٤ والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ص ٣٦٥، الجزء الأول. وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٣٥٩ وما بعدها.

٢ـ انظر مقدمة ابن خلدون الجزء الثاني ص ٤٣٨.

٣ـ انظر رأي الدكتور حسين مؤنس على هامش تاريخ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان ص ٣٧.

٤ـ انظر ديوان عامر بن الطفيل تحقيق تشارلز لايل ص وانظر بعض التفصيلات عن سيد القبيلة، جواد علي في المفصل الجزء الرابع ص ٢١٥ وانظر التاريخ السياسي للدولة العربية الجزء الأول طبع ١٩٦٧ ص ٤٩ للدكتور عبد المنعم ماجد.

٥ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٤.

٦ـ انظر الأغاني طبع دار الطبع الجزء التاسع ص ٩٠ وما بعدها.

٧ـ انظر المصدر السابق.

يصعدوا إلى بني عامر فأبوا نصيحته فكان أن هزموا شر هزيمة على حد قول أبي الفرج[١].

ومنهم عمرو بن مسعود وقد أشرت إليه سابقا وهو الذي نقلت الروايات أن المنذر ابن ماء السماء قد قتله وبنى عليه وعلى خالد بن المضلل الغريين. ومنهم سويد بن عمرو الأسدي جد عبيد بن الأبرص وأحد السادة الذين وفدوا عن نزار إلى ربيعة يوم اجتمع عرب الشمال على عرب الجنوب في وقعة خزازى المشهورة[٢] وكان هذا اليوم إيذانا بزوال سلطة عرب الجنوب عن قبائل نزار بأسرها.

ومنهم المهاجر بن خداش ابن عم عبيد بن الأبرص الشاعر المشهور. وقبيصة بن نعيم الذي كان ذا بصيرة بمواقع الأمور وكان على رأي سديد على ما يبدو، وقد شارك في الوفد الذي أرسلته بنو أسد إلى امرئ القيس بن حجر بعد مقتل أبيه يعرضون عليه الدية[٣].

ومن سادتهم المشهورين كذلك قيس بن هلال بن سعد الناضري فارس ذات الحلال وهو الذي أغار على ابل النعمان بن المنذر ومنهم قد بن مالك بن حبيب الوالبي الذي يقول فيه النابغة:

وَلِرِهْطِ حَرَّابٍ وَقَدٌّ سَوْرَةٌ ... في المَجْدِ لَيْسَ غُرابُها بِمَطَارِ[٤]

وكذلك من سادتهم وأشرافهم عبيد بن الأبرص الأسدي الذي حبسه حجر بن الحارث الكندي مع عدد من أشراف قومه في أثناء ثورة بني أسد الأولى عليه[٥].

ومن سادتهم أيضاً الجميح منقذ بن الطماح وكان سيداً من الفرسان وقد قتل يوم شعب جبلة.

ومنهم بشر بن أبي خازم الشاعر المشهور وهو الذي كان على رأس قومه بني أسد يوم عكاظ في حرب كنانة ضد هوازن[٦].

ومن سادتهم طليحة بن خويلد مدعي النبوة في عهد أبي بكر الصديق ومالك الحضرمي بن عامر، وضرار بن الأزور، وكان الثلاثة في وفد بني أسد الذي وفد إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم في السنة التاسعة للهجرة[٧].

ويبدو أنه كان لبني أسد ناد يجتمعون فيه لبحث أمور القبيلة وللتشاور فيما يعرض لهم من ملمات وصعاب، وقد عبر الشاعر عبيد بن الأبرص عن وجود مثل هذا النادي وكأنه يزهو ويفخر، مما يجعلنا نميل إلى أن وجود النادي في القبيلة إنما هو مفخرة ودليل قوة وعنوان بأس يقول عبيد:

اذْهَبْ إِلَيْكَ فَإِنِّي مِنْ بَني أَسَدٍ ... أَهْلِ القِبابِ وَأَهْلِ الجُرْدِ والنّادِي[٨]

ويورد المرزباني قول أحد شعراء أسد مشيراً إلى وجود مثل هذا النادي وهو الأشعر الرقبان

---

١- انظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني طبع دار الكتب جزء ١١ ص ١٤٠.
٢- انظر الأخبار الطوال للدينوري. طبع دار الكتب ص ٥٣.
٣- انظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني طبع دار الكتب - الجزء التاسع ص ٧٩ وما بعدها.
٤- انظر المرزباني ص ٢٢٤ وانظر الديوان ص ٥٥ تحقيق أبو الفضل إبراهيم طبع دار المعارف.
٥- انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق حسين نصار ص ١٢٥ - ١٢٦.
٦- انظر الكامل لابن الأثير طبع المطبعة الأزهرية الجزء الأول ص ٢٣٧.
٧- انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر الجزء الثالث ص ٢٩٦.
٨- انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار ص ٦٣.

حيث يقول هاجياً أحدهم:

إذا مـا انتـدى القـومُ لـمْ تـأْتِهِمْ كـأنَّكَ قـدْ وَلَدَتْـكَ الحُمُـرْ(١)

وعلى الرغم من قلة ذكر الخمر عند عبيد بن الأبرص إلا أننا نجد في ديوانه ما يشير إلى وجود مجالس خمرة عند بني أسد يقول عبيد:

نُغْلِـي السِبـاءَ بكُـلِّ عـا تِقَـةٍ شَـمُول مـا صَحَوْنـا
وَنُهِـينُ في لَذَّاتِهَـا عِظَـمَ التّـلادِ إذا انْتَشَـيْنَا(٢)

ويقول بشر بن أبي خازم:

وَقَـهْوَةٍ تُنْشِـقُ المُسْـتامَ نَكْهَتُهَـا صَهْبَـاءَ صَافِيَـةٍ مِـنْ خَمْـرِ ذِي نَطَـفِ
يَقُـولُ قَاطِبُهَـا لِلْشَّـرْبِ قَـدْ كَلِفَـتْ وَمَـا بهَـا ثَـمَّ بَعْـدَ القَلْـبِ مِـنْ كَلَـفِ
تَـرَى الظُّرُوفَ وَإِنْ عَـزَّ الـذِي ضَمِنَـتْ مَصْفُوفَـةً بَيْـنَ مَبْقُـور وَمُجْتَلَـفِ
فَـي فِتْيَـةٍ لاَ يُضَـامُ الدَّهْـرَ جَـارُهُمُ هُـمُ الحُمَـاةُ عَلـى البَـاقِينَ والسَّـلَفِ(٣)

والواقع أن ما يفرق بين بني أسد وبين غيرهم من القبائل هو أن الأسديين قد أحرزوا مساكن ومياهاً ظلوا فيها و لم يغادروها إلا في النادر القليل حين تضطرهم ظروف الحياة من قحط وجدب في المرعى والماء، وهذا لا يعني أنهم قد عرفوا الاستقرار في حياتهم. فهم من القبائل المتبدية المحاربة، وأكثر أشعارهم تشكو من الفقر وبخاصة حين يكبرون في السن ويصبحون غير قادرين على الغزو، ومن ذلك أن بشر بن أبي خازم خرج في سنة قحط مع قومه باحثين عن طعام فمر بصوار من البقر فذعرت منه فركبت جبلا وعرا ليس منفذ فقام على شعب من الجبل يشير إليها كأنه يرميها بقوسه فأخذت تلقي أنفسها فتكسر وجعل يقول:

أَنْـتَ الـذي تَصْنَـعُ مَـا لَـمْ يُصْنَـعِ
أَنْـتَ حَطَطْـتَ مِـنْ ذُرَى مُقَنَّـعِ
كُـلَّ شَـبُوبٍ لَهِـقٍ مُوَلَّـعِ(٤)

وهكذا فان الفقر كان يعتادهم في مساكنهم على الرغم من بعض المزايا التي أغازوا بها عن غيرهم فبنوا أسد من أرحاء العرب الذين داروا في مواطنهم كما تدور الرحى على أقطابها. وهي خصيصة يكفي أنهم تفردوا بها عن عرب الشمال والجنوب سوى بعض القبائل وهي كما يقول

---

١ـ انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ١٩. يريد إذا جلس القوم في ناديهم تخلفت عنهم لئلا تسأل حاجة أو تكلف بأمر من الأمور.

٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٤٣.

٣ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم تحقيق الدكتور عزة حسن ض ١٥٩.

٤ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم الملحق المقطوعة العاشرة.

صاحب العقد الفريد ست قبائل[1]. ومن الطبيعي أن موارد البيئة الصحراوية غير كافية لسد حاجات سكانها إذ ليس بها صناعة تدر الربح على أربابها، وهب أن بعضاً من أراضيها وواحاتها كان صالحاً للزراعة فانك سوف لا تجد من يعمل بها من هؤلاء البدو فهم يحتقرون الزراعة والصناعة والحرف عموماً، لأن من شأن هذه الحرف أن تحد من حرية المشتغلين بها وتعوقهم عن التنقل والارتحال ويدن حياتهم، فالبدوي من أكثر الناس عشقاً لحريته وهو لا يفضل شيئاً على حياته البدوية البسيطة لما تتيحه له من حرية في الحل والترحال، فهو يقيم في المكان ما وجد الماء والكلأ فان نفدا شد رحاله على ظهر ناقته، وارتحل إلى حيث يصفو له العيش ويطيب له المقام، حارسه سيفه البتار وحاكمه عرفه وتقاليده. وقد عبر الأستاذ أحمد أمين عن حياة البدوي فقال: "وأكثر ما كان يقوم معاش البدوي على رعى الأغنام والأنعام فمن لحومها شبعه وريه ومن أصوافها وأوبارها يغزل ثيابه وخيمته والى جانب هذا فقد كان يعتمد على التمر في طعامه أحياناً فإذا اجتمع التمر واللبن فذاك هو السعد يستبدل بنتاج ماشيته ما يحتاج إليه من تمر ولباس"[2].

ولم يكن للبدوي ملك خاص إلا ماشيته وخباؤه وما يحتويه من متاع متواضع، أما الماء والمرعى فكانا ملكاً للقبيلة لأجمعها.

وإذن فقد كان عيش البدوي بسيطاً مقصوراً على ما هو ضروري لحفظ الحياة وهو عيش مشوب بالضنك والكفاح المرير ضد عوامل الطبيعة القاسية ومخاطر الصحراء، ولذلك فقد كان الفقر أوفر حظاً بينهم وأوسع دائرة يكاد لا يفلت منه إلا السادة الذين يملكون مئات الابل[3].

وهؤلاء السادة كان البون شاسعاً بين ثرائهم وفقر السواد الأعظم من أبناء القبيلة بيد أنهم كانوا أثرياء محبوبين ـ على العكس مما هو مألوف في مجتمعاتنا الحاضرة ـ لأن هؤلاء السادة بما كانت تفرضه عليهم أعراف وتقاليد بيئتهم فقد كانوا كرماء لا يضنون بمالهم على المعوزين من أبناء القبيلة أو على من يقصدهم طالباً صلتهم ـ وبخاصة الشعراء منهم ـ وكتب التراث مملوءة بأخبارهم التي تنم عن سخائهم وإهانتهم للمال. وليس معنى هذا بأي حال أن غنى الجاهلي دائم فقد تذهب به سنة عجفاء مجدبة فيعود الغني فقيراً أو ربما ذهبت به غارة شعواء من قبل قبيلة أخرى وما أكثر هذا في البيئة الجاهلية.

ولذلك كله فقد اقتضت الحاجة أن يكون لحلهم وترحالهم مواسم معينة على مدار السنة، فهم يقيمون على مياههم زمن الحر واشتداد القيظ لا يبرحونها إلا بحرب أو لغزو فإذا هدأت سورة الحر تلك وأخذت النجود بالاخضرار في مساقط الغيث أخذوا يعدون للرحلة إليها. وقد وصف لنا المرزوقي هذا بقوله "لا يزالون يتتبعون مواقع الغيث ويتحولون في معاشب الأرض ويشربون ماء السماء ويجتزون بالرطب عن الورد وهم في سلوة من العيش.. يرمي بهم النوى المرامي فمن شعب يلتئم إلى شعب ومن جمع يلتئم مع جمع ومزار تقرب بعد بُعد ومطاف يسهل عقب وعر ومواعيد بين الأحبة أنجزت وعقود من حبال جوار ووصال أوثقت، حتى إذا تحرك الحفيف ـ وهو أول الحر ـ يتصدعون عن مباديهم ويتفرقون عن مقارهم فكم قلب لفراق الأحبة جزع ودمع لوداعهم همع

---

١ـ انظر العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر الجزء الثالث ص ٣٣٥.

٢ـ انظر فجر الإسلام الأستاذ أحمد أمين الجزء الأول ص ١٠ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٣.

٣ـ انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ٨١.

وأنس لبيئتهم يقطع ووجد ببعدهم يتجدد وكل هذا أتت به الأشعار»(١).

وعلى هذا فان دور وأمواه معروفة لبني أسد قد منحتهم شيئاً من الاستقرار، سيما إذا عرفنا أن تلك المواطن والمواقع إنما تقع في منطقة ممطرة بوجه عام وقد تتعدى الأمطار المألوفة أحياناً فتصل إلى درجة السيول. ولعلنا حين نطالع وصف امرئ القيس لذلك السيل الجارف الذي حدث بالقرب من تيماء ندرك صحة ما نذهب إليه فامرؤ القيس نشأ وترعرع في مواطن بني أسد وشب بينهم لأن أباه كان ملكهم.

ونجد في ديوان عبيد بن الأبرص أكثر من قصيدة يصف فيها المطر والبرق والرعد(٢) ومع هذا فان الماء كان يمثل جانباً مهماً في حياتهم وقد يكون من أقوى الأسباب في التناحر والخصومات يقول أحد شعرائهم مصوراً الصراع على الماء:

كِلاَ أَخَوَيْنَا إِنْ يُرَعْ يَدْعُ قَوْمَهُ ... ذَوِي جَامِلٍ دَثْرٍ وَجَمْعٍ عَرَمْرَمِ
كِلاَ أَخَوَيْنَا ذِي رَجَالٍ كَأَنَّهُمْ ... أُسُودُ الشَّرَى مِنْ كُلِّ أَغْلَبَ ضَيْغَمِ
فَمَا الرُّشْدُ فِي أَنْ تَشْتَرُوا بِنَعِيمِكُمْ ... بَئِيساً وَلاَ أَنْ تَشْرَبُوا المَاءَ بِالدَّمِ(٣)

ونستطيع القول، أن الجاهليين كانوا يعمدون إلى الغزو ـ أحياناً ـ لسببين على الأرجح: أولهما الثأر، وثانيهما حفظ الحياة وبخاصة عندما تجدب وتمحل عليهم الطبيعة فيمسون هم وأنعامهم في خطر ماحق، حينها يصبح الغزو وسيلة لكسب الرزق وحفظ الحياة وليس لمجرد العبث واللهو.

كما أنهم كانوا لا يقبلون الدية في القتل ومن يقبل ذلك منهم عد منقصة عليه وعاراً مهما بلغت الدية من حيث قيمتها المادية ونفعها لأهل القتيل. وهذا أبو الربيع بن لقيط الأسدي يعير الكميت بن معروف وقبيلته الكرشي حين قبلوا دية في قتيل لهم حيث يقول:

شَرَى الكُرْشِيُّ عَنْ طُولِ النَّجِيِّ أَخَاهُمُ ... بِمَالٍ كَأَنْ لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَ حَذْلَمِ
شَرَوْهُ بِحُمْرٍ كَالصُّخُورِ وَأَجْذَمُوا ... عَلَى العَارِ مَنْ يُنْكِرِ العَارَ يَجْذَمِ(٤)

وعلى النحو الذي نجده عند عمرو بن أسد الأسدي حيث يقول محذراً من قبول الدية:

لا تأخذوا الارش الدقيق فانني ... أرى العار يبقى والمعاقل تذهب(٥)

ومما يدل على وفرة ابل بني أسد غرضهم على امرئ القيس ما شاء من الابل إذ قال له قبيصة بن نعيم الأسدي: خذ ما شئت من الابل ووصفها بأنها تزيد عن الحسبة. ولعل هذا هو السبب أو هو سبب من جملة أسباب كانت تدفع بني أسد إلى عدم قبول الدية. ونجد في ديوان عبيد بن الأبرص في أكثر من موقع افتخاره بإبل قومه(٦). وما أكثر ما جاء في شعر الأسديين من استهانة بنحر الابل

---

١ـ انظر الأزمة والأمكنة للمرزوقي الجزء الثاني ص ١٢٧ وما بعدها طبع حيدر أباد سنة ١٣٣٢ هـ.
٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار فهناك أكثر من قصيدة يصف فيها المطر والبرق والرعد والسحاب.
٣ـ انظر حماسة البحتري ـ طبع دار الكتاب العربي بيروت ص ١٥.
٤ـ انظر الوحشيات لأبي تمام ـ طبع دار المعارف بمصر ـ ص ٧٩ ـ ولا ندري عن أمر حذلم هذا شيئاً.
٥ـ انظر حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي الجزء الأول ص ٢١٣ وقد نسبت القصيدة إلى مرة بن عداء الفقسي.
٦ـ انظر الأغاني دار الكتب الجزء التاسع ص ٧٩ وما بعدها وانظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٦ ـ ١٣٧.

لإكرام الضيفان أو للمقامرة بأثمانها في الحوانيت وغيرها على النحو الذي نجده عند سيرة بن عمرو الفقسي حين عيره ضمرة بن حمزة كثرة ابله:

أَعَيَّرْتَنَا أَلْبانَهَا وَلُحُومَهَا ... وَذَلِكَ عَارٌ يَا ابْنَ رِيطَةَ ظَاهِرُ
نُحَابِي بِهَا أَكْفاءَنَا ونُهِنُيهَا ... وَنَشْرَبُ في أَثْمانِهَا وَنُقَامِرُ(١)

ويبدو أنه كان لديهم بعض العبيد الذين يرعون لهم ومن هؤلاء سحيم عبد بني الحسحاس الشاعر المعروف، كما نجد إشارة إلى مثل هؤلاء العبيد عند بشر بن أبي خازم حين خاطب بني عامر بقوله:

بَنِي عَامِرٍ إِنَّا تَرَكْنَا نِسَاءَكُمْ ... مِنَ الشَّلِّ والإيجَافِ تَدْمِي كُعُوبُهَا
عضاريطُنا مُسْتَحْقِبوا البِيْضِ كَالدُّمَى ... مُضَرَّجَةً بالزعفران جُيوبُهَا(٢)

وكانت الإجارة معروفة في المجتمع الجاهلي بعامة وعند بني أسد بخاصة، فقد عرف عنهم أنهم كانوا يجيرون بعض الأفراد من القبائل الأخرى على النحو الذي نجده عند عمرو بن شأس الذي قبل جيرة رجل من بني عامر بن صعصعة على حد رواية أبي الفرج(٣). وكذلك نضلة بن الأشتر الذي أجار رجلا يقال له الأحبش بن قلع فأغار جماعة من بني أسد على ابل له واستاقوها فردها له نضلة أضعافاً كما تقول الرواية(٤). وبالمقابل فقد كان بعض رجال بني أسد من يجاور أقواماً من قبائل أخرى على النحو الذي نجده من مجاورة نضلة بن الأشتر بن حجوان لبني رواحة من بني عبس فعدوا عليه وقتلوه في ثأر لهم فعيرهم الجميح منقذ بن الطماح في قصيدته التي أوردها له المفضل الضبي(٥) ومن ذلك أيضا مجاورة ابن خبأ الوالبي الأسدي لبني جعفر فقتل وهو بجوارهم فلم يأخذوا بثأره أو يدوا ديته إلى ذويه فانبرى لهم بشر بن أبي خازم معيراً وهاجياً في القصيدة التي مطلعها:

أَلَيْلَى عَلَى شَحْطِ المَزارِ تَذَكَّرُ ... وَمِنْ دُونِ لَيْلَى ذُو بِحَارٍ وَمَنْوَرُ

ويضيف بشر قائلاً:

وَقَدْ كَانَ عِنْدي لابْنِ ضَبَّاءَ مَقْعَدٌ ... نِهَاءٌ وَرَوْضٌ بالصَّحَارَى مُنَوَّرُ
دَعَا دعوةً دودانَ وَهْوَ بِبَلْدَةٍ ... قليلٍ بهَا المعروفُ بَلْ هُوَ مُنْكَرُ
وَفِي صَدْرِهِ أَظْمَى كَأَنَّ كُعوبَهُ ... نَوى القَسْبِ عِرّاصُ المَهَزَّةِ أَسْمَرُ
دَعَا مُعْتِباً جَارَ الثُّبورِ وغَرَّهُ ... أَجَمُّ خَدُورٌ يَتْبَعُ الضَّأنَ جَيْدَرُ(٦)

---

١- انظر حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ص ٥٣٧.
٢- انظر ديوان بشر بن أبي خازم تحقيق الدكتور عزة حسن ص ١٩.
٣- انظر الأغاني طبع دار الكتب الجزء الحادي عشر ص ٢٠١
٤- انظر المؤتلف والمختلف للآمدي بمصر ص ٢٨.
٥- انظر المفضليات طبع دار المعارف بمصر ص ٣٦٦.
٦- انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ٨٦ - ٨٧.

ومن الطبيعي أن ترتبط حياتهم الاجتماعية بحياتهم الحربية ارتباطا وثيقا ذلك أن علاقاتهم الاجتماعية مع القبائل الأخرى إنما كانت تقوم على هذا الأساس والواقع أن بني أسد في أواخر القرن السادس إنما كانوا يشكلون قوة لا يستهان بها في شمال شبه الجزيرة العربية[١]. ويبدو أن قتلهم لحجر بن الحارث الكندي وتفريقهم لجموعه من كندة زاد من قوتهم وقد عبر عن هذا الإنتصار شعراؤهم بزهو وخيلاء على النحو الذي نجده عند عبيد بن الأبرص حين خاطب امرأ القيس بقوله:

| | |
|---|---|
| يَـا ذَا الْمُخَوِّفُنَـا بِقَتْـ | ـلِ أَبِيـهِ إِذْلالاً وَحَيْنَـا |
| إِنَّـا إِذَا عَـضَّ الثِّقَـا | فُ بِـرَأْسِ صَعْدَتِنَـا لَوَيْنَـا |
| نَحْمِـي حَقِيقَتَنَـا وَبَعْـ | ـضُ الْقَـوْمِ يَسْـقُطُ بَيْـنَ بَيْنَـا |
| هَـلاَّ سَـأَلْتَ جُمُـوعَ كِنْـ | ـدَةَ يَـوْمَ وَلَّـوْا أَيْـنَ أَيْنَـا |
| أَيَّـامَ نَضْـرِبُ هَـامَهُمْ | بِبَوَاتِـرٍ حَتَّـى انْحَنَيْنَـا |
| وَجُمُـوعَ غَسَّـانَ الْمُلُـو | كَ أَتَيْنَهُـمْ وَقَـدْ انْطَوَيْنَـا |
| وَلَقَـدْ صَلَقْـنَ هَوَازِنـاً | بِنَوَاهِـلٍ حَتَّـى ارْتَوَيْنَـا |
| نَحْـنُ الأُلَى فَـاجْمَعْ جُمُـو | عَـكَ ثُـمَّ وَجِّهْهُـمْ إِلَيْنَـا |
| كَـم/ مِـنْ رَئِيـسٍ قَـدْ قَتَلْـ | ـنَـاهُ وَضَيْـمٍ قَـدْ أَبَيْنَـا[٢] |

فعلاقة بني أسد مع القبائل الأخرى إنما كانت تقوم على هذا الأساس فهي إما علاقة حرب في الغالب أو علاقة حلف، وتمثل حياتهم الحربية أكبر جوانب حياتهم بعامة، إذ أن هذه القبيلة عاشت في صراعات دموية شبه دائمة، وتقلبت عليهم الأحوال بين النصر والهزيمة والحلاوة والمرارة فقد ذاقوا حلاوة الانتصار وتجرعوا الانكسار والهزيمة والأسر والسلب وقد صدق الشاعر دريد بن الصمة حين عبر عن حياتهم فقال:

| | |
|---|---|
| فَإِنَّـا لِلَحْـمِ السَّـيْفِ غَيْـرُ نَكِيـرَةٍ | وَنُلْحِمُـهُ حِينـاً وَلَيْـسَ بِـذِي نُكْـرِ |
| يُغَـارُ عَلَيْنَـا وَاتِرِيـنَ فَيُشْـتَفَى | بِنَـا إِنْ أُصِبْنَـا أَوْ نُغِيـرُ عَلَـى وِتْـرِ |
| قَسَـمْنَا بِـذَاكَ الدَّهْـرَ شَـطْرَيْنِ بَيْنَنَـا | فَمَـا يَنْقَضِي إِلاَّ وَنَحْنُ عَلَـى شَـطْرِ[٣] |

ولقد أبقت لنا المصادر شيئاً من أيام هذه القبيلة ويمكننا أن ندرجها ضمن أطر ثلاثة:
الأول منها: الأيام والحروب التي خاضها بنو أسد بسبب الأحلاف المعقودة بينهم وبين القبائل الأخرى، والإطار الثاني: هو الحروب التي خاضوها بسبب الدفاع عن النفس ضد الغزاة الطامعين من القبائل المجاورة. وأما الثالث والأخير فهي الحروب التي كانت نتيجة الحاجة والرغبة في الكسب المادي. وبادئ ذي بدء نتحدث عن الأحلاف التي عقدت بين بني أسد والقبائل كغيرهم من القبائل. وتفيدنا الروايات بأن أقوى الأحلاف التي عقدت بين بني أسد والقبائل الأخرى هو ذاك الذي عقدوه مع بني ذبيان، وقد استمر سنين طويلة وكانت مساكن ذبيان مجاورة لمساكن بني أسد في نجد

---

١ـ انظر مقدمة ديوان بشر بن أبي خازم للدكتور عزة حسن.
٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص الأسدي تحقيق الدكتور حسين نصار ص ١٣٦ ـ ١٣٨.
٣ـ انظر حماسة أبي تمام طبع المكتبة الأزهرية ص ٣٤١ بشرح التبريزي ـ الجزء الأول.

ولعل صلة الجوار هذه هي التي دفعتهم لإقامة هذا الحلف، وبسببه خاض بنو أسد حرب داحس والغبراء المشهورة والتي وقعت بين عبس وذبيان واستمرت سنين طويلة.

كما خاضوا حرب يوم جبلة مع تميم حليفة حليفتهم ذبيان، وكان بنو ذبيان حريصين كل الحرص على حلفهم هذا لا يرغبون له انفصاما ولا يودون له تصدعا. ومما يدلنا على ذلك ما نجده في شعر النابغة الذبياني من إشادة ببني أسد وبحلف قبيلته معهم ومن ذلك قوله:

لِيَهْنِي بَنِي ذُبْيَانَ أَنَّ بلادَهُمْ ... خَلَتْ لَهُمُ مِنْ كُلِّ مَوْلًى وَتَابِعِ

سِوَى أَسَدٍ يَحْضُرْ بِهَا كُلُّ شَارِقٍ ... بِأَلْفِ كَمِيٍّ ذِي سِلاَحٍ وَدَارِعِ

قُعُوداً على آلِ الوَجِيهِ ولا حِقٍ ... يُقِيمُونَ حَوْلِيَّاتِهَا بالمَقَارِعِ

يَهُزُّونَ أَرْمَاحاً طِوالاً مُتُونُهَا ... بِأَيْدٍ طِوالٍ عَارِيَاتِ الأَشَاجِعِ

فَدَعْ عَنْكَ قَوْماً لا عِتَابَ عَلَيْهِمُ ... هُمُ أَلْحَقُوا عَبْساً بِأَرْضِ القَعَاقِعِ[1]

ونجد النابغة يدافع عن هذا الحلف في أكثر من موقع. فيوم دعت بنو عامر بن صعصعة حصن بن حذيفة وعيينة بن حصن إلى قطع هذا الحلف وإلحاق بني أسد ببني كنانة ليعقدوا حلفاً جديداً معهم ذلك أنهم أبناء أبيهم، وهم عيينة أن يستجيب لهم، - وقف النابغة في وجه هذا الرأي وقال مخاطبا زرعة بن عمرو العامري:

قَالَتْ بَنُو عَامِرٍ خَالُوا بَنِي أَسَدٍ ... يَا بُؤْسَ لِلْجَهْلِ ضَرَّاراً لأَقْوَامِ

يَأْبَى البَلاَءُ فَلاَ نَبْغِي لَهُمْ بَدَلاً ... وَلا نُرِيدُ خَلاَءً بَعْدَ إِحْكَامِ

فَصَالِحُونَا جَمِيعاً إِنْ بَدَا لَكُمُ ... مِنْ أَجْلِ بَغْضَائِهِمْ يَوْمٌ كَأَيَّامِ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ والشَّمْسُ طَالِعَةٌ ... لا النُّورُ نُورٌ ولا الإِظْلامُ إِظْلامُ[2]

ويمضي النابغة الذبياني معددا مناقب بني أسد أمام عيينة بن حصن إلى أن يقول في قصيدة أخرى له:

وَلَوْ أَنِّي أَطَعْتُكَ فِي أُمُورٍ ... قَرَعْتُ نَدَامَةً مِنْ ذَاكَ سِنِّي[3]

ومن أحلافهم - أيضاً - التي عقدوها حلفهم مع ضبة، وكانت ضبة قد دخلت مع بني تميم في حرب فلاذت ببني أسد وطلبت منهم أن يحالفوها على قتال العرب ثلاث سنوات، فأجابهم الأسديون إلى ذلك وبسبب هذا الحلف كان يوم النسار ومن بعده يوم الجفار. وقد جاء ذكر النسار والجفار في ديوان عبيد بن الأبرص حيث يقول:

وَلَقَدْ تَطَاوَلَ بالنِّسَارِ لِعَامِرٍ ... يَومٌ تَشِيبُ لَهُ الرُّؤُوسُ عَصَبْصَبُ

وَلَقَدْ أَتَانِيَ عَنْ تَمِيمٍ أَنَّهُمْ ... ذَئِرُوا لِقَتْلَى عَامِرٍ وَتَغَضَّبُوا

---

١- انظر ديوان النابغة الذبياني طبع دار صادر بيروت ص ١١٥.

٢- انظر ديوان النابغة الذبياني طبع صادر ص ١٤١.

٣- انظر المصدر السابق ص ١٧٤.

وَغَـــداةَ صَبَّحْـــنَ الجِفـــارَ عَوابِســـاً يَهْـــدِي أَوائِلَهُـــنَّ شُـــعْثٌ شُـــزَّبُ(١)

وكذلك حلفهم مع كنانة وقريش وقد أسلفت ذكرا أن بني أسد قد اشتركت في حروب الفجار إلى جانب قريش ضد قيس. وربما قوى هذا الحلف مركز بني غنم بن دودان في مكة حيث كانوا مستقرين بين ظهراني قريش، أضف إلى ذلك أن بني أسد وكنانة أخوان من أب واحد هو خزيمة بن مدركة.

وعلى الرغم من الحروب التي وقعت بين قبيلة بني أسد وقبيلة طيء، وعلى الرغم من أن، طيئاً قد دخلت ديار بني أسد عنوة في الزمن القديم حين نزحت من الجنوب إلى الشمال، إلا أنه فيما يبدو كان هناك حلفاً قد يقام بين القبيلتين الكبيرتين. حتى أنهما سموا "بالحليفين". وحول سبب نشوء هذه التحالفات يقول البكري: "فلما رأت القبائل ما وقع بينها من التنافس والاختلاف والفرقة وتنافس الناس في الماء والكلأ والتماسهم المعاش في المتسع وغلبة بعضهم على بعض على البلاد والمعاش واستضعاف القوي الضعيف، انضم الذليل منهم إلى العزيز وحالف القليل منهم الكثير وتباين القوم في ديارهم ومحالهم وانتشر كل قوم فيما يليهم"(٢).

ويبدو لنا أن الجوار الطويل بين بني أسد وطيء، وحاجة كل منهما لرد العدوان من القبائل الأخرى كان سبباً في إقامة هذا الحلف، وكان من نتائج هذا الحلف أن شاركت طيء في حرب داحس والغبراء إلى جانب أسد حليفة ذبيان ضد عبس. ومما يدل على قوة هذا الحلف ومتانته هو بقاء آثاره إلى عهد الإسلام ففي فتنة طليحة بن خويلد وقف عينية بن حصن الغزاري وقال: "لأن نتبع نبياً من الحليفين يعني أسداً وطيئاً ـ أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش"(٣).

وحين زحف خالد بن الوليد لقتال طليحة والمرتدين من بني أسد وغطفان قال عدي بن حاتم الطائي: لو ترك هذا الدين أسرتي لجاهدتهم ولكني أمتنع عن قتال بني أسد لحلفهم، لعمرو الله لا أفعل(٤).

تلك هي الأحلاف التي عقدوها مع القبائل الأخرى. وتبدو لنا هذه المحالفات شيئاً كان يفرضه الواقع الجاهلي القائم على شريعة الحرب والقتل وإراقة الدماء وبعبارة أخرى فقد كان الحق إلى جانب الأقوى دائما.

وأما الأيام التي خاضها بنو أسد بسبب هذه الأحلاف فيمكننا القول بأن أهمها يوم النسار ويوم الجفار، فلقد كان يوم النسار من أشهر أيامهم التي انتصروا فيها وتتلخص قصته في أن بني ضبة أصابوا نفراً من تميم فلجأوا إلى بني أسد وحالفوهم على قتال العرب ثلاثة أعوام، وحين علم بنو تميم بهذا الحلف الجديد أرسلوا إلى بني عامر بن صعصعة النازلين قرب ماء النسار وتحالفوا معهم على قتال بني أسد ومن حالفهم، وكان من اقتراح بني أسد لحلفائهم بني ضبة أن يعجلوا بني عامر بن صعصعة بماء النسار قبل أن يلحق بهم حلفائهم، ففعلوا وتوجهوا إليهم ونشبت معركة حامية كثر القتل فيها والأسر وقتل في ذلك اليوم رأسهم شريح بن مالك القشيري، وكان النصر حليف أسد

---

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار ص ٦ ـ ٧.

٢ـ انظر معجم ماستعجم للبكري ص ٥٣ الجزء الأول.

٣ـ انظر تاريخ الطبري طبع دار المعارف بمصر الجزء الثالث ص ٢٥٥.

٤ـ انظر المصدر السابق ص ٢٥٥.

وضبة وحلفائهم وقد ورد خبر ذلك في أكثر من مصدر(١).

ويخيل إلينا أن أوزار تلك الحرب قد تحملها بنو أسد دون غيرهم، ولعل وجود ذلك الفخر والزهو في ديوان عبيد بن الأبرص وديوان بشر بن أبي خازم لدليل على ذلك. ويورد ابن الأثير مفاده أن بني أسد قد حققوا بعض السبي في تلك الحرب وأن خيرة نساء بني عامر قد أمست في أيدي الأسديين(٢).

ولا يقل يوم الجفار في الانتصار عن يوم النسار. فقد حدث أن تواعد القوم بعد عام واحد من وقوع يوم النسار. ذلك أن بني تميم غضبت لما حل ببني عامر وحلفائهم في يوم النسار فتنادوا من كل صقع وأجمعوا أمرهم على القتال والأخذ بالثأر من بني أسد وحلفائهم. بيد أن الأسديين ومن حالفهم كانوا أسرع في اللقاء وصبحوا تميماً بماء الجفار وقاتلوهم قتالاً شديداً حتى أفنوا عدداً كبيراً منهم. ويرى الدكتور عزة حسن أن الشاعر بشر بن أبي خازم قد شارك في هذين اليومين ولا نستطيع التسليم بهذا الرأي ذلك أن هذين اليومين قديمان فقد ذكرهما في شعر عبيد بن الأبرص مما يدل على وقوعهما في زمنه إن لم يكونا قبله ـ وعبيد كما هو معروف قتل على يدي المنذر بن ماء السماء والمنذر هذا مات عام ٥٥٤م ـ وبناء على ذلك فإننا لا نستطيع أن نؤرخ لوفاة عبيد بعد هذا العام إن لم يكن قد مات قبل هذا التاريخ فكيف تسنى لبشر أن يشارك في هذين اليومين، وليس معنى ذكره لهما في شعره أكثر من مرة أنه شارك بالفعل فيهما ومما جاء في شعر بشر حول هذين اليومين قوله:

سَائِلْ تَميماً في الحُروبِ وعامراً ... وهَلِ المُجَرِّبُ مثلُ مَنْ لَمْ يَعْلَمِ
غَضِبَتْ تَميمٌ أنْ تُقَتَّلَ عَامِرٌ ... يَومَ النِّسارِ فَأُعْقِبُوا بالصَّيْلَمِ(٣)

ومن أيامهم اشتراكهم في حروب الفجار إلى جانب كنانة وقريش وبخاصة في يوم عكاظ ويوم شمطة. وكانت حزوب الفجار قبل البعثة النبوية بست وعشرين عاماً تقريباً كما تشير المصادر. وقد انتصرت كنانة وقريش على قيس وحلفائها في يوم عكاظ، وتضيف هذه المصادر أن بشر بن أبي خازم كان على رأس قومه من بني أسد في ذلك اليوم. ولعل في هذا وجود بدليل آخر على عدم اشتراك بشر في يومي النسار والجفار(٤).

ومما يدل على استبسال بني أسد في يوم عكاظ قول النابغة الذبياني فيهم:

وَهُم وَرَدُوا الجِّفَارَ عَلى تَمِيمٍ ... وَهمْ أَصْحابُ يَومَ عُكَاظَ إِنِّي
شَهِدتُ لَهمْ مَواطِنَ صَادِقَاتٍ ... أَتَيْنَهُمُ بِوُدِّ الصَّدْرِ مِنِّي(٥)

واشتركت بنو أسد ـ أيضاً ـ مع ذبيان وغطفان وطيء في حرب داحس والغبراء التي قامت بين

---

١ـ انظر العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه طبع دار التأليف والترجمة والنشر ـ الجزء الخامس ص ٢٤٨، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ الجزء الأول ص ٢٨٤.

٢ـ انظر الكامل لابن الأثير الجزء الأول ص ١٨٤. وانظر ديواني الشاعرين عبيد وبشر ففيهما من الفخر بهذا اليوم الكثير.

٣ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٨٠ وانظر المفضليات طبع دار المعارف ص ٣٤٦.

٤ـ انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء الأول ص ٢٧٣ وانظر العقد الفريد الجزء الثالث ص ٩٣ طبع المطبعة الأزهرية.

٥ـ انظر ديوان النابغة الذبياني ص ٧٤ طبع دار المعارف تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

عبس وذبيان، ولعلهم هم الذين قصدهم زهير بن أبي سلمى بقوله في معلقته:

أَلاَ أَبْلِـغِ الأَحْـلاَفَ عَـنِي رِسَـالَةً وَذُبْيَـانَ هَـلْ أَقْسَـمْتُمُ كُـلَّ مقْسَـمِ[1]

ومن الأيام التي خاضوها يوم شعب جبلة. الذي كان قبل الإسلام بنحو أربعين سنة. وفي هذا اليوم كانت بنو أسد بجانب تميم حليفة ذبيان وقد كانوا سائرين لقتال بني عامر بن صعصعة وعبس، فواجه القوم غلام أعسر فتشاءمت بنو أسد وقال بعضهم أرجعوا عنهم فرجعوا و لم يكمل منهم المسير مع تميم إلا نفر قليل، منهم شأس بن بلي أبو الشاعر عمرو بن شأس والجميح منقذ بن الطماح، ولما لاذ بنو عامر وعبس إلى شعب جبلة وصعدوا فيه نصح شأس بن بلي تميماً وذبيان ألا يصعدوا إليهم غير أن لقيط ابن زرارة أمر القوم بالصعود، فلما بلغوا منتصف الجبل أرسل بنو عامر وعبس إبلاً كانوا قد جهزوها لهذا الموقف وصاحوا فيها فانطلقت تحطم كل ما يصادفها وفرقت جموع تميم ومن معها فانهزموا حتى بلغوا السهل، وأخذ بنو عامر وعبس المبادرة فشرعوا يقتلونهم ويصرعونهم وكانت شر هزيمة لقيتها تميم في الجاهلية. وفي ذلك يقول أحد رجاز بني أسد:

زَعَمْـتَ أَنَّ العِـيرَ لاَ تُقَـاتِلْ بَلَـى إِذَا مَـا قَعْقَـعَ الرَّحَـائِلْ

وَاخْتَلَـفَ الهِنْـدِيُّ والذَّوَابِـلْ وقَـالَتِ الأَبطَـالُ مَـنْ يُنَـازِلْ

بَلَـى وفِيهَـا حَسَـبٌ ونَـائِلْ[2]

وفي يوم شعب جبلة قتل الشاعر الجميح حيث كان قد بقي مع من ظل من بني أسد إلى جانب تميم. وأما حروب القسم الثاني فيلوح لنا أن أهمها تلك الحروب التي دارت رحاها بين بني أسد والغساسنة، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الغساسنة كان لهم بعض القوات التي تجوب شبه الجزيرة العربية وقد اشتبكت مع بني أسد في أكثر من مرة، وكذلك مع حلفائها من ذبيان وقع فيها عدد من الأسرى من القبيلتين في يد عمرو بن الحارث الأصغر، وقد سعى النابغة لدى عمرو ملتمساً إطلاقهم، وقد تمكن من ذلك فعلاً كما تقول الروايات[3]. وفي عهد الحارث الأعرج يبدو أن معركة طاحنة قد دارت بين بني أسد وجيوش الغساسنة يوم أغارت تلك الجيوش على بني أسد وكان فيهم عدي بن مالك ابن أخت الحارث، فتصدى لهم بنو سعد بن ثعلبة بن دودان قرب الفرات وكان على رأسهم يوم ذاك ربيعة بن حذار فاقتتلوا اقتتالاً شديداً قتل فيه بنو سعد عدياً، وكانت الهزيمة من نصيب الغساسنة في ذلك اليوم الذي نجد عبيد بن الأبرص يفتخر به ويؤكده كما سبق وأن أشرنا[4].

ونخلص من هذا إلى أن بني أسد والغساسنة كان بينهم شيء من التنازع على النفوذ والسلطة على القبائل في شمال الجزيرة العربية، ومما يجعلنا نرجح هذا ونذهب إليه هو أن بني أسد ربما أصابهم

---

١ـ انظر المعلقات العشر بشرح التبريزي ص ١٥٠ وما بعدها. ويذكر ياقوت أن جبلة هضبة بنجد تقع بين الشريف وهو ماء لبني نمير وبين الشرف وهو ماء لبني طالب. انظر معجم البلدان.

٢ـ انظر العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه الجزء الثالث ص ٥٠٢، وانظر أيام العرب في الجاهلية لجاد المولى "يوم شعب جبلة".

٣ـ انظر الأغاني دار الكتب الجزء الحادي عشر ص ١٥، ١٦.

٤ـ انظر الأغاني لأبي الفرج طبع دار الكتب الجزء الحادي عشر ص ١١٩ وانظر علاقة الغساسنة مع بني أسد في هذا البحث.

شيء من الغرور بعد ثورتهم على حجر وقتله وجعل لهم مهابة ومكانة بين قبائل العرب في شمالي نجد. ولا نستغرب امتداد هذه القبيلة إلى ضفاف الفرات كما يقول أبو الفرج في روايته السابقة مما حدا بالغساسنة إلى محاربتهم والحد من تعاظم نفوذهم بين القبائل المضرية على تخوم مملكتهم.

ويمكننا إدراج يوم الأثل الذي كان لبني أسد على بني سليم تحت هذا القسم وملخص قصته أن صخر بن عمرو الشريد أخا الخنساء غزا بني أسد وآب ببعض الغنائم من ابل وغيرها، فأتى الصريخ بني أسد فركبوا وتنادوا واجتمعوا بذات الأثل الذي هو موضع في بلاد تميم الله بن ثعلبة واقتتل القوم هناك قتالاً ضارياً، وفي ذلك اليوم طعن ربيعة بن ثور الأسدي صخراً في جنبه وفاز بنو أسد بالغنائم بعد رد ابلهم كما تقول الروايات[1] وكان أن مرض صخر من جراء الطعنة تلك وطال به المرض حتى مله أهله ثم ما لبث أن مات متأثراً بجراحه فرثته أخته الخنساء بقصائدها المشهورة.

ومن أيامهم يوم ظهر الدهناء وكان من أسباب وقوع هذا اليوم أن بني بدر الغزاريين ــ وهم حلفاء لبني أسد ـ كانوا قد حرضوا الشاعر الأسدي المعروف بشر بن أبي خازم على هجاء أوس بن حارثة ابن لأم الطائي وهو سيد قومه في طيء. ومحبوب لدى ملك الحيرة النعمان بن المنذر ولعله من المقربين عنده، وكان هجاء بشر لأوس فاحشاً فطلبه أوس فهرب والتجأ لعشيرته بني أسد فمنعوه ورأوا في تسليمه إلى أوس عاراً ومنقصة، فجمع أوس قومه من طيء وسار بهم إلى بني أسد والتقوا بظهر الدهناء، وكانت بينهما معركة أسفرت عن هزيمة بني أسد وفر بشر بن بأبي خازم متنقلاً بين أحياء العرب فترة من الزمن ثم ظفر به أوس بيد أنه عفا عنه فمدحه بشر لذلك في أكثر من قصيدة[2].

ومن أيامهم يوم قلاب، وهو جبل من جبال بني أسد، وكانت ضبيعة قد غزت في هذا اليوم بني أسد وكان صاحب عتبهم يومذاك بشر بن عمرو بن مرشد الضبعي، والتقى بهم بنو أسد بقلاب ودارت المعركة بينهما هناك وقد انجلت عن هزيمة ضبيعة وقتل بشر بن عمرو وابنه علقمة بن بشر كما تقول الروايات، وقد ذكر ذلك بشر بن أبي خازم مفتخراً بهذا اليوم وقتلهم بشر بن عمرو بن مرشد. والذي نستشف من خلال شعر بشر فيه أنه كان جواداً إلى السخاء. يقول بشر بن أبي خازم:

| | |
|---|---|
| أَلاَ هَلْ أَتَاهَا كَيفَ نَأَوْا قَومُهَا | بِجَنْبِ قُلابٍ إِذْ تَدَانَى القَبَائِلُ |
| فَلاَقَاهُمُ مِنَّا بِدَمْخٍ عِصَابَةٌ | عَلَى المُقْرَبَاتِ الجُرْدِ فِيهَا تَخَايُلُ |
| رَمَوْهُمْ فَلَمَّا اسْتَمْكَنَتْ مِنْ نُحُورِهِمْ | قِطَاعٌ خِفَافٌ رِيشُهَا والمَعَابِلُ |
| تَوَلَّوا عَلَيْهِمْ يَضْرِبُونَ رُؤُوسَهُمْ | كَمَا تَعْضِدُ الطَّلْحَ الوَرِيقَ المَعَاوِلُ |

---

١ـ انظر الأغاني الجزء الثالث عشر ص ١٣ طبع دار الكتب وانظر أيام العرب في الجاهلية لجاد المولى ص ٣٩٩ وذات الأثل هو الذي عناه الشاعر بقوله:

| | |
|---|---|
| فإن ترجع الأيام بين وبينكم | بذي الأثل مثل صيفي ومربعي |
| أشد بأعناق النوى بعد هذه | مرائر ان جاذبتها لم تقطع |

٢ـ انظر الأغاني طبع دار الكتب الجزء الثالث عشر ص ١٣٠ وانظر العقد الفريد لابن عبد ربه الجزء الثالث ص ٦١، وانظر أيام العرب لمحمد جاد المولى وزملائه ص ١٣٧ طبع عيسى البابي الحلبي.

قَتَلْنـا الـذِي يَسْـمُو إلى المَجْـدِ مِنْهُـمُ وَتَـأوِي إلَيـهِ فِـي الشِّـتاءِ الأَرامِـلُ(١)

ومن الحروب التي كانت بدافع الحاجة والفقر الذي كان يدفع القبائل العربية إلى غزو بعضها بعضاً يوم "خو"، ويمكننا أن ندرج هذا اليوم في القسم الثالث من حروب أسد. وقد أغار بنو أسد في هذا اليوم على بطن من تميم وهم بنو يربوع واكتسحوا ابلهم وتنادى الحي و لم يستطيعوا اللحاق إلا مساء في مكان يقال له خو، وفي هذا اليوم قتل ذؤاب بن ربيعة الأسدي عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي فارس بني تميم، ووقع ذؤاب في الأسر بعد ذلك فقد أسره الربيع بن عتيبة وهو لا يدري أنه قاتل أبيه فكان عنده أسيراً حتى فاداه أبوه بابل معلومة وتواعدا سوق عكاظ على أن يأتي هذا بالإبل وهذا بالأسير، وكان أن حضر ربيعة بالإبل وشغل الربيع شيء فظن ربيعة أنهم قد قتلوه بأبيهم فقال يرثيه:

أَبْلِـغْ قَبـائِلَ جَعفَـرٍ إنْ جِئْتَهَـا مَـا إنْ أُحـاوِلُ جَعْفَـرَ بـنَ كِـلابِ

أَنَّ الهَـوادَةَ والمَـودَّةَ بيْنَنـا خَلَـقٌ كَسَـحْقِ اليمَنَـةِ المُنجـابِ

أَذُؤابُ إنّـي لمْ أَهِبْـكَ ولمْ أُقِـمْ لِلْبَيـعِ عِنـدَ تَحَضُّـرِ الأَجْـلابِ

إنْ يَقتُلـوكَ فقـد ثَـلَلْتَ عُروشَـهمْ بعُتَيبَـةَ بـنِ الحَـارِثِ بـنِ شِـهابِ

بِأَشَـدِّهِمْ كَلَبـاً علـى أَعْدائِهِـمْ وأَعزِّهِـمْ فقْـداً علـى الأَحْبـابِ

فلما بلغ الشعر بني يربوع عدوا على أسيرهم فقتلوه(٢).

ونجد لهم يوماً آخر أورده أبو تمام في حماسته وذلك أن جماعة من بني ضبيعة بن عجل خرجوا في جمع من بكر بن وائل يطلبون الغنائم وخرجت بنو فقعس من أسد في غزو لهم يطلبون الغنائم أيضاً، فالتقى الجمعان ولا يريد منهم واحد صاحبه فلما التقوا صاح بنو فقعس نزال نزال فلم ينزلوا وقاتلوا على الخيل فشد فروة بن مرثد القعسي على أبي سلهب وهو رجل من عجل فاختلفا ضربتين فقتل كلاهما صاحبه وهزمتهم بنو فقعس وقتلوا منهم نفرا. وفي ذلك يقول الشاعر الأسدي جريبة بن الأشيم الفقعسي:

فِـدَىً لِفَوارِسِـي المُعْلَمِـينَ تَحْـتَ العَجاجَـةِ خَـالِي وعَـمْ

هُـمُ كَشَـفُوا عيبَـةَ العـائِبينَ مِـنَ العـارِ أَوجُهُهُـم كَـالحُمَمْ(٣)

ومن الأيام التي اشتركت فيها بنو أسد بن خزيمة يوم شمطة، وهو لقيس على كنانة وقريش وخبره معروف. بيد أننا لا نعرف كم عدد البطون الأسدية التي اشتركت إلى جانب كنانة وقريش في ذلك اليوم، ونرجح عدم اشتراك القبيلة كلها في هذه الموقعة، ويبدو لنا أن بني أسد كان اشتراكها عشوائياً

---

١ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٧٥ وما بعدها. وانظر ياقوت مادة قلاب ومادة خو.

٢ـ انظر شرح الحماسة للمرزوقي الجزء الثاني ص ٨٤٣، وانظر العقد الفريد لابن عبد ربه الجزء الأول ص ٩٠ ويزيد صاحب العقد في نسب عتيبة جدا قبل الحارث هو عينية. وقد اعتمدت في رواية الأبيات لربيعة على الحماسة ذلك أني وجدت اختلافاً في رواية العقد للأبيات.

٣ـ انظر حماسة أبي تمام بشرح التبريزي ص ٣٢٣ الجزء الأول.

لمن أراد اللحاق بجموع كنانة وقريش. ولم يرد ذكر هذا اليوم في شعر بني أسد الذي حفظته لنا كتب التراث مما يجعلنا نزعم ما ذهبنا إليه[١].

ونجد كذلك يوم ذي علق، وكان بين بني عامر بن صعصعة وبني أسد وقصته أن بني عامر أغاروا على بني أسد في عقر دارهم والتقى القومان في ثنية ذي علق ـ وذو علق جبل بني أسد ـ وأحتدم القتال ـ ودارت الدائرة على بني عامر فارتدوا مهزومين. وفي هذا اليوم قتل ربيعة بن مالك بن جعفر أبو لبيد الشاعر وفي مقتله قال ابنه لبيد فيما بعد:

وَلاَ مِـــنْ رَبِيـــعِ الْمُقْـــتِرِينَ رُزِئْتُـــهُ ... بِذِي علقٍ فَاقْنَيْ حَيَـاءَكِ واصْـبِرِي[٢]

ومن أيامهم ما أشرت إليه سابقاً من أن الجميح منقذ بن الطماح قد أغار على ابل للنعمان بن المنذر ملك الحيرة. وكذلك ما جاء عن بشر بن أبي خازم من أنه أغار في مقنب من قومه على الأبناء. وهم بنو صعصعة وائل ومازن وسلول ـ وفي هذا اليوم الذي قتل بشر بن أبي خازم على أثر طعنة من غلام وقد رثى نفسه بقوله مخاطبا ابنته:

فَـــإِنَّ أَبَـــاكِ قَـــدْ لاَقَـــى غُلاَمــاً ... مِـــنَ الأَبنـــاءِ يَلْتهِـــبُ التِهَابَـــا
وإِنَّ الوَائِلِـــــيَّ أَصَـــابَ قَلْبِـــي ... بســـهمٍ لَمْ يَكُـــنْ نِكســـاً لَغَابَـــا
فَرَجِّــــــــــــــــــــــــــي ... إِذا مـــا الْقَـــارِظُ العَـــنَزِيُّ آبَـــا[٣]
الخَـــيْرْ وانتظِـــرِي إِيـــابِي

وهناك بعض الإشارات لحروب وأيام لم يرد بها ذكر أو تفصيل في المصادر التي وقعت عليها ومن ذلك يوم الغربات وقد ورد ذكره على لسان أحد شعراء بني أسد:

أَلا يـــا طـــالَ بالغُرَبـــاتِ لَيْلِـــي ... ومـــا يُلقَـــى بَنـــو أَســـدٍ بِهِنَّـــهْ
وقائلـــةٍ أَسِـــيتَ فقلـــتُ جَـــيْرٌ ... أَســـيٌّ إِنَّنِـــي مِـــنْ ذالـــكَ إِنَّـــهْ[٤]

ولعله من نافل القول ـ هنا ـ أن بني أسد قد هزموا وقتل بعضهم في ذلك المكان ـ غير المعروف بالنسبة لنا ـ وهذا مما جعلنا لا نستطيع وضع هذا اليوم موضعه مما ذكرنا من أقسام لأيامهم وحروبهم، وكذلك بعض الإشارات التي وردت في شعر كل من عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم عن حروب وقعت بين الأسديين وبعض القبائل الأخرى مثل جديلة وهوازن والرباب يقول عبيد بن الأبرص:

---

١ـ انظر خبر هذا اليوم في الأغاني الجزء الثاني والعشرون ص ٦٥ وانظر العقد الفريد الجزء السادس ص ٩٢، وانظر أنساب الأشراف للبلاذري الجزء الأول ص ١٠٢ ـ ١٠٢.

٢ـ انظر معجم ماستعجم الجزء الثالث ص ٩٦٤ والكامل لابن الأثير الجزء الأول ص ٣٩٢ وانظر بيت لبيد بشرح ديوانه ص ٤٨.

٣ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢٥ وما بعدها. وانظر أسماء من قتل من الشعراء لابن حبيب البغدادي طبع دار التأليف والترجمة والنشر ص ٣٢٤.

٤ـ انظر كتاب الصاحبي تحقيق أحمد صقر ص ٢١٨، وانظر معجم البلدان لياقوت ص ٢٧٥ الجزء السادس.

أُنْبِئْتُ أَنَّ بَنِي جُدَيْلَةَ أَوْعَبُوا ... نُفَرَاءَ مِنْ سَلْمَى لَنَا وَتَكَتَّبُوا(١)

ويقول في إشارة إلى يوم آخر لا ندري عنه شيئاً إلا أنه من المظنون حدوثه بين بني أسد وبني نمير. يقول عبيد مخاطباً أحد أحلافهم:

كَما حَمَيْناكَ يومَ النعْفِ مِنْ شَطِبٍ ... والفضْلُ للقَومِ منْ ريحٍ وَمنَ عَدَدِ(٢)

ومن ذلك قوله معدداً انتصارات بني أسد في أيام لا نعرف تفصيلا لها يقول عبيد:

وَنَحنُ قَتَلْنا الأَجْدَلَيْنِ ومالِكاً ... أعزَّهما فَقْداً عليْكَ وهَالِكَا
ويومَ الرَّبابِ قد قَتَلْنا هُمامَها ... وحُجراً وعَمْراً قدْ قتلْنا كَذلِكَا
ونَحنُ صَبَحْنا عامراً يومَ أَقْبَلُوا ... سُيوفاً عليهنَّ النِّجارُ بَواتِكَا
ونحنُ قتلنا مَرَّةَ الخَيرِ مِنكُمُ ... وَقُرصاً قَتَلْنا كانَ مِمَّنْ أُولئِكَا
ونحنُ قتلْنا جَندلاً في جُموعِهِ ... ونحنُ قتلْنا شيخَهُ قبلَ ذَلِكَا(٣)

من ذلك ما ورد في شعر بشر بن أبي خازم عن حرب وقعت بين بني أسد وهوازن وبينهم وبين باهلة بن يعصر يقول بشر:

إنَّا وباهِلَةَ بنَ يَعْصُرَ بَيْنَنَا ... داءُ الضَرائِرِ بِغْضَةٌ وتَقَافِي
مَن يَثْقَفُوا مِنَّا فليسَ بِمُفْلِتٍ ... أبداً وقتلُ بَنِي قُتيبَةَ شَافِي(٤)

ويقول بشر في موضع آخر مشيراً إلى حرب جرت بين بني أسد وبين الرباب وهوازن فيقول بشر:

وكَعْباً فَسائِلْهُمْ والرَّبابَ ... وسائِلْ هوازنَ عنَّا إذا مَا
لَقيناهُمُ كيفَ نُعلِيهِمُ ... بَواتِرَ يَفرِينَ بَيْضاً وهَامَا(٥)

ومن ذلك ما ورد في قصيدة النابغة الذبياني العينية فهو يتحدث عن انتصار لبني أسد على بني عبس فيقول:

فَدَعْ عنكَ قوماً لا عتابَ عليهمُ ... همُ ألحقُوا عبساً بأرضِ القَعاقِعِ
يَهزونَ أرماحاً طِوالا متونُها ... بأيدٍ طِوالٍ عارياتِ الأشاجِعِ(٦)

---

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٣١.
٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٥٩ يقول البكري شطب جبل ببلاد تميم والوقعة التي كانت به كانت بين أسد ونمير، انظر معجم مااستعجم الجزء الرابع ص ٧٩٧.
٣ـ انظر المصدر السابق "أي ديوان عبيد" ص ٩٤. ويرجح أن يكون قرص هذا من ملوك الغساسنة الذين حاربوا بني أسد.
٤ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٦٠ وباهلة بن يعصر وقتيبة من قبائل قيس عيلان.
٥ـ انظر المصدر السابق ص ١٨٨.
٦ـ انظر ديوان النابغة الذبياني ص ٨٦ ـ ٨٧ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبع دار المعارف.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في شعر سحيم عبد بني الحسحاس الأسديين عن يوم الرشاء الذي كان لبني أسد على نمير بن عامر يقول سحيم:

وَنَحْنُ جلبنا الخيلَ مِنْ جَانبِ الفَضَى ... إلَى أنْ تَلاقَتْ بالرَّشاءِ جَنودُهَا (١)

وفي هذا اليوم قتل رئيس القوم شريح بن حصين النمري وقد قتله الشاعر فضالة بن هند الأسدي وفيه يقول:

يَاوَيحَ أمِّ نُميرٍ بعدَ فَارسِهَا ... إذِ الفوارِسُ تَحمِي عَوْرَةَ الظُّعُنِ (٢)

ومن تلك الأيام يوم ذات الرمث، وقد ذكر هذا اليوم في شعر لزفر بن الحارث الوالبي حيث يقول:

وإنّي بذاتِ الرِّمثِ لَمْ أُلْفَ عَاجزاً ... ولا وَرِعاً يومَ التَّهايُجِ أعْزَلا
منعتُ ابنَ وَدَّاء وقد ظنُّهُ ... وأنقذْتُ من تحتِ الأسنَّةِ نَوْفَلا
وصَابرْتُ حتى أَحْجَمَ القومُ عنهُما ... حِفاظاً وما استعجلتُ مِمَّنْ تَعَجَّلا (٣)

وكذلك نجد إشارة في شعر الأعشى إلى حرب وقعت بين بعض أحياء أسد والرباب وبين قوم الأعشى البكريين يقول الأعشى مشيراً إلى ذلك:

إنَّ الربابَ وحيّاً مِنْ بني أَسَدٍ ... مِنْهُمْ بسير ومنْهم سَاربٌ سَلَفُ
قَدْ صَادفُوا عُصبةً منّا وسيدَنا ... كلُّ يؤمَّلُ قَنيانا ويطَّرِفُ
لَسْنَا بَعيرِ وَبيتِ اللّهِ مائرةٍ ... إلا عَلَينا دروعُ القَومِ والزَغَفُ
قَالُوا البَقِيَّةُ والهِنديُّ يَحصُدُهُمْ ... ولا بقيةَ إلا النارُ فَانكَشَفُوا (٤)

ولا نشك في أن بعض الأيام والحروب لهذه القبيلة المتعددة الأفخاذ والبطون قد ضاعت مع تقادم العهد بها كما ضاع كثير من شعر الجاهليين بعامة، ولعل فيما ذكرته لهم من أيام وحروب يجلو بعض معالم الصورة المأمولة لحياة بني أسد الحربية في نجد بخاصة وفي شبه الجزيرة بأقاليمها المختلفة بعامة، وقد كان لهذه الحياة الأثر البين في ضمير شعراء هذه القبيلة والدليل على ذلك نستطيع أن نتلمسه في كثرة الفخر والإشادة بانتصاراتها على القبائل الأخرى وفي سعي تلك القبائل لعقد المحالفات معها وخطب ودها، ولا نستبعد وجود بعض النفوذ السياسي إن صح التعبير - لهذه القبيلة على بعض القبائل النزارية في نجد وبخاصة بعد مقتل حجر بن الحارث على أيدي أبنائها الميامين.

---

١- انظر ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ص ٤٩ تحقيق الأستاذ عبد العزيز الممني.
٢- انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ١٧٦.
٣- انظر المؤتلف والمختلف للآمدي ص ١٣٠.
٤- انظر ديوان الأعشى الكبير ص ٣٤٥ تحقيق د. محمد محمد حسين ١.

## الحياة الدينية والعقلية للقبيلة:

تعددت الديانات في بلاد العرب قبل الإسلام، فكانوا فرقاً مختلفة: منهم الموحدون المقرّون بخالقهم المصدقون بالبعث والنشور، ومنهم من أقر بوجود خالق وأقر بالبعث وأنكر الرسل وأقام على عبادة الأصنام وحج إليها وقدم لها النحور والقرابين، وهؤلاء هم الذين حكى الله قولهم في قرآنه بقوله: "وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى"(١).

ومنهم من أنكر البعث واستبعده وقد جاء هؤلاء أيضاً في القرآن الكريم "أإذا متنا وكنا ترابا إنا لمردودون ذلك خلق بعيد"(٢)، ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية ـ وهم نفر قليل ـ ومنهم من كان يعبد الملائكة ويزعم أنها بنات الله(٣) وقد تأثرت القبائل العربية بما جاورها من الديانات على أطراف شبه الجزيرة العربية من فرس وروم وملل أخرى. وقد ذكر اليعقوبي "أن أديان العرب كانت مختلفة بالمجاورات لأهل المال والانتقال إلى البلدان"(٤) ونستنتج من كلام اليعقوبي أن الوثنية قد اختلفت مظاهرها في شبه الجزيرة قبل الإسلام باختلاف المكان، فالبدوي الذي يعيش في أواسط نجد كان يأخذ بأبسط المعتقدات وأكثرها سذاجة، ولكن الذي عاش في الجنوب قدم الذبائح والقرابين وزخرف الهياكل مما يمثل مرحلة متطورة عن المرحلة الأولى أدت إليها حالة الاستقرار في المجتمع(٥).

ويهمنا من هذه الفرق التي اتخذت عبادة الأصنام وقد ضمت هذه الفرقة أغلب القبائل العربية في نجد والحجاز ومن بينهم قبيلة بني أسد بن خزيمة ـ فعرب هذه القبائل كانوا يعبدون الأصنام ويحجون إليها ويقومون بطقوسهم بين أيديها فهي في اعتقادهم وسائط يتقرب بها إلى المعبود ويقول بعض المؤرخين: إن عرب الحجاز وما جاورهم في أنحاء نجد نزعوا إلى تكريم الحجارة المقدسة تكريماً لا يختص بقبيلة دون أخرى ويعزون انتشار الأصنام إلى شهرة المعبدين القرشيين الصفا والمروة وكلاهما من أسماء الحجارة(٦) ويقول بعضهم: إن هذه الحجارة التي تكرمها القبائل مأخوذة في أصلها من الحرم المكي وفي ذلك يقول ابن هشام "ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل أنه لا يظعن منهم ظاعن من مكة حينما ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى أدى ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم"(٧) ونجد عبيد بن الأبرص الأسدي يعير أعداءه

---

١ـ انظر سورة الزمر الآية ٣.

٢ـ انظر سورة ق الآية.

٣ـ انظر مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي الجزء الأول ص ٣٨١ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد نشر دار الكتاب المصري ١٩٦٦.

٤ـ انظر تاريخ اليعقوبي الجزء الأول ص ٢١١.

٥ـ انظر المصدر السابق الجزء الأول ص ١٣٣.

٦ـ انظر الاشتقاق لابن دريد ص ٤٦ وانظر ابن الأثير في تاريخه "أسد الغابة في تمييز الصحابة الجزء الثالث ص ٣٢٥

٧ـ انظر السيرة لابن هشام ص ٥١. وجاء في طبقات ابن سعد أن الحجارة المؤلهة قسمان قسم محمول وقسم ثابت لايتزحزح كالمعابد الخاصة بالحجاز ولاسيما مكة انظر طبقات ابن سعد الجزء الأول ص ١٢. ويوافقه في ذلك الأب لامنس في بحثه عن

البقية تتبع

بني جديد لتركهم آلهتهم في ساحة المعركة - مما يثبت نقل هذه الحجارة المقدسة في ترحالهم وحربهم - يقول عبيد:

وتَبدَّلُوا اليَعْبُوبَ بَعْدَ إلاهِهِمْ صَنَماً فَقَرُّوا يا جُدَيلَ وأَعْذِبُوا[١]

ومهما يكن من أمر الروايات التي تقول بأن العرب كانوا على شيء من دين إبراهيم وإسماعيل وبأنهم كانوا يحجون البيت ويعظمون الأشهر الحرم وينكرون الفواحش والتظالم ويعاقبون على الجرائم كما يقول ابن الكلبي[٢]، ومهما يكن من أمر اختلاف المؤرخين في أصل عبادة الأصنام أهي محلية أو خارجية ولهم في ذلك آراء لسنا بصدد بحثها هنا[٣] - فمن المؤكد والثابت أن هؤلاء العرب قد اتخذوا أصناماً لهم يعبدونها ويعظمونها وزادوا على ذلك فاتخذ كل أهل دار بمكة صنما يعبدونه ويتمسحون به تبركا عند رحيلهم أو سفرهم وعند عودتهم[٤].

وقد جاء في الأصنام لابن الكلبي أن العرب كانت تعظم الكعبة وتؤمن بها إيمانا شديدا وتقدسها تقديسا فائقا حتى أنهم كما يقول الثعالبي: "لم يبنوا بناء مربعا تعظيما وتقديسا للكعبة، وكانوا يحجون إليها ويطوفون بها ويؤدون طقوسهم بانتظام أمامها ويقيمون عندها القرابين وينحرون"[٥].

وكان هبل والعزى ومناة من أعظم أصنام العرب وكذلك اللات، وكان أعظمها عندهم هبل وهو على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة ولذا فقد سمي هبل خزيمة[٦] ولم تكن آلهتهم أصناما كلها بل كانت هناك رموز أخرى تسمى الأنصاب فما كان منها تمثالا أو بيتا دعوها الأصنام أو الأوثان وما كان غير ذلك من حجارة غير منصوبة يطوفون بها ويعتزون بها ويدعونها الأنصاب ويسمون الطواف بها الدوار[٧].

والى هذا الدوار يشير المثقب العبدي فيقول:

يُطِيفُ بِنُصْبِهِمْ جُحْنٌ صِغارٌ فقدْ كانت حواجِبُهُم تَشِيبُ[٨]

واليه يشير عامر بن الطفيل حين قدم على أخواله بني غني بن أعصر فيقول:

أَلاَ ليتَ أَخْوالِي غَنِيّاً عَلَيهِمْ كُلَّما أمسَوْا دوارُ.

---

الحجارة المؤلهة عند العرب وعبادتها في الجاهلية والذي نشر بمجلة المشرق الكاثوليكية ببيروت عام ١٩٣٨.

١- انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار ص ٣.

٢- انظر الأصنام لابن الكلبي تحقيق الأستاذ أحمد زكي طبع الدار القومية ١٩٢٤، ص ٦ وانظر تاريخ اليعقوبي الجزء الأول ص ٢١١.

٣- انظر الروض الأنف للسهيلي الجزء الأول ص ٦٣ وانظر سيرة ابن هشام ص ٥١ وانظر الأصنام لابن الكلبي ص ٣٣ وانظر اليعقوبي جزء أول ص ٢١١.

٤- انظر السيرة لابن هشام الجزء الأول ص ٨٥ وانظر الأصنام لابن الكلبي ص ٣٣.

٥- انظر ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص ١٦ وانظر الأصنام لابن الكلبي ص ١٤ - ١٥ والى هذا أشار كثير من الشعراء الجاهليين وربما اتخذت كل قبيلة أكثر من صنم لها فكثرت كثرة مفرطة فبلغت أكثر من ٣٦٠ صنما كما جاء عن ابن الكلبي ص ١٥.

٦- انظر الأصنام لابن الكلبي ص ١٥ - ١٧.

٧- انظر الأصنام لابن الكلبي ص ٤٢ وانظر الروض الأنف للسهيلي الجزء الأول ص ٦٢.

٨- انظر المصدر السابق ص ٤٢.

بِـــبِرّ إلاهِهِـــم ويكـــونُ فِيهِـــمْ على العَـــافِين أيـــامٌ قِصَـــارُ[١]

ويبدو أن العرب من عبدة هذا الأصنام والأوثان قد انقسموا إلى ثلاثة أقسام كما تقول الروايات وهي: الحمس والحلة والطلس ومن الحلة كانت غالبية بني أسد ـ كما أشرنا ـ وكانت العرب تسمى قريشاً حمسا وذلك لتشدددهم في أحوالهم ديناً ودنيا. يقول ابن رشيق: "الحمس هم قريش وكنانة ومن دان بدينهم"[٢] وقد ذكر هذا ابن حبيب في المحبر فقال: "الحمس قريش كلها وخزاعة لنزولها مكة ومجاورتها قريشاً وكل من ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب"[٣] فان صح هذا فان بني غنم بن دودان الذين سكنوا مكة وحالفوا قريشاً قد دانوا بدين قريش وهم على ذلك من الحمس.

وأما عن الحلة فقد ذكر بن حبيب: "وكانت الحلة يحرمون الصيد في النسك ولا يحرمونه في غير الحرم ويتواصلون في النسك ويمنح الغني ماله أو أكثره في نسكه ويجتزون من الأصواف والأوبار والأشعار ما يكتفون به ولا يلبسون إلا ثيابهم التي نسكوا فيها ولا يلبسون في نسكهم الجديد ولا يدخلون من باب دار ولا باب بيت ولا يؤويهم ظل ماداموا محرمين، وإذا دخلوا مكة يصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم ثم يستكرون من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا حولها إلا في ثياب جدد. وكانت الطلس بين الحلة والحمس يصنعون في إحرامهم ما يصنع في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس"[٤].

ونستطيع القول ـ بعد أن استعرضنا الآراء السابقة ـ أن بني أسد بن خزيمة كانوا من عبدة الأصنام وقد تميزوا بعباداتهم وطقوسهم، وأنهم كانوا يتفقون مع قريش في كثير من تلك الشعائر والطقوس ويختلفون عنها في بعضها الآخر. ولم تحدثنا الروايات عن اعتناقهم اليهودية أو النصرانية التي كانت في بعض ربيعة وغسان وبعض قضاعة وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة وكانت المجوسية في تميم[٥].

وتحدثنا الروايات عن بعض أصنام قبيلة بني أسد فتذكر أن أكبرها وأهمها عندهم "هبل" وأول من نصبه خزيمة بن مدركة جدهم الأكبر ويقال له "هبل خزيمة"[٦] كما كان للعزى مكانة كبيرة في نفوس بني أسد وكنانة ومضر وكانوا يحجون إليه ويقدمون له النذر والقرابين[٧]. وقد هدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة الثامنة للهجرة ـ كما تضيف رواية ابن الأثير ـ والى جانب العزى

١ـ انظر ملحق ديوان عامر بن الطفيل ص ١٥٥ تحقيق تشارلز لايل طبع لندن ١٩١٣.
٢ـ انظر العمدة لابن رشيق الجزء الثاني ص ١٩٧ عناية محمد محي الدين عبد الحميد.
٣ـ انظر المحبر لابن حبيب ص ١٧٨.
٤ـ انظر المصدر السابق ص ١٨٠ ـ ١٨١ وتقول رواية ابن حبيب أن بني أسد وهم من الحلة كانوا يطوفون عراة ومنهم يطوف بثيابه وأنهم كانوا يلبون بتلبية خاصة بهم.
٥ـ انظر المعارف لابن قتيبة ص ٦٢١ تحقيق الدكتور ثروت عكاشة ط ٢ دار المعارف بمصر ويورد الألوسي في بلوغ الأرب خبراً مفاده أن حاجب بن زرارة التميمي قد تزوج من ابنته ختنوس. ونحن نستبعد وقوع مثل هذا الزواج ونشك في صحة هذا الخبر لأنه لم يبلغ تأثير المجوسية هذا المبلغ من تميم وكل ما في الأمر كان إشارة من ابن قتيبة أن المجوسية تفشت في بعض تميم.
٦ـ انظر الأصنام لابن الكلبي ص ١٥ ـ ١٧ وانظر أديان العرب في بالجاهلية لمحمد نعمان الجارم مطبعة السعادة ١٩٢٣ ص ١٨.
٧ـ انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء ص ٩٩ طبع بيروت ١٩٦٥.

العزى وهبل فقد كانت بنو أسد بن خزيمة تعظم الكعبة شأنها في ذلك شأن سائر القبائل العربية فهي بمجمع آلهتهم وفيها جميع أصنامهم التي بلغت عدتها حين فتح مكة ثلاثمائة وستون صنما أمر بهدمها جميعا رسول الله "ص"(١).

ونحن لا نوافق الدكتور شوقي ضيف في ما ذهب إليه من أن القبائل العربية كانت قريبة عهد بمذهب الطوطمية وأن أسماء قبائلهم المشتقة من أسماء الحيوانات كبني أسد وبني فهد وبني ضبيعة وبني كلب - لا تشير إلى تقديسهم مثل تلك الحيوانات بل نرى ذلك من قبيل التفاؤل والميل إلى التسمي بكل مايو حي إلى القوة وشدة البأس(٢).

والواقع أن العربي في البادية كان يؤمن بوجود قوى خفية روحية مؤثرة في العالم والإنسان في بعض الحيوانات والطيور والنبات والجماد وفي بعض مظاهر الطبيعة المحيطة به كالكواكب(٣) ولكن ليس معنى هذا أنه كان يعبدها فشعوره نحوها لم يتعد الإجلال والرهبة إن صح التعبير.

ونخلص مما تقدم إلى أن قبيلة بني أسد بن خزيمة قد اتخذت من الأصنام والأوثان آلهة لها ـ شأنها في ذلك شأن أغلب القبائل العربية - وقد ظلت مقيمة على عبادتها حتى ظهور الإسلام الذي لاقى مقاومة عنيفة من الأسديين ومناهضة شديدة وأصبحوا يتحينون الفرص للانقضاض على المسلمين في المدينة، ولعله من أجل ذلك رأيناهم أول المرتدين عن الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤).

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن قبيلة بني أسد قد كان لها نوع من الاتصال باليهود والنصارى الذين كانوا يقطنون في أماكن قريبة من مساكن بني أسد، وإذا ما عرفنا أن اليهود كانوا في خيبر وفدك وتيماء وكان بنو أسد - كما رأينا - قرب جبلي أجأ وسلمى بامتداد الجنوب والجنوب الشرقي من تلك الأماكن، أدركنا أنه بحكم المجاورة كان لابد من وجود علاقة ما وصلات مع هؤلاء اليهود والنصارى الذين كانوا قد اصطبغوا بالصبغة العربية واتخذوا العربية لسانا لهم ونظم بعضهم الشعر فيها واشتهر منهم غير شاعر كالسموأل صاحب الأبلق المعروف بتيماء والربيع بن أبي الحقيق من بني النضير وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التي بين الأوس والخزرج في الجاهلية(٥) ونحن نسلم بهذه المجاورة ولاشك أنه كانت هناك أنماط من العلاقات بين بني أسد وهؤلاء لا نعلم مداها، ولكننا على أية حال لا نجد لها تأثيرات قوية على حياة هذه القبيلة من الناحية الدينية ولا العقلية مما يجعلنا نطمئن إلى أن تلك التأثيرات كانت ضمن حيز محدود(٦).

أما عن اتصالهم بالنصارى فكان - كما نظن - عن طريق الغساسنة في الشمال حيث كان لأسد وحلفائها من ذبيان غارات على أطراف مملكة غسان فيرسل إليهم هؤلاء من يؤدبهم وكان كثيراً ما يأخذ الغساسنة أسرى من أسد وذبيان وغيرهما من القبائل العربية التي كانت تغير على أطراف

---

١- انظر الأصنام لابن الكلبي بص ب١٣ - ١٤ تحقيق الأستاذ أحمد زكي طبع الدار القومية ١٩٦٤.

٢- انظر تاريخ الأدب العربي "العصر الجاهلي" للدكتور شوقي ضيف طبع دار المعارف ص ٨٥ وحول تفسير الطوطمية، انظر الأساطير العربية قبل الإسلام ط القاهرة ١٩٣٧ ص ٥٥ تحقيق محمد عبد المعيد خان.

٣- انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي الجزء الخامس ص ٢٢ وقد اشتهر بنو أسد بملاحظة حركات الطيور وكانوا يتعايفون بها ويتضاءلون ويتشاءمون.

٤- انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزء الثاني ص ١٢٦.

٥- انظر تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف "العصر الجاهلي" طبع دار المعارف ص.١٢٦.

٦- وحول هذه التأثيرات انظر إلى الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور الحوفي ص ٥٧ وما بعدها.

مملكتهم مثل بني تميم وحلفائها. ونظرة إلى ديوان الشاعر عبيد بن الأبرص الأسدي توضح لنا شيئا عن تلك الحروب التي كانت تدور بني قبيلته وبين الغساسنة. ويبدو أن، تلك التأثيرات قد اقتصرت على بعض الاصطلاحات والتشبيهات التي استمدها بعضهم من حياة أولئك وبخاصة ـ الرهبان منهم[١] ولعلنا بهذا نستطيع أن نفسر ما جاء في شعر عبيد بن الأبرص من أفكار توحيدية وذكر لله وللبعث وأن مرده إلى ذلك الاتصال بأهل الديانات السماوية في الحيرة وبصرى الشام.

والحقيقة أن الباحث في ديانة هذه القبيلة وفي حياتها العقلية ليجد صعوبة في الوصول إلى حقيقة ثابتة عن معتقداتهم قبل الإسلام، وهذه الصعوبة ناجمة عن أسباب متعددة أهمها يتعلق بهم وبغيرهم من القبائل الأخرى وهو أن الشعر الجاهلي ـ بصفة عامة قد ضاع منه الكثير قبل عصر التدوين[٢] ويبدو أن مما ضاع من شعر بني أسد أكثر بكثير مما وصل إلينا فكثير من شعرائهم قد ذكر له الرواة البيت أو البيتين أو الثلاثة ومنهم من اكتفت المصادر بذكر اسمه فقط[٣].

ويذكر ابن النديم أن بني أسد لهم ديوان شعر وأن السكري كان قد صنعه وكذلك يذكر ابن النديم بعض الدواوين المفردة لعدد من شعرائهم كان قد رآها وحدد عدد أوراقها ومن قام بصناعتها لكننا لم نعثر على أي منها حتى اليوم[٤].

وثمة سبب ثان هو أن العرب قد نبذوا كل ما هو جاهلي متصل بحياة الشرك عندما جاء الإسلام الحنيف وربما انشغلوا عن رواية مثل تلك الأشعار المتعلقة بالعبادات الجاهلية، وعندما بدأ التدوين كانوا قد نسوها أو تغاضوا عن ذكرها فلم يصل إلينا إلا النذر اليسير من هذه الأشعار التي يفترض أن تكون كثيرة، ومن خلال هذا النذر اليسير حاولنا أن نتلمس صورة الحياة الدينية لهذه القبيلة الكبيرة. وقد رأينا إجماع الرواة على أنها كانت وثنية في عمومها تعبد ما تعبده قريش من أصنام وتؤدي ما كانت تؤديه من طقوس وشعائر كالنحر الذي يقدم للأصنام. يقول بشر بن أبي خازم الأسدي مقسماً:

| | |
|---|---|
| حَلَفْتُ بِرَبِّ الدَّامِيَاتِ نُحورُهَا | وما ضَمَّ أجْوازُ الجِواءِ ومِذْنَبُ |
| وَبِالأُدْمِ يَنظُرْنَ الجِلالَ كأنَّها | بِأكْوارِها وسطَ الأراكَةِ رَبْرَبُ[٥] |

وخلافا لما ذهب إليه الدكتور شوقي من أن القبائل العربية كانت في ذلك الوقت قريبة عهد بالطوطمية وهي مرحلة دينية بدائية في تاريخ الإنسانية[٦] فإني أجد إشارات في شعر هذه القبيلة تدل على وعي ديني أستطيع أن أصفه بأنه متقدم عن الوغي الذي كان سائدا عند عامة الناس. فالشاعر بشر بن أبي خازم يعيب على طيء اتخاذهم قبر أبيهم محجة يحجون إليها يقول بشر:

---

١ـ انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي ص ٥٧ وما بعدها.

٢ـ انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ط المدني ١٩٦٧ ص ٢٣ وما بعدها.

٣ـ يذكر المرزباني في معجمه أحد عشر شاعرا من بني أسد ولم يرو لهم إلا بيتا واحدا من الشعر لكل منهم وذكر أعشى بن أسد وعائذ بن حبيب الفقعسي ولم يذكر لهما شيئا من الشعر وذكر الآمدي في المؤتلف والمختلف الكميت بن معروف والكميت بن ثعلبة والمرار بن سعيد ولم يرو لهم شعراً.

٤ـ انظر الفهرست لابن النديم الصفحات ٢٢٤ إلى ٦٣٤ ويشير الآمدي إلى ذلك أيضا في المؤتلف والمختلف ص ١٨، ٧٢.

٥ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم تحقيق الدكتور عزة حسن طبع دمشق ١٩٦٠ ص ٨ ـ ٩.

٦ـ انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ص ٨٥.

جَعلتــمْ قَــبرَ حارِثــةَ بــنِ لأمٍ إلاهــاً تحلِفُــونَ بــهِ فُجُــورا(١)

والشاعر عبيد بن الأبرص نراه في هجائه لبني جديلة يعيب عليهم اتخاذهم اليعبوب صنما بعد إلههم: يقول عبيد:

وَتبدَّلــوا اليَعبُــوبَ بعــدَ إلاهِهــمْ صَنمــاً فَقَــرُّوا يــا جُدَيْــلَ وأعذِبُــوا(٢)

وغير هذا نجده في ديوان هذا الشاعر من أفكار دينية تتصل بالبعث والحساب والتوحيد. وقد ذهب لويس شيخو إلى اعتباره من شعراء النصرانية(٣) لكننا سبق أن أشرنا إلى أن عبيدا ربما عرف النصرانية أو شيئا منها من جراء اتصاله بملوك الحيرة وغيرهم وليس معنى هذا انه كان نصرانيا فمعرفة الشيء لا تعني اعتناقه، وربما يكون عبيد قد عرف التوحيد كغيره من العرب الذين كانوا على بقية من دين إبراهيم وإسماعيل دون تأثيرات خارجية وقد سمعنا بوجود أمثال هؤلاء الحنفاء في البيئة الجاهلية(٤) فأمية ابن أبي الصلت وعدي بن زيد والنابغة الذبياني تتردد في أشعارهم مثل هذه المعاني الدينية. ولو أننا نشك في كثير من الأبيات التي نسبت لعبيد بن الأبرص لما فيها من الروح الإسلامية الخالصة ونرجح أنها من صنع الرواة في عصور متأخرة(٥). وإذا كنا قد نفينا منذ قليل نصرانية عبيد وغيره من شعراء بني أسد فهذا لا يعني عدم تأثرهم بها وباليهودية، في بعض المصطلحات والمعاني ومن ذلك قول بشر بن أبي خازم لأوس بن حارثة بن لأم الطائي حين ذهب إليه طالبا الصفح عما كان قد بدر منه من هجاء له: يقول بشر:

فَقُلْ كالذِي قالَ ابنُ يعقُوبَ يُوسفٌ لأخوتِــه والحُكْــم في ذَاكَ راسِــبُ
فــإني سَــأمحو بــالذِي أنــا قــائِل بِـه صادقاً ما قلـتُ إذ أنـا كـاذِبُ(٦)

وربما تكون هذه القصة قد تسربت إلى الشاعر عن طريق اليهودية أو النصرانية، وعلى أية حال فان هذا التأثير لا يتعارض مع معرفة بعض العرب بدين إبراهيم وإسماعيل طالما أن هؤلاء الشعراء قد عرفوا قدرا من هاتين الديانتين في شبه الجزيرة العربية(٧). وقد عالج الدكتور محمد مصطفى هدارة هذه القضية في معرض رده على المستشرق مرجليوث في كتابه القيم "الأدب العربي في العصر الجاهلي" من ص ٩٤ إلى ص ١٤٦، كما عبر الدكتور شوقي ضيف عن ذلك بقوله: "ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أن وجود النصرانية في الجزيرة قد أثر في الشعر آثارا مختلفة لا في شعرائها الخاصين بل أيضاً في بعض الشعراء الوثنيين، وكان من آثار ذلك ظهور جماعات المتحنفين وتسرب

---

١ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ٩٠.
٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار ص ٣٢.
٣ـ انظر شعراء النصرانية ط بيروت ص ٥٩٦ وما بعدها طبع الآباء اليسوعيين ١٨٩٠م.
٤ـ انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور الحوفي طبع نهضة مصر ص ٤٠٠ وما بعدها.
٥ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٢٦، ٤٩، ٥٠، ٦٩، ٧٠.
٦ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ٤٢.
٧ـ انظر الأدب العربي في العصر الجاهلي ص ٩٤ ـ ١٤٦ طبع دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية للدكتور محمد مصطفى هدارة.

فكرة البعث والحساب إلى نفر من الجاهليين»(١) ولعلنا نستطيع أن نفسر اعتقاد بعض شعراء بني أسد كعبيد وبشر في بالحساب يقول بشر بن أبي خازم:

فَعَفَوْتُ عنهمْ عفوَ غيرِ مُثرِّبٍ ... وتركتُهمْ لحسابِ يومٍ سَرْمَدِي(٢)

وليس معنى هذا أن نسلم بمعرفة هؤلاء الشعراء من بني أسد للبعث وللحساب معرفة خالصة لا يشوبها الغموض فهي اعتقاد بدائي على أية حال، فهذا عبيد بن الأبرص يعتقد اعتقادا وثنيا إلى جانب نظرته التوحيدية فيزعم أن الأرواح تطير كالهواء بعد الموت يقول عبيد:

هلْ نحنُ إلا كأجسادٍ تمرُّ بنا ... تحتَ التّرابِ وأرواحٍ كأرواحِ(٣)

وهذا شاعر أسدي آخر يقول وهو جريبة بن الأشيم الفقعسي في يوم القيامة موصيا ابنه سعدا بأن يربط له ناقته قرب قبره حتى يستطيع ركوبها يوم الحشر يقول:

يا سعدُ إمّا أهلِكَنَّ فإنّني ... أُوصيكَ إنَّ أخا الوَصاةِ الأقربُ
لا تَتْرُكنَّ أباكَ يُحشَرُ راجلاً ... في الحَشْرِ يُصرَعُ لليدَيْنِ ويُنكَبُ
واحمِلْ أباكَ على بعيرٍ صالحٍ ... وتَقِ الخطيئةَ إنهُ هوَ أقربُ
ولعلَّ لي فيما تركْتَ مطيةً ... في القبرِ أركبُها إذا قيلَ اركبُوا(٤)

وفي رواية لأبي الفرج يقول فيها: إن قباذ بن فيروز حينما ولي عرش فارس اعتنق بدعة فردك في الزندقة ودعا المنذر بن ماء السماء عامله على الحيرة لاعتناق تلك البدعة فأبى المنذر فخلعه قباذ وولى مكانه الحارث بن عمرو جد امرئ القيس الشاعر المشهور وكان ذلك بعد أن قبل الحارث الدخول في هذا الدين(٥).

فإذا صح هذا الكلام فلا غرابة أن يكون أولاد الحارث على دين أبيهم ومنهم حجر الذي كان ملكا على بني أسد والذي يتهمه اليعقوبي بالزندقة في الجاهلية(٦) وإذا كان الناس على دين ملوكهم على حد قول ابن خلدون في مقدمته فليس من المستبعد أن يكون عدد من بني أسد قد عرف الزندقة في الجاهلية، وبخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار نشأة امرئ القيس في ديار بني أسد وتفحصنا متأملين جرأته في الغزل وتهتطه فيه على غير المألوف من شعراء عصره الأمر الذي يدفعنا إلى القول أنه كان يحمل بعض صفات الزنديق.

---

١ـ انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ١٠٢ ـ ١٠٣.
٢ـ انظر لسان العرب لابن منظور مادة ثرب وقيل أن هذا البيت لتبع. ومن ذلك الأبيات في معلقة زهير بن أبي سلمى. وانظر ملحق ديوان بشر المقطوعة الرابعة.
٣ـ انظر ديوان عبيد ص ٥٠.
٤ـ انظر الملل والنحل للشهرستاني طبع مطبعة الأزهر الجزء الثالث ص ٢٣٠.
٥ـ انظر الأغاني، دار الكتب الجزء التاسع ص ٨٠ وما بعدها ووردت الرواية عن ابن الأثير في الكامل الجزء الأول ص ٢٥٥ وما بعدها وفي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. يشك الدكتور جواد علي في قصة دخول الحارث في المزدكية رغم وجود علاقة بين قباذ والحارس.
٦ـ انظر تاريخ اليعقوبي طبع دار الفكر بيروت جزء أول ص ٢٩٨.

ولم تكن الزندقة شيئا غريبا عن المجتمع الجاهلي فابن الكلبي يحدثنا في رواية له قائلا: "إن الزندقة قد عرفت في قريش وأن عقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف والنضر ابن الحارث والعاص بن وائل والوليد بن المنيرة كانوا ممن عرفوا بها" ونقل ابن عباس قوله: "إن هؤلاء وقعوا على الزندقة من الحيرة حيث كانوا يذهبون إليها بتجارتهم"(١).

وفي رواية ثانية لابن قتيبة تؤكد ما رواه ابن الكلبي - نجده فيها يروي طرفا من أخبار الزنادقة فيقول: "إن العرب أخذت الزندقة من الحيرة وأن جماعة من تميم كانوا يتصفون بها، منهم زرارة بن عدس وابنه حاجب بن زرارة الذي قيل انه تزوج من ابنته ثم ندم والأقرع بن حابس الذي أسلم فيما بعد وحسن إسلامه"(٢).

ونحن لا نشك أن بني أسد قد اتصلوا بالحيرة - أو بعضهم على الأقل — في وقت مبكر وعرفوا معتقداتها من أهلها كعبادة الكواكب والديانات الفارسية والزندقة وغيرها، وإذا كنا لا نستغرب تسرب الزندقة إلى نفر منهم فليس معنى هذا أنهم اعتنقوها بالصورة التي اعتنقها الفرس. وإذا كنا زعمنا ورجحنا أن شعراء هذه القبيلة كانوا أرقى مستوى من حيث الاعتقاد الديني عامة من بقية رجال قبائل العرب الأخرى التي كانت تشترك جميعا في أغلب معتقداتها، فانهم جميعا - شعراء وغير شعراء - كانوا يعتقدون بالزجر والكهانة والعيافة والتطير إذ كان لهم كهان يأخذون بآرائهم عندما تحزب الأمور وتشتد ومن هؤلاء الكهان الكاهن الأسدي عوف بن ربيعة بن سوادة بن ثعلبة بن دودان فقد جاء في رواية لأبي الفرج: "إنه تكهن بقتل حجر بن الحارث وسلب أمواله إذ قال لقومه: يا عبادي، قالوا: لبيك ربنا، قال: من الملك الأصهب الغلاب غير المغلب في الابل كأنها الربرب لا يعلق دمه الصخب هذا دمه يتشعب وهذا غدا أول من يسلب قالوا من هو ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفسي جاشية لأخبرتكم أنه حجر ضاحية"(٣).

ويضيف أبو الفرج مشيراً إلى الكهانة في بني أسد مرة أخرى فيقول: إنهم لما هزموا جموع حجر وفرقوا جنده حبسوه ثم تشاوروا في أمر قتله فقال لهم كاهن من كهنتهم: أي قومي لا تعجلوا بقتل الرجل حتى أزجر لكم فانصرف عن القوم ينظر في قتله فلما رأى علباء بن حارثة ذلك خشي أن يتواكلوا في قتله فكلف غلاما من بني كاهل بن أسد بقتله فقتله قبل مجيء الكاهن الزاجر، فلما جاء الكاهن قال إلى قومه: قتلتموه! ملك شهر وذل دهر أما والله لا تحظون عند الملوك بعده أبدا(٤).

وبغض النظر عن صحة هذه الرواية وتفاصيلها فانه من المؤكد والثابت أن الكهانة والزجر والعيافة كانت معروفة في بني أسد كما هي عند غيرهم من القبائل الأخرى، ويبدو أن بني أسد قد اشتهروا بها أكثر من غيرهم، ويذهب إلى هذا ابن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥ هجرية في كتابه "المحبر" حيث يقول: "إن عوف بن عامر وهو من بني أسد بن خزيمة قد تكهن أيام حجر أبي امرئ القيس"(٥) ونرجح أن يكون عوف هذا هو عوف ابن ربيعة الذي ذكره أبو الفرج الأصفهاني.

---

١- انظر كتاب مثالب العرب ص ١٥٥ مخطوط نقلا عن كتاب الدكتور محمد مصطفى هدارة اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري طبع دار المعارف ١٩٦٩ ص ٢٢٧.

٢- انظر كتاب المعارف لابن قتيبة طبع دار المعارف ص ٦٢١.

٣- انظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني لكتب الجزء التاسع ص ٧٧ وما بعدها وقد وردت الكلمة باللسان يتعب أن يسيل ويجري كذا في طبعة الدار.

٤- انظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الجزء التاسع ص ٨٠ وما بعدها.

٥- انظر المحبر لابن حبيب ص ٣٩١ ط الهند ١٩٤٢.

وقصارى القول في الحياة الدينية لبني أسد هو أن هذه القبيلة كانت الوثنية غالبة عليها رغم ظهور بوادر رقي في الوعي الديني عند شعرائها ومرد ذلك إلى اختلاطهم وتأثرهم ببعض الديانات كالحنيفية والنصرانية واليهودية والصائبة.

أما حياتهم العقلية فالواقع أنها لا تتسم بشيء مميز عن سائر القبائل التي عايشتهم في صحراء نجد. وهي في الغالب حياة بدوية بكل سذاجتها وبدائيتها إذ لم يكونوا أهل صناعة وعلوم، ولم تكن ظروف حياتهم البدوية غير المستقرة لتؤهلهم لمثل تلك الحياة، إلا أنهم كانوا ملمين ببعض المعارف التي دعتهم إليها ظروف حياتهم الصحراوية القاسية القائمة على عدم الاستقرار من جهة وعلى القتال المستمر من جهة ثانية، ومن ذلك علمهم بالأنساب التي كانت تشاركهم فيه سائر القبائل العربية الأخرى، كما كانوا على علم ودراية بعلم الفلك، كمواقع النجوم ومطالعها وأنواعها على مدار السنة إذ كانت النجوم جزءاً من حياتهم ويروي الجاحظ "أن أعرابية سئلت فقيل لها: أتعرفين النجوم؟ قالت: سبحان الله! أما أعرف أشباحا وقوفا على كل ليلة"[١]. وكما أشرنا فان بني أسد قد اتصلوا بالحيرة في وقت مبكر وربما سكن بعضهم تلك النواحي أو بالقرب منها ويؤيد هذا اليعقوبي فيذكر: "وكانت بنو أسد منشرة من لدن قصور الحيرة إلى تهامة"[٢] وبعضهم امتد بها إلى ضفاف الفرات منذ القرن الثالث الميلادي[٣].

ومن المعروف أن السريان كانوا يقطنون في تلك المناطق أيضاً "أي الحيرة وما حولها"[٤]. وبناء على ذلك فانه ليس من الغريب أو المستبعد تأثر بعض بني أسد بما كان معروفاً عند السريان من معتقدات وعلوم تتعلق بالكوكب والنجوم، ولعل عبادتهم لعطارد التي أشرت إليها سابقا كانت من ذلك الأثر، وعبادة الكواكب بصورة عامة كانت تشكل جانباً في حياة بني أسد وغيرهم من القبائل العربية الأخرى التي كانت مجاورة لهم ولعله نتيجة لذلك كثر شعر النجوم في شعرهم من ذلك قول بشر بن أبي خازم:

أُراقِبُ في السماءِ بَناتِ نَعْشٍ وقدْ دارتْ كما عطَفَ الصِّوارُ[٥]

ومن ذلك أيضا ما قاله الشاعر عبيد بن الأبرص حين شبه بياض الثور الوحشي بالكوكب الدري يقول عبيد:

كالكَوكَبِ الدِّرِيءِ يُشرِقُ متنُهُ خَرِصاً خَميصاً صُلْبُهُ يَتأَوَّدُ[٦]

ونرى بشر بن أبي خازم يعكس التشبيه في بيت آخر فيشبه قطيع بقر الوحشي بالكواكب يقول

---

١ـ انظر الحيوان للجاحظ الجزء السادس ص ٣٠

٢ـ انظر تاريخ اليعقوبي طبع دار الفكر بيروت جزء أول ص ٢٦٣.

٣ـ انظر دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية ص ٢٨٠ ويذهب بطليموس إلى رأي يقول أن نواة تنوخ نشأت من أسد. ولكن الثابت أن بني أسد قد خضعت لحكم تنوخ في ذلك الوقت المبكر ومن الصعب معرفة مدة ذلك الحكم التنوخي لأسد.

٤ـ انظر فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٣٤ وانظر د. شوقي ضيف في التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٣٧ وما بعدها وانظر تاريخ الفلسفة العربية لدى بور ص ١٥.

٥ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ٦٥. وبنات نعش مجموعة من النجوم عددها سبعة تدور حول القطب الشمالي.

٦ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤٦.

بشر:

وَبِتْنَ رُكُوداً كالكَوكبِ حَوْلَهُ ... لَهنَّ صريرٌ تحتَ ظَلْماءَ حِنْدَسِ(١)

ومن ذلك قول سحيم عبد بني الحسحاس الأسديين حين صور-صدر محبوبته عميرة فقال:

كأنَّ الثُريا فوقَ نحرِهَا ... وجَمرِ غضىً هَبَّتْ بهُ الريحُ ذَاكِيا(٢)

والواقع أن معرفة بني أسد وغيرهم من القبائل العربية ببعض العلوم إنما هي معرفة دعتهم إليها الحاجة وطول التجربة وفرط العناية للتلاؤم مع ظروف حياتهم المعيشية ولم تكن معرفة غرضها الوصول إلى الحقائق والتثبت منها(٣) وكذلك كانت معرفتهم ببعض وسائل العلاج للأمراض مثل الكي بالنار، ومن هذا القبيل يقول الشاعر معقل بن عامر الأسدي حين مر يوم جبلة على ابن الحسحاس بن وهب الأعيوي وهو صريع فاحتمله إلى رحله وداواه حتى برء من جراحه. يقول معقل:

يَدِيتُ عَلى ابنِ حسحاسِ بنِ وهبٍ ... بأسفلِ ذِي الجِداةِ يدَ الكَريمِ

قَصرْتُ لهُ منَ الحَمَّاءِ لمَّا ... شَهدتُ وغابَ عن دارِ الحَميمِ

أُنبِّئهُ بأنَّ الجرحَ يُشْوَى ... وأنَّكَ فوقَ عِجْلِزَةٍ جَمُومِ(٤)

والكي بالنار للجروح تعرفه سائر القبائل العربية وهو إلى يومنا هذا لا يزال نوعا من العلاج في بعض الحالات وبخاصة عند العرب البداة في بادية الشام وصحراء نجد.

ومن المعارف التي اشتهرت بها قبيلة بني أسد بن خزيمة القيافة والزجر، وقد روى الجاحظ عن يونس بن حبيب قوله: "ليس في بني أسد إلا خطيب أو شاعر أو قائف أو زاجر أو كاهن أو فارس"(٥) فالقيافة والزجر من المعارف التي كانوا يعيرونها أهمية كبيرة في حياتهم وبخاصة في حوادثهم وعند الإقدام على كبار الأمور وهي معارف تعتمد على التنبؤ بحركات الطير ووجهة طيرانه يمينا أو يسارا، فان كان إلى جهة اليمين سمي البارح، وان كان إلى جهة الشمال سمي السانح وكانوا يتفاءلون بالبارح ويتشاءمون من السانح. ولقد ذكرنا قول كاهنهم عندما أسروا حجر بن الحارث أبا امرئ القيس لا تعجلوا في الرجل حتى أزجر لكم. بل نجد الشعراء ـ وهم يمثلون الطبقة الواعية منهم ـ كانوا يزجرون الطير ونستدل على ذلك مما فعله بشر بن أبي خازم عندما سيق إلى أوس لأم الطائي وكان أوس هذا قد توعد بشرا بالقتل إن هو ظفر به لأن بشرا كان قد أفحش في هجائه وتعرض لأمه سعدى في هذا الهجاء فقد زجر بشر الطير قبل أن يلتقي بأوس فجاءت بما يحب فقال:

---

١ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص١٠٣.

٢ـ انظر ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ص ١٧ تحقيق عبد العزيز الميمني.

٣ـ انظر طبقات الأمم طبع بيروت تأليف صاعد بن أحمد المطبعة الكاثوليكية.

٤ـ انظر الأغاني طبع دار الكتب الجزء الحادي عشر ص ١٤٧ وانظر حماسة أبي تمام شرح المرزوقي الجزء الأول ص ١٩٣. الأعيوي: نسبة إلى فخذ من أفخاذ أسد وهو أعيا بن طريف بن عمرو بن قعين.

٥ـ انظر البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هرون الطبعة الرابعة بمصر جـ ١ ص ١٧٣.

لقـدْ زجـرتُ الطـيرَ زجـراً لمْ أُلِـمْ ... تقـولُ قـولاً غـيرَ أقـوالِ الحُلُـمْ[١]

على أن علم بني أسد إنما يكمن في شعرهم الذي خلفوه لنا فلقد كانوا أهل فصاحة ولسان وحكمة وتجارب، وقد عرفوا بذلك في الجاهلية والإسلام ويروى عن عمرو بن عبد العزيز قوله "ما كلمني رجل من بني أسد إلا تمنيت أن يمد له في حجته حتى يكثر كلامه فأسمعه"[٢].

والحكمة عند شعراء بني أسد صفة لازمت شعرهم في الجاهلية والإسلام ويتزعمهم في ذلك الشاعر عبيد بن الأبرص ويذكر الدكتور سيد حنفي في كتابه "الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية أن عبيدا يفوق شعراء الجاهلية وعلى رأسهم زهير بن أبي سلمى في استخلاص الحكمة من الحياة والإكثار من نظمها في قصائده"[٣].

والواقع أن حكمة عبيد بن الأبرص ليست الوحيدة في شعر هذه القبيلة فجُلُّ شعراء بني أسد يكثرون من هذه الخصيصة في قصائدهم بل أن أقوالهم التي لا تتعدى البيت والبيتين لا تخلو منها، ومن ذلك ما رواه الأصمعي عن أبي العلاء أن يزيد بن الصعق ساب رجلا من بني أسد فقال يزيد في ذلك:

وَلِعْتُـم بتمريـنِ السـياطِ وأنتـمُ ... يُشَبِّـنُّ عليكـمْ بالقَنَـا كـلُّ مِربَـعِ
بـني أسـدٍ مـا تـأمرونَ بـأمرِكُمْ ... إذا لحقَـتْ خيـلٌ تَثـوبُ وتَدَّعِـي

فأجاب الأسدي:

أَعِبْـتَ علينـا أن نُمَـرِّنَ قَدَّنـا ... ومـنْ لا يُمَـرِّنْ قـدَّهُ يَتَقطَّـعِ[٤]

فتأمل كيف جاء بالحكمة في الشطر الثاني بدون عناء وكأنما هي شيء من طبعه لازمة لكلامه. ومع هذا فإننا لا نستطيع القول لأن حكمة شعراء أسد تعبر عن فلسفة معينة ورؤية محددة واضحة بمعناهما الذي عرف فيها بعد، وهي لا تعدو أن تكون نظرات صائبة في الحياة أملتها عليهم التجارب والخبرات وطول المعاشرة للأشياء وكثرة تقلب الأحوال دون تعميق في علل ومسببات هذه الأشياء.

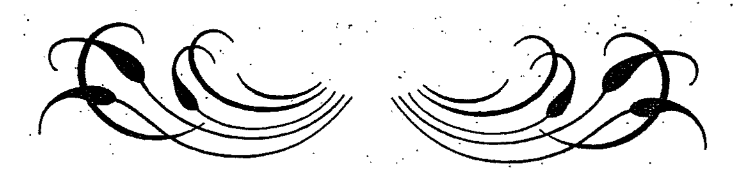
وقصارى القول في حياة بني أسد العقلية هي أنها مجموعة من المعارف المختلفة كانوا قد عرفوها في جاهليتهم كما عرفها غيرهم من القبائل العربية الأخرى، وهي معارف لا تصدر عن عمق ودراية وبحث بقدر ما هي معارف ساذجة بسيطة احتاج إليها البدوي في حياته الصحراوية كما أن شعراء هذه القبيلة قد تميزوا بالإكثار من الحكمة في نظمهم عن سائر شعراء القبائل الأخرى. ولعل هذا قد تأتى لهم من جراء اختلاطهم بعدد من البيئات وإطلاعهم على أكثر من نمط للحياة في الحيرة وغيرها.

---

١ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢١٦.
٢ـ انظر البيان والتبين تحقيق عبد السلام هرون الطبعة الرابعة الجزء الأول ص ١٧٤.
٣ـ انظر الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية للدكتور سيد حنفي ص ٥٦.
٤ـ انظر الأصمعيات طبع دار المعارف ص ١٦١ وما بعدها.

الفصل الثاني

# مَصَادِرُ شِعْرِ بَنِي أَسَدٍ



## في هذا الفصل:

كتب طبقات الشعراء وأخبارهم

ظاهرة التشكيك في بعض أشعارهم



باستطاعة الباحث أن يرد شعر قبيلة بني أسد في الجاهلية ـ كما ورد إلينا في كتب التراث ـ إلى المصادر الآتية:

أولاً: شعر ورد إلينا في دواوين كانت في الأصل مخطوطات حققت ونشرت من قبل باحثين معاصرين.

ثانياً ـ شعر ورد في كتب الأدب والتاريخ واللغة وكتب التراث بصورة عامة، وقد وردت هذه الأشعار عن طريق الرواية والأخبار والاستشهاد أو الشرح والتعليق.

ثالثاً ـ شعر ورد إلينا في دواوين مفردة جمعت مادتها من قبل علماء وباحثين من بطون أمهات الكتب ـ وسأعرض لكل ما سبق بشيء من الإسهاب.

فأما الدواوين الشعرية والتي كانت في الأصل مخطوطات فإنها تمثل أهم مصادر شعر بني أسد وأكثرها قيمة وتوثيقا. ومما يؤسف له أن هذا الشعر هو أقل كما من القسمين الآخرين وهو بالتحديد يتكون من:

أولا ـ ديوان الشاعر عبيد بن الأبرص الذي عثر على مخطوطته المستشرق الإنكليزي تشارلز لايل فحققه ونشره في لندن عام ١٩١٣م وقد علق عليه وقدم له بمقدمة قيمة جدا. وقد تناول هذا الديوان بالبحث والتحقيق من جديد الدكتور حسين نصار في القاهرة عام ١٩٥٧، ونشر بعد ذلك في بيروت بدار صادر عام ١٩٦٤ بتقديم وشرح للأستاذ كرم البستاني، إلا أن طبعة لندن وطبعة القاهرة هما المعول عليهما في توثيق الأشعار.

ثانيا ـ ديوان بشر بن أبي خازم. وقد تناوله بالتحقيق وقدم له الدكتور عزة حسين ونشره في دمشق سنة ١٩٦٠ معتمدا في تحقيقه على مخطوطتين: الأولى في تركيا بدار كتب "جوروم"، والثانية في مكتبة "دار اللغات" بجامعة أنقرة بتركيا أيضا. ثم أعاد نشره في طبعة ثانية ١٩٧٢، وقد أضاف فيها ما وجده من زيادات في نسخة مخطوطة ثالثة عثر عليها في مكتبة "آل باش" بمدينة البصرة في العراق.

ثالثا ـ ديوان سحيم عبد بني الحسحاس من بني أسد بن خزيمة وقد نشر في الدار القومية للطباعة والنشر في القاهرة عام ١٩٦٥م بتحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمني الذي اعتمد في تحقيقه على نسخة مخطوطة من صنعة نفطوية، وهي محفوظة في دار الكتب العمومية في مدينة "ستنابول" بتركيا.

وتعد مصادر هذا القسم ـ على الرغم ـ من قلتها ـ ذات نفع كبير لأنها المعول في كل بحث أدبي عن هذه القبيلة، وذلك أنها تقدم قصائد كاملة أو شبه كاملة من شعر بني أسد ولكنها ـ للآسف ـ قليلة ويبدو أن أغلبها قد ضاع بتقادم الزمن وتعاقب الحقب، ولم يصل إلينا ديوان أشعار بني أسد الذي ذكره صاحب الفهرست وقال "إن السكري قد صنعه ورآه الآمدي المتوفى سنة ٣٠٧ هجرية وقد أشار إليه أكثر من مرة"[١] ولا نستبعد أن يكون المرزباني قد رأى هذا الديوان وذلك أن وفاته كانت عام ٣٨٤ هجرية أي بعد وفاة الآمدي، وليس من الغريب أو المستبعد أنه قد تأثر بسابقه

١ ـ انظر على سبيل المثال ما ذكره كل من الآمدي والمرزباني عن الشاعر الأسدي الجاهلي القديم مرة بن الرواع. المؤتلف والمختلف ص ١٢٣ وكذلك الصفحات ١٨، ٧١، ٨٤، ١٠٤ ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٢٩٤.

عندما وضع معجمه(١).

أما الدواوين المفردة المفقودة فهي كثيرة، منها ديوان الشاعر الأسدي المخضرم عمرو بن شأس الذي صنعه الأصمعي وابن حبيب وقد جمع الدكتور يحيى الجبوري نتفا من شعر عمرو شأس وطبعها تحت عنوان "شعر عمرو بن شأس الأسدي" وطبعها بدار القلم في الكويت عام ١٩٨٣م. ومنها ديوان الكميت بن ثعلبة الذي أشار إليه الآمدي في المؤتلف والمختلف(٢).

ولعل دواوين كثيرة - لم تصل إلينا - من الشعراء جاهليين من هذه القبيلة، وليس من المستبعد أن تكون دواوينهم قد امتدت إليها يد الضياع ولاسيما أن القدماء قد أشاروا إلى كتاب أشعار بني أسد مثل السكري والشيباني(٣) ومن غير المعقول أن يغفلوا مثل هذا الأمر وقد اهتموا بما هو أقل شأنا منه.

وهناك قسم ثان من أشعار بني أسد بن خزيمة ذكرته مصادر عديدة. ويمثل هذا القسم الجانب الأكبر من شعر هذه القبيلة وأخبارها غير أن هذه المصادر لا تذكر من هذا الشعر إلا ما يتصل بحادثة ما.. أو بخبر ما أو استشهاد وهذا في الغالب الأعم.. ولكنني أفدت منها في هذا البحث إفادة لا تنكر، فقد تزودت منها بمادة ضخمة من الشعر وبحصيلة وافرة من أخبار بني أسد أعانتني على فهم كثير من جوانب حياة هؤلاء الشعراء، وبالتالي على معرفة شعرهم وتحليله والوقوف على الظروف التي قيل فيها، والأهم من ذلك فقد كانت لي بمثابة المفتاح إلى القسم الثالث من شعر بني أسد ومصادر هذا الشعر، ووفرت علي عناء الجمع لبعض شعرائهم.

وتمتاز مصادر هذا القسم بالتنوع والتعدد وأول هذه المصادر: كتب المختارات من أشعار العرب، ثم كتب الأدب والتاريخ، وكتب اللغة والمعاجم والنحو، وأعلام الرجال وأخيرا كتب الأمالي، وبدأ بكتب المختارات من شعر العرب: ولا يساورني أدنى شك في أن المفضليات يعد من أهم هذه المختارات من حيث الأهمية، وقد صنع هذا الكتاب من قبل المفضل الضبي المتوفى سنة ١٧٨ هجرية.

لقد أورد المفضل أربع قصائد لبشر بن أبي خازم وهي القصائد ذات الأرقام ٩٦ - ٩٧ — ٩٨ — ٩٩(٤).

واختار للشاعر الجميح "منقذ بن الطماح الأسدي" ثلاث قصائد وهي القصائد ذات الأرقام ٤ - ٧ - ١٠٩ من المفضليات واختار لحاجب بن حبيب الأسدي قصيدتين(٥) وعلى الرغم من قلة ما جاء به المفضل الضبي من شعر هذه القبيلة إلا أنه تميز بالتفرد في ذكر حاجب بن حبيب، ذلك أن كتب الأدب الأخرى لم تذكره وكذلك بعض شعر الجميح مثل القصيدتين ٧، ١٠٩ اللتين اختارهما له.

هذا فضلا عن الثقة فيما يرويه المفضل من أشعار وما لهذا الأمر من أثر في قيمة الشعر المروى عنه.

---

١- الفهرست لابن النديم طبع المكتبة التجارية ص ٢٢٦.
٢- انظر المؤتلف والمختلف الآمدي ص ٩٨ وانظر الفهرست الصفحات ٢٣، ٢٢٤ إلى ١٢٤.
٣- انظر الفهرست ص ٢٢٦.
٤- انظر المفضليات الصفحات من ٣٣٠ - ٣٤٥.
٥- انظر المصدر السابق ص ٣٦٨ - ٣٧٠.

ويلي المفضل الضبي أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي المتوفى سنة ٢١٦هـ غير أن ما أورده من شعر يعد قليلا فقد أورد قصيدة لبشر بن أبي خازم هي إحدى القصائد الأربع التي رواها المفضل، وقصيدة الجميح رقم "٧" في المفضليات، وأورد بعض أبيات لشاعر من بني أسد لم يذكر اسمه[١].

ويأتي صاحب جمهرة أشعار العرب "أبو زيد القرشي" وقد اختار ثلاث قصائد لثلاثة شعراء من قبيلة بني أسد وجعل إحداها أولى بجمهراته وهي قصيدة عبيد بن الأبرص الأسدي "أقفر من أهله ملحوب"، والقصيدة الثانية لبشر بن أبي خازم "لمن الديار غشيتها بالأنعم"، وجعلها رابعة المجمهرات، والقصيدة الثالثة للكميت بن زيد الأسدي وهي القصيدة التي تبدأ بقوله "ألا لا أرى الأيام يقضي عجيبها" وقد جعلها سادسة الملحمات، ونستطيع القول أن ما جاء في مقدمة مختارات القرشي من حكايات حول شياطين الشعر وبخاصة عن عبيد بن الأبرص والكميت هو أقرب إلى الأساطير منه إلى الحقيقة، وهو مثار شك كبير عندنا.

ثم يجيء أبو تمام حبب بن أوس الطائي المتوفى سنة ٢٣٢هـ في مختاراته "الحماسة" ويعد أبو تمام من أكثر المختارين شعرا من قبيلة بني أسد، فقد ذكر حوالي خمسين قطعة شعر من أشعار بني أسد ولكنه كثيرا ما كان يغفل نسبة هذا الشعر إلى قائله فهو مثلا يقول: "قال رجل من بني أسد" أو قالت "امرأة من بني أسد"، ولكن على بالرغم من هذا الإغفال فان فائدته جليلة لا تنكر ونفعه بيِّن في مجال البحث الأدبي، وقد نشر الكتاب في دار المعارف بمصر وذيل بشرح للمرزوقي، غير أنه طبع مرة أخرى في كلكتا بالهند مع اختلاف في بعض المقطوعات من حيث الرواية، ولعل ذلك الاختلاف يعود إلى الناسخ الذي نسخ الكتاب من مخطوطة الحماسة، وأضاف إليها بعض الإضافات أو أن المرزوقي أسقط هذه الإضافات في شرحه للحماسة.

وإذا كان أبو تمام قد اعتمد في حماسته على رواية الشعر ناقصا، فانه في "الوحشيات" قد اختار قصائد كاملة لشعراء من بني أسد كقصيدة المرار بن سعيد الفقسي في الوحشية رقم "٣٣" إذ أوردها كاملة وهي سبعة وأربعون بيتا[٢]، وزاد على ذلك حوالي ثمانية عشرة قطعة من شعر بني أسد، و لم يغفل النسبة للقائل في الوحشيات كشأنه في الحماسة إذا استثنينا الوحشية رقم "٢٣٧" والوحشية رقم "٢٤٤"[٣].

ويأتي بعد أبي تمام أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري المتوفى سنة ٢٨٤ هجرية، في حماسته التي اختارها من أشعار العرب للفتح بن خاقان، معارضا فيها أستاذه وابن بيئته أبا تمام، ومن مميزات هذه الحماسة أنها نقلت عن مخطوطة رواها أبو العباس المعروف بأبي الأحول عن أبيه عن البحتري بصورة مباشرة وفيها يروي البحتري إحدى وخمسين قطعة من شعر بني أسد. ومما يمتاز به كتاب البحتري - أيضا - نسبة الشعر إلى قائليه، فهو لم يغفل إلا مرة واحدة حين روى أبياتا لعبد الله بن الزبير الأسدي وصدرها بقوله: "وقال آخر"، ومما يلاحظ على البحتري أنه لم يذكر الشعر كاملا فكثيراً ما يكتفي بالبيتين أو الثلاثة من شعر الشاعر[٤].

---

١- انظر الأصمعيات الصفحات ١٦١ - ١٦٢ و ١٥٤ طبع دار المعارف بمصر.

٢- انظر الوحشيات طبع دار المعارف بمصر ص ٥٣ وما بعدها.

٣- انظر المصدر السابق ص ١٤٦، ١٥٠.

٤- انظر حماسة البحتري الصفحات ٩٦، ١٢٥، ١٤٣ حيث ذكر لكل شاعر بيتا واحدا في حماسته طبع دار الكتاب العربي بيروت.

وربما كان مرد ذلك إلى دقته في الاختيار وتقسيمه لأبواب الأدب بصورة متشعبة، ذلك أنه أوصلها إلى أربعة وسبعين بابا. ومما يلاحظ على اختيار البحتري أنه اختار لشعراء من بني أسد ممن لم ينالوا شهرة واسعة فقد اتجه إلى المغمورين في أغلب ما اختاره. ولعله بهذا أراد أن يكون بعيدا عما اختاره سابقه أبو تمام. وقد كان لنا في هذا الاختيار فائدة عميقة، فقد ذكر البحتري بعض شعراء أسديين لم نجد ذكراً عند سواه لهم مثل خالد بن حذلم وهو جاهلي سيأتي ذكره في ملحق الأشعار[1].

وبعد البحتري جاء الخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم، المتوفيان في أواخر القرن الرابع الهجري في حماستهما المسماة بـ "الأشباه والنظائر" وقد اختارا فيها بعض أشعار لشعراء من بني أسد الجاهليين كعبيد وبشر وسحيم. ولم نظفر إلا بشاعر واحد ممن لم يذكره القدماء خلاف أبو حاتم السجستاني في كتابه "المعمرون" وهو "عباد بن أبي أنف الكلب" فقد أورد له الخالديان مقطوعة شعرية واحدة في الحماسة. ومما يلاحظ على اختيار الخالدين جنوحهما إلى اجتزاء الشعر والاقتصار على البيت أو البيتين، ولعل مرد ذلك إلى أنهما كان يعجبان بفكرة أو تشبيه أو استعارة فيوردان ما يتعلق بها من الشعر فقط.

ثم جاء هبة الله بن بالشجري بعد الخالدين المتوفى سنة ٥٤٢ هـ في حماسته وكتابه المسمى "مختارات شعراء العرب" وقد اختار ابن الشجري جملة صالحة من شعر بني أسد، ومن ذلك اختياره ست قصائد لبشر بن أبي خازم غير أن معظم ما رواه ابن الشجري موجود في كتب الأدب واللغة الأخرى وفي دواوين الشعر بصورة مبعثرة، إلا أن فضل الجمع عائد له.

---

١- انظر من هؤلاء الشعراء خالد بن حذلم أو خذلم الذي أورد له قوله:

| | |
|---|---|
| مـــن لا تعاجلـــه منيتـــه | يـــترك إلى كـــاف مـــن الهـــرم |
| والمـــرء مـــا دامـــت حشاشـــته | وقـــف علـــى الحدثـــان والألم |

ص ٩٦

# كتب طبقات الشعراء وأخبارهم:

لعل أول ما انتهى إلينا من هذه الكتب كتاب أبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣٢ هـ "طبقات فحول الشعراء" وقد جاء ذكر ستة شعراء من بني أسد في كتاب ابن سلام، الذي أورد لهم بعض أشعار. ومنهم بشر بن أبي خازم حيث وضعه في الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية، وذكر عَبيد بن الأبرص ووضعه في الطبقة الرابعة بعد طرفة بن العبد، وممن ذكرهم ابن سلام سحيم عبد بني الحسحاس الأسدي ووضعه في الطبقة التاسعة بعد ضابىء بن الحارث البرجمي والحويدرة الذبياني، كما ذكر عمرو بن شأس بن أبي بلي الأسدي ووضعه في الطبقة العاشرة أيضاً، وهؤلاء جميعاً من شعراء بني أسد الجاهليين أما من الإسلاميين فلم يذكر من شعراء بني أسد إلا واحداً هو نفيع بن لقيط الأسدي - وقد وضعه في الطبقة الخامسة بعد أبي زيد حرملة بن المنذر الطائي[1].

ويأتي بعد ابن سلام أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هجرية في كتابه "الشعر والشعراء"، وقد تناول أخبار عشرة من شعراء بني أسد منهم أربعة ورد ذكرهم عند ابن سلام وهم: عبيد وبشر وسحيم وعمرو بن شأس، والباقي من الإسلاميين الذين ليس مجالهم في هذا البحث. ويتشابه كتاب ابن قتيبة إلى حد كبير مع كتاب ابن سلام، فكلاهما يورد الشعر دون تحليل وإنما بصورة أحكام عامة، تنقصها الدقة ويعوزها التفصيل والمقارنة، ومن ذلك إيراده شعراً "لعمرو بن شأس الأسدي" مما سبق إليه عمرو بن شأس فأخذ منه قوله:

وأسيافنا آثارُهُنَّ كأنَّها مشافرُ قَرْحَى في مبارِكِها هُدْلُ[2]

أخذه الكميت فقال:

تَشَبَّهُ في الهامِ آثارُها مَشافِرُ قَرحى أكلْنَ البَرِيرَا

وقال أبو النجم يصف الجراحة "تحكي الفيصل الهادل المقروحا"[3].

هكذا بدون مقارنة بين قول السابق واللاحق، أو إيضاح لقيمة الوصف عند عمرو بن شأس في قوله "في مباركها هدل" الذي تابعه فيه أبو النجم وبين الوصف في قول الكميت "أكلن البربرا" كما أن ابن قتيبة كان يروي رأي غيره من العلماء عن بعض الشعراء أن يعلق على ذلك كقوله في ترجمة بشر بن أبي خازم "قال عمرو بن العلاء نخلان من الشعراء كانا يقويان النابغة وبشر بن أبي خازم"[4].

وعلى الرغم من هذه الملحوظات على ابن قتيبة فان كتابه قد أفاد البحث بجملة من الأخبار التي

---

١- انظر طبقات فحول الشعراء طبع المدني تحقيق عبد السلام هارون ص .

٢- انظر شعر عمرو بن شأس ص ١٨.

٣- انظر الشعر والشعراء الجزء الأول ص ٣٣٠٩.

٤- انظر المصدر السابق جزء أول ص ١٩٠ طبع بيروت - دار الثقافة.

لا غنى للباحث عنها، وقد اختار ابن قتيبة من الشعر ما يوافق ذوقه المتميز في فهم الشعر وهو ذوق يدل على الذوق العام لفهم الشعر في القرن الثالث الهجري بصدق.

أما أخبار بني أسد في كتب الأمالي فإننا نجدها ـ بداية ـ في كتاب الأمالي لأبي علي القالي، وفي كتاب أمالي الشريف المرتضي. فأما الكتاب الأول فقد أملاه أبو علي ابن القاسم القالي الذي غادر بغداد إلى قرطبة بالأندلس حيث أملى كتابه هناك وبها توفاه الله سنة ٣٥٦ هجرية، وكتابه الأمالي حوى مادة ضخمة من الشعر العربي ـ بصفة عامة ـ وكان نصيب شعر بني أسد من هذه المادة الشعرية الضخمة حوالي مائة وستين بيتا من الشعر، رواها أبو علي ليفسر غريب اللغة وليسبر أغوارها ولهذا فقد كثر الاستشهاد عنده بالبيت والبيتين، على أن معظم ما جاء به أبو علي من شعر بني أسد كان من شعر الإسلاميين ممن لا علاقة لنا بهم في هذا البحث بالإضافة إلى أن ذلك كان ممن تناقلته كتب الأدب واللغة.

وأما الكتاب الثاني فهو أمالي المرتضي الذي يطبق عليه اسم "غرر الفوائد ودور القلائد"، وقد أملاه المرتضي علي بن الحسين الموسوي العلوي الذي عاش من ٣٥٥ هجرية إلى ٤٣٦ للهجرة والكتاب يختلف عن كتاب القالي الذي يهتم باللغة وتفسير غريبها، بينما نجد كتاب المرتضي مجموعة من الأخبار والتعليق عليها والمناقشة حولها وآراء السابقين فيها، ومما يلاحظ على المرتضي اهتمامه بشعر الكميت أكثر من غيره[1].

وأما أخبارهم في كتب الأدب والتاريخ، فإننا نجد كتاب أبي الفرج "الأغاني" على رأس هذه الكتب وقد توفي أبو الفرج سنة ٣٥٦ هجرية، وقد ذكر المؤلف خمسة عشر شاعرا وترجم لهم وكلهم من بني أسد، ويعد ما رواه صاحب الأغاني من شعر بني أسد كمية وافرة لا بأس بها، ولذا فان الأغاني يعد مصدراً مهما من مصادر شعر بني أسد، ومصادر أخبارهم: كقضية مقتل حجر بن الحارث أبي امرئ القيس وما استتبع ذلك من إيراد شعر لبني أسد في هذا المضمار، ويميل أبو الفرج في رواياته إلى الأخذ بالسند مما يفسح المجال أمام الباحث للمناقشة.

ويأتي قبل كتاب "الأغاني" كتاب "الكامل" لأخيه العباس المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ، فقد أورد جملة صالحة من شعر بني أسد، ومن ذلك ما رواه الشاعر الأسدي طخيم بن أبي الطغماء الأسدي وبعض الروايات الأخرى[2]: ولعل كتاب الآمدي "المؤتلف والمختلف" قد أسهم أيضا في تجلية معالم شعر هذه القبيلة، وله فضل لا ينكر في ذكر شعر بني أسد وقد ذكر غير مرة ديوان بني أسد أو أشعار بني أسد الذي صنعه السكري وقد أشرت إلى فقدانه، كما كان لديه بعض دواوين مفردة لبعض شعرائهم مثل الكميت بن معروف وكما كان لديه أيضاً كتاب "شعراء القبائل" الذي صنعه ابن حبيب، وقد ذكر ثلاثة وثلاثين شاعراً من بني أسد مما انتفعت به في التثبت من نسب بعض الشعراء الذين ذكرتهم الكتب الأخرى، ويبدو أن الآمدي كانت بحوزته كتب كثيرة غير ما ذكرت عن شعراء العرب وشعرهم[3].

ونصل إلى المرزباني في كتابه "معجم الشعراء" هذا الكتاب الذي يعد ـ أيضاً ـ من المصادر المهمة في دراسة شعر بني أسد، وقد ذكر المرزباني هو الآخر أنه كان يملك من المصادر المهمة في دراسة

---

١ـ انظر أمالي المرتضي الجزء الأول ص ٤٣٧ والجزء الثاني ص ٨٠.

٢ـ انظر الكامل للمبرد طبع نهضة مصر الجزء الثالث ص ٣٠.

٣ـ انظر المؤتلف والمختلف طبع مطبعة القدس ص ١٢٣.

شعر بني أسد، وقد ذكر المرزباني هو الآخر أنه كان يملك ديوان بني أسد وكان اعتماده عليه فيما رواه من شعر لهم، ومن مميزات "معجم الشعراء" أنه كان يذكر أسماء الشعراء الأسديين الذين تبدأ أسماؤهم بحرف واحد ـ أي على الترتيب الهجائي ـ مما انتفعت به أيضاً في التحقق من أنساب بعض الشعراء، وقد بلغ عدد الشعراء الذين ذكرهم في كتابه من بني أسد بن خزيمة خمسة وأربعين شاعراً. ومما يلاحظ عليه أنه كان قليل الرواية للشعر، فهو يكتفي بالبيت أو البيتين وأحياناً قد يذكر اسم الشاعر فقط دون ايراد بيت واحد له، ومن ذلك ذكره للشاعر الأسدي قيس بن بجرة إذ اكتفى بقوله "وكان قيس شاعراً مذكوراً معروفاً"[١] وكذكره لبعض شعراء بني أسد الإسلاميين.

كذلك يمكنني أن أضع هنا كتاب "خزانة الأدب" الذي ألفه عبد القادر بن عمر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ، وهو وإن غلبت عليه صيغة النحو وشرح بعض الشواهد إلا أنه ذكر كثيراً من أخبار الشعراء في أثناء ايراده لتلك الشواهد النحوية. وقد ذكر خمسة شاعراً من بني أسد ممن تداولت أسماؤهم كتب الأدب السابقة الذكر.

وكان البغدادي كثيراً ما يعتمد على روايات الذين سبقوه ممن ذكرتهم كالمبرد وأبي الفرج الأصفهاني وابن قتيبة والآمدي، وعلى العموم فقد حفل كتابه بجزء غير يسير من شعر بني أسد، وقد ذكر أنه كان ينقل من بعض الكتب التي لم أعثر لها على أثر مثل كتاب "اليوم والليل" وكتاب "سفر السعادة" للسخاوي. ومما يلحظ على البغدادي جمعه لمعظم شعراء بني أسد في بدايات كتابه فهو لا يذكر في الأجزاء الأخيرة منه سوى ثلاثة شعراء من بني أسد منهم شاعر جاهلي واحد هو الكميت بن ثعلبة. وقد اهتم بأنساب الشعراء وضبط أسمائهم[٢].

وهناك كتب أخرى تناولت شعر بني أسد بالرواية، وذكرت أخباراً مختلفة عن شعرائهم، مثل كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٦ هـ "البيان والتبيين" وفيه حصيلة لا بأس بها من أشعار بني أسد، وكتابه "الحيوان". أما كتاب "المغتالين" لابن حبيب فقد تفرد بذكر شاعر أسدي لم أقع له على ذكر عند سواه، وهو الشاعر ابن حجلة الأسدي كما ذكر شعراء آخرين مثل بشر بن أبي خازم، وسحيم عبد بني الحسحاس[٣].

ويأتي دور كتب التاريخ وما تناولته من أخبار وشعر هذه القبيلة، وأقف عند أربعة منها: الأول سيرة ابن هشام المتوفى سنة ٢١٣هـ فقد أورد كثيراً من أخبار هذه القبيلة وأنسابها وبعض شعرها، ومما يلاحظ على كتاب ابن هشام أنه كان لا يذكر فيه إلا ما يتعلق بالخبر أو الحادثة التي تتصل بالسيرة النبوية الشريفة، بالإضافة إلى أنه يتناول في عمومه حياة بني أسد في العصر الإسلامي وهو غير مجال بحثنا هنا.

أما الكتاب الثاني فهو كتاب ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١١هـ المسمى "تاريخ الرسل والملوك" والكتاب حافل بالأخبار المتناثرة عن بني أسد، أضف إلى هذا أن الطبري كان يورد بعض الشعر لشعرائهم من خلال تلك الأخبار والروايات كضرار بن الأزور وعمرو بن شأس وغيرهم[٤].

---

١ـ معجم الشعراء طبع القدس ص ٢٠٣ وانظر الصفحات ١٨٨، ٢٦٧.

٢ـ انظر خزانة الأدب تحقيق عبد السلام هرون طبع دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٧ الجزء الأول ص ١٤٢، ١٤٤.

٣ـ انظر كتاب المغتالين طبع دار الكتب بمصر ص ٨٥.

٤ـ انظر تاريخ الطبري الجزء الثالث ص ٢٩٦، ٢٩٧، وانظر صفحة ٥٣٧، ٥٤٠.

والكتاب الثالث هو "تاريخ بغداد" للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هجرية، وقد ذكر بعض الأخبار والمترجمات لشعراء من بني أسد من المخضرمين، مثل ضرار بن الأزور، وحضرمي بن عامر وغيرهم من الإسلاميين الذين لا شأن لنا بهم في هذا البحث.

وأما الكتاب الرابع فهو "الإصابة" لابن حجر العسقلاني الذي ذكر ثلاثة وثلاثين شاعراً من بني أسد، لكنه لم يكثر من ايراد الأشعار لهم وذلك أن الكتاب إنما هو كتاب يتناول ذكر الصحابة في عصر النبوة، وما أورده ابن حجر من شعر لبني أسد إنما كان على سبيل الاستشهاد وليس الرواية.

أما كتب المعاجم واللغة والنحو وما تناولته من أخبار وروايات عن شعر بني أسد فقد كان لشعر بني أسد نصيب وافر وذلك يعود إلى أن قبيلة بني أسد تعتبر من القبائل التي أخذ عنها اللسان العربي وكان يحتج بكلامهم، ولعل ما ذكره السيوطي من أن أبا نصر الفارابي قال في أول كتابه المسمى "بالألفاظ والحروف" أن "الذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى وعنهم آخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد"[١] فيه العليل على ما نزعم.

وهذا هو الكسائي يأتي إلى البصرة ليلقى الخليل بن أحمد ويأخذ عنه فيقول له أحد الأعراب: تركت أسداً وتميماً وعندهما الفصاحة وجئت إلى البصرة: فيقول الكسائي للخليل: من أين أخذت علمك؟ فقال الخليل: "من بوادي الحجاز ونجد وتهامة" فخرج الكسائي إليهم ولم يرجع حتى أنفد خمس عشرة قنينة حبرا في الكتابة عن العرب[٢].

ونري الأزهري صاحب "التهذيب اللغة" يقول في مقدمة كتابه: أنه لما وقع في أسر القرامطة، وكان الذين وقع في سهمهم عربا عامتهم من هوازن واختلط بهم أقوام من تميم وأسد يتكلمون بطباعهم البدوية وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يقع في لفظهم لحن ولا خطأ فاحش ويضيف أنه استفاد من مخاطبتهم ومحاورة بعضهم بعضاً ألفاظاً جمة ونوادر كثيرة أوقع أكثرها في مواقعها من كتابه[٣].

فبنو أسد إذن أهل فصاحة ولغة، ومن ثم فلا غرابة أن يعول أصحاب كتب اللغة على أشعارهم في شرح وتوضيح معاني اللغة واشتقاقاتها. ولقد سبق أن أشرت إلى كتاب الأمالي في هذا المجال واكتفى هنا بأن أشير إلى ما استشهد به صاحب "لسان العرب"، المتوفى سنة ٦٣٠ هجرية، من شعر بني أسد قد بلغ ثمانية وعشرين وثلاثمائة بيت جاءت موزعة في معظم أجزاء الكتاب، وغير اللسان من كتب اللغة تناولت شعر بني أسد بالذكر والاستشهاد ومن ذلك كتاب "الجمهرة" لابن دريد "والصحاح" للجوهري وكتاب "الاحتداد" لابن الأنباري و"تهذيب اللغة" للأزهري.

وإذا كان أبو بشر عمرو الملقب بسيبويه قد توفى ألا يستشهد في كتابه المسمى: "الكتاب" إلا بالفصيح من كلام العرب في توضيح قواعد النحو العربي، فإننا نجده يهتم بشعر بني أسد في كتابه فقد بلغ ما استشهد به من شعرهم نيفاً وثلاثين بيتاً معظمها لشعراء جاهليين مثل عبيد وبشر وسحيم.

وتظهر أهمية كتاب سيؤويه في الشروح التي شرحت شواهده، إذ غنيت هذه الشروح بتناول الأبيات وبذكر شيء عن أصحابها والمواقف التي قالوا فيها هذا الشعر. ومن ذلك كتاب "شرح

---

١ـ انظر المزهر طبع الحلبي الجزء الأول ص ٢١١.

٢ـ معجم الأدباء م/١٣ ص ١٦٩.

٣ـ تهذيب اللغة للأزهري طبع الدار المصرية الجزء الأول ص ٧.

أبيات سيبويه" لأبي محمد السيرافي المتوفى سنة ٣٨٥ هجرية، فقد امتاز هذا الكتاب بتصحيح نسبة أبيات سيؤويه وبإضافات ذات فائدة من شعر بني أسد، ومن ذلك أبيات نسبها سيبويه إلى عمرو بن شأس والتي منها:

أَرادتْ عِــراراً بــالهوانِ ومـــن يُــرِدْ عِــراراً لَعَمْــرِي بــالهوَانِ فقــدْ ظَلَــمْ

والشعر لمضرس بن ربعي "ثم ذكر ثمانية أبيات من شعر مضرس"[1].

ويبدو لي أن الوهم الذي وقع فيه سيبويه كان بسبب أن أبيات عمرو بن شأس وأبيات مضرس من بحر واحد، والسيرافي يقول: إن أول أبيات مضرس هو البيت الذي ذكرته سابقاً: "ولم أر ليلى... الخ" بينما نجد قصيدة عمرو بن شأس قصيدة طويلة ذكر أكثرها أبو الفرج وجاء في مطلعها:

ديــارَ ابنَــةِ الســعْدِيِّ هنــد تكلمــي بدافِعَـةِ الحَوْمـانِ فالسـفْحِ مـنْ رَمَـمْ[2]

ومما يذكر ذلك أن ياقوت الحموي أشار إلى قصيدة مضرس في موضعين من كتابه معجم البلدان، وقال في الموضع الأول: "وقرأته في شعر مضرس بن ربعي" ثم ذكر الأبيات التي أوردها السيرافي مع اختلاف طفيف في بعض الألفاظ[3].

والواقع أن كتاب ياقوت "معجم البلدان" يعد مصدراً من مصادر شعر بني أسد، فعلى الرغم من كونه معجماً من المعاجم إلا أنه قد حوى الشيء الكثير من شعر هذه القبيلة وأخبارها، ذلك أن انتشار بني أسد على رقعة واسعة من الأرض تمتد من أكناف يثرب إلى نهر الفرات في القرن السادس الميلادي، قد جعل الشعراء الإسلاميين يذكرون كثيراً من الأماكن المنتشرة في شبه الجزيرة وأطراف العراق، مما شكل لياقوت مادة ضخمة من الشعر توزعت في جميع مجلدات كتابه، الأمر الذي جعل هذا المعجم مصدراً من المصادر التي لا غنى للباحث عنها بالنسبة لشعراء بني أسد.

أما القسم الثالث من الكتب التي تناولت شعر وأخبار قبيلة بني أسد فهي الدواوين الشعرية المفردة: وهي أقل من القسمين السابقين فلا يوجد لدينا سوى ديوان عبيد بن الأبرص، وديوان بشر، وديوان سحيم، وديوان عمرو بن شأس، أما باقي الشعراء الأسديين فلا يوجد لهم دواوين منشورة أو مخطوطة، إنما تلك المقطوعات الشعرية المنتشرة في كتب الأدب.

هذه أهم مصادر شعر قبيلة بني أسد - كما يتراءى لي - وكما أشار إليها الباحثون وكما وردت في كتب التراث. ولعل الباحث يجد فيها بعض ضالته رغم أنني موقن بأن هذا غيض من فيض، وأن شعر هذه القبيلة ضاع أكثره كما ضاع كثير من الشعر العربي القديم، ويجدر بي أن أشير إلى أن الرواة قد خلطوا في بعض الأحيان في رواية شعر هذه القبيلة ويتمثل هذا الخلط في شيئين كما يخيل

---

١- انظر الكتاب لسيبويه بولاق الجزء الأول ص ٢٨٨ وانظر السيرافي طبع دار الفكر بمصر الجزء الأول ص ٣٠٦ وما بعدها.

٢- انظر الأغاني طبع دار الكتب الجزء ١١ ص ١٩٤ وانظر شعر عمرو بن شأس ص ٥٥.

٣- انظر معجم البلدان طبع الخانجي بمصر المجلد الرابع ص ٢٨٨ والخامس ص ٤٤٠، وذكر البيت الأول هكذا:

ولم أنســى مــن ريــا غــداة تعرضــت لنــا دون أبــواب الطــراف مــن الأدم

إلي، أولهما: هو نسبة شعر الشاعر الأسدي ـ بعامة ـ مع شاعر غيره من القبائل الأخرى. وثانيهما: نسبة شاعر من بني أسد مع شاعر أسدي آخر من القبيلة نفسها.

وإذا كان القسم الثاني لا يشكل عقبة أمام الباحث الذي يهدف إلى دراسة شعر القبيلة الواحدة ككل، فان القسم الأول يقوم عقبة كبيرة تعترض طريق الباحث بحيث لا يمكنه تخطيطها وتجاوزها دون النظر فيها ومناقشتها.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن سلام حين قال: أخبرني يونس بن حبيب قال: قيل لذي الرمة من أحسن الناس وصفاً للمطر فذكر قول عبيد بن الأبرص:

وَانٍ مُسِفٌ فُوَيقَ الأرضِ هَيدَبُهُ ... يكادُ يُمْسِكُهُ مَنْ قامَ بالرَّاحِ
فَمَنْ بِنَجْوتِهِ كمَنْ بِمَحْفَلِهِ ... والمُسْتَكِنُّ كَمَنْ يَمشِي بِقِرْواحِ

فجعلها يونس لعبيد وعلى ذلك كان إجماعنا فلما قدم المفضل الضبي ضرفها إلى أوس بن حجر(١).

فابن سلام المتوفى ٢٣٢ هجرية يقول أن يونس المتوفى ١٨٢ هجرية جعلها لعبيد وعلى ذلك كان إجماعنا، ويونس وابن سلام بصريان، ثم يأتي المفضل الضبي، وهو من رواة الكوفة، فيصرفها إلى أوس بن حجر وهذا شيء طبيعي لأن اختلاف المصادر في اللغة والشعر بين مدرستي البصرة والكوفة أمر واضح لا يحتاج إلى دليل، بل هناك اختلاف في المنهج نفسه فبينما كان البصريون يضيقون في الرواية ويتشددون في أخذها كان الكوفيون يتوسعون فيها(٢).

وعلى ذلك فالأمر واضح: علماء البصرة المتشددون في أخذ الرواية كانوا مجمعين على نسبتها إلى عبيد بن الأبرص فجاء من الكوفيين المتوسعين في أخذ الرواية كالمفضل الضبي فصرفها إلى أوس بن حجر. ولكننا ما أن نقرأ كتاب ابن قتيبة "الشعر والشعراء" المتوفى سنة ٢٧٦ هجرية حتى يتحول ما رأيناه واضحاً إلى غموض إذ يقول عندما ترجم لأوس بن حجر ما نصه: قال الأصمعي (المتوفى ٢١٤هـ) ولم أسمع قط ابتداء مرثية أحسن من ابتداء مرثيته:

أيتها النفسُ أَجْمِلِي جَزَعَا ... إنَّ الذي تحذَرِينَ قدْ وَقَعَا

وأحسن في وصف السحاب:

دانٍ مُسِفٌ فُويقَ الأرضِ هَيدَبُهُ ... يكادُ يُمْسِكُهُ من قامَ بالرَّاحِ
يَنفِي الحَصى عن جَديدِ الأرضِ مُبْتَرِكاً ... كأنهُ فاحصٌ أوْ لاعبٌ دَاحِ
فمَنْ بفجْوتِهِ كَمَنْ بِعَقْوَتِهِ ... والمُسْتَكِنُّ كمَنْ يمشِي بِقرواحِ(٣)

فالأصمعي هنا ينسب لأوس بن حجر، وقبل أن نتثبت من صحة خبر ابن قتيبة وقيل أن نسأل أنفسنا هل كان الأصمعي خارجاً عن الإجماع الذي عناه ابن سلام أو أنه تابع المفضل فيما جاء به،

---

١ـ انظر طبقات فحول الشعراء ص ٧٦.
٢ـ انظر مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد ص ٤٣٧.
٣ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة الجزء الأول ص ١٢٦.

يدخل في القضية أبو العباس المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هجرية فيزيد الغموض غموضا إذ يروي بيتين آخرين من نفس الوزن والروي هما:

كـأنَّ ريقَتَهـا بعـدَ الكَـرى اغتُبِقَـتْ ... مـنْ مـاء أَدْكَـن في الحـانوتِ نَضَّـاحِ
أو مـنْ مُعتقـةٍ وَرْهَـاءَ نشـوتُهَا ... أو مـنْ أنـابيبِ رُمّـانٍ وتفـاحِ

وينسبها إلى أوس بن حجر ويقول: قال أبو الحسن: أهل الكوفة يروونها لعبيد ابن الأبرص[١].

وأبو الحسن والمبرد كلاهما بصريان، ومن ثم يجيء الغموض فبينما يقول ابن سلام البصري كان إجماعنا على أنها لعبيد ينسبها ابن قتيبة ـ عن الأصمعي ـ لأوس بن حجر، ثم يجيء المبرد فينسبها ـ دون إسناد ـ إلى أوس بن حجر، ويقول نقلا عن أبي الحسين أن أهل الكوفة يروونها لعبيد، والمراد بأهل الكوفة رواة الشعر فيها وهم المفضل وحماد وأبو عمرو الشيباني وغيرهم.

فإذا تصفحنا العقد الفريد نرى ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ هجرية يقول: قال الأصمعي قلت لأعرابي أي الناس أوصف للغيث قال الذي يقول يعني امرأ القيس:

دِيمـةٌ هطـلاءُ منهـا وَطَـفٌ ... طَبَّـقَ الأرضَ تَحَـرَّى وتُـدِرُ

قلت ثم من قال: الذي يقول يعني عبيد بن الأبرص:

يـا مـنْ لـبرق أبيـتُ الّليـلَ أرقُبُـهُ ... في عـارضٍ مُكْفَهـرٍّ المُـزْنِ وَلاّحِ
وانٍ مُسِـفٌّ فويـقَ الأرضِ هَيدَبُـهُ ... يكـادُ يَدفعُـهُ مَـنْ قَـامَ بـالرَاحِ[٢]

أما "الأغاني" لأبي الفرج المتوفى سنة ٣٥٦هـ فنجده يزوي هذين البيتين:

إنـي أرِقْـتُ ولم تـأرقْ معـي صـاحِ ... لِمُسْـتكفٍّ بعيـدِ النـومِ لَـوّاحِ
وانٍ مُسِـفٌ فويـقَ الأرضِ هيدبُـهُ ... يكـادُ يَدفعُـهُ مَـنْ قـامَ بـالراحِ

ويقول: الشعر لأوس بن حجر وهكذا رواه الأصمعي أخبرنا بذلك اليزيدي عن الرياشي عنه "أي الأصمعي" ووافقه بعض الكوفيين وغير هؤلاء يروونها لعبيد بن الأبرص[٣]، ويتحدث أبو الفرج عن بيت ثالث جاء بين البيتين السسابقين وهو:

كأنمـا بـينَ أعْـلاهُ وأسـفلِهِ ... رَيْـطٌ مُنَشَّـرَةٌ أو ضَـوءُ مِصبـاحِ

ويقول: إنه لم يجده لا في الرواية ولا في رواية يونس[٤]:

ثم يأتي ابن بمنظور المتوفى سنة ٦٣٠هـ فيقول في معرض حديثه عن كلمة "هيدب" قال عبيد بن الأبرص:

---

١ـ انظر الكامل للمبرد طبع نهضة مصر الجزء الثالث ص ٥٠.
٢ـ انظر العقد الفريد الجزء الثالث ٢٦٤.
٣ـ انظر الأغاني طبع الدار الجزء ١١ ص٦٨.
٤ـ المرجع السابق ص ٧١.

وانٍ مُسِفٌّ فويقَ الأرضِ هيدَبُهُ — يكادُ يدفعُهُ مَنْ قامَ بالرَّاحِ

ويضيف أن ابن بري "وهو أحد شراح الصحاح" قال: البيت يروى لعبيد ويروى لأوس بن حجر[1].

هذا ما كان من شأن الأقدمين حول هذه الأبيات ونسبتها وألخصه في الآتي:

أولاً ـ أن علماء البصرة كانوا مجمعين على أنها لعبيد بن الأبرص وخالفهم المبرد والأصمعي في روايتي ابن قتيبة وأبي الفرج.

ثانياً ـ أن علماء الكوفة ينسبونها لعبيد بن الأبرص، وتابعهم في ذلك الأصمعي في رواية ابن عبد ربه وشذ عنهم المفضل الضبي في رواية ابن سلام.

ثالثا ـ أن لهذه الأبيات روايتين إحداهما الأصمعي والأخرى ليونس، فضلا عن رواية المفضل لها، فإذا رجعنا إلى ديوان عبيد وديوان أوس[2] ونظرنا إلى القصيدتين معا وبالمقارنة مع هذه الروايات وجدنا أن البيتين اللذين رواهما ابن سلام مثبتان في قصيدة عبيد كما هما على التوالي، بينما نجدهما في قصيدة أوس مفترقين بينهما خمسة أبيات أخرى ونجد أن البيت الثاني في رواية ابن قتيبة غير موجود في قصيدة عبيد، وهو مثبت في قصيدة أوي مع اختلاف كما أن كلمة "بعقوتة" غير موجودة في القصيدة معا واستعيض عنها بكلمة "بمحفله" الواردة في رواية ابن سلام. كذلك نجد أن البيتين اللذين أوردهما المبرد موجودان في قصيدة أوس فقط وبنفس الترتيب.

أما رواية أبي الفرج فان البيت الأول فيها غير موجود في قصيدة عبيد والبيت الثاني هو المثبت فقط. بينما نجد البيتين في قصيدة أوس ولكن باختلاف في الترتيب إذ يقع بينهما بيتان آخران كما أن بالبيت الثالث الذي قال أبو الفرج أنه لم يجده لا في رواية الأصمعي ولا في رواية يونس موجود في القصيدتين معا:

وبناء على هذه المقارنة نجد اضطرابا واضحا في الروايات التي نسبت لأوس، فباستثناء رواية المبرد التي لا تمت إلى وصف السحاب بصلة نجد اختلافا مع ما جاء في ديوان أوس فالبيت الثاني في رواية ابن قتيبة مضطرب في شطره الأول وهنالك كلمة مكان أخرى، ورواية أبي الفرج تختلف في الترتيب وفيها بيت قال أنه لم يجده في روايتي يونس والأصمعي ومع ذلك فهو مثبت في ديوان أوس.

أما الروايات التي نسبت لعبيد فنجدها متفقة مع ديوانه تماما، فرواية يونس التي ذكرها ابن سلام كما هي في الديوان وكذلك رواية ابن عبد ربه ورواية ابن منظور وبمقارنتي بين القصيدتين وجدت تماسكا وتناسقا في قصيدة عبيد لم أجده في قصيدة أوس فهي تبدأ بداية مألوفة بمطلع يتحدث فيه الشاعر عن زوجته التي دخل عليها بعد جلسة شراب أطال فيها. فهبت تلومه وتلحاه على تأخره عنها وعلى معاقرته الخمر، ومن وجهة نظره فانه لا يراها ساعة لوم وعتاب ويطلب منها أن تنتظر بهذا اللوم الصباح. فالشاعر يبدو معجبا بشبابه لا يسمع قول عاذل مع علمه أنه سيقلع عما هو فيه بعد حين:

---

١ ـ لسان العرب طبع بولاق جزء ٢ ص ٢٧٨.

٢ ـ ديوان عبيد بن الأبرص ص ٣٥ وديوان أوس بن حجر طبع صادر ص ١٣.

هَبَّتْ تلومُ وليستْ ساعةَ اللاَّحِي هَلاَّ انتظرتِ بهذا اللَّومِ إصْباحِي
قَاتَلَها اللهُ تَلْحانِي وقدْ عِلِمَتْ أنَّ لنفسِيَ إفسادِي وإصلاحِي
كانَ الشبابُ يُلَهِّينا ويعجِبُنا فما وهَبْنَا ولا بعنا بأرباحِ
إنْ أشربِ الخمرَ أو أُرزأْ لها ثَمناً فلا محالةَ يوماً أننِي صَاحِ
ولا محالةَ من قبرٍ بِمَحْنيةٍ وكفنٍ كَسَراةِ النورِ وضَّاحِ

ويبدو أن هذه المشادة بينه وبين زوجته أثارت كوامن نفسه فجعلته يأرق وينتظر لمعان برق من وسط سحاب كأنه الصبح في نوره وبياضه:

يا منْ لبرقٍ أبيتُ الليلَ أرقُبُهُ منْ عارضٍ كبياضِ الصُّبحِ لمَّاحِ

ويضيف عبيد واصفاً لنا السحاب في صور بديعة رقيقة ويتدرج بنا إلى النتيجة الطبيعية له:

فأصبحَ الروضَ والقيعانُ مُمرِعَةً منْ بينِ مُرْتَفِقٍ فيهِ ومِنطاحِ(١)

هكذا سارت قصيدة عبيد سيرا طبيعيا مألوفا كما هي في الديوان.

أما قصيدة أوس بن حجر فان الواقف عليها يجد فيها أكثر من بيت يصلح لأن يكون مقدما أو مطلعا لها ومن ذلك قوله:

وَدِّعْ لَمِيسَ وداعَ اللائِمِ اللاحِي إذ فَنَّكَتْ في فسادٍ بعدَ إصلاَحِ

وقوله:

هبَّتْ تلومُ وليستْ ساعةَ اللاحِي هلاَّ انتظرتِ بهذا اللومِ إصباحِي

وقوله:

إنـي أرقتُ ولمْ تأرَقْ معِي صاحِ لمستكِفٌ بُعَيْدَ النومِ لَوَّاحِ

والقصيدة بعد هذا تشتمل على موضوعات عدة وهي فوق هذا مضطربة غاية الاضطراب، ولننظر إلى هذه الأبيات التي جاءت في مقدمة القصيدة البالغة سبعة وعشرين بيتاً:

وَدِّعْ لميسَ وداعَ اللائِمِ اللاحِي إذ فَنَّكتْ في فسادٍ بعدَ إصْلاَحِ
إذ تستَبِيكَ بمصقولٍ عوارِضُهُ حَمِشِ اللِّثاتِ عذابٍ غيرِ مِمْلاحِ
وقدْ لهوتُ بمثلِ الرئمِ آنسةٍ تُصبي الحليمَ عروبٍ غيرِ مِكْلاحِ
كأنَّ ريقتَها بعدَ الكَرى اغْتبِقَتْ منْ ماءِ أصهبَ في الحانوتِ نَضَّاحِ
أو منْ مُعَتَّقةٍ ورهاءَ نشوتُها أو منْ أنابيبِ رمانٍ وتفاحِ

١ـ انظر القصيدة في ديوان عبيد ص ٥٢ وما بعدها طبع صادر والقصيدة ١٥ بيتا.

إننا نلمس اضطرابا وعدم تماسك وتناسق بين مطلع القصيدة وما يليه من أبيات ويزداد اضطرابنا حين نقرأ بعد ذلك هذا البيت غير المتجانس إذا ما قيس بقصيدة عبيد وفي المقدمة على وجه الخصوص. يقول أوس:

دَعِ العَجوزيـنِ لا تسـمعْ لقيلِهِمـا واعمِدْ إلى سيِّدٍ في الحـيِّ جَحْجـاحِ

وبعده نقرأ هذين البيتين:

إنّـي أرِقْـتُ ولم تـأرقْ معـي صـاحِ لمسـتكفٍّ بعيـدِ النـومِ لـوّاحِ
قـد نِمـتَ عني وبـاتَ البرقُ يُسهِرُني كمـا استَضاءَ يهـوديٌّ بمصْبـاحِ

ثم تأتي الأبيات التي نجدها في قصيدة عبيداً في وصف السحاب ولكن مع اختلاف كبير في الترتيب مما جعلها تفقد متانة التماسك الذي نلحظه في قصيدة عبيد ونجد ضمن قصيدة عبيد هذا البيت:

يَـنزِعُ جَلْـدَ الحَصـى أجَـشٌّ مُبْـتَرِكٌ كأنـهُ فـاحصٌ أو لاعـبٌ دَاحِ

وعندما يخلص من وصف السحاب والغيث "أي أوس" نقرأ له هذين البيتين:

وقـدْ أَرانـي أمـامَ الحـيِّ تحمِلُـني جلديَّـةٌ وصَلَّـتْ رأسـاً بـألواحِ
عيرانَـةٌ كأتـانِ الفحْـلِ صَلَبَهـا جـرمُ السـوادِيِ رَضـوهُ بمِرضـاحِ

ويختتم أوس قصيدته بقوله:

سـقَى ديـارَ بـني عـوف وسـاكنَها ودارَ علقمـةِ الخـيرِ بـنِ صبّـاحِ(١)

ونستطيع أن نستخلص من كل ما سبق أن قصيدة أوس بن حجر كانت على ما يبدو مختلفة في موضوعها عن قصيدة عبيد بن الأبرص، ولكنها ضاعت و لم يتبق منها إلا النذر اليسير ولعل المقدمة فيها هي التي لم تمتد إليها يد الضياع. والمظنون عندنا أن أحد الرواة مزج بين ما تبق من قصيدة أوس بقصيدة عبيد بعد أن أثبت مقدمة أوس في القصيدة الجديدة. ولهذا ظهرت القصيدة مفككة البنية والترتيب وهي عموما تنافي بقية شعر أوس المثبتة في ديوانه. ولعلنا بهذا نستطيع أن نفسر غياب البيتين اللذين نسبهما المبرد لوس في شعر عبيد لأنهما من هذه الأبيات الخمسة التي تكون مقدمة أوس بن حجر وهما لا يتصلان بوصف السحاب والمطر.
أما قول أبي الحسن أن أهل الكوفة يروونها لعبيد فلعل هذا وهم منه لاتفاق القصيدتين في الوزن والروي. وربما كان لأن قصيدة أخرى لعبيد على نفس الوزن والروي وتشتمل بعض أبياتها على معان تشبه إلى حد كبير ما جاء في شعر أوس الذي أورده المبرد في "الكامل" يقول عبيد في قصيدة أخرى:

وَقَـدْ تَبَطَّنْـتُ مِثْـلَ الرِّئْـمِ آنِسَـةً رَوْدَ الشـبابِ كَعابـاً ذاتَ أَوضْـاحِ

---

١ـ انظر ديوان أوس بن حجر طبع دار صادر ص ١٣.

تَخـالُ ريـقَ ثناياهـا إذا ابتَسَـمَتْ كَمَـزْجِ شَـهْدٍ بـأُتْرجٍ وتفـاحِ
كـأنَّ سِـنَّتَها في كُـلِّ داجيـةٍ حِيْنَ الظـلامُ بَهِيْـمٌ ضـوءُ مِصْبـاحِ(١)

ولعل أهل الكوفة كانوا يروون هذه القصيدة وظن أبو الحسن أنها هي المقصودة.

أما ابن قتيبة فهو قد ولد سنة ٢١٣هـ. أي قبل وفاة الأصمعي بعام واحد وروايته عن الأصمعي دون أن يكون بينهما راو آخر يجعل الباحث يتحفظ في قبولها، لا لكونها خالفت هواه ولكن لأن الأقدمين اعتادوا دائما ذكر من ينقلون عنهم الأخبار والروايات.

أما رواية أبي الفرج التي رواها الرياشي عن الأصمعي. فان الرياشي وان كان تلميذا للأصمعي إلا أنني أراه يروي عن الأصمعي أشياء ربما خالفت الواقع والحقيقة ويكفي أنه يروي عن الأصمعي بعد موت الرجل. قال: رأيت في النوم كأني أسأل الأصمعي بعدما مات ما معنى قول الشاعر:

كُـلُّ جديـدةٍ فـإلى بِلاهَـا وَكُـلُّ جَديـدةٍ فـإلى جَديـدِ

فقال: إلى يوم جديد يأتي عليها، أو إلى بلى جديد لابد لها منه ثم يعقب على ذلك ويقول: "حتى في النوم وبعد الموت لم يخطئ"(٢). والواقع أنني لمست شيئا من الاضطراب حين نسبها لأوس بن حجر ثم قال: "وهكذا رواه الأصمعي" ثم أتى بروايته ليدعم ما سبق ذكره، ولعله قد وقف على ما رواه ابن سلام من حديث المفضل فحول المفضل إلى "بعض" فقال: "ووافقه في ذلك بعض الكوفيين" ثم ختم حديثه بقوله: "وغير هؤلاء يروونها لعبيد بن الأبرص" ولا أريد الوقوف على كلمة "وغير هؤلاء" ويكفي أنهم الغالبية العظمى من علماء البصرة والكوفة وحسبك منهم أبو عمرو بن العلاء ويونس ابن حبيب وخلف الأحمر وحماد الرواية وأبو عمرو الشيباني.

وثمة نقطة أخرى وهي تتعلق بالمفضل الضبي الذي صرفها لأوس بن حجر فهو وان كان ثقة كثير الرواية للشعر، إلا انه كان يقول عن نفسه "وإني لا أحسن شيئا من الغريب ولا من المعاني ولا تفسير الشعر"(٣) فهو إذن كان يروي شعرا مجردا. ولعله حمل هذه القصيدة المضطربة التي نراها في ديوان أوس أو بعضا منها، أو ربما كان مرجع ذلك كله تعدد المصادر التي استقى منها العلماء اللغة والشعر.

وصفوة القول أنني أرجح أن تكون هذه القصيدة لعبيد بن الأبرص أو بعبارة أدق وصف السحاب والغيث فيها ويدفعني إلى ذلك ما ذكرته سابقا وما لاحظته من أن امرأ القيس بن حجر وهو معاصر لعبيد كان يعيش في بني أسد يصف الغيث ويتفوق على عبيد حسب ما زعم ذو الرمة في رواية ابن سلام عن يونس(٤) ثم أننا نجد شاعراً آخر عاش في بني أسد وكان عبداً من عبيدها وهو سحيم عبد بني الحسحاس يصف الغيث ويجيد فيه. ثم إذا تجاوزنا العصر الجاهلي نجد شاعراً ثالثا من بني أسد وهو ـ ليس من مجال بحثنا هذا لكننا نشير إليه إشارة عابرة فرضتها طبيعة البحث ـ هو الحسين بن مطير الأسدي يصف الغيث ويبرع فيه. ألا يدلنا هذا على صلة ما بين هؤلاء الشعراء

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤٠ تحقيق د. حسين نصار.
٢ـ انظر مراتب النحويين طبع نهضة مصر ص ٥٤.
٣ـ المصدر السابق ص ٧١.
٤ـ طبقات فحول الشعراء ص ٧٧.

جميعا. ثم ألا يدلنا خبر ابن سلام على أن القدماء قد لاحظوا هذه الصلة عندما عقدوا مقارنة بين ما قاله عبيد وامرؤ القيس وسحيم في وصف الغيث. إنهم لاشك لم يفعلوا ذلك عرضا لأن هذه الصلة تبدو واضحة جلية لكل من يقف على شعر هؤلاء الثلاثة، ليس في وصف الغيث فحسب بل في أكثر من معنى من المعاني التي تناولوها في أشعارهم.

هذا مثل من أمثال اضطراب الروايات في شعر بني أسد في العصر الجاهلي وهناك مثل ثان وهو بيت النابغة الذبياني المشهور والذي عرف فيه بالاقواء.

زَعَمَ الأَحِبَّةُ أَنَّ رِحْلَتَنا غداً ... وَبِذاكَ خَبَّرنا النُّدافُ الأَسْوَدُ(١)

فقد ورد هذا البيت في قصيدة عبيد بن الأبرص التي مطلعها:

إِنَّ الحوادِثَ قَدْ يَجِيءُ بِها الغَدُ ... والصُبْحُ والإِمْساءُ مِنْها مَوْعِدُ(٢)

وكذلك نجد في ديوان بشر بن أبي خازم خمسة أبيات هي في الواقع لمعود الحكماء معاوية بن مالك في الأصمعيات والتي تبدأ بالمطلع التالي:

أَجَدَّ مِنَ آلِ فاطِمَةَ اجتنابا ... وأَقْصَرَ بَعْدَ ما شابَتْ وشابا(٣)

هذه أمثلة على سبيل المثال لا الحصر لأن اضطراب النسبة بين شاعر أسدي وآخر كثير يشق علي حصره واستقصاؤه أما القسم الثاني من هذا الفصل الذي حدث فيه اضطراب وخلط بين شاعر وآخر من بني أسد فهو - أقل كمية من سابقه، ومن ذلك البيت الذي ورد في النقائض وشرح المفضليات منسوبا إلى سهم الأسدي(٤) وأشار فيه إلى أنه يحمل على بشر بن أبي خازم، والبيت هو:

وَنَحْنُ جَلَبْنا الخَيْلَ حَتَّى تناولتْ ... تميمَ بَنِي مُرٍّ بالنِّسارِ وَعَامِرا

والواقع أن عدم وجود البيت في ديوان بشر يدفعني إلى التردد في نسبته إليه، ومما يرجح ذلك عندي أن هذا ليس هو الخلط والاضطراب الوحيد بين بشر وسهم الأسدي، فهناك بيت آخر يقول:

وَهُمْ تَرَكُوا رئيسَ بَنِي قُشَيْرٍ ... شُرَيْحٍ للضِّباعِ وَلِلنُّسورِ

فقد قدم له صاحب شرح المفضليات بقوله: "وقتل قد بن مالك الوالبي شريح بن مالك القشيري رأس بني عامر ففخر بذلك الشاعر سهم الأسدي في الإسلام وحملت على بشر"(٥).

ويبدو لي أنه لما كان بشر بن أبي خازم أكثر شعراء بني أسد ذكراً ليوم النسار ويوم الجفار في

---

١- ديوان النابغة الذبياني ص ٨٩ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف، وفي ديوان عبيد "الأحبة" أما في ديوان النابغة "الغراب".

٢- انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤٢ طبع البابي الحلبي وتحقيق الدكتور حسين نصار.

٣- انظر تخريجات الأبيات في ديوان بشر بن أبي خازم ص ٣١، تحقيق الدكتور عزة حسن.

٤- انظر النقائض ص ٢٤٥ والمفضليات ص ٣٦٨.

٥- انظر المفضليات ص ٤٦٩.

شعره، كان هذا مدعاة إلى أن ينسب الرواة إليه كل شعر جرى في هذين اليومين. ومن ذلك أيضا الأبيات التي رويت في الحماسة منسوبة إلى عبد الله بن الزبير الأسيدي والتي مطلعها:

وفي الحَدَثَانِ نُسْوَةُ آلِ حَرْبٍ بِمِقْدارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودا[1]

فقد حدث فيها خلط واضطراب إلى حد الاستغراب، إذ نسبت للشاعر أيمن بن خزيم الأسدي[2] والكميت بن معروف الأسدي[3] ولفضالة ابن شريك الأسدي[4] والأبيات وردت في الحماسة في باب المراثي وهي على ما يبدو في رثاء معاوية أو يزيد وفي رأيي أن نسبتها إلى أيمن بن خزيم وهم لأن هذا الشاعر معروف بتشيعه لآل البيت و لم يصل إلى بني أمية إلا في عهد عبد الملك بن مروان[5] كذلك لم يعرف عن الكميت بن معروف أنه كان على صلة بالأمويين في أول عهدهم بالخلافة وأرجح أن تكون هذه الأبيات لعبد الله بن الزبير لأن علاقة عبد الله ببني أمية وآل حرب خاصة بدأت مبكرة[6].

وقصارى القول في هذا الفصل أن شعر بني أسد قد داخله شيء من الانتحال والشك ولكنه انتحال طفيف لا يشكل خطورة، ويمكن للباحث أن يتعرفه دون عناء وجهد كبيرين وقد شاب شعر بني أسد ـ أيضا ـ شيء من الخلط والاضطراب في النسبة غير أنه من الممكن مناقشة ذلك وإرجاع كل شعر إلى قائله بناء على القرائن والملابسات التي اكتنفت الشعر ذاته أو الروايات وأصحابها وهو في الواقع اضطراب ليس مقصورا على شعر بني أسد وحده بل يشمل شعر معظم القبائل الأخرى.



١ـ انظر الحماسة بشرح المرزوقي الجزء الثاني ص ٩٤١.
٢ـ انظر المنازل والديار ص ٤٦٩.
٣ـ انظر الأمالي للقالي الجزء الثالث ص ١١٥.
٤ـ انظر عيون الأخبار الجزء الثالث ص ١٦٧.
٥ـ انظر ترجمته في الأغاني، دار الكتب الجزء ٢٢ ص ١٤٣ وما بعدها.
٦ـ انظر الأغاني طبع الدار الجزء ١٤ ص ٢١٧.

# ظاهرة التشكيك في بعض أشعارهم:

من المعروف أن الشاعر عبيد بن الأبرص هو أقدم شاعر في قبيلة بني أسد وصلت إلينا أشعاره ـ كما أشارت إلى ذلك المصادر. غير أن هناك إشارة إلى مرة بن الرواع، فقد ذكر كل من الآمدي والمرزباني أن شعره كانت تتغنى به قيان امرئ القيس بن حجر[١].

بيد أن ما وصل إلينا من شعر مرة لا نستطيع الاستدلال به على أنه كان سابقا لعبيد بن الأبرص أو معاصرا له. واكتفى الآمدي بمقولة عنه تفيد أنه من قدماء شعراء بن أسد، وأن جواري الملوك كانت تتغنى بشعره، وروى الآمدي قصيدة لمرة مطلعها:

إنَّ الخَلِيطَ أَجَدَّ البَيْنَ فَأَوَّلجُوا ... وَهُمْ كَذلِكَ في آثَارِهِمْ لِجَجُ

وزاد الآمدي أربعة أبيات أخرى لمرة من القصيدة ذاتها بينما نجد المرزباني يكتفي بذكر المطلع فقط، وينعت مرة بأنه جاهلي قديم كثير الشعر يقال أنه كان في عمر امرئ القيس بن حجر، وأشار المرزباني إلى ثانية لمرة مطلعها:

أَشَاقَكَ مِنْ فَكِيهَتِكَ أَدِّلاجُ ... وَبُتَّ الحَبْلُ وانْقَطَعَ الخِلاجُ

ولم يضف بعد ذلك شيئا[٢].

وإذ صح أن مرة بن الرواع كان معاصراً لامرئ القيس وفي مثل سنه ـ كما قال المرزباني ـ فإننا نرجح أن عبيدا هو السابق، فقد ذكرت المصادر أن عبيدا كان ينادم حجر بن الحارث أبا امرئ القيس، وأنه هو الذي كان شفيع قومه لدى حجر بعد أن كان قد أمر بنفيهم إلى تهامة، كما أشرت من قبل، بل أن الدكتور سيد حنفي يذهب إلى القول بأن عبيدا كان أستاذا لامرئ القيس وأن الأخير كان من رواة شعره[٣].

ومن ثم فإننا نرجح أن عبيد بن الأبرص هو أقدم شعراء بني أسد، الذين وصل عنهم شعر يمكننا الاعتماد عليه في تتبع مسيرة تطور شعر هذه القبيلة وفهمه، وإن كان هذا لا يمنع من وجود شعراء قد عاصروا عبيدا وعاشوا معه وتناولوا شيئا من أحداث القبيلة كما تناولها عبيد في شعره. لكننا نود أن ندرس شعر عبيد بوصفه شاعرا فحلاً، وتدفعنا هذه الرغبة إلى أن نناقش ما يتعلق به وبشاعر فحل آخر من شعراء بني أسد وهو بشر ابن أبي خازم. أقول أن هذه الرغبة تدفعنا إلى مناقشة قضية الشك التي واجهها شعر عبيد بن الأبرص منذ عصر التدوين إلى يومنا هذا وأستطيع أن أقول أنه ليس هناك شاعر جاهلي واجه الغموض واللبس مثلما واجهه شعر عبيد بن الأبرص وكذلك حياته. ومن

---

١ـ انظر المؤتلف والمختلف للآمدي ص ١٢٧ وانظر معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٩٤.

٢ـ انظر المصدر السابق للآمدي ص ١٢٧ وانظر المصدر السابق للمرزباني ص ٢٩٤.

٣ـ انظر الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية للدكتور سيد حنفي ص ٥٨ وما بعدها حيث عقد المؤلف فصلا عن امرئ القيس وعبيد بن الأبرص.

هذا المنطلق كان الطريق إلى الشك في بعض أشعاره سهلاً ممهداً. وكان أول من تناول شعر عبيد بن الأبرص بالشك هو محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣٢ هجرية. لقد وضع ابن سلام عبيداً في الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية، - كما أوضحت - إلا أنه قال عنه: قديم الذكر عظيم المنزلة والشهرة وشعره مغرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله "أقفر من أهله ملحوب ولا أدري ما بعد ذلك"[١].

ويقول ابن سلام في موضع آخر "وما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد. والذي صح لهما من قصائد بقدر عشر، وان لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة، وان كان ما يروى من الغثاء لهما فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة، ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر، وكانا أقدم الفحول فلعل ذلك لذاك فلما قل كلاهما حمل عليهما حمل كثير"[٢].

وكما نرى فان التناقض واضح في كلام ابن سلام فهو يقول بداية لا أعرف له إلا قوله "أقفر من أهله ملحوب ولا أدري ما بعد ذلك" وقوله في الثانية "والذي صح لهما من قصائد بقدر عشر" فهل عرف ابن سلام هذه القصائد العشر فيما بعد؟ أو أنه لم يعرفها وسمع عنها فقط؟ وإذا لم يكن قد عرفها فبأي حق يحكم بصحتها حين يقول: والذي صح لهما قصائد بقدر عشر.

وأما قول ابن سلام بأن شعر عبيد ذاهب في القدم فهذا أمر لا يمكن تجاهله أو الحكم بعدم صحته، ذلك أن العمر المديد الذي عاشه عبيد بن الأبرص لا يعقل معه - لدى الباحث - أن يظن بأن كل ما قاله من شعر هو هذه الكمية القليلة من القصائد التي وردت في ديوانه. وأما اضطراب شعر عبيد فالواقع أن القارئ يلمسه حقا في بعض القصائد من حيث أوزانها وحركة الروي فيها، وإذا ما سلمنا بصحة الرأي القائل أن شعر عبيد بن الأبرص يمثل مرحلة الطفولة في الشعر الجاهلي بعامة، فإننا نرى اضطراب الوزن عند هذا الشاعر أمرا عاديا لا غرابة فيه ولا تثريب[٣].

ونستطيع الوقوف مع ابن سلام في الإشارة إلى ما نال شعر عبيد وطرفة من السقوط والضياع أكثر مما نال غيرهما من شعراء الجاهلية، ولعل عبيد بن الأبرص قد تفوق على طرفة إلى هذا المضمار فهو سابق عليه بحوالي قرن من الزمان أو يزيد. وأما قوله حمل عليهما حمل كثير فالأرجح أن ابن سلام كان قد رأى شعرا كثيرا منسوبا لعبيد يفوق هذا الذي في الديوان، وأن ذلك لم يصل إلينا إلا بعضه ولعل الذي صنع ديوان عبيد قد أسقط أغلب تلك الأشعار التي حملت على عبيد.

وإذا انتقلنا إلى المحدثين فننا نجد مرجليوث على رأس قائمة المشككين في شعر عبيد بن الأبرص، وقد عبر عن هذه الشكوك في بحثه "أصول الشعر العربي" والذي نشر بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد يوليو ١٩٠٥. وفي هذا البحث شك مرجليوث في الشعر الجاهلي كله. وقضية الشك في الشعر الجاهلي قضية كبيرة ومتشعبة لا مجال لها في هذا البحث إلا الجانب الذي يخص شعراء بني أسد، ويمكن الرجوع إلى هذه القضية في أكثر من مرجع وكتاب، فالدكتور ناصر الدين جمع فيها الآراء ابتداء من ابن سلام وانتهاء بالدكتور طه حسين، في كتابه مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية،

---

١- انظر طبقات فحول الشعراء طبع المدني تحقيق محمود شاكر ص ١٣٩ الجزء الأول.

٢- انظر طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي طبع المدني تحقيق محمود محمد شاكر ص ٢٣.

٣- انظر الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية للدكتور سيد حنفي الفصل المقصود عن عبيد وامرئ القيس. وانظر رسالة الماجستير للباحث بمكتبة الكلية الفصل الخاص بأوزان عبيد بن الأبرص.

ويمكن الرجوع أيضا إلى كتاب شوقي ضيف الشعر الجاهلي، وكتاب الدكتور البهبيتي تاريخ الشعر العربي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، وكتاب بلاشير تاريخ الأدب العربي، وكتاب الأدب العربي الجاهلي للدكتور مصطفى هدارة[١].

ونقف عند ما ذكره مرجليوث حين ذلك على شكه في الشعر الجاهلي بوجود معان دينية جاءت فيه شبيهة بتلك التي جاءت فيما بعد في القرآن الكريم، ويقول مرجليوث إن الشعراء الجاهليين لا يكادون يختلفون في قسمهم بالله وضرب مثلا قول عبيد بن الأبرص:

حَلَفْتُ بِاللهِ إِنَّ اللهَ ذو نِعَمٍ ... لِمَنْ يَشاءُ وذو عَفْوٍ وتَصْفاحِ

ثم يشير إلى قوله في معلقته:

مَنْ يسألِ النّاسَ يَحْرِموهُ ... وَسائِلُ اللهِ لا يَخيبُ

إن مرجليوث يشك في صحة هذا الشعر ونسبته إلى عبيد بن الأبرص، كما يعمم هذا الشك ليشمل كل شعر جاء موافقا لهذا المعنى. ويمكننا في معرض الرد عليه أن نقول إن العرب في شبه جزيرتهم لم يكونوا بمعزل عما حولهم من الديانات السماوية وغير السماوية فأبو الفرج يحدثنا عن عدد من النصارى كانوا يسكنون الحيرة يسمون "العباديين"، وأن الأعشى كان يتصل بهم ويشتري منهم الخمر ويعاشرهم ونجد بعض المعاني التي أخذها عنهم ماثلة في شعره كقوله:

استَأْثَرَ اللهُ بالوفاءِ وبالحَمْدِ ... وَوَلّى المَلامَةَ الرَّجُلا[٢]

وعبيد بن الأبرص كان يتردد على الحيرة باستمرار وينادم ملوكها من آل لخم، وفيها ـ كما تقول الروايات ـ كان مقتله على يدي المنذر بن ماء السماء[٣]. هذا بالإضافة إلى تأثر عبيد بالحنيفية الذي أشرت إليه في حديثي عن الحياة الدينية في بني أسد، وبالمعتقدات والعبادات المختلفة التي كانت سائدة وقت ذاك. إن أحدا لم يذهب إلى أن الإسلام قد جاء إلى قوم لم يعرفوا عبادة قط، بل جاء وللقوم عبادات شتى وعقائد متنوعة بغض النظر عما إذا كانت تلك المعتقدات صحيحة أو غير صحيحة، وهذا ما حدا بالدكتور البهبيتي إلى أن يرد على أمثال هؤلاء، ومنهم مرجليوث ممن شكوا في الشعر الجاهلي لوجود أبيات فيه مطابقة في معانيها لما جاء به القرآن الكريم، يقول الدكتور البهبيتي: "لو دقق هؤلاء لوجدوا أن الإسلام لا يمكن أن يكون شجرة منبتة الأصل عن البيئة التي وجدت فيها، لا تمت بصلة إلى عقول العرب فجاء يخالف طبيعة الأشياء والأولى أن الإسلام جاء لتفاعلات هائلة كانت تضطرب بقلب الجزيرة العربية فتكشف عنه وأتى مجليا لخلاصتها

---

١ـ ينظر في هذه القضية والرد على مرجليوث كتاب الدكتور محمد مصطفى هدارة الأدب العربي في العصر الجاهلي ـ طبع دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية حيث يخصص الدكتور هدارة فصلا قيما في الرد على مزاعم مرجليوث وغيره ص ٩٤ و ١٤٦.

٢ـ انظر ديوان الأعشى الكبير تحقيق الدكتور محمد محمد حسين ص ٢٦٩.

٣ـ انظر مقدمة ديوان عبيد تحقيق لايل طبع ليدن ١٩١٣ وديوانه بتحقيق الدكتور حسين نصار المقدمة ـ وانظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص ٢١٩ ـ طبع المكتبة، ١٣٥٨هـ. خبر مقتله. وانظر شعراء النصرانية للويس شيخو طبع بيروت ص ٥٩٦.

وزبدتها"(١).

ويذهب بروكلمان "إلى أن الثقافة النصرانية كان لها نصيبها من التأثير في العقلية العربية في الجاهلية، والتي مثلها الشعر الجاهلي بيد أن التعرف على دين أو معتقد ليس معناه اعتناق هذا الدين"(٢). ونأتي إلى الدكتور طه حسين بعد أن وقفنا عند مرجليوث. فلقد حظى شعر عبيد بن الأبرص بنصيب لا بأس عليه من الشك والنقد عند الدكتور طه الحسين، الذي عبر عن ذلك بقوله: "إنه التمس من سيرة عبيد وما يضاف إليه من شعره ما يفيد على إثبات شخصية امرئ القيس وشعره فكانت النتيجة محزنة" ويشير إلى أن الرواة لا يحدثوننا عن عبيد بشيء يقبل التصديق فهم قد أوصلوا عمره إلى ثلاثة قرون، وجعلوا له شخصية أسطورية قائلا عن شعر عبيد: "إن الرواة يحدثوننا بأنه مضطرب ضائع"، ويشير بهذا إلى ما ذكره ابن سلام من أنه لم يبق من شعر عبيد وطرفة إلا قصائد بقدر عشر، وأنه لا يدري ما بعد ذلك. ثم يمضي الدكتور طه فيقول: "ولكن رواة آخرين يروون هذه القصيدة كاملة ويروون شعراً آخر في هجاء امرئ القيس ومعارضته وفي استعطاف حجر والتشفع عند لبني أسد" ثم يقول: ويكفي أن تقرأ هذه القصيدة التي مطلعها "اقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب" لتجزم بأنها منحولة لا أصل لها وحسبك أنه يثبت فيها وحدانية الله وعلمه على نحو ما يثبته القرآن فيقول:

والله ليس له شريك علام ما أخفت القلوب

ويتحدث الدكتور طه حسين بعد ذلك عن شعر عبيد الذي عارض فيه امرأ القيس وهجا فيه كندة فيقول: "وأنه لاحظ له من الصحة فيما نعتقد وذلك لإسفافه وضعفه وسهولة لفظه وأسلوبه، مما لا يتأتى أن يضاف إلى شاعر قديم" ويستشهد بالقصيدة التي يخاطب فيها امرأ القيس.

يا ذا المخوفنا بقتل أبيه اذلالا وحينا

ويرى الدكتور طه حسين أنها من عمل القصاصين ونتيجة للتنافس بين العصبتين اليمنية والمضرية، وينتهي الدكتور طه من هذا كله إلى القول بأن شعر امرئ القيس المتعلق بشعر عبيد إنما هو شعر منحول عليه كشعر عبيد(٣).

والواقع أن ما جاء به الدكتور طه حسين حول شخصية عبيد وشعره كان معبرا إلى الدخول لامرئ القيس، ولإثبات أن شعره منحول هو الآخر واعتمد الدكتور طه على أقوال بعض القصاصين وأساطيرهم في المبالغة في تقدير عمر عبيد من أنها وسائل شك في شعر الشاعر(٤) ونلاحظ على الدكتور طه أنه يجعل رواية ابن سلام هي الأولى والأخيرة، ويضفي عليها صفة الجمع فيقول: إن الرواة قالوا عن شعر عبيد أنه مضطرب ضائع، مع أن هذه العبارة جاءت عن ابن سلام وحده.

---

١ـ انظر تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري للدكتور نجيب محمد البهبيتي ص ٥٧.

٢ـ انظر تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان جزء ١ ص ٢٧.

٣ـ انظر كتاب في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين طبع دار المعارف ١٩٦٢ ص ٢٠٩ وما بعدها.

٤ـ انظر المعارف لابن قتيبة ص ٢٦٧ الجزء الأول طبع دار المعارف ١٩٦٦ وانظر كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني ص ٦٦ مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٥ حيث يصل بعمر عبيد إلى ما يزيد على المائتي عام وانظر ديوان الشاعر عبيد بن الأبرص تحقيق السير تشارلز لايل طبع ليدن ١٩١٣ ص ٦٠ - ٦١.

ويقتفي الدكتور طه حسين خطى مرجليوث في شكه ببائية عبيد حين دلل على عدم صحتها معتمدا على أن فيها إثباتا للوحدانية على النحو الذي جاء به الإسلام بعد ذلك.

والملحظ الثاني على ما جاء به الدكتور طه حسين حول عبيد وشعره واستدلاله على عدم صحة الشعر ـ وبخاصة ذاك الذي عارض فيه امرأ القيس ـ بإسفافه وضعفه وسهولة لغته وأسلوبه، وأنه من عمل القصاصي وأثر من آثار التنافس بين العصبية المضرية واليمنية نقول في ردنا على الدكتور طه حسين، ونود أن نشير قبله إلى أن هذه القضية أحدثت جلبة هائلة في وقتها، وقد تصدى للرد عليها باحثون وعلماء كبار، وألفت فيها كتب، ويمكننا وصف تلك الردود بالموضوعية والمنطقية حينا ــ وبالتهجم والتجريح الشخصي حينا آخر. ومع تقدير الباحث لجهود الدكتور طه حسين ولكل ما قدمه للأدب، فلا بد له من الوقوف على بعض النقاط ومناقضتها، ذلك أن عبيد بن الأبرص يعتبر فحلا من فحول قبيلة بني أسد في الجاهلية موضوع بحثنا هذا، ولعلنا بوقوفنا على اتخاذ الدكتور طه الشك في شعر عبيد وسيلة مثبتة لشكه في شاعر آخر معاصر له حكم على شعره بداية أنه منحول، نستطيع أن نتبين التعسف والتسرع في الأحكام. صحيح أن ذلك قرينة ولكنه لا يشكل إدانة قاطعة، وما أظنها تقودنا إلى الحقيقة الكاملة التي ينشدها كل باحث، فوضع النتائج أولا ثم تحري الطرق الموصلة لها قد يوقعنا بالخطأ. وأما ما جاء حول حياة عبيد فإننا نوافقه على أن حياة هذا الشاعر قد لفها شيء من الغموض، وأن الرواة تحدثوا عنها بما لا يقبله عقل أو منطق، ولكن هل هذا مسوغ لنا أو دليل على نقض شعر عبيد؟ ولقد تحدث عنها الأقدمون من الرواة دون أن يجعلوها وسيلة لإنكار شعر عبيد، فإنكار الشعر لا يكون بمثل تلك الكرامات والأساطير بقدر ما يكون من خلال الشعر نفسه ولسنا بصدد مناقشتها في هذا البحث.

وإذا كان الرواة قد بالغوا في تحديد الفترة التي عاشها عبيد حتى أوصلوها إلى زهاء ثلاثة قرون من الزمان، فهل يعد هذا العامل نفي لوجود شاعر كعبيد وصل إلينا بعض شعره كشعر غيره من قدماء الشعراء الجاهليين، كما تناقل الرواة شعر من جاء بعده ثم أن عبيد بن الأبرص ليس الشاعر الوحيد الذي بلغ به الرواة ثلاثة قرون من العمر فهنالك المستوغر عمرو بن ربيعة الذي قال صاحب الأنساب أن عاش عشرين وثلاثمائة سنة، ودريد بن زيد الذي نقل عن أبي حاتم أنه عاش ستا وخمسين وأربعمائة سنة، وزهير بن جناب، وغيره ممن يحفل بهم كتاب المعمرين وأمالي المرتضي[١] ويروي ابن سلام لهؤلاء شعراً في طبقاته[٢] وابن سلام كما رأينا هو الراوية الذي اعتمد عليه الدكتور طه حسين. وخلاصة الكلام في عمر هذا الشاعر هي أنه عاش عمرا مديدا يرجح معه أنه تجاوز المائة سنة، وهذا شيء طبيعي في عمر الإنسان، إلا أنه من المؤكد لم يبلغ ما بلغ به بالرواة من عمر. وأما النقطة التالية فلا تحتاج إلى وقوف، إذ ليس من الدقة في شيء أن يأخذ الباحث قول راو واحد ويزعم أن الرواة قد قالوه، ولعلها من أستاذ الجيل فورة شباب، كما قال الدكتور محمد النويهي في كتابه الشعر الجاهلي[٣] ثم إن الاعتماد على رواية واحدة وإغفال الروايات الأخرى قد يؤدي بالباحث إلى طمس الحقيقة ـ وابن سلام بشر يخطئ ويصيب وليس ذلك بالمستغرب حتى أن

---

١ـ انظر كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني طبع السعادة بمصر ١٩٠٥ وانظر أمالي المرتضي ص ٢٣٢.

٢ـ انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ص ٢٨ حتى ٣١.

٣ـ انظر الشعر الجاهلي الجزء الثاني ص ٢٥٧.

أحد الباحثين يتهمه بالتعصب في روايته للشعر[١].

وأما رأي الدكتور طه حسين من أن شعر عبيد كان نتيجة تنافس الأهواء العصبية بين المضرية واليمنية، فالحقيقة أننا لو أخذنا بهذا المبدأ لرفضنا كثيرا من الشعر العربي الذي دار حول هذا الفلك، أو على الأقل التشكيك في صحته، وبخاصة إذا تتبعنا جذور هذه العصبية القديمة منذ عهد كليب وائل وحرب خزارى المشهورة، فهي كما نرى لم تبدأ بالعصر الأموي حتى يمكننا اتهام قصاص ورواة هذا العصر رغم اشتداد أوار التنافس بين المضرية واليمانية[٢].

إن أشعار عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم زاخرة بأحداث القبيلة وبأخبار مقتل حجر بن الحارث، وطلب ابنه امرئ القيس لثأره، وأحداث كثيرة أخرى أشار إليها الرواة في العصر الجاهلي ووردت على لسان أكثر من شاعر، فهل من سبيل إلى الشك في أشعارهما بعد هذا التصوير لحياة القبيلة الحربية وغير الحربية.

وإذا كان في شعر عبيد سهولة ـ ولا أستطيع أن أسميها إسفافا وضعفا ــ فإنما هي ظاهرة عامة تشمل معظم شعراء بني أسد الذين وقفت على شعرهم، فضلا عن أن هذا الشاعر يمثل مرحلة الطفولة أو على الأقل مرحلة متقدمة من الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا، وإذا افترضنا أنه قد قال قصيدته التي استعطف فيها حجر بن الحارث ارتجالا، وكذلك قصائده التي كان يرد فيها على امرئ القيس لعرفنا من أين جاءت هذه السهولة التي لا نجدها في قصائد أخرى جاءت نتيجة تعمق وترو في التجربة الشعورية عنده، مما سنقف عليه أثناء دراستنا لشعره في هذا البحث.

وجاء بعد طه حسين الدكتور سيد حنفي حسنين الذي تناول شعر عبيد بالبحث والدراسة ولا نريد الوقوف عند كل ما قاله الدكتور سيد عن عبيد وشعره هنا، ولكننا نود مناقشة جوانب الشك التي أثارها في شعر عبيد، فالدكتور سيد قد شك في مقدمة القصيدة البائية لعبيد "أقفر من أهله ملحوب" وقد عبر عن ذلك بقوله: إن نظرة أكثر دقة تجعلنا نحس أن مقدمتها من صنعة واحد من أولئك اللغويين الذين كانوا يهتمون بجمع أسماء الأماكن المختلفة في الجزيرة العربية ودلل على ذلك بأنها لا تحمل أكثر من ذكر الأسماء لتلك الأماكن تنتهي بمعان فيها حداثة، وخاصة في الصياغة البديعية في هذا التجنيس، "والشيب شين لمن يشيب" ويضيف الدكتور سيد قائلا: إن هذه الفقرة تتأكد غرابتها لمجيء البيت التالي مصرعا:

عَيْنَـــاكَ دَمْعُهُمـــا سَـــروبُ ... كَـــأَنَّ شَـــأْنَيْهِما شَـــعِيْبُ

ويرى الدكتور سيد أن هذا البيت هو البداية الحقيقية للقصيدة، ثم ينتهي إلى أن الراوي عندما أحس أن القصيدة لم تبدأ البداية التقليدية بالوقوف على الأطلال، وخاف أن يشك في صحة روايته أراد أن يضيف تلك المقدمة ليبعد الظن عن دقته وأمانته ويرضي اللغويين من جامعي رواياته[٣].

ويتناول الدكتور سيد القصة المثبتة في ديوان عبيد وديوان امرئ القيس عن تلك المماحكة اللغوية بينهما فيقول: إن هذه القصة مصنوعة وصانعها يعلم أن الرواة اعتبروا امرأ القيس أول من قيد

---

١ـ انظر مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية لناصر الدين الأسد ص ٤٤٩.

٢ـ ويمكننا مع الأخذ بهذا المبدأ أن نشك في أشعار حسان بن ثابت الأنصاري في هجاء قريش وابن الزبعري وضرار بن الخطاب وبشر بن أبي خازم وغيرهم.

٣ـ انظر كتاب الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية للدكتور سيد حنفي ص ٥٣.

الأوابد، ولكنه وهو يضع هذه القصة كأنما يريد أن يبرز أن عبيدا هو أول من تناول في شعره وصف الأوابد وقيدها، وأن امرأ القيس تلميذ له في هذا الموضوع. ويعرج الدكتور سيد حنفي على الأبيات التي عبر فيها عبيد عن تجاربه في الحياة وهي أبيات الحكمة في قصيدته البائية "أقفر من أهله ملحوب" فيقول بأنه يشعر أن بعضها موضوع، ولا يمكن لشاعر جاهلي كعبيد أن ينطق بها لما يغلفها من روح إسلامية مثل قوله:

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَائِلُ اللهِ لا يَخِيبُ

ويقر الدكتور سيد حنفي بباقي أبيات الحكمة الواردة في القصيدة ويدرجها في إطار الخبرة الإنسانية العامة على الرغم من إحساسه بأن بعض معانيها ذات صبغة إسلامية[1].

تلك لمحات الشك التي أثارها الدكتور سيد حنفي في شعر عبيد بن الأبرص وهي كما يخيل إلينا ثلاثة جوانب: الشك في مقدمة القصيدة البائية، وفي قصة وأبيات المماحكة اللغوية بين عبيد وامرئ القيس بن حجر، والشك في بعض أبيات الحكمة التي تضمنتها قصيدة عبيد البائية المذكورة، فأما الجانب الأول المتعلق بمقدمة القصيدة فإني أخالف الدكتور سيد الرأي فيه، وذلك لأن هذه المواضع التي ذكرها عبيد تقع كلها ضمن موطن بني أسد وقد ذكرها غير واحد[2] فملحوب يقع في بلاد بني أسد ويقال له اليوم مطحول والقطبيات قرب جبل سواح في عالية نجد الشمالية. والذنوب باقية بهذا الاسم إلى يومنا هذا وتقع في عالية نجد. وكذلك واكس وأما ذات فرقين فموقعها قرب جبل سلمى. وأما التعليمات وعردة وحبر ففي عالية نجد الشمالية أيضا[3].

فهذه الأماكن ليست غريبة عن عبيد فهي مواطنه التي عاش فيها وموطن قبيلته. وإن ذكرها في قصيدة له لا غرابة فيه، فضلا عن أن ذكر وتعداد الأماكن في الشعر الجاهلي بعامة يعد أمراً مألوفا نجده عند أغلب شعراء العصر الجاهلي من أصحاب المعلقات وغيرهم.

وأما الحداثة في المعاني التي تحدث عنها الدكتور سيد في بالقصيدة فإننا لا نشاطره الرأي فيها. ونتساءل؟ أي حداثة في أقوال عبيد من أن هذه الأماكن قد خلت من أهلها وأمست قفرا ومسكنا للوحوش، بعد أن تعاورتها الخطوب وغيرت أحوالها ومعالمها. وأي حداثة في أن الموت قد توارث هذه الأرض القفر الجرداء وحكم على ساكنها إما بالهلاك أو الفقد والضياع؟ وأن الإنسان فيها بين هاتين الحالتين أليست هذه شريعة الصحراء المهمة؟ أو لم تكن العرب تحب هذا؟ أن يموت الإنسان قبل أن يفقد القدرة على القيام وقضاء حاجاته بنفسه؟

إن أكثر من شاعر جاهلي وقف على الديار، وتحدث طويلا عن أهلها الظاعنين فاستبدلتهم بوحوش أو عين آرام أو غربان أو غير ذلك من الحيوانات التي كانت مألوفة لديهم. وأكثر من شاعر

---

١- انظر المصدر السابق ص ٨٩ - ٦٠.

٢- انظر الفصل الخاص بمواطن القبيلة في هذا البحث.

٣- انظر صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من آثار لمحمد بن عبد الله النجدي. ضبط محمد محي الدين عبد الحميد. الجزء الثاني ص ٧٦ وما بعدها.

وانظر المفضليات ص ٣٥ حيث يقول الجميح منقذ بن الطماح الأسدي:

فإن يكن أهلها حلوا على قضة فإن أهلي الأولى حلوا بملحوب

حدثنا عن هلاك الديار وتغير حالها بمرور السنين عليها، وما أظن أن المشيب للمرء عيبا حداثة. فمن المعروف أن عرب الجاهلية وبخاصة شعراؤها لا يحبون الشيب ويكرهون الكبر والشيخوخة. وقد ذكر التبريزي في شرحه لبائية عبيد بن الأبرص: "أن العرب كانوا يستحبون أن يموت الرجل وفيه بقية قبل أن يفرط في الكبر"(١).

وكانت النساء في الجاهلية تكره الشيب في الرجل وقد شكا كثير من الشعراء الجاهليين من هذا الأمر حين شابوا ورأوا تغير نسائهم نحوهم، ونجد ذلك في قصيدة عبيد اللامية حيث يقول:

زَعَمَتْ أَنَّنِي كَبِرْتُ وأَنِّي ... قَلَّ مالي وضَنَّ عَنِّي المَوالِي

وَصَحابا طِلي وأصْبَحْتُ شَيْخاً ... لايُواتِي أَمْثالَها أَمْثالِي

أنْ رأتْنِي تَغَيَّرَ اللَّوْنُ مِنِّي ... وَعَلا الشَّيْبُ مَفْرِقِي وَقَذالِي

دَرَّ دَرُّ الشَّبابِ والشَّعَرِ الأَسْوَدِ ... والراتِكاتِ تَحْتَ الرِّحالِ(٢)

كما نجد ذلك في قصيدة الجميح منقذ بن الطماح البائية حيث يقول:

أَمْسَتْ أُمامَةُ صُمْتاً ماتُكَلِّمُنا ... مَجْنونَةٌ أَمْ أَحَسَّتْ أَهْلَ خَرُّوبِ

وَلَوْ أَصابَتْ لقالت وَهْيَ صادِقَةٌ ... أَنَّ الرِّياضَةَ لا تُنْصِبْكَ للشِيبِ(٣)

والواقع أن الباحث لا يستطيع تتبع وسرد ما قاله الشعراء في هذا المجال فهو كثير ومن ذلك قول علقمة بن عبدة:

فَإنْ تَسْأَلوني بالنِّساءِ فَإنَّنِي ... بَصيرٌ بِأَدْواءِ النِّساءِ طَبِيبُ

إذا شابَ رأسُ المَرْءِ أوْ قَلَّ مالُهُ ... فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وُدِّهِنَّ نَصِيبُ

يُرِدْنَ ثَراءَ المالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ ... وَشَرْخُ الشَّبابِ عِنْدَهُنَّ عَجيبُ(٤)

ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى:

صَحَا القَلْبُ عَنْ سَلْمَى وأَقْصَرَ باطِلُهْ ... وَعُرِّيَ أفراسُ الصِّبا وَرَوَاحِلُهْ

---

١ـ انظر شرح المعلقات العشر للتبريزي طبع المنيرية ص ٣٠٤ ويقول زهير بن جناب الكلبي وكان شاعرا قديما شريف الولد وقد طال عمره يقول مخاطبا أبناءه:

أَبَنِيَّ إنْ أَهْلِكْ فَإنِّي ... قَدْ بَنَيْتُ لَكُمْ بَنِيَّهْ

وَجَعَلْتُكُمْ أَبْناءَ سا ... داتٍ زِنادُكُمْ وَرِيَّهْ

مِنْ أنْ يُرى الشَّيْخُ البجا ... لُ وَقَدْ يُهادى بالعَشِيَّهْ

والموت خير للفتى ... وليهلكن وبه بقية

وانظر طبقات فحول الشعراء الجزء الأول ص ٣٧ طبع المدني.

٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق الدكتور حسين نصار ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

٣ـ انظر المفضليات ص ٣٤.

٤ـ ارجع إلى مصدر المفضليات ص ٣٩٢ طبع دار المعارف تحقيق هارون.

وَأَقْصَرْتُ عمّا تعلمينَ وسُدِّدَتْ    عَلَيَّ سِوَى قَصْدِ السَّبِيْلِ مَعَادِلُهْ
وَقَالَ العذارَى إنَّما أنْتَ عَمُّنَا    وكانَ الشبابُ كالخليطِ نزايلُهْ

وهذا الشاعر الهذلي أبو كبير يقول:
أزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرَفِ    أمْ لا خُلُودَ لباذِلٍ مُتَكَلِّفِ

ويقول في موضع آخر:
أزهيرُ وَيْحَكَ ما لِرأسٍ كُلَّمَا    فَقَدَ الشَّبَابَ أتَى بِلَوْنٍ مُنْكَرِ
ذَهَبَتْ بَشاشَتُهُ وأصْبَحَ واضِحاً    حَرِقَ المَفَارِقِ كالبَرَاءِ الأعْفَرِ
وَنَضَيْتُ مِمَّا تعلمينَ فأصْبَحَتْ    نَفْسِي إلى إخوانِها كالمِقْذَرِ(١)

ثانياً ـ إذا كان المقصود بالحداثة الجانب البديعي في قول عبيد "والشيب شين لمن يشيب" فان هذه الألوان قد وجدت في الشعر الجاهلي عفوا، وهي إلى الطبع أقرب منها إلى الصنعة وقد نوه الدكتور البهبيتي بهذه النقطة في كتابه تاريخ الشعر العربي(٢).
وإن نظرة دقيقة إلى قصيدة عبيد البائية تجعلنا نرى بعض ألوان البديع، كالتجنيس في تكذيب وتعذيب والمطابقة في النائي والقريب، وكذلك التجنيس في كافي وشافي عند بشر بن أبي خازم.
كَفَى بالنَّأْيِ مِنْ أسماءَ كافي    وَلَيْسَ لِحُبِّها إذْ طَالَ شَافِي(٣)

وغير هذا كثير في الشعر الجاهلي ومن ذلك قول امرئ القيس:
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً    كَجُلْمودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ(٤)

ونظرة إلى الشطر الأول من البيت تكفي لرؤية ألوان البديع المختلفة فيه، ومن أراد الاستزادة فليعد إلى معلقة عمرو بن كلثوم وعنترة العبسي وغيرهم من شعراء الجاهلية فانه واجد ألواناً من البديع. فهل نحكم على عبيد من خلال وجود بيت مصرع بأنه من صنعة صانع، فالشعر الجاهلي حافل بمثل هذه الأبيات كما رأينا، ولكن الجاهليين لم يصلوا بها إلى مستوى الصنعة المتكلفة التي رأيناها بعد ذلك على يدي أبي تمام ومسلم ابن الوليد وغيرهم.
والحقيقة أن هناك كثيرا من القصائد الجاهلية التي وردت خالية من ذكر الأماكن في مطالعها، ومع ذلك رويت كما جاءت و لم تضف لها مطلع من قبل الرواة، وتقبلها منهم علماء اللغة دون أن يساورهم شك في صحتها أو أمانة روايتها، وإذا وقفنا للتعرف على هؤلاء اللغويين لوجدناهم هم

١ـ انظر ديوان الهذليين ص ١٠١ ـ ١٠٤ طبع الدار القومية للطباعة ١٩٦٥.
٢ـ انظر تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثلث الهجري للدكتور نجيب محمد البهبيتي ص ٦٠.
٣ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٤٢.
٤ـ انظر المعلقات العشر للتبريزي معلقة امرئ القيس.

الذين بحثوا في الشعر الجاهلي وتناولوه بالدراسة والنقد فكيف يقبلون شعرا منحولا عليه؟ ونلاحظ عدم ثبات الدكتور سيد حنفي على رأي في مسألة هذا الصانع، فتارة يقول أنها من صنعة أحد اللغويين الذين يهتمون بجمع الماكن المختلفة في شبه الجزيرة، ويعود إلى القول في موضع آخر أنها من صنعة الراوي الذي خاف أن يشك في صحة روايته فأضافها ليبعد الظن عن هذه الرواية وليرضي اللغويين جامعي رواياته فهل هي من صنعة عالم اللغة المهتم بجمع مثل هذه الأماكن؟ أم من صنعة الراوي الذي يريد إبعاد الشك عن روايته وإرضاء علماء اللغة من جامعي هذه الأماكن؟ أو هي من صنعهما الاثنين معاً؟

وإذا كان عبيد بن الأبرص قد قال في مطلع قصيدته:

عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سَرُوبُ ... كَأَنَّ شَأْنَيْهِما شَعِيبُ

ثم قال امرؤ القيس بعد ذلك في مطلع قصيدة له:

عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سِجَالُ ... كَأَنَّ شَأْنَيْهِما أَوْشَالُ

واتفق مع عبيد في بعض ألفاظه ومعانيه فان هذا يدل على اتفاق الاثنين في هذا الجانب فقط، ولي بالضرورة أن يتفقا في الوقوف على الأطلال مثلا. ويبدو أن المقارنة التي عقدها الدكتور سيد حنفي بين عدد من أبيات الشاعرين هي التي دفعته إلى أن يشك في مقدمة قصيدة عبيد عندما رأى قصيدة امرئ القيس خالية من الوقوف على الأطلال، مع أن امرأ القيس قد اتفق في عدد من القصائد ولكن بقي الاختلاف واضحاً بين قصائد عبيد بداية ونهاية وبين قصائد امرئ القيس.

هذا ما يتعلق بالجانب الأول أما الجانب الثاني فانني أوافقه فيه كل الموافقة، كما وافقه من قبل مؤرخو الأدب وشارحو ديواني الشاعرين، وذلك لأنهم أحسوا في قصة المماتنة شيئا من التكلف والصنعة يتنافى مع طبيعة شعر كل من عبيد وامرئ القيس الفنية وأما الجانب الثالث والأخير، وهو الخاص بشك الدكتور سيد حنفي في بعض أبيات الحكمة التي جاءت في قصيدة عبيد المشهورة وقوله: إن بعضها موضوع لا يمكن لشاعر قديم كعبيد أن ينطق بها، لما يغلقها من روح إسلامية فانني سبق أن ناقشت هذه القضية بتفصيل عندما تحدثت عن مرجليوث وشكه ولكنني أود أن أضيف هنا أن هذا المعنى الذي تناوله عبيد في بيته::

مَنْ يَسأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ ... وَسَائِلُ اللهِ لا يَخِيبُ

موجود عند النصرانية ففي إنجيلهم نجد ما نصه "اسألوا تعطلوا اطلبوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم لأن من يسأل يأخذ ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له، إن أي إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزا يعطيه حجرا وإذا سأله سمكة يعطيه حية فإذا كنتم وأنتم أشراء تعرفون أن تعطوا أولادكم الجيد فكم بالحري أبوكم في السموات يهب خيرات للذين يسألونه[1].

فهذا المعنى يمكن أن يستخلصه النصارى من دينهم وربما يكون عبيد أخذه من ضمن المعاني التي أخذها وعرفها في الحيرة، أو من غيرهم من أرباب الديانات الأخرى كالحنفية التي لم يصل إلينا من

---

١- انظر إنجيل متى الإصحاح السابع.

نصوصها شيء يمكن أن نعتمد عليه في دعم تأثر العرب بها في العصر الجاهلي.

ولكن هل معنى هذا أن كل ما جاء به من شعر منسوب لعبيد في ديوانه صحيح؟ إنني أشك في بهذا فلقد سبق أن أشرت إلى أبياته التي تحدث فيها عن عمره ورجحت عدم صحة نسبتها إليه، والى المماتنة التي جرت بينه وبين امرئ القيس وذهبت مع الذين قالوا بعدم صحة نسبتها إليهما، وأضيف هنا أن هناك شعرا في الديوان لم يتناوله الباحثون في الشك أو التجريح، إذ كانوا متأثرين بما أثاره المستشرقون من جوانب الشك في الشعر الجاهلي فرددوا ما قالوه، أو أضافوا إليه ما يدعم الفكرة نفسها ولقد وجدت في شعر عبيد بعض هذه الأشعار التي يبدو التكلف والصنعة واضحا فيها ومن ذلك قصيدته التي مطلعها:

أَرِقْتُ لِضَوْءِ بَرْقٍ فِي نَشَاصِ ... تَلأْلأَ فِي مُلاَّةٍ غصاص(١)

ويضيف عبيد في القصيدة ذاتها:

سَلُوا الشُّعَرَاءَ هَلْ سَبحُوا كَسَبْحَى ... بُحورَ الشِّعْرِ أَوْ غَاصُوا مَغَاصِي

لِسَانِي بالقَرِيضِ وبالقَوافِي ... وَبالأَشْعَارِ أَمْهَرُ فِي الغِوَاصِي

مِنَ الحُوتِ الَّذِي فِي لُجِّ بَحْرٍ ... يُجِيدُ السَّبْحَ فِي اللُّجَجِ القِمَاصِي

إذا مابَاصَ لاحَ بصفحتَيْهِ ... وبيض في المَكَرِّ وفِي المَحَاصِ

تَلاوَصَ فِي المَدَاصِ فلا وَصمَاتٍ ... لَهُ مُلَّصٌ دَوَاجِنُ بالمِلاَصِ

وَبَاصَ ولاصَ مِنْ مَلْصَى مَلاصٍ ... وَحُوتِ البَحْرِ أَسْوَدَ أو مَلاصِ

إن الناظر إلى هذه الصور في الأبيات ليجد أن الخيال قد شطح بها بعيدا عن البيئة التي عاشها عبيد بن الأبرص، علاوة على ركاكة القصيدة، وضعف معانيها، وضمور أخيلتها مما لا يتفق وشاعر كعبيد ونرجح أنها منحولة ومنسوبة إلى عبيد، صنعها أحد الرواة الذين لهم خبرة في حياة البحر ويغلب على الظن أنها من صنع أحد الرواة الذين عاشوا على شاطئ الخليج العربي. وانظر معي إلى هذا البيت من القصيدة ذاتها:

بَكَى البَوّابُ مِنْكَ وقالَ هَلْ لِي ... وَهَلْ لِلْبابِ مِنْ ذَا مِنْ خَلاصِ

إن طبيعة وأسلوب عبيد بن الأبرص لا يتفقان مع تكرار هذه الحروف من الروعة، مع هذه الركاكة في المعاني والأخيلة والصور، وأضف إلى ذلك أن كثيرا مما جاء به عبيد في هذه القصيدة لم أجد له معنى في معاجم وقواميس اللغة والمظنون أن جامع الديوان قد لاحظ خلوه من قواف معينة كحرف الصاد، فأراد الذي أراد ونسبه إلى عبيد ليجمع في ديوانه شيئاً من غريب اللغة، وإن صح هذا الكلام ففيه تفسير لحكم ابن سلام عندما أشار إلى هذا الغثاء من الشعر عند عبيد وطرفة والذي سبق أن أشرت إليه سابقا.

وأما بشر بن أبي خازم فقد ذكر الجاحظ في كتابه الحيوان أن الرواة طعنت في شعره وبخاصة في قوله:

---

١ـ انظر ديوانه ص ٧٥ وما بعدها.

والعِيْرُ يُرْهِقُهَا الخَبَارُ وَجَحْشُهَا يَنْقَضُّ خَلْفَهُمَا انقضاضَ الكَوْكَبِ

ويضيف الجاحظ: "إنهم زعموا أنه ليس من عادة العرب أن تصف عدو الحمار بانقضاض الكوكب ولا بدن الحمار ببدن الكوكب وقالوا في شعر بشر مصنوع كثير مما احتملته الرواة على أنه صحيح من شعره"(١).

وقد ناقش الدكتور عزة حسن محقق بديوان بشر بن أبي خازم هذا القول وبذل جهداً محموداً في الرد عليه، معتمدا في ذلك على ما ذكره الدكتور ناصر الدين الأسد من أن الجاحظ لا يكلف نفسه مشقة التثبت والتمحيص، والرجوع إلى ما بين يديه من كتب، وإنما يرتجل القول ارتجالا، ويسوقه في كثير من التسامح والتجاوز، ويدفعه إلينا كما ورد في خاطره ساعة إملائه. يقول الدكتور عزة حسن في مقدمة ديوان بشر: "على أن هذا الزعم يبطل من أساسه إذا فحصنا المسألة في مدى أوسع، إننا نقر بأن تشبيه عدو الحمار وغيره بانقضاض الكوكب قليل في شعر العرب، ولكننا نقول بأن هذا التشبيه وهو تشبيه عدو الفرس أو ثور الوحش أو العير بشيء آخر ينقض بسرعة وقوة كالصخرة والسيل والمطر والبازي والصقر شائع معروف في شعر العرب وفي شعر الجاهلية منه بصورة خاصة، فإذا جاز تشبيه الفرس وهو يعدو بانقضاض هذه الأشياء فلماذا لا يجوز وصف عدو العير بانقضاض الكوكب؟ وإذا لم يفعل قبل ذلك شعراء العرب فما الذي يمنع بشرا من أن يبدأ ذلك ويبتدعه ابتداعا؟ هذا مع أن الكوكب الذي ينقض في الليل ويسيل في كبد السماء في سرعة البرق خير صورة شبه بها الشعراء عدو الفرس وثور الوحش والعير، وهي صورة مألوفة عند العرب يرونها كثيرا في البادية لصفاء سمائها وسكونها في أغلب أيام السنة وقد عاد بشر نفسه إلى هذا التشبيه وذكر الكوكب والنجوم في صور شتى وأساليب مختلفة في شعره قال يصف عدو ثور الوحش نافرا من الكلاب:

فَجَالَ عَلَى نَفْرٍ تَعَرُّضَ كَوْكَبٍ وَقَدْ حَالَ دُونَ النَّقْعِ والنَّقْعُ يَسْطَعُ(٢)

وقد شبه الثور الوحشي مرة بالكوكب المضيء حيث يقول:

فَبَاتَ فِي حِقْفِ أَرْطَاةٍ يَلُوذُ بِهَا كَأَنَّهُ فِي ذَرَاهَا كَوْكَبٌ يَقِدُ(٣)

وشبه النجوم بقطيع من بقر الوحش حيث يقول:

أُراقِبُ فِي السَّماءِ بَنَاتِ نَعْشٍ وَقَدْ دَارَتْ كَمَا عَطَفَ الصِّوارُ(٤)

ونراه يصف مرة ثالثة بقرات الوحش التي باتت حول الثور بالكواكب فقال:

وَبِتْنَ رُكُوداً كَالكَوكِبِ حَوْلَهُ لَهُنَّ صَرِيرٌ تَحْتَ ظَلْمَاءَ حِنْدِسِ

---

١ـ انظر كتاب الحيوان للجاحظ الجزء السادس ص ٢٧٩ وما بعدها.

٢ـ انظر مقدمة ديوان بشر بن أبي خازم ص ٣٢ ـ ٣٥ والبيت في الديوان القصيدة ٢٥.

٣ـ انظر ديوان القصيدة ١٢.

٤ـ انظر الديوان القصيدة ١٥.





ونصل من ايراد هذه الأمثلة إلى النتيجة التالية: إن بشر بن أبي خازم يعاود ذكر الكوكب مرة بعد مرة في شعره، ويمكن لنا أن نعد ذلك ميزة من مزايا شعره ولو استقرأ الجاحظ شعر بشر لانكشفت له هذه الحقيقة، ولأحجم عن القول بأن شعره مصنوعا كثيرا.

وبعد فنحن نرى في شعر بشر انسجاما تاما بين أجزائه المختلفة ولعلنا نفسر ذكر الكواكب في شعر بشر على أنه تأثير ديني قديم عرفته بنو أسد من خلال عبادتها للنجوم والكواكب التي أخذتها عن عرب الحيرة وغيرهم[١].

وأما سحيم عبد بني الحسحاس فان أغلب شعره صحيح، والمنحول منه يعتبر نذراً يسيراً بالنسبة لعبيد وبشر، وقد أشار الأستاذ عبد العزيز الميمني في آخر ديوان سحيم إلى بعض الأبيات ورجح أنها منحولة، ومن ذلك قوله:

الحَمْدُ للهِ حَمْداً لا انْقِطَاعَ لَهُ وَلَيْسَ إحْسَانُهُ عَنّا بِمَقْطُوعِ

ويقال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أحسن وصدق وأن الله يشكر مثل هذا ولئن سدد وقارب إنه لمن أهل الجنة"[٢].

والمظنون عندنا أن هذا البيت منحول لسحيم، وذلك أنني عندما وقفت على شعره، وتفحصته، لم أجد فيه أي صبغة إسلامية، أو عاطفة تقترب من هذه الروح الدينية، ولا يصدر مثل هذا البيت إلا عن شخص تشرب روح الإسلام، وما أظن سحيما كذلك، ومن ذلك قوله كما أورده ابن قتيبة والجاحظ:

أَتيتُ نِساءَ الحارثيّينَ غُدْوَةً بوَجْهٍ بَراهُ اللهُ غَيْرِ جَمِيْلِ
فَشَبَّهْنَنِي كَلْباً وَلَسْتُ بِغَوْقِهِ وَلا دونَهُ إنْ كانَ غَيْرَ قَلِيْلِ[٣]

وهذان البيتان موضوعان ـ كما أظن ـ لأن المطلع على شعر سحيم والمتتبع لعلاقاته مع النساء لا يمكن أن تجعله يصدر الحكم نسبة هذا الشعر إليه، وهو الشاعر المعتز بنفسه الذي يحسن التودد إلى النساء، ويجيد مخاطبتهن، ويقر ابن قتيبة بأنه لم يعرف عن سحيم قبحا في الخلقة الجسدية[٤].

وأما بقية شعراء بني أسد الجاهليين، فالواقع: إنه لم يشك بصحة أشعارهم أحد، ولكن الملاحظ هنا، اختلاف الروايات واختلاطها في نسبة الأشعار لكل واحد منهم، ومرد ذلك في رأينا ـ هو أن الباحثين لم يجهدوا أنفسهم في تتبع ودراسة هؤلاء الشعراء حتى يتناولوا شعرهم بالتنقية والتدقيق والتصحيح، أو الشك في ما نسبت إليهم من أشعار.

---

١ـ انظر الحياة الدينية عند بني أسد في هذا البحث وكذلك الفصل الخاص بدراسة الصورة الفنية ضمن هذا البحث.
٢ـ انظر الإصابة الجزء الثالث ص١٦٣ وانظر شرح شواهد الفني للسيوطي ص ١١٢.
٣ـ انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ١ ص ٣٢٠.
٤ـ انظر المصدر السابق جـ١ ص ٣٢٠



# الباب الثاني

# شعراء بني أسد الجاهليون



## في هذا الباب:



الفصل الأول:

شعراؤها الأحرار



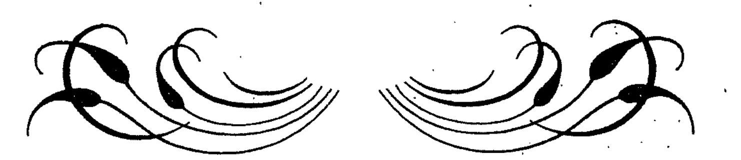
الفصل الثاني:

شعراؤها الموالي والعبيد



# الفصل الأول

# شعراؤها الأحرار



## في هذا الفصل:

معاني الفخر عند عبيد بن الأبرص

بشر بن أبي خازم

عمرو بن شأس الأسدي

ولنبدأ بالجميح الأسدي

لقد توفر لبني أسد بن خزيمة أسباب عديدة أدت إلى ذيوع شهرة هذه القبيلة، وبالتالي فقد أدت تلك إلى تمسك أفراد هذه القبيلة المضرية بأنسابهم الصريحة، والمفاخرة بها، كذلك حافظ أبناؤها على وشائج القربى فيما بينهم، والحرص على وحدة قبيلتهم التي يرفعها نسبها إلى جد كريم المحتد وهو أسد بن خزيمة، ولعل حياتهم المتبدية قد روضتهم على تحمل الصعاب ومناوشة الأخطار ورد كل طامع مغير، وقد أشار إلى هذا شاعرهم القديم عبيد بن الأبرص حيث قال:

أَبَـوْا دِيْـنَ الْمُلـوكِ فَهُـمْ لَقَـاحٌ إذَا نُدِبُـوا لِحَـرْبٍ قَـدْ أَجَـابُوا
أَتُوعِـدُ أُسْـرَتِي وَتَرَكْـتَ حُجْـراً يُرَفِّـعُ سَـوادَ عَيْنَيْـهِ الـتُّرابُ[١]

والواقع أن قبيلة بني أسد قد ظهر فيها عديد من الشعراء البارزين في الجاهلية، وكان لهم أثرهم في الحياة الاجتماعية والحربية والسياسية للقبيلة، ولم نبالغ إذا قلنا أن ذلك الأثر قد امتد إلى سائر قبائل نزار في نجد بخاصة وفي شبه الجزيرة بعامة.

وقد سبق أن عرفنا - في الباب الأول - تاريخ هذه القبيلة ومكانتها ومدى قوتها ومنعتها، ووقفنا على أنسابها الصريحة وبطونها المتعددة، ولعله مما يصعب على الباحث الإلمام بحركة هذه القبيلة وتتبع منازلها ومواطنها بدقة، هو انتشارها على رقعة واسعة من الأرض يحددها تشارلز لايل في قوله: "وكانت حدود أرض أسد تمتد جنوبي تيماء المشهورة وشرقي طريق التجارة العظيم الممتد من الشمال إلى الجنوب وهو الآن طريق الحج من معان إلى المدينة، وغربي وجنوبي الحد الغربي من أجأ وسلمى جبلي طيء. وكانت أسد أقصى قبائل معد شمالا على الطريق من الجنوب إلى فلسطين وسورية، وراءها قبائل عذرة وجذام على الطريق التجاري والى شرقيها وشمالها الشرقي قبيلة كلب اليمنية في المنخفضات المسماة الآن بوادي سرحان والجوف ويفصلها عن أسد شريط واسع من السلاسل الرملية "صحراء النفوذ الآن". ويصف البكرى - أرض بني سعد بن ثعلبة بأنها على مبعدة ١٦ ميلا من فيد في اتجاه الكوفة على سفوح جبل عنيزة، وتذكر في القصائد عدة أماكن من هذه المنطقة ويدل وضعها على أنها ليست بعيدة عن مدينة حائل الحديثة وأن دور بني أسد كانت مختلطة بدور بطون طيء"[٢]

وكثيرا ما حدثتنا كتب التاريخ عن ساداتها الأماجد الذين قادوا المعارك الطاحنة من أجل السيادة والشرف وصون حقيقة القبيلة من أن تطالها أيدي الطامعين، فابن حبيب يقول في المحبر: "وكان منهم - أي بني أسد - عوف بن عبد الله بن عامر أخو بني نصر بن قعين قاد بني أسد يوم عكاظ - وليس بعكاظ قريش وكان يعد من الجرارين ولم يكن الرجل يسمى جرارا حتى يرأس ألفاً"[٣]. ومنهم ربيعة بن حذار الأسدي وقد قاد بني أسد يوم الفرات لعدي بن أخت الحارث بن أبي شمر الغساني. وان نظرة إلى أيام العرب لكافية بإعطائنا فكرة واضحة عما كانت عليه هذه القبيلة من قوة ورهبة جانب. ولعل في موقفها من المسلمين وغاراتها العديدة على يثرب معقل المسلمين لدليل على القوة الحربية لهذه القبيلة، وليس أدل على ذلك من توجيه عدة سرايا وحملات تأديبية لهذه القبيلة من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفة الأول أبي بكر الصديق لردعها

١- انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١.
٢- انظر ديوان عبيد بن الأبرص. لتشارلز لايل - ترجمة الدكتور حسين نصار - المقدمة ص ١٣.
٣- انظر المحبر لابن حبيب ص ٢٤٧.

عن عدوانها المتكرر على المسلمين(١).

ونستطيع القول: إن معظم عشائر وبطون هذه القبيلة قد تركز في الشمال من نجد وفي منطقتي حائل والقصيم بوجه خاص. ويبدو أن بنى سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد قد استقروا في أقصى منازل بنى أسد شمالا، الأمر الذي جعلهم في مواجهة المملكة الغسانية في بلاد الشام حيث استقروا على تخوم حدودها الجنوبية، مما أشعل نيران الحروب والمعارك بين الطرفين في فترات متقطعة في العصر الجاهلي.

ونستطيع أن نستشف من أشعار هذه القبيلة أن هذا الفرع من بنى أسد قد تحمل الوزر الأكبر في تلك الحروب حتى انه كاد يستأصل في يوم من الأيام، وقد استتبع هذا الأمر ظهور عدد من شعراء هذه القبيلة ومن فرع سعد بن ثعلبة بالذات، حيث أخذوا يسجلون مفاخره ويعددون أيام بنى أسد وانتصاراتها، ويلهبون الحماسة في نفوس أبناءها، حتى أننا وجدناهم يفخرون بالبطن الأدنى دون القبيلة الكبيرة، ومن فحول الشعراء السعديين الأسديين عبيد بن الأبرص، وعمرو بن شأس الذي يكتفي بعبيد في مالك بن الحارث بن سعد بن ثعلبة(٢)، والكميت بن معروف بن الكميت بن ثعلبة، والشاعر بشر بن أبي خازم الأسدي(٣).

ومنهم الصامت بن الأفقم بن الحارث بن نكرة قاتل ربيعة بن مالك بن كلاب والد لبيد الشاعر، ومنهم عمرو بن مسعود الذي زعموا أن النعمان بنى عليه القرى بظهر الكوفة مع خالد بن نضلة الأسدي وفيهما تقول هند بنت معبد بن نضلة:

أَلا بَكَّرَ النَّاعي بِخَيْرَيْ بَنِي أَسَدْ ... بِعَمْروِ بنِ مسعودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ(٤)

أما بنو قعين بن الحارث بن ثعلبة: فمنهم الطماح بن قيس الذي يقال انه سعى في الوشاية بامرئ القيس لدى قيصر الروم وفيه يقول امرؤ القيس:

لَقَدْ طَمحَ الطَّمَّاحُ مِنْ بُعْدِ أَرْضِهِ ... لِيُلْبِسَنِي مِنْ دائِهِ ما تَلَبَّسا(٥)

ومن بنى قمين طليحة بن خويلد بن نوفل الأسدي الذي ادعى النبوة ثم عاد إلى الإسلام(٦).

وقد سجل هؤلاء الشعراء جانبا من الحياة العامة في الجاهلية وأحداث الحياة داخل قبائلهم بخاصة، وسنتناول في هذا الفصل نخبة من شعراء هذه القبيلة لنقف على أهم الاتجاهات الشعرية عندهم، ونتعرف المعاني التي دارت على ألسنتهم في أشعارهم، وسوف تكون نظرتنا إليهم بوصفهم شعراء يمثلون قبائلهم غير مهتمين بفرديتهم فذلك ما عالجناه في موضع آخر في هذا البحث.

---

١ـ انظر تاريخ الطبري الجزء الثاني ص ٢٩٨ و ما بعدها و الجزء الثالث ص ٨٨/٤٤ ـ ٩٣.
وانظر مواطن القبيلة في هذا البحث وراجع صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٤٧، و معجم ما استعجم للبكري ص ٨٠ ـ ٨٨ ـ و انظر مسالك الممالك للاصطخري الكرخي ص ٢٢ طبع بغداد، و انظر تقويم البلدان لأبى الفداء ص ٧٨.

٢ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

٣ـ انظر المصدر السابق ص ١٩٤ ـ ١٩٦.

٤ـ انظر المصدر السابق ص ١٩٤ و معجم ما استعجم للبكري الجزء الثالث/ ٩٩٦.

٥ـ انظر ديوان امرئ القيس ص ١٤٢.

٦ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٦.

كما أننا سنراعي الترتيب الزمني ما وسعنا الجهد بحيث نصنف هؤلاء الشعراء الأسديين الأحرار الأقدم فالأقدم وذلك كي نقف على تطور الفن الشعري في هذه القبيلة.

والواقع أن شعراء هذه القبيلة كانوا يبارون أحداثها منذ أن عرفنا تاريخها القديم، حيث تفيد الأخبار التي وصلت إلينا أن امرأ القيس بن حجر كان يأمر قيانه بأن يغنين شعر مرة بن الرواع وأخيه كعب بن الرواع وهما شاعران من قدماء شعراء بنى أسد يقول مرة:

إنَّ الخَليطَ أَجَدَّ البَيْنَ فادَّلَجُوا ... وَهَمْ كَذلِكَ في آثارِهِمْ لِجَجُ
عَصْرُ الشبابِ يُغَنِّيني مُصَلْصَلَةٌ ... جَيْداءُ لا حِجَلٌ فِيْهَا ولا رَمَجُ

والذي بين أيدينا من شعر هذه القبيلة يشير إلى أن الشاعر عبيد بن الأبرص من أهم وأقدم شعرائها الذين وصلت أشعارهم إلينا، وفيه نقف[١] على جانب من حياة هذه القبيلة وأيامها وصلاتها مع من جاورها من القبائل العربية الأخرى، وكذلك نستطيع وضع تصور واضح لأهم الأحداث التي وقعت في شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة، ولعل أهمية عبيد بن الأبرص تأتي من كونه أول من سجل هذه الأحداث من شعراء بنى أسد بالإضافة إلى أن شعر هذا الشاعر يعد من أقدم مراحل الشعر الجاهلي ـ بعامة ـ وحول مكانة عبيد بن الأبرص يقول الدكتور حسين نصار في مقدمة ديوان الشاعر "عبيد بن الأبرص أحد شعراء المعلقات وأحد قدماء الشعزاء الذاهبين في القدم شأواً بعيد، ولعبيد مكانة خاصة لها خطرها من وجوه عدة:

من وجه فني لوصفه بين شعراء الجاهلية، ولكونه يمثل مرحلة انتقال بين الشعر البادئ الذي لم تستو له القيم الفنية وتطبق عليه المأثورات والقواعد الشعرية ـ أن صح التعبير ـ وبين الشعر الناضج الذي نعرفه، ولو أن عبيدا نفسه له من القصائد الناضجة فنياً قدراً لا بأس عليه.

ومن وجه تاريخي إذ يلقى شعره بعض الأضواء على أحداث شبه الجزيرة في عصره[٢].

وعبيد لا يبدو لنا واضح النشأة ولا يظفر الباحث بتفاصيل شافية عن حياته غير الذي جاء في شعره، وقد رويت عنه بعض الأخبار التي تقترب من الأساطير والخرافات ولا تحمل طابع الصدق والأمانة.[٣]

وقد ترجم له غير واحد من القدماء من مثل ابن سلام وابن حزم واليعقوبي والبكري وأبي الفرج وابن الشجري وغيرهم ويكنيه البكري بأبي دودان وأبى زياد، ويزيد صاحب الجمهرة في نسبه جدا فيصبح عنده، عبيد بن الأبرص بن جشم بن ختنم.. الخ.[٤].

ويخصص له شيطان شعر يدعى عبيذا، ويضيف البكرى جدا آخر بعبيد وهو "هر" فيصبح عنده عبيد بن الأبرص جشم بن خنشم بن عامر بن مالك بن هر بن مالك.. الخ ويجعل له كنية فيقول: "وهو شاعر جاهلي يكنى أبا دودان وأبا زياد"[٥].

ويوافق ابن حزم في جمهرة أنساب العرب للبكري على ما ذهب إليه من إضافة هر إلى جدود

---

١ـ انظر المؤتلف ص ١٢٧.
٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص بتحقيق د. حسين نصار وانظر مقدمة لايل بترجمة المحقق ص ١٧.
٣ـ انظر مقدمة لايل السابقة جمهرة أشعار العرب للقرشي ص ٤٦.
٤ـ انظر جمهرة أشعار العرب ص ٤٦ وما بعدها تحقيق علي محمد البجاوي.
٥ـ انظر سمط اللآلي للبكري الجزء الأول ص ١٧٩ طبع القاهرة و لم أجد غيره من الرواة من جعل لعبيد كنية.

عبيد[١] ويجعله ابن قتيبة من المعمرين ويضيف إليه جدا آخر هو "عوف" وهو عنده عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم.. الخ[٢].

ومما سبق يتضح لنا أن الرواة متفقون على أن هذا الشاعر يرجع بنسبه إلى بني سعد ابن ثعلبة وجد ما اختلفوا فيه إضافة جد أو حذفه من سلسلة ذلك النسب.

ولا ندري على وجه التحديد متى ولد؟ وكيف كانت نشأته الأولى، فقد ضنت علينا المراجع القديمة بمثل تلك الأخبار الدقيقة عن حياته، وفي اعتقادنا أنه لا خلاف على أن عبيدا يعد من أقدم الشعراء الجاهليين ـ إن لم يكن أقدمهم فعلا ـ ممن وصلت إلينا أشعارهم، والى مثل هذا يشير ابن سلام الجميحي فيقول: "قديم الذكر عظيم الشهرة[٣] ويمتد أبو حاتم السجستاني بعمر عبيدا إلى قرابة الثلاثة قرون[٤].

ويظهر لنا من خلال شعر هذا الشاعر أنه كان على صلة قوية بآخر ملوك كندة حجر بن الحارث والد امرئ القيس الشاعر المعروف، وتشير بعض الروايات إلى أنه كان نديما لحجر[٥] كما تقول تلك الروايات أن عبيدا قتل على يد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة المشهور وصاحب هذه الرواية هو أبو الفرج[٦] ويذهب الدكتور شوقي ضيف إلى أن أزهى عصور المناذرة كان في عهد هذا الملك الذي حكم بين سنة ٥١٤ ـ ٥٥٤م حتى عزله قباذ ملك الفرس عن أمارة الحيرة وولى مكانه الحارث بن عمرو أمير كندة، ويجعل الدكتور ضيف مقتل هذا الملك في يوم حليمة على يد الحارث الغساني وأنه صاحب يومي النعم والبؤس، وكان ممن قتله في يوم بؤسه عبيد بن الأبرص[٧]

وعلى حين نرى بعض الباحثين يجعل مقتل المنذر في معركة عين أباغ قرب قنسرين ولكنهم لا يختلفون في العام الذي قتل فيه هذا الملك الحيرى وهو عام ٥٥٤م[٨]

وإذا صحت الروايات السابقة قلنا أن نفترض أن عبيد بن الأبرص قد ولد حوالي سنة ٤٥٠ للميلاد أو أقل قليلا إذا وضعنا في الاعتبار وفاة المنذر بن ماء السماء في عام ٥٥٤ م وهو آخر عام يمكن لنا فيه أن نؤرخ به وفاة عبيد الذي أجمعت الروايات على أنه عاش عمراً مديداً، وهذا ما يؤكده شعره فهو يشير أكثر من مرة إلى أنه مل الحياة لطولها، وأنه عاصر كثيرا من الأحداث التاريخية يقول:

فَنِيْتُ وَأَفناني الزَّمانُ وَأَصْبَحَتْ ... لِدَاتِي بَنُو نَعْشٍ وَزُهْرِ الفَرَاقِدِ[٩]

وعلى هذا فإننا نرجح أن الشاعر قد عاش عمراً ربما يربو على المائة عام قليلا ولعل هذا أقرب

---

١ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم تحقيق عبد السلام هارون ص ١٩٢.

٢ـ انظر الشعر والشعراء ص ٢٦٧ تحقيق أحمد محمد شاكر طبع دار المعارف.

٣ـ انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام شرح محمود محمد شاكر طبع المدني بالقاهرة ص ٢٦.

٤ـ انظر المعمرين لأبي حاتم مطبعة السعادة ١٩٠٥ ص ٦٦.

٥ـ انظر الشعر والشعراء ص ٢٧٣ الجزء الأول.

٦ـ انظر الأغاني لأبي الفرج المجلد ١٩ ص ١٧١ وما بعدها طبع بيروت ١٩٥٦.

٧ـ انظر تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ٤٤ طبع دار المعارف.

٨ـ انظر ديوان التاريخ الإسلامي العام للدكتور علي إبراهيم حسن طبع مكتبة الفلاح بالكويت ١٩٧٧ نقلا عن نولدكه في أمراء غسان ص ١٨ طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٣٣.

٩ـ انظر ديوان عبيد ص ٥١ وانظر صفحة ٦٠،٦١.

إلى المنطق، بيد أنه يصعب علينا التسليم بأنه عاش مائتي عام وأكثر كما جاء عند أبي حاتم.

ويبدو للباحث من خلال مطالعة شعر عبيد أن نشأته كانت في إقليم نجد، حيث نزلت قبائل بني أسد في تلك المنطقة، وبالتحديد في إقليم القصيم حاليا، ويعد هذا الإقليم من أجمل أقاليم شبه الجزيرة العربية وأعذبها هواء وأكثرها خصبا في سنين الخير.

أما أسرته فلم يحفظ لنا التاريخ شيئا يذكر عنها، وليس من مسعف أمام الباحث إلا شعر هذا الشاعر للوقوف على أخباره العائلية، والتي أشار إليها في لمحات خاطفة سنحاول إلقاء بعض الضوء عليها علنا نظفر بصورة عن أسرة هذا الشاعر الأسدي.

وبداية نلاحظ ذلك الصمت من قبل الشاعر والإحجام عن ذكر أبيه. حيث لم يشر إليه في شعره الذي وصل إلينا البتة، ولم يتحدث عنه أحد من الإخباريين والرواة، والمظنون أن الأبرص هو لقب لحق بالشاعر أو بأبيه على الأغلب نتيجة أصابته بهذا المرض، وربما كان السبب في عدم ذكره لأبيه أنه توفى والشاعر صغير السن حيث لم يره ولم يتعلق به، وقد يكون والد الشاعر من عامة القبيلة لا من أشرافها وساداتها المعدودين لأنه لو كان كذلك لكان عبيد أولى الناس بذكر مناقب أبيه.

على حين نجد الشاعر يتعرض لذكر اخوته وأبنائه في إشارة واحدة في ديوانه، دون ذكر للتفاصيل في العدد أو المكانة أو التصريح بالأسماء ونستدل من ذكره لهم على وجودهم فعلا، حيث يقول حين تيقن من قتله على يد المنذر:

فَأَبْلِغْ بَنِيَّ وَأَعمامَهُمْ ... بِأَنَّ المَنَايَا هِيَ الوارِدَة

فَلا تَجْزَعُوا لِحِمَامٍ دَنَا ... فَلِلْموتِ ما تَلِدُ الوالِدَة(١)

ويذهب بنا الظن أن أولاد عبيد كانوا صغارا عندما قتل، ولعل زواجه كان متأخرا من أم هؤلاء الأولاد، ومن الجائز أن تكون آخر زوجاته. ومما يرجح عندنا هذا الرأي أن الشاعر قد خاطب هذه الزوجة في أكثر من موضع في ديوانه مخاطبة الزوجة اللائمة لزوجها المتبرمة من العيش بجواره، ولعلها تذكره بكبر سنه وتدل عليه بصغر سنها وبشبابها وفي هذا دليل قوي على أنها كانت تصغره بكثير يقول:

أَلا عَقَبَتْ عَلَيَّ اليومَ عِرْسِي ... وَقَدْ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَشْتَكِينِي

فَقَالت لِي كَبِرْتَ فَقُلْتُ حَقّاً ... لَقَدْ أَخْلَقْتُ حِيناً بَعْدَ حِينِ

تُرِينِي آيَةَ الإِعْرَاضِ مِنْهَا ... وَفَظَّتْ فِي المَقَالَةِ بَعْدَ لِينِ(٢)

والذي بين أيدينا من شعر عبيد يشير إلى أنه كان يتمتع بمكانة مرموقة في قومه، وتبدو لنا شخصيته المتميزة واضحة وهي شخصية يحترمها الناس ويقدرها أولو الأمر وليس أدل على ذلك من شفاعته لقومه عند حجر بن الحارث ملك كندة، وقبول حجر لتلك الشفاعة من عبيد، وهي تفصح في الوقت ذاته عن سياسة ودبلوماسية ناجحة من الشاعر في الدفاع عن أبناء قبيلته واختيار أحسن الوسائل لذلك.

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ٦١.

٢ـ انظر ديوان عبيد ص ١٣٣، وانظر ص ١٠٦.

ومن الواضح أن عبيدا كان من فرسان بني أسد المعدودين الذين كانوا يعدون للحرب عدتها، من فرس سريعة، وسيف قاطع، ورمح مثقف يقول:

هَذَا وَحَرْبٍ عَوَان قَدْ سَمَوْتُ لَهَا ... حتّى شَبَبْتُ لَهَا نَاراً بإشْعَالِ
تَحْتِي مُسَوَّمَةٌ جَرْداءُ عِجلِزَةٌ ... كالسَّهْمِ أَرْسَلَهُ مِنْ كَفِّهِ الغَالِي
وَكَبْشِي مَلْمُومَةٍ بادٍ نَوا جذُهُ ... شَهْباءَ ذاتِ سَرَابِيْلٍ وأَبْطَال
أَوْجَرْتُ جُغْرَتَهُ خُرْصاً فَمَالَ بِهِ ... كَما انْثَنَى مُخْضَدٌ مِنْ نَاعِمِ الضَّالِ(١)

والمتصفح لديوان عبيد بن الأبرص سيلاحظ أن هذا الشاعر قد تناول شتى الأغراض الشعرية المعروفة في المجتمع الجاهلي، غير أنه وقف أكثر شعره على قبيلته ذاكراً أمجادها مفتخراً بمحامدها مشيداً بانتصاراتها، ويخيل إلينا أنه من المفيد الوقوف على ما سجله هذا الشاعر من أحداث قبيلته بني أسد في أقدم فترة نعرفها عن هذه القبيلة، وسوف نرى في المرحلة التالية لعبيد شاعراً آخر هو بشر بن أبي خازم الأسدي، من ثم تأتي مرحلة ثالثة نقف فيها عند شاعر أسدي آخر هو الجميح "منقذ بن الطماح"، وفي المرحلة من جاهلية هذه القبيلة سنقف على شاعر أسدي هو عمرو بن شأس الأسدي، متخذين من هؤلاء الشعراء سلسلة متواترة غير منفصمة في تدوين أحداث قبيلة بني أسد حتى البعثة النبوية الشريفة.



١ـ انظر المصدر السابق ص ١٠٢ ـ ١٠٣ وانظر ص ١١٠، ٤٩، ٣٩ ففيها ما يفيد بفروسية وسيادة هذا الشاعر في قومه بني أسد.

# معاني الفخر عند عبيد بن الأبرص

لعل أكبر حدث أولاه عبيد بن الأبرص عنايته في شعره ذلك الحدث الذي كان له أكبر الأثر في شبه الجزيرة العربية كلها لا في بني أسد فحسب، هو مقتل حجر بن الحارث على أيدي الأسديين من قومه، فقد ذكر عبيد هذا الحادث الجلل في مواضع عديدة من شعره مفتخراً مزهواً بذلك الانتصار الكبير الذي حققه قومه.

والفخر كما هو معروف يعد من أهم و أكبر الأغراض عند الشاعر الجاهلي، ويدل فيما يدل على حب الأنفة والكبرياء لدى سكان الجزيرة العربية من أبناء القبائل وهو يدور بوجه عام حول القيم والمثل التي تعارفها الناس وتواضع عليها أبناء تلك القبائل، فهم إذا افتخروا ذكروا الكرم والشجاعة والجرأة والوفاء، وتمدحوا بقوة القبيلة بعدد فرسانها وعتادهم وأسلحتهم من دروع وسيوف ورماح وخيل.. الخ، وقبيلة كبني أسد معروفة بقوتها ومنعتها منذ أن عرف تاريخها كان لابد أن يفخر بها شعراؤها ويعلوا من شأنها ويرفعوا من مكانتها بين القبائل الأخرى.

وقد توفر لبني أسد شعراء بارزون فحول ملأوا الأسماع بمفاخراتهم بمحامد قبيلتهم، ولعل عبيد بن الأبرص يعد من أوائل هؤلاء، حيث لم يقتصر فخر هذا الشاعر بقبيلته على ذكر بطولاتها فحسب، وإنما تعداه إلى سائر الشؤون القبلية الأخرى، فهو يفخر بامتلاك بني أسد بما يسمى بالنادي ويبدو أنه مكان يجتمع فيه أبناء القبيلة لتناشد الأشعار وتبادل الأخبار، وربما لممارسة بعض الهوايات الأخرى كركوب الخيل وتعلم أسباب الفروسية، ويبدو لنا أن مثل هذا النادي لم يكن إلا للقبائل المرهوبة الجانب، وهو على أية حال مدعاة للفخر حيث يقول عبيد:

اذْهَبْ إِلَيْكَ فَإِنِّي مِنْ بَنِي أَسَدٍ ... أَهْلِ القِبَابِ وأَهْلِ الجُرْدِ والنَّادِي[1]

وما دامت حياة العربي الجاهلي حياة صحراوية قاسية تحدق بها الأخطار من كل جانب وتهددها الخطوب في كل يوم، فلماذا لا يتمتع الرجل منهم بقلب جرئ وقوة تتحدى تلك المخاطر؟ أو على الأقل تصمد في وجهها طالما أن المواجهة مفروضة لا محالة، ومن هنا فقد التمس العربي كل الأسباب التي توصله إلى القوة من فرس وناقة وسلاح وصفات معنوية أخرى يتحلى بها الإنسان الذي يعيش في تلك المناطق، وهو إن امتلك سبباً من تلك الأسباب التي تشعره بانتصاره على أعدائه أفتخر بذلك وصرح بملء صوته وقليلاً ما نسمع الصوت المنفرد في هذا المضمار فهو غير صوت الجماعة في الغالب الأعم يقول عبيد:

إِنَّنَا إِنَّمَا خُلِقْنَا رؤوساً ... مَنْ يُسَوِّي الرُّؤوسَ بالأَذْنَابِ

لا نَقِي بالأَجْسَابِ مالاً وَلَكِنْ ... نَجْعَلُ المَالَ جُنَّةَ الأَحْسَابِ

---

١ ـ انظر ديوان عبيد ص ٤٩، ونلمس من حديث الشاعر أن النادي كان مرتبطاً بعزة وقوة القبيلة وهو موضع فخر واعتزاز من جانب أبناء القبيلة ككل.

وإذا الخَيْلُ شَمَّرَتْ فِي سَنا الحَرْ ... بِ وصَارَ الغُبارُ فوق الذُّؤابِ
واستجارَتْ بِنا الخُيولُ عِجَالاً ... مُثْقَلاتِ المُتونِ والأصْلابِ
مُصْفِياتِ الخُدودِ شُعْثِ النَّواصِي ... فِي شَماميطِ غَارةٍ أَسْرَابِ
لاحِقَاتِ البُطونِ يَصْهَلْنَ فَخْراً ... قَدْ حَوَيْنَ النِّهَابَ بَعْدَ النِّهَابِ(١)

ولم يقتصر فخر الشاعر الأسدي على فرسه النجيبة وقوتها وسرعتها وما استتبع ذلك من مظاهر القوة التي كان يشعر أنه إذا ما امتلكها فقد ملك بعض أسباب الأمان والطمأنينة في تلك البيئة، وأصبح مؤهلاً لما يعترضه من أهوال، وأنه استطاع من جهة أخرى أن يرهب أعداء قبيلته بامتلاكه مثل تلك الأسباب، وكذلك لم يقتصر فخره على قوة السواعد للفرسان من أبناء القبيلة، وإنما تعدى ذلك بإدراك واع وبصيرة نافذة إلى الجوانب المعنوية الأخرى، فقوة العقل وحسن التدبير وسلامة التصرف وأخذ الأمور بالروية هي الأخرى لا تقل خطرا عن القوة الجسدية وقوة الأسلحة، ولذلك نجد عبيدا قد ارتفع بقومه إلى هذا المستوى الرفيع من القيم والمثل إلى جانب ما رأينا من قوة في العدد والعدة يقول عبيد:

وَفِتْيَةٍ كَلُيوثِ الغَابِ مِنْ أَسَدٍ ... ما للنَّدَى عَنْهُمُ نَزْحٌ وَلاَ شَحَطُ
بِيضٌ بهالِيلُ يَنْفِي الجَهْلَ حِلْمُهُمُ ... وَتَفْزَعُ الأَرْضُ مِنْهُمْ إنْ هُمُ سَخِطُوا
إذا تَخَمَّطَ جَبَّارٌ تَنَوهُ إلى ... ما يَشْتَهُونَ ولا يُثْنَوْنَ إنْ خَمِطُوا
والفارِجُو الكَرْبَ والغُمَّى بِرَأْيِهِمُ ... إذا تشابهتِ الأَهْواءُ والصُّرُطُ
والخالِطُوا مُعْسِراً مِنْهُمْ بِمُوسِرِهِمْ ... وأَكْرَمُ النَّاسِ مَطروقاً إذا اخْتَبَطُوا
مُرُّو اللِّقاءِ وَثيقُوا العَقْدِ إنْ عَقَدُوا ... إذا أضاعَ مِنَ المِيثاقِ مُشْتَرِطُ
رُجُحٌ إذَا حَضَرَ النَّادِي حُلُومُهُمُ ... وفيهم الزَّغْفُ والخَطِّيُّ والرُّبُطُ
لا يَحْسِبُونَ غِنىً يَبْقَى ولا عَدَماً ... إذا رأى ذاكَ مِنْهُمْ مَعْشَرٌ فَرَطُ(٢)

ومن المعتاد أن يفتخر الشاعر الجاهلي بقبيلته وبنبل محتدها وسمو مكانتها بين القبائل الأخرى، غير أننا لا نجد من المألوف في بعض الأحيان ذلك التعصب للبطن الأدنى دون القبيلة الكبيرة، ولعلنا نعمم هذا الحكم على سائر شعراء بني سعد بن ثعلبة بن دودان ولا نطلقه على عبيد بن الأبرص فحسب حيث يقول:

فِي أُسْرَةٍ يَوْمَ الحِفَاظِ مَصَالِتٍ ... كالأُسْدِ لا يُنْمَى لَهَا بفَرِيسِ
وَبَنُو خُزَيْمَةَ يَعْلَمُونَ بِأَنَّنا ... مِنْ خَيْرِهِمْ فِي غِبْطَةٍ وَبَئِيسِ
نُنْكِي عَدُوَّهُمُ وَيَنْصَحُ جَيْبُنا ... لَهُمُ وَلَيْسَ النُّصْحُ بالمَدْمُوسِ(٣)

والواقع أن الفخر بالفرع الأدنى لا يكون إلا في حالات معينة عند الشعراء الجاهليين بعامة، كأن

---

١- انظر ديوان عبيد ص ٢١ - ٢٢.
٢- انظر ديوان عبيد ص ٨٦ - ٨٧.
٣- انظر المصدر السابق ص ٧١.

يهمل هذا البطن أو يفخر جانبه في بعض القضايا التي تخص القبيلة ككل فيهب حين ذاك شعراء هذا الفرع للإشادة به والتعصب له، وربما كان هذا الفرع يقف في المقدمة في أثناء حروب القبيلة ويتحمل أوزار المعارك دون سواه من البطون الأخرى أو على الأقل العبء الأكبر من تلك الأوزار، وعندها يخرج شعراؤه مبرزين مناقبه ومظهرين مكارمه وبطولاته في الحفاظ على حس القبيلة، وهذا ما كان عليه رهط الشاعر بنو سعد ابن ثعلبة حيث كانوا يقفون كدرع واقية لقبيلتهم بني أسد في مواجهة الغساسنة في المنطقة الشمالية الغربية من نجد، ويبدو لنا أن تلك المعارك والجولات بين الطرفين قد أدت إلى مقتل كثير من فرسان هذا البطن ولعل ذلك هو الذي دعا الشاعر الأسدي عمرو بن شأس إلى الإشادة بمكانة بني سعد الرفيعة بين بطون أسد كافة حيث قال مفتخراً برهطه بني سعد بن ثعلبة:

فَلاَ وأَبيكِ ما يَنْفَكُّ مِنَّا ... مِنَ السَادَاتِ حَظٌّ ما بَقِينَا
وَقَدْ عَلِمَتْ بَنُو أَسَدٍ بأنَّا ... نُطاعِنُ بالرِّماحِ إذا لُقِينَا(١)

ويبدو أن بني سعد هؤلاء كانوا قادة بني أسد في الجاهلية والإسلام أيضاً، ففي يوم أرمات حيث التقى العرب بالفرس وأبلت بنو أسد خير بلاء نجد بني سعد في المقدمة ثابتين برغم هول المعركة في أول يوم من أيامها ويصور عمرو بن شأس هذا اليوم بقوله:

تَذَكَّرْتُ إخْوانَ الصَّفَاءِ تَيَمَّمُوا ... فَوارسَ سَعْدٍ واسْتَبَدَّ بِهِمْ جَهْلاَ
ودارتْ رَحى الْمَلْحَاءِ فِيهَا عَلَيْهِمُ ... فعَادُوا خَيالاً لَمْ يُطِيقُوا لَهَا ثِقْلاَ
عَشِيَّةَ أرْماثٍ وَنَحْنُ نَزُودُهُمْ ... زِيَادَ الهَوافِي عَنْ مِشارِبها عُكْلاَ(٢)

لقد افتخر الشاعر الأسدي بقومه وبنفسه من خلال ذلك الإطار القبلي العام، وأما فخره بنفسه ففخر الفارس المعلم المتطلع إلى العلياء، العاشق لحميد الخصال، الممجد للقوة في مجتمع كان يعتقد أن القوة هي أفضل السبل - إن لم نقل هي السبيل الوحيد - للبقاء ولانتزاع الشرف والسؤدد.

ولعل عبيداً في فخره بنفسه إنما يمثل الجزء الذي لا ينفصم عن الكل وهو القبيلة، وعلى ذلك فانه يصور لنا كل فرد من أفراد بني أسد وما يتمتع به من جرأة وإقدام وسخاء واتزان وحلم، ونستطيع القول بأن الصورة الفردية للفخر هنا إنما تعني صورة الإنسان العربي الجاهلي عموماً، وما ينبغي أن تكون عليه في تلك البيئة القبلية التي يشكل التعصب فيها ركناً أساسياً من بنائها.

وهو في فخره بالقبيلة وإشادته بمآثرها وتجسيده لآمالها وآلامها يبدو لنا منطلقاً من إيمان عميق بمدى عمق هذه العلاقة التي تربط بين الإنسان الجاهلي وقبيلته، التي تتلخص في أنه منها واليها شأنه في ذلك شأن معظم شعراء العصر الجاهلي، والى مثل هذا ذهب الدكتور النويهي قائلاً: "إن الشاعر الجاهلي لم يكن ينظم فخره القبلي لمجرد أنه الرأي السائد في مجتمعه ولأنه رأى أن من واجبه الترويج لآراء جماعته والقيام بالدعاية لها، بل لأنه أحس إحساساً عميقاً وعنيفاً بهذه العاطفة فاجتاز مرحلة ذاتية اضطرمت فيها نفسه واتقد بها وجدانه، وهو حين ينظم فخره القبلي لم يكن دفاعه المباشر إلا

---

١- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٦١، ٦٢.
٢- انظر المصدر السابق ص ٧١.

لأنه ينفس عن هذا الانفعال الذي غلب على مشاعره من حب ملتهب لقبيلته وفخر مجلجل لمآثرها وسعادة مجنحة بانتمائه إليها وبغض قوي لأعدائها واحتقار ذريع لهم(١).

وكما أسلفنا فان قبيلة بني أسد كانت تعيش حياة حربية شبه مستمرة، ولها سجل حافل يشهد بذلك وليس من الغريب أن نقع في شعر شعرائها على فخر عريض واسع بانتصاراتها، وبخاصة يوم أن أوقعوا بحجر ملك كندة وبالرباب وبني عامر وبمقارعة الغساسنة وغيرهم حيث يشير عبيد إلى هذه الوقائع مخاطباً امرأ القيس بن حجر:

وَنَحْنُ قَتَلْنَا الأَجْدَلَيْنِ ومالِكاً ... أَعَزَّهُما فَقْداً عَلَيْكَ وَهالِكا

وَيَوْمَ الرِّبابِ قَدْ قَتَلْنا هُمامَها ... وَحُجْراً وَعَمْراً قَدْ قَتَلْنا كَذلِكا

وَنَحْنُ صَبَحْنا عامِراً يَوْمَ أَقْبَلُوا ... سُيُوفاً عَلَيْهِنَّ النِّجارُ بَواتِكا

وَنَحْنُ قَتَلْنا مُرَّةَ الخَيْرِ فيكُمُ ... وَقُرْصاً قَتَلْنا كانَ مِمَّنْ أُولئِكا(٢)

لقد اختفت شخصية الشاعر الأسدي وتوارت خلف شعار القبيلة العريض، وهي ظاهرة واضحة في فخر الشعراء الأسديين ولا أقول أنها خصيصة لهم دون سواهم من الشعراء الجاهليين ولكنني ألاحظ أنهم أكثروا منها وأكدوها في أشعارهم.

وكان مما افتخر بهم الشاعر الأسدي المحافظة على العهود والمواثيق، ولعل هذه الخصيصة تشمل الجاهليين عموماً غير أننا نجد إصرار شعراء بني أسد على ذكرها والتمدح بالوفاء بها يقول عبيد بن الأبرص:

إنّا لَعَمْرُكَ ما يُضَا ... مُ حليفُنا أَبَداً لَدَيْنا

كَمْ مِنْ رَئيسٍ قَدْ قَتَلْـ ... ـناهُ وَضَيْمٍ قَدْ أَبَيْنا(٣)

ويستطيع الباحث أن يظفر بصورة واضحة عن العلاقة بين أفراد القبيلة الأسدية من خلال النظر في فخر هؤلاء الشعراء الأسديين، فهم متعاونون في السرَّاء والضراء، لا تلين لهم قناة، ولا يفخر لهم جانب، راجحو العقول، لا يطلقون أحكامهم جزافاً عن غير دراية وبصيرة في عواقب الأمور، كلامهم فصل، وقولهم حكم نافذ، وقد أشار إلى ذلك عبيد في أكثر من موضع(٤) ونحن لا نجد ما جاء على لسان عبيد خارجاً على المألوف أو غريباً في تلك البيئة وفي ظل الظروف التي كانت تحياها القبائل العربية بوجه عام وقبيلة بني أسد بوجه خاص، حيث وجدت بينها الأخطار وألفت بين قلوب أبنائها كثرة الخطوب على مدى تاريخها القديم منذ أن عرفناه والذي يعود إلى القرن الثالث الميلادي(٥).

---

١ـ انظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه للدكتور محمد النويهي الجزء الأول ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

٢ـ انظر ديوان عبيد ص ٩٣ ولست أدري من هما الأجدلان اللذان يشير إليهما الشاعر غير أنه يظهر من سياق الحديث أنهما من أجداد امرئ القيس، أما قرص فيرجح أنه من أمراء غسان الذين لا ذكر شائع لهم.
وانظر ديوان الشاعر القصائد ذوات الأرقام ٥٢، ٥٠، ٤٣، ٣٩، ٣٢، ١٦ حيث فخره بقبيلته وتدوينه لأحداثها.

٣ـ انظر ديوان عبيد ص ١٣٨.

٤ـ انظر المرجع السابق ص ٨٦.

٥ـ انظر تاريخ القبيلة في الجاهلية في هذا البحث.

ولعل الباحث يستشف بعض ما كان عليه مجتمع هذه القبيلة من عادات وأعراف في تلك الفترة، ومن العادات: المشاركة في المال، والعدل في توزيع الثروة فيما بينهم، وذلك أدعى للمحبة والتعاضد وأنفى للكراهية والتحاسد في بيئة لا حياة فيها بدون تعاون أبناء القبيلة وتلاحمهم.

والحقيقة أننا نقف من هذا الأمر موقف الحذر والحيطة فهو عندنا مقبول إذا كان يعمل في أوقات الشدة وسنين العسرة والجدب التي قد تمر بالقبيلة، فيعطي غنيهم شيئاً من ماله لفقيرهم على سبيل الجود، أما أن يكون الأمر على سبيل الفرض والإجبار فذلك مالا نعتقد به ونستبعده تماماً[١]!

وطبيعي أن يفخر شعراء بني أسد بامتلاكهم للسلاح القوي المتقن الصنع، فذلك أدعى لإرهاب العدو وأكد لتحقيق النصر على الأعداء وقبيلة حربية كبني أسد كان لابد لها من التماس الأسلحة التي كانت سائدة حين ذاك، ولعلها تتمثل في السيف والرمح والقوس والخوذات والدروع حيث كان الإنسان يستخدمها في حروبه وغاراته، وبمعنى آخر فهي وسائله في القتال ولا يفارقها في سلمه في أثناء حله وترحاله وصيده وسفره، وبواسطتها يصون كرامته وكرامة قبيلته، وكلما كان أمهر في استخدامها كان النصر أقرب إليه والغلبة محالفة إياه.

وما دام الأمر كذلك فلا غرو أن يفخر أبناء قبيلة بني أسد بما لديهم من أسلحة ويشيدون بحسن تصرفهم في ساحات الوغى. وقد كان عبيد بارعاً في هذا المضمار ولا نريد الوقوف عند احتفائه بالفرس والناقة باعتبارها وسيلتي حرب أيضاً فقد مر معنا ذلك في موضع آخر من هذا البحث ــ ولكننا سنقف على نماذج أخرى من عدّة الحرب التي كانت تستخدمها هذه القبيلة.

ولعل السيف يمثل القمة عند بني أسد فهو رمز القوة على مر الدهور وقد أطلق العرب ــ بوجه عام ـ الصفات المتعددة عليه حتى أمست تلك الصفات أسماء له فيما بعد وقد ذكر صاحب نهاية الأرب كثيراً من تلك الصفات وفصل فيها[٢].

والسيوف الأسدية حادة قاطعة لامعة الصفحة وكذلك الرماح تعلوها قناة لينة، وهي مثقفة مقومة ملساء وكتب عليها الأسنة فأمست طويلة قد تبلغ الخمسة أذرع يقول عبيد:

هـاتِيْكَ تَحْمِلُـني وأَبْيَـضَ صارمـاً ... وَمُحَرَّمـاً فِـي مِـارِنٍ مَخْمُـوسِ
صَـدْقٍ مِـنَ الهنْـدِيِّ أُلْبِـسَ جُنَّـةً ... لَحِقَـتْ بِكَعْـبٍ كَـالنَّوَاةِ مَلِيْـسِ[٣]

ويفخر الشاعر بسيفه الأبلج الوضاء المشرق المحزز الأوساط جداً، وبرديفه الرمح الطويل المعتدل الذي يحاكي حبل ليف أحكم ضفره يقول عبيد:

لَمَّـا رَأَوْكَ وَبُلَّـجُ البِيْـضِ وَسْـطَهُمُ ... وَكُـلُّ مُطَّـرِدِ الأُنْبُـوبِ كَالمَسَـدِ[٤]

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ٨٦ حيث يقول:

والخـالطوا معمـرا بهـم بموسـرهم ... وأكـثر النـاس مطروقـاً إذا اختبطـوا
لا يحسـبون غنـى يبقـى ولا عدمـا ... إذا رأى ذاك منهـم معشـر فـرط

٢ـ انظر نهاية الأدب للنويري الجزء السادس ص ٢٠٢، ٢٠٣ طبع المؤسسة المصرية العامة للتأليف.

٣ـ انظر ديوان عبيد ص ٧٠ ـ ٧١.

٤ـ انظر ديوان عبيد ص ٦٠.

وإذا كان رمح الشاعر بمثل هذه الصفات ينصبه ويستقبل به الأشراف من الناس من ذوي المكانة المرموقة الذين يماثلونه ويكافئونه فمن الطبيعي أن تكون طعنته نافذة قاتلة، وهي لا بد مستثنى لحمه وتفرى مهجته لذلك الخصم حيث يقول:

وَأَسْمَرَ قَدْ نَصَبْتُ لِذي سَناء يَرى مِني مُخالَطَةَ اليَقِيْنِ
يُحاوِلُ أَنْ يَقُومَ وَقَدْ مَضَتْهُ مُغابَنَةٌ بِذي خُرُصٍ قَتَيْنِ
إِذا ما عادَهُ مِنْها نِساءٌ سَفَحْنَ الدَّمْعَ مِنْ بَعْدِ الرَّنِينِ(١)

ويؤكد الشاعر قوة طعنته للخصم في غير موضع إذ يقول في مكان آخر:

وَقَدْ أَتْرُكُ القِرْنَ الكَمِيَّ بِصَدْرِهِ مُشَلْشَلَةٌ فَوْقَ النِّطاقِ نَفُوحُ
دَفُوعٍ لأَطْرافِ الأَنامِلِ ثَرَّةٌ لَها بَعْدَ إِنْزافِ العَبِيْطِ نَسِيْحُ
إِذا جاءَ سِرْبٌ مِنْ نِساءٍ يَعُدْنَهُ تَبادَرْنَ شِتَّى كُلُّهُنَّ تَنُوحُ(٢)

ونستشف من فخر الشاعر بهذه الطعنات الماضيات فروسته وسيادته في قومه، ونستطيع أن نتخيل مكانته الرفيعة بينهم، ورمح عبيد ما هو إلا واحد من رماح بني أسد الصلبة المصنوعة من شجر الوشيج يقول عبيد في الفخر برماح قومه:

وَتَجاوَزُوا ذاكُمْ إِلَيْنا كُلَّهُ عَدْواً وَقَرْطَبَةً فَلَمَّا قَرَّبُوا
طُعِنُوا بِمُرّانِ الوَشِيْجِ فَما تَرَى خَلْفَ الأَسِنَّةِ غَيْرَ عِرْقٍ يَشْخَبُ(٣)

وكما افتخر عبيد بالسيف والرمح والطعنة النافذة التي تدل على مهارة كبيرة في معالجة العدو، فقد أشاد بجيش قبيلته الأسدية اللجب الذي يغطي السهول كما يغطي سواد الليل سائر الأشياء، وهو جيش لهام يحصد ما يصادفه من الأعداء فلا شيء يقف في طريقه، وقد حوى كل كريمة نسب من الخيل يقول عبيد:

أَوْ لأَتَوْكَ بِجَمْعٍ لا كِفاءَ لَهُ قَوْمٌ هُمُ القَوْمُ فِي الأَنْأى وَفِي البُعُدِ
بِجَحْفَلٍ كَبَهِيمِ اللَّيْلِ مُنْتَجِعٍ أَرْضَ العَدُوِّ لُهامٍ وافِرِ العَدَدِ
مِنْ كُلِّ عِجْلِزَةٍ بادٍ نَواجِزُها على اللِّجامِ تُبارِي الرَّكْبَ فِي عَنَدِ(٤)

ويذهب الشاعر إلى أكثر من هذا فيحدد لنا ذلك بصورة دقيقة وواضحة ونراه يدل بذكر عدة ذلك الجيش من سلاح، فالخوذات الحديدية التي يلبسها فرسان بني أسد لها بريق يحاكي بريق النار الملتهبة في أعالي المرتفعات يقول:

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ١٣٤.
٢ـ انظر ديوان عبيد ٣٢ ـ ٣٣. المشلشلة: الطعنة نثر الدم. العبيط: الدم الطري.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٣.
٤ـ انظر المصدر السابق ص ٥٨ ـ ٥٩

| | |
|---|---|
| بَـلْ لا مَحَالَـةَ مِـنْ لِقَـاءِ فَـوَارِسٍ | كُـرُمٍ مَتَـى يُدْعَـوْا لِـرَوْعٍ يَرْكَبُـوا |
| شُـمٌّ كَـأَنَّ سَـنَا القَوَانِـسِ فَوْقَهُـمْ | نَـارٌ عَلَـى شَـرَفِ اليَفَـاعِ تَلَهَّـبُ |
| تِمْشِـي بِهِـمْ أُدْمٌ تَئِـطُّ نُسُـوعُهَا | خُوصٌ كَمَا يَمْشِـي الهِجَـانُ الرَّبْـرَبُ |
| وَهُـمُ قَـدْ اتَّخَـذُوا الحَدِيـدَ حَقَائِبـاً | وَخِلالَهُـمْ أُدْمُ المَرَاكِـلِ تُجْنَـبُ |
| وَطِمِـرَّةٍ كَالسِّـيْدِ يَعْلُـو فَوْقَهَـا | ضِرْغَامَـةٌ عَبْـلُ المَنَـاكِبِ أَغْلَـبُ[١] |

وذكر الخوذات الحديدية والدروع يجعلنا نتساءل: من أين لبني أسد هـذه الأسلحة؟ هـل جلبت من أرض فارس؟ أو لعلها من أرض الروم؟ أو لعل لها مصدراً آخر كالغنائم والأسـلاب مـن القبـائل الأخرى؟ وعلى أية حال سنتحدث عن هذا الأمر في حينه.

وهكذا نخلص إلى القول بأن فخر الشاعر الأسدي كان ينصب على القبيلة بالدرجـة الأولى ومـا تملك من عدد وعدة حربية، وقد أكـثر مـن وصـف الأسلحة مـن سـيف ورمـح وجيـش وخـوذات ودروع وخيل، كما يلاحظ على الشاعر الأسدي بوجه عام وعلى عبيد بوجه خاص ذلك الاعتـداد والزهو بامتلاك تلك الأسلحة وبالقدرة على حسن التصرف في استخدامها في أثناء المعركة.

ويستطيع الباحث الوقوف على ما كانت تتمتع به هذه القبيلة من قوة عسكرية ـ أن صح التعبـير ـ مدربة مسلحة بالسلاح المناسب الذي جلب ـ كما نظن ـ من خارج شبه الجزيرة العربية، ولعل مما يرجح ظننا هو أن العرب لم يكونوا عارفين بصنع بعض تلك الأسلحة كالخوذات والدروع بخاصـة، ولعل جل ما عرفوه صناعة الرماح والسيوف في منطقة الخط بالبحرين واليها نسبوا الرمـاح الخطيـة الجيدة، ومثل هذا الفخر بالقبيلة يكشف لنا جانباً آخر لا يقل في أهميته عن الجوانب الأخـرى وهـو الإفصاح عن شكل الحياة العربية في تلك الفترة، وما كان يدور فيها من نزاعـات بـين القبـائل ومـا يستتبع ذلك من وجوب تعلم فنون الحرب واللجوء إلى كل سلاح واق لردع الأعداء.

ونختم الحديث عن هذا الجانب بالقول إن معاني الفخر التي جاء بهـا عبيـد كـانت متنوعـة فهـي تميل إلى تصوير الفروسية من جهة، وفي الوقت نفسه تكشف عن جوانب نفسية لإرهاب الغـدو مـن جهة ثانية، وربما استطعنا أن نتخيل بعض الأعراف والعادات القبلية في تلك البيئـة مـن خـلال فخـر الشاعر الذي جاء منسجماً ومعبراً بواقعية عن الأحداث التي مرت بها هذه القبيلة العربيـة منـذ أقـدم الفترات التاريخية المعروفة عنها، كما يمكن لنا أن نتصور مدى الارتباط الوثيق بـين الشـاعر الأسـدي وقبيلته من خلال هذا الفخر المستمد من الواقع المعاش والظروف المحيطة بتلك القبيلـة، ولعلنـا نوافـق الدكتور النويهي على رأيه القائل: "إن تلك المآثر والفضائل لم تكن صفات مشتركة عنـد العـرب في الجاهلية كما لم تكن أعرافاً أو قوانين عامة لا ينحازون عنها أو يخرجون عليها لأنـه لـو كـان الأمـر كذلك لم يكن داع لفخر الشعراء بها"[٢].

ويضيف الدكتور النويهي قائلاً: "بأن القبائل الكبيرة ذات الأنسـاب والأحسـاب لا سـيما تلـك التي توفر لها قادة عقلاء متزنون وسادة أشراف ارتضت لنفسها تلك الفضائل وتمسكت بهـا وحثـت أفرادها على التمثل بها ترفعاً وطلباً للعلو والشرف والصدق"، ولسنا بحاجـة إلى التذكـير بمكانـة بـني

١ـ انظر ديوان عبيد ص ٤ ـ ٥ وانظر الصفحات ٤١، ١٢٣ ففيها ما يماثل هذا الفخر بالجيش والسلاح.
٢ـ انظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه للدكتور النويهي ـ الجزء الأول ص ٢٢١ ـ ٢٢٦.

أسد وبعلو نسبها في مضر وبتوافر كل أسباب القوة والمتعة لهذه القبيلة.

والملاحظ في فخر عبيد بن الأبرص أنه خلا من ذكر المرأة تماماً، على حين تعودنا أن مثل هذا الفخر القبلي إنما يكون في جانب منه ـ بتوجيه الحديث إلى امرأة معينة في موقف ما، أو كرد على سؤال موجه منها إلى الشاعر، وقد رأينا صورتها حاضرة في مثل هذه المواقف عند أغلب الشعراء الجاهليين ومنهم الأسديان الأخريان كما سنرى، ولعل تفسيرنا لهذه الظاهرة في شعر عبيد يتركز في النقاط الآتية:

فأما الافتراض الأول فهو أن شعر عبيد لم يصل إلينا كاملاً وضاع منه الكثير، وقد تكون هذه الأجزاء التي خاطب فيها المرأة في معرض الفخر قد امتدت إليها يد الضياع، ولعل مما يؤيد هذا الافتراض أن الشاعر خاطب المرأة في بعض قصائد ديوانه في مواضع قليلة، ويعني هذا أنه ربما خاطبها في قصائده الأخرى التي نفترض فيها ضياع تلك الأجزاء[١]

وأما الافتراض الثاني فهو أن عبيد بن الأبرص كان شاعر بني أسد في فترة من أحلك فتراتها حيث ثارت بحجر بن الحارث وقتلته وتآلب عليها المتآلبون، وكانت في حروب طاحنة مع الغساسنة من جهة، ومع القبائل العربية الأخرى من جهة ثانية، وهي مطلوبة بثأر حجر من جهة ثالثة، وفي ظل مثل تلك الظروف لا أظن الشاعر الأكبر في بني أسد أن تكون لديه الفسحة لمخاطبة المرأة، وربما أملى عليه منطق الأحداث وتلاحقها على هذا النحو أن يتفرغ بفنه الشعري لمعالجة هذه الأمور، ومما يرجح لدينا هذا الافتراض أن عبيدا كان يبدأ كثيراً من قصائده بذكر أهله وقومه، أو يخاطب فيها حلفاء بني أسد، أو يوجه الخطاب لخصمه امرئ القيس، وأحياناً كنا نراه يوجه الحديث للمرأة اللاحية اللائمة، وقد تكررت هذا الظاهرة في ديوانه في غير موضع[٢] مما سنعالجه في مكان آخر في هذا البحث.

وعلى هذا فقد خلا فخره من هذه الظاهرة التي تعودنا أن نرى صورتها حاضرة عند أغلب الشعراء الجاهليين، ويمكننا أن نعد فخر عبيد بن الأبرص فخراً قبلياً صرفاً تعلوه نبرة من العزة والخيلاء والكبر، أو لعلها بمعنى آخر المنهجية الجاهلية. وقد سادت صيغ المتكلمين في هذا الفخر فالشاعر يستخدم ضمائر.. نحن ـ أنا ـ بكثرة مما يناسب هذا الموقف أو ذاك، مما يجعلنا نشعر ونحس بكثرة بني أسد وقوة بأسهم حيث ارتبط هذا المفهوم "أي القوة تعني الكثرة، والأخيرة تؤدي إلى الأولى"، في أذهان شعراء بني أسد ولعلهم لهذا السبب وأكدوا هذا المعنى في فخرهم.

ونستطيع أن نلمح ارتباط عبيد بقبيلته من خلال هذا الفخر الجامح، وهو ارتباط لا حدود له في ظل تلك الظروف العصيبة التي مرت بها قبيلة بني أسد في تلك الفترة المتقدمة.

كما يستطيع الباحث أن يقف على صورة للعلاقات التي كانت سائدة بين هذا القبيلة المناكفة أبداً وبين كثير من القبائل العربية الأخرى، وكذلك العلاقات التي ربطت الأسديين مع كل من إمارتي المناذرة في الحيرة والغساسنة في بلاد الشام، علاوة على أن هذا الفخر قد كشف جانباً من علاقة بني أسد بأمارة كندة ـ وهي كما رأيناها علاقات عدائية في أغلب الأحيان تواتر شعراء هذه القبيلة على ذكرها بعد عبيد بن الأبرص كبشر بن أبي خازم والجميح وعمرو بن شأس مما سنقف عليه في الصفحات التالية.

---

١ـ انظر ديوان الشاعر عبيد بن الأبرص ص ٢١، ٦٩، ٤١.

٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص القصائد: ٣،٤،٥،٨،١١،١٢،١٣،١٤،٢٠،٢١،٢٣،٣٠،٣٣.

وهكذا فقد اتجه عبيد بن الأبرص بهذا الغـرض نحـو خدمـة القبيلـة وقضاياهـا، ونهـج مـن بعـده شعراء هذه القبيلة النهج ذاته مع اختلاف بينهم بين مكثر أو مقل في هذا الجانب أو ذاك.



# بشر بن أبي خازم:

يعد بشر بن أبي خازم من كبار شعراء قبيلة بني أسد في الجاهلية، وهو على ما يبدو يأتي بعد عبيد بن الأبرص من حيث الترتيب الزمني لشعراء هذه القبيلة، ولكي يحدد الباحث الفترة التي عاش فيها بشر ويوضح نشأة هذا الشاعر ويقف على تفاصيل حياته، فانه واجد بعض الصعوبات فالمصادر التي تحدثت عن أخبار هذا الشاعر ـ ليست قليلة على أية حال ـ ولكنها لا تشفي غلة الباحث، ذلك أن المادة التي وردت فيها قليلة ومكرورة لأنها منقولة بعضها من بعض ويقول الدكتور عزة حسن محقق ديوان بشر: "وعزّت أخبار بشر بالنسبة إلينا لفقدان المصادر الأولى التي عرضت له فقد ضاع أهم هذه المصادر وأوثقها: كشرح أبي عبيدة لديوانه الذي أورد فيه أخباره كما يستدل من أخبار عبد القادر البغدادي، وكالقسم الذي وردت فيه أخباره من كتاب "طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، هذا في شأن المصادر القديمة أما في العصر الحديث فلم أجد أحداً عرض لبشر بن أبي خازم سوى المستشرق "هرتيكان" في مجلة تسمى[1] والمقال قسمان أولهما في حياة بشر والثاني في شعره.

وقد حاول هرتيكان في القسم الأول من مقاله أن يرسم صورة لحياة بشر ولكن المصادر لم تسعفه فلم يصنع شيئاً ذا بال، وقد نجح في تحديد الزمن الذي عاش فيه بشر على وجه التقريب بالرغم من أنه استند في ذلك إلى الأخبار التي وردت عن الشاعر في كتاب "الأغاني"، وهي أخبار موضوعة غير صحيحة وسنشير إلى ذلك أثناء حديثنا عن الزمن الذي عاش فيه بشر.

وفي القسم الثاني من المقال تكلم هرتيكان على شعر بشر، ثم حاول أن يلفق ست قصائد من مظان مختلفة بينها الكامل للمبرد واللسان والأغاني والتاج على أن هرتيكان لم يورد هذه القصائد وإنما أشار إلى مظان أبياتها وحسب.

والواقع أن الأخبار التي وردت عن هذا الشاعر الأسدي تعود في أساسها إلى ما أورده أبو عبيدة معمر بن المثنى عنه، ويفيدنا بذلك البغدادي في الخزانة إذ يقول إن أبا عبيدة قد صنع شعر بشر وشرحه[2] وقد نقل البغدادي ما قاله أبو عبيدة أو شيئاً منه حين ترجم البشر بن أبي خازم، بيد أنه لم يصل إلينا ديوان بشر الذي صنعه وشرحه أبو عبيدة والغالب أنه ضاع مع جملة ما ضاع من دواوين في تلك الفترة.

وعلى أية حال فان ما أورده أبو عبيدة عن بشر يمكن القول فيه بأنه لم يكن يزيد في جملته عن الأخبار التي وصلت إلينا عنه في الكتب الأخرى، وإلا لكان المؤلفون قد نقلوها عنه وبخاصة البغدادي في خزانة الأدب.

وبعد أبي عبيدة منذ القرن الثالث نفسه عرض لبشر عالم من علماء هذا القرن وهو أبو عبد الله

---

١ـ انظر المجلة العدد الأول ص ٢٨٤، ٣٠٢ عام ١٩٠٦ وانظر مقدمة ديوان بشر بتحقيق الدكتور عزة حسن ـ طبع وزارة الثقافة السورية ـ دمشق عام ١٩٦٠.

٢ـ انظر خزانة الأدب الجزء الثاني ص ٢٦٢.

محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١هـ في كتابه "طبقات فحول الشعراء"، وقد وضعه في الطبقة الثانية من شعراء العصر الجاهلي مع أوس بن حجر وكعب بن زهير والحطيئة[١]. بيد أن سيرة هذا الشاعر التي أوردها ابن سلام فقدت و لم تصل إلينا، إذ كانت في الأقسام التي ضاعت من هذا الكتاب، ولسنا ندري مقدار ما أورده ابن سلام عن بشر ولعله لم يكن شيئاً كثيراً[٢].

وممن عرض لبشر في هذا القرن أيضاً أبو جعفر محمد بن حبيب "٢٤٥هـ" في كتابه: "أسماء المغتالين وأسماء من قتل من الشعراء" فأورد في كتابه خبر مقتله وذكر تفصيله وشرح أسبابه[٣]

ثم عرض لبشر عالمان كبيران من علماء القرن الثالث أيضاً أحدهما ابن قتيبة "٢٧٦هـ" في كتابه الشعر والشعراء، وقد أورد شيئاً يسيراً من أخباره وذكر مسألة الاقواء المشهورة في شعر النابغة الذبياني وشعر بشر بن أبي خازم[٤].

والآخر هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة "٢٨٥هـ" في كتابه "الكامل"، وقد أورد خبر هجاء بشر أوس بن حارثة الطائي ووقوع الشر بينهما في تفصيل دقيق وشرح أسباب ذلك[٥].

ومن علماء القرن الرابع يأتي أبو الفرج الأصفهاني في كتابه "الأغاني" وقد أورد نتفا يسيرة من أخبار بشر في معرض حديثه عن حاتم الطائي، وكذلك أبو منصور الشمالي فعل فقد نقل ما قاله المبرد حرفياً عن بشر وقصة هجائه لأوس بن حارثة الطائي وذلك في كتابه "ثمار القلوب في المضاف والمنسوب". وفي القرن السادس اختار هبة الله ابن الشجري المتوفى سنة "٥٤٢هـ" طائفة صالحة من شعر بشر في كتابه "مختارات شعراء العزب"، وقد أورد فيه جملة حسنة من أخباره نقلاً عن الأخفش وعبد الله بن صالح العجلي[٦].

ويظهر أن الأخبار التي أوردها ابن الشجري هي من أقدم الروايات التي رويت عن بشر بعد الأخبار التي نقلها عبد القادر البغدادي عن أبي عبيدة.

وقد عرض لبشر عز الدين الأثير وهو من رجال القرنين السادس والسابع "٦٣٠هـ" وذلك في معرض حديثه عن يوم ظهر الدهناء من أيام العرب، وقد ذكر خبر هجاء بشر أوس بن حارثة، وأشار إلى أن يوم ظهر الدهناء بين أسد وطيء كان بسبب ذلك الهجاء ثم أورد خبر أسر بشر[٧].

ويبدو لنا من خلال هذا الاستعراض والتعداد أن المصادر التي تحدثت عن بشر ابن أبي خازم ليست قليلة، ولكنها غير وافية لتكوين صورة واضحة عن حياة ونشأة هذا الشاعر الأسدي الكبير.

وعلى هذا فانه ليس لنا من مسعف في استجلاء حياة بشر سوى ما جاء في شعره مستأنسين بما ذكره الرواة القدماء عن هذا الشاعر.

ويكاد الذين عرضوا لبشر بن أبي خازم يتفقون على نسبه، فهو بشر بن أبي خازم ـ وأبو خازم اسمه عمرو بن عوف بن حميري بن ناشرة بن أسامة بن والية بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد

---

١ـ انظر طبقات فحول الشعراء ص ٨١.

٢ـ انظر مقدمة ديوان بشر تحقيق الدكتور عزة حسن.

٣ـ انظر أسماء المغتالين لابن حبيب ص ٥١٤ ـ ٢١٥.

٤ـ انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩.

٥ـ انظر الكامل للمبرد ص ١٩٩.

٦ـ انظر مختارات ابن الشجري الجزء الثاني ص ١٩ إلى ٣٣.

٧ـ انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ص ٢٢٩ الجزء الأول.

بن خزيمة بن مدركة وهو عمرو بن الياس بن مضر ابن نزار[١].

وعلى هذا فانه يلتقي بعبيد بن الأبرص في الحارث بن ثعلبة ذلك الفرع الذي ظهر فيه أكبر شعراء بني أسد في الجاهلية.

وقد ضنت علينا المصادر القديمة بأخبار أسرة هذا الشاعر فلم تذكر لنا شيئاً عنها ـ شأنها في ذلك شأن أسرة عبيد وعدم تعرضها لذكرها ـ إلا أن ابن قتيبة يذكر ابنا لبشر يدعى نوفلاً حضر مع أبيه حلف أسد وطيء[٢].

على أننا نجد في ديوان الشاعر قصيدتين يرثي فيهما أخا له يدعى سميرا رثاء صادقاً يعبر فيه عن حبه وإكباره لأخيه، كما نجد قصيدة ثالثة يرثي فيها بشر نفسه يخاطب فيها ابنة له تسمى عميرة[٣]، وهذا جل ما نعرفه عن أسرة هذا الشاعر الأسدي.

وأما العصر الذي عاش فيه بشر فلا ندري على وجه التحديد متى ولد هذا الشاعر ولا متى قتل، ولكننا سنحاول تحديد هذا على وجه التقريب، وأول ما يطالعنا عن قدمه في الجاهلية هو ابن قتيبة إذ يقول انه جاهلي قديم[٤] والواقع أن بشراً لم يكن موغلاً في القدم ويذهب الدكتور عزة حسن إلى أنه كان قريب عهد من ظهور الإسلام، ويرجح أنه قد عاش في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي[٥]، ونوافق الدكتور عزة حسن على ما ذهب إليه في هذا الشأن وقد ساق الأدلة والبراهين التي تؤيد ذلك ولا نرى فائدة من إعادة ذكرها هنا.

ويمكننا القول إن بشر بن أبي خازم تلا عبيد بن الأبرص في كونه شاعراً للقبيلة الأسدية كلها، ويبدو لنا من خلال مطالعة شعره أنه حمل هذا العبء بجدارة، وكما غطى عبيد أحداث قبيلته وتحدث عنها في شعره وبخاصة ذلك الحدث الجلل وهو مقتل حجر بن الحارث على أيدي الأسديين، فقد نهض بشر بتغطية أحداث القبيلة بعد عبيد، ويذهب بنا الظن إلى أن بشراً ربما عاصر عبيداً في أواخر حياته حين كان بشر صبياً يافعاً، ومن خلال استعراضنا لديوان الشاعر وجدنا أن، أكبر الأحداث التي جاءت في شعره تتمثل في ذكر أيام بني أسد، وهجاء أوس بن حارثة الطائي، ونخص من الأيام يومي النسار والجفار ـ اللذين تحدث عنهما عبيد بن الأبرص وربما شارك أبناء قبيلته في الاشتراك فيهما ـ وما ذكر بشر لهذين اليومين في شعره أكثر من مرة إلا من قبيل الفخر والزهو بأيام قبيلته وانتصاراتها ونستبعد اشتراكه فيهما، وقد سبق الحديث عنهما في أيام القبيلة في هذا البحث.

وعلى الرغم من أن الباحث قد يجد في شعر بشر ما يوحي باشتراكه في هذه اليومين فهو يصف الوقائع بدقة وكأنه في أرض المعركة، بل يذكر أسماء ممن اشتركوا في هذين اليومين، ولكننا نرجح عدم اشتراكه فيهما، وأنه بذكره لهما ليس بالضرورة أن يشهدهما عياناً، فكم من الشعراء في معرض فخرهم بقبائلهم يذكرون ويصفون مثل هذه الوقائع دون أن يشهدوها وربما مر زمن طويل على حدوثها.

---

١ـ انظر مختارات ابن الشجري الجزء الثاني ص ١٠٩ والكامل لابن الأثير الجزء الأول، ص ٢٢٦. وخزانة الأدب الجزء الثاني ص ٢٦٢ وجمهرة انساب العرب ص ١٨٣ وما بعدها.

٢ـ انظر الشعر والشعراء ص ٢٢٧ كما يذكر انه أخاً يسمى سوادة.

٣ـ انظر الديوان القصيدة الخامسة ص ٥٢ وما بعدها.

٤ـ الشعر والشعراء ص ٢٧.

٥ـ انظر مقدمة ديوان بشر ص ١٢ وما بعدها ففيها تفصيل واف من حياة الشاعر وعصره.

والواقع أن بشراً يبدو لنا من خلال شعره فارساً قوياً، وبطلاً من أبطال بني أسد المعدودين، يخوض غمرات القتال مع أبناء قومه، ويغزو معهم، ولعل خبر مقتله في إحدى الغارات التي شنها على طيء يدل على فروسية هذا الشاعر، ونستطيع أن نتلمس معاني الفخر عند هذا الشاعر في ضمن الإطار العام الذي تحدثنا عنه في فخر عبيد بن الأبرص، فهو بالدرجة الأولى فخر قبلي جماعي، وإذا ما وجدنا فيه تعرضاً للفردية وإظهار بطولة الفرد فإننا لا نخرج عن الإطار الأول وهو إطار القبيلة، فالفرد هنا جزء من كل يستمد بطولته وفخره بنفسه من خلال بطولة أبناء قبيلته، ولعلنا نستطيع القول إن هذه الظاهرة قد تميز بها شعراء هذه القبيلة.

وأول ما نلاحظه في فخر بشر بن أبي خازم بقبيلته هو إلقاء عبء القتال ووزر المعارك على أبناء قبيلة بني أسد بالدرجة الأولى، وإذا ما تعرض لذكر الأحلاف والمحالفين لبني أسد فإنما يتعرض لهم كعامل مساعد لا أكثر، أما النصيب الأكبر في إدارة الحرب وصنع النصر فهو دائماً لبني أسد، وقد رأينا الجانب عند عبيد بن الأبرص في حديثه عن أحلاف بني أسد وحمايتهم.

ولعل ذلك يعود إلى العصبية القبلية التي كان يحسها الشاعر نحو أبناء قبيلته، وليس ببدع هذا في الجاهلية، بالإضافة إلى أن بني أسد كما هو واضح من خلال شعر شعرائها قد أمست قوة لا يستهان بها في تلك الفترة، بل يحسب لها ألف حساب في شمال الجزيرة، وقد أشار إلى ذلك أكثر من شاعر أسدي ـ كما رأينا ـ مفتخراً بالكثرة العددية لأبناء هذه القبيلة، فلا غرو والحال كهذا أن يتخذ بشر من انتصارات قبيلته معيناً لا ينضب في مجال الفخر وغيره من الأعراض، ونحن لا نكاد نرى له قصيدة تخلو من وقفة لذكر بلاء قومه وشجاعتهم، وكأنه يستعلي على قبائل نزار كلها، وذلك مثل قوله:

مَضَى سُلاَّفُنا حَتَّى حَلَلْنَا ... بِأَرْضٍ قَدْ تَحَامَتْهَا نِزَارُ
أَبَى لِبَنِي خُزَيْمَةَ أَنَّ فِيْهِمْ ... قَدِيمَ الْمَجْدِ والحَسَبُ النُّضَارُ
هُمُ فَضَلُوا بِخَلاَّتٍ كِرامٍ ... مَعَدَّاً حَيْثُما حَلُّوا وَسَارُوا
فَأَبْلِغْ إنْ عَرَضْتَ بِهِمْ رَسُولاً ... كِنانَةَ قَوْمَنا فِي حيثُ صارُوا
كَفَيْنا مَنْ تَغَيَّبَ واسْتَبَحْنَا ... سَنَامَ الأَرْضِ إذْ قَحِطَ القِطَارُ(١)

ولعل بشر بن أبي خازم يفصح لنا أكثر وبمزيد من الدقة عن حال قبيلة بني أسد من حيث الكثرة والقوة في هجائه لأوس بن حارثة إذ يقول له:

فَيَا عَجَبَاً أَيُوعِدُنِي ابْنُ سُعْدَى ... وَقَدْ أَبْدَى مَسَاوِئَهُ الهِجَاءُ
وَحَوْلِي مِنْ بَنِي أَسَدٍ حُلُولٌ ... كَمِثْلِ اللَّيْلِ ضَاقَ بِهَا الفَضَاءُ(٢)

١ـ انظر ديوان بشر ص ٦٧ ـ ٧٢.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ٤ وانظر ديوانه ص ٢١ إذ يؤكد على هذا المعنى بقوله:

أتوعدني بقومك يا ابن سعدى ... وذلك من ملمات الخطوب
وحولي من بني أسد حلول ... من بين شبان وشيب

وقد أكد بشر هذا المعنى في أكثر من موضع في ديوانه، مما يجعلنا نرجح أن الشاعر قد عاش في فترة من أزهى الفترات قوة بالنسبة لبني أسد، والتي حددها محقق ديوانه الدكتور عزة حسن في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي.

أما خبر مقتله فتكاد الروايات تتفق على أنه قتل في غارة من غاراته على بني صعصعة ابن معاوية، وهو بصحبة جمع من قومه، وذلك في مكان يقال له الردة من بلاد قيس، إذ مر بشر بغلام من الأبناء وهو عمرو بن حذار ويكنى أبا أبى فقال بشر للغلام أعط بيدك يريد أن يأسره فقال له الغلام لتنتحين أو لأشعرنك سهما من كنانتي فأبى بشر إلا أسره، فرماه الوائلي بسهم على ثندوته فاعتنق بشر فرسه وهو جريح وأخذ الغلام فأوثقه[1].

وقد قال في ذلك يرثي نفسه لما أيقن بالهلاك مخاطباً ابنته عميرة:

تُؤَمِّـــلُ أَنْ أَؤُوبَ لَهَـــا بِنَهْـــبٍ ... وَلَـــمْ تَعْلَـــمْ بِـــأَنَّ السَّـــهْمَ صَابَـــا
فَـــإِنَّ أَبَـــاكِ قَـــدْ لاقَـــى غُلامـــاً ... مِـــنَ الأَبْنَـــاءِ يَلْتَهِـــبُ الْتِهَابـــا
وإِنَّ الوائِلِـــيَّ أَصَـــابَ قَلْبِـــي ... بِسَـــهْمٍ لَـــمْ يَكُـــنْ يُكْسَـــى لُغَابَـــا
فَمَـــنْ يَـــكُ سَـــائِلاً عَـــنْ بَيْـــتِ بِشْـــرٍ ... فَـــإِنَّ لَـــهُ بِجَنْـــبِ الـــرِّدْهِ بَابـــا
ثَـــوِىً فِـــي مُلْحَـــدٍ لا بُـــدَّ مِنْـــهُ ... كفـــى بـــالموتِ نَأْيـــاً واغْتِرابـــا[2]

وهكذا طويت حياة بشر بن أبي خازم الأسدي بعد أن قضاها لاهجاً بمدح بني أسد والافتخار بهم، ولعلنا في الصفحات التالية نستطيع أن نتبين معاني الفخر عند هذا الشاعر الأسدي ذلك أنه يشكل الجزء الأكبر من ديوانه، بالإضافة إلى الأشعار التي قالها في مدح أو هجاء أوس بن حارثة الطائي.

وقد سبق أن تحدثنا عن نقطة مميزة في فخر بشر وهي الزهو بالكثرة العددية وذلك ما رأيناه عند كل شعراء أسد في الجاهلية، على أننا نلحظ ميزة أخرى لدى بشر وهو يعالج قضايا قبيلته ويدون أحداثها ـ والحقيقة أن هذه الخصيصة لم يتفرد بها بشر عن سواه من شعراء قبيلته أو عصره، وإنما أكثر منها، وصعد بها إلى درجات لم نجدها عند غيره من الشعراء ـ تلك هي خصيصة الزهو والخيلاء، بل أقول التكبر والصلف الشديدين والاعتزاز الذي لا حد له بقوة بني أسد، حتى ليخيل إلينا أن قوم الشاعر قد حكموا الدنيا وأخذوا بناصية الأمور في كل شبر من شبه الجزيرة العربية، وذلك من مثل قوله فيهم:

هُـــمُ ضَرَبُـــوا قَوانِـــسَ خَيْـــلِ حُجْـــرٍ ... بِجَنْـــبِ الـــرَّدْهِ فِـــي يَـــوْمٍ عَصِيْـــبِ
وَهُـــمْ تَرَكُـــوا عُتَيْبَـــةَ فِـــي مِكَـــرٍّ ... بِطَعْنَـــــةِ لاَ أَلَـــفٌ وَلاَ هَيُـــوبِ
وَهُـــمْ تَرَكُـــوا غَـــدَاةَ بَنِـــي نُمَـــيْرٍ ... شُـــرَيْحاً بَيْـــنَ ضِبْعَـــانٍ وَذِيـــبِ
وَهُـــمْ وَرَدُوا الجِفَـــارَ عَلَـــى تَمِيْـــمٍ ... بِكُـــلِّ سَـــمَيْدَعٍ بَطَـــلٍ نَجِيْـــبِ
وَأَفْلَـــتَ حَـــاجِبٌ تَحْـــتَ العَـــوالِي ... عَلَـــى مِثْـــلِ الْمُوَلَّعَـــةِ الطَّلُـــوبِ

١ـ انظر معجم الشعراء ص ٢٢٢ وانظر شرح المفضليات ص ٣١ وانظر أسماء المغتالين ص ٢١٤ وخزانة الأدب الجزء الثاني ص ٦٦٢.

٢ـ انظر ديوان بشر ص ٢٥ وما بعدها.

وَحَتّى بَنِي كِلابٍ قَدْ شَجَرْنَا ... بِأَرْمَاحٍ كَأَشْطَانِ القَلِيبِ
إذا ما شَمَّرَتْ حَرْبٌ شَمَوْنَا ... سُمُوَّ البَزْلِ فِي العَطَنِ الرَّحِيبِ(١)

ولعل هذه النزعة إلى المبالغة في تصوير قوة القبيلة ووصف شجاعة أبنائها لم تأت من فراغ، ولو لم يكن لها أساس تستند إليه لما وجدنا شعراء هذه القبيلة يرددون هذه النغمة من الاعتزاز والزهو في أشعارهم، ولما أطنبوا في وصفها وتصوير مظاهرها، وعلى أية حال فإن فخر بشر بن أبي خازم لم يتعد ما يتحلى به العربي من كرم وشجاعة ونجدة وصبر على المكاره.

والواقع أن فخر بشر بقومه بني أسد احتل حيزاً واسعاً من فنه الشعري، ولعله بهذا قد أفصح لنا عن المرتكزات الأساسية التي يستند إليها هذا الغرض في الشعر الجاهلي، كما يفصح لنا عن مدى ولاء وحب بشر لأبناء قبيلته، ووضعهم في أعلى المراتب بتصويره لمآثرهم وبطولاتهم، ولعلنا نلمح في فخره سمة الواقعية لأن الشاعر يصور وقائع ثابتة ويغدد سمات عرف بها بنو أسد ويبرهن على وجودها فيهم من خلال ايراد الأحداث وذلك من مثل قوله:

وَسَلْ نُمَيْراً غَدَاةَ النَّعْفِ مِنْ شَطِبٍ ... إذْ فُضَّتِ الْخَيْلُ مِنْ ثَهْلاَنَ ما ازْدَهَفُوا
إذْ يُتَّقى بِبَنِي بَدْرٍ وَأَرْدَفَهُمْ ... خَلْفَ المَنَاطِقِ مِنْهَا عَانِدٌ يكِفُ
فَأَصْبَحُوا بَعْدَ نُعْمَاهُمْ بِمُبْأَسَةٍ ... والدَّهْرُ يَخْدَعُ أحياناً وَيَنْصَرِفُ
تَبْكِي لَهُمْ أَعْيُنٌ مِنْ شَجْوِ غَيْرِهِمُ ... فَإنْ بَكى مِنْهُمُ بَاكٍ فَقَدْ لُهِفُوا
أَمّا طُفَيْلٌ فَنَجَّاهُ أَخُو ثِقَةٍ ... مِنْ آلِ أَعْوَجَ يَعْدُو وَهْوَ مُشْتَرِفُ
مُزَلَّمٌ كَصَلِيفِ القِدِّ أَخْلَصَهُ ... إلى نَحِيزَتِهِ المِضْمَارُ والعَلَفُ
واسأَلْ تَمِيماً بِنَا يَوْمَ الجِفَارِ وَسَلْ ... عَنّا بَنِي لأْمٍ إذْ وَلَّوا وَلَمْ يَقِفُوا
لَمّا رَأَوْا قَسْطَلاً بالقَاعِ أَفْزَعَهُمْ ... وأَبْصَرُوا الْخَيْلَ شُعْثاً كُلُّها يَجِفُ
شَوازِياً كالقَنا قُوداً أَضَرَّ بِها ... شُمُّ العَرَانِينِ أَبْطالٌ هُمُ خَلَفُوا
أَبَاهُمُ ثُمَّ مَا زَالُوا عَلَى مُثُلٍ ... لا يَنكُلُونَ وَلا هُمْ فِي الوَغَى كُشُفُ(٢)

فالفخر بشجاعة قومه وثباتهم طاغ ولما يعدله غرض آخر في ديوان بشر. فخر بالسلاح والعدد، وكل ذلك يمهد لإحراز النصر لبني أسد يقول بشر:

سَلِي إنْ كُنْتِ جاهِلَةً بِقَوْمِي ... إذا ما الخَيْلُ فِئْنَ مِنَ الجِرَاحِ
نَحُلُّ مَخُوفَ كُلِّ حِمىً وَثَغْرٍ ... وما بَلَدٌ نَلِيهِ بِمُسْتَبَاحِ
بِكُلِّ طِمِرَّةٍ وَأَقَبَّ طَرْفٍ ... شَدِيدِ الأَسْرِ نَهْدٍ ذي مَرَاحِ
وما حَيٌّ نَحُلُّ بِعَقْوَتَيْهِمْ ... مِنَ الحَرْبِ العَوانِ بِمُسْتَرَاحِ

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ٢٢ ـ ٢٣.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ١٣٨ ـ ١٤٠، غير حي من أحياء بني عامر. النعف ما ارتفع عن مجرى السيل. وشطب جبل في ديار بني أسد. العائد: يريد به الشاعر الطعنة، طفيل هو أبو عامر بن الطفيل الفارس المشهور من بني جعفر بن كلاب من عامر بن صعصعة.. اعوج: فرس عتيق كريم تنسب إليه الخيل. المزلم: المقتدر. المضمار: تضمير الفرس وهو أن تسمنه ثم ترده إلى ما كان عليه.

إذا مـا شَـمَّرَتْ حَـرْبٌ سَـمَوْنَا سُـمُوَّ البُزْلِ فِـي العَطَـنِ الفَيَـاحِ
علـى لُحُـقٍ أبـاطِلُهُنَّ قُـبِّ يُـثِرْنَ النَّقْـعَ بالشُـعْثِ الصِّبَـاحِ (١)

وليست الخيل الكريمة وحدها كافية لشل العدو وتفتيت صفوفه، فلا بد أن يكون إلى جانبها السيوف القاطعة، ولعل الإعتزاء يشكل جزءاً مهماً في أرض المعركة لإذكاء حماسة الفرسان يقول بشر:

نَعْلُـو القَوانِـسَ بالسُـيوفِ وَنَعْـتَزي والخَيْـلُ مُشْـعَلَةُ النُّحُـورِ مِـنَ الـدَّمِ
فـرأوا عُقَـابَهُمُ المُدِلَّـةَ أصْبَحَـتْ نُبِـذَتْ بِـأَغْلَبَ ذِي مَخَالِبَ جَهْضَـمِ (٢)

وعلى هذا فان بني أسد يصوبون الأهداف الدقيقة وهم فرسان ثابتون على سروجهم، وسواعدهم تطلق السهام بعزم وهم يحصدون الأعداء كما يحصر الطلح، يقول بشر:

أَلاَ هَـلَ أتاهَـا كَيْـفَ نَـأَوْا قَوْمُهَـا بِجَنْـبِ قُـلابٍ إذْ تَدَانَـى القَبَـائِلُ
فَلاقَـاهُمُ مِنَّـا بِدَمْـخٍ عِصابَـةٌ عَلـى المُقْرَبـاتِ الجُـرْدِ فِيهـا تَخَـايُلُ
رَمَوْهُـمْ فَلَمَّـا استَكنَتْ مِـنْ نُحُورِهِـمْ قِطَـاعٌ خِفَـافٌ رِيشُـهَا والمَعَـايِلُ
تَوَلَّـوْا عَلَيْهِـمْ يَضْرِبُـونَ رُؤُوسَـهُمْ كَمَـا تَعْضِدُ الطَّلْـحَ الوريـقَ المَعَـاوِلُ
قَتَلْنَـا الـذي يَسْمُو إلى المَجْـدِ مِنْهُـمْ وَتَـأْوِي إليـهِ فِـي الشِّتَاءِ الأرامِـلُ (٣)

ولعل الباحث يقع في شعر هذه القبيلة على معنى آخر - يصر شعراء بني أسد على ذكره في أثناء فخرهم - فبالإضافة إلى الشجاعة والثبات وصفات الكرم والنجدة والوفاء، نجد شعراء هذه القبيلة يلحون على حماية الحليف، وقد وقفنا على هذا المعنى عند عبيد بن الأبرص أقدم شعرائهم فيما نظن وها نحن نلمسه في شعر بشر بن أبي خازم إذ يخاطب بني عامر مفتخراً عليهم فيقول:

فسَـائِلْ عَـامِراً وَبَـنِي نُمَـيْرٍ إذا مـا البِيـضُ ضَيعَّهَـا المُضِيـعُ
إذا مـا الحَـرْبُ أَبْـدَتْ ناجذَيْهـا غَـدَاةَ الـرَّوْعِ والتَقَـتِ الجُمُـوعُ
بِنَـا عِنْـدَ الحَفِيظَـةِ كَيْـفَ نَحْمِـي إذا مـا شَـفَّهَا الأَمـرُ الفَظِيْـعُ
عَقَائِلَنَـا وَنَمْنَـعُ مَـنْ يلينـا بكُـلِّ مُهَنَّـدٍ صَـافٍ صَنيـعِ
وَشُـعْثٍ قَـدْ هَدَيْـتُ بمُدْلَهِـمٍّ مِـنَ المَوْمَـاةِ يَكرَهُـهُ الجَمِيْـعُ
تَـرَى وَدَكَ السَّـدِيفِ عَلَـى لِحَـاهُمْ كَلَـوْنِ الـراءِ لَبَّـدَهُ الصَّقِيـعُ
سَـمَوْنا بالنِّسَـارِ لِـذي دُرُوءٍ عَلَـى أَرْكانِـهِ شَـذَبٌ مَنِيـعُ
فَطَـارَتْ عَـامِرٌ شِـتَّى شِـلالاً فَمَـا صَبَرَتْ وَمَـا حُمِـيَ التَبِيـعُ (٤)

---

١- انظر ديوان بشر ص ٤٤ - ٤٥.
٢- انظر ديوان بشر ص ١٨٠.
٣- انظر ديوان بشر ص١٧٥ والشاعر يشير هنا إلى يوم قلاب وكان لأسد على جنبيه وفيه قتل بشر عمرو بن مرثد الضبعي انظر أيام القبيلة في هذا البحث.
٤- انظر ديوان بشر ص ١٣٣ - ١٣٢.

وليس من الغريب بعد هذا أن يصور الشاعر صنائع بني أسد في المعارك وما يفعلونه بالعدو، حيث القتل للرجال والذل والمهانة والضياع للنساء، إذ يقول:

فسائِلْ عامراً وبني تَميمٍ ... إذا العِقْيَانُ طارَتْ لِلْوِقاعِ
فَكَمْ غادَرْنَ مِنْ كابٍ صَريعٍ ... تُطيفُ بشِلْوِهِ عُرْجُ الضِّباعِ
وَكَمْ مِنْ مُرْضِعٍ قَدْ غادَرُوها ... لَهِيْفَ القَلْبِ كاشِفَةَ القِناعِ
وَمِنْ أُخْرَى مُثابِرَةٍ تُنادِي ... أَلا خَيَّلْتُمونا لِلضَّياعِ[1]

ويؤكد بشر هذا المعنى إمعاناً في إذلال العدو وإلحاق الهزيمة والعار به فيقول في موضع آخر:

أَجَبْنا بني سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ إذْ دَعَوْا ... وَلِلّهِ مَوْلَى دَعْوَةٍ لا يُجيبُها
وَكُنّا إذا قُلْنا هَوازِنُ أَقْبِلي ... إلى الرُّشْدِ لَمْ يَأْتِ السَّدادَ خَطيبُها
عَطَفْنا لَهُمْ عَطْفَ الضَّروسِ مِنَ المَلا ... بشَهْباءَ لا يَمْشِي الضَّراءَ رَقيبُها
فَكانُوا كَذاتِ القِدْرِ لم تَدْرِ إذْ غَلَتْ ... أَتُنزِلُها مَذْمُومَةً أَمْ تُذيبُها
تبيتُ النِّساءُ المُرْضِعاتُ بِرَهْوَةٍ ... تَفَرَّأُ مِنْ هَوْلِ الجَنانِ قُلوبُها
بَني عامِرٍ إنّا تَرَكْنا نِساءَكُمْ ... مِنَ الشَّلِّ والإيجافِ تَدْمَى عُجوبُها[2]

ولم ينسَ بشر نفسه في معمعة الافتخار بقومه وهو إذ يفعل ذلك فإنما يعتبر شخصه لبنة من بناء القبيلة وليس منفصلاً عنها، ولعل الصفات التي افتخر بها هي عينها تلك الصفات التي يتحلى بها كل أسدي من قوة العزيمة، وتطواف الفيافي، ومقارعة الأعداء، وكرم اليد والنفس والضيف، ولقد أجاد بشر في ذلك كله يقول بشر:

فَإنْ أَهْلِكْ عُمَيْرَ فَرُبَّ زَحْفٍ ... يُشَبَّهُ نَقْعُهُ عَدْواً ضَبابا
سَمَوْتُ لَهُ لِأُلْبِسَهُ بِزَحْفٍ ... كَما لَفَّتْ شَآمِيَةٌ سَحابا
عَلى رَبِذٍ قوائِمُهُ إذا ما ... شَأَتْهُ الخَيْلُ ينسَرِبُ انسِرابا
صَبُوراً عِنْدَ مُخْتَلَفِ العَوالي ... إذا ما الحَرْبُ أَبْرَزَتِ الكَعابا
وَطالَ تَشاجُرُ الأبطالِ فيها ... وأَبْدَتْ ناجِذاً منها وَنابا
فَعَزَّ عَلَيَّ أَنْ عَجِلَ المَنايا ... وَلَمّا أَلْقَ كَعْباً أَوْ كِلابا[3]

والذي بين أيدينا يشير إلى أن فروسية بشر لا يتطرق إليها الشك، ولعله كان من سراة أسد المعدودين، ومن الطبيعي أن يتمتع بالأريحية والشجاعة وهو الذي أمضى حياة عاصفة في مقارعة أعداء بني أسد، وبخاصة بني عامر وبني نمير وبني كعب وكل هؤلاء أحياء من بني عامر.

١ـ انظر المصدر السابق ص ١١٢ ـ ١١٣.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ١٥ وما بعدها.
٣ـ انظر ديوان بشر ص ٢٧ ـ ٢٨.

ويفخر بشر بتخطي المخاطر وتطواف المفاوز والعناني وقد سبق أن رأينا هذا الفخر في شعر عبيد بن الأبرص، على أن الجاهليين قد افتخروا عموماً بمثل هذا الأمر وهو ليس وقفاً على شعراء بني أسد، يقول بشر:

وَمُقْفِرةٍ يَحَارُ الطَّرْفُ فيها ... علَى سَنَنٍ بِمُنْدَفَعِ الصُّيَدَاحِ
تَجَاوُبُ هَامُها فِي غَوْرَتَيْهَا ... إذا الحِرْبَاءُ أَوفَى بِالبَراحِ
وَخِرْقٍ قَدْ قَطَعْتُ بِذَاتِ لَوْثٍ ... أَمُونٍ مَا تَشَكَّى مِنْ جِرَاحِ
وَمُعْتَرَكٍ كَأَنَّ الخَيْلَ فِيهِ ... قَطَا شَرَكٍ يَثِبُّ مِنَ النَّوَاحِي
شَهِدْتُ وَمُحْجَرٍ نَفَّسْتُ عَنْهُ ... رَعَاعَ الخَيْلِ تَنْحِطُ فِي الصِّيَاحِ[(١)]

فالهجوم على الصحراء الموحشة على ناقة ضخمة قوية من صفات بشر، ومجالدة الأعداء والصبر على مكاره الحروب من شيمه، بل من شيمة كل فارس من بني أسد، وإذا كان يأسى على الحياة فليس تمسكاً بها، ولكنه يريد فسحة من الوقت ليتسنى له قتال ومطاعنة بني كعب وبني كلاب، وربما افتخر بشر وتباهى بميل النساء، إليه وغرامهن فيه، واستمالتهن في هواه أيام شبابه اللاهي حيث صرح الشباب قائم على أشده، والشمل مجتمع لا يعكر صفوه شيء، ولعل هذا التذكر من الشاعر إنما جاء كمحاولة لإثبات وجوده والانتصار على حاضره بعد أن فقد ما يتذكره جميعاً، يقول بشر:

فَإِنْ تَكُنِ العُقَيْلِيَّاتُ شَطَّتْ ... بهنَّ وبالرهيناتِ الدِّيَارُ
فَقَدْ كَانتْ لَنا وَلَهُنَّ حتَّى ... زَوَتْنَا الحَرْبُ أَيَّامٌ قِصَارُ
لَيالِيَ لا أُطَاوِعُ مَنْ نَهَانِي ... وَيَضْفُو تَحْتَ كَعْبَيَّ الإِزارُ
فَأَعْصِي عاذِلِي وأُصِيبُ لَهْواً ... وأوذِي فِي الزِّيَارَةِ مَنْ يَغَارُ[(٢)]

وقد لا يقتصر فخر الشاعر على القوة، والشجاعة، وعدة الحرب، من فرس وسلاح وما استتبع ذلك من مظاهر الفروسية - التي عرفنا شيئاً عنها في شعر عبيد بن الأبرص - فثمة أكثر من مجال لهذا الفخر بمقدور الشاعر أن يلجه، ويوظف من خلاله مقدرته الفنية لإرهاب الخصوم: انه الهجاء. ولعل هذا المجال لم يكن بأقل مضاء من استخدام السلاح في ساحة المعركة، وقد وقفنا على جانب من هذا الاتجاه عند شعراء بني أسد في شعر عبيد بن الأبرص الذي يهدد ويتوعد بشعره وقوافيه العصماء أعداء قبيلته[(٣)] وها هو بشر بن أبي خازم يحذو حذوه ويتوعد قائلاً:

---

١- انظر المصدر السابق ص ٤٥ - ٤٦.

٢- انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ٦٦ أراد الشاعر بالهينات القلوب. وانظر ص ٣١ من ديوانه حيث يفخر الشاعر بمثل هذا المعنى.

٣- انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٧٦ - ٧٧ حيث يقول:

سل الشعراء هل سبحوا كسبحي ... بحور الشعر أو غاصوا مغاصي
لساني بالنثر وبالقوافي ... وبالأسجاع أمهر في العناص
من الحوت الذي في لج بحر ... يجيد السبح في لجج المغاص

سَأَرْمِي بالهِجَاءِ ولا أُفِيهِ ... بَنِي لأْمٍ وَلِلْمَوْقِيِّ وَاقِي
وَسَوْفَ أَخُصُّ بالكَلِماتِ أَوْساً ... فَيَلْقاهُ بِما قَدْ قُلْتُ لاقِي
إذا ما شِئْتُ نَالَكَ هاجِراتِي ... ولم أُعْمِلْ بِهِنَّ إِلَيْكَ سَاقِي
قَوافٍ عَرَّمٍ لَمْ يَسْبِقُوهَا ... وإنْ حَلَّوْا بِسَلْمَى فَالوِراقِ
أُجَهِّزُهَا وَيَحْمِلُها إِلَيْكُمْ ... ذَوو الحاجاتِ والقُلُسُ المَناقِي(١)

ولعله مما يستوقفنا هنا هو أننا لاحظنا أن الهجاء عند عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم قد دار عموماً حول ما يناقض المثل العليا التي كانت سائدة، إلا أن بشراً قد أفرد قصائد بحالها لهذا الغرض، وهو بذلك لم يوافق بقية الشعراء الأسديين وغيرهم من الجاهليين الذين كانوا يسوقون الهجاء ـ غالباً ـ في تضاعيف حماستهم وإشادتهم بأمجادهم وانتصاراتهم الحربية وغالباً ما كان مرتبطاً باللعنات الدينية الأولى كالتطيّر والتشاؤم وإلحاق الأذى بالخصم(٢) وهذا ما رأيناه في هجاء عبيد وافتقدناه في هجاء بشر بن أبي خازم، ولعل تعليل هذه الظاهرة يعود إلى قرب بشر بن أبي خازم من الزمن الذي بدأ فيه الوعي الديني بالانتشار في شبه الجزيرة، وربما كان الأمر على غير ما نظن ولم يصل إلينا ما قاله بشر في هذا المضمار، وعلى أية حال فان مثل هذه الأمور لا يجوز الحكم فيها بلا دلائل ثابتة وقرائن لا تقبل الشك.

والواقع أن افتخار بشر بقومه وبشخصه يجعلنا نقدر مدى ذلك الحب والولاء من الفرد لجماعته، ولمنازل تلك الجماعة، وربما ذهب بنا الظن إلى أن الشاعر الجاهلي عموماً والأسدي بخاصة قد أظهر غيرة وحباً شديدين لمواطن قبيلته، وكان أحد أشكال التعبير عن هذا الارتباط والحنين هو فخر الشاعر بانتصارات أبناء القبيلة، وتشبثه بذكر الأماكن العديدة أثناء حديثه ـ وقد رأينا ذلك بوضوح عند شعراء بني أسد ـ ولعل طبيعة مواطن بني أسد وما كانت تتمتع به من خصوبة ووفرة مياه، كان دافعاً قوياً لدى الأسديين للاستماتة في الدفاع عنها والارتباط الوثيق بها أكثر من غيرهم من قبائل العرب، وان نظرة إلى دواوين عبيد وبشر وسحيم وغيرهم من شعراء تلك المرحلة لكافية للحكم بهذا(٣).

وقد يرى الباحث في اتجاه شعراء بني أسد في الفخر وتعدد معانيه عندهم أن هؤلاء الشعراء قد انغمسوا في السياسة ـ إن صح التعبير ـ انغماساً فرضته عليهم طبيعة الظروف المحيطة بهم، فرصدوا لنا بشعرهم كثيراً من أحداث شبه الجزيرة العربية، ووضحوا لنا بعض ما كان يدور من نزاعات بين القبائل والممالك المجاورة من مناذرة وغساسنة وكنديين ما كانت لتتضح لولاهم، وبهذا نكون قد أحطنا ـ ولو إلى حد ـ بمجال الفخر عند شاعرين كبيرين من شعراء هذه القبيلة، وكشفنا عن بعض

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ١٦٤.
٢ـ انظر د. شوقي ضيف ـ العصر الجاهلي ص ١٩٨ ـ ٢٠٢ طبعة ٨.
٣ـ ويلاحظ بوجه عام أن فخر بشر بن أبي خازم بقومه أكثر اعتداداً وهو لا يذكر فيه شيئاً من ضعف بني أسد أو هزيمتهم أمام الأعداء، كما رأينا ذلك عند عبيد بن الأبرص، مما يدل على ان هذه القبيلة كانت قد مرت بفترات ضعف وتشتت أيام عبيد فرثاها أكثر من مرة، ويبدو ان عددها قد تكاثر وأصبحت قوة ضاربة في عهد بشر بن أبي خازم فقلت هزائمها وتبدلت بعد ضعف قوة، ولعل الأحداث التاريخية تثبت ذلك حيث برزت أسد كقبيلة قوية تناطح المسلمين في يثرب وتغزو المدينة أو تحاول ذلك على الأقل.

زوايا في شخصية كلا الشاعرين، وسنخصص الحديث في الصفحات التالية عن شاعر أسدي ثالث هو عمرو بن شأس الأسدي متناولين غرض الفخر عنده محاولين إلقاء بعض الضوء في معاني هذا الغرض عند هذا الشاعر الأسدي المخضرم ولعله آخر شعراء بني أسد الكبار في هذا المضمار بالنسبة للفترة الجاهلية من حياة هذه القبيلة.



# عمرو بن شأس الأسدي:

يعد عمرو بن شأس أحد كبار شعراء بني سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد. وقد مر معنا ما كان عليه هذا الفرع في الجاهلية من رفعة ومنزلة بين بطون أسد كلها. ويبدو أن الحوادث الكبيرة وكثرة الحروب تخلق جواً من الحماسة والفخر لدى أبناء القبيلة بوجه عام ولدى أبناء هذا الفرع أو ذاك بوجه خاص.

ولقد اصطلى بنو سعد بن ثعلبة بنار الحروب منذ أقدم صفحات تاريخهم، فقد حدثنا عبيد بن الأبرص عن بعض حروبهم الطاحنة مع الغساسنة وكندة وقبل ذلك عرفنا - في الباب الأول - بعض حروبهم مع المناذرة اللخميين، وبعد هذا وذاك وقفنا على حروبهم مع قبائل نجد عموماً وبخاصة قبيلتي تميم وبني عامر. وليس من الغريب إذن أن ينبغ في هذا الفرع الذي تحمل أكبر الأوزار في تلك الحروب بشهادة الشعراء من أبنائه. أقول ليس بمستغرب وجود أكبر شعراء بني أسد في بني سعد بن ثعلبة بن دودان كعبيد وبشر وعمرو بن شأس والكميت بن معروف والكميت بن ثعلبة[1].

وتحدثنا الروايات عن هذا الشاعر الفارس بأنه عاش أغلب حياته في الجاهلية، ثم أدرك الإسلام وأسلم واشترك في فتح المسلمين لبلاد فارس، ومما يدل على ذلك وجود أشعار له في معركة القادسية كما يلاحظ الباحث وجود بعض التيارات الجديدة في شعره التي كان منبعها الإسلام وذلك من مثل قوله:

وَلَولاَ اتِّقَاءُ اللهِ والعَهْدِ قَدْ أرَى مَنِيَّتَهُ مِنِّي أَبُوكِ اللَّيالِيَا[2]

فاتقاء الله وحرمة العهد خلقان عرفهما عمرو في جاهليته وهما من أخلاق الإسلام في الوقت ذاته. ولعل شعر عمرو بن شأس يدور في غالبيته على الفروسية والفخر. ويبدو لنا من خلال ما وصل إلينا من شعره أنه كان فارساً مقداماً، وسيداً من أسياد بني سعد ابن ثعلبة، وكان يتمتع بأخلاق الفروسية العربية الحقة من مروءة وكرم ونجدة وإقدام وجرأة ووفاء وحياء.

والواقع أن بني سعد بن ثعلبة - كما أسلفت - عرفوا بمثل هذه الخصال وتمسك أبناء هذا الفرع بتلك السمات، وحافظوا عليها واتخذوها سنة وشرعة في سلوكياتهم، وقد وقفنا على بعض ذلك عند من سبق عمرو في هذا المجال من شعراء بني سعد بن ثعلبة، وسوف نقف على فن هذا الشاعر الفارس في مجال الفخر وذكر أمجاد قومه، ويحسن بنا أن نثبت نسب الشاعر قبل أن نعالج معاني الفخر لديه.

فهو عمرو بن شأس بن أبي بلى واسمه عبيد بن ثعلبة بن روية بن مالك بن الحارث ابن سعد بن

---

١- أنظر جمهرة أنساب العرب ص ١٩٦ وما بعدها.

٢- انظر شعر عمرو بن شأس ص ١٤ وانظر معجم الشعراء ص ٢٢ ولمزيد من أخبار عمرو ابن شأس انظر الأغاني الجزء الحادي عشر ص ٢٠٠ - ٢٠٢ وانظر الحماسة البصرية الجزء الثاني ص ١٤٥.

ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان[١] ويفيدنا ابن خلكان بأن عمراً قد أدرك الإسلام وهو شيخ كبير[٢] ويجعله ابن سلام الجمحي أكثر أهل طبقته شعراً وأنه ذا قدر وشرف في قومه[٣].

ويبدو أن شأساً أباه كان من أهل المشورة والرأي السديد في بني أسد، وأنه كان فارساً قوي الشكيمة. ويورد أبو الفرج خبراً مطولاً عن شأس بن أبي بلى في يوم جبلة حيث دار القتال مع بني عامر ويذكر له شعراً في ذلك[٤] والذي يهمنا من الخبر أن أباه شأساً كان سيداً مطاعاً في قومه سديداً في نظرته للأمور. كما نستنتج من خلال شعره أن له ابناً كان يسمي عراراً، وكذلك ابنة كانت تدعى "شوك" وقد خاطبها في شعره حيث قال:

أَلَمْ تَعْلَمِي يا شَوْكُ أَنْ رُبَّ هالِكٍ ... وَلَوْ كَبُرَتْ رُزءاً عَلَيَّ وَجَلَّتِ[٥]

ويبدو أن عراراً ابنه كان أسمر اللون وسيماً ولم تكن العلاقة بينه وبين زوجة أبيه أم حسان على ما يرام، فنشأ خلاف بينهما انتهى بطلاق أم حسان من قبل عمرو ولعل في شعره ما يدل على ذلك. إذ يقول:

أَرادَتْ عِراراً بالهَوان وَمَنْ يُرِدْ ... عِراراً لَعَمْري بالهَوان فَقَدْ ظَلَمْ
فَإنَّ عِراراً إنْ يَكُنْ غَيْرَ واضِحٍ ... فَإني أُحِبُّ الجَوْنَ ذا المَنْكِبِ العَمَمْ[٦]

وبوجه عام فان المصادر القديمة تسعفنا بمعرفة دقيقة لحياة هذا الشاعر. ولا تكشف لنا عن صفحات عمره بشكل جلي وعلى هذا فانه ليس أمامنا من سبيل سوى شعره الذي بين أيدينا لاستجلاء مثل هذه الأمور، والذي يشير إلى أن وصف الحرب والفخر بقومه يشكل الجزء الأكبر من ديوانه الصغير.

ولعل أول ظاهرة في فخر عمرو بن شأس هي تعريفه بامرئ القيس بن حجر، وذكره لثورة قومه على حجر بن الحارث وقتلهم أباه، يقول عمرو في هذا:

وَحُجْراً قَتَلْنا عَنْوةً فَكَأَنَّما ... هَوَى مِنْ حَفافَيْ صَعْبَةِ المُتَنَزَّلِ
فَما أَفْلَحَتْ فِي الغَزْوِ كِنْدَةُ بَعْدَها ... ولا أدركُوا مِثْقالَ حَبَّةِ خَرْدَلِ
سِوى كلماتٍ مِنْ أَغانيِّ شاعِرٍ ... وَقَتْلَى تَمَنَّى قَتْلَها لَمْ تُقَتَّلِ
وَنَحْنُ قَتَلْنا بالفُراتِ وَجزْعِهِ ... عَدِيّاً فَلَمْ يُكْسَرْ بِهِ عُودُ حَرْمَلِ

---

١ـ انظر جمهرة أنساب العرب ص ١٩٣ وسمط اللآلي الجزء الثاني طبع مصر ١٩٣٦ تحقيق الميمني ص ٧٥٠ والأغاني الجزء الحادي عشر ص ١٩٦ وحماسة التبريزي الجزء الأول ص ٢٧٢ طبع مصر ١٩٣٨ حيث أجمعت الروايات على صحة نسبه ولم تختلف فيه.

٢ـ انظر وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الرابع ص ٤١٩ تحقيق إحسان عباس طبع بيروت ١٩٧٢.

٣ـ انظر طبقات فحول الشعراء ص ١٩٦ الجزء الأول.

٤ـ انظر الأغاني الجزء الحادي ص ١٤٠ وما بعدها طبع دار الكتب.

٥ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٦٥ جمع الدكتور يحيى الجبوري.

٦ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٨٠ ـ ٨١ ولمزيد من التفاصيل عن هذا الأمر راجع طبقات فحول الشعراء الجزء الأول ص ١٩٩ وأمالي القالي الجزء الثاني ص ١٨٤، وسمط اللآلي الجزء الثاني ص ٨٠٣.

وَقُرْصاً أزالتْهُ الرِّماحُ كَأَنَّما ... تَرامَتْ بِهِ مِنْ حالِقٍ فَوْقَ مَهْيَلِ
وَنَحْنُ قَتَلْنا الأَجْدَلَيْنِ ومالكاً ... أبا مُنْذِرٍ والجَمْعُ لَمْ يَتَزَيَّلِ(١)

والحقيقة أن مقتل حجر بن الحارث يعد من أكبر الأحداث وأعظمها في حياة قبيلة بني أسد بل شبه الجزيرة بعامة، وذلك ما ترتب عليه من نتائج وتحولات حدثت بين القبائل العربية أفرزت تحالفات جديدة وعلاقات جديدة. ولعلها أبرزت دور أمراء الحيرة أكثر من ذي قبل في التدخل بشؤون القبائل العربية في نجد بخاصة.

ويستطيع الباحث أن يلمح هذه الروح المعنوية العالية في فخر عمرو بن شأس بقومه، وبكثرتهم، وشدة بأسهم، فنراه يذكر انتصارات قومه على الغساسنة على أكتاف الفرات مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه ربما كانت بعض بطون أسد قد سكنت تلك المناطق مما يلي الأنبار من البادية المسماة بصحراء النفوذ، وبخاصة في أجزائها التي ذكرها عمرو بن شأس وسبق ذكرها عند كل من عبيد وبشر.

ويلقانا عمرو بن شأس بفخر مجلجل بقومه بني أسد منهم لا مثيل لهم في الشرق والغرب يقول:

فَلَوْ طُفْتَ بَيْنَ الشَّرْقِ والغَرْبِ لَمْ تَجِدْ ... لِقَوْمٍ عَلى قَوْمِي وَإنْ كَرُمُوا فَضْلا
أَعَزَّ وأَمضَى فِي الصَّباحِ فَوارساً ... إذَا الخَيْلُ جَالَتْ فِي أَعِنَّتِها قُبْلا
رَأَيْتَ ذوي الحاجاتِ يَتبعونَنا ... نُهينُ لَهُمْ في الحُجْرَةِ المالَ والرِّسْلا
نُقيمُ بِدارِ الحَزْمِ ليسَ مُزِيلَنا ... مقاساتُنا فيها الشَّصائِصَ والأَزْلا
لنا السُّوَرَةُ العُلْيا وأوَّلُ شَدَّةٍ ... إذا نَحْنُ لاقينا الفَوارسَ والرَّجْلا
وإنْ يأتِنا ذُو حاجةٍ يُلْفِ وَسْطَنَا ... مَجالِسَ ينفي فَضْلُ أحلامِها الجَهْلا(٢)

وهم يتحلون بصفات أخرى ويتخلقون بأخلاق حميدة ربما كانت مثالاً في ذلك المجتمع القبلي فالحلم من شيمهم إلى جانب القوة كذلك الفصاحة وقوة البيان. وزد على ذلك ما كانت تتمتع به القبيلة من أرزاق واسعة ورفاهية عيش ـ على زعم عمرو ـ وضروب من الشجاعة والبأس يقول عمرو:

نَحْنُ الذّينَ لِحِلْمِنا فَضْلُ ... قِدْماً وعِنْدَ خَطيبِنا فَصْلُ
وإذا نُطاوِعُ أَمْرَ سادَتِنا ... لم يُرْدِنا عَجْزٌ ولا بُخْلُ
وَلَنا مِنَ الأَرْضِينَ رابِيَةٌ ... تَعلو الإِكامَ وقُودُها جَزْلُ
وَلَنا إذا ارْتَحَلَتْ عَشِيرَتُنا ... رَحْلٌ ونحنُ لِرَحْلِنا أَهْلُ

---

١ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٤٧ ويشير عمرو بن شأس في غير موضع إلى انتصار قومه على الغساسنة وذلك من مثل قوله في ديوانه ص ٣٠ وما بعدها.

وغسان حتى أسلمت سرواتنا ... عديا وكان الموت في حيث أوقعا

٢ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٣٨ ـ ٣٩.

تَعْلُو بِهِ صَدْرَ البَعِيرِ وَلَمْ ... يُوجَدْ لَنَا فِي قومِنا كِفْلُ
وَلَنَا رَوَايَا يحملُونَ لَنَا ... أثقالَنا إذْ يُكْرَهُ الحَمْلُ
وَلَنَا فَوارسُ يَرْكَبُونَ لَنَا ... في الرَّوْعِ لا مِيلٌ ولا عُزْلُ
مُتَقارِبٌ أَطْنَابُ دُورِهِمِ ... زُهْرٌ إذا مَا صَرَّحَتْ كُحْلُ
لَسْنا نَمُوتُ عَلَى مَضَاجِعِنَا ... يا لَيْلَ بَلْ أَدْواؤُنَا القَتْلُ(١)

وربما وسع عمرو بن شأس دائرة الفخر بقومه ـ وهذا ما لم يفعله عبيد ولا بشر ـ فافتخر بخندف الدائرة الأوسع لبني أسد بن خزيمة، وهذا ما قد يتطلبه الأمر أمام بني عامر الذين قد يلجأون إلى قيس الدائرة الأوسع لهم. يقول عمرو:

ونحنُ بَنو خَيْرِ السِّباعِ أَكِيلَةً ... وَأَحْرَبِهِ إذَا تَنَفَّسَ عادِيا
بنو أَسَدٍ وَرْدٌ يَشُقُّ بنابِهِ ... عِظامَ الرِّجَالِ لا يُجِيبُ الرَّواقِيا
مَتَى تَدْعُ قَيْساً أَدْعُ خِنْدَفَ إنَّهُمْ ... إذا ما دُعُوا أَسْمَعْتَ ثَمَّ الدّواعِيا
لَنَا حاضِرٌ لَمْ يَحْضُرِ النّاسُ مِثْلَهُ ... وبادٍ إذا عَدُّوا عَلَيْنا البَوادِيا(٢)

والواقع أننا لم نتعود من شعراء هذه القبيلة هذه النغمة في الفخر، بل على العكس من ذلك فقد رأينا بشراً يتحدى قبائل نزار كلها ببني أسد وكذلك لسحيم عبد بني الحساس. ويبدو أن عمرو بن شأس هنا كان مدفوعاً إلى هذا الفخر بسبب الرد على الخصم. صحيح أن مثل هذا الافتخار كان مدفوعاً بالفرع الأكبر لا يتناقض مع العصبية القبلية التي كانت سائدة في مجتمع الجاهليين. لكن اللجوء إليها لا يكون إلا في حالات معنية وهي غالباً ما تأتي من قبيل التمدح ليس غيره إلا أن الفعل إنما يكون لأبناء القبيلة الأدنين، فعلى عاتقهم تقع مسؤولية حماية القبيلة والذود عن حماها ضد الطامعين بها.

وعلى أية حال فإن فخر عمرو بن شأس بقومه لم يتعد معاني الفخر عند غيره من سبقه من شعراء هذه القبيلة فالكثرة العددية موضع فخر عند بشر وعبيد وهي كذلك عند عمرو بن شأس حيث يقول:

وَإِنّا النّازِلُونَ بِكُلِّ ثَغْرٍ ... وَلَوْ لَمْ تَلْقَهُ إلاّ هَشِيمَا
تَرَى فيها الجِيادَ مُسَوَّماتٍ ... مَعَ الأبْطالِ يَعْلُكْنَ الشَّكِيمَا
وَجَمْعاً مِثْلَ سَلْمَى مُكْفَهِرّاً ... تُشَبِّهُهُمْ إذا اجْتَمَعُوا قُرُومَا
بِمِثْلِهِمُ تُلاقِي يَوْمَ هَيْجَا ... إذا لاقَيْتَ بَأْساً أَوْ خُصُومَا(٣)

ولعل تفسير هذه الظاهرة عند عمرو بن شأس وهي المبالغة في وصف قوة القبيلة وهذا الاعتزاز الذي لا حد له إنما يعود إلى قوة هذه القبيلة فعلاً في تلك الفترة وإلا لما أجمع شعراء هذه القبيلة على

---

١ـ انظر المرجع السابق ص ٣٥.
٢ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٨٤ ـ ٨٥.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٥٣ وما بعدها. ويؤكد على هذا المعنى، غير موضع من ديوانه انظر ص ٦١ وما بعدها.

هذه الظاهرة وأكدوا عليها في أشعارهم.

وكما كانت سيوف الأسديين قاطعة باترة عند عبيد وبشر فهي كذلك عند عمرو الذي يفخر بها في صورة جميلة مأخوذة من الواقع المعاشي للشاعر إذ يقول:

وَأَسْيافُنَا آثارُهُنَّ كَأَنَّهَا ... مَشَافِرُ قَرْحَى فِي مَبارِكِهَا هُدْلُ(١)

وبنو أسد دائماً هم أهل الرفعة وأصحاب العزة والغلبة على حد قول عمرو بن شأس:

فَلَمْ أَرَ حَيّاً مِثْلَهُمْ حِينَ أَقْبَلُوا ... وَلَمْ أَرَ حَيّاً مِثْلَنَا أَهْلَ مَنزِلِ
بِأَيْدِيهِمُ هِنْدِيَّةٌ تَخْتَلِي الطُّلَى ... كما فَضَّ جاني حَنْظَلٍ نَضْرَ حَنْظَلِ
وَمَنْ لَا تَكُنْ عادِيَّةٌ يُهْتَدَى بها ... لِوَالِدِهِ يُفْخَرْ عَلَيْهِ وَيُغْسَلِ
عَزَزْنَا فَمَا لِلْمَجْدِ مِنْ مُتَحَوَّلٍ ... سِوى أَهْلِهِ مِنْ آخرِينَ وأَوَّلِ(٢)

وخيول بني أسد نجيبة قوية كما كانت كذلك أبداً، مضبّرة قب البطون، طويلة المتون، سريعة في عدوها يقول عمرو في مجال الفخر بها:

مُضَبَّرَةٌ قُبٌّ البُطُونِ تَرَى لَهَا ... مُتُوناً طِوالاً أُدْمِجَتْ وَشَوىً عَبْلا
إذا امتُحِنَتْ بالقَدِّ جاشَتْ وَأَزْبَدَتْ ... وإنْ رَاجَعْتُ تقْرِيبِهَا نَقَلَتْ نَقْلا(٣)

ومن الطبيعي أن يفخر الفارس المعلم بقطع المفاوز والصحراء الموحشة، ويتخذ من ذلك سبيلا لإثبات اقتداره وقوته وفروسيته، وقد سبق أن وقفنا على مثل هذا الأمر عند شعراء هذه القبيلة، ولقد كان عمرو بن شأس كذلك يقول:

وَخِرْقٍ كَأَهْدَامِ العَبَاءِ قَطَعْتُهُ ... بَعِيدِ النِّياطِ بَيْنَ قُفٍّ وَأَرْمُلِ
بِنَاجِيَةٍ وَجْنَاءَ تَسْتَلِبُ القَطَا ... أفاحِيصُهُ زُجْرى إذا التَفَتَتْ حِلِي(٤)

وتضيق دائرة الفخر عند شاعرنا ـ شأنه في ذلك شأن غيره من الشعراء أحياناً فنراه يفخر ببني سعد بن ثعلبة دون سائر أفخاذ بني أسد. وقد سبق أن رأينا هذا الفخر بالفرع وردناه إلى ما ظننا أنه الصواب من غير جانب هذا الفرع أو التخلي عنه في أزمة مرت أو النيل منه من قبل الأفخاذ الأخرى من القبيلة، فيهب شعراؤه للمنافحة عنه ولإبراز خصائصه وبطولاته وذلك من مثل قول عمرو بن شأس:

بَنِي أَسَدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بَلاءَنَا ... إذا كانَ يَوْمٌ ذا كَواكِبَ أَشْنَعَا
نَذُودُ المُلُوكَ عَنْكُمُ وَتَذودُنَا ... إلى المَوْتِ حَتَّى تَضْبَعُوا ثُمَّ نَضْبَعَا

---

١ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٦٩.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ٤٦ ـ ٤٧.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٤٠ وقد أكد على هذا المعنى في الصفحات ٥٣،٦٩.
٤ـ انظر المصدر السابق ص ٤٣ وله في ص ٢٦ ـ ٢٧ مثل هذا المعنى وانظر ص ٤١ أيضاً.

وَمِنْ حُجُرٍ قَدْ أَمْكَنَتْكُمْ رِماحُنـا ... وَقَـدْ سَـارَ جَـوْلاً فِـي مَعَـدٍّ وأَوْضَعَـا[١]

ويستدل من حديث عمرو على أن بني سعد بن ثعلبة هم الذين مهدوا لقتل حجر ابن الحارث كما يستدل على أنهم كانوا رأس حربة في حروب هذه القبيلة وأنهم حملوا عبء الدفاع عنها في غالب الأحيان.

وقد تضيق دائرة الفخر بالشاعر فيقتصر على شخصه ليبين لنا مكانته وليوضح المنزلة التي يتمتع بها بينهم، وهذه سمة ينفرد بها عمرو عن بقية شعراء بني أسد الذين تعودنا أن نرى فخرهم الفردي نابعاً من فخرهم الجماعي وضمن إطاره يقول عمرو:

وَقَـدْ عَلِمَـتْ سَـعْدٌ بِـأَنِّي عَمِيدُهَـا ... قَديمـاً وَأَنـيّ لَسْـتُ أُهْضِـمُ مَـنْ هَضَـمْ
خُزَيْمَـةُ رَدّانِـي الفِعَـالَ وَمَعْشَـرٌ ... قديمـاً بَنـوْا لِـي سُـورَةَ المَجْدِ والكَـرَمْ[٢]

وعلى الرغم من هذا الاعتزاز الفردي إلا أننا نجد عمرو بن شأس لا يستطيع انفكاك من إسار القبيلة، فنراه يربط هذه العزة بعزة أجداده الأوائل كخزيمة بن مدركة.

وكما رأينا فخر شعراء هذه القبيلة بخصالهم الفردية ومن قيم كانوا يتمتعون بها كذلك نرى الشاعر يحذو حذوهم فيفخر بكرمه وبنحره مطيته لصاحبه إذا عز الزاد عليهم وذلك في قوله:

وَإِنِّـي لأَشْـوِي للصِّحَـابِ مَطِيَّتِـي ... إِذَا نَزَلُـوا وَحْشـاً إِلَـى غَـيْرِ مَـنْزِلِ
فَبَـاتُوا شِـبَاعاً يَدْهَنُـونَ قِسِـيَّهُمْ ... لَهُـمْ مِجْلَـدٌ مِنْهـا وَعَلَّقْـتُ أَحْبُلِـي
أَلا تِلْـكَ أَخْـلاَقُ الفَتَـى قَـدْ أَتَيْتُهـا ... فَـلاَ تَسْـأَلُونِي وَاسْـأَلُوا كُـلَّ مُبْتَلِـي[٣]

ولئن كان للوفاء وحماية الجار مكان رفيع في نفوس الجاهلين عموماً ومنهم شعراء بني أسد فان له في نفس عمرو بن شأس مكاناً عالياً هو الآخر. فقد أبت عليه أخلاقه أن يهضم لجار له حق، وعز عليه أن يعتدي على مال من كان ينزل بجواره، فأعاد له ابله بحد السيف على الرغم من علمه بأن هذا الأمر قد يكلفه حياته يقول عمرو:

أَبَأْنَـا لِقَـاحَ الحَنْظَلِـيِّ بِمِثْلِهـا ... لِقاحـاً وَقُلْنَـا دونَـكَ ابْـنَ مكَـدَمِ
وَفَـاءً وَلَـمْ تُشْـرِفْ عَلَيْـهِ نُفوسُـنَا ... حَناجِرُهـا كَأَنَّهـا صَـوْغُ حَنْتَـمِ[٤]

ولعل من أخلاق الفروسية والمروءة حماية وإغاثة الملهوف سواء أكان امرأة أم رجلاً، وانه لمن دواعي الفخر والاعتزاز لدى عمرو بن شأس أن يفعل هذا ويسهم في إعادة الاستقرار لهذه المرأة وبنيها المذعورين يقول:

---

١- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٣١ وما بعدها وله في هذا المجال في ص ٣٨. حيث يدل على بني أسد بكرم بني سعد بن ثعلبة في سنين الجدب على بعض بطون أسد.
٢- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٥٨.
٣- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٤٤ - ٤٥.
٤- انظر لمصدر السابق ص ٧٩ - ٨٠ وانظر طبقات فحول الشعراء الجزء الأول ص ١٩٩.

وَمُرْقِصَـــةٍ مَنَعْنَاهـــا إذَا مـــا رَأَتْ دُونَ المحافَظَـــةِ اليَقِينَـــا
يُذَكِّرُهـــا إذا وَهِلَـــتْ بَنِيهَـــا وَنَحْمِيهَـــا كَمَـــا نَحْمِـــي بَنِينَـــا(١)

وكعادة المرأة في توجيه اللوم إلى الزوج بسبب بسط ذات يده وإكرامه لذوي الحاجات ــ وهذه سمة وجدناها في شعر أغلب شعراء بني أسد في الجاهلية ـ فان زوجة الشاعر عمرو بن شأس تلومه هي الأخرى فيجيبها الجواب المعتاد مفتخراً ذاكراً لها أن البخل مذمة بين الناس، وأن كلا من الكريم والشحيح سيطويهما الموت، وهو بإفصاحه هذا عن نظرته للحياة فإنما نراه يفخر بنفسه ويتمسك بهذه الخلة التي ارتضاها خلقا له يقول:

وَعَاذِلَـــةٍ هَبَّـــتْ بلَيْـــلٍ تَلُومُنِـــي فَلَمَّـا غَلَـتْ فِـي اللَّـوْمِ قُلْـتَ لَهَـا مَهْـلاَ
ذَرِيـــني فـــإنّي لا أرَى المَـــوْتَ تاركـــاً بَخِيـــلاً ولا ذا جـــودَةٍ مَيِّتـــاً هَـــزْلاَ
مَتَـى مَـا أُصِـبْ دُنيـا فَلَسْـتُ بِكَـائِنٍ عَلَيْهَـا وَلَـوْ أكْـثَرَتِ عـاذِلَتِي قَفْـلا(٢)

وإذا كان بعض الناس يمضي شبابه في اللهو والعبث، وتقعد به همته عن تحقيق ما يطمح إليه الإنسان من شرف سؤود ثم يأخذه الندم بعد فوات الأوان، فان عمرو بن شأس ليس كذلك ولئن غزاه الشيب وطعنت به السن وضعفت قواه وصنم سمعه فله في كل ذلك عزاء وهو أنه أمضى شبابه في الجد والمناضلة والكفاح ومقارعة الأعداء، وكان يتحلى بحميد الخصال التي أبعدته عن كل عيب ومثلبة يقول عمرو مفتخرا بذلك:

فَـوَا نَدَمِـي عَلَـى الشَّبَابِ وَانَـدَمْ نَدِمْـتُ وَبَـانَ اليَـوْمَ مِنّـي بغَـيْرِ ذَمْ
وإذْ إخْوَتـي حَـوْلي وإذ أنـا شـائِخٌ وإذ لا أُجيـبُ العـاذلاتِ مِـنَ الصَّمَـمْ
إذا مـا وردنـا المـاءَ كـانَتْ جُماتُـهُ بنـو أسَدِ يومـاً علـى رَغْـمِ مَـنْ رَغَـمْ(٣)

وهكذا تعدد معاني الفخر عند شاعرنا عمرو بن شأس وتغلب عليها روح الفروسية ومفاخرها وتمسكه بأخلاقها وتقاليدها. كما تفصح لنا هذه المعاني عن بعض جوانب هذه الشخصية المتزنة، وتكشف بعض صفحات من حياة هذا الشاعر حيث نجد لعمرو بن شأس شعراً في معركة القادسية في السنة ١٤ هـ مما يدل على اشتراكه فيها، ولعله كان قوياً قادراً فقد وصف لنا بلاء أسد في تلك المعركة التي قدمت كثيراً من الشهداء كما تقول الروايات(٤) ويقول عمرو بن شأس في تصوير تلك المعركة:

جَلَبْنَـا الخَيْـلَ مِـنْ أكْنَـافِ نَيْـقٍ إلى كِسْـرَى فَوافَقَهَـا رِعَـالا
وَدَاعِيَـةً بِفَـارِسَ قَـدْ تَرَكْنَـا تُبَكّـي كُلَّمَـا رأتِ الهِـلالا

---

١ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٦١.
٢ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٤١.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٨٠.
٤ـ انظر رواية الطبري عن يوم أرمات ص٥٤٠ الجزء الثالث.

قَتَلْنَــا رُسْــتُمًّا وَبَنِيــهِ قَسْــراً تُثِــيرُ الخَيْــلَ فَوْقَهُــمُ الهَيَــالا(١)

ويرجح الدكتور يحيى الجبوري أنه إذا قدرنا وفاته بعد هذه المعركة بخمسة عشر عاماً، ولدينا رواية تذكر أنه طلق زوجته أم حسان ثم ندم، وينص ابن الأعرابي على أنه قال قصيدته في زوجته في الإسلام وهو شيخ كبير والتي مطلعها:

أَلَـمْ يأْتِهـا أنـي صَحَـوْتُ وأَنَّـنِي تَحَمَّلْتُ حَتَّـى ما أُعَـارِمُ مَـنْ عَـرَمْ

يعني أنه جاوز السبعين فإذا قدرنا عمره عند وفاته ثمانين عاماً فتكون وفاته في حدود سنة ٣٠ هـ أو قبل ذلك بقليل(٢).

واختتم الحديث عن جانب الفخر عند أكبر شعراء بني أسد وهم عبيد بن الأبرص ثم بشر بن أبي خازم والثالث منهم عمرو بن شأس وجميعهم من بني ثعلبة بن دودان بالقول: إن هذا الغرض قد شغل هؤلاء الشعراء إلى حد بعيد، ولعلهم اهتموا به أكثر من غيره من الأغراض الشعرية الأخرى، ويستطيع الباحث أن يقف على مدى الارتباط الوثيق بين هؤلاء الشعراء وبين قبائلهم وقد يلحظ أن أسبقهم وهو عبيد بن الأبرص أكثرهم التصاقاً بأحداث القبيلة وذلك نتيجة للظروف التي أحاطت بها في تلك الفترة، وربما لم تكن على هذا القدر من القوة في العدة والعدد ولذلك رأيناه يبكي قتلى قومه ويرثيهم بعد وقائعهم العديدة مع الغساسنة، ثم رأيناه يجنح إلى استعمال الحيلة والدبلوماسية مع حجر بن الحارث ليشفع لقومه حيث أنه رأى أن هذا السبيل هو الأفضل في تلك المرحلة الدقيقة من حياة القبيلة.

على حين لم نجد هذه الروح لدى بشر بن أبي خازم أو عمرو بن شأس بل على العكس من ذلك فقد رأينا علواً وغلواً في وصف وتصوير قوة هذه القبيلة، ولم يكن لدى شعرائها أي ميل لاستخدام ما استخدمه عبيد من الدبلوماسية أن الجنوح للمفاوضات والمناورات، وهذا الجميح الأسدي يشير إلى يوم ذي علق بين قومه وبين بني عامر بن صعصعة قائلاً:

سَـائِلْ مَعَـدًّا مِـنَ الفَـوارِسِ لا أَوْفَـوا بِجِـيرانِهِمْ وَلا غَنِمُـوا
يَغْـدُو بِهِـمْ قَـرْزَلٌ وَيَسْـتَمِعُ النَّـا سُ إِلَيْهِـمْ وَتَخْفِـقُ اللِّمَـمُ(٣)

وها هو ذا ينذر غطفان كلها بجيش لجب عظيم:

لا تَسِـقِي إنْ لَـمْ أَزُرْ سَـحَراً غَطَفَـانَ مَوْكِـبَ جَحْفَـلٍ وُهُـمِ
لَجِـبٍ إذا ابتَـدَرُوا قَنَابِلَـهُ كَنَشـاصِ يَـوْمِ المِـرْزَمِ السَّـجِمِ
مِجَـرٍ يَغُـصُّ بِـهِ الفَضَـاءُ لَـهُ سَـلَفٌ يَمُـورُ عَجَاجُـهُ فَخِـمِ(٤)

---

١ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٧٠.
٢ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ١٥ ـ ١٦ وانظر أمالي القالي الجزء الثاني ص ١٨٤ وطبقات فحول الشعراء الجزء الأول ص ١٩٠ ـ ١٩٥ وانظر معجم الشعراء ص ٢٢.
٣ـ انظر المفضليات ـ طبع دار المعارف ص ٤١.
٤ـ انظر المصدر السابق ص ٣٦٦.

ولعل الجميح هنا لا يلوح بالكثرة العددية، وحدها بل لا بد لهذه الكثرة من سلاح وعدة من خيل أصيلة مدربة وسلاح وفير من سيوف ودروع وغير ذلك مما تستلزمه المعارك.

والواقع أن الخيل تمثل جانباً مهماً في حياة بني أسد رأيناهم يكثرون من الحديث عنها، ويفيضون في ذكر صفاتها ويفخرون باقتناء النجائب منها. فإذا كنا رأينا عبيداً قد جعل منها حصوناً تحميهم من غزو الأعداء وسحيماً يجعلها ملجأ يهرع إليه ساعة الخطب، فهذا عمرو بن شأس يفتخر بأن قومه معروفون برجاحة حلومهم كما هم معروفون بجيادهم المسومة الكريمة التي تذود الأعداء عن راكبيها يقول عمرو بن شأس:

لَقَدْ عَلِمَتْ بنو أَسَدٍ بأَنّا ... أُولُو الأَحْلامِ إنْ ذَكَرُوا الحُلُومَا
وأَنّا النّازِلُونَ بِكُلِّ ثَغْرٍ ... وَلَوْ لَمْ تُلْفِهِ إلاّ هَشِيمَا
تَرَى فينا الجِيادَ مُسَوَّماتٍ ... مَعَ الأَبْطَالِ يَمْلُكْنَ الشَكِيما
تَرَى فِينا الجِيادَ مُجَلَّحاتٍ ... فَتَنْهَنِهُ عَنْ فَوارِسِها الخُصُوما[١]

وليس من المستغرب أن يحتفل الأسديون بالخيل ويكرموها فقبيلة حربية على النحو الذي مر بنا لا بد لها من الأخذ بالأسباب التي تمكنها من النيل من أعدائها. وما من منكر بأن الخيل من أهم وسائل الحرب في ذلك الزمن وعليها قد تتوقف نتيجة المعزكة. ولم يكن الشاعر الأسدي يذكر الخيل في ساعة الحرب وحدها بل كان يذكرها في ساعات فراغه وهدوء نفسه، ويرى فيها مصدراً للجمال والوفاء والحب، فهذا حاجب بن حبيب الأسدي يثور لمجرد أن زوجته عرضت عليه أن يبيع فرسه واخذ يعدد لها مناقبه وصفاته.

باتَتْ تَلُومُ عَلَى ثَادِقٍ ... لِيُشْرَى فَقَدْ جَدَّ عِصْيانُها
أَلا إنَّ نَجْواكِ فِي ثادِقٍ ... سَواءٌ عَلَيَّ وَإِعْلانُها
وَقالَتْ أَغْثْنا بِهِ إنَّنِي ... أَرَى الخَيْلَ قَدْ ثابَ أَثْمانُها
فَقُلْتُ أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّهُ ... كَرِيمُ المَكَبَّةِ مِبْدانُها
كُمَيْتٌ أُمِرَّ عَلَى زَفْرَةٍ ... طَوِيلُ القَوائِمِ عُرْيانُها
تَراهُ عَلَى الخَيْلِ ذا جُرْأَةٍ ... إذا ما تَقَطَّعَ أَقْرانُها[٢]

وإزاء هذا الاحتفاء الشديد من قبل شعراء بني أسد بالخيل وعدة الحرب، وعدم جنوحهم إلى السلم وصوت القوة المتعاظم على ألسنتهم نستطيع القول: إن هذه القبيلة قد تكاثر عددها وأمست قوة يحسب لها حسابها في نجد كلها. فهي لم تعد تلك القبيلة القليل عددها الهين أمرها أيام بطش حجر بن الحارث بها.

وقد توفر لقبيلة بني أسد في هذه الفترة من تاريخها شعراء فحول أمثال بشر بن أبي خازم ــ وقد سبق الحديث عنه في هذا الفصل ـ والجميح الأسدي، وحاجب بن حبيب، وغيرهم ـ ممن سنأتي على

ـــــــــــــ

١ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٦١ ـ ٦٢.
٢ـ انظر المفضليات ص ١١٠.

ذكرهم في هذا الفصل - حتى بلغ الأمر بأحدهم أن يذبح ولدين من أولاد عمرو بن هند ملك الحيرة كما تشير الرواية(١).

والمتتبع لشعر هذه القبيلة في تلك الفترة يلاحظ أن بني أسد - على الرغم من قوتهم وكثرة عددهم وبسط نفوذهم على بعض من يليهم من القبائل الصغيرة - لم يبغوا ولم يفتروا بكل ذلك، فالقوة لها مكانها والعقل له مكانه وما لم يحل بالحلم والرؤية يوكل أمره إلى السيوف القاطعة والرماح المثقفة. وها هو ذا شاعرهم عباد بن أنف الكلب الصيداوي الأسدي يشير إلى ذلك قائلاً:

دَفَعْنَا طَرِيفاً بِأَطْرافِنَا ... وبالرَّاحِ عَنَّا وَلَمْ تَدْفَعُونَا
فَلَمْ يَبْقَ إلا التي حاوَلُوا ... وخِفْنَا وَأَحْرِ بها أَنْ تَكُونَا
فَإِنْ كَانَ فِيكُمْ لَكُمْ ثَرْوَةٌ ... فإنّا عَدِيدٌ وَإِنْ كانَ دونَا
وإنّا إذَا قابَلَتْنَا السُّيُوفُ ... وَقَدْ هَاجَتِ الْحَرْبُ ضَرْبًا ثُبِينَا
وَطَاحَ الرَّئِيسُ وهادِي اللِّوَاء ... ولاَ تَأكُلُ الحَرْبُ إلاّ سَمِينَا
وأَعْصَمَ بالصَّبْرِ أَهْلُ البَلاءِ ... فَإِنّا هُناكَ كَمَا تَعْلَمُونَا(٢)

ولعلنا نستطيع القول: إن الشاعر الأسدي - في تلك الفترة - يقدر حق التقدير الظروف التي كانت تمر بها القبيلة، فيعلوا صوته بعلو شأنها ويخفت بخفوت نجمها.

وتحدثنا الروايات عن شعراء كثيرين وكذلك شاعرات من بني أسد يقرب عددهم من أربعين شاعراً وشاعرة، ولكن - للأسف - لم نقع على أشعارهم كاملة في كتب التراث المتوفرة بين أيدينا. وكل الذي عرفناه عنهم بعض الأخبار المبتورة وبعض من الشعر لا يتجاوز عدد أبياته أصابع اليد الواحدة، خلا ثلاثة شعراء أحرار وهم: الجميح الأسدي، وحاجب بن حبيب الأسدي، والكميت بن معروف الأسدي، فقد أوردت المصادر القديمة لهم بعض القصائد التي نجت من الضياع، ولذلك فإننا سنقف عند كل منهم وقفة لنطل على أهم الأفكار والمعاني والصور عندهم. وأما الباقون من شعراء هذه القبيلة فقد ارتأينا أن نجمعهم في ملحق أشعار يلحق بهذا البحث عسى أن ينتفع به من أراد الإطلاع على أشعار هذه القبيلة وقد أخذنا من أشعار هؤلاء الشعراء بعض الشواهد التي كنا نحتاجها في أثناء دراستنا لشعر هذه القبيلة وإنما وقع اختيارنا على الثلاثة الذين - أسلفنا ذكرهم لرؤيتنا أن الصورة الشعرية واضحة إلى حد كبير فيما جاء لهم من شعر.

---

١- انظر معجم الشعراء ص ١٩ حيث يقول الأشعر الرقبان بعد أن سرق ولدين من أولاد عمرو بن هند وقتلهما بدم أخ له كان قد قتله عمرو:

انا كذلك كان عادتنا ... لم نغض من ملك على وتر

٢- انظر الأشباه والنظائر الجزء الأول ص ٨٨.

## ولنبدأ بالجميح الأسدي:

وهو - كما أورد نسبه المفضل الضبي - منقذ ابن الطماح بن قيس بن طريف بن عمرو ابن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة.

وتضيف الرواية: بأن الجميح "وهو لقبه" أحد فرسان بني أسد يوم "جبلة" وبه قتل. وكان من الفرسان المعدودين، وهو صاحب الغارة على ابل النعمان بن ماء السماء، ويوم شعب جبلة كان قبل الإسلام بحوالي خمسين سنة كما يذكر صاحب النقائض(1) وأبو الجميح هو الطماح بن قيس، صاحب امرئ القيس الذي دخل معه بلاد الروم ووشى به إلى الملك بعد ما صار له الملك إلى ما يحب فتنكر له وقتله، وإياه عنى امرؤ القيس بقوله:

لَقَدْ طَمِحَ الطَّمَّاحُ مِنْ بُعْدِ أَرْضِهِ  لِيُلْبِسَنِي مِنْ دائِهِ ما تَلَبَّسا(٢)

ويلتقي الجميح مع سابقيه من شعراء بني أسد المشهورين في الحارث بن ثعلبة.

وقد ضنت علينا كتب الأدب بأخباره وأشعاره، فلم يصل إلينا سوى ثلاث قصائد فقط. الأولى في مخاطبة "أمامة" زوجة ويبدو أنه قالها في أخريات حياته، وقد مرت دراستها في هذا البحث - عند الحديث عن العلاقات الأسرية للشاعر الأسدي - والثانية في رثاء سيد من بني أسد يدعى نضلة بن الأشتر الأسدي ويتعرض فيها لهجاء بني عبس ويذكر غدرهم بنضلة وأما الثالثة فهي في الهجاء أيضا حيث صور فيها غدر بني عامر بن صعصعة بخالد بن نضلة الأسدي.

وجاءت القصائد الثلاث في كتاب "المفضليات" والواقع أن ما جاء من شعر هذا الشاعر - على قلته - يكشف لنا عن جوانب كثيرة من حياته، كما يلقى بعض الضوء على فنية هذا الشاعر الأسدي.

إن قصيدتي الجميح جاءت في الهجاء يقول في الأولى:

سائِلْ مَعَدّاً: مَنْ الفَوارِسُ لا  أَوْفَوا بجيرانِهِمْ وَلاَ غَنِمُوا
يَغْدو بِهِمْ قُرْزَلٌ وَيَسْتَمِعُ الـ  ـناسُ إِلَيْهِمْ وَتَخْفِقُ اللِّمَمُ
رَكْضاً وَقَدْ غادَرُوا ربيعَةَ فِي الـ  ـآثارِ لَمَّا تَقارَبَ النَّسَمُ
فِي كَفِّهِ لَدْنَةٌ مُثَقَّفَةٌ  فِيها سِنَانٌ مُحَرَّبٌ لَحِمُ
لَوْخافَكُمْ خالِدُ بْنُ نَضْلَةِ نَـ  ـجَّتْهُ سَبُوحٌ عِنانُها خَذِمُ
جَرْداءُ كالصَّعْدَةِ المُقامَةِ لا  قُرٌّ ذوى مَتْنَها ولا حَرِمُ
والحارِثُ المُسْمِعُ الدُّعاءَ وفي  أَصحابِهِ مَلْجَأٌ وَمُعْتَصَمُ
يَغْدُو بِهِ قارِحٌ أَجَشُّ يَسُو  دُ الخَيْلَ نَهْدٌ مَشَاشُهُ زَهِمُ

---

١- انظر النقائض طبع ليدن ص ١٣٠.

٢- انظر ديوان امرئ القيس ص ١٠٨.

مُدَّرِعــــاً رَبْطَـــــةً مُضاعَفَـــــةً كـــــالنُّهى وَفيَّ سَـــرَارَةُ الرِّهَـــــمُ
فِـدًى لِسَـلْمَى ثَوْبـــايَ إذْ دَنِـسَ الــ قَـــوْمُ وإذْ يَدْسُـــمُونَ مـــا دَسَـــمُوا
أنتُـــمْ بَنـــو المــرأةِ الّتــي زَعَــمَ الــ نّــاسُ عَلَيْهَـا فِـي الغَـــيِّ مـا زَعَمُــوا
يَمــرُجُ جـــارُ اســـتِها إذا وَلَـــدَتْ يَهـدِرُ مِـنْ كـلِّ جـانبٍ خُضُـــمُ
وأمُّهـــا خَـــيْرَةُ النســـاءِ عَلَـــى مـا خـانَ مِنْهـا الدُّحـاقُ والأَتَــمُ
تَشْــمِذُ بـــالدِّرْعِ والخِمـــارِ فـــلا تَخْـرُجُ مـن جـوفِ بَطنِها الرَّحِـمُ(١)

لا شك في أن هذه الصورة هي من أقذع صور الهجاء عند شعراء بني أسد جميعاً ـ إن لم نقل عند الجاهليين عموماً ـ انه هجاء فاحش لبني عامر في يوم ذي علق "وكانوا قد التقوا ببني أسد فانهزموا، فتبعهم خالد بن نضلة الأسدي والحارث بن خالد بن المضلل فخرج إليهم ملاعب الأسنة عامر بن مالك في نفر من أصحابه، فتهادنوا ثم غدر بنو عامر بخالد فقتلوه فهجاهم الجميع وعيرهم بغدرهم، ثم اشتط في هجائه متناولاً أعراضهم.

أنتـم بنـو المـرأة الـتي زعـم الــ نـاس عليهـا في الغـي مـا زعمـوا

ثم صور أمهم بصور مقذعة نمتنع عن تسجيلها، بيد أننا نتساءل عن سر الخصومة بين بني أسد وبني عامر وهل هي التي حدت بالجميح أن يشتط في هجائه إلى هذا الحد؟

في الواقع: إن العداء بين بني أسد وبين بني عامر قديم، وقد رأيناه منذ أيام عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم، وذكرهما ليومي "النسار" و "الجفار" ولا شك في أن الأيام التي كانت بين القبيلتين قد تركت في النفوس آثاراً عميقة، ومواجد في الأفراد، وأحقاداً وضغائن كثيرة. وليس من المستغرب أن يبالغ الجميع في هجاء بني عامر وأن يفحش لهم بالقول ـ مما يدلنا على عمق العداوة بين الطرفين ـ ولعلنا نتلمس الفرق الواضح بين هجائه هذا لبني عامر وبين الهجاء الذي هجا به بني عبس، فعلى الرغم من أن الدافع في المرتين كان واحداً إلا أننا نلحظ الاعتدال في هجاء الجميع لبني عبس الذين قتلوا نضلة بن الأشتر الفقعسي الأسدي، الذي كان بجوارهم، إلا أنهم غدروا به لثأر بينهم وبين بني أسد، وبلغ الخبر بني أسد فغضب الجميح لغدرهم فهجاهم وعاب عليهم عدم مراعاتهم لجوارهم، إلا انه لم يذهب مذهب الفحشى في التصوير كذلك الذي رأيناه في هجائه بني عامر.

يقول الجميح:

يـا جـارَ نَضْلَـةَ قَـدْ أَنَـى لَـكَ أنْ تَسْـعَى بجـارِكَ في بَنِـي هِـدْمِ
مُتَنظِّمــينَ جـوارَ نضلَـةَ يـا شَـاءَ الوُجـوهِ لذلـكَ النَّظْـمِ
وَبَنُـو رَواحَـةَ ينظُـرونَ إذا نَظَـرَ النَّـدِيُّ بـآنُفٍ خُشْـمِ
حـاش أبـا ثَوْبـانَ إنّ أبـا ثَوْمـانَ ليـس بِبُكْمَـةٍ فَـدْمِ
عمـرو بـنَ عبـد اللهِ إنَّ بِـهِ ضِنّـاً عـن المَلْحَـاةِ والشَّـتْمِ

---

١ـ انظر المفضليات ص ٤١ ـ ٤٣.

لا تسقِني إنْ لَمْ أُزِرْ سَحَراً ... غَطَفَانَ موكِبَ جَحْفَلٍ دُهُمِ
لَجِبٍ إذا ابتدُّوا قنابلَهُ ... كَنَشلصِ يوم المِرْزَمِ السُّجُمِ
مَجْرٍ يَغُصُّ الفَضَاءُ لَهُ ... سَلَفٌ يمورُ عَجاجُهُ فَخْمِ
يَنْعَونَ نَضْلَةَ بالرِّماحِ عَلَى ... جُرْدٍ تَكَدَّسُ مِشْيَةَ العُصْمِ
مِنْ كُلِّ مُشْتَرِفٍ ومُدْمَجَةٍ ... كالكَرِّ مِنْ كُمْتٍ ومِنْ دُهْمِ
حتَّى أجازى بالذي اجترَمَتْ ... عبسٌ بأسْوَاءِ ذلكَ الجُرْمْ
يا نَضْلَ للضَّيْفِ الغَرِيبِ وَلِلْـ ... جَارِ المَضيمِ وحامِلِ الغُرْمْ
أوْ مَنْ لأشْعَثَ بعلِ أرْمَلَةٍ ... مِثْلِ البَلِيَّةِ سَمْلَةِ الهِدْمِ(١)

إن الصورة في هذه القصيدة لتختلف ـ تماماً ـ عن سابقتها، فهي صورة لا تتسم بالفحش والإقذاع، والشاعر فيها لم يتجاوز الحدود المعقولة في مثل هذه الحالات، ولعلنا نلاحظ أن بقية القصيدة تعلوها نبرة التهديد والوعيد لبني عبس، فقد مضى الجميح يتوعد غطفان كلها ـ وليس عبساً وحسب ـ بحرب شعواء وبجيش عظيم العدد والعدة من قومه بني أسد ثأراً لنضلة منهم، وبعد هذا الاستعراض والزهو بقوة بني أسد وبكثرة عددها وامتلاكها السلاح والخيل المسومة يعود الشاعر إلى نضلة فيعدد خصاله الحميدة ومآثره التي عرف بها.

والواقع أن التلويح بقوة بني أسد ظاهرة في شعر الجميح فقد رأيناه في هجائه لبني عامر منذ قليل، مما يدل على قوة وسطوة هذه القبيلة في ذلك الحين، ولعلنا نتبين أن الهجاء قد اقترن عنده بالتهديد والوعيد والتباهي بالقوة، وهذه الظاهرة نستطيع أن نتلمسها عند شعراء بني أسد جميعاً، فهم يقرنون الهجاء بذكر انتصاراتهم السابقة على الخصوم، وكأنهم يربطون بين الهجاء والحماسة. ولعلنا لاحظنا دعوة الجميح للأخذ بالثأر والحرب، ويمكننا أن نلمح تلك الثقة المطلقة بالنصر برغم أنه يهدد غطفان كلها، والقارئ لقصيدة الجميح يظن أنه أمام لوحة لاستعراض القوة وإعجاب بمظاهر تلك القوة، بل أكثر من هذا فهو يعزي الأسديين بالحرب ويحببها إليهم، ولعل كون الشاعر فارساً معدوداً من فرسان بني أسد وسيداً من ساداتها كان له أثر في دعوته السافرة إلى الحرب، وفي ثقته بالنصر الأكيد على بني عبس، على حين لم نلحظ هذه الثقة في نفس الجميح وهو يهجو بني عامر، بل وجدناه يلجأ إلى الإقذاع بالقول وتناول الأعراض والسب والشتم ويحق لنا أن نتساءل لماذا؟

وقبل الإجابة على السؤال فنحن نريد إلقاء نظرة على كنه العلاقة التي تربط بني أسد ببني عامر: فالمعروف أن العداوة متأصلة بين الطرفين منذ أمد طويل، وقد أشار بني أسد إلى أكثر من انتصار على بني عامر، وبالمقابل فإننا لا نجد الانتصارات التي حققها بنو عامر على بني أسد في أشعار الأسديين، ولا نشك في أن بني عامر كانوا أقوى شكيمة وأصعب مراساً في الحروب، وبخاصة في حروبهم مع بني أسد الأمر الذي لا يجهله الجميح، ولعله هو الذي حدا به إلى هذا الشتم وذلك الإقذاع وعدم الدعوة إلى الحرب، لأنه يعلم أن حرب بني عامر ليست نزهة مريحة فعبر عن ذلك كله بصورة بذيئة كالتي رأينا.

ولعل التفسير المنطقي لاستهانة الجميح ببني عبس وبغطفان من ورائها يكمن في أن هذه القبيلة

---

١ـ انظر المفضليات ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨.

كانت تعاني من تشتت داخلي حين ذاك، أو أنها كانت قليلة العدد والعدة نتيجة لكثرة صرعاها في الحروب وبخاصة حرب داحس والغبراء التي أنهكت قواها.

ويستطيع الباحث أن يحدد ملامح شخصية الجميح من خلال ما ورد له من شعر - وهو قليل - فنحن نطالع صورة هذا الفارس السيد الذي يدعو إلى الحرب بيسر وسهولة، نطالع صورته في قصيدته الثالثة - وهي الأخيرة - شيخاً فقيراً يعاني من مشكلات في داخل بيته لقلة المال - وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الموقف في مكان آخر من هذا البحث - إلا أن الذي نهدف إليه هو إظهار أن الجميح على الرغم مما وصلت إليه حاله من سوء - قد ظل مزهواً بالقوة والفروسية، وان صحت الرواية القائلة: انه قتل في يوم جبلة. فمعنى ذلك انه شارك في هذا اليوم وهو شيخ كبير طاعن في السن - وعلى قلة ما جاء له من شعر - برغم عمره المديد هذا - يمكننا أن نظفر منه ببعض الظواهر الفنية. فالشاعر لا يبدأ أيا من قصائده الثلاث بمطلع طللي أو غزلي - مثلما هو متعارف عليه عن أغلب الشعراء الجاهليين بل يصور لنا بعض جوانب من حياته الخاصة أو من حياة قبيلته، وهو يطرق الغرض المقصود مباشرة دون أية مقدمات، ونلاحظ على هذا الشاعر - أيضاً - نزعته الفردية الواضحة التي توازي نزعته القبلية على الفردية برغم وجود الأخيرة، ولكننا نراها عند الجميح حية حتى وهو يتحدث عن الجماعة. يقول:

لَا تَسْقِينِي إنْ لَمْ أَزُرْ سَحَرا ... غَطفانَ مَوْكِبَ جَحْفَلٍ دَهِمِ

وكأنه هو الآمر الناهي أو هو الذي يمثل جيش بني أسد كله ولم نجد لضمير الجماعة وجوداً عنده يعود مرة أخرى في القصيدة ذاتها إلى استخدام ياء المتكلم فيقول:

حَتّى أُجَازِي بالذّي اجْتَرَمَتْ ... عَبْسٌ بأَسْوأَ ذلكَ الجُرمِ

إن اهتمام الجميح بتصوير الجانب الذاتي أكثر من الجانب القبلي يمثل ظاهرة شاذة في شعر بني أسد، فنحن لم نتعود منهم هذه اللهجة، ونحن لا ننكر وجود الفردية في الشعر الجاهلي ولكنها كانت في المرتبة الأضعف دائماً، ولعل كون الجميح من سادة بني أسد هو الذي دفعه إلى هذا الاعتداد الفردي الحاد، وطغيانه على جانب الجماعة في شعره حتى انه ليخيل إلينا أن بني أسد هي المنقادة لرأي الجميح، وأن الجميح لا يمثل مجرد فرد من ألوف الأفراد في القبيلة، وأن رغباته هي رغبات القبيلة لا العكس.

أما الشاعر الأسدي الذي سنقف معه في الصفحات التالية فهو "حاجب بن حبيب الأسدي" وقد أورد له المفضل الضبي قصيدتين فقط، وضنت علينا المصادر الأخرى بأخباره وبشعره. وهو حاجب بن حبيب بن خالد بن قيس بن المضلل بن منقذ بن طريف ابن عمرو بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة[1] ويجتمع مع سابقيه في الحارث بن ثعلبة - أيضاً - ويبدو أن شعره ضاع كما ضاع شعر سابقه الجميح فلم يصل إلينا سوى ما جاء في المفضليات (ولم أقع لهما على شعر فيما وصل إلى يدي من مصادر هذا البحث).

وقصيدته الأولى تصور لنا اعتزازه بفرسه "ثادق" ويستفاد منها - كما هو الحال عند الجميح -

١- انظر المفضليات ص ٣٦٨ - ٣٧٠.

شيء عن الحياة الأسدية وما كان يدور من الحوار بين الرجل والمرأة في سياسة المال، وقد ساقها الشاعر بأسلوب قصصي شيق. وقد سجل الشعراء ما كان بينهم وبين أزواجهم من خصومات ونزاع بسبب الخيل وإكرام الشعراء لهذه الخيول بشكل مفرط حتى أنها لتفوق إكرامهم لأولادهم في بعض الأحيان يقول أحدهم:

مُغَبَّدَاةٌ مكَرَّمَةٌ علينَا ... يُجَاعُ لَهَا العِيَالُ ولا تُجَاعُ(١)

وما ذام الفرس يحتل مثل هذه المكانة في نفس العربي الجاهلي، فلا غرو أن يكثر الشعراء من الحديث عنه وإبراز ما فيه من قيم فنية وجمالية ووجدانية تتصل بالنفس البشرية. يقول حاجب بن حبيب الأسدي في تصوير فرسه:

بَاتَتْ تَلُومُ عَلَى ثَادِقٍ ... لِيُشْرَى فَقَدْ جَدَّ عِصْيَانُهَا
أَلا إنَّ نَجْوَاكِ فِي ثَادِقٍ ... سَوَاءٌ عَلَيَّ وإعلانُهَا
وقَالت أَغشْنَا بِهِ إنَّنِي ... أَرَى الخَيْلَ قَدْ ثَابَ أَثمانُهَا
فَقُلْتُ أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّهُ ... كَرِيمُ المَكَبَّةِ مِبْدانُهَا
كُمَيْتٌ أُمِرٌّ عَلَى زَفْرَةٍ ... طَوِيلُ القوائِمِ عُرْيانُهَا
تَرَاهُ علَى الخَيْلِ ذا جُرأَةٍ ... إذا مَا تَقَطَّعَ أَقرانُهَا
وَهُنَّ يَرِدْنَ وُرودَ القَطَا ... عُمَانَ وَقَدْ شُدَّ مُرَّانُهَا
طويلُ العِنَانِ قليلُ العِشَا ... رِ خَاظِي الطريقَةِ ريَّانُهَا
وقلتُ: أَلَمْ تعلمي أَنَّهُ ... جَمِيلُ الظَّلاَلَةِ حُسَّانُهَا
يَجُمُّ علَى السَّاقِ بَعْدَ المِتَانِ ... جُمُومًا وَيَبْلُغُ إمكانُهَا(٢)

وإذا كان الشعراء الجاهليون ـ بعامة ـ قد رأوا في نوقهم ورواحلهم وسيلة لتفريج الهم وقطع الصحراء والمفاوز، وكانت رمزاً من رموز القوة والصلابة فان صورة الفرس قد أخذت ـ هنا ـ أبعادا أخرى، بالإضافة إلى القوة والجرأة والكفاءة في الحروب، فلقد تعاطفت نفس الشاعر مع هذا الحيوان الجميل، وأبرزت ألواناً من الجمال في الشكل والمضمون، ونحن نشعر بعاطفة قوية من الحب ربطت بين حاجب بن حبيب وبين فرسه ثادق. ونستطيع تبين مشاعر الشاعر تجاه فرسه ومدى اعتزازه وتقديره له من خلال حديثه عن صفاته الكريمة وإبراز نقاط الجمال فيه. ولعل هذا التكرار في البيتين الأول والثاني لاسمه "ثادق" دليل على تعلق الشاعر به.

ولا شك في أن البيئة الاجتماعية قد أسهمت في رفع منزلة الفرس في النفوس، فهو وسيلة للهجوم والدفاع عن القبيلة، وفي الوقت نفسه وسيلة لكسب الرزق والصيد، بالإضافة إلى الاعتداد بها بوصفها مالا فلم يكن عند العرب من مال سوى الخيل والإبل.

واللافت للنظر ـ عند شعراء بني أسد الجاهليين ـ انهم كانوا على قدر كبير من العناية بالخيل وأنسابها، والتباهي باقتناء النجيبة منها ابتداء من أقدم شعرائهم عبيد ابن الأبرص وانتهاء بعمرو بن

---

١ـ انظر بلوغ الأدب لمحمود شكري الألوسي الجزء الثاني ص ٨١ وينسب الشعر إلى عبيدة بن ربيعة التميمي.
٢ـ انظر المفضليات ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

شأس في أواخر العصر الجاهلي وبداية العصر الإسلامي، وقد مر بنا أكثر من صورة لكل منهم في هذا البحث مروراً ببشر بن أبي خازم والجميح و حاجب بن حبيب وسحيم عبد بني الحسحاس.

والواقع أن بيئة هذه القبيلة، وظروفها الاجتماعية، وعلاقاتها مع القبائل الأخرى كل هذه العوامل ساعدت على أن يهتم شعراء هذه القبيلة بالخيل، وأن يفيضوا في وصفها وتصويرها، وكأنهم يريدون من وراء ذلك إلقاء الرعب في نفوس الأعداء وإغراءهم بعدم القتال لأن النتيجة معروفة.

ومما يلاحظ على تصوير هذا الشاعر لفرسه إبرازه للنواحي الجمالية بصورة أوضح كثيراً من بقية شعراء بني أسد، وقد نهج نهجاً مختلفاً عنهم في حديثه عن فرسه، وكأن الموقف الذي كان فيه حاجب قد سمح له بمثل هذا الحديث الهادئ المفصل الذي لم نظفر بمثله عند غيره من شعراء القبيلة الذين كانوا يتحدثون - غالباً - عن خيولهم في موقف فخر أو تهديد أو عيد مما لا يسمح لهم بالتفصيل الكافي ولا في إبراز النواحي الجمالية الأخرى. أما حاجب فقد اختلف الأمر معه فالحديث - على ما يبدو - كان يدور في وقت سلم ولذلك جاءت صوره متقنة، وقد لمس فيها الشاعر كل مواطن الجمال في هذا الحيوان، وكأنه كان يتأمله ويطيل النظر إليه. ونراه لا يركز على الصفات الدالة على القوة بالقدر الذي ركز فيه على نواحي الجمال في فرسه. فهو يكتفي بالقول:

تَـــرَاهُ عَلَـــى الخَيْـــلِ ذَا جُـــرْأَةٍ ... إذَا مَـــا تَقَطَّـــعَ أَقْرَانُهـــا
وهـــنَّ يَـــرِدْنَ ورود القَطَـــا ... عمـــانُ وَقَـــدْ ســـدّ مُرَّانُهـــا

وأما القصيدة الثانية لحاجب بن حبيب فهي تبدأ بالتشبيب المبتور بحبيبة الشاعر "جمل"، ومن ثم ينتقل الشاعر إلى وصف ناقته الجسور، ويشبهها بثور وحشي يبحث عن مورد ماء فلا يظفر به إلا بعد لأي، ثم يختم الشاعر قصيدته بمدح جيران له. يقول حاجب:

أعلَنْـــتُ في حُـــبِّ جُمْـــلٍ أيَّ إعـــلان ... وَقَـــدْ بَـــدا شَـــأْنُها مِـــنْ بَعْـــدِ كِتْمـــان
وقـــد ســـعى بيْنَنـــا الواشـــوْنَ واختَلَفُـــوا ... حتَّـــى تَجنَّبْتُهـــا مِـــنْ غَـــيْرِ هِجْـــران
هَـــلْ أُبلُغَنْهـــا بِمِثْـــلِ الفَحْـــلِ ناجيـــةٍ ... عَنْـــسٍ عُـــذا فِـــرَةٍ بـــالرَّحْلِ مِذْعـــان
كأنَّهـــا واضِـــحُ الأَقـــرابِ خَـــلاَّ لَهُ ... عَـــنْ مـــاءِ مـــا وانَ رامِ بَعْـــدَ إمْكـــان
فجـــالَ هـــافٍ كَسَـــفُّودِ الحَديـــدِ لَـــهُ ... وَسْـــطَ الأَمـــاعِزِ مـــن نقـــعٍ جنابـــان
تهـــوى ســـنابكُ رجليـــه مُحَنَّبَـــةً ... في مُكْـــرَةٍ مِـــنْ صفيـــحِ القُـــفِّ كَـــذَّانَ
ينتـــابُ مـــاءَ قُطَيَّـــاتٍ فأخلَفَـــهُ ... وكـــانَ مـــورِدُهُ مـــاءٌ بحَـــوْرانِ
تَظَـــلُّ فيـــهِ بَنـــاتُ المـــاءِ أَنْجِيَـــةً ... كَـــأَنَّ أَعْيُنَهـــا أَشْـــباهُ خِيـــلاَن
فَلَـــمْ يَهُلْـــهُ ولكـــنْ خـــاضَ غَمْرَتَـــهُ ... يَشْـــفِي الغَلِيـــلَ بعـــذْبٍ غـــيرِ مِـــدّان
وَيْـــلُ أُمِّ قـــومٍ رأيْنـــا أَمْـــسِ ســـادَتَهُمْ ... في حادثـــاتٍ أَلَمَّـــتْ خَـــيْرَ جِـــيَران
يرْعَيْـــنَ غِبًّـــا وإنْ يَقْصُـــوْنَ ظـــاهِرَةً ... يَعْطِفْ كِرامٌ على مـا أحـدثَ الجـاني
والحارِثـــانِ إلى غايـــاتِهِمْ سَـــبَقا ... عَفْـــواً كمـــا أحـــرزَ السَّـــبْقَ الجَـــوادانِ

والمُعْطِيانِ ابتِغاءَ الحَمْدِ مالَهُما والحمدُ لا يُشتَرى إلاّ بأثمانِ[1]

والواقع أن المصادر ـ التي بين أيدينا ـ لم تسعفنا بأخبار هذا الشاعر الأسدي الجاهلي، ذلك أن أحداً لم يرو له غير هاتين القصيدتين اللتين رواهما له المفضل الضبي ـ وقد تعرضنا لهما بالدراسة في غير هذا الموضع من البحث ـ ويمكننا أن نضيف هنا ما يمكن أن نستدل به على أن حاجباً عاش في شمال نجد بين قومه من بني أسد ولعل الأمكنة التي ذكرها حاجب في هذه القصيدة توضح لنا شيئاً من هذا، فهو يذكر ماء قطيات وماء حوران وكلاهما في شمال شبه الجزيرة العربية وهما أقرب للشام منهما إلى الحجاز ونجد وذلك يتفق مع ما ذكرناه من منازل بني أسد، وبخاصة بنو ثعلبة بن الحارث رهط الشاعر الذين كانت لهم مناوشات عديدة مع الغساسنة في تلك البقاع[2].

أما الحارثان اللذان يمدحهما الشاعر فلا نعرف عنهما شيئاً يذكره إلا انه من الواضح أنهما كانا يجاوران رهط الشاعر في تلك البقاع وأن لهما من حسن السيرة والجوار وكرم الأخلاق ما دعا الشاعر إلى أن يمدحهما ويثني عليهما لأننا لم نتعود من شعراء بني أسد التملق في المدح والتكسب بالشعر ـ خلا تلك الظاهرة التي رأيناها في شعر بشر بن أبي خازم في مدح أوس بن حارثة الطائي، وقد كان لبشر أسبابه الخاصة التي دعته إلى ذلك المدح وقد ناقشناها في أثناء دراستنا لهذا الشاعر في هذا البحث.

ونستشف من شعر حاجب بن حبيب الأسدي شيئاً آخر يختص بحياة هذه القبيلة. وهو أنها قد مرت بفترة سلام وهدوء في تلك الآونة مما يجعلنا نرجح أن هذا الشاعر يأتي ترتيبه الزمني بعد بشر بن أبي خازم، فإذا كان بشر قد أدرك حروب الفجار وشارك فيها، بكون حاجب بن حبيب قد عاش معاصراً له أو بعد ذلك بقليل، وعلى هذا فهو قريب العهد بالإسلام وهذه هي الفترة الوحيدة ـ فيما نعلم ـ التي نعمت فيها هذه القبيلة بشيء من الهدوء النسبي أي في أواخر القرن السادس الميلادي.

كما يبدو لنا حاجب بن حبيب الأسدي رجلاً متزناً يقيس الأمور بمقياس العقل، ولا يشذ عن ناموس الجماعة، أو يخرق ما تواضع عليه من أعراف وتقاليد، فهو يذعن لرأيهم حتى لو كانوا من الوشاة الذين يريدون الوقيعة بينه وبين من يحب، ويحسن جوار الناس ويمدح حسن المعاملة في غيره ـ كما رأينا ـ ولعله الشاعر الأسدي الوحيد الذي نصادف في شعره مثل هذه المواقف الهادئة البعيدة عن جو الطعن والحرب والوعيد، فالشاعر الأسدي ـ بوجه عام ـ كان داعية حرب على الدوام وبوق دعاية للقبيلة الأمر الذي افتقدناه في شخصية حاجب بن حبيب الأسدي.

ومن شعراء بني أسد الأحرار الشاعر الكميت بن معروف بن الكميت بن ثعلبة الفقعسي الأسدي[3] وقد كناه المرزباني في معجمه بأبي أيوب وعدّه من المخضرمين الذين أدركوا الإسلام[4]. وعدّه ابن سلام في الطبقة العاشرة من فحول الجاهلية[5] وقال عنه أبو الفرج

---

١ـ انظر المفضليات ص ٣٧٠ ـ ٣٧١.

٢ـ انظر مواطن القبيلة في هذا البحث.

٣ـ انظر الأغاني طبع الدار الجزء الثاني والعشرين ص ١٤٣.

٤ـ انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ٢٣٨ ولم يذكره ابن حبيب في كتابه كنى الشعراء.

٥ـ انظر طبقات فحول الشعراء ص ١٨٩ ـ ١٩٥ طبع المدني.

الأصفهاني: انه شاعر إسلامي[١].

وقد ذهب الأستاذ عبد العزيز الميمني إلى أن الكميت مخضرم وأنه ربما عاش إلى سنة ٦٠ هـ وهي السنة التي توفي فيها معاوية بن أبي سفيان[٢]. ونحن نميل إلى الرأي الأخير ونعد الكميت بن معروف بن الكميت بن ثعلبة "الكميت الأكبر" شاعراً مخضرماً، وأنه ربما عاش إلى سنة ستين للهجرة، كما جاء في الرواية التي أوردها المرزباني وتابعه فيها الزركلي وأيدها الأستاذ عبد العزيز الميمني.

وقد ذهب أحد الباحثين المحدثين وهو الدكتور حاتم الضامن إلى أن الكميت شاعر إسلامي وأنه توفي بعد سنة ٩٦ هجرية وأنه مدح سليمان بن عبد الملك. و لم أجد ما يؤيد هذا الرأي رغم متابعتي لعديد من الروايات التي تحدثت عن هذا الشاعر الأسدي[٣].

ويمكن الرد على الدكتور حاتم بالنقاط التالية:

أولاً - إن ابن سلام كان دقيقاً في اختياره للشعراء الجاهليين والإسلاميين، وهو لم يعد الشاعر من المخضرمين إلا إذا كان قد قضى أكثر عمره في الجاهلية، ولا نظنه أخطأ هذا الخطأ عندما عد الكميت بن معروف في الطبقة العاشرة من فحول الجاهليين فهو لم يعده من المخضرمين. هذا أولاً، ثم أن الكميت بن معروف لم يرد ذكره عند خلفاء بني أمية، ولعل المقصود هنا هو الكميت بن زيد صاحب الهاشميات المشهور الذي توفي سنة ١٢٢ هجرية، إذ كيف يكون الكميت بن معروف هو صاحب قصة سالم بن دارة وقد حدثت في الجاهلية وله فيها شعر أوردناه ونورده مرة أخرى. يقول فيه:

مِـنْ مُبْلِـغٌ عُلْيَـا مَعَـدٌ وطَيِّئـاً ... وَكِنْـدَةَ مَـنْ أَصفَـى لَهـا وَتَسـمَّعا

أَبَـتْ أمُّ دينـار فَـأَصبحَ فَرْجُهـا ... حَصانـاً وَقَلَّدتُـمْ قَلائِـدَ قَوْزَعَـا

خُذُوا العَقْـلَ إنْ أَعطاكُمُ العَقْلَ قَوْمُكُمْ ... وكونُـوا كَمَـنْ سِـيمَ الهَـوانَ فَأَرْتَعـا

ولا تُكْـثِروا فِيهـا الضِّجـاجَ فإنَّـهُ ... مَحا السَّيْفُ ما قـالَ ابـنُ دارةَ أَجْمعَـا

فَمَهْمـا تَشَـأْ مِنْـهُ فِـزازَةُ تُعْطِكُـمْ ... ومهمـا تشـأْ مِنْـهُ فـزارةُ تَمنْعَـا[٤]

فكيف يكون إسلامياً عاش سنة ٩٦ هجرية؟ نحن لا ننكر أن الكميت بن معروف قد أدرك الإسلام، ولكننا نرجح أنه قد قضى أكثر عمره في الجاهلية، وله من الشعر الذي يدل على اشتراكه في بعض أيام بني أسد ووقائعهم حيث يقول:

وظلمـاءَ مِذْكـارٍ كَـأَنَّ فُروجَهـا ... قبـائِلُ مسـخٍ أترصتـه الصوانِـعُ

نَصَبْـتُ لَهـا وجهـي وصَـدْرَ مَطِيَّـتي ... إلى أَنْ بـدا ضَـوءٌ مِـنَ الصُّبـحِ سـاطِعُ

لأُبْلِـيَ عُـذْراً أَوْ لأَسْـمَعَ حُجَّـةً ... عُنِيـتُ بِهـا والمُنكِـرُ الضَّيْـمَ دافِـعُ[٥]

---

١- انظر الأغاني الجزء الثاني والعشرون ص ١٤٣.

٢- انظر سمط اللآلى الجزء الأول ص٥٤.

٣- انظر الإصابة جـ ٣ ص ٢٩٩ وانظر الأعلام للزركلي الجزء السادس ص ٩٣.

٤- انظر مجمع الأمثال للميداني الجزء الثاني ص ٢٧٩ وانظر الخزانة الجزء الرابع ص ٥٥٩ وقد نسبها للكميت بن ثعلبة. وهي في لسان العرب "مادة قزع" للكميت بن معروف وابن دارة هو سالم بن مسافع شاعر هجاء انظر أسماء المغتالين الجزء الثاني ص ١٥٦ وانظر الشعر والشعراء ص ٤٠١ من نسب إلى أمه من الشعراء. وانظر المؤتلف ص ١٦٦.

٥- انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير سنة ١٩٧٥.

ويقول:

وما لامَ قَوْمي في حِفاظٍ شَهِدْتُهُ ... نَضَالِي إذا لَمْ يأْتَلِ الغلو فارِعُ

ولا يمكن أن يكون هذا القتال بعد دخول بني أسد في الإسلام، والأرجح أن هذا حدث في الجاهلية وأن الشاعر كان رجلاً على أشده يحارب مع أبناء قبيلته.

ثانياً - إن أعشى بني أسد المسمى بخيثمة بن معروف أخو الكميت بن معروف وهو جاهلي كما تقول الروايات[1] قد رثى الكميت بن معروف في شعر له يقول فيه:

هَوِّنْ عليكَ فإنَّ الدَّهْرَ مُنْجَذِبُ ... كُلُّ امرِئٍ عَنْ أخيهِ سَوْفَ يَنْقَلِبُ
فَلا يُغَرَّنْكَ مِنْ دَهْرٍ تَقَلُّبُهُ ... إنَّ اللَّيالِيَ بالفِتْيانِ تَنْقَلِبُ
نَامَ الخَلِيُّ وبِتُّ اللَّيْلَ مُرتَفِقاً ... كَمَا تَزاوَرَ يجْنِي دِفْئَهُ النَّكِبُ
إذَا رَجَعْتُ إلَى نَفْسِي أُحَدِّثُها ... عَمَّنْ تَضَمَّنَ مِنْ أَصحابِيَ القُلُبُ
مِنْ إخْوةٍ وَبَنِي عَمٍّ رُزِئْتُهُمُ ... والدَّهْرُ فيهِ عَلَى مُسْتَعْتِبٍ عَتَبُ
عاوَدْتُ وَجْداً عَلَى وَجْدٍ أُكابِدُهُ ... حتَّى تَكادُ بناتُ الصَدْرِ تَلْتَهِبُ
وَهَلْ بَعْدَ صَخْرٍ وَهَلْ بَعْدَ الكُمَيْتِ أَخٌ ... أَمْ هَلْ يَعُودُ لَنَا دَهْرٌ فَنَصْطَحِبُ
لَقَدْ عَلِمْتُ وَلَوْ مُيِّلْتُ بَعْدَهُمُ ... أَنِّي سَأُنْهَلُ بالشُّرْبِ الذي شَرِبُوا[2]

فكيف يكون الكميت بن معروف إسلامياً؟ أبعد هذا.

وتفيدنا تلك الروايات السابقة الذكر بأن الكميت بن معروف ينحدر من أسرة معرقة في الشعر: فأبوه معروف شاعر، وأمه سعدة شاعرة، وأخوه خيثمة أعشى بني أسد شاعر، وأخوه خيثمة أعشى بن أسد شاعر، وجده الكميت بن ثعلبة شاعر. ونستدل من خلال أشعار الكميت بن معروف على أنه في المكان الرفيع من بني فقعس، وأنه من رؤوس القوم. وقد ذكر ابن سلام أنه أشعر من الكميت بن ثعلبة جده وأشعر من الكميت بن زيد الشاعر الأموي المعروف الذي توفي سنة ١٢٦ هـ[3].

وقد ذكر الآمدي أن لهذا الشاعر ديواناً من الشعر ولكنه لم يصل إلينا[4].

والواقع أن شعر الكميت بن معروف قد إختلط بشعر سميه الكميت بن ثعلبة جده، والكميت بن زيد. وقد طغت شهرة هذا الأخير عليه ولم يكن الرواة يخصون واحداً من الكمت الثلاثة في أثناء ايراد شعرهم إلا في النادر، مما خلق بعض الأوهام لدى المؤلفين والمحققين.

وسوف نتناول ما وصل إلينا من شعر الكميت بن معروف بالدراسة في الصفحات التالية لنقف على أهم ملامح هذه الشخصية الأسدية ولعلنا نستطيع أن نتلمس مواقف هذا الشاعر من قبيلته وحلفائها من خلال شعره في مثل حادثة سالم بن دارة، وغيرها من مواقف اتجاه هذه القبيلة المتعددة

---

١- انظر المؤتلف ص ١٧ - ١٨ وانظر الأغاني ج ٢٢ ص ١٤٣ وما بعدها.
٢- انظر الأغاني الجزء الثاني والعشرون ص ١٤٣ وانظر المؤتلف ص ١٧ - ١٨.
٣- انظر طبقات فحول الشعراء ص ١٩٥ وانظر معجم الشعراء ص ٢٣٧.
٤- انظر المؤتلف ص ١٥٧.

البطون والأفخاذ التي انتشرت - كما رأينا - على رقعة واسعة من الأرض، وجاورت عدداً كبيراً من القبائل، مما نشأ عن ذلك صلات وتحالفات وخصومات وحروب كثيرة استدعت من شعراء هذه القبيلة أن يقفوا للتعبير عن آرائهم في تلك الأحوال موظفين فنهم الشعري لصالح القضية العامة للقبيلة.

وتتلخص قصة سالم بن دارة وهو من غطفان أنه كان قد هجا بني فزارة — وهم من غطفان — وكانت غطفان كلها حليفة لبني أسد ثم أن دارة أم سالم هذا أسدية وعليه فان رابطة الخؤولة تربطه بهم.

ويبدو أن هذا الهجاء كان لاذعاً وقفدعاً وفيه فحش شديد وقد خص به رجلاً من فزارة يقال له ثابت بن رافع الغزاري، ونتيجة لذلك تربص ثابت ونفر من فزارة لابن دارة فقتلوه وكان الذي قتله يدعى زميل بن عبد مناف الفزاري حيث قال:

أنــا زَمِــيلُ قــاتِلُ ابــنِ دارة ... وراحِــفُ المِخْــزاةِ عَــنْ فِــزَارَة(١)

وبقتل ابن دارة دب الخلاف بين بني عبد الله بن غطفان وبين بني فزارة، وهنا يبرز دور الكميت بن معروف إذ يتدخل في هذا الغلاف بفنه الشعري وفكره الواعي لعواقب هذا الغلاف إذ استفحل أمره. ويبدو أن تدخل الكميت قد حسم ذلك الغلاف فعلاً وذلك لما له من ثقل اجتماعي وأدبي يقول الكميت بن معروف:

أَلَـمْ يَـأْتِهِمْ أَنَّ الفِـزارِيَّ قَـدْ أَبـى ... وإِنْ ظَلَمُـوهُ أَنْ يَـذِلَّ فَيَضْرَعـا
شَـرَى نَفْسَـهُ مَجْـدَ الحيـاةِ بضَرْبَـةٍ ... لِيَدْحَـضَ حربـاً أَوْ لِيَطْلُـعَ مَطْلَعَـا
خُـذُوا العَقْـلَ إنْ أَعْطـاكُمُ العَقْـلَ قَوْمُكُـمْ ... وكُونُـوا كَمَـنْ سِـيْمَ الهَـوانَ فَأَرْتَمـا
ولا تُكْـثِروا فِيهـا الضَّجَـاجَ فَإِنَّـهُ ... مَحَا السَّيْفُ ما قالَ ابنُ دارةَ أَجْمَعَا(٢)

فالكميت يقرر أن ثابتاً قد ظلم بهذا الهجاء الفاحش الذي رماه به ابن دارة ورمى به رهطه من بني فزارة، وأنه قد اشترى لنفسه المجد بهذه الضربة التي أودت بحياة الهاجي ودفع عنه الضيم والجور، وأنه بهذا قد دفع حرباً كان يمكن أن تشتعل نارها بين أبناء العشيرة الواحدة بسبب هذا الهجاء. وهو فوق ذلك قد حصر القضية في مسرب واحد وهو أن شاعراً قد هجا وأفحش في هجائه وأن المهجو ونفرا من قبيلته قد قتلوه. وكأن القضية فردية لا تخص قبيلة كاملة. ثم قدم لنا الكميت الحل الأمثل وهو: إن على رهط ابن دارة أن يقبلوا العقل مع ما فيه من هوان ومذلة، وابتداع سنة لم تألفها العرب من قبل. إن الكميت لم يحكم بالقود فالقتيل لا قود له في مثل حالة سالم بن دارة، لأنه كان البادئ بالعدوان ثم أن على بني فزارة أن يدفعوا العقل إلى رهط سالم بلا مجادلة وضجيج، وعليهم ألا يكثروا الجدل فيما قاله فيهم من هجاء فاحش لأن السيف الذي قتل سالماً قد محا كل ما قاله ابن دارة من هجاء..

١ـ انظر الشعر والشعراء ج١ ص ٣١٥.
٢ـ انظر الوحشيات ص ١١٦ والشعر والشعراء الجزء الأول ص ٣١٥ وانظر المرزباني مص ٣٢٧ وقد نسبها للكميت بن ثعلبة وقال: ان غير أبي عبيدة يرويها للكميت بن معروف وهو أولى بالصواب.

والواقع أن حكم الكميت بن معروف يدل على منطق سليم وحكمة رفيعة المستوى ووعي عالي من فكر الشاعر. ونحن على ما في هذا الحكم من مراعاة للحياة القبلية القائمة على القتل ودفع الديات والأخذ بالثأر، فإننا نلمس فكرة عدم قبول الظلم من جهة وعدم إقرار الحرب بين الأقارب من جهة ثانية. ويمكن أن يحكم حاكم في يومنا هذا بمثل ما حكم به الكميت بن معروف.

ولا يبدو الكميت حريصاً على وحدة وتماسك قبيلته وحسب، وإنما امتد به الحرص إلى الخوف على تماسك وتلاحم حلفاء بني أسد بن غطفان. وهو على أية حال فانه يمثل صوتاً من أصوات العقل في قبيلته. الحق الذي يقوم على العدل والإنصاف وليس الذي يقوم على الجور والظلم يقول الكميت حول هذا المعنى:

خُذُوا الحَقَّ لا أُعطيكُمُ اليَومَ غَيْرَهُ ... وَلِلْحَقِّ إنْ لَمْ تَقْبَلُوا الحَقَّ تَابِعُ
فلا الضيْمَ أعطيكُمْ مِنَ أجْلِ وَعِيْدِكُمْ ... ولا الحَقَّ مِنْ بَغْضَائِكُمْ أنا مانِعُ
فَلَمْ أرَ مِثْلَ الحَقِّ يَمْنَعُهُ امرؤٌ ... ولا الضَيْمَ يأتيهِ امرؤٌ وَهْوَ طائِعُ
مَتى ما يُكنْ مَوْلاكَ خَصْمُكَ جاهِداً ... تَضِلّ وَيَصْرَعْكَ الذينَ تُصارِعُ[1]

وبمثل هذا المستوى الرفيع كان شاعرنا يعالج قضايا القبيلة كغيره من شعراء بني أسد فهو يواجه الخصومة - ومثله بقية شعراء القبيلة - التي قد تنشب بين قبائلهم، بل إن الشاعر الأسدي كان إذا أحس من رهطه أو قبيلته تصرفاً لم يرتضيه واجهه بحكمة وروية مستعيناً بأسلوب النصح والإرشاد، مثل ما فعل مرة بن عداء الفقعسي مع أبناء عمومته الذين قبلوا عقلاً في قتيل لهم كان مرة قد رفض أن يقبلوه يقول مرة:

رَأَيْتُ مَوَالِيَّ الأُلَى يَخْذُلُونَنِي ... عَلَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ إذْ يَتَقَلَّبُ
فَهَلاَّ أعدُونِي لِمِثْلِي تَفَاقَدُوا ... إذا الخَصْمُ أَبْزَى مائِلُ الرأسِ أَنْكَبُ
فلا تأخُذُوا عَقْلاً مِنَ القَوْمِ إنَّنِي ... أرَى العَارَ يَبْقَى والمَعَاقِلُ تَذْهَبُ[2]

إن الألم الذي كان يشعر به مرة من جراء فعلة أبناء عمومته لم يمنعه من أن يحكم العقل في قوله، و لم يفقد صوابه ويخسر أبناء عمومته فخذلانهم أم لا يتصوره ولكنهم ينبغي عليهم ألا يتصرفوا مثل هذا التصرف الذي قد يلحق بهم العار في نظر الآخرين، وهو موقف يدل على حرص شديد على تماسك القبيلة من قبل الشاعر.

والكميت كان أحد هؤلاء الشعراء الأسديين الذين كانوا يمثلون جانباً مهماً من الحياة الفكرية التي تهدف لصالح القبيلة في كل حدث صغير أو كبير قد يطرأ، ويكون من شأنه التأثير على هذه الوحدة. ومن هنا كان على الشاعر الأسدي أن يسجل كل حدث يمر ويدلي برأيه فيه. ومن ذلك ما رواه أبو تمام لأحد شعراء هذه القبيلة في نزاع شب بين رجلين من بني أسد على مورد الماء. يقول:

كِلا أخَوَيْنا إنْ يُرَعْ يَدْعُ قَوْمَهُ ... ذَوِي جامِلٍ دَثْرٍ وَجَمْعٍ عَرَمْرَمِ

---

١- انظر الوحشيات ص ١٨ وطبقات فحول الشعراء ص ١٦٣، ١٩٥.

٢- انظر الحماسة الجزء الأول ص ٥١٣ بشرح المرزوقي وقد رأينا مواقف كثيرة لشعراء هذه القبيلة في هذا الصدد كموقف حضرمي بن عامر وسحيم عبد بني الحسحاس.

كِـلا أَخَوَيْنـا ذُو رجـال كَـأَنَّهُمْ ... أَسـودُ الشَّرى مِنْ كُـلِّ أَغْلَـبَ ضَيْغَـمِ
فَمَـا الرُّعْـدُ فِـي أَنْ تَشـتَرُوا بِنَعيكُـمْ ... بَئِيساً ولا أَنْ تشـربُوا المـاءَ بـالدَّمِ(١)

ونظرة إلى البيتين الأول والثاني والى النصيحة الخالصة في البيت الثالث كافية لأن نعرف قيمة ما يدعو إليه الشاعر الأسدي ونقف على مدى الوعي الفكري له. فهو يوظف فنه الشعري لصالح قبيلته بدفعها إلى التلاحم وتجاوز الخلافات الفردية.

ولعلنا نلمس في دعوة ضرار بن الأزور لقومه من بني أسد مثل هذا الحرص في أثناء اتباعهم لطليحة بن خويلد في الفتنة التي حدثت في بداية الإسلام، حيث انقسمت قبائل بني أسد انقساماً خطيراً سمعنا من خلاله صوت ضرار يقول:

عَصَيْتُـمْ ذَوِي أَلبـابِكُمْ وَأَطَعْتُـمُ ... ضُجَيْمـاً وَأَمْـرُ ابـنُ اللقيطـةِ أَشْـأَمُ
وَقَـدْ يَمَّمُـوا جيشـاً إلى أرضِ دَوْمَـةٍ ... فَقُبِّـحَ مِـنْ وَفْـدٍ وَمَـا قَـدْ تَيَمَّمُـوا
بَـنِي أَسَـدٍ قَـدْ سـاءَنِي مـا فَعَلْتُـمُ ... وَلَيْـسَ لِقَـوْمٍ حـارَبُوا اللهَ مَحْـرَمُ
فَـإِنِّي وإنْ عِبْتُـمْ عَلَـيَّ سَـفاهَةً ... حَنِيـفٌ عَلَى الدِّيـنِ القَويـمِ وَمُسْـلِمُ(٢)

وأما عن علاقة الكميت بن معروف بالمرأة فيبدو لنا أنه يسير في اتجاه عرفناه عند الشاعر الأسدي المخضرم عمرو بن شأس الأسدي ـ وقد مرت دراسته، ولعلها في مجملها علاقة تغلب عليها صفات العشق والتملق والهوى، وهي بعيدة عن الإسفاف والفحش في التعبير والتصوير، ولعل في نشأة هذا الشاعر، وفروسيته، وطيب محتده، وأنه من سراة القوم قد أسهم ذلك كله في رسم هذه العلاقة، وبالإضافة إلى أن الشاعر يعد من المخضرمين الذين أدركوا الإسلام وتشربوا بعض مبادئه وأفكاره عن مثل هذه العلاقات الإنسانية وها هو ذا يصور لنا موقف حب ووداع يبدو فيه أنه قد اضطر لمغادرة ديار بني أسد إلى وجهة أخرى لسبب من الأسباب يقول:

أَقُـولُ لِنُدْمـانَيَّ والحُـزْنُ بَيْنَنـا ... وَغَـبْرُ الأعـالِي مِـنْ خِفَـافٍ فَـوارِعُ
أَنـارٌ بَـدَتْ بَيْـنَ السَّـنَاةِ والحِمَـى ... لعينيـكِ أَمْ بَـرْقٌ مِـنَ اللَّيْـلِ لامِـعُ
فَـإِنْ يَـكُ بَرْقـاً فَهْـوَ بَـرْقٌ مَخَيْلَـةٍ ... لَهَـا رَيِّـقٌ لَـمْ يُخْلِـفِ الشَّـيْمَ رائِـعُ
وَإِنْ تَـكُ نـارٌ فهـي نـارٌ تَشُـبُّهَا ... قَلُـوصٌ وَتَزْهاهَـا الرِّيـاحُ الزَعـازِعُ
وَمَـا مُغْـزِلٌ أَدْمـاهُ مَرْتَـعُ طِفْلِهَـا ... أَراكٌ وَسِـدرٌ بـالمَراضين يـانِعُ
بِأَحْسَـنَ مِنْهـا يَـوْمَ قـالتْ لِتِرْبِهَـا ... سَـلِيهِ يُخَبِّرْنَـا مَتَـى هُـوَ راجِـعُ
فَقُلْـتُ لَهـا واللهِ مـا مِـنْ مُسـافِرٍ ... يُحِيـطُ لَـهُ عِلْـمٌ بِمَـا اللهُ صـانِعُ(٣)

إن الكميت بن معروف يصور لنا علاقة الرجل العاطفية بالمرأة الحرة خير تصوير. فالعاطفة العميقة واضحة في الأبيات وبخاصة حين يتحدث الشاعر عن هذه النار التي تخص المحبوبة. وكان

---

١ـ انظر الحماسة ـ الجزء الأول ص ٢٥٤ بشرح المرزوقي قال أخد بني أسد ولم أقع له على ترجمة.
٢ـ انظر الإصابة ص ٩٧ الجزء الأول وانظر الخزانة الجزء الثالث ص ٢٩١.
٣ـ انظر طبقات فحول الشعراء ص ١٩٥.

الكميت أصدق حين صور لنا حفز وحياء هذه المرأة حيث يقف حياؤها مانعاً أمامها من أن تسأل حبيبها عن موعد عودته، فتلوذ بصاحبة لها لتعرف منه ذلك وتخبرها به.

ويقول في موقف آخر:

وما ذُكِرَتْ إلاّ أكفكِفُ عَبْرَةً ... بعَيْنيَ مِنْها مِلْؤُهَا أوْ قُرابُها

دَنَتْ دَنْوَةً مِنْ دارِنا ثُمَّ أصْبَحَتْ ... بِمَنْزِلَةٍ نَاءٍ عَلَيْنا مَنابُها

وَلَوْ كُنْتَ أرجو أنْ أنالَ كَلامَها ... إذا جِئْتُ لَمْ يَبْعُدْ عَلَيَّ طِلابُها

وإنّي لَيَعْرُوني الحَياءُ مَعَ الذي ... يُخامِرُني مِنْ وُدِّها وَأَهابُها

فَلَيْتَ حَمَامَ الطَّفِّ يَرْفَعُ حاجَنا ... إلَيْها ويأتِينا بِنَجْدٍ جَوابُها(١)

ومن مثل قوله في موقف آخر يذكر فيه الأحبة بعد أن نجح الوشاة في تغييرهم عليه:

ماذا تَذَكَّرُ مِنْ هُنَيْدَةَ بَعْدَ ما ... قَطَعَ التَّجَنُّبُ هاجَ مَنْ يَتَذَكَّرُ

وَسَعى الوُشاةُ فَأنْجَحُوا وتغيرت ... وَتَعهَّدُوا وُدِّي فَمَا أتَغَيَّرُ

ورأى الذي طَلَبَ الوشايَةَ مِنْهُمُ ... ما كُنْتَ مِنْ نُجْحِ الصَّبابَةِ تَحْذَرُ

كِدْتَ العَشِيرَةَ تَعْتَريكَ صَبابَةٌ ... لَوْ أنَّ مِثْلَكَ فِي الصبابَةِ يَعْذِرُ(٢)

ويبدو الكميت بن معروف كثير الشكوى في أسرته من الشيب - كغيره من شعراء بني أسد كعبيد والجميح وبشر وحضرمي بن عامر وعباد بن أنف الكلب وغيرهم - مما يشكل ظاهرة عند هؤلاء الشعراء. وليس معنى هذا أن الشعراء الجاهليين الآخرين لم يشتكوا من زوجاتهم، أو داخل محيطهم الأسري بوجه عام، ولكننا نلمس هذه الظاهرة بجلاء عند شعراء بني أسد.

ولعل حياة هذه القبيلة الحربية وبيئتها المتبدية، وعدم استقرارها في مكان واحد، وكثرة حروبها مع القبائل الأخرى قد أدى ذلك كله إلى وجود مثل هذا الخلل في حياة الأسرة داخل هذه القبيلة. وبخاصة حين يشيب الرجل وتطعن به السن فلا يعود قادراً على الغزو والقتال والكسب، وبالتالي تحرم الأسرة من المغانم مما يترتب عليه قسوة وشظف العيش وهذا شيء لا ترضاه المرأة وكان الشاعر الأسدي في مثل هذه الأحوال يلجأ إلى الحوار الهادئ والمناقشة المقنعة، وقد رأينا بعض الأمثلة على ذلك عند عبيد بن الأبرص والجميح وحضرمي بن عامر وها هو ذا الكميت بن معروف يعرض شكواه ويخاطب أم المهند فيقول:

ألا زَعَمَتْ أمُّ المُهَنَّدِ أنَّني ... كَبِرْتُ وَأنَّ الشَّيْبَ فِي الرَّأسِ طالِعُ

وما الشَّيْبُ إلا رَوْعَةٌ فِي ذُؤابَتِي ... وَأيُّ كَريمٍ لَمْ تُصِبْهُ الرَوائِعُ

وَإنّي وَإنْ شابَتْ مَفارِقُ لِمَّتِي ... لكالسَّيْفِ أفْنى جَفْنَهُ وهو قاطِعُ

يُصانُ إذا ما السِّلْمَ أدجى قِناعَهُ ... وَقَدْ جُرِّبَتْ فِي الحَرْبِ مِنْهُ الوقائِعُ

وَلَسْتُ بِجَثّامٍ يَبِيتُ وَهَمُّهُ ... قَصيرٌ وإنْ ضاقَتْ عَلَيَّ المَضاجِعُ

---

١- انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.

٢- انظر المرجع السابق.

إذا أعْتَقَتْنِي بَلْدَةٌ لَمْ أَكُنْ لَها نَسِيْباً وَلَمْ تَسْنُدْفْ عَلَيَّ المَطالِعُ(١)

فهو يسوق المسوغات لزوجته ويلجأ إلى ذكر ماضيه المجيد وأفعاله الحميدة وإبائه للضيم، ولكنه مع هذا يقر بذهاب الشباب ونزول المشيب بلمته ومفارقه هذا الشيب الذي لا بد نازل بساحة كل إنسان يقول:

نَزَلَ المَشِيْبُ فَمَالَهُ تَحْوِيلُ وَمضى الشَّبَابُ فَمَا إِلَيْهِ سَبِيْلُ

وَلَقَد أرانِي والشَّبَابُ يَقُودُنِي وَرِدَاؤُهُ حَسَنٌ عَلَيَّ جَمِيْلُ(٢)

إننا نلمح هذه الحسرة في نفس الكميت على الشباب وأيامه الخوالي، وانصراف النساء عنه لشيبه وتغير لونه فيهرع إلى ذكر أيام الشباب من جديد ليعزي نفسه حيث يقول:

تَعَجَّبُ هِنْدٌ أَنْ رَأَتْ لَوْنَ لِمَّتِي وَمَنْ يَرَ شَيْبِي بَعْدَ عَهْدِكِ يَعْجَبِ

وَكَانَتْ تَرَاهُ كالجَنَاحِ فَرَاعَهَا تَغَيُّرُ لَوْنٍ بَعْدَ ذَلِكَ مُعْقِبِ

فَإمّا تَرَيْنِي قَدْ عَلا الشَّيْبُ مَفْرِقِي وَفَضْلُ النُّهَى والحِلْمُ عِنْدَ التَشَبُّبِ

فَإنّي امرؤٌ ما يَخْبأُ النَّارَ مَوْقِدِي بِسِتْرٍ وَما تَسْتَنْكِرُ الضَيْفَ أَكْلُبِي(٣)

ويمكن القول: إن صورة المرأة عند الكميت بن معروف كانت صورة فيها شيء من الإشراق، ويحيطها إطار من العفة في التعبير، والاحتشام في التصوير ولعل الشاعر قد اهتم بالنواحي المعنوية أكثر من اهتمامه بالنواحي الحسية، شأنه في ذلك شأن الشعراء الفرسان جميعاً في العصر الجاهلي وقد صور لنا المرأة التي تعجبه ويأنس بالحديث إليها فقال:

مِنْ كُلِّ آنِسَةِ الحَدِيثِ حَبِيَّةٍ لَيْسَتْ بفاحِشَةٍ ولا متفَالِ(٤)

وهو لم يتعد شعراء قبيلته من بني أسد في تصويرهم لعلاقاتهم مع المرأة الزوجة فهم صوروا بالدرجة الأولى الواقع الذي كانوا يعيشون. كما يبدو لنا الكميت بن معروف رجلاً خبر الأيام وعاصر كثيراً من الأحداث فأكسبته شيئاً من الحكمة في تصرفاته ونظرته إلى الأمور بمنظار العقل والمنطق ولعل أرومته ومحتده قد أسهما في سمو نفسه والارتفاع بها عن سفاسف الأمور مما قد يثنيه أو يجعله عرضة لألسنة الآخرين. ولعل هذا قد جلب عليه حسد الحساد الذين كانوا يغبطونه هذا الشرف وتلك المنزلة الرفيعة يقول الكميت حول هذا:

وما زِلْتُ مَحمولاً عَلَيَّ ضَغِينَةٌ وَمُضطَلِعُ الأضْغانِ مُذْ أنا يافِعُ(٥)

---

١ـ انظر حماسة البحتري ص ١٩٤ البيتان الأول والثاني وباقي الأبيات في مجلة المورد العراقية ١٩٧٥ بقلم الدكتور حاتم الضامن عن مخطوطة منتهى الطلب.

٢ـ انظر الأغاني الجزء الثاني والعشرون طبع الدار ص ١٤٢.

٣ـ انظر مجلة المورد عدد فبراير ١٩٧٥.

٤ـ انظر الحماسة البصرية الجزء الثاني ص ٨٩ طبع حيدر آباد ١٩٦١ وانظر البيت في مجلة المورد.

٥ـ انظر شرح أبيات سيبويه الجزء الأول ص٢٣٩.

ويمكن للباحث أن يقف على بعض حكمة الكميت بن معروف من خلال مواقفه في معالجة الأمور التي قد تعترضه أو تعترض قومه - كما مر معنا في قصة سالم بن دارة - وكذلك في مثل قوله هو يقرر حقيقة أخرى نتيجة لطول تجربته في الحياة إذ يقول:

وما أنا بالنِّكْسِ الدَّنِيءِ وَلا الذي ... إذَا صَدَّ عَنْهُ ذو المَوَدَّةِ يَقْرَبُ
وَلكِنَّهُ إنْ دامَ دُمْتُ وإنْ يكُنْ ... لَهُ مَذْهَبٌ عنّي فَلِي عَنْهُ مَذْهَبُ
ألا إنَّ خَيْرَ الوُدّ ودٌّ تَطَوَّعَتْ ... بهِ النَّفسُ لا وُدٌّ أتى وَهْوَ مُتْعَبُ[1]

ولعل في موقف الكميت بن معروف بن عمرو من مرة وماله - ويبدو أنه كان غنياً شحيحاً - حكمة بليغة ونظرة لا تخلو من عمق من المشاعر إلى دور المال في الحياة الاجتماعية، فلا خير في مال لا ينتفع به أهله، بل يمتد بدائرة النفع هذه حتى الأقارب الذين يقرر الكميت أن لهم حقاً في هذا المال وبخاصة إذا كانوا بحاجة إليه لسد عوزهم يقول:

لا خَيْرَ فِي عَمْرِ بنِ مُرَّةَ غَيْرَها خَلَقٍ وَمَنْظَرْ
وَدَارِهِم كَثُرَتْ يُشَدُّ عَلَى حواتِمِها وتُطْمَرْ
وَسَوارحٍ مِثْلُ الدَّبا وَصَوافِنٍ كالرِّيحِ ضُمَّرْ
هِي مُنهَزةٌ للسائِلينَ وَعَنْ حُقوقِ الحَيِّ تُحْظَرْ
والدَّهْرُ يَهْدِمُ ما بنى وَيُذِلُّ مَنْ تَجَبَّرْ.[2]

وتبدو لنا حكمة هذا الشاعر مستقاة من بيئته وواقعة المعاش، ولا شك أن الأحداث الجسام التي مرت بها أسرة الكميت قد أسهمت في صقل تجربة الشاعر وزادت من تأمله في الحياة، وتفيدنا الأخبار أن هذه الأسرة قد نكبت أكثر من مرة وفي أكثر من فرد من أفرادها فهذا أعشى بني أسد خيثمه بن معروف أخو الشاعر يقول في رثاء أخيه صخر وكذلك أخوه الكميت:

وهَلْ بَعْدَ صَخْرٍ وهَلْ بَعْدَ الكُمَيْتِ أخٌ ... أمْ هَلْ يَعُودُ لَنَا دَهْرٌ فَنَصْطَحِبُ
لَقَدْ عَلِمْتُ وإنْ مُلِّيتُ بَعْدَهُمُ ... أنيَّ سَأنْهَلُ بالشَرْبِ الَّذِي شَرِبُوا[3]

ولا غرو في ذلك فقبيلة بني أسد قبيلة محاربة، وآل الكميت من أهل العتب فيها، وبنو فقعس من أشد فروع هذه القبيلة مراساً في الحروب فهم ينتهون إلى سعد بن ثعلبة ابن دودان حاملو لواء أسد منذ القديم. وطبيعي أن يكونوا عرضة للقتل أكثر من غيرهم فهم رؤوس القوم. وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا الفرع من بني أسد قد تحمل الوزر الأكبر في قتال القبيلة أمام الغساسنة وغيرهم، وقد رثاهم أكثر من شاعر أسدي ابتداء من عبيد بن الأبرص وهو من أقدم شعراء هذه القبيلة.

ولعل في فخر الكميت بن معروف ما يدلنا على صحة ما نذهب إليه من أنه من سراة القوم وأنه

---

١- انظر معجم الشعراء ص ٢٣٨ وانظر عيون الأخبار الجزء الثالث ص ٧ طبع دار الكتب.

٢- انظر الأشباه والنظائر للخالد بين الجزء الثاني ص ٣١٠.

٣- انظر الأغاني الجزء ٢٢ ص ١٤٣ وما بعدها وانظر المؤتلف ص ١٧.

فارس من فرسانها المعدودين حيث يقول:

وَلَمْ تُبْلَ مِنِّي نَبْوَةٌ فِي مُلِمَّةٍ ... ولا عَثْرَةٌ فيما مَضَى مِنْ زَمَانِيَا
وعَوراءُ مِن قِبَلِ امرئٍ قَدْ رَدَدْتُها ... بمُبْصِرَةٍ للعُذْرِ لَمْ يَدْرِ مَاهِيَا
أَنَا ابنُ أبي صَخرٍ بِهِ أُدرِكُ العُلَى ... وَثَوْرِ النَّدى والهَيْثَمُ الخَيرِ خَالِيَا
أَنَا ابنُ رئيسِ القومِ يومَ يقودُهُمْ ... بتعُشَارَ اذْهَزَ الكُمَاةُ العَوالِيَا
ولما زَجرْنا الخَيلَ خَاضَتْ بِنا القَنَا ... كَما خَاضَتِ البُزْلِ النِّهاءَ الطَّوامِيَا(١)

وعلى أية حال فإننا نرى أن معاني الفخر عند الكميت بن معروف كانت نابعة من واقعه الاجتماعي القبلي ومن واقعه الفردي وهي عموماً تدور حول المثل والقيم العليا التي تواضع عليها مجتمع الجاهلية من شجاعة، وكرم، ونجدة، وطيب محتد، وفروسية. وهو لا يتجاوز في فخره ما افتخر به غيره من شعراء هذه القبيلة من أمثال عبيد وبشر والجميح وغيرهم. إلا أننا نلحظ الفخر بالفردية إلى حد بعيد عند الكميت بن معروف، فهو قد يقدمها في كثير من الأحيان على فخره بالجماعة، وقد يقرنها معا في قصيدة واحدة إلا أن الفردية الحادة تبقى واضحة في فخر هذا الشاعر ومن ذلك قوله:

وكُنْتُ امْرءاً مِنْ خَيْرِ جَحْوَانَ عُطفتْ ... عَلَيَّ الروَّابِي منهُمُ والفَوَارِعُ
نَمتْنِي فُروعٌ مِنْ دِثَارِ بنِ فَقْعَسٍ ... ومِنْ نَوْفَلٍ تلكَ الرُّؤوسُ الجَوامِعُ
وإنِّي عَلى مَعْروفِ أخلاقِيَ الَّتِي ... أزايِلُ مِنْ أَلقَابِها وأجَامِعُ
لَذُو تُدرَاءٍ لا يَغْيزُ القومَ عَظمَهُ ... بضَعْفٍ ولا يَرْجُونَ ما هُوَ مَانِعُ
ومَا قَصَّرتْ بي هِمَّتي دُونَ رَغْبَةٍ ... ولا دَنَّسَتْنِي مُذْ نَشأْتُ المَطَامِعُ
وإنِّي إذا ضَاقَتْ عليكُم بُيُوتكُم ... لَيَعْلَمُ قَومِي أَنَّ بَيتِيَ وَاسِعُ
فَيلْجأُ جَانِيهمُ إلَيْنا وتنتَهِي ... إلَيْنَا النُّهَى مِن أَمْرِهِمْ والدَّسَائِعُ
وقَائِدٍ وَهْمِ قَدْ حَوَتْهُ رِماحُنَا ... أسيراً ولم يَخْوِينَهُ وهوَ طَائِعُ
لِقَومِي عَلَيَّ الطَوْلُ والفَضْلُ إنَّنِي ... إذا جَمَعَتْنِي والخُطوبُ المَخَامِعُ
وهُمْ عُدَّتِي فِي كُلِّ يومٍ كَرِيهَةٍ ... وأَقْرانُ أَقْرانِي الذينَ أُصارِعُ(٢)

إن الشاعر ـ هنا ـ يضرب على الوترين ـ معاً ـ الفردي والجماعي فهو يذهب إلى حد بعيد في الاعتداد بنفسه وبأسرته وفرعه الأدنى، ثم يعطف على قومه من بني أسد، ونحن لم نتعود هذا اللون من الفخر من شعراء بني أسد إلا في حالات خاصة كأن يفخر حق الفرع في أمر من الأمور التي تهم القبيلة، أو أن يكون هذا الفرع قد تحمل وزراً كان يمكن أن تشارك فيه بقية فروع القبيلة ولم تفعل كما حدث أيام عبيد بن الأبرص في مواجهة الغساسنة من قبل بني سعد بن ثعلبة وتلك التي فخر بها عمرو بن شأس وهو من ذات الفرع. ويبدو أن الكميت بن معروف كان كذلك.

---

١ـ انظر مجلة المورد عدد فبراير ١٩٧٥ وانظر عيون الأخبار الجزء الثالث ص ٧٦.

٢ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.

ولعل القارئ لفخر الكميت بن معروف لا يقع على معان جديدة فيه تختلف عن تلك التي جاء بها شعراء هذه القبيلة، إلا أنه يشعر بقوة اعتداد الشاعر بنفسه شعوراً حاداً يثير التساؤل أحياناً، كما يلحظ أن الشاعر قد صور قومه على أنهم منبع العزة والقوة والكرم والمهابة وأنهم ملاذ كل محتاج وخائف ومستجير ومن ذلك قوله:

وإنّي لأسعى للتكرّم راغباً ... ومَنْ يُحص أخلاقَ التكرّم يَرْغَبِ
إلى شِيمَةٍ منّي وتأديبِ والدي ... ولا يعرفُ الأخلاقَ منْ لَمْ يُؤدَّبِ
فإنّي امرُؤٌ ما يخبأُ النّارَ موقَدَي ... بسِتْرٍ ومَا تَستَنْكِرُ الضَّيفَ أكْلُبي
ومَا أنَا للمَولَى بذِنْبٍ إذا رَأى ... لَهُ غِرَّةً أدْلَى مع المُتَذَئّبِ
ولكنّني إنْ خافَ قومِي عَظِيمَةً ... رَمَوْني بنَحرِ المانِعِ المتأزِّبِ
فصَرّفْتُ صعْبَ الأمْرِ حتّى أذِلّهُ ... ويَرْكَبُ منْ أظفارِهِ كلَّ مَرْكَبِ
وَجَدْتُ أبي يُنْسِ بَنِيهِ ويَنْتَمِي ... إلى الفَرْعِ منهمْ واللّبابِ المُهَذّبِ
إلى شَجرِ النَّبْعِ الذي ليسَ نابتاً ... منَ الأرْضِ إلاّ في مكانٍ مُطَيَّبِ
أولئِكَ قَوْمي إنْ أعُدُّ الذي لَهُمْ ... أكَرَّمْ وإنْ أفخَرْ بهِمْ لَمْ أكَذّبِ
هُمْ مُلْجأُ الجَانِي إذا كانَ خائِفاً ... ومَأوَى الضّرِيكِ والفَقِيرِ المُعَصَّبِ
وَجَدْتُ أبي فيهِمْ وخَالِي كِلاهُمَا ... يُطَاعُ ويُعْطَى أمْرُهُ وهوَ مُحْتَبِي
فَلَمْ أتَعَمَّلْ للسِّيادَةِ فِيهِمُ ... ولكنْ أتَتْنِي وادِعاً غيرَ مُتْعَبِ[(١)]

وله في هذا المجال قوله:

إنّي نَمَتْنِي للمكارمِ نَوْفَلٌ ... والخالِدان ومعبَدٌ والأشْتَرُ
وتَعَطّفَتْ أسدٌ عليَّ فكلُّها ... شَرْعٌ إليَّ فَعالُهُ المُتَخَيَّرُ
وإذا افتخَرْتَ بمُنْقِذٍ أو فَقْعَسٍ ... مَدَّتْ لأبحُرِهِمْ بُحورٌ تَزْخَرُ[(٢)]

إن الكميت ينطلق في فخره من دائرة ضيقة إلى دائرة أوسع على غير المألوف، وهو بهذا الانطلاق يفصل في مناقبه ومناقب فرعه الأدنى أكثر مما يفصل في مآثر قومه من بني أسد بعامة، وهذا لم نتعوده من شعراء بني أسد أيضاً، حتى ليخيل إلى القارئ أن صورة الكميت في هذا الفخر تمثل صورة الرجل العملاق الذي يحمي قبيلته لا العكس، وأن انتماءهم إليه أولى من انتمائه إليهم.

وخلاصة القول: إن الشاعر يبدو متعالياً إلى حد بعيد في فخره حتى ليصل إلى درجة الكبر والخيلاء، وربما كان ذلك من أثر البيئة التي نشأ فيها الكميت كما يقول، فقد وجد أباه وخاله في الذروة من بني أسد الذين صورهم الكميت أنهم كانوا لا يقطعون بأمر إلا بعد الرجوع إلى هذه القبيلة. ولعل الكميت وأسرته ورهطه كانوا يبدون من ضروب البلاء والدفاع عن هذه القبيلة ما أهلهم لمثل تلك المكانة التي استغلها الشاعر أقصى استغلال.

---

١ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.
٢ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.

وإذا نظرنا في وصف الكميت بن معروف للفرس والناقة وقعنا على بعض الصور المفصلة للناقة بما يتناسب مع مكانتها في نفس العربي الجاهلي وأهميتها بالنسبة إليه. ولو بحثنا في صورة الفرس لوجدناها أقل شأناً عند هذا الشاعر، فقد جاءت صورتها باهتة وغير متناسبة مع مكانتها بالنسبة للإنسان الجاهلي بعامة، أو مع بقية شعراء بني أسد في هذا المضمار. والواقع أننا نرجح ضياع الشعر الذي قاله الكميت فمن غير المعقول ألا يعير فارس مثله الفرس اهتمامه البالغ، وهو الذي رأينا من فخره ما رأينا، ولعل ما بقي من شعر له يصف فيه الفرس يدلنا على أن الشاعر إنما كان عليماً بالخيل مهتماً بها، مفتخراً باقتناء النجيب منها. وقد حمل هذا الشعر ـ بالإضافة إلى إضفاء الشاعر على فرسه صفات القوة والصلابة والسرعة والنشاط ـ مسحة جمالية كثيراً ما رآها الشاعر الأسدي والجاهلي بعامة في هذا الحيوان الأليف. ومن ذلك قوله:

وقَـدْ أرَانـي أُرَاعِـي الخَيْـلَ يُعْجِبُنِـي ... إذَا تُؤَمِّـلَ مِنْهـا النَّحْـرُ والْجيـدُ
تَجْلـو بعُـودِ أراكٍ عَـنْ ذُرَى بَـرَدٍ ... كأنَّمـا شَـابَهُ مِسْـكٌ ونَـاجُودُ
تُجْـري الرِّهَـان عَلـى وَحْـفٍ غَدائِـرُهُ ... كأنـه فـوقَ مَتْنَيْهـا العَنَـاقيدُ
قَـوْدَاءُ مَـائِرَةُ الضَّبْعَـين نِسْـبَتُهَا ... فِي سِرِّ أَرْحَـبَ أو تُنْسِـي بها العيدُ
ظلَّـتْ تَقِيـسُ فُـروجَ الأرضِ لاهِيـةً ... كَما يُقاسُ سَجيلُ الغَـزْلِ مَحْـدُودٌ(١)

وفرس الحرب عند الكميت بن معروف فرس جرداء ضامرة، ولعل ذلك يجعلها أقدر على الكر والفر في ساحة المعركة يقول الكميت:

وَنكُـرُّ فِـي يَـومِ الوَغَـى وَرِماحُنَـا ... حُمْـرُ الأَسِـنَّةِ حـينَ يُغْشَـى المُنْكَـرُ
ونكُـرُّ مَحْمِيَـةً ويَمنَـعُ سَـرْبَنا ... جُـرْدٌ تَلَوِّحُهـا المَقَـانِبُ ضُمَّـرُ(٢)

وأما وصف الناقة عند هذا الشاعر فالواقع انه يفوق وصف الفرس الذي لم نقع له إلا على هذه الصورة ـ المبالغة الذكر ـ ولعل الشاعر أولاها عناية كبيرة نتيجة لاعتماده عليها في حياته العملية، ولما تمثله من أهمية لا تخفى بالنسبة للإنسان الجاهلي، ونحن نرجح ضياع الشعر الذي قاله الشاعر في وصف الفرس إذ أنه ليس من المعقول أن يهمل الكميت الفرس في شعره وهو الفارس المعلم، ولأننا لم نر شاعراً أسدياً أهمل وصف الفرس التي كانت تشكل لديهم أهمية خاصة وتحتل منزلة رفيعة في نفوسهم. فهي سندهم الأول في المعارك وهي تمثل رمزاً من رموز القوة ومنعة الجانب وقد أفاضوا في تصويرها وأسبغوا عليها من الصفات ما يتفق وأهميتها حتى أن الشاعر الأسدي عبيد بن الأبرص يرتفع بها إلى درجة أنها دمست تعطي العهود لراكبيها على النصر يقول عبيد:

واعْلَـمْ بـأنَّ جِيادَنَـا ... آلَيْـنَ لاَ يقْضِيـنَ دَيْنَـا(٣)

ويذهب إلى أبعد من ذلك فالخيل تشارك أصحابها فرحة النصر على الأعداء وتعبر عن فرحتها

---

١ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.
٢ـ انظر المصدر السابق.
٣ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٣٧.

بالصهيل. يقول عبيد:

لاحِقَاتِ البُطُونِ يَصْهَلْنَ فَخْراً قد حَوَيْنَ النِّهَابَ بعْدَ النِّهَابِ[١]

وخيول بني أسد لا يدركها التعب والكلال، ولا تفت عزائمها المعارك فهي على نشاطها وقوتها المعهودة قبل المعركة، هذا ما عبر عنه بشر بن أبي خازم الأسدي بقوله:

أَثَرْنَ عَجَاجَةً فخرجْنَ مِنْهَا كَمَا خَرَجَتْ مِنَ القرضِ السِّهَامُ
إِذَا خَرَجَتْ أَوائِلُهُنَّ شُعثاً مُحلَّجَةً نَواصِيها قِيَامُ
بِأَحْقَيْهَا المُلاءَ مَمَزَّقَاتٍ كَأَنَّ جِذَاعَهَا أُصُلاً جِلامُ
يُبَارِينَ الأَسِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ كَمَا يَتَغَارَطُ الثَّمِدُ الحَمَامُ[٢]

ولا حاجة بنا لأن نكرر موقف حاجب بن حبيب الأسدي من زوجته عندما أرادت منه أن يبيع فرسه. وقد مر بنا من قبل موقف سحيم عبد بني الحساس وتصويره للخيل على أنها ملاذ وملجأ يهرع إليه وقت الفزع إذ يقول:

إذا فَزِعُوا طَارُوا إلى كُلِّ نَهْدَةٍ وَأَجْرَدَ نَهْدٍ ما تَجِفُّ لُبودُهَا
يُقضِّينَ دَيْناً مِنْ غُيَيْرِ بْنِ عَامِرٍ وَلَمْ يَنْجُ مِنْهَا جعفرٌ ووحيدُهَا[٣]

ومن الغريب بعد هذا كله ألا نقع على أكثر من صورتين للفرس في شعر الكميت بن معروف، وهو الفارس الذي ينحدر من سراة قومه مما يرجح لدينا الظن بأن شعره الذي وصف به الفرس قد ضاع أكثره، ولم يبق منه إلا هذا النزر الضئيل الذي بين أيدينا. وهو ـ على قلته ـ يدل على أن الشاعر لم يكن أقل اهتماماً وتصويراً من بقية شعراء قبيلته، ولعل مما يوضح اهتمامه وحبه للخيل أنه كان يتخير النجيبة منها يقول الكميت:

نَجائِبُ مِنْ آلِ الوجيهِ ولاحِقٍ تُذَكِّرُنَا أَحْقَادَنَا حِينَ تَصْهَلُ[٤]

ولعل في وصفه للناقة وتفصيله في ذلك الوصف دلالة أخرى على اهتمامه بالخيل فمن غير المعقول أن يعير الكميت بن معروف هذا الاهتمام الكبير للناقة ولا يعير مثله إن لم نقل أكثر منه للفرس، وهو ألصق به في ساحات المعارك ومواجهة الأعداء والخصوم فاعتماد العرب بعامة كان على الفرس في خوض المعارك، ولم تكن الابل تشترك في القتال إلا في القليل النادر، وتحدثنا الروايات عن أن بني أسد كانوا يستعينون بالإبل في بعض حروبهم ومن ذلك إشراكهم الابل في يوم جبلة إذ يقول راجزهم:

زَعَمْتَ أَنَّ العِيْرَ لا تُقاتِلْ بَلَى إذا ما قَعْقَعَ الرَّحائِلْ

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ١٥٩.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ٢٠٩.
٣ـ انظر ديوان سحيم ص ٥٠.
٤ـ انظر أنساب الخيل لابن الكلبي ص ٣٣ ـ ٣٤.

واختلفَ الهنديُّ والذَّوابِلْ ... وقالَتْ الأبْطالُ مَنْ يُنازِلْ

بَلَى وفيها حَسَبٌ ونائِلْ(١)

في وصف الناقة عند الكميت بن معروف فنجده يفوق ما وصف به الفرس فقد أطال وفصل ودقق النظر في ناقته ـ شأنه شأن أغلب الشعراء الجاهليين ـ وقد كان الكميت كمن سبقه من شعراء بني أسد الذين نستشف من حديثهم عن هذا الحيوان أنه كان يشكل جانباً مهماً من حياة أبناء هذه القبيلة المتبدية سواء ذلك في حربها أم سلمها.

ولعل المعاني التي طرقها الكميت في أثناء حديثه عن ناقته كانت تدور حول القوة والصلابة والسرعة مما يجعلها قادرة على قطع الصحراء والمفاوز والقفار بكل جدارة وكفاءة، وهذا ما ركز عليه شعراء بني أسد من قبل الكميت بل في الشعر الجاهلي كله، يقول الكميت:

وَقُمْتُ إلى عَيْرانَةٍ قَدْ تَخَدَّدَتْ ... وَقامَتْ يَداها كُلَّ خِمسٍ مُذَيَّبِ

فَلَمّا استَوتْ أقدامُنا وَتمكّنَتْ ... إلى كُلِّ غَرزٍ بَيْنَ دَفٍّ وَمَنْكِبِ

فَأصْبَحْنَ يَنْهضْنَ الرجالَ وَتَرْتَمِي ... رؤوسُ المَهارَى باللُّغامِ المُعَصَّبِ

بصحراءَ مِنْ نَجْدٍ كأنَّ رعانَها ... رجالٌ قيامٌ في مُلاءٍ مُجَوَّبِ

وَقَدْ وَقَفَتْ شمسُ النَّهارِ وَأوقَدَتْ ... ظهيرَتُها ما بينَ مَشْرِقٍ وَمَغْرِبِ

وَقَدْ ظَلَّ حِرْباءُ السَّمومِ كَأَنَّهُ ... رَبيئَةُ قومٍ مائِلٌ فَوْقَ مَرْقَبِ

قليلٍ بها الأصواتُ إلا تفجعاً ... مِنَ الذِئبِ أوْ صَوْتُ الصَدى المُحَوَّبِ

بها العِيْنَ أرفاضاً كأنَّ سِخَالَها ... وقوفُ عذارى سوقطت كُلَّ مَلْعَبِ

قَطَعْتُ بِمِقْلاقِ الوِشاحِ كَأَنَّها ... طَرِيْدَةُ وَحْشٍ أُفلِتَتْ مِنْ مُكَلِّبِ(٢)

إن اعتناء الشاعر بوصف الناقة وتصوير أهوال الصحراء وهذه المبالغة التي قد نراها وهو يصور شدة حرها ليدل على رغبة الشاعر في إظهار مدى قوة هذه الناقة الناجية التي كانت بحوزة الكميت، وربما كان ذلك يدل فيما يدل على طبيعة المنطقة التي كانت تسكنها بنو أسد في شمال نجد وعلى تخوم صحراء النفوذ التي تشتهر بشدة الحر أكثر من غيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية. ولقد وجدنا في أشعار الأسديين من مثل هذا الوصف والتصوير من أمثال عبيد وبشر وسحيم وسبقت الإشارة إلى ذلك في موضعه من هذا البحث.

ويؤكد الكميت بن معروف على أن مثل هذه الصحراء المهلكة لا يمكن أن تقطع إلا بمثل هذه الناقة القوية يقول:

وَجُوبُ الفيافِي بالقِلاصِ قَدِ انْطَوَتْ ... ولا يَقْطَعُ المَوْماةَ إلاّ اجتنابُها

بكُلِّ سَنَبْتَاةٍ إذا الخِمْسُ ضَمّها ... تُقَطِّعُ أضْغانَ النَّواجي هِبابُها

إذا وَرَدَتْ ماءً عَنِ الخِمْسِ لَمْ يَكُنْ ... عَلَى الماءِ إلاّ عَرْضُها وانجذامُها

---

١ـ انظر أيام العرب في الجاهلية لجاد المولى ص ٣٥٦.

٢ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.

وإنْ أوْقَـدَ الحَـرُّ الحزابـيُّ فـارتقى إلى كُـلِّ نَشْـزٍ مُحْزَئِـلٍّ سـرابُها
حَدَتْها تَـوالٍ لاحقـاتٍ وَقَدَّمَـتْ هَواديها أيـدٍ سـريعٍ ذهابُها
بهـنَّ يُدانِـي عَـرْضُ كُـلِّ تَنُوفَـةٍ يَمُـوتُ صَـدًى دونَ المياهِ غرابُها
يُصَافِحْنَ حَـدَّ الشَّـمسِ كُـلَّ ظَهـيرَةٍ إذا الشَّـمسُ فَوْقَ البيدِ ذابَ لعابُها(١)

وناقة الكميت هذه معرفة الأوصال قد براها السير الطويل وهي ككل ناقة أسدية رأيناها بل جاهلية بعامة. يقول الكميت:

مُعَرَّقَـةُ الأوْصـالِ أفنـى عريكَهـا رُكـودُ رحـالِ العِيـشِ فَـوْقَ البَرَاذِعِ
بيهمـاءَ مـا لـلركْبِ فيهـا مُعَـرَّجٌ عَلَى ما أسافوا مِنْ حَسِيْرٍ وَطَالِعِ(٢)

وهي في انطلاقها شبيهة بإطلاق العقاب الجارحة. يقول:

تَرَاهـا إذَا التَـاثَ المَطَايـا كأنَّهـا مِـنَ الكُـدْرِ فَتْخـاءُ الجَنـاحِ ضَـرُوبُ
تَحُـلُّ بَنِيهـا بـالغَلاةِ وَتَغْتَـدِي مُعـاوِدَةٌ وِرْدَ الهَجِـيرِ قَـرُوبُ(٣)

وهكذا فإننا نشعر بان الكميت لم يبخل على ناقته بصفة من الصفات التي ترفع من شأنها وتصور قوتها وتبرز نشاطها وقد استعان بمختلف الوسائل لإبراز هذه المعاني وتضخيمها مما يوضح لنا أهميتها في حياتهم، وقد حمّل الدكتور مصطفى ناصف هذه الناقة رموزاً عميقة في كتابه "دراسة الأدب العربي" ولا نظنها تحمل مثل تلك الرموز العميقة من فنها رمز للحياة التي يتسلق إليها شبح الموت في ثبات وخفة (٤) ويمكن القول: إن إحساس الشاعر الجاهلي وهو يصف ناقته إنما هو إحساس بالحياة التي يريد الوصول إليها ويحلم بها، وهو إحساس مملوء بالعزم والإرادة على تغيير معالم اللحظة الحاضرة إلى لحظات أخرى قادمة أجدى وأنفع له في مسيرته.

ومن شعراء بني أسد الأحرار الذين حدثتنا بعض المصادر القديمة عن بعض أخبارهم "أعشى بن أسد" وقد جاء في المؤتلف والمختلف أن أعشى بني أسد هو بجرة بن منقذ بن طريف جد مطير بن الأشيم وأنه شاعر جاهلي(٥) ويعود أبو بشر الآمدي فيذكر أن هذا الشاعر هو طلحة بن معروف أخو الكميت بن معروف بن الكميت بن ثعلبة بن الأشقر بن حجوان بن فقعس وهو القائل في رثاء أخويه الكميت وصخر:

أَجَدَّكَ لَـنْ تَلْقَـى الكُمَيْـتَ وَلاَ صَخْـراً وإنْ أَنْـتَ أَعْمَلْـتَ المَطِيَّـةَ والسَّـفْرا
هُمـا أخَـوايَ فـرَّقَ الدَّهْـرُ بيننـا إلى الأَمَدِ الأقصَى وَمَنْ يَأْمَنِ الدَّهْرا(٦)

---

١ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.
٢ـ انظر المصدر السابق.
٣ـ انظر المرجع السابق عدد فبراير ١٩٧٥.
٤ـ انظر دراسة الأدب العربي للدكتور مصطفى ناصف ص ٢٤٣ فقد تحدث عن هذه النقطة.
٥ـ انظر المؤتلف والمختلف للأسدي ص ١٧ ـ ١٨.
٦ـ انظر المصدر السابق ص ٣٠.

ويشير أبو بشر الآمدي إلى أنه قد وجد في آخر ديوان الكميت ابن ثعلبة "الكميت الأكبر" أن الأعشى اسمه خيثمة بن معروف بن الكميت بن ثعلبة، وأنه لا يدري هل خيثمة هذا هو طلحة أو انهما أخوان أعشيان، ثم يذكر له قصيدة طويلة لا نظفر منها إلا بيتين في كتاب الآمدي وهما:

قَدْ يُخْبِرُ اللهُ أقواماً وَيعْقِبُهُمْ غِنىً وَيُحْدِثُ مِنْ بَعْدِ الغِنَى الكَرَبُ
فَلاَ يَغُرَّنْكَ مِنْ دَهْرٍ تَقَلُّبُهُ إنَّ اللّيَالِيَ بالفِتيانِ تَنْقَلِبُ[1]

ويسوق الآمدي ثلاثة أبيات أخرى من شعر هذا الشاعر الأسدي حيث يذكر قوله متوعداً بني الطرماح:

أَبْلِغْ بَنِي الطِّرْماحِ إنْ لاقَيْتَهُمْ كَلِماتِ مَوْعِظَةٍ وَهُنَّ قِصَارُ
لا أعرِفَنَّ سيوفَنا ورماحَنا غَدْواً كَأَنَّهُمْ لَهُنَّ دُوارُ
وكأننا فيكُمْ جِمالٌ ذبَّةٌ أُدْمٌ علاهُنَّ الكَحِيلَ وقَارُ[2]

والواقع أن شيئاً من الاختلاط حدث في نسب الشاعر، فقد ذكر أبو الفرج أن اسمه خيثمة بن معروف موافقاً بذلك الرواية الثانية للآمدي. أما طلحة فمن الجائز أن يكون من أبناء معروف أيضا وبذلك يكون أخاً لأعشى بني أسد، وأما ورود الرواية الأولى على لسان أبي بشر الآمدي أنه بجرة بن منقذ. الخ. فلعل ذلك راجع إلى شاعر آخر يدعى بجرة ابن منقذ.

والصواب عندنا هو أن أعشى بني أسد خيمة بن معروف بن الكميت، ويورد أبو الفرج لأعشى بني أسد قصيدة من الشعر يرثي فيها أخويه الكميت وضخر يقول فيها:

هَوِّنْ عليكَ فإنَّ الدَّهرَ منجدبُ كُلُّ امرئٍ عَنْ أخيهِ سَوْفُ ينقلِبُ
فَلا يغرنكَ مِنْ دَهْرٍ تَقَلُّبُهُ إنَّ الليالِيَ بالفتيانِ تَنْقَلِبُ
نامَ الخَلِيُّ وَبِتُّ الليلَ مرتفِقاً كما تزاوُر يجني دِفْئَهُ النَكِبُ
إذا رَجَعْتَ إلى نَفْسِي أحَدِّثُها عَمّنْ تَضَمَّنَ مِنْ أصحابِيَ القُلُبَ
مِنْ إخوةٍ وَبني عَمٍّ رُزِئْتُهُمُ والدَّهرُ فيهِ عَلى مُستعتِبٍ عتبُ
عَاوَدتُ وَجْداً عَلَى وَجْدٍ أكابِدُهُ حتّى تكادُ بناتِ الصَّدْرِ تَلْتَهِبُ
وَهَلْ بَعْدَ صخرٍ وَهَلْ بَعْدَ الكميتِ أخٌ أمْ هَلْ يَعودُ لَنا دَهْرٌ فنصطحِبُ
لَقَدْ عَلِمْتُ وَلو مُيِّلْتُ بَعْدَهُمُ أَنّي سأنْهَلُ بالشُّربِ الذي شَرِبُوا[3]

ولا يستطيع الباحث تحديد وفاة أعشى بني أسد على وجه الدقة إلا انه فيما يبدو شاعر جاهلي، وتدلنا أشعاره التي بين أيدينا على أنه عاش عمراً مديداً وأنه شهد وقائع عديدة من وقائع بني أسد في

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ٣٠ وقد وردت الأبيات في الأغاني طبع دار الكتب الجزء ٢٢ ص ١٤٣ ـ ١٤٥ وزاد عليها أبو الفرج خمسة أبيات أخرى.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ١٨.
٣ـ انظر الأغاني طبع دار الكتب الجزء ٢٢ ص ١٤٣ ـ ١٤٦.

الجاهلية ويبدو ذلك من خلال الألم الذي نحسه في شعره وهو يتحسر على فقد أخويه وأبناء عمومته وما أشبهه بألم عبيد بن الأبرص على اخوته وأبناء عمومته حين قتلوا في وقائع هذه القبيلة مع الغساسنة حيث يقول:

أَبَعْدَ بَنِي عَمِّي وَرَهْطِي وإخْوَتِي ... أُرَجِّى لَبَانَ العَيْشِ ضُلاً بِتضْلاَلِ(١)

وإذا كان أعشى بني أسد قد حجبت أخباره عنا شأن كثير من شعراء هذه القبيلة فان النزر القليل من شعره يدل على عراقة في الشعر، فهو شاعر وأبوه شاعر وأخوه شاعر وجده شاعر وهو من بيت شعر وأدب في قبيلة بني أسد، كما أوضحنا ذلك في أثناء الحديث عن أخيه الكميت بن معروف الأسدي. وتبدو لنا حكمة أعشى بني أسد واتزان شخصيته وجنوحه إلى التأمل فيما يحيط به منَ تقلبات الأيام.

ومن شعراء هذه القبيلة حضرمى بن عامر بن مجمع بن موألة بن هشام بن ضب بن كعب ابن لاقين بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد وهو شاعر فارس وسيد من سادات بني أسد(٢) وكناه المرزباني في معجمه فقال وكان حضرمى يكني أبا كدام(٣) وذكر ابن حجر في الإصابة عن حضرمى بن عامر أنه كان عاشر أخ في الأسرة التي عاش فيها فماتوا جميعاً فورثهم فقال فيه ابن عم له يقال جزء بن مالك:

يا حضْرَمى مَنْ مِثْلَك وَرَثُ ... تسعةَ اخوةٍ فَأصبحْتَ ناعما

فأجاب:

إنْ كُنْتَ فاوَلْتِني بها كَذِباً ... جَـزْءُ فلاقيتَ بمِثْلِهَا عَجَلا(٤)

ويذكر المرزباني القصة ويزيد على البيتين السابقين بيتين آخرين:

يَزْعُمُ جزءٌ وَلَمْ يَقُل جَلَلا ... أنيّ تَروَّحْتَ ناعماً جَذِلا
أفرحُ أنْ أرزأ الكِرامَ وَأَنْ ... أورَثَ ذوْداً شصائصاً نَبلا(٥)

وعلى هذا فان شاعرنا حضرمى بن عامر يعد من الشعراء الأسديين المخضرمين وعلى الرغم من قرب عهده بالإسلام إلا أن المصادر لم تجد علينا بأخبار هذا الشاعر، ولم ترو له أشعاراً كتلك التي روتها لسحيم عبد بني الحساس وهو من المخضرمين أيضاً، أو كتلك التي بين أيدينا لعمرو بن شأس الأسدي وهو مخضرم كذلك.

إن كل ما حصلنا عليه من أشعار حضرمى بن عامر لا يتعدى عشرين بيتاً من الشعر، برغم أنّ

---

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص.

٢ـ انظر المؤتلف والمختلف ص ٨٤ ـ ٨٥ وذكر البغدادي في الخزانة ج٣ ص ٣٩١ انه كانت له صحبة وهو ممن وفد على رسول الله ضمن وفد بني أسد ومعه ضرار بن الأزور.

٣ـ انظر معجم الشعراء ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢.

٤ـ انظر الوصاية الجزء الأول ص ٢٤٢ مطبعة دار السعادة.

٥ـ انظر معجم الشعراء ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢.

الآمدي قد ذكر أن له في كتاب بني أسد أشعاراً وأخباراً حسانا. ويبدو أن تلك الأشعار قد ضاعت مثلما ضاع كتاب بني أسد الذي تحدث عنه أكثر من واحد ـ وقد أشرنا إلى ذلك في غير هذا الوضع ـ ومما قاله حضرمي بن عامر مخاطباً ابنته عميرة:

أَلا عَجِبَتْ عُمَيْرَ أَمْسِ لَمَّا ... رأَتْ شَيبَ الذُؤابَةِ قَدْ عَلانِي

تقولُ أرى أَبِي قَدْ شابَ بَعْدِي ... وأَقْصَرَ عَنْ مُطالَبَةِ الغَوانِي

وَكُلُّ قرينةٍ قُرِنَتْ بأُخرى ... ولو ضَنَّتْ بِهَا سَتُفَرَّقان

وَكُلُّ أخٍ مفارِقُهُ أخوُهُ ... لعمر أَبيكَ إلاّ الفَرْقَدانِ(١)

وأورد البحتري في حماسته لحضرمي بن عامر بيتين من الشعر يقول فيهما:

وَلَقَدْ لبِستكُمُ على شَحْنائِكُمْ ... وَعَرَفْتُ ما فيكُمُ مِنَ الأَوْصَابِ

كيما أَعُدَّكُمُ لأَبْعَدَ مِنْكُمُ ... أَنّي ينازِعُني ذووُ الأَحْسابِ(٢)

ويبدو لنا الحضرمي بن عامر من خلال ما مر له من شعر رجلاً حكيماً عركته الأيام فخبرها واستخلص منها العبرة والعظة، ولا غرو في ذلك فالشاعر عاش عمراً مديداً حتى شابت ذؤابته وأقصر عن مطالبة الغواني، وليس من العجب أن نرى هذا الحرص الشديد عند حضرمي بن عامر على وحدة أبناء قبيلته رغم علمه بهناتهم فنراه يتجاوزها ولا يعير تلك الأخطاء بالاً حين يخاطب أبناء عمومته، وقد أجاب الشاعر بنفسه على السؤال. انه يعدهم لما هو أبعد منهم من القبائل الأخرى فلا مكان للشقاق في صفوف أبناء القبيلة الواحدة. فذلك مما يسوء الشاعر الأسدي بخاصة والجاهلي بعامة ـ وهو بذلك يبرهن على بعد نظره وفكره الواعي في استيعاب المشاحنات التي قد تبرز بين الأقارب لأي سبب كان. وها هي ذي دعوة أخرى من شاعر أسدي آخر هو مرة بن عداء الفقعسي يخاطب أبناء عمومته قائلاً:

رأَيْتُ مَوالِيَّ الأُلى يُنكرونَني ... عَلَى حَدَثانِ الدَّهْرِ إذْ يَتَقَلَّبُ

فهَّلا أعدوّني لِمِثْلي تَفَاقَدُوا ... إذا الخَصْمُ أبزى مائِلُ الرأسِ أَنْكَبُ

وهَّلا أعدُوني لِمِثْلي تَفَاقَدُوا ... وفي الأرضِ مبثوثٌ شَجاعٌ وعقربُ

---

١ـ انظر المؤتلف والمختلف ص ٨٤ ـ ٨٥ وقد أورد صاحب الخزانة الأبيات مع شيء من الاختلاف في الرواية وزاد عليها وقد جاءت في الخزانة ج٣ ص ٣٩١ كالتالي:

وذي فخم عزفت النفس عنه ... حذار الشامتين وقد شجاني

قطعت قرينتي عنه فأغنى ... غناء فلم أراه ولم يراني

وكل قرينة قرنت بأخرى ... ولو ضنت بها ستفرقان

وكل أخ مفارقه أخوه ... لعمر أبيك الا الفرقدان

وكل الحابي اياه أنبي ... عطفت عليه خوار العنان

٢ـ انظر حماسة البحتري ص ٢٤٩.

فلا تأخذوا عقلاً مِنَ القَوْمِ إنَّني ... أرى العارَ يبقى والمعاقلُ تذهبُ[(١)]

هكذا يبدو حضرمي بن عامر ـ شأنه شأن كل شعراء هذه القبيلة ـ كلهم حريص على وحدتها وتماسكها والاحتفاظ بودها والتغاضي عما يمكن أن يحدث من هنات في العلاقات بين أفرادها.

وتفيدنا الأخبار عن أخ شاعر لحضرمي بن عامر هو معقل بن عامر، وقد ذكره المرزباني فقال: شاعر جاهلي عرف "بفارس الدهماء" وكان ممن شهد يوم جبلة مع بني أسد وأخوه حضرمي بن عامر من الصحابة ـ وذكره ـ وتذكر الرواية أن معقل بن عامر الأسدي كان قد مر على ابن الحساس بن رهب العيبوي وهو جريح فاحتمله إلى رحله وداواه حتى برئ ثم كساه وآداه إلى أهله وفي ذلك يقول معقل:

يَدِيتُ عَلَى ابنِ حَسْحاسِ بنِ وَهبْ ... بأَسْفَلِ ذِي الجَذاةِ يدَ الكَريمِ

قَصَرتُ لهُ مِنَ الحَمَّاءِ لَمّا ... شَهِدْتُ وغابَ عَنْ دَارِ الحَمِيمِ

أُنَبِّئُهُ بأَنَّ الجَرحَ يُشوَى ... وأَنَّكَ فَوْقَ عِجْلِزَةٍ جَشُومِ

وَلَوْ أَنِّي أَشاءُ لكنتُ مِنْهُ ... مكانَ الفِرْقدَيْنِ مِنَ النُّجُومِ

ذَكَرْتُ تَعِلَّةَ الفِتْيانِ يَوماً ... وإلحاقَ المَلامَةِ بالمُلِيمِ[(٢)]

وله في يوم شعب جبلة:

نَحْنُ بَنِي مُجَمِّعِ بنِ مَوْألَةْ ... نحنُ حماةُ النَّاسِ يومَ جَبَلَةْ

بِكُلِّ عضْبٍ صارِمٍ وَحَسَبَلَةْ ... وهَيْكَلٍ نَهْدٍ معناً وَهَيْكَلَةْ

ومعقل بن عامر يلقب أبوه عامر "الموقد"، وكان رئيس بني أسد في بعض حروبهم فأوقد لهم ناراً فسمي بالموقد. ولا تسعفنا المصادر بأكثر من هذا عن شاعرنا معقل بن عامر الذي يبدو لنا فارساً معلماً يشارك في الحروب وينجد الجريح حتى لو كان من أعدائه. ولعل نغمة الفخر تبدو واضحة في رجز هذا الشاعر الذي تعدت حمايته لبني أسد إلى الناس جميعاً، إن هذا الاعتزاز بقوة القبيلة وتلك الثقة التي لا يعتورها شك في النصر الأكيد لهو اتجاه واضح عند شعراء هذه القبيلة، وليس من شك في أن هذا الاتجاه لم يأت من فراغ فلولا قوة هذه القبيلة ومنعة جانبها لما رأينا هذه الروح المعنوية العالية تسري في نفوس شعرائها، أو على الأقل لكنا رأيناها أخف حدة مما هي عليه.

ومن شعراء بني أسد المخضرمين جريمة بن الأشيم بن عمرو بن وهيب بن دثار بن فقعس بن ظروف الأسدي، وهو ـ كما تشير الروايات ـ أحد فرسان بني أسد وأحد شياطينها، أدرك الإسلام وأسلم وقد روى له قوله:

بَدّلتُ دِيناً بَعْدَ دينٍ قَدْ قَدُمْ ... كُنتُ مِنَ الدِّينِ كَأَنِّي فِي حُلُمْ

---

١ـ انظر الحماسة شرح المرزوقي ج١ ص ٢١٣.

٢ـ انظر الحماسة شرح المرزوقي الجزء الأول ص ١٩٣ وانظر معجم الشعراء ص ٣٧١، وانظر النقائض طبع ليدن الجزء ٢ ص ٦٦٧.

يـا قيِّـمَ الدِّيـنِ أقمْنَـا نَسْـتَقِمْ ... فَـإنْ أُصـادِفْ مأثَمـاً فلـمْ أَلَـمْ(١)

وقد نسب له صاحب الحماية مقطوعة أخرى من الشعر يفخر فيها بقومه من بني أسد ابن خزيمة يقول جريمة:

فِـدىً لِفَورِسِـيَ المُعْلَمِيـ ... ـنَ تحـتَ العَجاجَـةِ خَـالِي وهَـمْ
هُـمُ كَشَـفُوا عَيْسَـةَ العَـائِبينَ ... مِـنَ العـارِ أَوْجهَهُـمْ كـالحِمَمْ
إذَا الخَيْـلُ صـاحَتْ صيـاحَ النُّسـور ... حَزَزْنَـا شَراسِـيفَهَا بـالجذَمْ
إذا الدَّهْـرُ عضَّتْـكَ أنيابُـهُ ... لـدَى الشَّـرِّ فـأزمْ بـهِ مـا أزمْ
ولا تُلْـفَ فِـي شَـرِّهِ هَائِيـاً ... كـأنَّكَ فِيـهِ مُسِـرُّ السَّـقَمْ
عَرَنْنَـا نَـزَال فَلَـمْ يـنزِلُوا ... وكـانتْ نَـزَال عَلَيهـمْ أُطَـمْ
وقَـدْ شـبَّهُوا العِـيرَ افراسَـنَا ... وقَـدْ وَجَـدُوا مَيْرَهَـا ذَا بشَـمْ(٢)

وقد أورد له الشهرستاني أربعة أبيات من الشعر يخاطب فيها ابنه سعداً. يقول جريمة بن الأشيم:

يَـا سَـعْدُ إمَّـا أَهْلَكَـنَّ فـإنَّني ... أُوصِيـكَ أَنَّ أَخَـا الوصَـاةِ الأَقْـرَبُ
لا تَـتْرُكَنَّ أبـاك يُحشَـرُ رَاجِـلاً ... في الحِشْـرِ يَصْـرَعِ لليَديـنِ وَينكـبُ
واحمِـلْ أبـاكَ علـى بعـيرٍ صَـالِحٍ ... وتَـقِ الخَطِيئَـةَ إنَّـهُ هـو أقْـرَبُ
ولعـلَّ لِـي فيمـا تركْـتُ مَطِيَّـةً ... في القَـبرِ أركبُهـا إذا قِيـلَ اركَبُـوا(٣)

وروى له الآمدي بيتين من الشعر في مخاطبة ابن له يدعى يساراً يقول جريمة:

ولَقَـدْ حَلَلْـتَ يَسـارُ منزلـةً ... مِنّـي فُوَيْـقَ القَلْـبِ والكَبِـدِ
وَبذَلْـتَ مـا جَمَّعْـتُ مـن نَشَـبٍ ... وفَرَشْـتُ خَـدَّكَ سَـاعِدِي وَيَـدِي(٤)

ولعل هذه الأخبار المبتورة عن جريمة تفيدنا في استقصاء شيء عن حياة هذا الشاعر الأسدي الجاهلي المخضرم. فما يبدو من خلال هذه الأبيات التي خاطب فيها ابنه سعداً أن الشاعر متأثر بالروح الجاهلية، وأن أفكاره عن الموت والحشر هي جاهلية بحتة ولا يمكن أن يكون جريمة قد قالها بعد إسلامه ـ إن صحت نسبتها إليه ـ وكذلك نلحظ هذه الروح الجاهلية في فخر الشاعر بفرسان قومه من بني أسد الذين يطلبون نزال الكماة من الفرسان في ساحات الوغى، فلا يستجاب لهم لأن عدوهم موقن أن الموت يكمن في حد سيوف هؤلاء الفرسان، ولعل طلب المبارزة عادة جاهلية في المقام الأول وإن كنا قد رأيناها في صدر الإسلام بين مشركي قريش وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

١ـ انظر المؤتلف والمختلف ص ٧٧ وتكرر ذكره ص ١٠٣.
٢ـ انظر الحماسة بشرح المرزوقي ج٢ ص ٧٧٣ ـ ٧٧٤ وانظر الإصابة الجزء الأول ص ٥٣٤.
٣ـ انظر الملل والفحل للشهرستاني الجزء الثاني ص ٢٣٠.
٤ـ انظر المؤتلف ص ١٠٣.

وفي هذا فانه من المرجح ـ عندنا ـ أن جريمة بن الأشيم الأسدي قد عاش أغلب حياته في الجاهلية وهو ـ إن صح أنه أدرك الإسلام فقد كان ذلك في أخريات حياته. ونحن نشك في رواية الآمدي من أن هذا الشاعر قد أسلم أصلاً.

وقد أورد الآمدي شعراً لشاعر أسدي آخر وهو ربيعة بن أسعد بن جذيمة بن مالك ابن نصر بن قعين، وهو شاعر من شعراء بني أسد الجاهليين وقد انفرد أبو بشر الأسدي في ذكر قصة ذؤاب بن ربيعة وقتله لعتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي وكان ذؤاب قد أسر لدى بني يربوع قوم عتيمة ولم يعلموا أنه قاتل عتيبة. فظن أنه قد قتل فقال:

أَذُؤابُ إنّي لَمْ أَبِعْكَ ولَمْ أَهَبْ بِعُكاظَ حيثُ تَجَمُّعِ الأَجْلابِ
إنْ يقتُلوكَ فقدْ ثَلَلْتَ عروشَهُمْ بِعُتَيْبَةَ بنِ الحارِثِ بنِ شَهابِ
بأشَدِّهِمْ كَلْباً عَلى أَعْدائِهِ وأعزِّهِمْ فَقْداً علَى الأَصْحابِ

فلما بلغت هذه الأبيات بني يربوع قتلوا ذؤاباً. ويتابع ربيعة القول:

أَبلِغْ قَبائِلَ جَعْفَرٍ مَخْصُوصَةً ما إنْ أُحاوِلُ جَعْفَرَ بنَ كِلابِ
إنَّ البَقِيَّةَ والهَوادَةَ بَيْنَنا شَمِلٌ كَسَحْقِ الربطَةِ المُنْجابِ
إلا بجيش لا يكت عديدة سود الجلود من الحديد غضاب
ولَقَدْ عَلِمْتُ عَلَى التَّجلُّدِ والأَسَى أنَّ الرَّزِيئَةَ كانَ يومَ ذُؤابِ

ويتابع القول:

وعِمادُهُمْ فِي كلِّ يومٍ كَرِيهَةٍ وثِمالُ كلِّ مُعَصَّبٍ قرضَابِ
أَهْوى لَهُ تَحْتَ العَجاجِ بِطَعْنَةٍ والخيلُ تُرْدِي في الغُبارِ الكَابِي
أَذُؤابُ صَابَ عَلَى صَداكَ فَجادَهُ صوبُ الرَّبِيعِ بوابِلٍ مِسْكَابِ
ما أنْسى لا أَنْساهُ أَخِرَ عَيْشِنَا ما لاحَ بالمعزاءِ رَيْعُ سَرَابِ(١)

ويبدو أن المقطع الثالث من القصيدة كان حقه التقديم إلى ما بعد البيت الثالث منها وذلك لاستقامة المعنى في القصيدة. ولم يتطرق لذكر هذا الشاعر سوى الآمدي، ويمكننا أن نفهم من خبر الآمدي أن هذا الشاعر الآمدي الذي رزئ بابنه قد علا فوق همه وتحدى أعدائه وقد استطاع أن يحول هذا الحزن العميق الذي سببه فقد ذؤاب إلى قصيدة يسيطر عليها جو الحماسة والفخر، وقد لجأ ربيعة إلى الإكثار من ذكر صفات القتيل عتيبة بن الحارث بن شهاب ـ الذي يبدو أنه كان سيد قومه ـ ليقنع نفسه بأن قتل ابنه لم يكن بلا ثمن أو أنه كان ثمناً زهيداً فهو قد قتل سيد القوم وفارسهم وحاميهم. ومن ثم يتوعد بني يربوع ومن ورائهم قبائل جعفر بن كلاب كلها بجيش عرمرم من بني أسد للأخذ بالثأر، وهذا شأن الشاعر الأسدي ـ كما رأينا ـ فهو معتد دائماً بتلك الكثرة العددية من بني أسد، وبتلك الأسلحة المتوفرة لديهم من دروع وسيوف ورماح وغير ذلك ـ

ــــــــــــ

١ـ انظر الخبر كاملا في المؤتلف ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

مما وصفنا في غير هذا الموضع.

ويبدو أن ربيعة الأسدي كان طاعناً في السن وقت ذلك، فهو لا يتحدث عن نفسه أبداً، ولا يجعل لنفسه مشاركة في معركة الثأر كما رأينا ذلك عن الجميح وغيره من شعراء بني أسد. بل يكتفي بالاستعانة بقومه في إدراك ثأر ذؤاب.

ويختم ربيعة الصورة بالعودة إلى عاطفة الأب. الأب المنكوب بأعز ما لديه فيدعو لقبر ابنه بالسقيا كما هي العادة عند أغلب شعراء الجاهلية.

أذؤابِ صَابَ عَلَى صَدَاكَ فَجَلْنَاهُ ... صوبُ الرَّبيعِ بوابلٍ مِسْكَابِ
مَا أَنْسَى لا أنساهُ أَجرَ عيشِنَا ... مَا لاحَ بالمَعْزاءِ رَيْعُ سَرَابِ

وهكذا يمكننا أن نعد مرثية ربيعة بن أسعد بن جذيمة الأسدي مرثية امتزج فيها الرثاء بالحماسة والفخر الذي جاء عن طريق تبيان مناقب القتيل من الأعداء والإعلاء من مكانته، ولعل ذلك مما يهون على الشاعر مصابه وهو أن ابنه قد قتل في رجل عظيم المكانة في قومه.

ومن شعراء بني أسد المعمرين شاعران ذكرهما أبو حاتم السجستاني في كتابه "المعمرون" وهما عباد بن أنف الكلب الصيداوي الأسدي وذكر أنه عاش عشرين ومائة سنة. وأبو سمال الأسدي الذي ذكر أنه عاش سبعاً وستين ومائة سنة.

فأما الأول منهما وهو عباد بن أنف الكلب الصيداوي الأسدي فقد ذكره أيضاً الخالديان في حماستهما المسماة "بالأشباه والنظائر" دون ذكر لنسبه أو التعليق عليه وأوردا له شعراً يقول فيه:

دَفَعْنَا طَرِيفاً بِأَطْرَافِنَا ... وبالرَّاحِ عَنَّا ولم تَدْفَعُونَا
فَلَمْ يَسْبِقَ إلاَّ الَّتِي حَاوَلُوا ... وخِلْنا وَأَحْرِبِها أَنْ تَكُونَا
فَإِنْ كَانَ فيكم لكم ثَرْوَةٌ ... فإنَّا عَدِيدٌ وإنْ كَانَ دُونَنَا
وإنَّا إذَا قابَلَتْنَا السُّيُوفُ ... وقد هَاجَتِ الحَربُ ضرباً ثُبِينَا
وطَاحَ الرَّئِيسُ وهَادِي اللِّواءِ ... ولا تَأكُلُ الحَرْبُ إلاَّ سَمِينَا
وَأَعْصَمْ بالصَّبْرِ أَهْلُ البَلاءِ ... فإنَا هُنَاكَ كمَا تَعْلَمُونَا[1]

وأما أبو حاتم فقد روى لهذا الشاعر قصيدة شعرية تتألف من أحد عشر بيتاً يذكر فيها الشاعر طول عمره ويفخر بماله من محامد ومآثر، وتبدو النزعة الفردية واضحة فيها وطاغية على الضمائر الدالة على الجماعة يقول عباد:

عَمِرْتُ فَلَمَّا جُزْتُ سِتِّينَ حِجَّةً ... وَسِتِّينَ، قَالَ النَاسُ: أَنْتَ مُفَنَّدُ
فَقُلْتُ لَهُمْ بِاللهِ هَلْ تُنْكِرُونَنِي ... وهَلْ عَابَنِي إلاَّ السَّخَا والتَّمَجُّدُ
أَجُودُ وَأَحْمِي المُسْتَجِيرَ مِنَ الرَّدَى ... إذَا عَرَّدَ النَّكْسُ الأَحَمُّ الأَلَنْدَدُ
وإني جَوَادُ الكَفِّ سَمحٌ بما حَوَتْ ... يَدَايَ مِنَ المَعْرُوفِ لا أَتَلَدَّدُ
وَيَوْماً تَرَى الأبْطالَ مِنْ خَوْفِ شَرِّهِ ... سَكَارَى عَلَيْهِمْ غَبْيَةً تَتَرَدَّدُ

---

١ـ انظر الأشباه والنظائر للخالدين الجزء الأول ص ٨٨.

شَـهِدْتُ فَجَلَّيْـتُ البَلاَيَـا وَأَوْقَهـنَا ... بِأَسْمُرَ نَحْـوَ الْمُبْتَغـى الشَّـرَّ يَقْصِـدُ
وَزِقٍّ كَمُسْـتَدْمِي الغَـزَالِ سَـبَأْتُهُ ... لِفِتيـانِ صِـدْقٍ رِفْدُهُـمْ لَيْـسَ يَنْفَـدُ
فَقُلْـتُ لَهُـمْ عُلُّـوا وَتلـكَ مَطِيَّـتِي ... بِكَفَّـيَ عَضْـبٌ مَشْـرَفِيٌّ مُهَنَّـدُ
فَغَـادَتْ وَقَـامَ الطَّاهِيـانِ فَـأَوْقَدَا ... بِعَلْيَـاءَ نَـاراً حَمُّهَـا لَيْـسَ يَـبْرُدُ
فَلَمَّـا اشْـتَفَوْا مِنْهـا وأَدْبَـرَ وَخْشُـهُمْ ... صَبَبْـتُ لَهُـمْ صَهْبَـاءَ فِـي الكَـأسِ تَزْبِـدُ
وَقُلْـتُ لَهُـمْ إِنِّـي حَمِيـلٌ بِمِثْـلِ مَـا ... رَأَيْتُـمْ طُـوَالَ الدَّهْـرِ لا أَتَزَيَّـدُ(١)

وبعد هذا فإننا لا نجد ذكرا لهذا الشاعر الأسدي عند أي من الرواة في المصادر التي بين أيدينا، وكذلك كثير ممن ورد ذكرهم من شعراء هذه القبيلة مما يصعب مهمة الباحث في الوصول إلى صورة حياة هؤلاء الشعراء على الوجه الأكمل.

ويبدو لنا عباد بن أنف الكلب الصيداوي الأسدي شاعراً فارساً ذا كف ندية ومحتد كريم، ولعل مذهبه في الحياة قد جر عليه غضب بعض ذويه الذين أنكروه بعد أن طعنت به السن وافتقر حاله فهو يذكر بعض خصاله ويعلن عن مذهبه في العيش: انه حب السخاء والتمجد ــ كما يقول ــ والإسراع إلى فعل المعروف وحماية المستجير، والإقدام في ساحات الوغى يوم يتأخر الجبناء ويترددون في خوض المعارك. كما يعلن عن شربه للخمر مع صحبته الأماجد، وينحر لهم مطيته بسيفه ويطعمهم إياها ويزيدهم خمرة صهباء معتقة، ويخبرنا بأن هذا ديدنه ما عاش ـ وتلك لعمري أخلاق طرفة بن العبد وغيره من فرسان الجاهلية ـ وربما استطعنا أن ندرك هذا الشعور الحاد بالفردية عند هذا الشاعر، ونقف على أبعاد الصراع الذي كان يعانيه هو وأمثاله في داخل نفوسهم لتحديد أهدافهم في الحياة في تلك البيئة التي لا تقر إلا ما كان قوياً. ويعود الشاعر إلى حظيرة الجماعة فيفخر بقبيلته وبكثرة عددها وحسن بلائها في الحروب حيث يقول:

فَـإِنْ كَـانَ فِيكُـمْ لَكُـمْ ثَـرْوَةٌ ... فَإِنَّـا عَدِيـدٌ وإِنْ كَـانَ دُونَـنَا
وَأَنَّـا إِذَا قَابَلَتْنَـا السُّـيُوفُ ... وَقَـدْ هَـاجَتِ الحَـرْبُ ضَرْبـاً ثُبِينَـا
وَأَعْصَـمَ بِالصَّـبْرِ أَهْـلُ البَـلاءِ ... فَإِنَّـا هُنَـاكَ كَمَـا تَعْلَمُونَـا(٢)

ولعلنا نلاحظ الإلحاح على استخدام ضمير الجماعة من الشاعر ليؤكد التزامه القبلي ويخبرنا بقوة شكيمة قومه في الحروب شأنه في ذلك شأن سابقيه من شعراء هذه القبيلة، ولا نستطيع تحديد الزمن الذي عاش فيه هذا الشاعر الأسدي، فما من دليل نملكه على ذلك إلا أننا نرجح أنه عاش في فترة قوة هذه القبيلة واتساع نفوذها بعد أن مرت بفترة ضعف في تاريخها القديم أيام حجر بن الحارث وقبل ذلك أيام نزاعها مع الغساسنة على التخوم الشمالية لشبه الجزيرة العربية.

أما الشاعر الأسدي الآخر الذي ورد ذكره عند أبي حاتم فهو أبو سمال الأسدي واسمه ــ كما يرويه أبو حاتم ـ سمعان بن هبيرة بن مساحق بن بجير بن عمير بن أسامة بن نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة وكان شاعراً ويمتد به أبو حاتم إلى أيام حروب الردة فيجعله

---

١ـ انظر المعمرين لأبي حاتم ص ٥٥ تحقيق عبد المنعم عامر طبع عيسى البابي الحلبي ١٩٦١.
٢ـ انظر الأشباه والنظائر ج١ ص ٨٨.

مع طليح الأسدي(١).

ويروي له الآمدي بيتين من الشعر يرثي بهما ابنه سمالاً حيث يقول:

كَأَنِّي وَسَمّالاً مِنَ الدَّهْرِ لَمْ نَعِشْ ... جميعاً وَرَيْبُ الدَّهْرِ للمَرْءِ كَارِبُ
يُعَيِّرُنِي الأَقْوامُ بالصَّبْرِ بَعْدَهُ ... وليسَ لِصَدْعٍ في فُؤادِيَ شَاعِبُ(٢)

ويورد أبو حاتم قصيدة شعرية تتألف من ستة عشر بيتاً يتحدث فيها عن امتداد عمره وضعفه وكبره، ويعطف على الماضي المجيد فيستعرضه على مخاطبته وكيف كان في صباه ساعياً إلى الأمجاد وفارساً مقداماً لا يرهب الأعداء ينازل الأبطال فيصرعهم، وأخيراً يختم حديثه بالعودة إلى الواقع المعاشي وبخضوعه لسنة الدهر وأن من تعاوره الليل والنهار فلا بد صائر إلى ما صار إليه. يقول أبو سمال الأسدي:

وَهَازِئَةٍ مِن شَيْبَتِي وتَحَنُّنِي ... وَطُولِ قُعُودِي بالوَصِيدِ أُفَكِّرُ
تَقُولُ فَتَى سِمعَانُ بَعْدَ اعْتِدَالِهِ ... وبَعْدَ سَوادِ الرَّأْسِ فالرَّأْسُ أَزْعَرُ
فَقُلْتُ لَهَا لاَ تَهْزَئِي إنَّ قَصْرَكِ الْ ... مَنَايَا، ورِيبُ الدَّهْرِ بالمَرْءِ يَغْدِرُ
فَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ عَاشَ دَهراً بِنِعْمَةٍ ... فَحَلَّ بِهِ يَومٌ أَغَرُّ مُشَهَّرُ
فَصَارَ لَقىً فِي البَيتِ لا يَبرَحُ الفِنَا ... رَذِيّاً عَليهِ كآبَةٌ وتَوَقُّرُ
وقَدْ كَانَ مِدْلاَجاً إلى المَجْدِ مُتعِباً ... إلَيْهِ المَطَايَا عُمْرَهُ لَيسَ يَفْتُرُ
فَلَمّا تَرَامَتْهُ المَنَايا وَرَيْبُهَا ... تَقَوَّسَ مِنْهُ الظَّهْرُ فالخَطْوُ مُقْصَرُ
وعَادَ كَفَرْخِ النَّسْرِ أَعْمَى عَنِ الَّتِي ... يُرِيدُ طَوَالَ الدَّهْرِ يَهْذِي وَيَهْدِرُ
فَإنْ أَكُ شَيْخاً فَانياً فلَرُبَّمَا ... أَصَبْتُ الذي أَهْوَى وما كُنْتُ أَحْذَرُ
وَرُبَّ خَيُورٍ جَمَّةٍ قَدْ لَقِيتُهَا ... وَشَزْرٍ كَثِيرٍ عَنْ شَوَاتِي تَحَدَّرُ
وَخَيْلٍ دَعَتْنِي لِلنِّزَالِ أَجَبْتُهَا ... وَفِي الكَفِّ مِنّي مَشْرَفِيٌّ مُذَكَّرُ
وَتَحْتِي طِمِرٌّ مُسْتَطَارٌ فُؤَادُهُ ... سَلِيمُ الشَّظَا نَهْدٌ كُمَيْتٌ مُضَمَّرُ
فَنَازَلْتُ إذْ نَادُوا نَزَالِ ونِلْتُ مَا ... يَنَالُ الكَرِيمُ الأَحْوذِيُّ المُشَمِّرُ
فَذَلِكَ دَهْرٌ قَدْ مَضَى حُلْوُ عَيْشِهِ ... وغَادَرَنِي شِلْواً لِيَ الذِّئْبُ يَكْشِرُ
وَقَدْ كُنْتُ أَبَّاءً عَلَى القِرْنِ مِرْجَماً ... أَجُودُ وأَحْمِي المُسْنِفَاتِ وأَحْبُرُ
ولَلْمَوْتُ خَيرٌ لامْرِئٍ مِن حَيَاتِهِ ... بِدَارَةِ ذُلٍّ عَلْبَلاَيَا يُوَقَّرُ(٣)

وذكر ابن حجر في الإصابة أربعة أبيات من الشعر لأبي سمال الأسدي سمعان بن هبيرة يخاطب فيها قبائل جذام ولخم حيث يقول:

أَبْلِغْ جُذاماً ولَخْماً مَعاً ... عَلَى اليَعْمُلاَتِ أُولاتِ الحَقِيبِ

---

١ـ انظر المعمرين لأبي حاتم ص ٦٥ ـ ٦٦ وانظر بعض أخباره في المؤتلف ص ١٣٧.

٢ـ انظر المؤتلف ص ١٣٧.

٣ـ انظر المعمرين ص ٦٥ ـ ٦٦ علبلايا يريد على البلايا فأدغم اللام وفي كتاب سيبويه علماء فلان. يريد على الماء ولعلها لهجة عند بني أسد.

وَقُـــولا لِعَامِلَـــةَ الآخرِيــــن كَــانَ أُولئِـــكَ أُولَـــى نَســيبِ
قَبَــائِلُ مِنّــا نَــأَت دَارُهــم وَهُــمْ فِــي القَرَابَــةِ أَدْنَــى قَرِيــبِ
هَلُمّـــوا إِلَيْنَـــا نَجْلُـــو إلى أَخِ مُقْسِــفٍ وَمَحَــلٍ رَحِيــبِ(١)

ويبدو أن هناك من ينسب جذاماً ولخماً وعاملة إلى عمرو بن أسد بن خزيمة وأن هذه القبائل قد تحولت إلى اليمن في زمن مبكر، ولذلك فان أبا سمال يدعوهم للعودة إلى قبيلتهم وأرومتهم وقد أورد له البلاذري في انساب الأشراف قوله:

أَبلِــغْ جُذَامــاً ولَخْمــاً إنْ لَقِيتَهُــمْ والقَــومُ يَنْفَعُهــمْ عِلْــمٌ إذَا عَلِمُــوا
إنّــا نُذَكّرُكــمْ بــاللهِ أنْ تَدعُــوا أبــاكُمْ حِــينَ جَــدَّ القَــومُ واعْــتَزَمُوا
لا تَدَّعُــوا مَعْشَــراً لَيْســوا بــإِخْوَتِكُمْ حتّى المَمَاتِ وإنْ عَزّوا وإنْ كَرُمُــوا(٢)

هذا كل ما ذكر من شعر لأبي سمال الأسدي سمعان بن هبيرة ويبدو أبو سمال شاعراً فارساً قد امتد به العمر، وليس من المستغرب أنه أدرك الإسلام كما ذكر الآمدي ويستطيع الباحث أن يلمس ذلك الحرص الشديد في شعره على وحدة قبيلته وذلك من خلال دعوته إلى أبناء عمومته من جذام ولخم، وكأن كثرة بني أسد غير كافية فهو يريد أن يزيدها، وان كان لنا من رأي في نسب جذام ولخم وعاملة إلى بني أسد فانه من المرجح عدم صحة هذه النسبة، إذ أن النسابة العرب لم يذكروا لنا هذا من مثل ابن الكلبي في الجمهرة، وابن حزم في جمهرة أنساب العرب. وقد انفرد البلاذري بهذا معتمداً على قول أبي سمال - على ما يبدو. والتفسير الذي نقبله في هذا الموضوع هو أن الشاعر قد انطلق في قوله هذا من منطلق المجاورة القديمة بين هذه القبائل وبين بني أسد منذ القرن الثالث الميلادي وأوائل القرن الرابع، فقد أخبرتنا الروايات عن حروب طويلة حدثت بين الأسديين وبعض القبائل الأخرى وبين أحد ملوك لخم وأن هذا الملك قد شتت تلك القبائل وقهرها وانتصر عليها(٣) وعلى هذا فان شعور تلك القبائل بالمصير المشترك وخوضها لمعارك دامية جنباً إلى جنب مدة من الزمن - من المظنون أنها طويلة - قد خلقت هذا الشعور بوحدة النسب والارتباط الوثيق، مما دعا الشاعر إلى أن يوحد بين هذه القبائل وبين قبيلته.

كما أنه يمكننا أن نتلمس بعض ملامح هذه الشخصية الشاعرة من بني أسد - على الرغم من قلة المصادر التي تحدثت عنها - ولعل حديث أبي سمال عن مآثره وأيام صباه وفتوته يعيننا في ذلك بعض الشيء، فالنزعة الفردية تطفي في مثل هذه الحالات على النزعة الجماعية التي عرف بها الشعراء الجاهليون - بوجه عام - وليس معنى هذا أن الشعراء نسوا أنفسهم وذابوا في بوتقة القبيلة، إلا أننا نجد الموقف الذي كان فيه أبو سمال مناسباً للحديث عن نفسه لا عن قبيلته. فقد نكأت هذه المرأة جراحه وهيجت أشجانه بسخريتها من كبر سنه وخلوده إلى التأمل والتفكير.

ويرد الشاعر بكل ثقة وهدوء. إنها سنة الدهر ولا بد أن تسري على الجميع، ولعل عزاء أبي

---

١- انظر الإصابة الجزء الثالث ص ١٦٩.
٢- انظر انساب الأشراف ج١ ص ٣٧ طبع القدس - القاهرة ١٩٣٦.
٣- انظر تاريخ القبيلة القديم في الباب الأول وما جاء في نقش النمارة.

سمال هو أنه كان فتى معدوداً في قومه لا يتأخر عن طلب المعالي والأفعال التي تجلب الثناء، ولئن كان اليوم شيخاً فقد سبق هذا شباب نضر وفروسية وبطولات ومغامرات حميدة ومبارزات وانتصارات على الخصوم. انه عزاء أبي سمال بل عزاء كل فارس على امتداد الزمان والمكان. والواقع أن هذه الصورة من الصور التي تكررت كثيراً عند شعراء هذه القبيلة، ويخيل إلينا أنها أصبحت ظاهرة من الظاهر التي تميز بها هؤلاء الشعراء. فعبيد بن الأبرص رأيناه يشكو أكثر من مرة، ومثله الجميح، وهذا هو أبو سمال، وقبله عباد أنف الكلب، وحضرمي بن عامر وغيرهم. وطبيعي هذا في قبيلة حربية كبني أسد بل هو أمر طبيعي في البيئة الجاهلية كلها ذلك، أن المقياس الذي يقاس به الإنسان أولاً هو قوته البدنية فقد كانت تمثل جانباً مهماً في الحياة الجاهلية، فالحرب والغزو ومقارعة الأعداء، بل حتى في أوقات السلم ـ يستحب أن يكون المرء قوياً نافعاً لا عالة على غيره. ولعل هذا هو السبب الذي جعلهم يفضلون الموت وفيهم شيء من قوة فأبو سمال يقول مختتماً قصيدته:

وَلَلْمَوتُ خَيرٌ لامْرِئٍ مِنْ حَيَاتِهِ بَدَارَةِ ذُلٍّ عَلْبَلايَا يُوقَّرُ

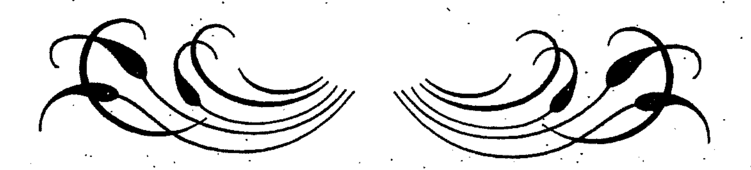
ويطول بنا البحث إذا رحنا نستقصي كل شعراء هذه القبيلة ممن لم تفصل عنهم المصادر القديمة وممن جاء ذكرهم كومضات البرق الخاطفة، فقد وردت أسماء ما يزيد على ثلاثين شاعراً أسدياً مغموراً لم يذكر الرواة إلا بضعة أبيات من الشعر رأينا أن نضعهم جميعاً في ملحق أشعار خاص بهم نلحقه في هذا البحث. ولن نتطرق لدراستهم فنياً لعدم توافر المادة الأدبية التي تعيننا على مثل تلك الدراسة، وسنعرف بهم محاولين الوصول إلى زمن كل شاعر على وجه التقريب، وسنورد تلك النتف الشعرية التي رواها القدماء لكل منهم عسى أن يكون في عملنا هذا شيء من نفع وعلامة على الطريق لمن أراد مواصلة الدرس في هذا المضمار.





# الفصل الثاني

# شُعَرَاؤُهَا المَوَالِي وَالعَبِيدُ



## في هذا الفصل:

بنو الحسحاس: سَحيم

مصادر أخباره

الأغراض الأخرى في شعر سحيم

ظاهرة الفخر عند سحيم

نظرات الشاعر الشخصية في الحياة

الصورة عند سحيم

# بنو الحسحاس

بنو الحسحاس فرع من قبيلة كبيرة هي قبيلة بني أسد بن خزيمة التي تعود في أصولها إلى القبائل المضرية.

والواقع أن بني الحسحاس هؤلاء ليسوا من الشهرة على حظ وافر حتى في داخل قبيلتهم، فلم نسمع عن رجل مشهور من هذا الفرع الأسدي على حين وجدنا من الفروع الأخرى رجالاً، كانت لهم بطولات وأفعال تدل على خصال حميدة، وشعراء كباراً وقفنا على شعر كثير منهم.

# سحيم

ولعل شهرة بني الحسحاس في كتب الأدب بل في التاريخ العربي كله إنما جاءت من شهر رقيقها وعبدها "سحيم" عبد بني الحسحاس وفي أثناء كتابتنا لهذا البحث، وإعدادنا لـه، ونظرنا في المصادر القديمة لم نجد من يحدثنا عن عبد شاعر بلغ مثل هذه المكانة من الشهرة التي بلغها سحيم في كل بطون بني أسد وأفخاذها.

لقد كان سحيم عبد بني الحسحاس الشاعر المولى الوحيد في هذه القبيلة، الذي تحدث أخباره سادته إلى أخلافهم من القبائل الأخرى، وربما كان هناك غيرهن العبيد عند بني أسد فهذا أمر مؤكد ولكننا لم نسمع عنهم شيئاً و لم ترو لنا المصادر أخبارهم.

لقد نال سحيم من الشهرة ما لم ينله كثير من السادة الأحزار وهو العبد الرقيق، وتردد ذكره على الألسنة عند العامة والخاصة في عصره وبعد عصره كثيراً، ولا نغالي إذا قلنا أن أحداً من الرقيق شعراء كانوا أم غير شعراء على امتداد التاريخ العربي لم يحظ بما حظى به هذا المولى سحيم عبد بني الحسحاس، فإذا ذكر تذكرنا بني الحسحاس الأسديين "سادته" فقد عرفوا به و لم يعرف بهم على غير المألوف، وقد رأينا أن نفرد لهذا الشاعر فصلاً من هذه الدراسة، بوصفه الشاعر المولى الوحيد في هذه القبيلة الكبيرة.

# مصادر أخباره:

لا تكاد تبلغ الأخبار التي وصلت إلينا عن سحيم الصفحات القليلة، وقد جاءت أخباره متناثرة في كتب الأدب والتراجم، إلا أن الملاحظ عليها أنها - في معظمها - وردت عن أبي عبيدة - معمر بن المثنى المتوفى سنة ثمان ومئتين، ونقل بعضها عن ابن سلام الجمحي المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومئتين للهجرة، وهو صاحب كتاب "طبقات فحول الشعراء"، وبعد هذا نصادف نتفاً من أخبار سحيم من راوية قديم هو المفضل الضبي المتوفى سنة ثمان وستين ومئة للهجرة، أو في هذه الحدود الزمنية كما يرجح الأستاذان أحمد محمود شاكر وعبد السلام هارون[١].

وقد نقل عن أبو هلال العسكري عن يوسف بن عبد العزيز الباحثون، ونقل هذا الأخير عن عامر سحيماً، فقد جاء في ديوان المعاني أن يوسف بن عبد العزيز قال: "حدثني من رآه - أي سحيماً - في شجرة واضعاً إحدى رجليه على الأخرى يقرض الشعر، وينسب بأخبث نسيب"[٢].

وهناك بعض الروايات التي جاءت منقولة عن آخرين من مثل الحسن بن علي في الأغاني[٣] والسري بن صالح بن أبي مسهر وابن عائشة وكلهم أوردهم كتاب الأغاني في الصفحات ذاتها.

ومن المعروف أن أبا عبيدة معمر بن المثنى كان عالماً واسع الرواية، وليس أدل على ذلك من قول الجاحظ عنه "لم يكن في الأرض خارجي و لا جماعي أعلم بجميع العلوم منه"[٤] ويذكر ابن النديم صاحب الفهرست أنه حوى في بيته ديوان العرب، وجمع علم الإسلام والجاهلية"[٥] ويهمنا من ذلك كله أن هذا الراوية الثقة هو الذي نقل إلينا معظم أخبار سحيم عبد بني الحسحاس خلا بعض التفصيلات التي جاءت عن غيره من الرواة.

ويجد الباحث في حياة سحيم بعض الاضطراب في الأخبار المروية، مما يجعل الباحث يحتاج - والحال كذلك - إلى الروية والصبر كي يقف على الصحيح من تلك الأخبار، ولعل أول خلط في أخبار سحيم هو ما ورد عن اسمه، فبعضهم يخلط بينه وبين سحيم بن وثيل الرياحي، فقد قال بدر الدين العيني صاحب كتاب "المقاصد النحوية" وهو سحيم ابن وثيل الرياحي كان عبداً حبشياً وكان عبد بني الحسحاس[٦] ومثله وقع في هذا اللبس ابن شاكر الكتبي، فذكر انه سحيم بن وثيل عبد بني الحسحاس ابن هند بن سفيان يكنى أبا عبد الله، وهو زنجي أسود فصيح توفي في حدود أربعين للهجرة[٧].

---

١- انظر مقدمة المفضليات ص ٢٣ وما بعدها.

٢- انظر ديوان المعاني الجزء الثاني ص ١٦٦ طبع بمصر ١٣٥٦ هـ.

٣- انظر الأغاني الجزء العشرون ص ٣.

٤- انظر كلام الجاحظ عن أبي عبيدة في تاريخ بغداد الجزء الثالث عشر ص ٢٥٢ طبع بمصر ١٣٤٩هـ.

٥- انظر الفهرست لابن النديم الجزء الأول ص ٨٥ طبع مطبعة الاستقامة.

٦- انظر خزانة الأدب للبغدادي الجزء الأول ص ٢٤٤ طبع بولاق ١٢٩٩هـ.

٧- انظر فوات الوفيات الجزء الأول ص ٣٣٨ تحقيق محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة ١٩٥١.

وقد ذكر أبو الفرج أن اسمه حية[١] ونحن لا نستبعد صحة هذا الخبر الوارد في الأغاني فربما كان هذا الاسم هو اسمه الحقيقي وأن يكون اسم "سحيم" لقباً غلب عليه، ولعل ذلك لسواد لونه فسحيم تصغير أسحم وهو الأسود اللون[٢] وعلى أية حال فإننا نرجح أن هذا الاسم إنما هو لقب أطلق عليه وانه لم يكن ليسمي به قبل أن يشتريه العرب من أهله الأحباش، وقد عرف سحيم عند الناس بأنه "عبد بني الحسحاس" حتى أن ابن سلام الجمحي لم يذكر لنا اسماً من اسمي الشاعر ولا كنيته بأبي عبد الله، ويبدو أن شهرة سحيم جاءت من كونه عبدا لبني الحسحاس، ولعلها هي السبب في خلط الرواة في اسمه.

كما نقع على اضطراب آخر للرواة ولكنه يسير، وهو موضوع جنسية سحيم فابن قتيبة يذهب إلى انه حبشي، وكذلك صاحب الأغاني، وصاحب الخزانة[٣].

ومما يرجح لدينا أنه حبشي هو نطقه الذي أشارت إليه بعض الكتب ـ في بعض مخارج الحروف، فمثلاً كان يجعل الحاء هاء والشين سيناً وتاء الضمير قد يجعلها كافاً فقد ذكر ابن جني قلبه الشين سيناً وتمثل بإنشاده من شعره في قصيدته اليائية:

فَلَــوا كنــتُ وَرْداً لونُــه لَعِشــقْنَني ... ولكــنْ رمِّــى شَــاني بِسَــوادِيا

فقد كان ينشده بالسين[٤] وينقل ابن قتيبة أنه كان بداخله الزهو بشعره "أهنئك والله" أي أحسنت والله "أي أحسنت والله[٥] والواقع أن أهل الحبشة ينطقونها كذلك وقد أشار الجاحظ إلى هذا[٦] وهو أمر متفق عليه.

وكان سحيم أسود قبيح الوجه موشومه كما يقول ابن قتيبة[٧] وهذه هي الإشارة الوحيدة التي وصلت إلينا عن شكله، ولكننا وقفنا على مشاعره وأحاسيسه بالنسبة للونه ولشكله ونفور الناس منه، ولعل ذلك كان طبيعياً في تلك البيئة، فقد عاش سحيم عبداً رقيقاً أسود في بيئة طالما أولعت باللون الأبيض وخلعته على كثير من الصفات والأخلاق المحببة لديها، ونستطيع القول إن تلك البيئة قد أحالت هذا اللون إلى رمز النقاء والصفاء وذكره الشعراء في جل أغراضهم الشعرية من مديح وفخر، ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا اللون قد بات يرمز للتفاؤل عند كثير من العرب.

يقول طرفة مفتخراً بمجالسته النديم الأبيض الوجه:

نَدامــاي بيــضٌ كــالنجومِ وقَيْنَــةٌ ... تــروحُ إلينــا بــينَ بُــردٍ ومُجْسَــدِ[٨]

---

١ـ انظر الأغاني طبع ساس الجزء العشرون ص ٥ طبع الدار ج ٢٢ ص ٢٦١.

٢ـ انظر الاشتقاق ص ٢٢٥.

٣ـ انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٠٨ وانظر الأغاني "ساسي" الجزء العشرون ص ٣ وانظر خزانة الأدب للبغدادي طبع بولاق ص ١٢٩ الجزء الأول.

٤ـ انظر تهذيب اللغة للأزهري مادة رضخ تحقيق د. عبد السلام سرحان طبع مصر ١٩٥٤، وانظر سر صناعة الإعراب الجزء الأول ص ٢١٤ تحقيق السقا ورفاقه طبع دار الكاتب العربي ١٩٦٧.

٥ـ انظر الشعر والشعراء الجزء الأول ص ٤٠٨ وأما البكري في سمط اللآلى فيجعلها كما وردت عند ابن قتيبة.

٦ـ انظر البيان والتبيين الجزء الأول ص ٧٢.

٧ـ الشعر والشعراء الجزء الأول ص ٤٠٨.

٨ـ انظر شرح المعلقات العشر للتبريزي معلقة طرفة.

وهذا عمرو بن شأس الأسدي يعنف زوجه لأنها كرهت في ابنه اللون الأسود غير المحبب، يقول عمرو:

فـإنَّ عـراراً إنْ يكـنْ غـيرَ واضـحٍ　　فَإنّي أُحِبُّ الجونَ ذا المَنْكِبِ العَمِـمِ(١)

فالشاعر يعترف بما للون من منزلة في نفس الإنسان، على الرغم من دفاعه عن موقف ولده أمام زوجه، ويقول عمرو بن شأس في مدح قومه من بني أسد فيرتفع بهذا اللون قيمة إلى أن يصل به إلى العرض حيث يقول:

شـــمُّ الأُنـــوفِ لم يذوقـــوا الذِّلّـــةْ
بيـــضُ الوجُـــوهِ خـــرُقُ الأَخِلّـــةْ(٢)

ولا يغيب عنا قول حسان بن ثابت في مدح الغساسنة حيث يقول:

بِيـضُ الوجـوهِ كَريمـةٌ أحسـابُهُمْ　　شُـمُّ الأُنـوفِ مـن الطِّـرازِ الأوَّلِ(٣)

وهذا زهير بن أبي سلمى يمدح بهذا اللون أيضاً، فيقول في مدح زهير بن حصن ابن حذيفة:

وأبيـضُ فَيّـاضٌ يَـداه غَمامـةٌ　　علـى مُعْتَفِيـه مـا تَغِـبُّ فَواضِلُـه(٤)

وعموماً: فان اللون الأبيض يبقى ساحباً ظلاله الوضيئة في فكر عرب الجاهلية بوجه عام، وهو رمز للنقاء والطهارة، والنبل والشرف، ولعل القرآن الكريم قد كرم هذا اللون على لسان الله تعالى في أكثر من آية، وأكثر من سورة(٥).

على حين بقي اللون الأسود حيث تركه الجاهليون، فهو دلالة على القبح في الصورة والمضمون، وهو عموماً نقيض الخير والجمال، وربما كان مبعثاً على التشاؤم، وهكذا نظر القرآن الكريم إلى هذا اللون ويقول الله تعالى ﴿وترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾(٦) ومن السباب العميقة عندهم أن يقال للمرء "ابن السوداء" وكثيراً ما سمعنا عن تعيير عنترة بسواده وسواد أمه، وسحيم نفسه يعترف بأن لونه قد شانه، فيلجأ إلى الاحتماء بشعره أحياناً لتغطية هذا الأمر حيث يقول:

أشْعارُ عبـدِ بَـني الحَسْـحاس قُمْـنَ لَـهُ　　يَـوْمَ الفَخـارِ مقـامَ الأَصْـلِ والـوَرَقِ

---

١ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٥٧ والشاعر نفسه في الغزل وذكر هذا اللون.

وبيـــض تطلـــي بالعبـــير كأنمـــا　　يطـأن وان أعنقـن في جـدد وحـلا

٢ـ انظر المصدر السابق ص ٧٩.
٣ـ انظر حسان بن ثابت ص .
٤ـ انظر شرح المعلقات العشر للتبريزي ص ٢٢٣ معلقة زهير.
٥ـ انظر سورة آل عمران الآية ١٠٦ وسورة الصافات آية ٤٩.
٦ـ انظر سورة الزمر آية ٦.

إنْ كُنْتُ عبداً فَنَفْسِي حُرَّةٌ كَرَماً ... أو أسْوَدَ اللَّونِ إنّي أبيضَ الخُلُقِ(١)

لقد كان سحيم يعاني شعوراً حاداً بسواده، وهو يختلف عن شعور فارس كعنترة، ذلك أن سحيماً من الرقيق أولاً، ثم انه يميل إلى النساء بصورة عنيفة ثانياً، ولذا يتألم لحاله، ويتحدث عن مزاياه ليدفع عن نفسه هذا الأمر في مجتمع العنجهية والكبرياء.

ومن المعروف أن السود هؤلاء كانوا يشعرون بالنقص، وقد يولد هذا في نفوسهم ألواناً من الأحاسيس، وقد يدفع بعضهم إلى إثبات وجوده بشكل ما، وسحيم شاعرنا كان يندفع أحياناً لإثبات وجوده بشاعريته، ولكننا قد نراه يائساً مستسلماً لمصيره الاجتماعي هذا معلناً عن عجزه، وهوانه وفي مثل هذه الحالة يتحدث عن صد النساء له، ونفورهن منه كقوله:

أتَيْتُ نِساءَ الحَارِثِيِّنَ غُدْوَةً ... بوجهٍ بَراهُ اللهُ غَيْرِ جَميلِ

فَشَبَّهْنَنِي كَلْباً ولسْتُ بِفَوقِهِ ... ولا دُونَهُ إنْ كانَ غيرَ قَليلِ(٢)

ويتضح لنا أن سحيماً يعرف حق المعرفة أن السبب في نفوز الحسان منه، وانصرافهن وعزوفهن، إنما هو سواده المشين.

والواقع انه ما بين أيدينا من أخبار سحيم قليل، بيد أنه على قلته يدلنا على أن هذا الشاعر كان متمرداً على القيم، والأعراف، والتقاليد، وما هتكه لحرمة نساء سادته، وأولياء نعمته إلا دليل واضح على ذلك التمرد، فقد كان يتحدث عن زوجة أو ابنة لسيده بكل إباحية، سواء أكان صادقاً في حديثه ذاك أم كاذباً. كما كان يصرح باسم القوم الذين تنتمي إليهم هذه المرأة أو تلك، ومن ذلك ما جاء على لسان أبي عبيدة معمر بن المثنى من أن سحيما جالس نسوة من بني صبير بن يربوع "وكان من شأنهم إذا جلسوا للغزل أن يتعابثوا بشق الثياب، وشدة المعالجة على إبداء المحاسن فقال سحيم(٣):

كأنَّ الصُّبَيْرِيّاتِ يومَ لَقِيْنَنا ... ظِبَاءٌ حَنَتْ أعناقَها في المَكانِسِ

وَهُنَّ بناتُ القَومِ إنْ يشْعُرُوا بنا ... يكنْ في بَنَاتِ القَوْمِ إحدَى الدَّهارِسِ

فَكَمْ قَدْ شَقَقْنَا عن رداء مُنَيَّرٍ ... ومن بُرْقُعٍ عنْ طِفْلَةٍ غَيْرِ عانِسِ

إذا شُقَّ بُرْدٌ شُقَّ بالبُرْدِ بُرْقُعٌ ... دَوَالَيْكَ حتى كلّنا غيرُ لابِسِ(٤)

ولعل هذه الأخلاق التي كان عليها، وتلك الروح المتمردة على ما حوله كل ذلك ربما دفعه إلى

---

١- انظر ديوان سحيم ص ٥٥.

٢- انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة الجزء الأول ص ٤٠٨ ويقول في موضع آخر حول هذا المعنى:

فلو كنت وردا لونه لعشقنني ... ولكن ربي شانني بسواديا

ما ضرني أن كانت أمي وليدة ... تصر وتبري باللقاح التواديا

وانظر ديوانه ص ٦٩.

٣- انظر ديوانه ص ١٥.

٤- انظر الديوان ص ١٦.

النبوح بما لا يبوح به الرجل الكريم، منها هو ذا يصف لنا مغامرة أثيمة قام بها ـ كما يزعم ـ مع زوجة سيده واصفاً بهذا المرأة بلا استحياء، ولا تعفف، مما لا يليق بالرجل الشهم أن يقوله. يقول سحيم:

تُوَسِّدُنِي كَفّاً وتُثْنِي بمعْصَمٍ عَلَيَّ وتَحْوِي رِجْلَهَا مِن وَرَائِيَا
وأشْهَدُ عندَ اللهِ أنْ قَدْ رَأَيْتُهَا وعِشْرِينَ منها إصبَعاً مِنْ وَرائِيَا
أُقبِّلُها للجانِبَيْنِ وأتَّقِي بها الرِّيحَ والشَّفَّانَ مِنْ عنْ شمَالِيَا[1]

وقد ظل سحيم متهتكاً خبيث الغزل على الرغم من مفارقته لسن الشباب، وظل يتغزل بالأسديات تغزلاً أودى به في نهاية المطاف مقتولاً بجريرة أخلاقية لا تليق بمن بلغ سنه إذ قارب الخمسين من عمره ولم يزل يتصرف كالمراهقين، ويقول في هذا:

فإمّا تَرَيْنِي عَلاَنِي المَشِيبُ وانْصَرَفَ اللَّهْوُ عنِّي انْصِرَافَا
وبانَ الشَّبابُ لِطيَّاتِهِ وقَدْ كُنْتُ رُدِّيتُ مِنْهُ عِطافَا[2]

وقد نتساءل: ما علة هذه الأخلاق والصفات عند سحيم؟ أهي مجتمعه الحبشي الأول وما ترسب في نفسه منه؟ الذي لا نعرف عن نشأة سحيم فيه شيئاً، بيد أننا نعرف أن مجتمع الأحباش ـ عموماً ـ قد عرف في تلك الفترة بالخلاعة واقتحام الأعراف، وربما التخنث والزنا[3] وربما يكون عبد بني الحسحاس قد تأثر به في هذا المضمار قد يكون ذلك، وقد تكون طبيعة الحياة التي عاشها سحيم بوصفه عبداً رقيقاً من الأحباش يتقلب بين شتى صنوف العيش التي تخلو في معظمها من العفاف والنقاء، فالقيان للمتعة والتسري هكذا وقر في أذهان العرب، وهن في ذلك شبيهات إلى حد بعيد بالإماء فكلا الصنفين كان يعامل معاملة فيها كثير من الاستمانة، والمجون، ويقول الدكتور يوسف خليف حول معاملة الرقيق عند العرب: "وليس من شك في أنه كان يلقى منهم ما يلقاه سواه من رقيق الحبشة، فقد كانت حالة الأرقاء الاجتماعية سيئة في مجتمع العرب القبلي الذي يؤمن بوحدته، وجنسه، إيماناً عميقاً والذي يمثل العنجهية الجاهلية بكل ما فيها من معاني الطغيان والجبروت والاستبداد"[4] ولعل أكثر هؤلاء الأرقاء معاناة لتلك الظروف هم العبيد الذين يقادون كالدواب إلى بيوت ساداتهم.

ولعله من العسير على الباحث أن يحدد الفترة الزمنية التي جلب فيها سحيم إلى شبه جزيرة العرب، وأقصى ما يقال في هذا الموضوع هو أنه قد جلب صغيراً، أو ربما ولد في شبه جزيرة العرب في زمن ليس بالبعيد عن عهد الرسالة الإسلامية.

ويذكر القدماء أن "عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي اشتراه لعثمان بن عفان ـ رضي الله عنه

---

١ـ انظر ديوانه ص ٢٠ ـ ٢١.
٢ـ انظر ديوانه ص ٤٥.
٣ـ انظر الأغاني الجزء الخامس ص ٢٢٦ والجزء الأول ص ٦٥ طبع دار الكتب وانظر الإصابة الجزء الأول ص ٨١ وانظر دائرة المعارف للبستاني الجزء ٦ ص ٦٧٥ طبع بيروت دار الكتب. والإصابة لابن حجر الجزء الأول ص ٨١ وانظر صفحة جزيرة العرب ص ٤٠ ـ ٤١.
٤ـ انظر الشعراء الصعاليك ص ١٠٧ طبع دار المعارف ١٩٥٩.

قائلاً ـ إني قد اشتريت لك غلاماً حبشياً شاعراً، فكتب إليه عثمان: لا حاجة بنا إليه فاردده فإنما حفا أهل العبد الشاعر منه إذا شبع أن يشبب بنسائهم، وإذا جاع يهجوهم[١] فرده عبد الله واشتراه ابن معبد أحد بني الحسحاس.

والذي في رأينا أن سحيماً ربما عرض على عثمان بن عفان ليشتريه، ولكننا نرجح ذلك قبل خلافته بزمن طويل، وذلك لأنه لو كان عرض عليه وهو خليفة لعرفه كثيرون، فقد كان حين ذاك شاعراً مشهوراً وليس بغلام حبشي يقرض الشعر، ثم إن شعره ليدل على أنه عاش زمناً طويلاً في الجاهلية، وقد ذكره ابن سلام في شعراء الجاهلية، ووضعه في الطبقة التاسعة من الفحول مع سويد بن كراع والحويدرة[٢] ولو نظرنا إلى شعر سحيم لوجدناه ذا روح جاهلية واضحة من ذكر لأيام القبيلة، وافتخار بها، ومن إشارات إلى الحياة القبلية التي لا يمكن أن تحدث في ظل الإسلام فهو يهيب ببني أسد أن تقاتل قبائل معد كلها حيث يقول:

بَنِـي أَسَـدٍ سِـيرُوا جَمِيعـاً فَقَـاتِلُوا ... مَعَـدّاً إِذَا ارْبَـدَّتْ بِشَـرٍّ جلُودُهَـا

ونجد إشارة أخرى تفيد بتصدع أركان قبيلة بني أسد ذاتها، وسحيم يسعى في هذا لإعادة الوفاق، وتوثيقه، ويذكر بطنين من بطون أسد هما: سعد بن مالك، والحارث بن سعد بن ثعلبة، حيث يقول:

بَنِـي عَمِّنَـا مَـنْ تَجْهَلُـونَ مَكَانَنَـا ... إذا نحـنُ سِـرْنَا نَبْتَغِـي مَـنْ نُحَـالِفُ
وَصِرْنَـا إلَى السَّـعْدَيْنِ سَـعْدِ بـنَ مَـالِكٍ ... وسَعْدِ بَنِي الأَحْلافِ تِلْـكَ العَجَـارِفُ
وقُلْنَـا لهـمْ والخَيـلُ تَـرْدِي بِنَـا مَعـاً ... نُحَـارِبُ مَـنْ حَـارَبْتُمُ ونُحَـالِفُ[٣]

ومن غير المعقول أن تكون هذه الحوادث قد عرضت لبني أسد بعد انضوائها تحت لواء الإسلام، لأن هذه القبيلة لم تفتأ تعمل ضد الإسلام في حروب الردة وما منيت بها من خسائر، أو تعمل في سبيله بعد دخولها فيه، وذلك في الحرب التي خاضتها ضد فارس في القادسية وغيرها، وفقدت فيها عدداً كبيراً من فرسانها المعدودين، فكانت بذلك من النقيض إلى النقيض، ثم يجب أن لا ننسى أن الكيان القبلي لم تعد له تلك الحالة، وذلك المجال للنمو في ظل الإسلام، ومن هنا نؤكد أن هذه الأشعار التي أشرنا إليها قيلت قبل الإسلام، لأنها قبلية التفكير والمضمون.

والذي لا شك فيه ـ عندنا ـ هو أن سحيماً قد اقتحم باب الشعر لمدة طويلة في الجاهلية حتى استوى شعره على النحو الذي بين أيدينا، وإلا لما رأينا ذلك النصح الذي يجري على لسانه إلى أبناء قبيلته، والذي لا يصدر إلا عن رجل متزن خبر أمور الحياة وشؤونها، وفهم سبلها فهماً صحيحاً، ويبدو لنا أن سحيماً كان على طاقة شعرية ناضجة يوازي بها الفحول، ولعل هذه الطاقة والمعرفة الجيدة بالشعر هي التي دفعت ابن سلام وغيره أن يرووا له، ويعدوه من فحول شعراء الجاهلية.

أما مقتل سحيم فقد كان على ما يبدو على أيدي سادته من بني الحسحاس بعد أن شبب

---

١ـ انظر ديوان المعاني للعسكري الجزء الثاني ص ١٦٦ وانظر الشعر والشعراء الجزء الأول ص ٤٠٨.
٢ـ انظر طبقات فحول الشعراء ص ١٤٣.
٣ـ انظر ديوانه ص ٥١.

بنسائهم، وفضحهم بين العرب، ويبدو أن بني الحسحاس قد رفعوا أمره إلى الخليفة قبل قتله، وهناك إشارات في ديوانه تشير إلى أنه سجن وجلد، وقد قال في السجن أبياتاً يعاتب فيها سيده يقول:

أَبَا مَعْبَدٍ واللهِ مَا حَلَّ حُبُّهَا ... ثَمَانُونَ سَوْطاً بَلْ تزيدُ بِمَا وَجْدَا
فإنْ تَقْتُلونِي تَقْتُلوا ابنَ وَلِيدَةٍ ... وإنْ تَتْركُونِي تَتْركُوا أسداً وَرْدا[1]

ويذكر السجن في موضع آخر من ديوانه فيقول:

فَمَا السِّجْنُ إلا ظِلُّ بيتٍ سَكَنْتُهُ ... وما السَّوْطُ إلا جِلْدَةٌ خَالَطَتْ جِلْدَا[2]

وعلى الرغم مما عرفنا عن سيرة سحيم مع النساء إلا أن الباحث لا يستطيع أن يزعم أن هذا العقاب الذي لحق به كان دليلاً على تشبيبه بنساء سادته، فكل ما في الأمر أنه تغزل بالنساء الحرائر ونسب إليهن ما لم يحدث بينه وبينهن، وربما كان يهوى واحدة بعينها منهن، وقد يكون شغف بها وتعلق بحبها، ثم كشف أمره، فأبعد عنها، فلم يرعو. ومن المعروف أن العرب في إسلامهم، وقبل ذلك في جاهليتهم كانوا يفعلون هذا بالعشاق، والفاسقين منهم خاصة، مثل هذا الفعل، وكثيراً ما يبيح الخليفة دماءهم إذا لم ينتهوا عما هم فيه، وقد ذكر أبو الفرج في الأغاني مثل هذا الأمر[3].

والذي لا يتطرق إليه الشك أن بني الحسحاس قد أخذوا إذناً من الخليفة بإهدار دمه إن هو عاد للتشبيب والتعبير، ويقال انهم سقوه الخمر ثم عرضوا عليه نسوة فلما مرت به التي كان يتهم بها أهوى إليها فقتلوه[4].

ويذكرون أنه أنشد وهو يعاني من سكرات الموت:

شُدُّوا وَثَاقَ العَبْدِ لا يُفلِتْكُمُ ... إنَّ الحَيَاةَ مِنَ المَمَاتِ قَرِيبُ
فَلَقَدْ تَحَدَّرَ مِنْ جَبِينِ فَتَاتِكُمْ ... عَرَقٌ عَلَى ظَهْرِ الفِرَاشِ وَطِيبُ[5]

على أن الذي يهمنا ليست طريقة القتل، وإنما إثبات مقتله على هذه الشاكلة بجريرة أخلاقية، وعلى أيدي بني الحسحاس سادته بعد أن ضاقوا ذرعاً بتهوره وطيشه، وفسقه، فكان أن تخلصوا منه بطريقة أو بأخرى.

وقد اختلف الرواة في تحديد سنة مقتله، فزعم ابن شاكر الكتبي أنه قتل في حدود الأربعين للهجرة[6] وأيده بعد ذلك خير الدين الزركلي في الأعلام[7] والراجح عندنا أنه قتل في خلافة عثمان بن عفان والمعروف أن خلافته قد انتهت سنة ٣٥ هجرية، وان كنا لا نستطيع تحديد السنة

---

١ـ انظر ديوانه ص ٦٩.
٢ـ انظر ديوانه ص ٦٦.
٣ـ انظر الأغاني الجزء التاسع دار الكتب ص ٦٤ والجزء الرابع دار الكتب ص ٢٤٦، والجزء الثامن ص ١٠٨ دار الكتب.
٤ـ انظر ديوان سحيم ص ٥ ـ ٦ وانظر رواية ابن قتيبة في الشعر والشعراء من أنهم جمعوا له حطباً كثيراً ثم أوثقوه وأرسلوا النار في الحطب الجزء الأول ص ٤٠٩ وأورد البكري الخبر بالسمط الجزء الثاني ص ٧٢١.
٥ـ انظر ديوانه ص ٦٠.
٦ـ انظر فوات الوفيات ص ٣٣٨ الجزء الأول.
٧ـ الأعلام الجزء الثالث ص ١٢٤ طبعة ثانية ١٩٥٩.

التي قتل فيها، ولكن الغالب أنه قتل في بداية خلافة عثمان لا في نهايتها، وبما يعزز ذلك الرأي عندنا أن بني الحسحاس إنما قتلوه أصلاً بسبب تشبيبه بنسائهم، وقد شكوا أمره إلى الخليفة، وعلى الرغم من سجنه وجلده، ظل يتغزل بنساء سادته، ومن غير المعقول أن يصبر عليه القوم فترة طويلة وهو يتفحش في القول عليهم، فإذا كان مقتل عمر سنة ٢٣ للهجرة، ومقتل عثمان ٣٥ للهجرة فإذا فرضنا أن عمر سمع غزل العبد في آخر أيامه وقال له انك لمقتول[١] فبعدكم سنة تم قتله، أليس من المحتمل أن يكون في مطلع خلافة عثمان؟

والواقع أن الروايات تحدثنا عن صلة سحيم بالنساء، وكذلك شعره الذي وصل إلينا يكشف لنا عن مغامرات، وعلاقات نستغرب لها، على الرغم من علمنا بقبح سحيم وسواده، فما هي الحقيقة؟ هل كان سحيم كاذباً فيما قاله؟ أم كان صادقاً فيما أورده من علاقات وغراميات؟ قبل أن نجيب عن هذا السؤال يطالعنا جواب ابن شرف الدين القيرواني حيث يميل إلى تكذيب سحيم فيما زعمه وادعاه عن أمر تلك المغامرات، ويرجح أسباب ذلك إلى أسباب نفسية، فيذهب إلى أن ادعاء سحيم هذا كان نابعاً من حرمان وصادرا عن شهوة متقدة في نفسه إذ يقول: "والممنوع من الشيء حريص عليه مدّعٍ فيه، والمقد لما يهواه كاتم له مستغن ببلوغ مناه"[٢] ويذهب ابن شرف الدين القيرواني إلى أن سحيماً كان كاذباً، ويسخر من قبحه، ويضرب مثلاً يؤيد ما ذهب إليه، وهو المرقش الأكبر فقد كان جميلاً، وأخباره معروفة ـ مع النساء ـ إذ لهن فيه رغبة، ومع ذلك لا نجد في شعره ما أقدم على وصفه سحيم، ونحن لا ننكر أن سحيماً ربما لفق واختلق وأضاف من بنات خياله أخباراً وهمية قد يكون الرواة فيما أخذوها مأخذ الجد والصدق، وليس من المستبعد أن هؤلاء الرواة قد زادوا في تلك الأخبار أيضاً، ولذا فقد جاءت أخبار سحيم لا تخلو من التزيد والاختلاق.

ولعل الشاعر سحيم عبد بني الحسحاس قد لفق وتزيد نتيجة لعوامل نفسية فرضتها عليه جملة من الظروف المحيطة به كالبيئة والوضع الاجتماعي المتحلل الذي كان فيه، وربما كان لوراثته وانحداره من مجتمع خليع ـ في الأصل ـ جعله يميل إلى فاحش القول والعمل ووضعه في عراك داخلي نتيجة معاناته اليومية المستمرة اتخذ شكلاً كالذي رأيناه في ديوانه، فإلحاح سحيم على صفة البياض والسمو الروحي والأخلاقي ربما يحمل في طياته بعض الشعور بالنفس، تجاه نفسه أولاً، وتجاه الآخرين ثانياً، ولهذا نراه يلوذ بشعره ليصور لنا فيه ما عجز عن تحقيقه في الواقع ربما كان الأمر كذلك؟ والذي لا شك فيه هو أن البيئة التي عاش فيها سحيم مع بني الحسحاس من بني أسد بن خزيمة قد أسهمت إلى حد في ذلك الاتجاه الحاد عنده، فوجد في المرأة المنقذ الذي يعبر به عما في نفسه، ولا غرابة ـ والحال كهذا ـ أن يكون سحيم حلو المنطق مع النسوة ماهر التصرف بالتودد إليهن، وله ما يساعده في ذلك فمن المعروف أن بني أسد قبيلة حربية الرجال، الفرسان من أبنائها في شغل كثير بأمور الحرب وتدبير شؤون القبيلة هذا من جهة، كما أن تلك الغزوات تودي بحياة الكثيرين من هؤلاء الفرسان، فتخلو بيوتهم من الرجال من جهة ثانية، وسحيم في كل هذا هو المستفيد، وهو الأقرب إلى البيوت ومن في البيوت، فإذا أضفنا عدم اكتراث السادة من هؤلاء العرب بالخدم والعبيد في بيوتهم، وحرية التنقل التي يتمتعون بها داخل تلك البيوت لم نستبعد وجود الفرصة السانحة لسحيم وأمثاله بالاختلاط بالنساء بل معاشرتهن أحياناً دون إثارة أدنى انتباه.

---

١ـ انظر مقدمة ديوان سحيم ص ٥ وانظر الشعر والشعراء الجزء الأول ص ٤٠٩.

٢ـ انظر رسائل البلغاء ص ٣٣٠ جمع محمد كرد علي، بلا تاريخ.

وإذا نحن سلمنا بادعاء سحيم في كل ما قاله، فإننا لا نملك ولا نستطيع أن ننكر علاقته بالمرأة، فلا شك أنه عانى من تجربة وقعت له، ووقوع مثل هذه التجربة يقره العقل، ويؤيده منطق الحياة، ولعلنا نقول: إن ضآلة سحيم في مجتمعه قد تكون هي الدافع بالنسبة للمرأة إليه، فهو أدنى منها منزلة، وأقل قدراً، فليس يضيرها أن تتنازل له بعض الشيء عما لم تعتد أن تتنازل عنه لمساويها شرفاً، ومقاربها رفعة، ولعل في هذا الرأي نصيب كبير من الصحة[1] وعلى هذا فليس من المستغرب أن تكون النسوة الأسديات يجدن فيه ما يسرهن، وبخاصة عند إنشاده الشعر العذب في لكنته المميزة التي أشرنا إليها، ولعل في شعره ما يشير إلى مثل هذا من مثل قوله:

أَشَارَتْ بِمِدْرَاهَا وَقَالَتْ لِتِرْبِهَا ... أَعَبْدُ بَنِي الْحَسْحَاسِ يُزْجِي القَوَافِيَا

رَأَت قَتَباً رَثّاً وَسَحْقَ عَبَاءَةٍ ... وَأَسْوَدَ مِمَّا يَمْلِكُ النَّاسَ عَارِيَا

فَلَوْ كُنْتُ وَرْداً لَونُهُ لَعَشِقْنَنِي ... وَلَكِنَّ رَبِّي شَانَنِي بِسَوادِيا

لَعِبْنَ بِدَكْدَاكٍ خَصِيبٍ جَنَابُهُ ... وَأَلْقَيْنَ عَنْ أَعْطَافِهِنَّ الْمَرَادِيَا[2]

ولعل النساء الأسديات لم يكن يتحفظن أمامه لأن عبوديته تجرؤهن عليه، ولا غرو أن يتطور الأمر إلى مداعبات، وربما كانت لا تقترب من البراءة أحياناً، وقد يصل من خلال ذلك إلى بعض أربه من المرأة الأسدية على الرغم من قبحه وسواده.

أما عن رواية شعر سحيم، ومتى كانت البداية، فالحقيقة: انه يصعب على الباحث تحديد ذلك غير أنه من المرجح أن سحيماً كان ينشد الشعر في عامة بني أسد، وبخاصة بني الحسحاس سادته، ومن خلال وقوفنا على طرف من حياة هذا الشاعر الرقيق، ومعرفتنا لظروف وملابسات مقتله قد تبين لنا أنه كان مثيراً بتصرفاته للآخرين لافتاً للأنظار، ولعله كان في مغامراته يفتح الطريق للأذهان لأن تحفظ شعره كما أن نهايته كانت أدعى لحفظ شعره، ولسنا نتجاوز المنطق إذا قلنا، أن ظروف حياة سحيم ومقتله وتفحشه على النساء الأسديات هي التي حفظت لنا شعره على الرغم من أنه لم تتح له الظروف التي تسمح بانتشار الشعر بين العرب كالذهاب إلى الأسواق، ومنافرات الفحول فيها، كما كان معروفاً في عكاظ وغيره من أسواق العرب، وبالرغم من ضياع كثير من شعر سحيم إلا أن جزءاً قليلاً وصل إلينا، برغم ما فيه من تعريض ببني أسد، وسنحاول بعد هذه الإطلالة على شخصية سحيم والعوامل التي ربما كانت ذات أثر في تكوينها ـ الوقوف على الجوانب الفنية الأخرى التي قد تخفيها نظرة المتعجل لسحيم هذا الشاعر الناضج التجربة الذي ربما حكم عليه بعضهم بشيء من القسوة. ولنبدأ بمناقشة لغزل هذا الشاعر، وقد لاح لنا أن غزله ينقسم إلى قسمين أولهما: غزل صريح مكشوف عبر فيه الشاعر عن مغامرات لم تكن صادقة، ولا واقعية في أغلبها، وربما كمن وراء هذا القسم الشعور الحاد بالنقص لدى سحيم، ولم يكن مبرعاً غزله هذا فهو فيه كامرئ القيس، وعبيد بن الأبرص، وثانيهما: غزل وجداني يحمل آلاماً غرامية مست قلب سحيم بصدق وعنف، وقد حاكى في هذا النوع غيره من الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه، وكان مصدره في ذلك المثل العربية وتجارب البيئة، ونزعم أن الشاعر قد اتخذ شكله الغزلي المناسب بهذا التقسيم.

---

١ـ انظر تاريخ الشعر العربي حتى القرن للهجري للدكتور البهبيتي ص ١٥٢.

٢ـ انظر ديوانه ص ٥٢.

فسحيم قبل كل شيء شاعر ينظر إلى من سبقه، وإلى من يعاصره من الشعراء الأسديين وغير الأسديين، وهو إنسان له إحساسه بالجمال وشعوره الخاص به، ومن الممكن أن تكون له تجاربه في الحب كغيره من الرجال، وهو ينحدر من بيئة حبشية لها أعراقها وتقاليدها، ولا بد أن يتأثر بها في قليل أو كثير رغم معيشته في شبه الجزيرة العربية بين ظهراني بني أسد.

وبهذه المفاهيم سننظر إلى فن سحيم الشعري في الغزل، ويكاد القدماء يقفون عند غزل سحيم الجنسي حيث تقتلع رياح هذا النوع بعض جذور الإنسان ووجدانه.

والغريب أن سحيماً لم يقف في اندفاعه نحو هذا النوع من الغزل على الرغم من تقدمه في السن حيث يغلب العقل على تصرفات المرء، ويتحلم بعد الجهل بالأمور، ويصبح قادراً على الحكم السديد في القول والعمل، ولكن سحيماً ظل يعزف ويترنم كما يترنم المراهق في صباه، وغرضه الأول من ذلك المتعة واللذة.

والمرأة عنده ـ في هذا النوع من الغزل ـ لا تتعدى نظرته الجنسية لها، وهو في هذا لا يبالي أكانت حرة أم لم تكن، وقد رأيناه يتحدث عن نساء بني أسد مرة وعن نساء بني صبير بن يربوع مرة أخرى، والذي يبدو لنا أنه بدأ هذا النوع من الغزل وهو فتى، ولكننا لا نعرف على وجه الدقة أي القصائد بدأ بها لأنه استمر على هذه الحال حتى قارب الخمسين، وقتل بسبب ذلك.

وسحيم في الغزل الحسي لا يبقي على سر ولا يكتم خبراً، فالتصريح رائده الأول باسم المرأة واسم قبيلتها مما لم نألفه في شعر الجاهليين بعامة وليس في شعر بني أسد فحسب. حيث يقول فاضحاً نفسه ومن معه:

كَأَنَّ الصُّبَيْرِيَّاتِ يَومَ لَقِينَنَا ... ظِبَاءٌ حَنَتْ أَعْنَاقَهَا فِي المَكَانِسِ
فَكَمْ قَدْ شَقَقْنَا مِنْ رِدَاءٍ مُنَيَّرٍ ... ومِنْ بُرقُعٍ عَنْ طِفلَةٍ غَيرِ عَانِسِ
إِذَا شُقَّ بُرْدٌ شُقَّ بِالبُرْدِ بُرقُعٌ ... دَوَالَيْكَ حَتَّى كُلُّنَا غَيرُ لَابِسِ(١)

ويبدو لنا أن هذا الإعلان من الشاعر إنما هو صادر عن حرمان مما كان يتمنى حدوثه، فالمجتمع البدوي القبلي يحول بينه وبين ما في نفسه أن يتحقق، وإذا ما أضفنا إلى ذلك وضاعة منزلته الاجتماعية تبين لنا صحة ما ذهبنا إليه، وإلا فما كان أيسر عليه أن يخفي اسم المرأة واسم قومها؟ ولكنه ربما تصور أن هذا الجهر قد يثبت وجوده، ويجعل الأمر محمولاً على محمل الجد، وانظر إليه يقول في موضع آخر مصرحاً بتجربته على أسماع الآخرين إذ يقول:

وبتنا وِسَادَنَا إِلَى عَلجَانَةٍ ... وَحِقْفٍ تَهَادَاهُ الرِّيَاحُ تَهَادِيَا
تُوَسِّدُنِي كَفّاً وتَثْنِي بِمِعْصَمٍ ... عَلَيَّ وتَحْوِي رِجْلَهَا مِن وَرَائِيَا
وَهَبَّتْ لَنَا رِيحُ الشَّمَالِ بِقَرَّةٍ ... وَلَا ثَوبَ إِلَّا بُردُهَا وَرِدَائِيَا
وَأَشْهَدُ عِندَ اللهِ أَنْ قَدْ رَأَيْتُهَا ... وعِشْرِينَ مِنهَا إِصبَعاً مِنْ وَرَائِيَا
أُقَبِّلُهَا لِلجَانِبَيْنِ وأَتَّقِي ... بِهَا الرِّيحَ والشَّفَّانَ مِن عَنْ شِمَالِيَا(٢)

---

١ـ انظر ديوانه ص ١٥.
٢ـ انظر ديوانه ص ١٩ ـ ٢٠.

وغير هذا في ديوانه مما لا يختلف عن هذا الذي أوردناه، فالشاعر هنا ربما تخيل امرأة في وضع معين كما يحلو له، وقد لا يكون لما قاله أي نصيب من الصحة إلا في خياله وذاكرته لا غيره وقد نقع على مثل هذه الأمنيات غير مرة في شعره، وذلك من مثل قوله:

فَيَا لَيْتَنِي مِنْ غَيْرِ بَلْوى تُصِيبُنِي ... أَكُونُ لأَجْمالِ ابنِ أَيْمَنَ رَاعِيَا
وَفِي الشَّرطِ أَنّي لا أُباعُ وأَنَّهم ... يَقُولُونَ غَبِّقْ يا عَسِيفُ العَذَارِيا
فَأُسْنِدُ كَسلَى بَزَّها النَّوْمُ ثَوبَهَا ... إلى الصَّدْرِ والمَمْلُوكُ يَلْقَى المَلاَقِيا(١)

فمن المؤكد أنه شاهد نساء ابن أيمن هذا، وشغف بهن فمضى في أحلامه وتصوراته تلك، وقد يذهب بشاعرنا غزله الجنسي المكشوف إلى التحدي وذلك من مثل قوله قبل أن يقتل مخاطباً إحدى نساء بني أسد:

فَإِنْ تَضْحَكِي مِنّي فيارُبَّ ليلةٍ ... تَركتُكِ فِيها كالقَبَاءِ المُفَرَّجِ(٢)

وقوله:

إنْ تَقْتُلونِي فقدْ أسْخَنْتُ أَعْيُنَكُمْ ... وقَدْ أَتَيْتُ حَراماً ما تَظُنُّونا
وَقَدْ ضَمَمْتُ إلَى الأَحْشَاءِ جَارِيةً ... عَذْبٌ مُقَبَّلُها مِمَّا تَصُونونا(٣)

ومن الملاحظ أنه في هذا القسم من غزله المكشوف عدم العناية والانشغال بالأمور الفنية ووسائل التعبير كوصف المفاتن وتصوير الحركات، بل نراه منصرفاً في حديثه إلى تصوير كلفه بالمرأة بصورة عامة، ولذلك نراه مستعجلاً هذا الوصف، وكأنه يريد أن يقول ما عنده في وقت قصير قد المستطاع، ولذا فقد خلا هذا النوع من غزل سحيم من اللوحات الفنية أو الميل إلى التصوير بدقة كما سنلاحظ ذلك في وصفه للمطر والسحاب.

أما غزله الوجداني - إن صح التعبير - فالواقع انه كان يصدر من ذات المنبع الأول بيد أنه يصور لنا فيه حرارة الشوق، واعتمال الحب، وما يلاقي العاشق من وجد وألم، وليس هذا بدعاً من شاعر انصرف طوال حياته إلى المرأة، وزاده عمله صلة بها، وليس بمعنى هذا أن حب سحيم هنا كان عذرياً، فهو حب لا يخلو من نزعات الجسد، فقد يحب الرجل المرأة لأنها في نظره تمثل أنوثة شفافة ونفسية صافية عذبة واتزاناً في الطباع بالإضافة إلى المزايا الجسدية التي تفتن وتبهر، ولعل مما يصور لنا لواعج سحيم وتحرقه شوقاً إلى المحبوبة قوله:

أَيا مَعْبَدٍ واللهِ مَا حَلَّ حُبَّهَا ... ثَمانُونَ سَوطاً بلْ تَزِيدُ بِهَا وَجْدَا(٤)

---

١- انظر ديوانه ص ٥٧ وابن أيمن كما ورد في جمهرة الأنساب لابن حزم من بني قلب الأسديين وأبوه خزيم بن فاتك الأسدي، وانظر سمط اللآلى للبكري الجزء الأول ص ٢٦٦.

٢- انظر ديوانه ص ٥٩.

٣- انظر ديوانه ص ٥٩.

٤- انظر ديوان سحيم ص ٦٦.

ولعل سحيماً كتم حبه وهواه زمناً، ثم ضاق ذرعاً بكتمانه، فأعلنه فأخذت الغيرة تدب في قلوب سادته، فصدوه ونهوه فلم ينته لسجن وجلد، فلما خرج عاتب سيده بقوله:

أَبا مَعْبَدٍ بِئْسَ الفَرَاضَةُ للفَتَى ... ثَمانُونَ لَمْ تَتْرُكْ لِحِلْفِكُمُ عَبْدا
كَسَوْنِي غَدَاةَ الدَّارِ سُمْراً كَأَنَّها ... شَيَاطِينُ لَمْ تَتْرُكْ فُؤاداً وَلا عَهْدا(١)

ويعتبر هذا النوع من الغزل أكثر شيوعاً في شعر سحيم من النوع الأول. وهو في عمومه غزل تقليدي - كما أشرنا - يخلو من التعبير عن نزوات النفس، ولا يذكره الماجنون، بل يجنح إلى تصوير الألم بعد رحيل المحبوبة كقوله:

خَلِيلَيَّ هَذا البَيْنُ قَدْ جَدَّ جِدُّهُ ... فَعُوذَا لَنا مِنْ شَرِّ ما البَيْنُ مُقْرِفُ
وَإِنْ لَمْ تَبُوحا خِفْتُ من باطِنِ الْجَوَى ... وإنْ بُحْتُهُ فالسَّيفُ عُرْيَانَ يَنْطِفُ
أَرِقاً وَتَغْنِيطاً ونَأْياً وفُرْقَةً ... على حِينَ أَبْصَرْتُ الْمَشارِعَ تَنْشَفُ(٢)

وسحيم في هذا النوع يترسم خطى من سبقوه ومن عاصروه، فوصف مفاتن المرأة كما وصفوها، وتحدث عن الأطلال وارتحال الظعائن، ومما يلحظه الباحث - هنا - أن أكثر الشعراء تأثيراً في سحيم في هذا المجال هو الشاعر امرؤ القيس بن حجر، فقد وصف هذا الشاعر مفاتن المرأة من امتلاء جسم، وجيد، وبيان ولون، وحسن وجه، مما لا تدعونا الحاجة إلى تكراره هنا، ولعل أقل ما يقال فيه هو أنه وصف ينزع إلى تصوير المرأة كمثال للجمال.

والواقع أن الشعراء الجاهليين - عموماً - وصفوا المرأة وصفاً مثالياً، وقلما صوروها كما هي في الواقع المعاش، فهي عند بعضهم أشبه ما تكون بوثن بعيد وهي عند بعضهم وسيلة للمتعة الحسية(٣).

ويمكن للباحث أن يتلمس مدى تأثير امرئ القيس في سحيم إذا وقفنا وتأملنا قصيدته اليائية، ففيها ما يوضح شيئاً من هذا القبيل يقول سحيم:

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إِنْ تَجَهَّزتَ غَادِيا ... كَفَى الشَّيبُ والإسْلامُ لِلمَرءِ نَاهِيَا
جُنوناً بها فيما اعْتَشَرْنا عُلالَةً ... عَلاقَةَ حُبٍّ مُسْتَمِرّاً وَبادِيا
لَيالِيَ تَصْطادُ القلوبَ بفاحِمٍ ... تَراهُ أَثِيثاً نَاعِمَ النَّبْتِ عَافِيَا
وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّئْمِ لَيسَ بعاطِلٍ ... مِنَ الدُّرِّ والياقُوتِ والشَّذْرِ حَالِيا
كَأَنَّ الثُّريا عُلِّقَتْ فَوقَ نَحْرِها ... وَجَمْرَ غَضَىً هَبَّتْ لَهُ الرِيحُ ذاكِيا
تُرِيكَ غَدَاةَ البَيْنِ كَفّاً وَمِعْصَماً ... وَوَجْهاً كَدِينارِ الأَعِزَّةِ صَافِيا(٤)

ولا يغيب علينا ترسم الشاعر لخطى السابقين عليه، ولعل أظهرهم امرئ القيس، فمحبوبة سحيم

---

١- انظر ديوانه ص ٦٦.
٢- انظر ديوانيه ص ٦٣.
٣- انظر كتاب الدكتور محمد مصطفى هدارة الأدب العربي في العصر الجاهلي "بين المثال والواقع" فقد أفاض في هذه النقطة.
٤- انظر ديوان سحيم ص ١٧ - ١٨.

ذات شعر أسود فاحم تجتذب به القلوب نحوها لما فيه من نعومة وكثافة، وأما جيدها فما أشبهه بجيد محبوبة أخرى هي محبوبة امرئ القيس الذي يقول:

وَجيدٍ كَجيدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بفاحشٍ ... إذَا هِيَ نَصَّتْهُ ولا بمُعَطَّلِ
وفرعٍ يُغَشّي المَتْنَ أسودَ فاحمٍ ... أثيثٍ كقِنْوِ النّخْلَةِ المُتَعَشْكِلِ(١)

ومثل ذلك بياضها الذي يشبه بياض الثريا في نقائه وصفائه أما لمعان بشرتها فيقترب من لون الجمر الذي يلتهب فيه حطب الغض وتغذوه الريح إمعاناً في جلاء لونه وبريقه وإذن فمحبوبة سحيم مثالية هي الأخرى في جمالها وهي على هذه الصفات كأي محبوبة أخرى ممن وصف الشعراء الجاهليون السابقون عليه في أشعارهم كما نجد سحيماً في غزله هذا يأخذ عبارات بأكملها ممن سبقه، ولا يقف عند المعاني المكررة فقوله: وجيد كجيد الرئم ليس بعاطل لا يختلف كثيراً عن قول امرئ القيس في ألفاظه وكلماته، ويقول في موضع آخر ليشبه محبوبته بالدمية ذات الشعر الفاحم والعنق المشرئب كعنق الغزالة إذ يقول:

وَما دُمْيَةٌ مِنْ دُمى مَيْسَنا ... نَ مُعجبةٌ نظراً واتّصَافَا
بأحسنَ مِنْها غداةَ الرَّحِيـ ... ـلِ قامتْ تُرائِيك وَحْفَاً غُدَافَا
وَجيداً كجيدِ الغَزَالِ التّريـ ... ـفَ يَأتَلِفُ الدُّرُّ فِيهِ ائْتِلافَا
وَعيْنَيْ مَهَاةٍ بِسِقْطِ الجِمَا ... دِ تَعْطُو نِعَافاً وَتقْرو نِعَافَا
وَأبْدَتْ مَعَاصِمَ ممكُورةٍ ... تَزينُ أنامِلُهُنَّ اللّطَافَا(٢)

وقد نجد اهتماماً من سحيم في الصورة هنا يفوق ـ بكثير ـ ذلك الذي لا نكاد نقع له على أثر في شعره في غزله الحسي، فالشاعر هنا يتتبع الجزئيات في الصورة، ويرسم خطوطها، ويظللها بالألوان الملائمة لها، وذلك في مثل قوله:

فَما بَيْضَةٌ باتَ الظّلِيمُ يُحُفُّهَا ... ويَرْفَعُ عَنْهَا جُؤْجُؤاً مُتَجَافِيَا
ويَجْعَلُهَا بينَ الجَناحِ ودَفّهِ ... ويَفرشُهَا وحْفاً مِنَ الزِّفِّ وافيا
فيَرْفعُ عَنْهَا وهيَ بَيْضَاءُ طَلّةٌ ... وَقَدْ واجَهتْ قَرْناً مِنَ الشّمْسِ ضَاحِيا
بِأحْسَنَ مِنْهَا يومَ قَالَتْ أراحِلٌ ... مَعَ الرّكْبِ أم ثاوٍ لَدَيْنا لَيَالِيَا(٣)

وقد نجده أحياناً يتمدح على غرار امرئ القيس في إخراج الحسان من خدورهن لشدة كلفهن به، وذلك من مثل قوله:

وَمِثْلِكِ قَدْ أخْرَجتُ مِنْ خِدْرِ بَيْتِها ... إلَى مَجْلِسٍ تَجُرُّ بُرداً مُسَهَّمَا
وَمَاشِيةٍ مَشْيَ القَطَاةِ اتّبَعْتُها ... مِنَ السِّتْرِ تَخْشَى أهْلَهَا أنْ تَكَلّما

---

١ـ انظر ديوان امرئ القيس ص ١٦ طبع دار المعارف ١٩٦٤.
٢ـ انظر ديوان سحيم ص ٤٣ ـ ٤٤.
٣ـ انظر ديوانه ص ١٨ ـ وانظر شعر عمرو بن شأس ص ٧٧ ففيه العبارة ذاتها.

فَقَـالَتْ لَـهُ: يَـاويحَ غَـيْرِكَ إنَّنِـي سمعـتُ كَلامـاً بينَهُـمْ يَقْطُـرُ الدَّمَـا(١)

وهو في غزله يصرم كغيره من الفحول إذ يقول:

أَلَـمْ تَعْلَمِـي أَنِّـي صَـرُومٌ مُوَاصِـلٌ إذَا لَمْ يكُـنْ شَـيءٌ لِشَـيءٍ مُواتيَـا
فَـإنْ تُقْبِلِـي بـالوُدِّ أُقْبِـلْ بِمِثْلِـهِ وإنْ تدْبِـري أذْهَـبْ إلى حَـالٍ بَالِيَـا(٢)

فهو هنا لا يختلف عن لبيد بن ربيعة في قوله:

أَوَلَـمْ تَكُـنْ تَـدْرِي نَـوارُ بـأَنَّنِي وَصَّـالُ عَقْـدِ حَبَـائِلٍ جُذَّامُهَـا
تَـرَّاكُ أَمكِنَـةٍ إذا لَمْ أَرْضَهَـا أَوْ يَعْتَلِـقْ بعـضَ النفـوسِ حِمامُهـا(٣)

وقد لا يبعد سحيم في صرمه هذا عن عمرو بن شأس الأسدي حين قال:

أَلَمْ يَأْتِهَـا أَنِّـي صَحَـوْتُ وأَنَّنِـي تَحَلَّمْـتُ حتّـى مـا أُعـارِمُ مِـنْ عَـرَمْ
فَـإنْ كنـتِ مِنّـي أو تُريديـنَ صُحْبَتِـي فكُونِـي لَـهُ كالسَّـمْنِ رُبَّـتْ لَـهُ الأَدَمْ
وإلاّ فَسِـيرِي مثلَمَـا سَـارَ راكِـبٌ تَيَمَّـمَ خِسْـاً لَيْـسَ فِـي سَـيْرِهِ يَتَـمْ(٤)

والواقع أن سحيماً قد حلا طباع المرأة كما يبدو جيداً، وقد يصور لنا في غزله ما يدور في ذهنها بدقة وخبرة لا يبلغها إلا كل بصير، وذلك من مثل قوله في أسلوب قصصي لا يخلو من جمال وجاذبية، ويقترب من النفس إلى حد بعيد، فالمرأة تطمع في الغياب، ولكنها تحجم وتتمنع في الحضور ويبتعد بها الحياء عما تريد، بل يحول بينها وبين ما تتمنى تحقيقه يقول سحيم:

وَجَدْتُهُمَـا يَومـاً ولِلصَّيـدِ غِـرَّةٌ تَدُقَّـانِ مِسْـكاً مـائِلاً بُرْقُعَاهُمَـا
بَكَـتْ هَـذِهِ وارفَـضَّ مُدْمَـعُ هَـذِهِ وأَذْرَيـتُ دَمعِـي فِـي خِـلالِ بُكَاهُمَـا
تَمنَّيْـتُ أنْ أَلْقاهُمَـا وتَمَنَّيَـا فَلَمَّـا التَقَيْنـا اسـتَحْيَيَا مِـنْ مُناهُمَـا(٥)

وهكذا وصل سحيم المفاتن للمرأة، وقد كان حسياً مرة ومقترباً من الوجدان أخرى، ولعله كان مقلداً أكثر منه مبدعاً في هذا اللون من الغزل، ولعل وصف شاهد الارتحال والوقوف على الأطلال عند سحيم مما لا نجد فيه جديداً نذكره في البحث فقد كانوا جميعاً يتساءلون ويماشون الركب، ويذكرون الظعائن، ويتحدثون عن النساء الراحلات بلوعة وحرقة، وشعراء بني أسد ـ عموماً ـ كانوا كبقية الشعراء الجاهليين ومنهم سحيم عبد بني الحسحاس الذي لم يخرج عن السنة المتبعة في هذا الموضوع وهذه اللوحة الطللية، وقد نجده يستعير القوالب اللفظية والصور والمعاني من السابقين

---

١ـ انظر ديوانه ص ٣٥.
٢ـ انظر ديوانه ص ٢٢.
٣ـ انظر شرح المعلقات العشر للتبريزي (معلقة لبيد).
٤ـ انظر ديوان عمر بن شأس الأسدي ص ٥٧ ـ ٦٨.
٥ـ انظر ديوان سحيم ص ٦٢.

من مثل قوله في الظعائن:

تَبَصَّرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ تَحَمَّلْنَ مِنْ جَنْبَيْ شَرَوْرَي غَوادِيا
تَأَطَّرْنَ حَتَّى قلتُ لَسْنَ بَوارحاً ولاَ لاَحِقاتِ الحَيِّ إلا سَوَاريا
أَخَذْنَ عَلَى المِقْرَاةِ أو عن يَمينِهَا إذا قُلتُ قدْ وَرَّعْنَ أنزلْنَ حَادِيَا(١)

ونجد الشاعر هنا يوجه اهتمامه الأول لتصوير الراحلة بصورة عامة تخلو من الجزئيات الدقيقة، ولعل المهم لديه ـ هنا ـ هو تتبع حركة الظعائن فقط، أما الحديث التفصيلي عن أثر هذه الرحلة في نفسه، فيأتي في مرحلة لاحقة والواقع أن الشاعر هنا يقف بالأطلال، ويصف الظعائن بصورة موجزة لا يطيل فيها، ونراه يوجز لنا الحديث ما استطاع، ثم لا يلبث أن يهرب منه إلى غيره، ولا غرابة في ذلك عندنا ـ فهو حديث أسى وألم وشجون وذكريات قاسية على نفس الشاعر، والملاحظ في شعر سحيم أنه قليل الوقوف على الأطلال ووصف الظعائن في افتتاحيات قصائده، كما وجدنا ذلك بوفرة ـ عند شعراء بني أسد الآخرين، ويلوح لنا أن السبب ربما كان وضع سحيم الاجتماعي في قبيلة بني أسد، وعدم وجود المعاناة في التجربة كما هي الحال عند الشعراء الأحرار من الفرسان، وعلى هذا فقد خلا شعر سحيم من الدافع في هذا اللون، وقد أشار إليه بصورة باهتة لا أثر للفنية فيها.



١ ـ انظر ديوانه ص ٢٤.

## الأغراض الأخرى في شعر سحيم:

لاشك أن معظم شعراء بني أسد قد انصرفوا إلى معالجة أمور قبيلتهم بالدرجة الأولى كعبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي خازم، وعمرو بن شأس، والجميح، وغير هؤلاء، وربما غلب على واحد من هؤلاء طابع معين فاق بقية الميادين الأخرى كالدفاع عن القبيلة، أمام الخصوم والإشادة بها كما هو الحال عند عبيد بن الأبرص الأسدي، ولعل ذلك يكون نتيجة للعلاقات المحيطة بالشاعر وقبيلته في فترة من الفترات، فيتصدى الشاعر لتصوير ما حدث في حدود ما أوتي من خصائص فردية تختلف من شاعر إلى آخر.

والواقع أن سحيماً عبد بني الحسحاس لا يخلو ديوانه من أغراض أخرى غير الغزل شغل بها، واستحوذت على جزء من اهتمامه، ويمكننا أن نحصرها في التالي:

أولاً - أغراض استوحاها الشاعر من واقع حياته بوصفه فرداً يعيش في قبيلة معينة، وضمن إطارٍ محدد من البيئة.

ثانياً - أغراض كان سحيم يستوحيها من واقع القبيلة.

فأما الأغراض من النوع الأول فهي التي صور لنا فيها الشاعر واقع حياته، وكشف لنا عن جوانب شخصيته، وهو في هذه الأغراض إنما يقف موقف السارد القاص فيها، ولذا وجدناها ليست على درجة كبيرة من الفنية على حين أنها عبرت بصدق - كما نرى - عن حياة هذا الشاعر، وأما الأغراض المستوحاة من واقع القبيلة فالواقع أننا نجد الارتباط الوثيق الذي ربط الشاعر بقضايا قبيلته حتى أننا لنظن بتلاشي فرديته أمام هذا التيار الوجداني الجماعي الذي عبر به عن تلك الأغراض متحدثاً باسم الأسديين، وكأنه من صميمهم مستخدماً ضمير الجماعة، ولا نكاد نلمح أثراً لعبوديته في هذا النوع من الأغراض، ويبدو لنا ملماً بكل صغيرة وكبيرة في هذه القبيلة المتعددة الأفخاذ والبطون، محيطاً بأدق تفصيلاتها كما يظهر لنا من شعره أنه كان على صلة وثيقة بكافة فروع بني أسد وليس ببني الحسحاس سادته فقد. فهو يمدحهم ويشيد بشجاعتهم ومآثرهم، ومن ذلك قوله في مدح بني نصر بن قعين وهم بطن من بطون بني أسد يقول سحيم:

فِدىً لِبَنِي نَصْرٍ قَلُوصِي وَقِطْعُهَا ... وَقَلَّ إِلَيْهِمْ نَاقَتِي وَقُطُوعُهَا

هُمُ أَكْرَمُونِي بِالجِوارِ وخِلتِي ... إذا كُنتُ مُوْلَى نِعْمَةٍ لا أُضِيعُهَا

لَعَمْرِي أَنِعْمَ الحَيُّ حِلْماً وَنَجْدَةً ... إذَا ضَيَّعَ البِيضَ الحِسانَ مُضِيعُهَا(١)

ويمكننا أن نزعم أن مدح سحيم هذا لبني نصر قد خلا من الأمل بالعطاء، وبذلك يكون أكثر واقعية وصدقاً حيث كان نتيجة لتجربة ذاتية للشاعر عبر فيها عن إعجابه ببني نصر ابن قعين، وتتوسع معرفته وصلته إلى بقية بطون أسد، فنراه يمدح بني غاضرة بن مالك ابن ثعلبة بن دودان بن

١ـ انظر ديوان سحيم ص ٥٢ - ٥٣.

أسد حيث يقول:

أَغَـاضِرَ حَيَّـاكِ الأَلَـهُ وأُسْـقِيَتْ  بِـلادُكِ صَـوْبَ الرائِـحِ المُتَحَـيِّرِ
مَسَاعِيرُ مـا حَـرْب وأَيْسَارُ شَـتْوَةٍ  إِذا الرِّيـحُ أَلْـوَتْ بـالكَنِيفِ المسـتّرِ
وكُنْتُـمْ زمانـاً مـن أرومَـةِ مَـالِكٍ  وفَضْلُكُمْ يَجْـرِي علَـى كُـلّ مُقْـتِرِ(١)

وربما جعل من نفسه وسيطاً بين تلك البطون والأفخاذ إذا شب نـزاع بينها فاصحاً بالتكـاتف، وساعياً بالصلح وإزالة ما علق في القلوب مـن حزازات وضغـائن قـد تصدع وحـدة القبيلـة حيـث يقول:

بَنِـي عَمِّنَـا مَـنْ تَجْعلُـونَ مكانَنَـا  إذَا نَحْـنُ سِـرْنا نَبْتَغِـي مـن نُحَـالِفُ
أَلَـمْ تعلَمُـوا أَنّـا فـوارسُ نَجْـدَةٍ  إذا خَامَ فِـي الهَيْجَا الضِّفَـافُ الزَّعَـانِفُ
وَصِرْنَـا إلى السَّـعْدَينِ سَـعدِينِ مَـالكٍ  وسَعدِ بَنِي الأَحْلافِ تِلـكَ العَجَـازِفُ
وقُلْنَـا لَهـمْ والخَيْـلُ تَـرْدِي بِنـا معـاً  نُحـارِبُ مَـنْ حَـارَبْتُمُ ونُحَـالِفُ(٢)

ويزيد على ذلك فيتخذ من نفسه مرشداً واعظاً بني أسد جميعاً يستنهض هممهـم ويذكـي في نفوسهم دوافع القتال فيقول:

بَنِـي أَسَـدٍ سِـيُروا جَميعـاً فَقَـاتِلُوا  مَعَـدًّا إذا ارْبَـدَّتْ بشَـرٍّ جُلُودُهَـا(٣)
أَرَى أَسَـداً والحمـدُ لِلّـهِ أَصْبَحَـتْ  عَلَـى خَـيْرِ حـالٍ والإلـهُ يَزِيدُهَـا

ويمكننا الوقوف من خلال هذا الشعر على جانب مهم من حياة شاعرنا سحيم ألا وهـو التـأثر الكبير والعميق في الوقت نفسه بالبيئة الأسدية الجاهلية، وأحسب أننا لا نتعدى الصواب إذا قلنا: إن سحيماً يتأرجح هنا بين قطبين ـ إن صح التعبير ـ القطـب الفـردي الـذي يريـد بـه إثبـات ذاتـه بـين الجماعة، والقطب القبلي الجماعي الذي يدعوه إلى الانصهار في كيان القبيلة عموماً، وهو بذلك إنمـا ينحو منحى سار عليه جل شعراء بني أسد الجاهليين، ولقد استطاع سحيم أن يلائم بين الدافعين إلى حد بعيد، فعلى الرغم من معاناته للرق البغيض ـ وهو الشاعر المرهف الأحاسيس ـ إلا أنه تآلف مـع بني أسد وأحبهم، وشعر كأنه فرد منهم يفرح لفرحتهـم ويأسـى لحزنهـم وينتشـي بنصرهـم، ولعـل طول الزمن الذي قضاه بينهم قوى من عرى المحبة، والتعاطف والود بين الشـاعر وسـادته بـل قبيلتـه الكبيرة المتمثلة في بني أسد بن خزيمة.

فأما القضايا التي استوحاها سحيم من واقع حياته الفردية فهي تتمثل لنا في وصفه للناقة، ولمظاهر الطبيعة من سحاب وبرق وفخر تقليدي بالذات، والواقع أن الحديث عن مثل هـذه الأغـراض الفنيـة يستدعي أولاً أن نعرف الجو الذي عاش فيه الشاعر، فلقد أحاط بشاعرنا جو مفعم بالشـعر امتـلأت به نفسه، وزخرت به جوانحه، فأثر فيه على ما يبدو تأثيراً عميقاً ـ شأنه في ذلك شـأن سـائر شـعراء

---

١ـ انظر ديوان سحيم ص ٥٢.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ٥١.
٣ـ انظر ديوان سحيم ص ٤٩

بني أسد في الجاهلية ـ وكان من الطبيعيَ أن يصف السحاب كعبيد بن الأبرص وغيره، ولعل مواطن القبيلة في الشمال الغربي من نجد "القصيم" قد ساعد على وجودِ مثل هذه الظواهر، فقد رأيناها عند عبيد وامرئ القيس "وكان يعيش في قبيلة بني أسد كما هو معروف" وها نحن نراها عند سحيم مرة ثالثة، وكذلك وصفه للناقة بالتشبيهات المكرورة التي درج عليها سائر الشعراء الجاهليون، فهي لا تزيد عن الثور الوحشي والظليم، ومثل ذلك فخره بالقيم والمثل العليا السائدة وقت ذلك، وسحيم في هذه الأغراض إنما يسلك مسالك السابقين من الشعراء، والمعاصرين له، فوصف الناقة كما وصفوها من قبله، وصور السحب والبروق المزدحمة في الجو لائذا بما استخدمه الأقدمون من عبارات وأخيلة، ونادى بالقيم المتعارف عليها في شبه جزيرة العرب التي تمثل الكمال في نظر الجاهليين عامة ونقف عند وصف سحيم للناقة فنراه في أربعة مواضع من ديوانه فناقة سحيم وسيلة لدفع الهموم وتعزية النفس عمن رحل. يقول:

فَـدَعْ ذَا وَسَـلِّ الهَـمَّ عَنْـكَ بِجَسْـرَةٍ ... جُمَالِيَّـةٍ تُنْبِـي القُتُـودَ ضُلُوعُهـا
مُضَـبَّرَةٍ تَغْـرِى إذَا مَـا زَجَرْتُهـا ... وَلَمْ يُثْـنَ ـ إذْ كَلَّـتْ ـ إلَيْهـا قَطِيعُهَـا[1]

وهي تشبه الثور الوحشي في سرعتها ونشاطها يقول:

فَعَزَّيْـتُ نَفْسِـي واجْتَنَبْـتُ غَوَايَتِـي ... وَقَرَّبْـتُ حُرْجُـوجَ العَشِـيَّةِ نَاجِيـا
مَرُوحـاً إذا صَـامَ النَّهـارُ كأنَّمـا ... كَمَوْتُ قُتُودِي نَاصِعَ اللَّوْنِ طَاوِيَـا[2]

وربما كانت شبيهة بالظليم مرة ثالثة فيقول:

كَـأَنَّ قُتُـودِي حِـينَ شُـدَّتْ نُسُـوعُهُ ... تَضَمَّنَـهُ قَبْـلَ المَقِيـلِ ظَلِيـمُ[3]

وبمثل هذه الأفكار والصور، وصف سحيم الناقة، وافتتح بها كمن سبقوه من الشعراء[4] ونجد أن الحديث غير ذي نفع في هذا الموضوع فقد أشبع بحثاً، وهو أشهر من أن نقول عنه أو فيه شيئاً آخر، ونرى أنه من الأجدى أن نتناول بالبحث تصوير سحيم لناقته وتشبيهها بالثور الوحشي لنقف على مدى فنيته في هذا الفن بين شعراء بني أسد، والحقيقة أن الشاعر لم يلجأ إلى هذا التشبيه إلا في موضعين فقط: أولهما في قصيدته اليائية، وثانيهما في قصيدته الميمية التي تبدو ناقصة مما يرجح ضياع قسم منها فلم يصل إلينا.

ونلاحظ إطالة الوصف والميل إلى الأسباب في القصيدة اليائية، حيث يتحدث الشاعر عن لون الثور وقوته، وعن لجوئه إلى المكان المعتاد حيث تحيط به الطبيعة القاسية من ليل بارد ورمال مبتلة لينة، مما يلجئ ذلك الثور إلى أن يحفر ليلتمس له مكاناً يبيت فيه، وكالعادة فلا يكاد الليل ينتهي، ومع أول تباشير الفجر والصباح، يخرج الصياد الساهر مع أكلبه المدربة المجوعة، ليصادف الثور،

---

١ـ انظر ديوان سحيم ص ٥٣.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ٢٨.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٣٨.
٤ـ انظر وصف الناقة في هذا البحث.

وتنشب المعركة الضاربة بين الثور والكلاب، ويعاني الثور في معركته صعوبة بل صعوبات ليدفع الكلاب عنه، ويحمي حقيقته، كما يعاني البدوي من قلة الماء في تلك الصحراء، أو كما يحاول إبعاد ابله عن مورد الماء بعد عطش شديد وسفر متعب قد يمتد إلى خمسة أيام يقول سحيم:

فَعَزَّيْتُ نَفْسِي واجْتَنَبْتُ غَوَايَتِي ... وقَرَّبْتُ حُرْجُوجَ العَشِيَّةِ نَاجِيا

مَرُوحاً إذا صَامَ النَّهارُ كأنّما ... كَمَوْتُ قُنُودِي نَاصِعَ اللَّوْنِ طَاوِيا

شَبُوباً تَحَامَاهُ الكِلابُ تَحَامِيا ... هُو اللَّيْثُ مَعْدُوّاً عليهِ وَعَادِيا

حَمَتْهُ العَشَاءَ ليلةٌ ذاتُ قِرَّةٍ ... بِوَعْسَاءِ رَمْلٍ أوْ بحَزْنَانَ خَالِيا

يُثِيرُ وَيُبْدِي عن عُرُوق كأنَّها ... أَعِنَّةُ خُرَّازٍ جَدِيداً وبَالِيا

يُنَحِّي تُرَاباً عَنْ مَبِيتٍ وَمَكْنِسٍ ... رُكَاماً كَبَيْتِ الصَّيْدَنانِيِّ دَانِيا

فَصَبَّحَهُ الرَّأسِ مِنَ الغَوْثِ غُدْوَةً ... بأكْلُبِهِ يُغْرِي الكِلابَ الضَّوَارِيا

فَجَالَ عَلَى وَحْشِيِّةِ وَتَخَالُهُ ... عَلَى مُتْنِهِ سِبّاً جَدِيداً يَمَانِيا

يَذُودُ ذِيَادَ الخَامِسَاتِ وقَدْ بَدَتْ ... سَوَابِقُها مِنَ الكِلابِ غَوَاشِيا(١)

ويبدو سحيم هنا متأثراً بمن سبقه من الشعراء بلوحة الثور الوحشي ونخص بالذكر بشر بين أبي خازم الذي يقول في وصف الثور:

يُثِيرُ وَيُبْدِيَ عَنْ عُروقٍ كَأَنَّهَا ... أَعِنَّةُ خَرَّازٍ تَحُطُّ وتُنْشَرُ(٢)

فسحيم يأخذ العبارة نفسها ويستعير الصورة مع اختلاف بسيط في تلوين الجزئيات بحيث تجد نتيجة المعركة واضحة عند بشر بانتصار الثور إنتصاراً ساحقاً، في الوقت الذي نشعر بانتصار الثور عند سحيم من خلال مدافعته للكلاب ولكن بدون تفصيل واف.

على حين لا نجد في قصيدته الميمية إلا وصفاً عاماً للظليم، وكان يمكن أن يدلف منه الشاعر إلى وصف الجزئيات في الصورة كما تعودنا من الشعراء الجاهليين الآخرين، بيد أننا لا نقع على ما نريد. ويبدو أن الرواة قد أضاعوا قسماً من هذه القصيدة لأننا نشعر بوقفة الشاعر المفاجئة في نهاية الأبيات مما يرجح أن وراءها بقية لما سبق، وكل ما قاله سحيم في هذه الصورة بيتان:

كَأَنَّ قُتُودِي حِينَ شُدَّتْ نُسُوعُهُ ... تَضَمَّنَهُ قَبْلَ المَقِيلِ ظَلِيمُ

هِبلٌ كَمِرِّيخِ المُغَالِي هَجَّعٌ ... لَهُ عُنُقٌ مِثْلُ السِّطَاعِ قَوِيمُ(٣)

ولا نريد أن نحكم على صورة الظليم عند سحيم حكماً قاطعاً غير أننا نرجح أن الشاعر لن يتجاوز فيه الحدود التي رسمها الشعراء السابقون له، وبخاصة من شعراء بني أسد. ولعل صورة عمرو بن شأس للظليم تعد من أكبر الصور وأكثرها تلويناً عند شعراء هذه القبيلة إذ يقول:

فاقْطَعُ بِلادَهُمُ بِناجِيَةٍ ... كالسَّيفِ زَايَلَ غِمْدَهُ النَّصْلُ

---

١ـ انظر ديوان سحيم ص ٢٨ وما بعدها.

٢ـ انظر ديوان بشر ص ٨٢ ـ ٨٣.

٣ـ انظر ديوان سحيم ص ٣٨.

تَغْـدُو إذا تَلَـعَ النَّهَـارُ كَمَـا قَطَـعَ الجَفَـاجفَ خَـاضِبٌ هِقْـلُ
حَمِـشُ المَشَـاشَ عِفَـارُهُ لُمَـعٌ قَـرِدٌ كَـأنَّ جَرَانَـهُ حَبْـلُ
وكَأَنّمـا بِمَخَـطٌ مِنْسَـمِهِ مِـنْ خَلْفِـهِ مِـنْ خُفِّـهِ نَعْـلُ (١)

وعلى أية حال فان صورة الظليم لم تتعد هذه الحدود ليس عند شعراء بني أسد فحسب وإنما لدى الشعراء الجاهليين عموماً اللهم إلا صورة علقمة الفحل لهذا الحيوان، حيث استطال فيها وأسهب حتى انه صور أدق الجزئيات في قصة الظليم ولا نرى فائدة من ذكرها هنا فليس مجالها في هذا البحث.

وخلاصة الحديث في هذا الجانب أن سحيماً كان يجنح في تصوير قصة الثور هذه إلى العمومية، وعدم الدخول في التفصيلات الجزئية التي تضفي على الصورة ظلالاً وألواناً مما سنراه عند بشر بن أبي خازم في موضع آخر من هذا البحث.

ويتطرق بنا الحديث إلى وصف السحاب وأنواء الطبيعة عند سحيم، والواقع أن بعض شعراء هذه القبيلة قد أولع بمثل هذا الوصف وأكثروا من الحديث عنه، إلا أن الصور التي صدرت عنهم في هذا الشأن لم تكن متنوعة، وأول وصف للسحاب والغيث والسيل نجده عند امرئ القيس بن حجر التي تذكر الروايات أنه عاش في قبيلة بني أسد في الوقت الذي كان فيه أبوه حجر بن الحارث ملكاً على تلك القبائل ثم نجد مثل هذا الوصف عند عبيد ابن الأبرص الأسدي كما نجده عند شاعرنا سحيم. والذي يبدو لنا أن اعتناء هؤلاء الشعراء بوصف السحاب والغيث إنما كان نتيجة لوقوعه في الأماكن التي كانت تنزل بها القبيلة الأسدية، فهي في الشمال الغربي والأوسط من نجد حيث أخصب مناطق هذا الإقليم إلى يومنا هذا. وربما تكون الحاجة الماسة التي كانوا يشعرون بها ويحسونها للماء في تلك البيئة الصحراوية هي التي دفعتهم إلى مثل هذا الوصف التفصيلي لمظاهر الطبيعة، تلك على اعتبار أنها تغير وجه الأرض وتنبت الأعشاب وبعض النباتات وتشبع رغبة البدوي في الري الذي قد لا يجده في كل الأوقات وتمنح الشاعر وقومه فسحة من زمن الاستقرار لينعموا بالربيع هم وابلهم. فلا غرو بعد هذا أن يفتن الشعراء بوصف الغيث والسحاب وأن يتابع البداة بأعينهم وقلوبهم رحلة الغيوم المتراكمة، يقول الدكتور سيد نوفل "وفي هذا الوصف تبدو فتنة الشاعر بالغيث فقد تتبع رحلته من بدايتها إلى نهايتها وأحاط بجميع أحواله وصور كلا منها والغيث عنده عظيم كريم قوي ينصر الضعفاء ويبطش بالفاتكين كأنه "قوة العالم المدبرة" (٢).

ويجدر بنا قبل أن نناقش وصف سحيم للسحاب أن نقف على أهم الأفكار التي قدمها كل من امرئ القيس وعبيد بن الأبرص لتستقيم لنا الموازنة بعد ذلك.

فامرؤ القيس بن حجر تتلخص أفكاره حول السحاب بأنه يتخيل صاحباً له، ويطلب منه أن ينظر إلى البرق اللامع وسط الغيوم التي تحبو فوق الأرض ليرى وميضه في سرعته التي تحكي حركة اليدين ويشبهه بمصباح مملوء بالزيت في يد راهب، ثم يذكر الأماكن التي مر بها والجبال التي علاها وما أحدثه فيها من تهديم للأشجار والبيوت إلا ما كان صلباً منها، ويشبه هطول الأمطار بدر معين

١- انظر شعر عمر بن شأس ص ٣٤.
٢- انظر شعر الطبيعة في الأدب الغربي للدكتور سيد نوفل ص ٤٨ طبع دار المعارك بمصر.

للحليب، وبعد هذا يلقي عدة صورة للسحاب وللسيل تتسم بالابتكار والجدة والطرافة فالجبل وحوله الغيوم أشبه ما يكون بشيخ من شيوخ القبائل ملتف بأثوابه، ورأس المجير كفلكة مغزل بعد أن غطاه السيل وسطح الأرض يشبه ثوباً ملوناً من الثياب اليمنية المزركشة، والطيور هي الأخرى سعيدة به فكأنها لشدة فرحتها وانتشائها قد شربت خمرة مع الصباح والسباع شبيهة ببقال البصل البري[1].

وفي ظننا أن هذا العرض لأفكار امرئ القيس يغني عن ذكر الأبيات نفسها، وكذلك صورتان في ديوانه لا نجد فيها جديداً يتجاوز ما قلناه.

وأما عبيد بن الأبرص الأسدي فنقع له على أكثر من قصيدة لوصف السحاب والغيث وما يستتبع ذلك من مظاهر، ويعد عبيد من أوائل الشعراء الذين وصفوا مظاهر الطبيعة وأجادوا فيه.

ونأتي إلى الحديث - الآن - عن شاعرنا سحيم عبد بني الحسحاس لنقف على نصيبه من هذا الفن الوصفي وهل جدد فيه؟ الواقع أن سحيماً قد اتبع غيره كما فعل في وصل الناقة والثور الوحشي، فهو يستعير الصور والتراكيب ويتمسك بالتقاليد المرسومة المعروفة، وإذا رأينا له من جديد فصورة هنا وإشارة هناك مما تفرضه طبيعة النفس وتفردها أو ربما تدفع إليه الخواطر أحياناً.

وقد جاء وصف السحاب عند سحيم في مكانين من ديوانه أولهما في قصيدته اليائية، وثانيهما في قصيدته الفائية، وأفكار الشاعر فيهما تبدو متقاربة ومتشابهة، ففي كلتا اللوحتين يطلب الشاعر من صاحبه رؤية البرق المضيء والسحاب الذي جرف ما أمامه حين استحال إلى سيل عارم حتى انه أنزل الوعول من سفوح الجبال - وهي المعروفة بمنعتها وشدتها - وكذلك الصخور ثم يعدد الأماكن التي مر بها هذا السيل ويصور انصباب الماء فوق الأنهار، ولعله بذلك يقصد الأودية التي امتلأت بطونها بالماء فجرى فيها وشكل ما يشبه النهر، وهو في ذلك الانسكاب إنما يشبه الحليب حين يتدفق من درر الحيوانات اللبونة كالنياق.

ومن ثم يتابع وصفه لزحف هذا السيل وهو شبيه بزحف الحيوانات الكسيرة، ويشبه النوق في الغمام وكأنها تشقق ماء الرأس حين الولادة، ويزيد سحيم فيشبه بكاء الرعد بالحادي كما يصور غرق الثيران الوحشية من جراء هذا السيل الجارف. وليس هناك اختلاف كبير يذكر عما جاء في قصيدته الفائية من تصوير للسحاب حيث يقول فيها:

فَدَعْ ذَا ولكِنْ هل تَرَى ضَوْءَ بَارق ... يُضِيءُ حَبِيّاً مُنْجِداً مُتَعَالِيا
يَضِيءُ سَنَاهُ الهَضْبَ هَضْبَ مَتَالِعٍ ... وحُبَّ بِذاكَ الهضبِ لَو كَانَ دَانِيا
نَعِمْتُ بِهِ عَيْنَاً وأَيْقَنْتُ أَنَّهُ ... يَحُطُّ الوُعُولَ والصُّخُورَ الرَّواسِيا
فَمَا حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ حتَّى حَسِبْتُهُ ... بحِرَّةِ لَيلَى أَوْ بَنَخْلَةَ ثَاوِيا
فَمَرَّ عَلَى الأَنْهاءِ فَالْتَجَّ مُزْنُهُ ... فَعَقَّ طَوِيلا يُسَكُبُ المَاءَ سَاجيا
رُكاماً يَسُحُّ المَاءَ مِنْ كُلِّ فِيقَةٍ ... كَمَا سُقْتَ مَنْكُوبَ الدَّوَابِرِ حَافِيا
وَمَرَّ عَلَى الأَجْبَال أَجْبَال طَيِّءٍ ... فَغَادَرَ بالقِيعَانِ رَفْقاً وصَافِيا
أَجَشٌّ هَزِيمٌ سَيْلُهُ مَعَ وَدْقِهِ ... تَرَى خَشَبَ الغُلاَنِ فِيهِ طَوَافِيا

---

١- انظر ديوان امرئ القيس ص ٢٤، ٧٢، ١٤٤ ففيه نموذجان آخران لوصف السحاب والغيث ولا يعدو المعنى فيهما يجاوز النموذج الأول الذي سقنا أفكاره.

لَـهُ فُـرَّقٌ جُـونٌ يُنتَجْـنَ حَوْلَـهُ ... يُفَقِّئْـنَ بـالميثِ الدِّمـاثِ السَّـوَابِيا
فَلَمّـا تَدلّـى لِلجِبَـالِ وأَهْلِهـا ... وأَهْـلِ الفُـرَاتِ جَـاوَزَ الجَـرُّ ضَاحِيـا
بَكَـى شَـجْوَهُ واغْتـاظَ حتّـى حَسِـبْتُهُ ... مِـنَ البُعْـدِ لَمّـا جَلْجَـلَ الرَّعْـدُ حَادِيـا
فـأَصْبَحَتِ الثّـيرانُ غَرْقَـى وأَصْبَحَـتْ ... نِسَـاءُ تَيمـمٍ يَلْتَقِطْـنَ الصَّياصِيـا(١)

تلك هي أبيات القصيدة اليائية التي وصف بها الشاعر السحاب والسيل، ولعل أثر السابقين من مثل امرئ القيس وعبيد بن الأبرص واضح فيها، فسحيم يتابع بلهفة رحلة السحاب حتى نهايتها فوق منازل طيء وهو لا يتعدى المظاهر المادية للغيوم والأمطار والسيول تماماً مثل ما فعل سابقوه، وهو يعتمد في لوحته على حاستي السمع والبصر معاً إلا أن حاسة السمع أضعف من حاسة البصر في اللوحة، فالمشاهد والأخيلة لا جديد فيها عما رأيناه عند امرئ القيس وعبيد فأثر السيل في الأرض وما حل بالوحوش يذكره سحيم في رتابة مكرورة وكذلك الحال في قصيدته الثانية. حيث يقول(٢):

أَحَـارِ تَـرى الـبَرقَ لَمْ يَغْتَمِـضْ ... يُضِيـءُ كِفافـاً ويَخْلُـو كِفافـا
يَضِـيءُ شَـماريخَ قَـدْ بُطِّنَـتْ ... مَثَـافِيدَ رَبْطـاً وَرَبْطـاً سِـخَافَا
مَرَتْـهُ الصَّبَـا وانْتَحَتْـهُ الجَنُـو ... بُ تَطْحَـرُ عَنْـهُ جَهَامـاً خِفَافـا
فَـأَقْبَلَ يَزْحَـفُ زَحْـفَ الكَسِـيرِ ... يَجُـرُّ مِـنَ البَحْـرِ قُرنـاً كِثَافـا
فَلَمّـا تَنَـادَى بَـأَنْ لاَ يَسـرَا ... حَ وانْتَحَفَتْـهُ الرِّيَـاحُ انْتِحَافـا
وَحَـطَّ بِـذِي بَقَـرٍ بَرْكَـهُ ... كَـأَنَّ عَلَـى عَضُدَيْـهِ كِتَافـا
فَـأَلْقَى مَرَاسِـيَهُ واسْـتَهَلَّ ... كَمَـدٍّ النَّبِيـطِ العُـرُوشَ الطِّرَافـا
يَكُـبُّ العِضَـاهَ لأَذْقَانِهـا ... كَكَـبٍّ الفَنِيـقِ اللِّقَـاحَ العِجَافـا
كَـأَنَّ الوُحُـوشَ بِـهِ عَسْـقَلاَ ... نُ صَـادَفَ فِـي قَـرْنِ يديَافـا
قِيَامـاً عَجِلْـنَ عليـهِ النَّبَـا ... تَ يَنْسِـقْنَهُ بـالظّلوفِ انْتِسـافَا

ويبدو لنا في هاتين اللوحتين أن أفكار سحيم ليس فيها ذلك التنوع في الموضوع، غير أننا نجد بعض المشاهد الجزئية هنا وهناك التي لم يستطع بواسطتها أن يغير الإطار العام للوحة في ذهن السامع، فلا يزال مخاطباً صديقه "الحارث" ويطلب منه أن يرى البرق الذي يضيء مظاهر الطبيعة من حوله والجبال ترتدي الثياب البيض والريح تعالج أمر هذه الغيوم كما تعالج البدوية ثدي ناقتها أو شاتها لتستحلبها، وما أن يصل هذا السحاب إلى مكان حدود الشاعر بذي برك حتى أخذ بالبكاء ولا شك أنها استعارة جميلة من الشاعر، فبدا هذا السحاب كالقباب النبطية ثم أخذت سيوله تقتلع أو تلوي الأشجار وقد تغمرها لشدة علو الماء وكثرته مثلما يعلو فحل الجمال النياق، ويتراءى لنا أن سحيماً في هذه اللوحة قد أحاط علماً بخارج البيئة الأسدية فهو يعرف سوق عسقلان في بلاد الشام ولعله زارها مع سادته بقصد التزود ببعض ما يلزمهم، ثم أن الوحوش لم تنتظر النبات المخضوفر

١ـ انظر ديوان سحيم ص ٣١ وما بعدها.
٢ـ انظر ديوان سحيم ص ٤٧ وما بعدها.

حتى يتم نبته ويستطيل بل التهمته وهو في طور الإنبات مما يدلنا على القحط والجدب حين ذلك.

والذي يبدو لنا في وصف السحاب ومظاهر الطبيعة عند سحيم هو أن هذا الشاعر قد ترسم الإطار العام الذي درج عليه الشعراء الجاهليين في أثناء حديثهم عن هذه الظاهرة، وبخاصة امرؤ القيس وعبيد بن الأبرص، وسار على ما كان معروفاً من تقاليد ملوناً لوحاته ببعض الجزئيات التي عبر عنها تعبيراً لغوياً يختلف عمن سبقه، وأما من حيث المعنى فتكاد المعاني تكون شكلاً واحداً عند معظم الشعراء الجاهليين في هذا المضمار.



## ظاهرة الفخر عند سحيم:

لقد اتسم الفخر في الشعر الجاهلي بما يناسب الروح وطبيعة ذلك العصر، فالقبيلة دائماً تقف متأهبة مستعدة للكر والفر والنزال، ولذا عظم دور الشاعر فيه. ولا شك أن وقوفه إلى جانب القبيلة في مثل تلك الأحوال ـ مسانداً لها مناهضاً خصومها معدداً تأثرها ومفاخرها مشيداً بانتصاراتها ـ قد لاقى ترحيباً من كل أفراد القبيلة، ولعل احترامهم للشاعر كان ينبع إلى حد كبير من هذا الجانب.

وكما هو معروف فان الفخر والحماسة من أكبر وأهم الأغراض عند الشاعر الجاهلي فبابه عريض وواسع عند العرب ولعله مما يدلنا على أهميته تلك هو إفراد كتاب كبير لهذا الغرض حتى أن الكتاب كله أطلق عليه اسم "الحماسة" فلا عجب أن يشغل الفخر مساحة واسعة من رقعة الشعر الجاهلي.

ويمكن أن نقسم الفخر إلى فخر فردي: وهو ما يدور حول الصفات الفردية من حلم ومروءة وكرم. إلى غير ذلك من الصفات المستحبة في الإنسان. وإلى فخر جماعي: يشمل أبناء القبيلة جميعاً ويدور عادة حول مآثر ومحامد وأمجاد تلك القبيلة وعلى هذا فيمكننا القول: إن الفخر الفردي بالنفس الذي كان ينطلق فيه الشاعر من الواقع المعاشي أصلاً كانت تشوبه بعض الخيالات التي يضيفها الشاعر على هذا النوع من الفخر، إلا أنه كان أقل حظاً عند الشعراء الجاهليين من النوع الآخر وهو الفخر الجماعي بالقبيلة ككل.

والواقع أن دواوين الشعراء الجاهليين وأشعارهم تعج بمثل هذا النوع ولا تكاد قصيدة من قصائدهم تخلو منه، ومن الصعوبة أن يفصل الباحث بين النوعين السابقين ولو أراد الفصل لواجهته صعوبات جمة حيث أن الفخر الفردي يكاد يتداخل إلى حد بعيد مع الفخر القبلي الجماعي، ولعله لم يكن يتحقق للشاعر الجاهلي أن يفخر بنفسه بعيداً عن القبيلة فهو إن فعل ذلك فمن خلال الإطار العام لها. إذا استثنينا بعض الشعراء الصعاليك كالشنفرى وعروة بن الورد وتأبط شرا وغيرهم من نفتهم قبائلهم لجريمة ارتكبوها أو عرف خالفوه ولذا فقد جاء شعرهم في هذا المضمار يحمل خصائص وسمات معينة منها أنه لا يحمل روح الانتماء القبلي ولعل هؤلاء الصعاليك قد استبدلوا بصحبة الإنسان صحبة الوحش، وربما عقدوا مقارنة بين أنفسهم وبين مجتمع الوحش في الصحارى وعقدوا كذلك الصلات التي تنم عن روح الألفة والمودة بينهما يقول تأبط شرا:

يَبِيتُ بمغْنَى الوَحْشِ حتّى أَلِفْنَهُ ... ويُصْبِحُ لا يَحْمِى لَهَا الدَّهْرُ مَرْتَعا
رَأَيْنَ فَتىً لا صَيْدَ وَحْشٍ يَهِمُّهُ ... فلو صافَحَتْ إِنسْاً لصافَحْنَهُ معًا(١)

ونتيجة للخلل في التلاؤم الاجتماعي والقبلي بين هؤلاء الصعاليك وبين مجتمعاتهم فقد اندثرت صلاتهم بها ولعله لا بديل أمام الصعلوك ـ والحال كهذا ـ إلا مجتمعه الجديد البعيد كل البعد عن

١ـ نقلاً عن كتاب الدكتور يوسف خليف الشعراء الصعاليك ص ٢٤١.

العصبية القبلية التي وئدت بالنسبة إليه فلا غرابة أن نرى الشنفرى الأزدي يتخذ من مجتمع الوحش أهلاً له لا يخذلونه كما خذلته قبيلته إذ يقول:

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سيدٌ عملسٌ ... وأرقطُ زهلولٌ وعرفاءُ جيألُ

هُمُ الرَّهطُ لا مستودَعُ السِّر ذائعٌ ... لديهِم ولا الْجَانِي بِما جرَّ يُخْذلُ(١)

وطبيعي أن لا نجد ذلك النوع من الفخر عند شاعرنا سحيم فمن أين له وهو العبد الرقيق أن يفخر بنفسه، وهو الذي لم يكن يتمتع بحياة الحرية التي توفر له القيام بالأعمال الحميدة من كرم وشجاعة وغير ذلك من محامد. فشاعرنا يعيش عالة على غيره وإذا تجاوزنا الحدود قلنا ربما افتخر سحيم بشجاعته فان ذلك مستحب في العبيد وقد يستخدمون أحياناً في الحروب، ولكن أنى له الفخر بسخائه وجوده؟ والواقع أننا نقع على مثل هذا الفخر الذي يخالف المنطق والمألوف. ولا يداخلنا الشك في أن هذا الفخر لا أساس له من الصحة والتجربة الواقعية. والأغلب أن سحيماً لجأ إليه كنوع من التعويض ولسد ما كان يشعر به من نقص، وهو لا يعدو أن يكون ضرباً من التقليد الشعري في قصائد الجاهليين بوصفه سنة مألوفة عندهم فهو أي سحيم: يقول في معرض الغزل منعطفاً إلى الفخر:

فإمّا تَرَيْنِي عَلاَنِي المَشِيـ ... ـبُ وانْصَرَفَ اللَّهوُ عنّي انْصِرافَا

وَبَانَ الشّبابُ لِطَيَّاتِهِ ... وَقدْ كُنْتُ رُدِّيتُ منهُ عِطَافَا

فَقَدْ أَعْقِرُ النّابَ ذاتَ التَّليـ ... ـل حتى أُحاولَ منه سِدَافَا

بِمَثْنَى الأَيَادِي لِمَنْ يَعْتَفِي ... وأَرْفَعُ نَارِي إذَا ما اسْتَضَافَا

وَخَيْلٍ تَكَدَّسُ بالدَّارِعِيـ ... ـنَ مَشْيَ الوُعُولِ تَؤُمُّ الكِهَافَا

ضَوَامِرَ قَدْ شَفَّهُنَّ الوَجِيـ ... ـفُ يُثِرْنَ العَجَاجَةَ دُونِي صِفافَا

تَقَدَّمُهُنَّ عَلَى مِرْجَلٍ ... يَلُوكُ اللِّثَامَ إذا ما اسْتَبَهافَا

يُبَارِي مِنَ الصُّمِّ خَطِّيَّةً ... مُقَوَّمَةً قد أُمِرَّتْ ثِقَافَا(٢)

وهذه هي القطعة اليتيمة في ديوان سحيم التي يفخر فيها بنفسه ويعدد مناقبه، وإذا كان لنا من تعليق على ما جاء في أبيات سحيم هذه فهو إذا كان العبد الرقيق يفخر بمثل هذه المناقب ويصف وقوف المعتفين ببابه طلباً للنوال فما بال الشعراء الأحرار الآخرين؟ أظن أن سحيماً هذا ينقل لنا التقليد العربي في الكرم أكثر مما ينقل تجربته الفردية في هذا المجال.

ونخلص إلى نهاية الحديث عن هذا الجانب من الأغراض التي استوحاها سحيم عبد بني الحسحاس من واقعه بوصفه فرداً، إلى أنه كان قد سما لخطى السابقين له من الشعراء دون جديد يذكر ـ والآن ـ جاء دور الأغراض التي استوحاها سحيم من واقع القبيلة التي يعيش فيها إنها قبيلة بني أسد رمز الثورة والتمرد في العصر الجاهلي. وقبل الخوض في تلك الأغراض الواقعية التي تكشف لنا حقيقة ما كان عليه الشعر الجاهلي ـ كما نزعم ـ لا بد لنا من كلمة نتساءل فيها: هل عبر سحيم عن تلك

---

١ـ انظر مختارات ابن الشجري الجزء الأول ص ١٨ وما بعدها.

٢ـ انظر ديوان سحيم ص ٤٥ ـ ٤٦.

الأعراض في حياة الجماعة القبلية من حوله؟ وهل استطاع تصوير طموح القبيلة وهو المولى الرقيق؟ ثم هل عاش سحيم على ساحة الواقع لهذه القبيلة كما عاشه شعراؤها الآخرون؟ هذا ما سنقف عليه في الصفحات التالية.

عرفنا أن صلة سحيم بقبيلة بني أسد كانت وثيقة العرى وأنها لم تقف على بني الحسحاس سادة الشاعر، ونحن لا نقع له على شعر يمدحهم فيه خاصة فالشاعر لم يذكرهم إلا حين عزموا على قتله على حين رأيناه يذكر عدة بطون أسدية أخرى ويمتدحها ويثني عليها ومن ذلك ما قاله في بني غاضرة وهم بطن مشهور من بني أسد[1] حيث قال:

أَغَاضِرَ حَيَّاكِ إلا لَهُ وأُسقِيَتْ ... بِلادُكِ صَوْبَ الرَّائِحِ المُتَحَيِّرِ
مِسَاعِيرُ ما حَرْبٍ وأَيْسارُ شَتْوَةٍ ... إذا الريحُ أَلْوَتْ بالكَنِيفِ المُسَتَّرِ
وكُنْتُمْ زَماناً مِنْ أَرومَةِ مَالِكٍ ... وفَضْلُكُمْ يَجْرِي عَلَى كُلِّ مُقْتِرِ[2]

ونراه يمدح كذلك بني نصر بن قعين وكان فيهم لواء بني أسد في الجاهلية على حد قول حزم[3] ومديحه لهم لا يختلف كثيراً عن سابقه لبني غاضرة فهو يصور كرمهم وشجاعتهم وحلمهم حيث يقول فيهم:

فِدىً لِبَنِي نَصْرٍ قَلُوصِي وقَطْعُها ... وقَلَّ إِلَيْهِمْ نَاقَتِي وقُطُوعُها
هُمُ أَكْرَمُونِي فِي الجِوَارِ وخِلْتِنِي ... إِذَا كُنْتُ مَوْلَى نِعمةٍ لا أُضِيعُهَا
لَعَمْرِي لَنِعْمَ الحَيُّ حِلْماً ونَجْدةً ... إِذَا ضُيِّعَ البِيضُ الحِسَانُ مَضِيعُهَا
مَسَاعِيرُ مَا حَرْبٍ وأَيْسارُ شَتْوَةٍ ... إِذا اقْوَرَّ مِن دونِ الفَتَاةِ ضَجِيعُهَا
هُمُ يَعْقِرُونَ الكُومَ فِي كُلِّ لَزْمَةٍ ... إِذَا الشَّوْلُ راحَتْ مُقْشَعِراً ضُروعُهَا[4]
حَدَابِيرَ أَمْثَالَ الشِّنانِ يَقُودُهَا ... إِلَى الحَيِّ جِذْبَارُ السَّرَاةِ قَرِيعُهَا

ويمكننا أن نصنف مدح سحيم هذا لبني نصر بن قعين فنضعه في زمرة المدح الواقعي ذلك أننا نشعر بأن الشاعر في تشخيصه للصور يحمل شعوراً متميزاً نحو هؤلاء القوم ولعل ذلك الشعور هو ما دفعه إلى مدحهم والثناء عليهم بهذه القيم والمثل البدوية التي تعاورها أغلب شعراء الجاهلية ومن ضمنهم شعراء بني أسد بن خزيمة على اختلاف بطونهم، ولا يقتصر شاعرنا على الصلات الوثيقة ببطون وأفخاذ قبيلة بني أسد وإنما نراه يصور معارك هذه القبيلة بوجه عام ويذكر انتصاراتها ويتحدث عن أيامها المظفرة، إلا أنه من المستغرب عدم ذكره لسادته من بني الحسحاس، ولسنا ندري لذلك سبباً مع أن المفروض هو عكس ذلك تماماً، فهل كان هذا البطن من أسد لا يشترك في معارك القبيلة، أم أن سوء المعاملة التي كان يلقاها الشاعر منهم منعته من ذكرهم؟ في ظننا أن سوء المعاملة والشعور بالعبودية المباشرة تجاه بني الحسحاس هما السبب الرئيسي في عدم إقبال الشاعر على

١ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ١٨٩.
٢ـ انظر ديوان سحيم ص ٥٢.
٣ـ انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ١٩٤.
٤ـ انظر ديوان سحيم ٥٢ ـ ٥٣.

ذكر مناقب هذا البطن. ومما قاله سحيم في مدح قبيلة بني أسد يذكر انتصارها على بني تميم وبني عامر:

وَنحنُ حَلَلْنَا الجِزْعَ حَيْثُ عِلِمْتُمُ ... وَقَدْ أَحْجَمَتْ عنهُ تَميمٌ وعَامِرُ
بِجَأْوَاءَ جُمْهُورٍ كَأَنَّ عُقَابَهَا ... إذا رُفِعَتْ في قُلَّةِ الرُّمْحِ طَائِرُ
إِذَا مَا فَرَغْنَا مِنْ سِوارِ قَبِيلَةٍ ... سَمَوْنَا لأُخْرَى نَبْتَغِي مَنْ نُسَاوِرُ
يُفَرِّجُ عَنَّا كُلَّ ثَغْرٍ نَخَافُهُ ... مِسَحٌ كَسِرْحَانُ القَصِيمَةِ ضَامِرُ
وكُلُّ لَجُوجٍ في العِنَانِ كَأَنَّهَا ... إذا انْغَمَسَتْ فِي الماءِ فَتْخَاءُ كَاسِرُ(١)

إن الشاعر هنا لا يخرج عن تقاليد المدح المعروفة عند الشعراء ومنهم شعراء بني أسد كبشر وعبيد وعمرو بن شأس، فالفخر بالكثرة العددية سمة عامة وقفنا عليها عند الأسديين وكذلك فخرهم بالخيل الكريمة النجيبة وتشبيه الحصان بالذئب والفرس بالعقاب معروف لدى الجاهلين عموماً. بيد أن الملاحظ على هذه الأبيات أنها تنطلق من الواقع القبلي الذي لا دخل للفرد فيه كما رأينا ذلك في وصف الناقة أو السحاب والمطر أو الفخر الفردي.

ومرة أخرى يقف سحيم مفتخراً بانتصارات بني أسد ومصوراً وقائعهم حيث يقول:

وَنَحْنُ جَلَبْنَا الخَيْلَ مِنَ جَانِبِ الغَضَى ... إلى أَنْ تَلاقَتْ بالرِّشَاءِ جُنُودُهَا
بِمَلْمُوسَةٍ كَالليلِ رَعْنَاءَ فَخْمَةٍ ... ورَقْرَاقَةٍ يُغْشِي العُيُونَ حَدِيدُهَا
إِذَا فزِعُوا طَارُوا إلَى كُلِّ نَهْدَةٍ ... وَأَجْرَدَ نَهْدٍ مَا تَجِفُّ لُبُودُهَا
يُقَضِّينَ دَيْناً مِنْ نُمَيْرِ بنِ عَامِرٍ ... وَلَمْ يَنْجُ مِنْهَا جَعْفَرٌ ووَحِيدُهَا
بَنِي أَسَدٍ سِيرُوا جَمِيعاً فَقَاتِلُوا ... مَعَدّاً إذا ارْبَدَّتْ بِشَرٍّ جُلودُهَا(٢)

وهكذا نجد سحيماً يتحدث عن بني أسد ويفخر بأيامهم وينقل مشاهد زحوفهم وهو لا يكتفي بذلك بل نراه ساعياً بالوفاق والصلح إذا ما عكر صفو القبيلة نزاع أن شب بينها خلاف، وهو في حديثه هذا وموقفه من الأسديين عموماً - وهو العبد الرقيق - إنما يضرب مثلاً رائعاً في الالتحام بالقبيلة وشدة الإخلاص والولاء لها كالشعراء الأحرار من أبنائها إن لم نقل انه زاد عليهم في هذا المجال. ولو أن القارئ حذف اسم سحيم من هذا الشعر لظن جازماً أنه صادر عن شاعر حر يحب قبيلته أشد الحب وعلى هذا كان سحيماً ربما علم غيره من الأرقاء كيف يمتزجون بسادتهم ويعبرون عن شعورهم بجانبهم يقول سحيم في معالجة خلاف دب بين بطون أسد:

بَنِي عَمِّنَا مَنْ تَجْعَلُونَ مَكَانَنَا ... إِذَا نَحنُ سِرْنَا نَبْتَغِي مَنْ نُحَالِفُ
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّا فَوَارِسُ نَجْدَةٍ ... إذا حَامَ فِي الهَيْجَا الضِّعَافُ الزَّعَانِفُ
وَصِرْنَا إِلَى السَّعْدَينِ سَعدِ بنِ مَالكٍ ... وسَعْدِ بَنِي الأَحْلافِ تِلْكَ العَجَارِفُ
وكُنَّا لَهُمْ والخَيلُ تَرْدِي بِنَا مَعاً ... نُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمُ ونُحَالِفُ(٣)

---

١ـ انظر ديوان سحيم ص ٣٨ - ٣٩.
٢ـ انظر ديوان سحيم ص ٤٩ - ٥٠.
٣ـ انظر ديوان سحيم ص ٥١.

لا شك أنها سياسة حكيمة تلك التي اتبعها سحيم في معالجة قضايا القبيلة، وقد أفصحت لنا عن بعض جوانب هذه الشخصية الشاعرة وكشفت بعض معالمها بجلاء.



# نظرات الشاعر الشخصية في الحياة:

ربما ارتبطت نظرات الإنسان إلى الحياة بالنظرة الإنسانية العامة لها ـ إلى حد بعيد ـ ذلك أن الشعر حياة صاحبه وتعبير عن نفسه. وقد سبق أن وقفنا على جوانب من حياة سحيم تلك التي فجرت ينابيع الشعر في نفسه، ولعلها لم تحقق له الحياة التي صبا إليها وتمناها وأرادها في الحرية والكرامة والشرف.

ويبدو أن لونه وعبوديته وما استتبع ذلك من ظروف حياته قد أورثه التأمل العميق في حقائق الحياة من حوله. والباحث في شعر سحيم يجد له أبياتاً مبثوثة في ثنايا ديوانه تتضمن نظرات الشاعر الشخصية إلى الحياة مما يمكننا أن نطلق عليها اسم الحكمة. ونظرات سحيم هذه يتعاورها تأثيران: أحدهما جاهلي وهو الغالي عليها والظاهر فيها، والآخر من تأثير البيئة الإسلامية التي أدركها هذا الشاعر.

فسحيم يحدثنا عن الموت والحياة تلك المشكلة التي أرقت الإنسان الجاهلي وأقضت مضجعه فحار فيها ووقف منها مواقف متباينة مختلفة، إلا أنها كانت مجتمعة تحت خباء واحد هو أن الموت آت لا محالة وأنه لا يقهر ولا يدفع. ويمثل هذا عبر سحيم عن الموت فهو قرن عنيد لا يريد الإنسان مواجهته وقتاله حيث لا طاقة للإنسان بهذه المواجهة وهو مهزوم فيها مسبقاً.

ولكن الموت يقصدنا غير مخلف لموعد وسهامه نافذة صائبة لا تطيش ولا ينفع معه مال أو جاه. ولعل ترقب وصوله الفجائي مما يزيد الأمر صعوبة وقد يملأ الجوانح خوفاً ورعباً، ومن هنا جاء اتخاذ سحيم موقفاً محدداً من هذه القضية إذ يقول:

سَيَلْقَاكَ قِرْنٌ لا تُرِيدُ قِتَالَهُ ... كَمِيٌّ إذَا مَا هَمَّ بِالقِرْنِ أَقْصَدَا
بغَاكَ وَمَا تَبْغِيهِ إلاّ وَجَدْتَهُ ... كَأَنَّكَ قَدْ أُوعَدْتَهُ أَمْسِ مَوْعِدَا
رَأَيْتُ الحَبِيبَ لا يُمَلُّ حَدِيثُهُ ... وَلاَ يَنْفَعُ المَشْنُوءَ أَنْ يَتَوَدَّدَا
رَأَيْتُ الغَنِيّ والفَقِيرَ كِلَيْهِما ... إلَى المَوْتِ يَأْتِي مِنْهُمَا المَوْتُ مَعْمِدَا
فإلا تُلاقِ المَوْتَ في اليَوْمِ فَاعْلَمَنْ ... بِأَنَّكَ رَهْنٌ أَنْ تُلاقِيَهُ غَدَا
فَتُصْبِحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الأرْضِ ثَاوِياً ... كَأَنَّكَ لم تَشْهَدْ مِنَ اللَّهْوِ مَشْهَدَا
ولَمْ تَلْهُ بالبِيضِ الكَوَاعِبِ كَالدُّمَى ... زَمَاناً ولم تَقْعُدْ مِنَ الأَرْضِ مَقْعَدَا
ولَمْ تَزَعِ الخَيْلَ المُغِيرَةَ بالضُّحَى ... عَلَى هَيْكَلٍ نَهْدِ المَرَاكِلِ أَجْرَدَا[1]

والذي لا شك فيه أن هذه الحكم والنظرات الشخصية لم تكن قائمة على فلسفة ذات مصادر ثقافية كما هو الحال في العصور المتأخرة، وإنما كانت نابعة من تجارب الحياة والتأملات الفردية فيما كان يحيط بالإنسان الجاهلي من ظواهر حيث تتوالى المشاهد أمام العين على مسرح الحياة. ولا

---

١ـ انظر ديوان سحيم ص ٤٠ ـ ٤٢.

يغيب عنا مذهب بعض الشعراء الجاهلين مثل طرفة في انتهاب اللذات طالما أن الموت شيء محتم ولذلك فقد مال إلى اللهو والعبث، ولعله أراد بذلك عدم إضاعة الوقت بلا فائدة ثم الندم عليه وكان الشعور بالموت لدى طرفة حاداً جداً وتبدو علائم الخوف منه واضحة.

وكذلك امرؤ القيس بن حجر فعل، فالمشكلة عندهم واحدة، أن امرأ القيس يضعنا أمام المشكلة مثلما وضعنا سحيم أمامها، بيد أن الأول كان واضحاً في اتخاذ السبيل المؤدي إلى الحل وهو انتهاب اللذة والمتعة بينما نجد سحيماً يحجم عن وضع الحل، ولعل السبب هو التأثير الإسلامي فيه وحسبه أنه بصرنا بهذه المشكلة، وهو في حديثه عن الموت نراه متأثراً بالشعراء الجاهليين من الذين سبقوه فهو يساوي بين الغني والفقير أمام الموت.

ولعل سحيماً في تصويره للفناء وتشخيصه للموت وإحساسه به إنما يقترب من حكمة شعراء بني أسد السابقين عليه من أمثال عبيد بن الأبرص، إلا أن سحيماً بدا متسلسل الأفكار أكثر من عبيد بن الأبرص رغم أن المنبع الذي إستقى منه الشاعران واحد، ولعل الظروف المعيشية كانت متشابهة في كثير من جوانبها لدى كل من الشاعرين، فعبيد يستوحي نظراته الشخصية من تجارب الحياة التي طالت بالشاعر ولذا وجدناها متنوعة في ديوانه، أما حكمة سحيم ونظراته الشخصية فهي نابعة في بعض جوانبها عن شعور حاد جداً بالموت وهو يصوره بالقرن العنيد الذي يفوض على الإنسان قتاله والنتيجة معروفة، ولذلك فان صور اللذائذ ومتع الحياة تبرز أمام سحيم وأول تلك الصورة المرأة البيضاء، على حين لم نجد هذا عند عبيد وكل ما وجدناه هو تصوير هادئ للقضاء والموت واتعاظ واعتبار به وذكر لتقلب أحوال الدهر بالإنسان وحتمية وقوعه في هذا المصير المحتوم، وهو على الرغم من انطلاقه من منطلق تشاؤمي عنيف إلا أننا نجد فيه ذلك الشعور الحاد بالموت كما هو الحال عند سحيم الذي يبدو أكثر جزعاً من عبيد، ولعل التفكير بالمرأة قد استنفد كثيراً من طاقة سحيم التفكيرية وحسبه أنه عالج أغلب الموضوعات في الشعر الجاهلي على هذا النحو وهو العبد الذي لا يملك نفسه.

## الصورة عند سحيم:

على الرغم من أن سحيماً يعد شاعراً طارئاً على البيئة العربية وذلك بانحداره من أصل حبشي، لا شك في انه ترك بعض التأثيرات فيه بقليل أو كثير - إلا أنه حمل تأثير البيئة العربية الصحراوية إلى درجة كبيرة لا تذكر معها تأثيرات بيئته الأصلية. ولعله لهذا السبب فقد جاءت صوره في شعره تحمل طبيعة هذه الحياة البدوية حيث استمد الشاعر تلك الصور من الواقع الذي كان يعيشه، فقد صور الظبي والناقة والثور الوحشي والقطاة والظليم والفرس والعقاب، وكذلك السيول والكواكب والغيوم، كما أنه كان ذواقة للشعر حافظاً له محاكياً الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه سواء من قبيلته بني أسد أم من القبائل العربية الأخرى. وهذا له دوره في سمات الصورة أيضاً حيث جاءت صوره، في كثير من الأحيان محاكية صور الشعراء الآخرين كتصويره لعنق المرأة وتشبيهه له بعنق الغزال وذلك مما كان معروفاً عند أغلب شعراء العصر ومن بينهم شعراء بني أسد يقول سحيم:

وَجِيـــداً كَجِيـــدِ الغَـــزَالِ النَّزِيـــفِ يَـــأْتَلِفُ الـــدُّرُّ فيـــهِ ائْتِلاَفَـــا(١)

ونحو ذلك من صوره كثير كتصويره المرأة ببيضة الظليم وبياضها بالثريا ومشيتها بالقطاة، كما نجده في تصويره لفرسه بالعقاب مما رأيناه عند عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم وعمرو بن شأس وغيرهم من شعراء بني أسد والجاهليين عموماً.

ولا شك أن سحيماً كان ينظر في تصوير الجاهليين وفي طريقتهم الفنية التي كانوا يسلكونها حين يصورون، فهو مثلاً قد يشغل بالمشبه به ويسهب في وصفه متناسياً المشبه وقد نجده على العكس من ذلك، ولعل في تصويره للناقة ما يوضح لنا انشغاله - كغيره من الشعراء - بالمشبه به وهو غالباً ما يكون الثور الوحشي فيسهب في التصوير والوصف، ثم يعود في نهاية المطاف ببيت أو أكثر قليلاً ليذكر لنا المشبه الذي هو الناقة فهو يبدأ بوصف وتصوير ناقته في البيت السبعين من قصيدته بقوله:

فَعَزَّيْـــتُ نَفْسِـــي واجْتَنَبْـــتُ غَوَايَتِـــي وَقَرَّبْـــتُ حُرْجُـــوجَ العَشِـــيَّةِ نَاجِيـــا(٢)

ويستمر في وصف الثور الوحشي مستغرقاً ذلك منه تسعة أبيات ثم ينتقل بلا أي رابط لوصف الغمام والبرق بقوله:

فَـدَعْ ذَا ولَكِـنْ هَـلْ تَـرَى ضَـوءَ بَـارِقٍ يُضِيـــءُ حَبِيّـــاً مُنْجِـــداً مُتَعالِيَـــا(٣)

ومن الملاحظ أيضاً أنه قد يبتعد عن موضوعه الأصلي ويسير مع الجزئيات في الموضوع الجديد،

١- انظر ديوان سحيم ص ٤٣ وما بعدها.
٢- ديوان سحيم ص ٢٨.
٣- ديوان سحيم ص ٣١.

ولعل في قصيدته الدالية خير مثال على ذلك، فهو يقدم لنا الحكم والنظرات الشخصية حول الفناء والموت ونهاية الأحياء وفجأة يدع ذلك الاسترسال ليصف لنا الحصان بقوله:

وَلَمْ تَـزَعِ الخيلَ المُغيرَةَ بالضُّحَى ... عَلَى هَيْكَلٍ نَهْدِ المَرَاكِلِ أَجْرَدَا

طَوِيلِ القَرَاغَمْرِ البَدِيهَةِ لاَحَهُ ... طِرَادُ هَوَادِي الوَحْشِ حَتَّى تَخَدَّدَا

يَرُدُّ عَلَيْنَا العِيرَ مِنْ دُونِ إلِفِهِ ... وثِيرَانَ رَوْضَاتِ القَصِيمَةِ عُنَّدَا(١)

وكذلك يفعل في قصيدته الفائية حيث يصف لنا رائحة محبوبته وطيبة مشيها إياها بالقرنفل والزنجبيل والمسك مما كان يجلب من بلاد الهند.

وعلى أية حال فان سحيماً قد اتخذ من البيئة العربية والشعر الجاهلي أساسين لتصويره في شتى أغراضه الشعرية التقليدية، وربما وجدنا في بعض صوره بعض الأبعاد الفردية أو بالأحرى "النفسية" كالغيرة على المحبوبة وما قد تجره إليه هذه الغيرة من تصوير لأنداده ومنافسيه من السادة الذين يستعبدونه ولا يستطيع أن يجاهرهم بالعداء. ولهذا فهو يلجأ إلى التصوير الساخر الذي لا يخلو من دعابة وفي الوقت نفسه لا يبرأ من إظهار حقد الشاعر، وغيرته، وهو إذ يصور هذا نراه يلجأ إلى التعبير المغلف غير المباشر متخذاً من تلك السخرية سبلاً إلى تصوير خصومه بصورة مضحكة، وربما كريهة لو دققنا النظر في جزئياتها إذ يقول:

ولَيْسَتْ مِنَ اللاَّئِي يَرُومُ وِصَالَهَا ... دَنِيءٌ ولا عِنْدَ الفِعَالِ ذَمِيمُ

ولاَ عَضِلٌ جَثْلٌ كَأَنَّ بَضِيعَهُ ... يَرَابِيعُ عند المَنْكِبَيْنِ جُثُومُ

يُرَى بَادِئاً والمِجلَّةُ الكُومُ شُسَّفٌ ... عَظِيمَ القُصَيْرَى والثُّمَامُ هَشِيمُ(٢)

وهكذا نرى أن الشاعر كان كمن سبقه في التصوير وعقد المشابهات وربطها ببيئته الجاهلية وبما عرف من تراث شعري موروث للشعراء السابقين، ولعل التصوير أصلاً يلجأ إليه الشاعر ليحسن التعبير عن فكرة ما، أو ليضعنا أمام موقف عاطفي أو غير عاطفي يريد نقله لنا بكل ما استطاع من دقة. فسحيم عندما يريد تصوير ناقته وسرعتها في العدو لا يجد إلا الثور الوحشي مثال السرعة والحيوية فيشبهها به في حالات تحفزه وتوثب نفسه وشعوره بالخطر المحدق، وكذلك يفعل عندما يريد أن يصور لنا المحبوبة وطيب رائحتها فتراه يلوذ بتوابل الهند والمسك. ولعل ذلك من أطيب وأذكى ما عرف الجاهلي من روائح، فالصورة عند سحيم لها وظيفتها ولننظر إلى تصويره لمدى التعب والجهد الذي لحق بالفتيات من جراء لعبهن في مكان بعيد عن الخيام. يقول سحيم:

فَأَدْبَرْنَ يَخْفِضْنَ الشُّخُوصَ كَأَنَّمَا ... قَتَلْنَ قَتِيلاً أَوْ أَصَبْنَ الدَّوَاهِيَا

وأَصْبَحْنَ صَرْعَى فِي البُيُوتِ كَأَنَّمَا ... شَرِبْنَ مُدَاماً مَا يُجِبْنَ المُنَادِيَا(٣)

ولعل في تصوير سحيم لحتمية الفناء والموت بما يوضح لنا وظيفة الصورة التي أراد أن يسوقها

---

١ـ ديوان سحيم ص٢٠ وما بعدها.

٢ـ انظر ديوانه ص ٣٧ وما بعدها.

٣ـ انظر ديوانه ص ٢٨ وما بعدها.

الشاعر لنا إذ يقول:

سَيَلْقاكَ قِرْنٌ لا تُرِيدُ قِتالَهُ ... كَمِيٌّ إذَا مَا هَمَّ بالقِرْنِ أَقْصَدَا
بَغَاكَ ومَا تَبْغِيهِ إلاّ وَجَدْتَهُ ... كَأنَّكَ قَدْ واعَدْتَهُ أمسِ مَوْعِدَا(١)

وعند هذا المفهوم ربما وجدناه يلتقي مع عبيد بن الأبرص في تصويره للفناء والموت إذ يقول عبيد:

ولِلمرْءِ أَيامٌ تُعَدُّ وقَدْ رعَت ... حِبالُ المَنايا للفَتَى كُلَّ مَرْصَدِ
مَنِيتُهُ تَجْري لِوقتٍ وَقَصْرُهُ ... مُلاقاتُها يوماً عَلَى غَيرِ مَوْعِدِ
فَمنْ لَمْ يَمُتْ فِي اليومِ لاَ بُدَّ أَنَّهُ ... سَيَعْلَقُهُ حَبْلُ المَنِيَّةِ فِي غَدِ(٢)

فالشعراء الجاهليون صوروا حتمية الموت بصور عديدة مؤداها واحد في نهاية المطاف غير أن وسائلهم التعبيرية قد اختلفت، ويخيل إلينا أن صورة سحيم في هذا المجال تفوق صورة عبيد فهي أكثر ذعراً في دلالتها. وربما وجدنا الشاعر يلجأ إلى تصوير جمال عميرة بصورة عامة يشترك فيها عدة أشياء كقوله:

كأن الثُّرَيّا عُلِّقَتْ فَوقَ نَحرِهَا ... وَجَمْرَ غَضًى هَبَّتْ لَهُ الرِيحُ ذَاكِيَا(٣)

وسحيم بتصويره هذا وبسوقه لنا الصور في لوحات ذات جزئيات عديدة إنما يبعد عنا الملل ويشعرنا بقيمة ما يقوله ويصوره أكثر مما لو كان قد عبر عنه بالتعبير المباشر.
وشاعرنا سحيم عبد بني الحسحاس شأنه شأن غيره من الشعراء فليس كل كلامه صور، ففي بعض الأحيان يقرر أكثر مما يصور وذلك من مثل قوله:

كأنَّ الصُّبَيْرِيَّاتِ يَومَ لَقِينَنَا ... ظِبَاءٌ حَنَتْ أَعْناقَهَا في المَكَانِسِ
وَهُنَّ بَنَاتُ القَومِ إن يَشْعُروا بِنَا ... يَكُنْ فِي بَنَاتِ القَوْمِ إحْدَى الدَّهَارِس
فَكَمْ قَدْ شَقَقْنَا مِنْ رِدَاءٍ مُنَيَّرٍ ... ومِنْ بُرْقُعٍ عَنْ طِفْلَةٍ غَيرِ عَانِسِ(٤)

صحيح أن في البيت الأول صورة ولكن الشاعر ينتقل فجأة إلى التقرير والأداء المباشر في التعميم ولعل هذا الأسلوب في قصائد سحيم بعامة ولا تختص به قصيدة دون أخرى(٥) وبوجه عام فان الشاعر كان يقرن أحياناً بين الأداء المباشر "التقرير" والتصوير ونلتمس صفة أخرى من واقع تصوير سحيم، فالصورة لديه ليست واقعاً كلها، كما هي ليست من نسج الخيال وحده ولعلها مزيج من الاثنين معاً، فهي تعتمد الواقع المعاشي وتظلل بألوان زاهية من الخيال. ولنضرب مثلاً على ذلك قوله

---

١ـ انظر ديوانه ص ٤١.
٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٥٧.
٣ـ انظر ديوان سحيم ص ١٧ وما بعدها.
٤ـ انظر ديوان سحيم ص ١٥.
٥ـ انظر مثلاً ديوانه ص ٤١ وما بعدها وص ٦٣ وما بعدها.

في تصوير تجربة من تجاربه إذ يقول:

وَمَاشِيَةٍ مَشْيَ القَطَاةِ اتَّبَعْتُهَا ... مِنَ السِّتْرِ تَخْشَى أَهْلَهَا أَنْ تَكَلَّمَا
فَقَالَتْ لَهُ: يَا وَيْحَ غَيْرِكَ إنَّنِي ... سَمِعْتُ كَلَامَاً بَيْنَهم يقْطُرُ الدَّمَا
فَنَفَّضَ ثَوْبَيْهِ وَنَظَّرَ حَوْلَهُ ... ولَمْ يَخْشَ هَذا اللَّيلَ أَنْ يَتصَرَّمَا
نُعَفِّي بِآثَارِ الثِّيَابِ مَبِيتَنَا ... ونَلْقُطُ رَفْضاً مِن جُمَانٍ تَحَطَّمَا(١)

فالصورة تنقل تجربة وهي في ذلك مزيج من الواقع والخيال فكلا العنصرين موجود فيها، فالخوف ونفض الثياب والتلفت عناصر واقعية في الصورة، ولكننا نقف أمام عنصر آخر هو مشى القطاة وصورة الكلام الذي يقطر الدم منهما من نسيج خيال الشاعر الذي ربما استمدهما من التراث الشعري الموروث من الشعراء السابقين له، كما أننا نجد في هذا الأسلوب القصصي الذي ساق به الصورة إلينا ميزة لسحيم فالقصة ألصق بالذهن وأقرب إلى الواقع من الحدث المجرد. وسحيم في تصويره يدقق النظر في الأشياء الحسية أمامه، فنراه يحدد الزمان والمكان كغيره من شعراء بني أسد والجاهليين بعامة ولعل في تصويره للثور الوحشي ما يعيننا على جلاء هذه الفكرة، إذ يقول:

مَرُوحاً إذَا صَامَ النَّهارُ كأَنَّمَا ... كُسَوْتِ قُتُودِي نَاصِعَ اللَّوْنِ طَاوِيَا
حَمَتْهُ العَشَاءَ لَيلَةٌ ذاتُ قِرَّةٍ ... بوَعْسَاءِ رَمْلٍ أَوْ بحَزْنَانَ خَالِيا
فَصَبَّحَهُ الرَّامِي مِنَ الغَوْثِ غُدْوَةً ... بأَكْلُبِهِ يُغْرِي الكِلَابَ الضَّوارِبَا
فَجَالَ عَلَى وَحْشِيِّةٍ وتَخَالُهُ ... عَلَى مَتْنِهِ سِبّاً جَدِيداً يَمانِيَا(٢)

وفي اعتقادنا أن الأدبيات السابقة تعتبر دليلاً على ما ذكرنا من خصائص للصورة عند سحيم، فالزمان واضح والمكان أوضح والألوان ظاهرة تماماً وهو في تصويره هذا لا يحشد ما لا لزوم له من الكلام فكل لفظة أو جزئية أعطاها مكانها المناسب لها.

وأخيراً نتوقف عند تصوير سحيم للسحاب هذه اللوحة العريضة التي فاق فيها بعض الشعراء السابقين له في هذا المجال.

ويخيل إلينا أن الشاعر قد أعطى نوعاً من التكاملية لهذه اللوحة كما يلوح لنا أنه أكسبها حركة وتشخيصاً وألواناً مناسبة جداً، يقول سحيم في وصف وتصوير السحاب والبرق وما استتبع ذلك من سيل:

أَحَارِ تَرَى البَرْقَ لَمْ يَغْتَمِضْ ... يُضِيءُ كِفَافاً وَيَجْلُو كِفَافَا
يُضِيءُ شَمَارِيخَ قَدْ بُطِّنَتْ ... مَثَافِيدَ رَبْطاً سِخَافَا
مَرَتْهُ الصَّبَا وانْتَحَتْهُ الجَنُو ... بُ تَطْحَرُ عَنْهُ جَهَاماً خِفَافَا
فَأَقْبَلَ يَزْحَفُ زَحْفَ الكَسِيرِ ... يَجُرُّ مِنَ البَحْرِ مُزناً كِثَافَا
فَلَمَّا تَنَادَى بأَنْ لاَ بَرَا ... حَ وانْتَجَفَتْهُ الرِّيَاحُ انْتِجَافَا

١ـ انظر ديوانه ص ٣٥ وما بعدها.
٢ـ انظر ديوانه ص ٢٨ وما بعدها.

وَحَطَّ بِذِي بَقَرٍ بَرْكَهُ ... كَأَنَّ عَلَى عَضُدَيْهِ كِتَافَا
فَأَلْقَى مَرَاسِيَهُ واسْتَهَلَّ ... كَمَدِّ النَّبِيطِ العَرُوشَ الطِّرَافَا
يَكُبُّ العِضَاءَ لأَذْقَانِهَا ... كَكَبِّ الفَنِيقِ اللَّقَاحَ العِجَافَا
كَأَنَّ الوُحُوشَ بِهِ عَسْقَلاَ ... نُ صَادَفَ فِي قَرْنِ حَجٍّ دِيَافَا
قِيَاماً عَجِلْنَ عَلَيْهِ النَّبَا ... تَ يَنْسِفْنَهُ بِالظُّلُوفِ انْتِسَافَا(١)

وبداية تبدو لنا اللوحة من النوع الطويل المتكامل، وقد نظر الشاعر من أبعاد متعددة وهو يصورها ولعلها تبدو صورة متقنة تتبع فيها سحيم رحلة السحاب من البداية حتى النهاية وزاد على ذلك بأن صور الأثر الذي تركه على الأرض.

فالشاعر يحدثنا عن لمعان البرق بشكل عام، ويشرع في تصوير الجزئيات متناولاً ذلك الضياء الذي يكشف عن جبل غلفته الغيوم وكأنها أثواب فوق بعضها بعضاً، ثم يصور لنا الرياح من صبا وجنوب حيث لا تمتد قدراتها إلى السحاب الثقيل فلا تزحزحه من مكانه إلا ما كان منه خفيفاً فإنها لا تبقى عليه، ويعطينا جزئية أخرى وهي سير ذلك السحاب المثقل كسير الكسير البطيء ويدلنا بهذا على مدى ملاحظته ودقة متابعته لتلك المسيرة التي طال انتظارها، ويكشف المشهد عن خطوة أخرى حيث نرى السحاب أثناءها واقفاً في مكان سماه الشاعر ذو بقر وهو في وقوفه يشبه الجبل المعقول المقيد، بعدها تبدأ قطرات الماء بالانهمار مشكلة أمطاراً غزيرة سرعان ما تستحيل إلى سيول جارفة وأمامها من أشجار العضاه وغيرها، وهي بذلك تفعل كما يفعل ولفحل من الابل في سوقه للنياق.

ونتقدم خطوة أخرى مع سحيم فإذا هو يصور لنا الوحوش البرية وقد تجمعت وازدحم بها المكان فكأنها في سوق عسقلان في موسم حج، وأخيراً يصور لنا مدى جوع هذه الوحوش ونهمها لالتهام الأعشاب الأمر الذي دعاها إلى أن تقضم ما لم يتم نبته تماماً. ولعله لذلك إنما رمى إلى تصوير مدى القحط والجدوب في تلك البيئة.

والشاعر رغم امتداده بالصورة إلا أنه لم يغفل ما يحيط به من مظاهر، فصورة الضرع الحلوب حاضرة في ذهنه، والثياب المبطنة للجبل والعروش والطراف النبطية، وسوق عسقلان، وذلك الجمل الأسطوري الذي يحمل على عضديه الكتاف، كل هذا جعل من اللوحة تحتوي أكثر من عنصر بيئي أسهم في تلوينها وألقى عليها ظلالاً جعلتها في نظرنا أقرب إلى الواقع.

ولعل عنصر الحركة في الصورة واضح أيضاً. فالشاعر يستخدم المضارع وهو الأظهر في الصورة، وما الماضي إلا للتعبير عما نقله الزمن، فالفعل يضيء إلينا الحركة المستمرة باطراد، وكذلك يجلو ويكب، ويستعين بالفعل الماضي بطنت لنقل إلينا ما تم فعله وانتهى.

ويستعين الشاعر بخياله في تلوين الصورة، وإضفاء الحركة عليها فزحف الغيوم، وإضاءة الشماريخ عنصران من الواقع تتبعهما الشاعر بيد أن تشبيهه للسحاب بزحفه كزحف الكسير، ومد النبيط العروش وكب الفنيق اللقاح العجاف، عناصر استعان بها الشاعر من خياله لتلوين صورته، وكان موفقاً في اختيارها إلى حد بعيد، وكذلك البرق الذي لم يغتمض، والسحاب الذي يستهل

---

١ـ انظر ديوانه ص ٤٦ وما بعدها.

عبراته بعد أن شخصه بصورة جمل عظيم، وريح الصبا التي راحت تمري ضروع الغمام كالمرأة تسدر ايلها أو شياهها، كل هذا التشخيص من الشاعر جاء نتيجة للبيئة التي كان يعيشها يومياً، ربما كان يمارسها بنفسه كونه عبداً رقيقاً.

وعلى أية حال: فان صورة السحاب والبرق وأنواع الطبيعة، جاءت مستمدة من بيئة الشاعر ملونة بألوانها، ومشخصة بما فيها من مظاهر، ولقد استطاع سحيم أن ينقلها لنا كأي شاعر فحل معبراً بها عما كان يشعر به البدوي تجاه هذه الظاهرة، وهي لا تختلف كثيراً عن صورة عبيد بن الأبرص للغيث، والتي سندرسها في هذا البحث أيضاً.

ونختتم الحديث عن هذا الجانب التصويري عند سحيم بكلمة موجزة لعلها تكون معبرة عن هذه الخصيصة لدى شاعرنا وهي أن هذه التشكيلات التصويرية لا تقف عند حدودها التي تحدثنا عنها بل تتعداها إلى أغوار نفسية في ذهن شاعرنا عبر عن طرف منها بقوله:

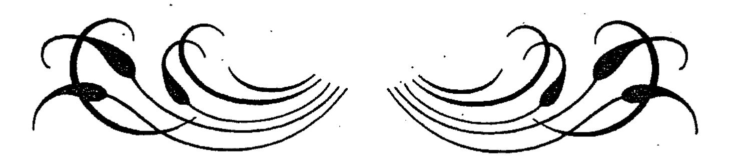
يَكُبُّ العِضَاهَ لِأَذْقَانِهَا ... كَكَبِّ الفنيقِ اللَّقَاحِ العِجَافَا

ولذا فقد جاءت لا تخلو من بعض الآثار التي لمسناها في غزل سحيم.



# الباب الثالث

# مَوْضُوعَاتُ الشِّعْرِ عِنْدَ بَنِي أَسَدٍ



## في هذا الباب:



الفصل الأول:

الشِّعْرُ القَبَلِيُّ



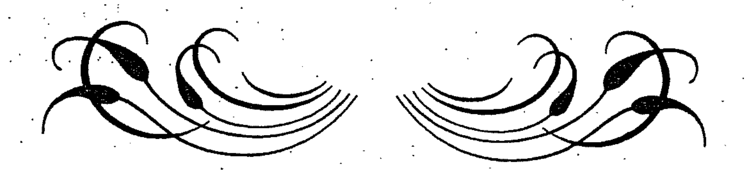
الفصل الثاني:

الشِّعْرُ الفَرْدِيُّ



# الفصل الأول

# الشِعرُ القَبَلِيّ



## في هذا الفصل:

حب الأرض والديار والأهل

تصوير الروح الحربية والمبالغة في وصف القوة

الهجاء في شعر بني أسد وأهم مميزاته

رثاء قتلى القبيلة

توجيه الطاقات الفكرية لخدمة قضايا القبيلة

لعله من المفيد أن تكون دراسة شعر هذه القبيلة على أساس أن نجعل القبيلة ذاتها المحور الذي يلتقي حوله شعراؤها في تلك المرحلة المتقدمة في الجاهلية، وليس معنى هذا أننا سنغفل الناحية الفردية الغنائية عند هؤلاء الشعراء، فهم أفراد قبل كل شيء، وقد عبروا عن أنفسهم ووجدانهم وأحاسيسهم من خلال المجموع، وربما كان ذلك التعبير لا يوافق منطق الجماعة التي ينتمون إليها وهي القبيلة.

ولعلي بهذا أكون قد ابتعدت عن الأسباب في الدراسة، وتتبع كل غرض عند سائر شعراء هذه القبيلة، وما أكثر ما قالوا في كل غرض.

والواقع أن شعر هذه القبيلة في الجاهلية مصبوغ في تلك المرحلة إلى حد بعيد ـ بالصبغة القبلية كغيره من أشعار القبائل الأخرى في تلك المرحلة. فالدوافع القبلية كانت تمثل المصدر الأول للشعر من إظهار لمفاخرها ومآقيها، ومن ذود عن حياضها في الحرب والسلم، ومن إشادة ببطولاتها وانتصاراتها، ولا نعدم الدوافع الفردية في صدور ذلك الشعر، تلك الدوافع التي أملتها حياة الإنسان الفرد في مواقف عاشها وخبرها، وعبر عنها بوجهة نظر خاصة به بوصفه فرداً له استقلاليته القائمة بغض النظر عن رهطه وقبيلته، وليس معنى كلامنا هذا أن الفرد قد خرج عن نطاق القبيلة، ولم يبق منضوياً تحت لوائها، بل أن ما نرمي إليه هو أن الشاعر منهم كان جزءاً من كل، ولعله بتعبيره عن وجهة نظره الخاصة ـ في كثير من الأحيان ـ لا يخرج عن نطاق القبيلة، ولا يخالف أعرافها، وإنما يمثلها بتلك الوجهة لأنها سياجه المنيع الذي يحفظ حياته، ويستشعر الأمان داخله، وهو على ذلك ملتزم بما تواضع عليه أبناؤها من تقاليد ونظم وعادات، والحقيقة أن شعراء بني أسد الجاهليين كانوا أوفياء لهذه القبيلة إلى حد بعيد، ولم تحدثنا المصادر القديمة عن خروج أحدهم على أعراف القبيلة، ولم نر منهم صعلوكاً واحداً من صعاليك العرب الذين ضاقوا ذرعاً بالقبيلة وخرجوا عليها.

ولعل شاعر بني أسد عبيد بن الأبرص قد أوضح لنا شيئاً من تلك النظم والعادات، وما ينبغي على الفرد أن يتمسك به وإلا عد من المارقين يقول عبيد:

إذا كُنْتَ لَمْ تَعْبَأْ بِرَأْيِ وَلَمْ تُطِعْ ... لِنُصْحٍ وَلا تُصغِي إلى قَوْلِ مُرشِدِ

فلا تَتّقي ذَمّ العشيرةِ كلِّها ... وتدفَعُ عنها باللسانِ وباليَدِ

وتَصْفَحُ عَنْ ذي جَهْلِهَا وَتَحُوطُها ... وتقْمَعُ عنها نَخْوةَ المُتَهَدِّدِ

وتنزلُ منها بالمكانِ الذي بِهِ ... يُرى الفَضْلُ فِي الدّنيا عَلَى المُتَحَمّدِ

فَلَسْتَ وإن عَلّلْتَ نَفسَكَ بالمُنى ... بذي سُؤدَدٍ بادٍ ولا كَربِ سَيّدِ[1]

بيد أن الشاعر الجاهلي وهو يعيش داخل هذا السياج، ويرعى تلك النظم والتقاليد والأعراف ـ التي صورت أبيات عبيد السابقة جانباً منها ـ هو إنسان يعيش حياته الخاصة، وله تجربته الخصوصية ونظرته الفردية التي تغاير نظرة الآخرين في قليل أو كثير من الجزئيات.

وإذا كان الأمر على هذه الشاكلة، فقد رأينا أنه من المستحسن أن يدرس هذا الشعر على محورين: الأول منهما ما دار حول قضايا القبيلة وما اتصل بها بسبب من الأسباب، والآخر ما دار حول حياة هؤلاء الشعراء، وما عبروا عنه بشخصية مستقلة، وإننا بذلك لا نجد أي انفصام بين

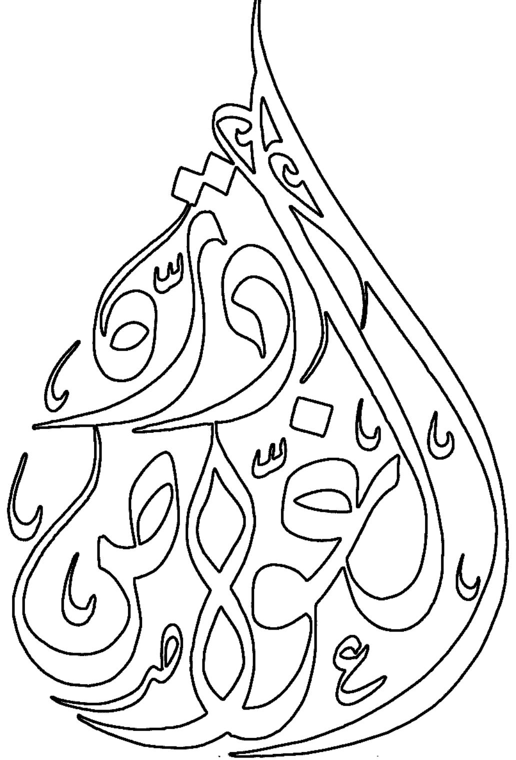
---

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٥٢.

المحورين، ذلك أن الشاعر الأسدي ربما عبر عن قضية خصوصية ولكنها قد تتصل بقبيلته أو رهطه الأقربين بسبب أو بآخر.

ولعل بشر بن أبي خازم في هجائه ومدحه لأوس بن حارثة الطائي يمثل قضية خاصة، ولكننا لو دققنا النظر في هذه المسألة لوجدناها ترتبط بقبيلته كلها لاعتبارات كثيرة كانت تربط بين القبيلتين وبين الغزاريين الذين دفعوا بشراً لذلك[1].

والواقع: أن الشاعر الأسدي ـ بخاصة ـ والجاهلي ـ بعامة ـ كان يمثل المواطن القبلي المخلص ـ أن صح التعبير ـ فهو أشبه بفرد في أسرة، وليس كأي فرد. انه في موقع مهم وحساس وبالغ الخطورة، وعليه أن يوجه كل طاقاته الأدبية ومقدرته الفنية في سبيل القبيلة وخدمتها، ولعله لم يكن يقبل على نفسه أن يقف موقف السلبية من قضاياها إزاء ما كانت تمر به من أحداث، فهو في الصف الأول ـ دائماً ـ بسيفه ولسانه، وربما كان الشعراء الأسديون ـ كما نراهم من جانبنا ـ من أكثر الناس تعصباً لقبيلتهم والتصاقاً بها، ولذلك نراهم في موقع المنافحة، والمدافعة عن أي صغيرة أو كبيرة تحدث في القبيلة، وهم لا يدخرون جهداً في الدفاع عنها، والنيل من أعدائها أن اجترأوا على حرمة من حرماتها، بل رأيناهم في موقع التحدي والهجوم، وإذا حدث وانهزمت قبيلتهم في معركة ما، وجدناهم أول من يلتمس الأعذار لذلك، وقد يذهب الشاعر الأسدي إلى أبعد من هذا في ارتباطه بقبيلته ـ فنراه ينظر إلى الدنيا بمنظار قاتم إذا هو اضطرته ظروف الحياة الابتعاد عن ديار قبيلته لسبب أو لآخر.



١ـ انظر قصائد بشر في ذلك بديوانه ص ٦، ١، ١١٣، ١٤٢، ٢١٥، ٢١٩ وانظر تحليل الدكتورة عزة حسن لهذه المسألة ص ٢٦ في مقدمة الديوان.

## حب الأرض والديار والأهل:

ولعل هذا الاتجاه قد رافق الشعراء الأسديين ابتداء من أقدم شعرائهم عبيد ابن الأبرص حيث يقول:

فَإِنْ تَكُ غَبْراءُ الخُبَيْبَةِ أَصبحتْ خَلَتْ مِنْهُمُ واستَبْدَلَتْ غَيْرَ أَبدالِ
فَقِدْماً أرى الحَيَّ الجميعَ بغبطةٍ بها والليالي لا تَدُومُ على حالِ
أَبعدَ بني عَمِّي وَرَهْطي وإخوتي أُرَجِّي لَيانَ العَيْشِ ضُلّاً بتضلالِ
فَلَسْتُ وإنْ أَضْحَوا مَضَوا لسبيلِهِمْ بناسيهِمُ طُولَ الحَياةِ ولا سالِي(١)

والناظر في شعر هذه القبيلة سيجد أن شعراؤها، كانوا مثالاً لهذه الصورة التي صدرت عن عبيد، ولعلهم بذلك الاتجاه، وهو التفاني في سبيل القبيلة، إنما يعبرون عن مدى ارتباطهم بأرضها وديارها، وكل ما فيها، فهي تمثل الوطن للأهل والأقارب،

وربما قضى الشاعر في تلك الأماكن شطراً من الطفولة، وأيام الصبا، ولذلك فقد جاء تعبيرهم عن هذه القضية صادقاً تعلوه نبرة من الأسى، والحزن العميق في نفوس الشعراء على ما أصاب تلك الديار من تدمير وخراب على يد الزمن أو غيره.

وربما زاد في ذلك الحزن والأسى هو أن الإنسان الجاهلي قد عرف ألواناً شتى من الحنين للأهل والديار، أشعرته بنوع من الوحشة والاغتراب، وأججت شوقه لشيء من الاستقرار المكاني الذي حرمته منه الطبيعة، والنظام المعيشي الذي كان عليه.

ومن هنا جاء ارتباط الشاعر الأسدي ببيئته بكل ما فيها من أطلال، وزمن، وأناس وأمكنة تحس من خلال تصوير الشاعر الأسدي لها بذلك الشوق العارم، والأسى الدفين الذي اعتصر قلوب شعراء هذه القبيلة التي ربما عانت - أكثر من غيرها من القبائل مثل تلك الألوان من التشرد والتنقل، الحروب مما دعا أبناءها للتلاحم، والتعاضد، وأذكى فيهم روح المودة والتعاطف أكثر من غيرهم.

والشاعر الأسدي يربط دائماً بين الديار وبين سكانها وهو - من خلال حديثه ووقوفه على الأطلال - يعبر عن ذلك الارتباط، فعبيد يقف على الديار ليبكي ساكنيها قبل أن يبكيها، وهو إذا ما ذكر الأهل ذكر الديار والأمكنة، وكأنه يقرن حب الأهل والعشيرة بحب تلك الأمكنة الدارسة وقد اكتسبت هي الأخرى هذه المنزلة الرفيعة في نفس الشاعر إذ يقول:

تَذَكَّرتُ أهلي الصالحينَ بِمَلْحُوبِ فَقَلْبي عَلَيهِم هالكٌ جِدُّ مَغْلُوبِ
تَذكَّرتُ أَهلَ الخَيْرِ والباعِ والنَّدى وأهلَ عِتاقِ الجُردِ والبِرِّ والطِيبِ
تَذَكَّرْتُهُمْ ما إن تَجِفُّ مَدامِعِي كأَنَّ جَدْوَلٌ يَسقي مزارعَ مَحْرُوبِ(٢)

---

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١١٢ - ١١٣.
٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٢٦ - ٢٧.

إن الشاعر في تذكره المستمر هذا ليدلل على مدى آلامه وأحزانه، وان هذا التكرار للفعل في الأبيات الثلاثة ليعكس لنا تلك الحالة التي كان عليها الشاعر، وهو يقف على ديار قبيلته الدائرة بعد أن خلت من أهلها.

والواقع: أن هذا الشاعر الأسدي يكثر من ذكر أهله من بني سعد بن ثعلبة بن دودان، ومن ذكر الأمكنة التي حلوا بها في غير موضع من ديوانه[1] ولعل ذلك عائد إلى ما أصاب قومه ورهطه من قتل وتشرد على أيدي الغساسنة وغيرهم، وربما استعان بناقته كي يصور لنا شوقه وحنينه لتلك الديار يقول:

وَحَنَّتْ قلوصِي بَعْدَ وَهْنٍ وَهَاجَهَا ... مَعَ الشَّوقِ يوماً بالحجازِ وَمِيضُ
فقلتُ لَها لا تَضْجَري إنَّ مَنْزِلاً ... نَأتْني بِهِ هِنْدٌ إليَّ بَغِيضُ[2]

وهذا شاعر أسدي آخر هو البراء بن ربعي الفقسي تظلم الدنيا في وجهه لغياب أبنائه وأخوان صفائه يقول البراء:

أَبَعْدَ بَني أُمِّي الذيْنَ تتابعُوا ... أُرَجِّي الحياةَ أَمْ مِنَ المَوتِ أَجْزَعُ
أولئكَ إخوانُ الصفاءِ رزيتُهُمْ ... وما الكفُّ إلا إصبعٌ ثُمَّ إصبَعُ[3]

وليس هذا فحسب، فقد تغنى الشاعر الأسدي بكل ما في بيئة بني أسد في شمال نجد تعبيرًا منه عن مدى ارتباطه بقبيلته. فهذا أبو القمقام الأسدي يوجه التحية إلى جبل الوشل، ويذكر أيامه هناك ومبدياً لوعته حيث اضطرته الفتوح إلى مغادرة تلك البقاع يقول أبو القمقام:

اقْرأ عَلَى الوَشلِ السلامَ وَقُلْ لَهُ ... كُلُّ المَشاربِ مُذْ هُجِرْتَ ذَمِيمُ
جَبَلٌ يزيدُ على الجبالِ إذا بَدا ... بَيْنَ الربائعِ والجُثُومِ مُقِيمُ
تَسْري الصبا فتَبيتُ فِي أكنافِهِ ... وَيَبِيتُ فيهِ مِنَ الجَنُوبِ نَسيمُ[4]

ولعل حب الوطن والارتباط بالبيئة تعبيراً عن مدى حبه العميق لقبيلته لم يقتصر على الشعراء من الرجال، بل اتصفت به النساء الشواعر من بني أسد. فهذه رملة بنت حصين الأسدية نراها تحن لبعض مواضع بني أسد قومها ويبدو أنها اضطرت لمغادرتها لسبب من الأسباب تقول رملة:

أُلامُ عَلَى نَجْدٍ وَمَنْ يَكُ ذا هَوًى ... يُهَيِّجُهُ لِلشَوقِ شَتّى يرابِعُهْ
تُهيجُهُ الجَنُوبُ حِينَ تَغْدُو بِنَشْرِها ... يمانيةً والبرقُ إنْ لاحَ لامِعُهْ
وَمَنْ لامَني في حبِّ نَجْدٍ وَأهلِهِ ... مَليمٌ عَلَى مِثْلي وأوعبَ خادِعُهْ

---

١ـ انظر المصدر السابق صفحة ٩.
٢ـ انظر ديوان عبيد صفحة ٨٠.
٣ـ انظر المؤتلف والمختلف ص ٨٦.
٤ـ انظر الحماسة الجزء الثالث ص ١٣٧٧.

وَخُـــوٌ إذا خُـــوٌ ســـقَتْهُ ذِهابُـــهُ وأمَـــرعَ مِنْـــهُ تينُـــهُ وَرَبائِعُـــهُ(١)

ولم تكن هذه الظاهرة وحدها هي التي مازت شعراء بني أسد في ارتباطهم بقبائلهم، فهناك الحماسة، والفخر والاعتزاز بمآثر القبيلة إلى هجاء يذودون فيه عن القبيلة، ويترجم غضب هؤلاء الشعراء على أعداء القبيلة، وكذلك في رثاء قتلى القبيلة في حروبها، ولعله من مظاهر الشعر القبلي في شعر هؤلاء أنهم أدخلوا حتى النظرات الشخصية والحكم والتجارب، أقول: لقد وجهوا كل ذلك لخدمة قضايا الجماعة، وذلك من موقع الحرص على مكانة وسطوة هذه القبيلة، لأنها في الحقيقة تمثل عزتهم وسطوتهم كأفراد.

وإذا كنا قد وقفنا على مظهر من مظاهر الارتباط تلك وهو الحنين إلى مواطن القبيلة، فيجدر بنا أن نلقي نظرة على بقية المظاهر في هذا المضمار. ولعله مما يستوقف الباحث أن هذا الارتباط الشديد لم يكن مبعثه السير وراء التقليد المألوف الذي نجده في أغلب مطالع القصائد الجاهلية.. ولعل البعث الحقيقي لهذه الظاهرة إنما يعود إلى شدة تعلق هؤلاء الشعراء الأسديين بمواطن قبيلتهم حيث ارتبطوا بها وقضوا شطراً من طفولتهم وأيام صباهم بين ربوعها. وربما تكونت ذكريات الشباب بين أوديتها وشعابها، مما جعلهم يألفونها ويعدونها أوطانهم فكأنهم إذا ذكروها ذكروا جزءاً عزيزاً من أعمارهم ومما يلفت للنظر في هذه الظاهرة أن الشاعر الأسدي إذا تحدث عن تلك الأماكن لمسنا في حديثه روح الفخر والاعتزاز بالانتماء إليها، مما يدفعنا إلى القول بأن مرد هذا الاعتزاز إنما هو عائد إلى خصب تلك الأماكن ونمائها وكثرة مراعيها ومياهها ـ إذا ما قسنا ذلك إلى بقية أجزاء نجد ـ حيث عرفنا أن هذه القبيلة قد احتلت أفضل الأمكنة وفرة ماء وخصوبة مرعى وطيب هواء، وهذا ما كان ينشده البدوي في تلك الصحراء، وان نظرة إلى دواوين هؤلاء الشعراء كافية لتعرف ما ذهبنا إليه وما تؤيده جغرافية تلك المنطقة(٢).

وما كانت قبيلة بني أسد لتحتفظ بهذه الأماكن أمام القبائل الأخرى لولا قوتها ومنعتها ومقدرتها على حماية تلك المياه والأودية. وقد يصور لنا الشاعر الأسدي تلك القوة ومقدرة بني أسد ليس على حماية أنفسهم فحسب وإنما على حماية حلفائهم الآخرين حيث يقول مخاطباً أحد حلفاء بني أسد لائماً إياه على عدم استنجاده بهم لرد الضيم عنه وعن قومه:

دَعَـــا مَعاشِـــرَ فاســـتَكَّتْ مَســـامِعُهُمْ يـــالَهْفَ نَفْسِـــيَ لَـــوْ تَدْعُـــو بَـــني أَسَـــدِ

تَدْعُـــو إذَنْ حـــامِي الكُمـــاةِ لا كَمِـــلاً إذا السُـــيُوفُ بـــأَيْدِي القَـــوم كـــالوقد

لوهـــم حمـــاتك بـــالمحمي حمـــوك ولم تـــترك ليـــوم أَقَـــامَ النَّـــاسَ فِي كَبَـــدِ

---

١ـ انظر معجم البلدان المجلد السادس ص ٣٠٣ وانظر قول رقاع بن قيس الأسدي:

أحـــب بـــلاد الله مـــا بـــين منعـــج إلى وســـلمى أن يصـــوب ســـحابها

بـــلاد بهـــا حـــل الشـــباب تمـــائمي وأول أرض مـــس جلـــدي ترابهـــا

انظر الأغاني طبع الدار الجزء الثاني ص ٣١٠.

٢ـ انظر الديوان بشر بن أبي خازم ص ١١٨، ٩٨، ٨٧، ٧٠، ٦٢ وعبيد ص ١١٣، ١٠٥ وانظر مواطن القبيلة في هذا البحث وانظر بلاد العرب للأصفهاني ص ٧٢ ومعجم البلدان لياقوت الجزء الثاني ص ١٣١.

كَمَا حَمَيْنَاكَ يَوْمَ النَّعْفِ مِنْ شَطِبٍ والفَضْلُ لِلْقَوْمِ مِنْ رِيحٍ وَمِنْ عَدَدِ (١)

وإذا تحد الشاعر الأسدي عن مواطن قبيلته ومياهها لمسنا جانب الفخر واضحاً في أثناء حديثه، ولعل ضرار بن الأزور الأسدي يذهب إلى مثل ما ذكرنا مدلاً بمراعي بني أسد الخصبة على الآخرين ومظهراً قدرتهم على حمايتها والزود عنها حيث يقول:

وَنَحْنُ مَنَعْنَا كُلَّ مَنْبتِ تَلْعَةٍ مِنَ النَّاسِ إلا مَنْ رَعاها مُجَاوِرَا
مِنَ السِّرِ والسَّرَّاءِ والحَزْنَ والمَلاَ وَكُنَّ مِخنَّاتٍ لَنَا وَمَصَائِرا(٢)

ويفتخر مطير بن الأشيم الأسدي بماء "سميراء" وهو لبني أسد فيقول:

ألا أيها الركبانُ إنَّ أمامَكُمْ سَمَيْراءَ ماءٌ رِيُّهُ غَيْرُ مُجْهَلِ(٣)

وإذا كانت البيئة تلعب دوراً بارزاً في حياة الإنسان وتترك آثارها على كثير من جوانب حياة الفرد، فانه يمكن القول أن ذلك التأثير البيئي ربما يمتد إلى أكثر من شخص ويتعدى حدود الفرد إلى الجماعة التي تخضع لظروف حياتية شبه واحدة، والى عادات وتقاليد وأعراف متشابهة إلى حد بعيد، ولعل هذا ما كان عليه الأمر بالنسبة لقبيلة بني أسد فهي تعد من القبائل الحربية المغرقة في بداوتها، ولعلهم بهذا التعلق الشديد بالديار والأمكنة التي تخص قبيلتهم إنما كانوا يعبرون عن ارتباطهم وولائهم القبلي، وساروا بهذا الاتجاه معبرين عن حزنهم وأساهم على ما أصاب أقوامهم ونحن نرى من جانبنا أن بكاء شعراء بني أسد على تلك الأمكنة الدائرة ووقوفهم في الأطلال الدارسة يمثل رؤية خاصة قد تغاير الرؤية العامة للوحة الطلل عند الجاهليين بعامة.

ويبدو أن الحنين إلى الماضي ما هو إلا محاولة من الشاعر الجاهلي للتخفيف عن نفسه المثقلة بآلام الحاضر التي تحاصره من كل جانب، ولعلها كانت تزيد في شقائه وغربته فيهرع لائذاً بماضيه وذكرياته الجميلة مع بني قومه، عساه يجد نوعاً من العزاء عن حاضره القاسي، وربما رأينا نقيض هذا الموقف من شعراء بني أسد، فقد يقف الواحد منهم هذه الوقفة ليتذكر لحظات الحزن ويستحضرها كي تزيد في حزنه وتعمق في أساه.

ولعله يذكر أمجاد السابقين من رهطه يلم شتات نفسه أو يحاول ذلك لتصبح لديه القدرة على مواجهة واقعه الذي يعيشه، وعلى أن يتجاوز آلامه - وهو في ذلك في مسيس الحاجة إلى العودة إلى ذلك الماضي بفرحه أو بحزنه.

وعلى الرغم من أن الحنين إلى الماضي هو في حقيقته دافع شخصي من الشاعر ينفصل عن واقعه، إلا أنه عند شعراء بني أسد قد لبس ثوباً قبلياً - أن صح التعبير - فالشاعر الأسدي كان مفرطاً في انتمائه القبلي حتى ليخيل إلينا أنه كان يريد أن يتحد اتحاداً كلياً مع أبناء قبيلته ورهطه الماضين منهم

---

١- انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٨٥ - ٩٥ ويوم النعف بين غسان وأحدا من أحلاف بني أسد فيلومه الشاعر لأنه لم يستنجد ببني أسد كما جدث يوم شطب.

٢- انظر معجم البلدان لياقوت الجزء الثالث ٢٠٣ المخنات. الساحات.

٣- انظر المصدر السابق المجلد الثالث ص ٢٥٦. وسميراء منزل بطريق مكة بعد توز مصعدا.

والحاضرين، وهو إذ يعبر عن حزنه العميق بوقوفه على ديارهم، وتذكره لعزهم الضائع إنما يشمخ بانتمائه إلى مثل هؤلاء الناس، ولئن قتلوا وطوت الأيام صفحتهم فان ذلك ليس بعجيب، فالدهر لا يبقي على أحد مهما بلغت شجاعته وقوة بأسه، ولقد كان أهله كذلك يقول عبيد:

لِمَنْ طَلَلٌ لَمْ تَعْفُ مِنْهُ المَذانِبُ ... فَجَنْبا حِبِرٍّ قَدْ تَعَفّى فَواهِبُ

ديارُ بني سَعْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الأُلَى ... أذاعَ بِهِمْ دَهْرٌ عَلَى النّاسِ رائِبُ

فَأَذْهَبَهُمْ ما أَذْهَبَ النّاسَ قَبْلَهُمْ ... ضِرَاسُ الحُروبِ والمَنايا العَواقِبُ

أَلا رُبَّ حَيٍّ قَدْ رأَيْنا هُنالِكُمْ ... لَهُمْ سَلَفٌ تَزْوَرُّ مِنْهُ المَقانِبُ

فَأَقْبِلْ عَلَى أَفْواقِ سَهْمِكَ إِنَّما ... تَكَلَّفْتَ م الأشْياءِ ما هُوَ ذاهِبُ(١)

والواقع أن الحديث عن الأطلال والرسوم الدارسة قد كثر في شعر الجاهليين بعامة، ومنهم شعراء بني أسد الذين فصلوا في ذلك الحديث وصوروا كل نؤى وأثر للتعبير عن شدة ارتباطهم بتلك البقايا والأماكن التي تمثل الحياة السابقة لهم بكل أفراحها وأحزانها، ولقد جادوا بالدمع في أثناء مخاطبتهم الطلل وبيد أننا أمام شاعر قد يختلف عن كثير من شعراء قبيلته، فعبيد لا يقف بالأطلال وقوف العاشق الذي ساءه رحيل محبوبته ولكنه يقف ـ كما رأينا ـ على أطلال قبيلته التي تحولت إلى مجموعة من الخرائب ولحقها الدمار الكامل. ولعلنا نجد تصريحاً بذلك منه فهو يعلن أنه لا يبكي الطلل العافي ولا يذرف الدمع اثر حبيب مرتحل، وإنما يفطر قلبه الحزن على رهطه وعشيرته الأقربين الذين أبادتهم الحروب المتلاحقة يقول عبيد:

أَمِنْ مَنْزِلٍ عافٍ وَمِنْ رَسْمِ أَطْلالِ ... بَكَيْتَ وَهَلْ يَبْكي مِنَ الشَّوْقِ أَمْثالي

دِيارُهُمُ إِذْ هُمْ جَميعٌ فَأَصْبَحَتْ ... بَسابِسَ إِلاّ الوَحْشَ في البَلَدِ الخالي

أَبَعْدَ بَني عَمِّي وَرَهْطي وإِخْوَتي ... أُرَجّي لِيانَ العَيْشِ ضُلّاً بِتَضْلالِ(٢).

وعلى هذا فقد نظر عبيد إلى الأطلال نظرة مختلفة عما ألفناه من الشعراء، لقد نظر إليها على أنها مسرح صراع بين الحياة والموت، ولكن صورة الدمار والخراب التي لحقت بهذه الأطلال برغم عتوها وقوتها الكاسحة لم تستطع محو مظاهر الحياة فيها، فها هي ذي الظباء والنعام ترتع في الديار وقد توالدت فيها وتكاثرت، مما يوحي لنا بخصب ونماء تلك الربوع. وكأنما يريد الشاعر أن يبعث الحياة من جديد في تلك البقاع، وإذا تأملنا موقفاً ثالثاً لهذا الشاعر الأسدي وهو يصور حنينه ويعبر عن حزنه وأساه بوقوفه على أطلال قبيلته فإننا سنلاحظ مدى ما كان يحسه عبيد من معاناة، وهو

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ٨، ٩.

٢ـ انظر المصدر السابق ص ١١٢، ١١٣ وانظر ديوانه ص ١٠٥ حيث يقول في هذا المعنى:

ليس رسم الدار على الدفين ببال ... فلوى ذروة فجنبي أثال

دارحي أصابهم سالف الدهر ... فأضحت ديارهم كالخلال

مقفرات الا رماداً غبياً ... وبقايا من دمنة الأطلال

بدلت منهم الديار نعاماً ... خاضبات يزجين خيط الرئال

في هذا الموقف ما أن يتخلص من وصف الديار وما لحق بها من دمار، ويصور لنا الطلل بتلك الصورة القائمة حتى يخلص إلى وصف الشيب والشيخوخة مما يناسب المقام. ويفصح عن حالة الشاعر المنهزمة أمام مظاهر الفناء يقول عبيد:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ ... فالقُطَبِيَّاتُ فالذَّنُوبُ
فَراكِسٌ فَثُعَيْلِبَاتٌ ... فَذَاتُ فِرْقَيْنِ فالقَلِيبُ
فَعَرْدَةٌ فَقَفَا حِبِرٍّ ... لَيْسَ بِها مِنْهُمُ عَرِيبُ
وَبُدِّلَتْ مِنْ أَهْلِها وُحوشاً ... وَغَيَّرَتْ حَالَها الخُطُوبُ
أرضٌ تَوارَثُها شَعُوبُ ... وكُلُّ مَنْ حَلَّها مَحْرُوبُ
إمّا قتيلاً وإمّا هالِكاً ... والشَّيْبُ شَيْنٌ لِمَنْ يَشِيبُ(١)

وإذا كان بكاء عبيد بن الأبرص يمثل البكاء على الجماعة وحنينه إلى الماضي يمثل الحزن العميق على ما أصاب بني أسد من كوارث فهذا شاعر أسدي ثان يصور أساه بمثل ما صوره عبيد يقول الشاعر الأسدي:

أَلا يا طَالَ بالغُرُبَاتِ لَيْلِي ... وَمَا يَلْقَى بَنُو أَسَدٍ بِهِنَّهْ
وقائِلَةٍ أَسِيْتَ فقلتُ جَيْرٌ ... أَسِيٌّ إنَّني مِنْ ذاكَ إنَّهْ(٢)

ولعل الشاعر بشر بن أبي خازم لا يغاير في حنينه إلى الماضي ووقوفه بالديار عبيد بن الأبرص حيث يقول متسائلاً:

أَيُّ المَنازِلِ بَعْدَ الحَيِّ تَعْتَرِفُ ... أم ما صِبَاكَ وَقَدْ حُكِّمْتَ مُطَّرَفُ
أَمْ ما بُكاؤُكَ فِي دارٍ عَهِدْتَ بِها ... عَهْداً فَأَخْلَفَ أَمْ فِي آيِها تَقِفُ
كَأَنَّها بَعْدَ عَهْدِ العَاهِدِينَ بِها ... بَيْنَ الذَّنُوبِ وَحَزْمَيْ وَاحِفٍ صُحُفُ
أَضْحَتْ خَلاءً قِفاراً لا أَنِيسَ بِها ... إلا الجَوازِئَ والظِّلْمانَ تَختلِفُ
وقفتُ فيها قَلوصي كَيْ تُجَاوِبَني ... أَوْ يُخْبِرَ الرَّسْمُ عَنْهُمْ أَيَّةَ صرفُوا(٣)

وبلغ من التزام الشاعر الأسدي بقبيلته وحبه لها أن وصل به الأمر إلى الجهر علانية بهذا الولاء حيث يقول أحدهم:

لَعَمْرِي لَرَهْطُ المرءِ خَيْرٌ بَقِيَّةً ... عَلَيْهِ وَلَوْ عالوا بِهِ كُلَّ مَرْكَبِ(٤).

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ١٠ ـ ١٢.
٢ـ انظر معجم البلدان المجلد الرابع ص ١٩٢.
٣ـ انظر ديوان بشر ص ١٣٧.
٤ـ انظر المنازل والديار ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ وينسب الشعر للرقيع بن عبيد الأسدي وتروي للخالد بن نصلة الأسدي من بني عمرو بن قعين ولعله منن المخضرمين كما يفهم من جمهرة أنساب العرب والأبيات في الحماسة البصرية لزرافة بن سبيع

وهكذا فإننا نلاحظ أن الشعر الأسدي كان في أشد لحظات انفصاله عن القبيلة وخلوه إلى نفسه ـ المتمثل في وقوفه على الديار وحنينه إلى الماضي ـ كان في قمة انتمائه القبلي وذوب شخصه في بوتقتهم ناسياً شعوره بالاغتراب عنهم، بل نراه متحدثاً بلسانهم متجاوزاً كل آلامه ومحنه، ولا نبالغ إذا قلنا إن الشاعر الأسدي جعل من لوحة الطلل الفردية لوحة جماعية قبلية صور فيها أكثر من معلم من معالم بصدق وحرارة وحزن. وقد خيل إلينا أن القبيلة أطلت برأسها عند أكثر من شاعر أسدي وفي أكثر من موضع، مما يجعلنا نوشك على القول بأن أغلب ما صدر عن هؤلاء الشعراء من شعر يمكن أن نصنفه داخل إطار الشعر القبلي ـ وربما لم ننس وصية بشر بن أبي خازم في ساعة احتضاره ومفارقته هذه الحياة، من أنه لا يأسف على الموت إلا لأنه عاجله ولما يشف غليله ـ بصحبة قومه ـ من بني عامر بن صعصعة. وأختم الحديث عن هذا الجانب بالقول: أن الشاعر الأسدي لم يكن في كل تقلبات حياته يتصور أن يعيش وحيداً بعيداً عن قبيلته ورهطه، وأن حدث ذلك لسبب أو لآخر اسودت الدنيا بعينيه وشعر بحزن عميق وعبر عن ذلك فيما صدر عنه من شعر. ولا أظن أن شيئاً قادراً على تحريك مشاعره وأحاسيسه كالقبيلة وما يستتبع ذلك من ولاء وحب وتعلق بها



## تصوير الروح الحربية والمبالغة في وصف القوة:

ومما يستوقف الباحث ـ في شعر هذه القبيلة ـ ذلك الكم الضخم من الشعر الذي يصور فيه شعراؤها الحرب وأجواءها، وتلك الروح الحربية الصادرة عن حس قبلي يحتوي على كثير من جوانب العداء، وحب القتل لدى هؤلاء القوم.

ولعلنا نستطيع أن نطلق على هذه السمة عند شعراء بني أسد لفظة "الروح الحربية" والمطلع على تاريخ هذه القبيلة منذ جاهليتها الأولى قد لا يستغرب وجود مثل هذه الروح لدى أبنائها وبخاصة شعراؤها، فقد عرفت هذه القبيلة بصولاتها وجولاتها في ميادين القتال منذ أن عرفنا تاريخها ـ ولقد سبق أن أشرت إلى هذا في أثناء معالجتي لحروب بني أسد وعلاقاتها مع كل القوى السياسية العربية في ذلك الحين من مناذرة وغساسنة وكنديين ـــ بالإضافة إلى حروبها مع القبائل العربية الأخرى وذلك في الباب الأول من هذا البحث ـ وعلى ذلك فان الاتجاه نحو الحرب ـ عند الأسديين ـــ قديم جداً.

ولعل وجود بني أسد في البقاع المتاخمة للمناذرة والغساسنة في شمال الجزيرة كان عاملاً في هذا الاتجاه الحربي لدى أبناء هذه القبيلة في حالتي الدفاع والهجوم، ويبدو أن المعارك والحروب، والظروف التي تصاحب في مثل هذه الأحوال تكون دافعاً قوياً في النفس البشرية لبعث الحماسة فيها، ولإلهاب وجدانها بمشاعر وأحاسيس الفخر والاعتزاز الذي يصل ـ أحياناً ـــ إلى حد الكبرياء والزهو

ولعل الشعراء بما أوتوا من حس مرهف، ومشاعر رقيقة هم أكثر الناس استجابة لمثل هذه الأمور وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالقبيلة محط حب وولاء الشاعر، فهو لاشك سيهب مدافعاً ومنافحاً، وبكل ما أوتي من طاقات حربية، أو فنية لخدمة قبيلته، وبمثل هذا أذكى شعراء بني أسد الحماسة في أبناء قبائلهم، وأشادوا وتغنوا بانتصاراتهم على الآخرين، وبانتزاع الغلبة والنصر منهم ـ ولا ندعي أن هذه السمة كانت حكراً على شعراء بني أسد وحدهم ـ فالشعراء الجاهليون عموماً ـ على اختلاف قبائلهم ـ كانوا يمثلون هذا الدور فلم يتخلف أحد منهم عن الإشادة بمآثر قومه، وقد شمل مثل هذا الفخر أغلب الشعر الجاهلي ـ غير أننا نلحظ الإكثار عند الشعراء الأسديين في هذا المضمار.

وقد ذهب الدكتور شوقي ضيف ـ في معرض حديثه عند الجاهليين إلى القول: "ولا نبعد إذا قلنا: إن الحماسة أهم موضوع استنفذ قصائدهم، فقد سعرتهم الحروب، وأمدها شعراؤها بوقوف جزل من التغني ببطولاتهم، وأنهم لا يرهبون الموت فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم، وحماها ويرتفع هذا الغناء بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن صوت سواه[1].

ويبدو أن شعراء بني أسد قد عزفوا على هذه النغمة أكثر من غيرهم، حتى ليخيل إلينا أنهم بذلك شكلوا تياراً جارفاً من الفخر المجلجل، والتغني بانتصارات قبائلهم على الأعداء، ولعل لكثرة

---

١ـ انظر في العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ٢٠٢ الطبعة الثامنة وقد أشار إلى ذلك معظم الباحثين الذين تناولوا الشعر الجاهلي بالدراسة والتحليل.

حروب هذه القبيلة واهتمامها بهذا الجانب علاقة بذلك، ولذا رأيناهم يذكرون مشاهير رجالهم الذين أبلوا في تلك المعارك وقتلوا السادة من فرسان أعدائهم.

وطبيعي أن تفرز الحروب مثل هؤلاء الرجال الذين يذودون عن القبيلة، ويوجهون سياسة القبيلة في مثل تلك الظروف الدقيقة في حياة القبيلة[1]. كما أننا نلحظ سمة أخرى في هذا الكم الضخم من الشعر القبلي عندهم، وهي وقوفهم موقف المتهدد المتوعد اليقظ دائماً.

ويمكننا أن نطلق على هذه السمة ما يمكن أن نسميه بروح "التهديد والوعيد للأعداء" وعلى الباحث أن يفطن ـ وهو يدرس شعر هذه القبيلة ـ إلى أن أغلب شعرائها كانوا ـ بالإضافة إلى أنهم شعراء ـ فرساناً معدودين في قبائلهم، وهذا ما تدل عليه أشعارهم.

وغالباً ما كانوا منحدرين من سراة القوم وسادتهم، ومن أهل العتب فيهم، وإذن فقد اجتمعت لهم عدة أسباب تدعوهم إلى اتخاذ مواقف معينة في مخاطبة عدوهم، ويصورون عن أشعار لها خصائص الدالة على تلك الصفات التي تفصح عن جانب من نفسيات هؤلاء الشعراء.

ولعل الشعور بالتباهي، والمبالغة في ذكر قوة القبيلة وشدة بأسها في المعارك، وتصوير استعدادها الدائم للقتال، والإحساس بالتفوق على الخصوم كل ذلك قد كان نتيجة لما قدمناه وربما قد أسهم في إذكاء روح الوعيد والتهديد لدى الشعراء الأسديين.

وطبيعي أن يأتي فخرهم وتباهيهم ـ على اختلاف قائليه من الشعراء الأسديين ـ صادراً عن منبع واحد، ويكاد يصب في مجرى واحد هو "القبيلة" وكأن قائل هذا الفخر كله شاعر واحد لا عدة شعراء.

ويمكن القول بأن خضوع هؤلاء الشعراء لظروف معيشية وبيئية واحدة وكذلك الأحداث التي يواجهونها، ويأتون على ذكرها قد أسهمت ـ إلى حد ـ في اقتراب مشارب هؤلاء الشعراء إلى حد كبير وإذا تأملنا شعر الحماسة ـ هذا ـ عندهم وجدنا فيه تصوير للحقائق يصور مباشرة، يختفي منها ظل الفرد حتى تلاشى في بعض الأحيان ـ ويتوارى عن الأنظار، وتذوي "الأنا" ويحل محلها ضمير المتكلمين "نحن" وبخاصة عند الشعراء الأقدمين من هذه القبيلة، كعبيد الذي يشير إلى يوم النسار الذي كان لأسد على بني عامر بن صعصعة ومن معهم، وكذلك يوم الجفار الذي كان لأسد على بني تميم، وكذلك يوم حجر الذي كان لأسد على كندة حيث يقول:

وَنَحْنُ صَبَحْنَا عامِراً يَوْمَ أَقْبَلُوا ... سُيُوفاً عَلَيْهِنَّ النِّجَارُ بَوَاتِكا

عَطَفْنَا لَهُمْ عَطْفَ الضَّرُوسِ فَأَدْبَرُوا ... سِراعاً وَقَدْ بَلَّ النجيعُ السنابكا

ويومَ الربابِ قَدْ قَتَلْنا هُما مَها ... وَحُجْراً قَتَلْنَاهُ وَعَمْراً كذالِكا

ونحن قتلنا جَنْدلاً في جُموعِه ... ونحن قتلنا شيخَهُ قَبْلَ ذالِكا

ونحن قتلنا مُرَّةَ الخَيْرِ مِنْكُمُ ... وَقُرصاً كانَ مِمَّنْ أولئِكا

ونحنُ قَتَلْنا الأجْدَلَيْنِ ومالِكاً ... أعزَّهُما فَقْداً عليكَ وهالِكا[2]

وعلى الرغم من ذلك الزهو وتلك المبالغة في تصوير قوة بني أسد فقد يعترف الشاعر الأسدي

---

١ـ انظر حروب القبيلة وأيامها في الباب الأول

٢ـ انظر ديوان عبيد ص ٩٣ ـ ٩٤ وانظر الصفحات ٩٨، ٩٩، ١١٤، ١١٧ ففيها نماذج أخرى من هذا القبيل.

بقتل قومه وهزيمتهم ـ في بعض الأحيان ـ وهذا نادر عند شعراء بني أسد، إلا أننا نجده عند عبيد بن الأبرص حيث يعترف بقتل ثلاثة من أبناء قبيلته، ولكن الأسديين قد ثأروا لهم بأضعاف مضاعفة من الأعداء وهم هذه المرة بنو جديلة من طيء:

أُنْبِئْتُ أَنَّ بَنِي جُدَيْلَةَ أَوْعَبُوا ... نُفَرَاءَ مِنْ سَلْمَى لَنَا وَتَكَتَّبُوا
إنْ تقتلوا منا ثلاثةَ فتيةٍ ... فَلِمَنْ بساحوقَ الرعيلُ المُطْنِبُ
فَبِحَمْدِ حَيِّهِم وَحَمْدِ قَبِيلِهِمْ ... إذ طالَ يومُهُمُ وعابَ الغُيَّبُ(١)

ولعل نظرة إلى الأبيات لكفيلة بتبيان مدى ما كان عليه شعراء هذه القبيلة من خيلاء وزهو بقوة قبيلتهم، وشدة بأسها على الأعداء، وتمرسها بأفانين القتال. وهم يتوعدون عدوهم بهذه القوة الضاربة بذكر ما كان من أيامهم الماضية، حتى ليخيل إلى القارئ أن يشم رائحة الدماء، وهي تسيل من الرقاب بعد أن لمستها سيوفهم القاطعة ورماحهم المثقفة.

وهذا بشر بن أبي خازم يسخر من وعيد أوس بن حارثة الطائي له، ويذكر بزهو هذه القوة المتعاظمة من بني أسد حيث يقول:

أَتوعِدُني بِقَوْمِكَ ياابنَ سُعْدَى ... وذلكَ مِنْ مُلِمَّاتِ الخُطُوبِ
وَحَوْلِي مِنْ بَنِي أَسَدٍ حُلُولٌ ... مُبِنٌّ بَيْنَ شُبَّانٍ وَشِيبِ
بأيديهِمْ صوارِمُ للتّداني ... وإنْ بَعُدُوا فوافِيَةُ الكُعُوبِ
هُمُ ضَرَبُوا قوانِسَ خَيْلِ حُجْرٍ ... بِجَنْبِ الرَّدْهِ في يومٍ عَصِيبِ
وَهُمْ تركُوا عتيبةَ في مِكَرٍّ ... بطعنةِ لاألفَّ ولا هَيُوبِ
وَهُمْ تركُوا غداةَ بَنِي نُمَيْرٍ ... شُرَيْحاً بَيْنَ ضِبْعانٍ وَذِيبِ(٢)

ولعل الكميت بن معروف الأسدي لا يقل زهواً عن سابقه بهذه القوة، يستعرض أمام الأعداء أيام بني أسد كي يعلموا من يواجهون، يقول الكميت:

نحنُ الذينَ عَلِمْتَ مِنْ أَيامِهِمْ ... وَرَأَيْتَ حِينَ يقالُ أينَ العُنْصُرُ
المُقْدِمُونَ إذا الكتائبُ أحجَمَتْ ... والعاطِفُونَ إذا اسْتَضَافَ المُحْجَرُ
النازِلُونَ بكُلِّ دارِ حَفيظَةٍ ... عَرَضٍ تُراحُ بها العِشارُ وَتُنْحَرُ
والضّارِبُونَ رئيسَ كُلِّ كَتيبَةٍ ... قَوَّادِ مملكةٍ عَلَيْهِ المِغْفَرُ
والطاعِنُونَ زَوَيْرَ كُلِّ كَتيبَةٍ ... حتّى يُضَرِّجَهُ النجيعُ الأحْمَرُ
ماراَمَنا مُتَجَبِّرٌ ذُو ثَوْرَةٍ ... إلاّ سَيُقْتَلُ عَنْوَةً أَوْ يُوسَرُ(٣)

ولعل مفاجأة العدو، والبدء بتوجيه الضربة الأولى لقواته تعد سبباً من أسباب النصر عليه وانتزاع روح المبادرة منه، وشل صفوفه وإرباكها، وإلى مثل هذا يشير الشاعر الأسدي عمرو بن شأس بقوله

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤.
٢ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢١ ٢٢.
٣ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥ "شعر الكميت بن معروف" بقلم حاتم الضامن.

فَلَوْ طُفْتَ بَيْنَ الشَّرْقِ والغَرْبِ لَمْ تَجِدْ لِقَوْمٍ عَلى قَوْمِي وَلَوْ كَرُمُوا فَضْلا
أعزَّ وأمضى في الصَّباحِ فَوارِساً إذا الخَيْلُ جَالَتْ فِي أعِنَّتِها قُبْلا
لنا السُّورَةُ العُليا وأوَّلُ شَدَّةٍ إذا نحنُ لاقَيْنا الفوارِسَ والرَّجْلا(١)

وهذا جرية بن الأشيم يجعل من نفسه فداء لفوارس بني أسد الذين يخوضون غمار المعارك زوداً عن القبيلة، ولا يغيب علينا تصويره الذي لا يخلو من توعد وتهديد لأعداء بني أسد، أو هؤلاء الذين تسول لهم أنفسهم بالاعتداء على حرمات هذه القبيلة يقول جريمة:

فِدىً لِفَوارِسَ المُعْلَمِينَ تَحْتَ العَجاجَةِ خَالي وَعَمْ
هُمُ كشَفُوا عيْبَةَ العائِبينَ مِنَ العَارِ أوجُهُهُمْ كَالحَمَمْ
إذا الخَيْلُ صاحتْ صياحَ النسورِ حَزَزْنا شَراسِيفَها بالجِذَمْ
عَرَضْنا نَزالِ فَلَمْ ينزِلوا وكَانَتْ نَزالِ عليهِمْ أُطُمْ(٢)

وقد يوجه الشاعر الأسدي - من خلال وعيده لأعداء القبيلة - النصح والموعظة لهؤلاء الأعداء، كي لا يقدموا على عمل ربما يندمون عليه مثل ما فعل أعشى بني أسد في قوله:

أبْلِغْ بَنِي الطِّرِمَّاحِ إنْ لاقَيْتَهُمُ كلماتِ موعظةٍ وَهُنَّ قِصارُ
لأعرفَنَّ سيوفَنا ورماحَنا غَدْواً كأنكُمُ لَهُنَّ دُوارُ(٣)

ومعروف أن الافتخار بمظاهر القتل والقوة من صفات الشعراء القبليين في الجاهلية - بوجه عام — ويبدو أنهم كانوا يلجأون إليه لإخافة العدو وإرهابه - في بعض الأحيان - كي لا يقدم على الهجوم، وهم في ذلك قد يبالغون في وصف مظاهر القوة للقبيلة تحقيقاً لهذا الهدف.

بيد أننا نرى أن الوقائع التاريخية تشير إلى أن تصوير شعراء بني أسد لمظاهر القوة، وتباهيهم، ووعيدهم لأعدائهم بالقتل. كان على محمل الجد لا التخويف، وكان ذلك صادرا عن تضميم منهم بتنفيذ ما يتوعدون به، ولعلنا شعرنا بإعجاب عبيد بمثل هذه المناظر - من خلال تكراره - لفعل القتل أربع مرات في بيتين اثنين:

ولعل في شعر عمرو بن شأس الأسدي - وهو أحد فرسان بني أسد في الجاهلية والإسلام - ما يشير إلى مثل هذا الاتجاه، وتلك الروح الحربية حيث نراه يتعرض لثورة أبناء قبيلته على آل حجر بن الحارث وقتل الأخير، ومحاربتهم لبني غسان، وقتلهم عدياً ابن أخت الحارث الغساني فيقول:

بَنِي أَسَدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بلاءَنَا إذا كَانَ يومٌ ذا كواكبَ أشْنَعا
نَذودُ المُلوكَ عنكُمُ وتذودُنا إلى المَوتِ حتّى تَضْبَعُوا ثم نَضْبَعَا
وغسانَّ حتّى أسلمتْ سرواتُنا عَدِيّاً وكانَ الموتُ في حيثُ أوقَعا
وَمِنْ حُجُرٍ قَدْ أمكَنتكُمْ رماحُنا وَقَدْ سارَ حَولاً في مَعَدٍّ وأوضَعا

---

١ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٣٩.
٢ـ انظر الحماسة بشرح المرزوقي الجزء الثاني ص ٧٧٣ - ٧٧٤.
٣ـ انظر المؤتلف والمختلف ص ١٧ ١٨.

وكـائن رددنـا عنكـم مـن متـوج يجـيء أمـام الألـف يـردى مقنعـا
ضربْنـا يديـهِ بالسُّـيوفِ ورأسَـهُ غـداةَ الوغـى في النَّقـعِ حتّـى تَكَنَّعَـا (١)

وأول ما نستدل عليه من أبيات عمرو هو كثرة حروب هذه القبيلة، وتشعب منازعاتها مع الغساسنة وغيرهم من القوى في شبه الجزيرة العربية، ومما يلفت النظر في هذا الفخر افتخار الشاعر بالفرع الأدنى بني سعد بن ثعلبة رهط الشاعر دون بقية بني أسد القبيلة الأصل، وهذا نادر الوقوع في الشعر الجاهلي - بعامة - إلا أنه قد يرد - أحياناً - وله أسبابه، ولعل الباحث يستطيع أن يتلمس مثل هذا النوع من الفخر عند شعراء بني سعد بن ثعلبة على وجه الخصوص، وذلك لأسباب سنتحدث عنها، ومما يلفت النظر والانتباه في فخر عمرو بن شأس جنوحه إلى تصوير مقتل العدو والتمثيل به، فهم يضربون يديه أولاً، ثم يشقون رأسه فيلقى مكباً على الأرض مضرجاً بدمائه ولعله منظر فظيع لمن يتخيله.

ويبدو أن الشاعر قد رمى - من خلال هذا التصوير - إلى الإفصاح عن شدة بطش الأسديين من رهطه بني سعد بن ثعلبة ليلقي الرعب في نفوس أعدائهم، ولعله يريد أن يفهم باقي فروع بني أسد بن خزيمة من يكون بنو سعد بن ثعلبة؟.

والواقع: أن شعراء هذا البطن كانوا ينزعون في فخرهم - أحياناً - إلى التخصيص لا التعميم الذي يشمل القبيلة فهم قد خصوا - أكثر من مرة - فرعهم من بني سعد بن ثعلبة دون سواه من بطون بني أسد، وكانوا يصفون هذا الفرع على أنه ذؤابة القبيلة ورأسها، ومنبع كل بطولة فيها ومن هؤلاء الشعراء عبيد بن الأبرص حيث يفضل بني سعداً على بني خزيمة أجمعين، فيقول:

وبنـو خُزَيْمَـةَ يعلمـونَ بأنَّنـا مِـنْ خَـيْرِهِمْ في غِبْطَـةٍ وبئيـسِ
نُنْكِـي عَدُوَّهُـمْ وينصَـحُ حبيبُنـا لَهُـمُ وليـسَ النُّصْـحُ بـالمَدْمُوسِ (٢)

والواقع الذي تشير الأحداث إليه أن بني سعد بن ثعلبة قد تحملوا على ما يبدو الوزر الأكبر - دون سائر بطون بني أسد - في حروب بني أسد ضد الغساسنة ولعل منازلهم في أقصى الشمال الشرقي من نجد، ومجاورتهم لبني غسان قد فرضت عليهم أعباء مدافعة الغساسنة ومقاتلتهم. ويظهر لنا من خلال شعر شعراء هذا البطن من أسد أنه كان ذا بأس وقوة شكيمة وشدة في الحرب، مما دعا الغساسنة إلى حربهم وتوجيه الحملات إليهم وإعمال السيف في رقابهم حتى كادوا أن يستأصلوا شأفتهم.

كما يبدو لنا أن بقية بطون بني أسد قد تلكأت في نصرة بني سعد على الغساسنة في تلك المعارك، مما دعا شعراء هذا البطن للفخر به وإبراز مناقبه وبطولاته، ولعلهم بذلك كانوا يدلون على سائر بني أسد بالذود عن حياضهم، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قول عبيد بن الأبرص متحسراً على ما أصاب قومه ورهطه من كوارث في تلك الحروب حيث يقول:

لِمَـنْ طلـلٌ لَـمْ تَعْـفُ مِنْـهُ المذانِـبُ فجنبـا حِـبِرٍّ قَـدْ تَعَفَّـى فواهِـبُ

---

١- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٣١ - ٣٣.
٢- انظر ديوان عبيد ص ٧١.

دِيـارُ بَـنِي سَـعدِ بْـنِ ثَعْلَبَـةَ الأُلَـى ... أذاعَ بِهِـمْ دَهْـرٌ عَلَـى النـاسِ رائِـبُ
فَـأَذْهَبَهُمْ مـا أذهَـبَ النـاسَ قَبْلَهُـمْ ... ضِـراسُ الحُـروبِ والمنايـا العواقِـبُ(١)

فلا غرو بعد هذا أن يشيد أبناء هذا البطن بمناقبه، ويبرزوا صفاته وبطولاته ويرسم بشر بن أبي خازم صورة مضيئة لبني ثعلبة عازفاً على نفس الأوتار التي عزف عليها عبيد بن الأبرص فهم أسود وغى يجزون الرقاب، وهم أبناء حروب كابراً عن كابر، ويكاد الباحث - وهو إزاء صورة بشر هذه - أن يتخيل صورة بني أسد وكأنهم يقاتلون كل من دب على رمال شبه الجزيرة العربية وأنهم قد تفرغوا لمهمة قراع القبائل فهي شغلهم الشاغل بقول بشر: مشيراً إلى يومي النسار والجفار اللذين كثر ذكرهما على ألسنة شعراء بني أسد:

ومِلْنـا بالجِفـارِ علـى تَمِيـمٍ ... غـداةَ أَتَيْنَهُـمْ رَهْـواً بُكـورا
شَـجرناهُمْ بأرمـاحٍ طِـوالٍ ... مثقفـةٍ بهـا تَفْـري النُحـورا
وَفَيْـنَ غـداةَ زُرْنَ بَنِـي عقيـلٍ ... وَقَـدْ هَدَّمْـنَ أبياتـاً ودوُرا
وسَـعداً قَـدْ ضربْنـا هـامَ سَـعْدٍ ... بأسـيافٍ يُقَصِّمْـنَ الظهـورا
فلَـو عانَيْتَنـا وبنِـي كُـلابٍ ... سَـمِعْتَ لنـا بَعَقْوَتِهِـمْ زَئِـيرا
وَكَـمْ مِـنْ جَمْـعِ قَـومٍ قَـدْ تَرَكْنـا ... ضِبـاعَ الجَـوِّ فِيهِـمْ والنُسـورا(٢)

إن الغارة المبكرة على بني تميم وطعنهم بالصدور وتهديم خيامهم وتخريب بيوتهم وكذلك بنو عامر، وجز هاماتهم بالسيوف القواطع في ساحات الوغى ولعل بني عقيل وبني كلاب لم يكونوا أسعد حظاً من سابقيهم، فقد جعلوا طعاماً للضباع والنسور في أرض المعركة كل ذلك قد جعل القوم في صياح وهلع وفوضى، وليس أدل على ذلك من تركهم الجثث في العراء دون أن يتمكنوا من دفنها. أو ليس كل هذا تأكيداً لهذه الروح الحربية التي شحنت بها نفوس بني أسد؟. أوليس كل هذا الزهو من قبل شعراء بني أسد دليلاً على قوى الأسديين وسطوتهم وكثرة عدد فرسانهم في تلك الفترة صحيح قد يكون الشاعر مبالغاً إلى حد ولكن نصيباً كبيراً من الصحة في قوله، وما أظن العصبية القبلية تتدخل في وصف الشاعر إلى هذا الحد ولو لم تكن هناك أرضية واقعية لهذا الوصف. إن شعراء بني أسد - هنا - أقرب ما يكونون بالمحرضين على الحرب الداعين لها، بل نراهم يهللون لمقدمها لأنهم واثقون من النصر فيها، معتمدين في ذلك على خبرة طويلة وواسعة في هذا الميدان. ويبدو أن قبيلتهم - في هذه الآونة - كانت على كثرة من العدد ويلوح لنا أنهم قد امتلكوا عدة حرب جديثة من سيوف ورماح ودروع وخيول منسومة من جيرانهم المناذرة والغساسنة، وربما كان الحصول على تلك الغدة التي تباهي بذكرها شعراؤهم عن طريقي الشراء و الغنائم من ساحات المعارك. وعلى أية حال فان مسألة الحصول على ذلك العتاد ما هو بالأمر الصعب الذي يعجز، لاسيما أنه كانت متوفرة بكثرة لدى كل منهم جيرانهم الحيريين في الشرق، والشماليين الغربيين وهم الغساسنة.

---

١- انظر المصدر السابق ص ٨.
٢- انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ٩٢ - ٩٣.

ولبشر بن أبي حازم وقفات كثيرة حول هذه المعاني، ولعلنا نسهب إسهاباً لا طائل منه إذا نحن أتينا على ذكر كل ما عنده وما عنده كثير في هذا المجال، ونكتفي بما أوردنا له هنا[١] وأما سحيم بني الحسحاس فيبلغ به الأمر مبلغاً بعيداً وقد صور له خياله أن بني أسد نستطيع قهر قبائل معد كلها، وها هو ذا يحض قومه على منازلة سائر قبائل معد إذ يقول:

بَنِي أَسَدٍ سِيرُوا جميعاً فقاتِلُوا ... مَعَدّاً إذا اربَدَّتْ بِشَرٍّ جُلودُها

أرى أَسَداً والحمدُ للهِ أصبحتْ ... على خيرِ حالٍ والإلهُ يزيدُها

ونحن جلبنا الخيلَ مِنْ جانبِ الغَضَى ... إلى أن تلاقتْ بالرِّشاءِ جنودُها

بملومةٍ كالليلِ وَعْناءَ فَخْمَةٍ ... ورقراقةٍ يُعْشِي العُيونَ حَديدُها[٢]

ويشارك عمرو بن شأس شعراء قبيلته بالزهو والخيلاء، وبإذكاء هذه الروح الحربية في نفوس أبناء بني أسد. بيد أننا نلمس في لهجته الجنوح إلى الواقع أكثر، ولعله لا يريد من بني أسد مقاتلة معد كلها ولكنه يستبيح شبه جزيرة العرب كلها، فأي أرض منها أرادتها بنو أسد فلا مانع لهم من ارتيادها، وربما يكون ذلك الارتياد ليس بغرض وفرة الماء والكلأ وإنما لمجرد الرغبة في العدوانية يقول عمرو بن شأس:

وإِنَّا النّازلُونَ بِكُلِّ ثَغْرٍ ... وَلَوْ لَمْ تَلْقَهُ إلا هشيماً

تَرَى فيها الجيادَ مُسَوَّماتٍ ... مَعَ الأبطالِ يَعْلُكْنَ الشَّكيما

وجمعاً مِثْلَ سَلْمى مُكْفَهِراً ... تُشَبِّهُهُمْ إذا اجتمعُوا قُروماً

بِمِثْلِهِمُ تلاقِي يومَ هَيْجَا ... إذا لاقَيْتَ بَأساً أو خُصُوماً

نَفَيْنَا وائِلاً عَمَّا أَرادَتْ ... وكانتْ لا تحاولُ أن تَرِيما[٣]

ويتطرق عبيد بن الأبرص مرة أحرى لهذه الكثرة العددية في قبيلة بني أسد حين يأتي على ذكر يوم النسار وانتصارهم الساحق على بني عامر، فيشير إلى جيش بني أسد الجرار ورايته الخفاقة فيقول:

وَلَقَدْ تَقَادَمَ بالنِّسارِ لِعامِرٍ ... يومٌ تَشيبُ لَهُ الرؤوسُ عَصَبْصَبُ

حتى سَقَيْناهُمْ بكأسٍ مُرَّةٍ ... فيها المُثَمَّلُ ناقِعاً فَلْيَشْرَبُوا

بِمُعَضِّلٍ لَجِبٍ كَأَنَّ عُقابَهُ ... في رأسِ خُرْصٍ طائرٌ يتقلبُ[٤]

ويزهو الجميع ويهدد غطفان لغدرهم بنضلة بن الأشتر ـ بمثل هذا الجيش العرمرم فيقول:

لاتسقِنِي إنْ لَمْ أُزِرْ سَحَراً ... غَطَفانَ موكِبَ جحفلٍ دُهُمِ

لَجِبٍ إذا ابتدُّوا قنابِلَهُ ... كَنَشاصِ يَومِ المِرْزَمِ السُّجُمِ

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ٧ وص ٢١ ففيه أكثر من إشارة للكثرة العددية.

٢ـ انظر ديوان سحيم ص ٤٩ – ٥٠.

٣ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٥٣ ـ ٥٤.

٤ـ انظر ديوان عبيد ص ٦ والمفصل الجيش الكثير العدد الذي تضيق به الأرض ويقال عضلت المرأة إذا تعسرت ولادتها و لم يخرج الجنين من بطنها

فِجَّـبرِ يَغْـصُّ بِـهِ الفضـاءُ لَـهُ    سَـلَفٌ يمـورُ عجاجُـهُ فَخْـم(١)

ولعل الكثرة العددية ـ على أهميتها ـ غير كافية في الحرب-فما نفعها إذا كانت بلا سلاح وعدة؟ وقد أدرك الشاعر الأسدي هذا الأمر، وعرف أن العدة والعتاد هما أساس قوي من أسس الانتصار في الحرب ودعامة من دعائم الغلبة. وربما كانت تتمثل تلك العدة عند الأسديين والجاهليين بعامة في الخيول الكريمة السريعة، والسيوف القاطعة واللامعة، والرماح المثقفة اللدنة والدروع الحديدية السابغة. والذي لا يحتمل الشك هو أن الجاهلي كان يفخر بمثل هذا العتاد إذا هو امتلكه، وهو عنده مثار إشادة، ومدعاة اعتزاز، ولقد كانت كذلك عند شعراء بني أسد في تلك الفترة فقد عدها الشاعر الأسدي مرتكزاً مهما من مرتكزات الدعوة إلى القتال وإذكاء روح الحماسة في النفوس. ولعلها كانت تمثل له نوعاً من الاطمئنان النفسي وهو يواجه العدو بمثل هذه الأسلحة. وقد حظيت الخيل بنصيب وافر من الوصف عند شعراء بني أسد فأكثروا من ذكرها وأفاضوا في صفاتها: فهي أصيلة نجيبة صبورة في القتال، تحفر الأرض بحوافرها وتثير الغبار والعجاج في أرض المعركة، وهي تجري وتجول في ساحات المعارك وكأنها أسراب القطا الظامئة إلى الماء. وهو إذ يختار لها هذا التشبيه بذكاء يريد أن يدلل على سرعتها الفائقة ذلك أن القطا يكون في أسرع حالات طيرانه إذا كان ظامئاً يقول عبيد بن الأبرص:

القـائدُ الخَيْـلَ تُـرْدِي في أعِنَّتِهـا    وِرْدَ القَطَـا هَجَّـرتْ ظِمـاً إلى الثَمَـدِ
مِـنْ كُـلِّ عِجْـلَزةٍ بـاذٍ نَواجِذُهَـا    علـى اللِّجـامِ تُبـارِي الرَّكْـبَ في عَنَـدِ
وكـل أجـرد قـد مـالت رحالتـه    نهـد المراكـل فعـم نـاتئ الكنـد(٢)

تلك صفات خيول بني أسد خيل مدربة كريمة تعارض الركب في مرح وسرور وكأنها تعرف مهمتها وما ينتظرها، وهي نشيطة وسريعة قد مالت سروجها، ولعلها قريبة من شعور فرسانها على ظهورها الممتلئة العالية الحارك. ولعل في ايراد ذلك كله تأكيداً من الشاعر على نجابتها وإظهار مميزاتها، ولعل الشاعر الأسدي وهو يعيش في تلك البيئة التي لا حامي له فيها إلا سيفه وفرسه قد نظر إلى الخيل نظرة أخرى أعمق دلالة على ما تكنه نفسه، فقد غدت الخيل حصوناً منيعة تشعر بالأمان وتجلب الطمأنينة، وهي على هذا خير ما يورثه الأب للابن من مال يقول عبيد بن الأبرص:

ولنـا دارٌ وَرِثْنـا عِزَّهـا الأ    قْـدَمَ القُدْمـوسَ عَـنْ عَـمٍّ وخَـال
مَـنْزِلٌ دَمَّنَـهُ آباؤُنـا الـ    مورثُـونَ المَجْـدَ في أُولَـى الليـالِي
مـا لَنـا فيهـا حُصـونٌ غَـيْرُ مـا الـ    مُقْرَبـاتِ الجُـرْدِ تَـرْدِي بالرِجّـال(٣)

وطبيعي أن تمثل الخيل جانباً هاماً في حياة قبيلة كبني أسد تكاد لا تفارق الحروب حتى تعود إليها من جديد، وطبيعي أيضاً أن يفيضوا في الحديث عنها ويتفرسوا صفاتها ويشيدوا بخصالها

---

١ـ انظر المفضليات ص ٣٦٦.
٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٥٩ ـ ٦٠.
٣ـ انظر ديوان عبيد ص ١١٨ ز:٠ تكرر هذا المعنى لدى عبيد في أكثر من موضع في ديوانه.

ويعتبروها ميراثاً صالحاً، فهي تشكل جزءاً جوهرياً لا يمكن الاستغناء عنه في حياة العربي الجاهلي وبخاصة الفرسان منهم، حتى أن سحيم عبد بني الحسحاس يتخذ منها ملجأ يلوذ به كلما أحس بخطر داهم أو بخطب قادم يقول سحيم:

إذا فَزِعُوا طَارُوا إلى كُلِّ نَهْدَةٍ ... وأَجْرَدَ نَهْدٍ مَا تَجِفُّ لُبُودُهَا(١)

ويقرن عبيد بين الخيل وبين جزء مهم من عتاد الفارس المحارب وهو بهذا إنما يدلل على استكمال عدة الفارس تلك هي الدرع الحديدية التي ينبغي أن، يقتنيها كل فارس أسدي يقول عبيد:

وَهُمْ قَدِ اتَّخَذُوا الحَدِيدَ حَقَائِباً ... وَخِلالَهُمْ أُدْمُ المَرَاكِلِ تُجْنَبُ

مِنْ كُلِّ مَسْنُودِ السَرَاةِ مُقَلَّصٌ ... قَدْ شَفَّهُ طُولُ القِيَادِ وأُلْغِبُوا

وَطِمِرَّةٍ كالسِيْدِ يعلُو فَوْقَهَا ... ضِرْغَامَةٌ عَبْلُ المَنَاكِبِ أَغْلَبُ(٢)

وفي حديث بشر بن أبي خازم عن الرماح اللدنة المرنة اللينة والمثقفة، في الوقت ذاته نرى صورة للرمح المثالي في يد الفارس الأسدي، ولعلهم بمثل هذه الرماح وتلك الخيل ساروا إلى حجر بن الحارث فأردوه قتيلاً حياض المنايا يقول بشر:

أَقْصَدْنَ حُجْراً قَبْلَ ذَلِكَ بالقَنا ... شَرَعٌ إِلَيْهِ وَقَدْ أَكَبَّ عَلَى الغَمِ

يَنْوِي مُحَاوَلَةَ القِيَامِ وَقَدْ مَضَتْ ... فِيهِ مَخَارِصُ كُلِّ لَدْنٍ لَهْذَمِ(٣)

ويواجهنا أعشى بني أسد ـ بجرة بن منقذ بن طريف ـــ أحد شعراء بني أسد الجاهليين بفخره بسيوف ورماح قومه وهو يتوعد بها بني الطرماح حيث يقول:

أَبْلِغْ بَنِي الطِّرْمَاحِ إنْ لاقيتهم ... كلمات موعظة وهن قصار

لا أعْرِفَنَّ سيُوفنا ورماحَنا ... غَدْواً كَأنكُمُ لَهُنَّ دُوارُ(٤)

وإذا كانت كثرة العدد وتوفر السلاح قد توفرا لبني أسد فان الأهم من ذلك كله هو حسن التصرف والتدبير في أثناء الحرب، ولعل هذا الجانب لا يقل عن العاملين السابقين أهمية بل يفوقهما فلا نصر بلا حكمة وتعقل وخبرة، ولقد كان هذا العامل مدعاة فخر وإشادة من قبل شعراء بني أسد الجاهليين بل شعراء القبائل العربية عموماً ـ بيد أننا نجده عند الشعراء الأسديين واضحاً صريحاً، وليس من المستغرب هذا فبنو أسد أبناء حروب، ولهم في هذا المجال خبرة عريضة ومعرفة واسعة بكل أفانين القتال. وربما لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن هذه القبيلة لم تهدأ ـ على مدى أجيال عديدة ـ حروبها وإلى مثل هذا يشير شاعرهم قبيصة بن جابر ويفتخر بقومه الراسخين في علم الحرب كابراً

---

١ـ أنظر ديوان سحيم ص ٥٠ وقوله ما تجف لبودها كناية عن كثرة جريها من معركة إلى أخرى ولعل هذا يشير إلى خبرة الأسديين في القتال وقراع الأعداء.

٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٥.

٣ـ انظر ديوان بشر ص ١٨٣.

٤ـ انظر المختلف والمختلف للآمدي ص ١٧ وما بعدها.

عن كابر يقول قبيصة:

فَلَسْنا مِنْ بني جَدَّاءَ بكْرٍ ... ولكنّا بَنُو جَدٍّ النِّقالِ
تَفَرَّى بَيْضُها عنّا فكُنّا ... بني الأَجْلادِ منْها والرِّمالِ(١)

ولعل من خير ما يمثل هذا الجانب فخر عبيد بحسن تصرف قومه عندما يحزب الأمر، ومعرفتهم بفنون الضراب والطعان يقول عبد بن الأبرص:

قومي بنو دودانَ أَهْلَ الحِجَا ... يوماً إذا أَلْقَحَتِ الحائِلُ
كَمْ فيهمُ مِنْ أَيِّدٍ سَيِّدٍ ... ذي نَفَحاتٍ قائِلٌ فاعِلُ
القائلُ القولَ الذي مِثْلُهُ ... يُمْرِعُ مِنْهُ البَلَدُ الماحِلُ
الطاعِنُ الطعنَةَ يومَ الوَغى ... يَذْهَلُ مِنْها البَطَلُ الباسِلُ(٢)

وكلدة بن مرارة الأسدي يفخر هو الآخر بطعنته الصائبة النافذة حيث أصابت مقتلاً من عدوه يقول كلدة:

طعنةٌ ما طعنَتْ ففي غَبَشِ اللّيـ ... ـلِ هِلالٌ وأَيْنَ مِثْلُ هِلالِ
طعنةُ السائِرِ المُصَمِّمِ حتّى ... خَرَجَ الرُمْحُ بادِياً كالخِلالِ(٣)

ويرد صاحب الحماسة شعراً لأحد بني أسد الفرسان يشيد فيه بحسن استعماله للسيف، وتوخي الدقة في تسديد الضربة إلى هامة الخصم يقول بعثر بن لقيط الأسدي:

أَما حَكِيمٌ فالتَمَسْتُ دِماغَهُ ... وَمَقيلَ هامَتِهِ بحَدِّ المُنْصُلِ
وإذا حَمَلْتُ على العشيرَةِ لَمْ أَقُلْ ... بَعْدَ العزيمةِ لَيْتَني لَمْ أَفْعَلِ(٤)

إن الحزم والعزم مطلوبان في الحرب، ولعلهما يطلبان ـ في كثير من الأحيان ـ في غير زمن الحرب. ولعل هذا يقودنا إلى استنتاج آخر وهو أن بني أسد ـ إلى جانب اعتمادهم على الأسس السالفة الذكر ـ كانوا يضيفون خصالاً أخرى لا تقل أهمية عند الفارس من سابقتها، ونستطيع القول أن هذه الصفات تشكل روافد مهمة لتكوين صورة الفارس الأسدي وربما شدت من أزره

---

١ـ انظر الحماسة بشرح المرزوقي الجزء الثاني ص ٧٠٦ والجداء المقطوعة النهد والنقال تكرار الولادة وهذه كناية عن الحرب القوية وهي الحرب العوان التي قوتل فيها مرة بعد مرة ولقد أراد ببني الأجلاد الصلابة والشدة.

٢ـ انظر ديوان عبيد ص ٩٩ ـ ١٠٠ ولعبيد أيضاً في هذا المجال قوله بديوانه ص ١٣١:

أما إذا كان الطعان فانهم ... قد يخضون عوالي المران
أما إذا كان الضراب فانهم ... أسد لدى أشباطن حواني
أما إذا كان دعيت نزال فانهم ... يحبون للركبات في الأبدان

٣ـ انظر المؤتلف ص ١٧٢.

٤ـ انظر الحماسة بشرح المرزوقي ص ٦٩٤.

ورفعت من معنويته، ومن تلك الروافد الإقدام والنجدة والكرم. ومثل هذه ليست ببعيدة عن فرسان بني أسد بل الفرسان من شتى القبائل العربية. ولقد نوه أكثر دارسي الشعر الجاهلي بصفات الفروسية وأخلاق الفارس، ولا نرى فائدة في ترديد ما قالوه في هذا البحث. وكانت أخلاق الفروسية مدعاة فخر وإشادة من جانب الشعراء الأسديين ولعل الشجاعة كانت في مقدمة تلك الخصال التي أشاد بها شعراء بني أسد. يقول عمرو بن شأس الأسدي مفتخراً بحب الموت والإقدام عليه:

لَسْنَا نَمُوتُ عَلَى مَضاجِعِنَا ... يالَيلَ بَلْ أَدْوَاؤُنَا القَتْلُ[1]

فَدَعُ الدنيّةَ أَنْ تَحُلَّ بنا ... وَنَشُدُّ حِينَ تعَاوَرَ النَّبْلُ

ولم تكن النجدة بأقل إشادة من الشجاعة عند الأسديين. فهذا شاعر أسدي يفخر بتلبية بني سعد وبني قيس لندائه فيقول:

دَعَوْتُ بني قَيْسٍ إليَّ فَشَمَّرَتْ ... خَناذيذُ مِنْ سَعْدٍ طِوالِ السَّاعِدِ

إذا ما قُلوبُ القومِ طَارَتْ مَخافَةً ... مِنَ المَوْتِ أَرْسَوْا بالنُّفوسِ المَوَاجِدِ[2]

والواقع أن الأمثلة على هذا كثيرة يضيق بها البحث فما من شاعر أسدي إلا وله عشرات الأبيات التي يفخر ويشيد فيها بمثل هذه الصفات والأخلاق.

ويتضح لنا مما سبق ذكره في هذا الجانب أن شعر الحماسة لدى شعراء بني أسد جاء تصويراً لجوانب عديدة من حياة هذه القبيلة في الحرب والسلم، وقد رسم لنا هؤلاء الشعراء صورة الفارس العربي بعامة في تلك الفترة المتقدمة وكان في مجمله دعوة إلى الحرب وسفك الدماء، فقد خلا من أي إشارة إلى السلم أو جنوح إلى التفاهم كما رأينا ذلك عند زهير بن أبي سلمى - مثلاً - وإذا كان بعض شعراء العصر الجاهلي قد صوروا الحرب بصور كريهة، فإننا نجد شعراء هذه القبيلة مقبلين عليها بل محرضين وداعين لها[3] وقد افتخروا بخوضهم المعارك الطاحنة وقتلهم الأعداء وتشريدهم النساء والأطفال. كما جاء شعر الأسديين في هذا المجال مصوراً كثيراً من ضروب حياتهم التي عاشوها، وهي على كل حال حياة بحدث فيها القوة إلى حد بعيد.

---

١- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٣٦.

٢- انظر الحماسة الجزء الثاني ص ٤٩٨ وقد أورده صاحب الحماسة بلا ترجمة إلا أنه قال هو من فقعس ولم أقع له على ترجمة.

٣- ولعل الإشارة الوحيدة إلى السلم نجدها عند عبيد بن الأبرص على غير العادة في قوله:

وإني لأطفئ الحرب بعد شبوبها ... وقد أوقدت للغي في كل موقد

ونعجب أن يدرك عبيد هذا الأمر ثم يدعو إليه في كل صفحة من صفحات ديوانه حتى أننا لنظن أن حياة بني أسد تكمن تحت ظلال السيوف واشتجار الرماح.

## الهجاء في شعر بني أسد وأهم مميزاته:

ولعل الهجاء يشكل هو الآخر جزءاً مهماً من أشعار الأسديين في الجاهلية، وهو بصورة عامة وموجزة نقيض المدح، وربما لا يحتاج منا هذا إلى توضيح.

غير أننا لا ندري على وجه الدقة والتحديد معنى هذه الكلمة، وإلى مثل هذا التساؤل يشير الدكتور محمد محمد حسين بقوله: "والواقع أن في المادة معاني أخرى هي أقرب لأن تكون أصلا للمعنى الأدبي، فالهجاة والهاجة الضفدع. وهجو يومنا: اشتد حره، وفي اليائي من المادة هجي البيت هجياً انكشف، وهجيت عين البعير. غارت. ومما هو قريب من المادة الهياج بمعنى الغضب والقتال والحرب، والهوج بمعنى الحمق والطيش والتسرع، والهوجاء الريح التي تقتلع البيوت، ونحن لا نستطيع أن نرجع معنى من هذه المعاني على أنه أصل للمادة"(١).

ويرد الهجاء إلى اللعنات الدينية الأولى الدكتور شوقي ضيف ويقرنه بالتطير والتشاؤم، وأن الجاهليين كانوا يصبون أهاجيهم ولعناتهم على خصومهم، وأن ذلك الهجاء دار حول كل ما يناقض المثل العليا التي صوروها. من شجاعة وكرم، وحماية جار، ووفاء بعهد، وطلب لثأر(٢).

والذي بين أيدينا من هجاء الشعراء الأسديين يشير إلى اتصال هذا الغرض - إلى حد بعيد - بتلك الروح الحماسية الحربية التي تحدثنا عنها سواء أكان هجاء فردياً أو هجاء جماعياً، وهو في غالبيته هجاء ضد الخصوم من القبائل الأخرى، وشعراء بني أسد - كما رأينا - أبواق حرب، ودعاة قتال بالدرجة الأولى، ولعلهم لا يدخرون جهداً فنياً، أو مادياً في سبيل نصرة القبيلة، وقد سبق أن وقفنا على مكان الشاعر الأسدي من قبيلته، ومدى ارتباطه وولائه لها، وضربنا مثالاً من أقدم الشعر الذي وصل إلينا عن هذه القبيلة، وهو للشاعر عبيد بن الأبرص الذي قال:

إذا كُنْتَ لَمْ تَعْبأْ بِرأيٍ ولم تُطِعْ ... لِذي اللُّبِّ أوْ ترعَى إلى قَوْلِ مُرشِدِ
ولا تتقي ذمَّ العشيرةِ كُلِّها ... وتدفعُ عنها باللِّسانِ وباليدِ
وتَصْفَحَ عَنْ ذي جَهْلِها وتَحُوطُها ... وتقمعُ عنها نَخْوَةَ المُتَهَدِّدِ
وتنزلُ مِنْها بالمكانِ الذي بهِ ... يُرى الفَضْلُ في الدُّنيا عَلى المُتَحَمِّدِ
فَلَسْتَ وإنْ عللتَ نفسَكَ بالمُنى ... بذي سُؤْدَدٍ بادٍ ولا كَرْبِ سَيِّدِ(٣)

ولقد كانت القبائل بعامة تعتمد على شعرائها وبخاصة في المعارك كما تعتمد على السلاح والعتاد، ففعل اللسان كفعل السيف بل ربما كان أشد وقعاً في النفوس أحياناً. ولم تخرج قبيلة بني أسد عن السنة والمألوف في هذا المضمار، فقد طلع علينا شعراؤها بفن هجائي يدور في معظمه حول

---

١ـ انظر الهجاء والهجاؤون للدكتور محمد محمد حسين ص ١٨.
٢ـ انظر كتاب العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ١٩٨ - ٢٠٠.
٣ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٥٤ - ٥٥.

القيم العليا والمثل والصفات الحميدة التي كانت سائدة كالنجدة، والكرم، والشجاعة، وحماية الجار، والحليف، وطلب الثأر. ولذا رأيناهم يرمون أعداءهم بالجبن والخسة والشح وعدم حماية الجيران والعجز عن إدراك الثأر، وربما رموا أعداءهم باللؤم، وقد يصل بهم الأمر إلى الطعن بالأنساب والأعراض. وعلى أية حال فان هذه المعاني السالفة الذكر ليست مقصورة على شعراء بني أسد، بل نجدها تدور على ألسنة معظم الشعراء الجاهليين. بيد أن شعراء بني أسد يتفاوتون في تناول هذه المعاني، فنحن لا نجد نذاءة في القول أو فحشاً في التعبير عند الشاعر عبيد بن الأبرص حين هجا قبيلة من بني جديلة بقوله:

أُنْبِئْتُ أَنَّ بَنِي جُدَيْلَةَ أَوْعَبُوا ... نُفَرَاءَ مِنْ سَلْمَى لَنَا وَتَكَتَّبُوا
وَلَقَدْ جَرَى لَهُمُ فَلَمْ يتعيَّفُوا ... تَيْسٌ قَعِيدٌ كالوَلِيَّةِ أَعْضَبُ
وَتَبَدَّلُوا اليُعْبُوبَ بَعْدَ إِلَهِهِمْ ... صَنَماً فَقَرُّوا يا جُدَيْلَ وأَعْذِبُوا[1]

إننا نجد في هذا الهجاء رفيع المستوى فهو يرميهم بعبادة زائفة وهو بهذا يهجوهم بعقائدهم وكأنه يدعوهم إلى السمو والرفعة في هذا المجال والإقلاع عن مثل هذا الأمر.

وهو في هجائه للشاعر المعروف امرئ القيس بن حجر يعيره بعدم الرجولة والانصراف إلى اللهو والعبث، وبمعاقرته للخمر وأنه بذلك قد ضل سبل الرشاد و لم يدرك ثأر أبيه، وكذلك يعيره بالجبن ويصمه بالخوف يقول عبيد:

وَأَنْتَ امْرُؤٌ أَلْهَاكَ زِقٌّ وَقَيْنَةٌ ... فَتُصْبِحُ مخموراً وَتُمْسِي مُتارِكَا
عَنِ الوِتْرِ حتّى أَحْرَزَ الوِتْرَ أَهْلُهُ ... فَأَنتَ تُبَكِّي إِثْرَهُ مُتهالِكَا
فلا أنتَ بالأوتارِ أدركتَ أهْلَها ... ولا كُنْتَ إِذْ لَمْ تَنْتَصِرْ مُتماسِكَا
ظَلِلْتَ تُغَنِّيَ إذ أَخِذْتَ ذَلِيْلَةً ... كَأَنَّ مَعَدّاً أصبحتْ في حِبالِكَا
وَرَكْضُكَ لولاهُ لَقِيْتَ الذي لَقُوا ... فَذاكَ الذي نَجَّاكَ مِمّا هُنالِكَا[2]

وعندما زعم امرؤ القيس أنه قد قتل سراة بني أسد وأشرافهم وذلك بثأر أبيه حجر خرج عبيد علينا مفنداً ذلك الزعم بقوله:

يا ذا المخوفنا بقتـ ... ـل أبيه اذلالا وحينا
أَزَعَمْتَ أَنَّكَ قَدْ قَتَلْـ ... ـتَ سَراتَنا كَذِباً وَمَيْنا
لو ما على حُجْرِ بْنِ أُمِّ ... قَطامِ تَبْكِي لا عَلَيْنا[3]

وقد يطعن بنسبه وفي هذا هجاء مر وبطلبه النجدة من قيصر الروم لإدراك ثأر إظهاراً لعجزه عن هذا الأمر يقول عبيد:

لَمّا رَأَيْتَ جُمُوعَ كِنْدَةَ أَحْجَمْتَ ... عَنّا وَكِنْدَةُ غَيْرُ جُدٍّ كِرَامِ

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ٢ وبنو جديلة فخذ من قبيلة طيء القحطانية النسب.
٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٩٤.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ١٣٦.

أَزَعَمْتَ أَنَّكَ سوفَ تأتِي قَيْصَرا فَلَتَهْلِكَنَّ إذنْ وأنتَ شآمِي[1]

فالهلاك في غير موطن الرجل مثلبة عند عبيد جديرة بالذكر. وهو في هجائه يكرر الفعل زعم أكثر من مرة للتدليل على هوان شأن عدوه والتقليل من قيمة ما يقوله في نظر الآخرين.

وهذا عمرو بن شأس الأسدي يسمو في هجائه لكندة ويعرض بها بلطف دون إسفاف، ملمحاً إلى ضعفهم وعجزهم عن إدراك ثأرهم، ومظهراً ذلك الخور في العزيمة على صورة أحلام بل هي أوهام تعشعش في رأس امرئ القيس يقول عمرو:

وَحُجْراً قَتَلْنا عُنْوَةً فكأَنَّما هَوَى مِنْ حَفافَيْ صَعْبَةِ المُتَنزِّلِ
فما أَفْلَحَتْ في الغَزْوِ كِنْدَةُ بَعْدَها ولا أدركُوا مِثْقالَ حَبَّةِ خَرْدَلِ
سِوى كلماتٍ مِنْ أَغانِي شاعِرٍ وَقَتْلَى تَمَنَّى قَتْلَها لَمْ تُقَتَّلِ[2]

أما بشر بن خازم فالواقع أنه أجرأ من عبيد وعمرو على الفحش في الهجاء وبخاصة في هجائه لأوس بن حارثة بن لأم الطائي وذلك من مثل قوله:

فَقُولُوا لِلّذي آلَى يَمِيناً أَفِيَّ نَذَرْتَ يا أَوْسُ النُّذُورا؟
فَباسْتِكَ حارَ نَذْرُكَ يا ابْنَ سُعْدَى وحُقَّ لِنَذْرِ مِثْلِكَ أَنْ يَحُورا[3]

والواقع أن جملة المعاني التي دار حولها هجاء بشر إنما كانت تدور حول الصفات والخصال التي تناقض صفات القيم العليا التي أشرنا إليها سابقاً، فهو يصف أوساً هذا ورهطه من قبيلة طيء بالضعف وخور العزيمة، وعدم القدرة على حماية الجار، وعدم الصمود والثبات في المعارك، وبأنهم ليسوا من أهل الصدارة بين القبائل،، كما أنه يصمهم بالغدر وعدم الوفاء، والبخل وعدم مد يد العون إلى المعوزين، وقد يصل به الأمر إلى وصفهم باللؤم والخسة والنتانة حتى في مملتهم، ويقول بشر في هذه المعاني:

أَلا بَلَحَتْ حفَارَةُ آلِ لأْمٍ فلا شاةً تَرُدُّ ولا بَعِيرَاً
لِئامُ النّاسِ ما عاشُوا حياةٍ وَأَنْتَنُهُمْ إذا دفنوا قبورا
وَأَنكاسٌ غَداةَ الرَّوْعِ كُشْفٌ إذا ما البِيضُ خَلَّيْنَ الخُدُورا
ذُنابَي لا يَفُونَ بعَهْدِ جارٍ وَلَيْسوا يَنْعَشُونَ لَهُمْ فَقِيراً
إذا ما جِئْتَهُمْ تَبْغِي قِراهُمْ وَجَدْتَ الخَيْرَ عِنْدَهُمْ عَسِيرا[4]

ويسوق الجاحظ في "البيان والتبيين" هجاء لأحد شعراء بني أسد، وهو حوط ابن رئاب بن الأشتر الفقعسي يهجو بني تميم هجاء مراً، ويبدو أنه كان مقذعاً في الهجاء حيث يقول مخاطباً تميماً

---

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٤.
٢ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٤٧.
٣ـ انظر ديوان بشر ص ٩١.
٤ـ انظر ديوان بشر ص ٩٠.

كلها:

قَـدْ كُنْـتُ أَحْسَـبُكُمْ أُسُـودَ خَفِيَّـةٍ ... فَـإِذا لَصَـاقِ تَبِيْـضُ فيـهِ الحُمَّـرُ
وإذا تَسُـرُّكَ مِـنْ تَميـمٍ خِصْلَـةٌ ... فَلَمـا يَسُـوؤُكَ مِـنْ تَميـمٍ أَكْـثَرُ(١)

وانتشر هذا الهجاء وتناقله الناس حتى زمن بني أمية، ويذكر بعض الرواة أن الفرزدق لقي مضرس بن ربعي الفقعسي وهو ينشد بالمربد قصيدته ـ التي أشرنا إليها سابقاً في مصادر شعر بني أسد ـ التي مطلعها "تحمل من وادي عريره حاضره" فحسده الفرزدق عليها وقال له: يا أخا فقعس، كيف تركت القنان؟ فأجاب مضرس: "تبيض فيه الحمر" أراد الفرزدق أن يذكره بهجاء نهشل بن حرى لهم، وكان قد قال:

ضَمِـنَ القِنَـانُ لِفَقْعَـسٍ مَسْـؤاتِها ... إنَّ القِنَـانَ بفقعـسٍ لَمُعَمَّـرُ

وأراد مضرس أن يرجعه إلى قول حوط بن رئاب بن الأشتر الفقعسي فيهم "وكان يكنى بأبي المهوش" وفي بعض المصادر "بأبي المهوس"(٢).

ولا ندري كيف استمرت نار هذا الهجاء بين حوط بن رئاب الأشتر الفقعسي وبين نهشل بن حرى بن مرة التميمي؟. ومن كان البادئ فيه ويخيل إلينا أن الحلف الذي عقدته تميم مع بني عامر بن صعصعة ضد بني أسد، وما استتبع ذلك من أيام بينهم أذكت نار هذه الخصومة وزادت في اشتعال جذوتها بين شعراء القبيلتين.

أما الجميح "منقذ بن الطماح" فالحقيقة أنه أقدع هجاء من سابقيه فقد هجا بني عامر بن صعصعة وذلك بعد لقائهم في يوم "ذي علق" وكان لأسد على بني عامر فقد هزموا شر هزيمة، فلاحقهم خالد بن نصلة الأسدي والحارث بن خالد بن المضلل، فخرج إليهم نفر من بني عامر وعلى رأسهم ملاعب الأسنة "عامر بن مالك" فتهادنوا ثم غدر بنو عامر بخالد فقتلوه فهجاهم الجميح ووصمهم بالعار والغدر يقول الجميح:

سـائِلْ مَعَـدّاً: مَـنِ الفَـوارِسُ لا ... أَوْفَـوا بجـيرانِهِمْ وَ لا غَنِمُـوا
لَـوْ خـافَكُمْ خـالِدُ بْـنُ نَضْلَـةَ نَـ ... جَّتْـهُ سَـبُوحٌ عِنانُهـا خَـذِمُ
والحـارِثُ المُسْـمِعُ الدُّعـاءَ وَفِـي ... أَصحابِـهِ مَلْجَـأٌ وَمُعْتَصَـمُ
فِـدىً لِسَـلْمى ثَوْبـايَ إذْ دَنِـسَ الـ ... قَـوْمُ وإذْ يَدْسُـمُونَ مادَسَـمُوا
أَنْتُـمْ بنـو المَـرْأَةِ الّتـي زَعَـمَ الـ ... نّـاسُ فِـي الغَـيِّ مـازَعَمُوا(٣)

---

١ـ انظر ديوان البيان والتبيين الجزء الأول ص ١١٨ وانظر الوحشيات ص ٢١٨ وله في هجاء بني تميم قوله:

إذا مـا مـات ميـت مـن تميـم ... فسـرك أن تعيـش فجـئ بـزاد
بخـبز أو بتمـر أو بسـمن ... أو الشـيء الملفـف في البجـاد
تـراي يطـوف الآفـاق حرصـا ... ليـأكل رأس لقمـان بـن عـاد

أنظر الأبيات في سمط اللآلي الجزء الثاني ص ٨٦٣.

٢ـ انظر الأمالي للقالي الجزء الثاني ص ٢٣٦ وأما بيت نهشل فقد ورد في الوحشيات ص ٢١٨.

٣ـ انظر المفضليات ص ٤١ ويستكمل الجميح القصيدة في أبيات غاية في الاقذاع والفحش.

وقد تعرض الجميح في قصيدته تلك لأوصاف أمهم التي لا يليق بنا إيرادها في هذا المجال، ومادامت الخصومة قائمة بين الأطراف فلا غرابة أن يبالغ الجميح في هذا الهجاء ويشتط فيه، على حين لا نرى هذه الصورة في هجائه لبني عبس إذ نلمس الفرق واضحاً بين كلا الموقفين.

فعلى الرغم من وحدة الدافع للهجاء عند الشاعر إلا أننا نلاحظ الفرق البين بين صورتي الهجاء. فقد قتلت بنو عبس نضلة بن الأشتر الفقعسي غدراً كما قتلت بنو عامر خالد بن نضلة غدراً وتكاد الملابسات في الحالتين تكون واحدة فقد كان نضلة بن الأشتر في جوار بني عبس فغدروا به لثارات لهم مع بني أسد، واتفقوا على أن يجتمع من كل بطن منهم رجل فيأخذوا قناة واحدة يقتلونه بها فيضيع دمه بين سائر تلك البطون العبسية، وفعلاً نفذوا ما اتفقوا عليه وبلغ الخبر بني أسد فغضب الجميح لغدرهم فهجاهم، وعاب عليهم تلك الفعلة ونراه يخص بني رواحة من عبس بالقسط الأكبر من حنقه وغضبه إلا أنه في هذا كله لم يبلغ ما بلغه مع بني عامر، يقول الجميح:

يا جارَ نَضْلَةَ قَدْ أَنى لَكَ أَنْ ... تَسْعَى بجارِكَ في بَنِي هِدْمِ
مُتَنَظِّمِينَ جِوارَ نَضْلَةَ يا ... شاهُ الوُجُوهِ لذلِكَ النَظْمِ
وَبَنُوا رَواحَةَ يَنْظُرُونَ إذا ... نَظَرَ النَّدِيَّ بِآنُفٍ خُشْمِ(١)

فهجاء الشاعر هنا ليس بمفحش كذاك الذي رأيناه في هجاء بني عامر فهو لا يتعدى ما أوردناه. أما بقية القصيدة فهي وعيد وتهديد لعبس وغطفان كلها بيوم الثأر لنضلة منهم، ونراه يختم القصيدة بتعداد مآثر القتيل وخصاله الحميدة التي تميز بها في حياته. ولعلنا نلحظ بعض صفات الهجاء عند الأسديين بخاصة فهو مقترن بالوعيد والتهديد للخصم والتباهي بذكر القوة العددية والحربية عند بني أسد وهذا قد يستدعي ذكر بعض الوقائع والأيام التي انتصرت فيها القبيلة على خصومها وأعدائها، ولعل هذا مما يلقي الذعر والخوف في قلوب الخصوم ومما يحفز في الوقت نفسه النفوس على عدم التواني عن الأخذ بالثأر وإدراكه بسرعة من العدو، ويمكننا القول انطلاقاً من هذا أن الهجاء قد استنبط بالحماسة والفخر القبلي عندهم، وذلك أن هجاءهم كان بعيداً عن الفردية وإنما كانوا يأتون به في ثنايا القصيدة ومن خلال الزهو بما حققوه من انتصارات وظفر على القبائل الأخرى، فالجميح لم يفرد قصيدة للهجاء وحده، لكنه قرن الهجاء بالوعيد حيث يكمل قصيدته في هجاء بني عبس قائلاً:

لا تَسْقِنِي إنْ لَمْ أُزِرْ سَحَراً ... غَطَفانَ موكِبَ جَحْفَلٍ دُهْمِ
لَجِبٍ إذا ابتَدَّوا قنابِلَهُ ... كَنَشاصِ يَوْمِ المِرْزَمِ السُّجْمِ
بَحْرٍ يَغُصُّ بِهِ الفَضاءُ لَهُ ... سَلَفٌ يَمُورُ عجاجُهُ فَخْمِ
يَنْعَوْنَ نَضْلَةَ بالرِّماحِ عَلى ... جُرْدٍ تَكَدَّسُ مِشْيَةَ العُصْمِ
مِنْ كُلِّ مُشْتَرِفٍ وَمُدْمَجَةٍ ... كالكرِّ مِنْ كُمْتٍ وَمِنْ دُهْمِ
حتى أُجازِيَ بالذي اجترَمَتْ ... عَبْسٌ بأَسْوَأ ذلكَ الجُرمِ(٢)

---

١ـ انظر المفضليات ص ٣٦٦.
٢ـ انظر المفضليات ص ٣٦٦.

فالناظر في هذه الأبيات يرى دعوة صريحة للحرب ويلحظ تباهياً وزهواً بتلك الكثرة العددية لبني أسد، ونستطيع أن نستشف إعجاب الشاعر بالعتاد الحربي الضخم لقبيلته وبالتالي فهو يريد أن يؤكد النصر الذي سيتحقق وهو يبعد كل شك في عدم الانتصار، وبمعنى آخر فان الجميع ـ كما يتراءى لنا هنا ـ داعية للحرب وموجه للأخذ بالثأر. وقد استطاع فعلاً أن يمزج هذه القضية الهجائية بالفخر والحماسة القبلية. وإذا نظرنا إلى بقية شعراء بني أسد من خلال هذا المضمار وجدناهم لا يبعدون كثيراً عن الجميح فهم يوظفون هجاءهم في كل موقف في سبيل القبيلة والمضي على إعلاء قيمها ومثلها وأعرافها، وهم دائماً يشحذون الهمم ويستنهضون ويثيرون النفوس، ويذكون غضبها على الأعداء تماماً مثلما يفعلون في حماستهم وفخرهم وكما رأينا الجميح يتوعد بني عبس ويتهددهم بصراحة وجرأة فإننا نرى شاعر بني أسد الأكبر عبيد بن الأبرص يلجأ إلى مثل هذه الإثارة ويدعو إلى الحرب، وتأتي دعوة عبيد من خلال الإشادة بصفات بني أسد في الحروب ويمدح انتصاراتها على الخصوم، فهو حين يفرغ من هجاء بني جديلة الذي أشرنا إليه يعود إلى مدح قومه مشيداً بخصالهم من مثل سرعة استجابتهم للنداء، وبشموخ فوارسهم، وعزة أنفسهم حين يدعون للحرب ويلبسون قوانسهم المتلامعة استعداداً للقاء يقول عبيد:

بَـلْ لامَخالَـةَ مِـنْ لِقَـاءِ فَـوارِسٍ ... كُـرُمٍ مَتـى يُدْعَـوْا لِحَـرْبٍ يَرْكَبُـوا
شُـمٌّ كـأَنَّ سَـنا القوانِـسِ فوقَهُـمْ ... نـارٌ عَلَـى شَـرَفِ اليَفـاعِ تَلَهَّـبُ

ثم يشرع في ذكر بعض انتصارات القبيلة في الماضي إمعاناً في إثارة مواجد النفوس وبث روح الحماسة فيها فيقول:

وَلَقَـدْ شَـبَبْنا بالجفـارِ لِـدارِمٍ ... نـاراً بهَـا طَـيْرُ الأَشـائِمِ تَنْعَـبُ
وَلَقَـدْ تَطـاوَلَ بالنِّسـارِ لعـامِرٍ ... يـومٌ تَشِـيْبُ لَـهُ الـرؤوسُ عَصَبْصَـبُ
حتّـى سَـقَيْناهُمْ بِكَـأْسٍ مُـرَّةٍ ... فيهـا المُثَمَّـلُ ناقِعـاً فَلْيَشْـرَبُوا

ثم يشير إلى الكثرة العددية لبني أسد بزهو وثقة فيقول:

بِمُعَضِّـلٍ لَجِـبٍ كَـأَنَّ عُقَابَـهُ ... فِـي رأسِ خُـوْصٍ طـائِرٌ يتقلَّـبُ(١)

وخلاصة القول: أن شعراء بني أسد استطاعوا ـ بكل ـ اقتدار ـ أن يعبروا عن الروح الحربية للقبيلة، ويظهروا مدى ولائهم وحبهم لها، ومن خلال ما صدر عنهم من شعر هجائي لخصومها استطاعوا أن يبرزوا تلك الروح جلية واضحة، وقد كان ذلك الهجاء مرتبطاً بأوثق الروابط بالفخر والحماسة في شعر هؤلاء الشعراء.

وقد كانت معانيهم ـ في هذا الشأن ـ متفاوتة من شاعر إلى آخر في تلك الفترة، ويقودنا الحديث عن الخصوم، والمعارك الحربية إلى حديث آخر هو "رثاء قتلى القبيلة" ومدى ارتباط هذه النقطة بالحماسة والفخر القبلي حيث نراها متصلة بسبب أو بآخر.

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ٥ ـ ٦.

## رثاء قتلى القبيلة:

لعل الباحث يستطيع أن يقسم هذا الرثاء إلى ثلاثة أنواع - في شعر هذه القبيلة - فأما الأول منها: فقد عبر فيه شعراء بني أسد عن حس ووجدان قبلي عام، وتناولوا النقد بصورة تخص مجمل القبيلة، وأما النوع الثاني - كما يبدو لي -: فقد انطلق فيه شعراء هذه القبيلة من رؤية خاصة عبروا من خلالها عن حزنهم وأساهم بصورة فردية تعيش داخل إطار القبيلة العام، وهذا ليس محله هنا، وإنما في دراستنا للشعر الفردي من هذا الباب.

وأما النوع الثالث: فقد مزج فيه الشاعر الأسدي بين النوعين الأوليين معاً، والمتمعن في النوع الأول - من هذا الرثاء - يلحظ أن الشاعر كثيراً ما يربط بين التعبير عن الحزن والأسى - لهؤلاء الذين أردتهم المعارك والحروب - وبين الحض على إدراك ثأرهم من قاتليهم، وهنا يلتحم الرثاء بالحماسة القبلية التي تجعله في خدمتها يقول أحد شعراء بني أسد:

بكّي عَلَى قَتْلَى العِدَانِ فَإنَّهُمْ ... طَالتْ إقامَتُهُمْ ببطنِ بُرامِ
كانوا علَى الأعداء نارَ مُحَرِّقٍ ... وَلِقَوْمِهِمْ حرباً مِنَ الإجْرَامِ
لا تَهْلِكِي جَزَعاً فَإنِّيَ وَاثِقٌ ... برماحِنا وَعَواقِبِ الأيّامِ[1]

فالشاعر يربط بين أثر قتل هؤلاء على القبيلة - بكافية - وبين الحض على إدراك ثأرهم، ويبلغ به الأمر أن، ينهي تلك المرأة عن الأسى والحزن عليهم وما ذلك إلا لثقته الكبيرة في إدراك الثأر، ويخيل إلينا أن هذه سنة القبائل العربية في الجاهلية بعامة فهم لا يكون قتلاهم ما لم يدركوا ثأرهم من الأعداء. وقد نرى بعض شعراء بني أسد يكتفي بالبكاء على صرعى الحروب، ويبرز شأنهم ومنزلتهم في القبيلة كعبيد بن الأبرص الذي يرثي رهطه من بني سعد بن دودان حيث قتل منهم على يد الغسانيين عدد كبير، ويبدو من خلال رثاء عبيد أنها لم تكن معركة واحدة وإنما معارك عديدة خاضها بنو سعد بن ثعلبة ضد بني غسان، ولعل السبب في تلك الحروب التي تحمل الوزر الأكبر منها رهط الشاعر وذلك بحكم منازلهم في أقصى شمال نجد على مقربة من حدود مملكة الغسانيين - يبدو لنا من كل ما سبق أن الغساسنة قد أرادوا إخضاع تلك القبائل النجدية لسلطتهم أو بسبب إغارة تلك القبائل على تخوم مملكتهم يقول عبيد ابن الأبرص:

لِمَنْ طَلَلٌ لَمْ تَعْفُ المَذانِبُ ... فَجَنْبا حِبِرٍّ قَدْ تَعَفَّى فواهِبُ
دِيارُ بَنِي سَعْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الأُلى ... أذاعَ بِهِمْ دَهْرٌ عَلَى النّاسِ رائِبُ
فَأذْهَبَهُمْ ما أذهبَ النّاسَ قَبْلَهُمْ ... ضِراسُ الحُروبِ والمنايا العَواقِبُ

---

١- انظر الحماسة بشرح المرزوقي الجزء الثالث ص ٨٦٥ والعدان قيل هم فرع من أسد وقيل ماء لتميم، وقيل هو موضع بديار تميم انظر الحماسة ص ٢٢.

أَلا رُبَّ حَيٍّ قَدْ رأينا هُنا لِكُمْ | لَهُمْ سَلَفٌ تَزْوَرُّ مِنْهُ المقَانِبُ(١)

وقد يقف الشاعر الأسدي عند حدود الأسى الدفين على صرعى المعارك من أبناء قبيلته، فهذا أحد شعرائهم يفصح عما في نفسه من الحزن العميق نتيجة لما حل ببني أسد:

أَلا يا طالَ بالغُرَباتِ لَيْلِي | وما يَلْقَى بَنُو أَسَدٍ بِهِنَّهْ
وقائلةٍ أَسِيتَ؟ فقلتُ جَيْرٌ | أَسِيٌّ إِنَّنِي مِنْ ذاكَ إِنَّهْ(٢)

ونستطيع أن نتبين تداخل الرثاء والحماسة القبلية عند بشر بن أبي خازم في قصيدته التي رثى فيها نفسه قبل الموت، حيث كان قد أغار على "الأبناء" وهم بنو صعصعة ما عدا عامر ـ في مقنب من قومه فلما جالت الخيل مر ببشر غلام من وائلة فأراد بشراً أسره ولكن الغلام رماه بسهم أصاب منه مقتلاً، فلما أحس بشر بدنو أجله قال قصيدته هذه مخاطباً فيها ابنته عميرة وهو فيها يذكر أمجاده القبلية وبطولاته في لقاء الأعداء يقول بشر:

فَإِنْ أَهْلِكْ عُمَيْرَ فَرُبَّ زَحْفٍ | يُشَبَّهُ نَقْعُهُ عَدْواً ضَبابا
سَمَوْتَ لَهُ لأُلْبِسَهُ بِزَحْفٍ | كَمَا لَفَّتْ شَآمِيَّةٌ سَحابا
عَلَى رَبِذٍ قَوائِمُهُ إذا ما | شَأَتْهُ الخَيْلُ يَنْسَرِبُ انسِرابا
فَعَزَّ عَلَيَّ أَنْ عَجِلَ المَنايا | وَلَمَّا أُلْقَ كَعْباً أَوْ كِلابا
فيا لِلنّاسِ إِنَّ قَنَاةَ قَوْمِي | أَبَتْ بِثِقَافِهَا إِلاَّ انْقِلاَبا(٣)

ولا يمكننا الإغضاء عن تحسر بشر على أن المنية عاجلته ولما يقضي وطراً من المعارك والغزوات ضد القبائل الأخرى حتى وهو في حالة الاحتضار هذه فهو لم يشف غليله بعد من أعداء وخصوم بني أسد وبخاصة عامر وتميم. والواقع أن العاطفة الحزينة تلف القصيدة كلها، إلا أننا نشعر بطغيان نغمة الفخر والحماسة القبلية أكثر، حتى أنه ليخيل إلينا أن بشراً أراد بها أن يوصي أبناء قبيلته على الحرب بل يحثهم عليها.

أما النوع الثاني فهو الذي مزج فيه الشاعر الأسدي الرثاء بالحس القبلي العام والحس الفردي الشخصي، ومن ذلك رثاء بشر بن أبي خازم لأخيه سمير "وكان قد قتله" شراحيل بن الأصهب الجعفي كما جاء في منتهى الطلب (٧٥ب) يقول بشر:

أَمْسَى سُمَيْرٌ قَدْ بَانَ فانْقَطَعَا | يالَهْفَ نَفْسِي لِبَيْنِهِ جَزَعَا
قُوما فَنُحا في مَأْتَمٍ صَخِلٍ | عَلَى سُمَيْرِ النَّدَى وَلا تَدَعَا
ثُمَّ انْدُباهُ لِكُلِّ مَكْرُمَةٍ | لامُسْنَداً عاجزاً ولا وَرَعَا
كانَ لَنَا باذِخاً نَلُوذُ بِهِ | أَمْسَى رَمَاهُ الزَّمانُ فاتَّضَعَا

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ٨ ـ ٩.
٢ـ انظر الصاحبي تحقيق الأستاذ أحمد صقر وانظر معجم البلدان المجلد الرابع ص ٢١ وانظر معجم البلدان المجلد الرابع ص ٢١، ص ١٩٢.
٣ـ انظر ديوان بشر ص ٢٨ ـ ٢٩ والأبناء هم أبناء صعصعة وائلة ومازن وسلول.

والقـــائدَ الخَيْــلَ في المَغـــازةِ والـــ ... جَــدْبِ يُسَـــاقُونَ خِلْفَـــةً سَـــرَعا
اللابِـــسَ الخَيْـــلَ في العَجاجَــةِ بالــ ... خَيْـــلِ تَســـاقَي بِســـمَامَها نُقَعَـــا(١)

فالشاعر هنا يبكي أخاه الصريع ـ كما تقول الرواية ـ ونحن نشعر بهذه الغلالة الحزينة التي تلتفع بها القصيدة، إلا أننا نجد نغمة الفخر والحماسة القبلية تطل علينا من نافذة الرثاء الفردي لهذا الفارس، فالشاعر ينفذ إلى الفخر القبلي من خلال شجاعة سمير وإقدامه في ساحات الوغى بصحبة فرسان بني أسد، وبذا يجعل من سمير أخيه بطلاً قبلياً وليس بمجرد فرد من أفراد القبيلة. أما عن رواية قتله التي وردت في منتهى الطلب وأثبتها الدكتور عزة حسن في مقدمة ديوان بشر فالواقع أننا لا نميل إلى الأخذ بها وذلك لعدم توفر الدليل الثابت أولاً، ومن المعروف أنه في مثل هذه الأحوال نجد الشاعر يحض على الأخذ بالثار، وإلى استنهاض همم القبيلة كلها إلا أنه لم يفعل على الرغم من كون القتيل يمت بصلة قرابة حميمة للشاعر فهو أخ له. وهذا مما يدعونا لعدم تصديق الرواية أصلاً. ويرجع لدينا أن سميراً مات ميتة طبيعية ولو أننا دققنا النظر في قصيدة بشر لوجدنا فيها ما يشير إلى ذلك فالحزن عميق ولكنه هادئ رزين هذه المرة، و لم نجد في الأبيات ما يوحي بالقتل. والاعتبار بالدهر والزمان وبسنة الحياة التي تسري على كل حي كل ذلك يوحي لنا بأن موت سمير كان طبيعياً. ولعل مما يثبت صحة رأينا في هذا قول بشر في موضع آخر يرثي سميرا حيث يقول:

هَـــلْ لَعَيْـــشٍ إذا مَضَـــى لِـــزَوالِ ... مَـــنْ رُجـــوعٍ أَمْ هَـــلْ فَتـــىً غَـــيْرُ بـــالِي
أَصْبَـــحَ الدَّهْـــرُ قَـــدْ مَضَـــى بِسُـــمَيْرٍ ... بِســـعُورِ الوَغَـــى وَ بالمِغْضَـــالِ
لاأَرَى النّائِبـــاتِ عَرَّيْـــنَ حَيّـــاً ... لِعَدِيـــدٍ وَلا لِكَـــثْرَةِ مَـــالِ
يـــا سُـــمَيْرَ الفَعَـــالِ مَـــنْ لِحـــرُوبٍ ... مُسْـــعَراتٍ يَجُلْـــنَ بالأبطـــالِ
يَتَســـاقَوْنَ سَـــمَّها في دُرُوعٍ ... ســـابغاتٍ مـــن الحديـــدِ ثِقَـــالِ(٢)

فالشاعر إضافة إلى حزنه وأساه الفردي على أخيه يجعل منه رمزاً بطولياً للقبيلة كلها، مما يضع صورة سمير في إطار صورة عامة لفرسان القبيلة الميامين الذين يتساقون سموم الحروب المسعرات وهم يتسامون إليها جميعاً سمو الجمال كما يقول بشر في الـ:

ذات جَـرْسٍ يَسْـمُو الكُمـاةُ إلى الأبــ ... بطـالِ في نقعسـها سُـمُّو الجِمـالِ

إن رثاء بشر هذا أقرب إلى الفخر القبلي بفرسان بني أسد جميعاً وإن كان هذا الأمر لا يقلل من لوعة الشاعر وإحساسه العميق بالفقد الفردي لأخيه. ومن وجهة أخرى فهو لا يذكر ما يدل أو يشير ولو بدلالة بسيطة على أن المرثي قد قتل في ساحة المعركة، فنحن لم نتعود من بشر مثل هذا الموقف الذاهل المستكين القاعد عن طلب الثأر لو كان الأمر على غير ما ذكرنا وهذا عبيد بن الأبرص يتحسر على قومه ويبكي على ديارهم الدارسة وقد أمسى وحيداً بعدهم يقول:

لِمَـــنِ الدِّيـــارُ بِبُرْقَـــةِ الرَّوْحـــانِ ... دَرَسَـــتْ وَغَيَّرهـــا صُـــروفُ زَمـــانِ

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ١٢٣ وما بعدها.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ١٧١.

فَوَقَفْــــتُ فِيهـــا نـــاقَتِي لِســؤالِها ... فَصُرِفْـــتُ والعَيْنـــانِ تَبْتَـــدِرانِ
سَـــجْماً كَـــأَنَّ شُـــنانَةً رَجَبِيَّـــةً ... سَـــبَقَتْ إلىَّ بمائِهـــا العَيْنَـــانِ
أَيّـــامَ قَوْمِـــي خَـــيْرُ قَـــوْمٍ سُـــوقَةٍ ... لِمُعَصِّـــبٍ ولِبَـــائسٍ ولِعَـــانِي
أَمّـــا إذا كَـــانَ الطِّعـــانُ فَـــإِنَّهُمْ ... قَـــدْ يَخْضِبُـــونَ عَـــوَالِيَ المُـــرّانِ
أمـــا إذا كَـــانَ الضِّـــرابُ فَـــإِنَّهُمْ ... أُسْـــدٌ لَـــدَى أَشْـــبالِهِنَّ حَوَانِـــي
فَخَلَـــدْتُ بَعْدَهُـــمُ وَلَسْـــتُ بِخَـــالِدٍ ... فـــالدَّهْرُ ذو غِـــيَرٍ وَذُو أَلْـــوانِ(١)

ويمكننا ملاحظة هذا التداخل بين رثاء الشاعر الفردي لأبناء قبيلته ومدى حزنه وإحساسه بفقدهم، وبين هذه الروح الحماسية التي تجمعهم كقبيلة، حتى أننا لنشعر بأن عبيداً إنما يفتخر أكثر مما يرثي، وقد كدنا ننسى دموعه السخية في بداية الأبيات وكأننا انتقلنا إلى ساحة معركة حامية الوطيس بين اشتجار الرماح وتضارب السيوف ومبارزة الفرسان حيث يكمل لنا الصورة قائلاً في ذات القصيدة:

أمّـــا إذا دُعِيـــتْ نَـــزَالِ فَـــإِنَّهُمْ ... يَحْبُـــونَ للرُّكَبـــاتِ فِـــي الأَبْـــدانِ

الواقع أن الشاعر استطاع أن يمزج بإتقان بين حزنه الفردي وبين فخره القبلي وإن كان الفخر كما يلوح لنا أظهر من الرثاء في القصيدة، ولا نبالغ إذا قلنا أن الشاعر قد اتخذ منه معبراً للحسد القبلي وللإشادة بمآثر قومه حتى ولو كانوا تحت التراب كما نلاحظ في الأبيات السابقة تركيز الشاعر على تقلب أحوال الزمان فهو لا يبقى على حال ولا يثبت على وضع، أليس هو الذي أزرى بهؤلاء الأبطال على الرغم من قوة بأسهم وشدتهم في ساحات الوغى؟

وأما النوع الأخير ـ كما خيل لنا ـ فهو امتزاج الرثاء الصادر عن وجدان الشاعر الفردي بالرثاء الصادر عن حس قبلي، وفي هذا النوع تتداخل الحماية القبلية بالحزن والبكاء على قتلى القبيلة أيضاً. ولعل أول ما يصادفنا في هذا المجال من شعر الأسديين أبيات البراء بن ربعي الفقعسي الذي يرثي ثمانية من أخوته أودت بهم الحروب المتوالية لبني أسد يقول البراء:

أَبَعْـــدَ بَـــنِي أُمِّـــي الذيـــنَ تَتَـــابَعُوا ... أُرَجِّـــي الحَيـــاةَ أَمْ مِـــنَ المَـــوْتِ أَجْـــزَعُ
ثَمانِيَـــةٌ كَـــانُوا ذُؤابَـــةَ قَوْمِهِـــمْ ... بِهِـــمْ كُنْـــتُ أُعْطِـــي مَـــنْ أشـــاءُ وأَمْنَـــعُ
أولئِـــكَ إخْـــوانُ الصَّفـــاءِ رُزِيتُهُـــمْ ... ومَـــا الكَـــفُّ إلا إصبـــعٌ ثُـــمَّ إصْبَـــعُ(٢)

ونتيجة لواقع معروف في حياة هذه القبيلة "بني أسد" وهو كثرة حروبها كثر عدد قتلاها في تلك

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ١٣٠ ـ ١٣١.

٢ـ انظر الأبيات في المؤتلف والمختلف ص ٦٨ ومن هذا القبيل أيضاً قول الأعشى بين أسد يرثي أخوته وأبناء عمومته:

مـــن أخـــوة وبـــني عـــم رزئتهـــم ... والدهـــر فيـــه علـــى مستعتب عتـــب
عـــاودت وجـــداً علـــى وجـــد أكـــابده ... حتـــى تكـــاد بنـــات الصـــدر تلتهـــب
لقـــد علمـــت ولـــو مليـــت بعدهـــا ... أنـــي ســـأنهل بالشـــرب الـــذي شـــربوا

انظر الأبيات في المؤتلف ص ١٧ ـ ١٨.

الحروب وبالتالي فقد ازدادت الحسرات وصيحات الألم عند شعرائها، وكثرت نغمات الأسى على ألسنة الأسديين، فأنت ترى البراء هنا حزيناً كما أنه يعمم هذا الحزن على بني أسد أو على رهطهم الأقربين على الأقل وذلك على اعتبار التلاحم الشديد بين الفرد والقبيلة، فكما يشكل هؤلاء الفرسان الثمانية كأفراد اخوة للشاعر فهم في الوقت نفسه دعامة وقوة للقبيلة كلها، وحري بها أن تحزن عليهم كحزن البراء. وهذا شاعر أسدي آخر هو أبو ذؤاب ربيعة بن أسعد بن جذيمة الأسدي الذي رثى ابنه ذؤابا قاتل عتيبة بن الحارث بن شهاب في اليوم المعروف بيوم "خو" والذي أشرنا إليه سابقاً في هذا البحث. وفي هذه الأبيات نلقى عاطفة الأبوة الجريحة حيث لا أعز من الولد على الوالد وها هو ذا قد فقد بل قتل وفي الوقت ذاته تواجهنا عاطفة الرجل المنتمي أشد الانتماء إلى القبيلة فهي ملاذه في النوائب وبدونها قد لا يستطيع إدراك ثأر أو حتى تهديد ووعيد للأعداء. كما نجد ذلك الفخر الحماسي الذي يرقى إلى مرحلة الإعجاب بقتل فارس بني تميم الشهير عتيبة بن الحارث ويبدأ الشاعر متوعدا بني جعفر بن كلاب من تميم قائلا:

أَبْلِـغْ قَبَـائِلَ جعفـر مَخْصوصـةً ... ما أن أُحـاوِلَ جعفـرَ بْـنَ كِـلابِ
إنَّ البَقِيَّـةَ والهَـوادَةَ بَيْنَنَـا ... شُـمْلٌ كَسُـحْقِ الرَّيْطَـةِ المُنْجَـابِ
إلا بجيـشٍ لا يُكِـتُّ عَدِيـدُهُ ... سُـودُ الجُلـودِ مِـنَ الحديـدِ غِضَـابِ
وَلَقَـدْ عَلِمَـتُ عَلَـى التَجَلُّـدِ والأَسَـى ... أَنَّ الرزيئـةَ كـانَ يـومُ ذُؤابِ
أذؤابُ إنّـي لَـمْ أُبِعْـكَ وَلَـمْ أُصِـبْ ... بِعُكَـاظَ حِيْـنَ تَجَمُّـعِ الأَجْـلابِ(١)

إن نغمة الفخر القبلي تبدو واضحة في الأبيات حتى أنها لتطغى على مسحة الحزن الشديدة، والتي قيلت القصيدة تعبيراً عنها أصلاً، ثم ينطلق معبراً عن مكانة ابنه ذؤاب في القبيلة ذاكراً مآثره محاولاً إخفاء مما أصابه من أسى على فقد ابنه، بل ويبلغ الأمر إلى أن يفتخر بذلك القتل وذلك لأن ذؤابا لم يذهب دمه هدراً وإنما ذهب بدم سيد تميم وفارسها المشهور عتيبة بن الحارث ومادام الأمر كذلك فلا بأس فالكريم غير محرم علي السيف ويبدو لنا الشاعر من خلال الأبيات عامداً إلى إظهار عتيبة بن الحارث في صورة البطل معلياً من شأنه ومفصحاً عن مكانته الرفيعة في القبيلة يقول أبو ذؤاب:

إنْ يَقْتُلـوكَ فَقَـدْ ثَلَلْـتَ عُرُوشَـهُمْ ... بعُتَيْبَـةَ بْـنِ الحـارِثِ بـنِ شـهابِ
بأَشَـدِّهِمْ هِـمْ كَلَبـاً عَلَـى أعدائهـم ... وَأَعَزِّهِـمْ فَقْـداً عَلَـى الأَصْحَـابِ
أَهْـوَى لَـهُ تَحْـتَ العَجـاجِ بِطَعْنَـةٍ ... والخَيْـلُ تَـرْدِي في الغُبـارِ الكـابِي(٢)

ولعل الشاعر هنا يريد من وراء تبيانه لمكانة عتيبة بن الحارث وسرده لصفاته الحربية أن يجد مبرراً نفسياً لقتل ابنه ذؤاب، فهو كما قلنا لم يقتل لسبب تافه أو بسيط بل لأنه قتل رجلاً باسلاً وبطلاً كريماً. والواقع أن ربيعة قد استطاع مزج حزنه الفردي على ابنه بذلك الحس القبلي الذي يخص القبيلة كلها، ويمكننا أن نلاحظ تيارين متناقضين في الأبيات ـ أن صح التعبير ـ تيار من الحزن

---

١ـ انظر المؤتلف والمختلف ص ١٢٥ ـ ١٢٦.
٢ـ انظر المؤتلف ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

الجارف العميق المتسرب في نفس ربيعة الأب الذي فقد ابنه، وتيار آخر تستطيع أن نطلق عليه ـ بشيء من التجاوز ـ تيار فخر بقتل عتيبة الفارس المعلم، ولعل مجيء هذا الفخر على لسان الشاعر إنما أتى من كون ابنه هو قاتل عتيبة هذا لكن الشاعر على الرغم من ذلك كله لم يفلح في الخروج من ثوب الأبوة الحاني ومشاعرها المفعمة بالحب، وهاهو ذا يختم قصيدته بالعودة إلى تلك العاطفة النبيلة عاطفة الأبوة فيقول داعياً ـ كعادة الجاهليين ـ تعبر ذؤاب بالسقيا، ومؤكداً عدم قدرته على النسيان يقول ربيعة:

أذؤابُ صابَ عَلَى صَدَاكَ فجادَهُ ... صَوْبُ الرَّبيعِ بوابلٍ سَكّابِ
ما أنسَى لا أنساهُ آخرَ عَيْشِنَا ... ما لاحَ بالمِعْزاءِ رَيْعُ سَرابِ(١)

إن هذا الامتزاج والتداخل بين الرثاء الفردي والحس القبلي عند الشاعر الأسدي قد اتجه برثائهم وجهة قبلية حماسية بحتة، مما جعلنا في كثير من الأحيان لا نفرق بين الرثاء الفردي والشعور القبلي المتوقد في نفوس هؤلاء الشعراء وقد يكتفي الشاعر الأسدي بإظهار عاطفة الحزن على هؤلاء الذين فقدوا من القبيلة، وفي مثل هذه الحالة يقتصر الشاعر على التأبين المتمثل في إبراز صفات هؤلاء الفرسان وكذلك ما كانوا يتميزون به من مثل وقيم كانت سائدة في تلك الفترة، ومن ذلك قول الشاعر الأسدي عمرو بن أهبان بن دثار الفقعسي في رثائه لهمام الأسدي حيث يقول:

عَلَى مِثْلِ هَمْامٍ تَشُقُّ جُيُوبَها ... وَتُعْلِنُ بالنَّوْحِ النساءُ الفَواقِدُ
فتى الحَيِّ إنْ تَلقاهُ في الحَيِّ أوْ يرى ... سِوى الحَيِّ أوْ ضَمَّ الرِّجالَ المَشاهِدُ
إذا نازَعَ القَوْمُ الأحاديثَ لَمْ يَكُنْ ... عَيِيّاً ولا عِبْئاً عَلَى مَنْ يُقاعِدُ
طويلُ نِجَادِ السَّيْفِ يُصْبِحُ بَطْنُهُ ... خَمِيصاً وجاديه عَلَى الزادِ حامِدُ(٢)

وخلاصة القول إن الرثاء عند شعراء بني أسد ارتبط في تلك الأنواع الحماسية كما بينا، شأنه الهجاء القبلي، وإذا كان الحس القبلي قد سيطر وغلب على هؤلاء الشعراء فان هذين النوعين من الرثاء قد كثر عندهم أيضاً، وذلك لكثرة حروب بني أسد التي خاضوها، وبالتالي فان كثرة عدد القتلى لابد أن يتناسب طرداً مع كثرة المعارك الحربية للقبيلة، ويمكننا أن نقرر حقيقة في هذا الصدد وهي: أن الروح الحربية والحس القبلي لدى شعراء بني أسد في الجاهلية كانا غالبين وموجودين في كل أغراضهم وألوانهم الشعرية، فهي في الرثاء كما هي في الهجاء الذي صدر عنهم، وحيث أن الشعراء ـ بعامة ـ يمثلون الطبقة الواعية المستنيرة في مجتمعاتهم القبلية، وينافحون عنها في كل موقع سواء أكان ذلك في حالة السلم أو حالة الحرب فقد رأينا أن شعراء بني أسد لم يخرجوا عن هذه

---

١ـ انظر المؤتلف والمختلف ص ١٢٥ ـ ١٢٧ وتجدر الإشارة إلى أن قتل عتيبة بن الحارث كان له صداه بين شعراء بني أسد مما دعا مالك بن نويرة إلى تعييرهم بذلك حيث يقول:

فخرت بنو أسد بمقتل واحد ... صدقت بنو أسد عتيبة أفضل

انظر معجم الشعراء ص ٢٦٠.

٢ـ انظر المؤتلف ص ٣٠ إلا أنه أورد أبياتاً شبيهة بهذه نسبها إلى أهبان بن خالد بن نضلة الأسدي ـ وأضاف بأنه كان يدعى أهبان الفواح لجودة مراثيه وتنظر الأبيات في الحماسة الجزء الثالث ص ١٠٦٥.

السنة، ووجدناهم مرتبطين بقضايا القبيلة ارتباطاً وثيقاً، وقد مر بنا - من خلال ما تقدم - أنهم كانوا في الصف الأول لمواجهة ما يعترض القبيلة من مشاكل وأحداث، وقد وجهوا كل طاقاتهم، ومعارفهم، وأفكارهم وتجاربهم، في سبيل حل هذه المشكلات ومعالجتها. ويمكننا أن نقف على مدى إخلاص هؤلاء الشعراء من القضايا المصيرية التي اعترضت هذه القبيلة، وكيف وجهوا كل طاقاتها لخدمتها ورفع الملمات عنها.



# توجيه الطاقات الفكرية لخدمة قضايا القبيلة:

ولعل أكبر ملمة نزلت بهذه القبيلة هي فشل الثورة الأولى لها ضد سلطة كندة أيام حجر بن الحارث، ولا نبالغ إذا قلنا أن تلك الثورة كانت الشرارة الأولى في شبه الجزيرة ضد سلطة عرب الجنوب على عرب الشمال ـ بعامة ـ وسلطة حجر بن الحارث ـ بخاصة ـ وقد أشرنا إلى هذا في الباب الأول من هذا البحث ـ أقول لقد كانت لهذه الثورة الأسدية نتائج في منتهى القسوة على أبناء هذه القبيلة، فقد استهان الملك حجر بأشرافها ومسراتها، وأودعهم السجن، ونفى من تبقى إلى تهامة، وأمست قبيلة بني أسد في موقف حرج لا تحسد عليه إذ فرض عليها مغادرة مواطنها في نجد، وأودع الأشراف منهم في السجن، وتشتت أمرها من جراء غضب حجر صاحب السلطة والملك والسطوة في ذلك الحين.

وهنا يلعب الشاعر الأسدي، دوره ويوجه كل فنه وتجاربه، وعلاقاته الخاصة من أجل إنقاذ قبيلته من هذا التشرد، ويمثل هذا الدور الذكي الشاعر عبيد بن الأبرص ـ أكبر شعراء هذه القبيلة ـ بفكره السديد ورأيه الثاقب وقد استطاع فعلاً أن يستدر عطف حجر بن الحارث وأن يخفف من سورة غضبه على بني أسد، وذلك بإبراز ضعفهم ورضوخهم لمشيئة حجر ولعلها كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة أمام الشاعر في ذلك الظرف العصيب لقد استجدى عبيد بن الأبرص العفو من حجر، وهذا الاستجداء لم نعهده عند أي شاعر أسدي آخر سوى عبيد، وهو لاشك أمر شاذ ومخالفة لطبيعة العربي الجاهلي بعامة ولبني أسد بخاصة فالمعروف أن روح التمرد والثورة لازمت بني أسد منذ أن عرفنا تاريخهم القديم في الجاهلية الذي يعود إلى القرن الثالث الميلادي، كما يذكرنا نقش النمارة الذي أشرنا إليه في الباب الأول. على الرغم من ذلك فقد تقدم الشاعر الأسدي بقصيدته أمام حجر بن الحارث التي يقول في مطلعها

| | |
|---|---|
| يـا عَيْـنُ فَـابْكِي مـا بَنِـي | أَسَـدٍ فَهُـمْ أَهْـلُ النَّدَامَـةْ |
| حَـلاً أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ حَـلا | إِنَّ فيمـا قُلْـتَ آمَـةْ |
| وَمَنَعْتَهُـمْ جِـدّاً فَقَـدْ | حَلُّـوا عَلَـى وَجَـلٍ تَهَامَـةْ |
| بَرِمَـتْ بَنُـو أَسَـدٍ كَمَـا | بَرِمَـتْ بِبَيْضَتِهَـا الحَمَامَـةْ |
| أَنْـتَ المَلِيـكُ عَلَيْهِـمُ | وَهُـمُ العَبِيـدُ إلى القِيَامَـةْ |
| ذَلُّـوا لِسَـوْطِكَ مِثْلَمَـا | ذَلَّ الأُشَيْقِرُ ذُو الخِزَامَـةْ(١) |

وهكذا نرى عبيداً لا يدخر وسعاً في شعره من فكر ورأي وفن ـ أن صح التعبير ـ في سبيل قبيلته، وكانت النتيجة أن عفا عنهم حجر بن الحارث وأذن لهم بالعودة إلى مواطنهم النجدية التي لا يستطيع الباحث أن يحددها بدقة، ولعل السبب في ذلك هو انتشار أفخاذ وبطون هذه القبيلة على

١ـ انظر ديوان عبيد ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

رقعة واسعة من الأرض، وبمجاورتها لعدد كبير من القبائل العربية، ومحالفتهم لعدد آخر، وكان من الطبيعي ـ والحالة كهذه ـ أن تحدث مشاحنات ومشاكل، وخلافات بين مختلف هذه القبائل، ومن بينها قبيلة بني أسد.

وكان لابد ـ أيضاً ـ من وجود مواقف للشعراء في تلك الخلافات والمشاحنات، ومن ذلك ما نراه عند عبيد وهو يطلب بعض أحلاف بني أسد قائلاً:

دَعَا مَعَاشِرَ فاستكَّتْ مَسَامِعُهُمْ ... يالَهْفَ نَفْسِيَ لَوْ تَدْعُو بني أَسَدِ
تَدْعُو إذَنْ حَامِيَ الكُمَاةِ لاكَسِلاً ... إذا السُّيُوفُ بأَيْدِي القومِ كالوَقَدِ
لَوْ هُمْ حُمَاتَكَ بالمَحْمِيِّ حَمَوْكَ وَلَمْ ... تُتْرَكْ ليومٍ أَقَامَ النَّاسَ فِي كَبَدِ(١).

إن الشاعر يلوم حلفاء بني أسد لأنهم لم يستنجدوا بحلفائهم في مقاتلة العدو وكان أن هزموا أمامه، ولاشك أنها إشارة لماحة من الشاعر عن قوة بني أسد: ويبدو أن من حقوق الحليف على حليفه أن يستشيره قبل الدخول في حرب مع القبائل الأخرى، والواقع أن هذا لمنتهى الوفاء بالعهد للحليف ونصرته من قبل الشاعر وقومه، ويؤكد الشاعر الأسدي عبيد على حماية الحليف وواجب الانتصار له فيقول:

إنّا لعَمْرُكَ لأيضَ ... مُ حَلِيفُنَا أبداً لَدَيْنَا(٢)

ومادامت بنو أسد محافظة إلى هذا الحد على حلفائها، والانتصار لهم فلا عجب أن نرى موقف النابغة، ودفاعه المستميت أمام بدر بن حصن الغزاري عن بني أسد، وذكره لأمجادهم وحسن بلائهم في الحروب، ـ وقد سبقت الإشارة إلى هذا الموقف المتشدد من النابغة في أثناء الحديث عن حروب القبيلة في هذا البحث ـ

ولعل هذه الشيمة قد امتدت إلى دائرة أوسع في نفوس الأسديين فشملت الجار والحليف، ومن ذلك ما نراه عند الشاعر الأسدي عمرو بن شأس حين ذكر لنا إباء لقاح الحنظلي الذي جاورهم في ابل له عظيمة، فأقام فيهم سنوات ثم رحل عنهم، فأغارت طيء على ابله فذهبوا بها فرجع إلى بني سعد بن ثعلبة مستجيراً، فركبوا معه إلى طيء وردوا عليه ما له. وإلى هذا يشير عمرو بن شأس قائلاً:

أَبَأْنَا لِقَاحَ الحَنْظَلِيِّ بمِثْلِهَا ... لِقاحاً وَقُلْنَا دونَكَ ابنَ مُكَدَّمِ
وَفَاءً وَلَمْ تُشْرِفْ عَلَيْهِ نفوسُنا ... حناجرُها كأنها صَوْغُ حَنْتَمِ(٣)

ولا يتأخر بشر بن أبي خازم من نصرة أحلافه من بني ضبة حيث يقول:

أَجَبْنا بني سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ إذْ دَعَوْا ... ولِلّهِ مَوْلَى دَعْوَةٍ لا يُجِيبُها(٤)

---

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٥٨.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ١٣٨
٣ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٧٩ ـ ٨٠.
٤ـ انظر ديوان بشر ص ١٥.

ومن ذلك أيضاً دور الشاعر الأسدي الكميت بن معروف في قضية "سالم بن دراة" وفحوى هذه القضية هو أن سالما ـ وهو من ولد عبد الله بن غطفان ههجا بني فزارة، وكانت غطفان كلها بما فيها بنو فزارة حلفاء لبني أسد ثم أن والدة سالم هذه أسدية، وعلى هذا تربطهم بهم خؤولة، ويبدو أن ذلك الهجاء كان فاحشا، وخص به رجلاً يدعى ثابت بن رافع الفزاري ونتيجة ذلك، فقد تصدى ثابت ومعه رهط من فزارة لسالم بن دارة فقتلوه، وكان قاتله هو زميل بن عبد مناف الفزاري الذي يعلن صراحة أن قتل سالما إذ يقول

أنـا زَمِيـلٌ قـاتِلُ ابـنِ دارَة وراحِـفِ المخْـزاةِ عَـنْ فِـزارَة[1]

وبمقتل سالم بن دارة دب الخلاف بين بطون بني غطفان، وعلى وجه الخصوص بين بني عبد الله بن غطفان وبين بني فزارة، وهنا يبرز دور الكميت بن معروف في تدخله لحسم هذا الخلاف وحله، ويظهر أن الكميت بن معروف كان من سراة أسد ومن بيوتاتها المعروفة فأبوه شاعر وأخوه شاعر وجده الكميت بن ثعلبة شاعر[2] وربما شفع كل ما سبق ذكره للكميت في تمكنه من حل هذا الخلاف وحسمه قبل أن يستفحل أمره بين بطون فزارة وغطفان ثم أنه من جهة ثانية يعتبر حليفاً لبني غطفان كلها. الأمر الذي قد يجعل كلامه مقبولاً لدى النطفائيين عموماً، بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من كونه سيداً له منزلته في قبيلة بني أسد. يقول الكميت بن معروف:

أَلَـمْ يَـأْتِهِمْ أَنَّ الفِـزارِيَّ قَـدْ أَبـى وإنْ ظَلَمْـوهُ أَنْ يـذِلَّ فَيَضْرَعـا
شَـرَى نَفْسَـهُ مَجْـدَ الحَيـاةِ بِضَرْبَـةٍ لِيَدْحَـضَ حَرْبـاً أو لِيَطْلُـعَ مَطْلَعـا
خُذُوا العَقْـلَ إنْ أعطاكُمُ العَقْـلَ قَوْمُكُمْ وكونـوا كَمَـنْ سِـيمَ الهَـوانَ فَأَتْبَعـا
ولا تُكْـثِرُوا فِيهـا الضِّجـاجَ فَإِنَّـهُ مَحَا السَّيْفُ ما قالَ ابنُ دارةَ أَجْمَعَا[3]

ويبدو أن الكميت حكما عادلاً في هذه القضية، فالظلم ـ كما يقول ـ بدأه سالم بهجائه لثابت وقبيلته فزارة، وكان لابد من رد هذا الظلم بالسيف الذي اشترى بضربته المجد له ولقبيلته، وأن تلك الضربة قد منعت حربا أكيدة بين أبناء العمومة بسبب ذلك الهجاء، وتبدو لنا حنكة الكميت — من خلال إحاطته بالقضية وحصرها في مسرب واحد وهو أن شاعرا أفحش في الهجاء، وأن المهجو قتله.

هكذا ببساطة جعل القضية العامة قضية فردية، ثم نراه يقدم الحل، ويتمثل حل الكميت في أن على رهط سالم أن يقبلوا العقل مع ما فيه من صعوبة، وشعور بالمهانة ـ في مثل هذه الحالة — وذلك لأن القتيل كان البادئ في الظلم، ولذا فنحن نلاحظ أن حكم الكميت قد خلا من القود، ويعود الشاعر إلى بني فزارة ليقول لهم أن لا يطيلوا الجدل فيما قاله ابن دارة فيهم من هجاء، لأنه لو حدث فربما عادت للقضية ذيول وتبعات أخرى، فالسيف قد محا ما قاله فيهم، والواقع أننا لو نظرنا إلى هذا

---

١ـ انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة الجزء الأول ص ٣١٥.
٢ـ انظر الأغاني طبع الدار الجزء التاسع عشر ص ١٠٩.
٣ـ انظر معجم الشعراء ص ٢٣٧ وانظر معجم البلدان لياقوت المجلد السادس ص ٢٩٧.

الحكم لوجدناه منطقياً ـ إلى حد بعيد ـ وفيه حكمة من تلك الأعراف والتقاليد القبلية القائمة على القتل ودفع الدية، ولكن على الرغم من ذلك فإننا نلحظ إباء للظلم من جهة، وعدم رغبة في الحرب بين أبناء العشيرة الواحدة من جهة ثانية.

وللكميت بن معروف أكثر من موقف بجانب الحق ويجانب ما كان يراه عدلا وإنصافاً ـ وهو في مخاطبته لغطفان في قضية سالم بن دارة وحسمه لتلك القضية، وجرصه على وحدة وتماسك أبناء القبيلة وحلفائها فانه لم يكن أقل وضوحاً في مخاطبته لأبناء عمومته حيث يقول

خُذُوا الحَقَّ لاأُعْطِيكُمُ اليومَ غَيْرَهُ ... ولِلْحَقِّ إنْ لَمْ تَقْبَلُوا الحَقَّ تابِعُ

فلا الضَيْمَ أُعْطيكُمْ مِنَ أَجْلِ وَعيدِكُمْ ... ولا الحَقَّ مِنْ بَغْضائِكُمْ أَنا مانِعُ

فَلَمْ أَرَ مِثْلَ الحَقِّ يَمْنَعُهُ امْرُؤٌ ... ولا الضَيْمَ يأتيهِ امرؤ وَهْوَ طائِعُ

متى ما يَكُنْ مولاكَ خَصْمُكَ جاهداً ... تضِلُّ وَيَصْرَعْكَ الذينَ تُصارِعُ(١)

حق يقوم على عدل، وليس حقاً يقوم على ظلم، ولو دققنا النظر في البيت الأخير الذي ساقه الكميت لوجدناه يعبر عن حقيقة أليمة طالما أحس بها العربي الجاهلي، وعانى من ثقل وطأتها، وهي ظلم الأقارب فهو ـ حقاً ـ كما قال طرفة، أشد على المرء من وقع الحسام المهند.

وبهذا المستوى الرفيع واجه الشاعر الأسدي ـ بعامة ـ خصومات قبيلته، وتعداها إلى خصومات الحليف، وكان الشاعر منهم إذا شعر بظلم من أبناء قبيلته أو رهطه الأقربين، أو رأى تصرفا لا يقره واجهه بصوت التعقل والحكمة والروية، وكان غالباً ما يلوذ بأسلوب النصح والإرشاد مثلما نجد ذلك عند الشاعر مرة ابن عداء الفقعسي حين قبل أبناء عمومته دية في قتيل لهم، وأبى هو ذلك التصرف، وأنكره عليهم، وهاهو ذا يعاتبهم قائلاً:

رأيتُ مَوالِيَّ الأُلى يَخْذِلُونَني ... على حَدَثانِ الدَّهْرِ إذْ يَتَقَلَّبُ

فَهَلا أعدُّوني لِمِثْلِي تَفَاقَدُوا ... إذا الخَصْمُ أَنْبَرَى مائِلُ الرأسِ أَنكبُ

وَهَلاَّ أعدُّوني لِمِثْلِي تَفَاقَدُوا ... وَفِي الأَرضِ مَبْثوثٌ شُجاعٌ وَعَقْرَبُ

فلا تأخُذُوا عَقْلاً مِنَ القومِ إنَّني ... أرى العارَ يَبْقَى والمَعاقِلُ تَذْهَبُ(٢)

إن الشاعر يتحدث بلغة الألم والمرارة والحسرة بيد أن هذه اللعنة لا تخلو من نبرة حكمة، أن مرة لا يتصور خذلان رهطه له وقد كان وقع هذا الخذلان عميقاً في نفسه لأنه يشعر بأنه كان ينبغي عليهم أن يخبروه ويأخذوا رأيه في هذه المسألة، لاسيما إذا عرفنا أن الشاعر كان مستعداً لمواجهة أعدائه وأعدائهم في أي مكان. ومن وجهة نظره كان يرى عدم قبول الدية "القود" لأن في قبولها عاراً أبدياً، بينما المال يفنى، والواقع أن الشاعر لم يتعد ـ هنا ـ الواقع الذي كانت تعيشه القبائل العربية. فعلى الرغم من أن قبول الدية فيه حقن للدماء وخير للجميع إلا أن ذلك يخالف الأعراف والتقاليد العربية التي نشأ عليها. ويمكننا ملاحظة مدى حرص مرة على الإبقاء على تلك الأواصر

---

١ـ انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١٩٥، ١٦٣ حيث يروي أبياتا أخرى له ووردت الأبيات في الوحشيات ص ١٨.

٢ـ انظر الحماسة الجزء الأول ص ٢١٣.

الوشيجة مع أبناء عمومته كي لا تتصدع وحدة القبيلة أو ينخدش تماسكها، ولذا فإن دعوة الشاعر إلى أبناء عمه بالمحافظة على الود والحب نراها صادقة ولعلها تمثل الحس القبلي الحقيقي الذي يحسه الفرد اتجاه أبناء قبيلته، وفي الحقيقة فان هذا الهدف كان نصب عين كل شاعر أسدي وليس مرة بن عدا الفقعسي فحسب، وقد تبين لنا من خلال الوقوف على شعر هذه القبيلة أنهم كانوا حريصين إلى حد بعيد على نبذ الأحقاد والمشاحنات والضغائن التي قد تنجم أحياناً بين أبناء القبيلة متسامين عنها، ومن ذلك ما يقوله مرداس بن حشيش أخو بني سعد بن ثعلبة بن دودان عن عداء نشأ بينه وبين ابن عم له:

وَذَوي حِبَابٍ مُظْهِرِينَ عَداوَةً ... قُرحُ القُلوبِ مُعاوِدِي الأَفْنادِ
ناسَيْتُهُمْ بَغْضَاءَهُمْ وَتَرَكْتُهُمْ ... وَهُمُ إذا ذُكِرَ الصديقُ أَعادِ
كيما أُعِدُّهُمُ لأَبْعَدَ مِنْهُمُ ... وَلَقَدْ يُجاءُ إلى ذوي الأَحْقادِ(١)

هكذا بفكر مستنير وبصيرة نافذة وعقل واع يتسامى الشاعر الأسدي فوق كل موجدة، ويترفع عن كل ضغينة، ويبتعد عن كل عداوة لأن مصلحة القبيلة تتطلب هذا وتقضيه للمحافظة على تماسكها وتلاحمها، برغم علم الشاعر تماما بما في صدور الآخرين عليه، ولكنه كشاعر للقبيلة يتناسى كل ذلك في سبيل الهدف الأكبر وهو إعداد هؤلاء لمواجهة العدو وعدم ادخار أي ذرة من قوى القبيلة في سبيل الوصول إلى تلك الغاية، فهو لابد محتاج إليهم لمثل ذلك اليوم وكذلك هم.

ولو نظرنا في موقف مرداس هذا بإمعان لوجدناه طيباً وواقعياً قياساً إلى الوضع الذي كان سائداً في الجاهلية بين القبائل العربية من جهة وبين الفرد وانتمائه القبلي من جهة أخرى، فهو لا يرضى سوى السؤدد والعزة لأبناء قبيلته حتى وان بدر منهم شيء من الجور تجاهه، ولم يكن مرداس الشاعر الأسدي الوحيد في هذا الموقف بل يشاركه شعراء آخرون. ولعل عبيد بن الأبرص يوضح لنا بعض أجزاء الصورة وبين ما يترتب على الفرد تجاه قبيلته إذ يقول:

إذا كُنْتَ لَمْ تَعبأْ بِرأْيِ وَلَمْ تُطِعْ ... إلى اللُّبِّ أَوْ تَرْعَى إلى قَوْلِ مُرْشِدِ
ولاتَتَّقِي ذَمَّ العشيرةِ كُلِّهَا ... وتدفعُ عَنْهَا باللسانِ وباليَدِ
وَتَصْفَحُ عَنْ ذِي جَهْلِهَا وَتَحُوطُهَا ... وتقمعُ عنها نَخْوَةَ المُتَهَدِّدِ
وتنزلُ مِنْهَا بالمكانِ الذي بِهِ ... يُرى الفَضْلُ في الدُّنْيا عَلَى المُتَحَمِّدِ
فلستَ وإنْ عَلَّلتَ نَفْسَكَ بالمُنى ... بذِي سُؤْدَدٍ بادٍ ولا كَرْبِ سَيِّدِ(٢)

لقد أدرك الشاعر الأسدي كل الإدراك أن وجوده متعلق بشكل ما مع وجود القبيلة، وأن عزته وسطوته إنما يستمدها من عزتها وسطوتها، ولذلك فهو غير مستعد بأي حال من الأحوال أن يفرط أو يخالف عرفاً من أعرافها. ويبدو أن حروب بني أسد الكثيرة قد زادت من ذلك الارتباط الوثيق بين أبنائها فالأخطار محدقة بهم على نحو مستمر تقريباً.

وهذا الحضرمي بن عامر قائد بني أسد إلى رسول الله "ص" وهو رأس من رؤوس بني أسد

---

١ـ انظر الحماسة الجزء الأول ص ٢٢٩.

٢ـ انظر ديوان عبيد ص ٥٤ ـ ٥٥.

المعروفين ـ يخاطب رهطه من بني أسد قائلاً:

وَلَقَدْ لَبِسْتُكُمْ عَلَى شَحْنائِكُمْ وَعَرَفْتُ ما فِيكُمْ مِنَ الأَوْصَابِ
كَيْما أُعِدُّكُمْ لأَبْعَدَ مِنْكُمُ أَنّي ينازِعُني ذَوُو الأَحْسابِ(١)

وكان يسوء الشاعر الأسدي ـ جداً ـ أن ينشب خلاف أو شقاق بين أبناء قبيلته، وإذا حدث وجدناه يقف من ذلك المشكل موقف المحارب الحريص على إخماد نار الفتنة مهما كانت صغيرة، وهو بذلك إنما يمثل صوت العقل والحكمة، ويبرهن على أن الشاعر الأسدي بخاصة والجاهلي بعامة كان ذا بصيرة نافذة ورؤية ثاقبة للأمور وحارساً أميناً على وحدة القبيلة، وقد رأيناه لا يدخر جهداً فنياً أو فكرياً في سبيل إنجاح مهمته الدقيقة تلك. ومن شعراء الأسديين الذين نلمس عندهم هذه الروح سحيم عبد بن الحسحاس، الذي يرتفعون بنسبهم إلى عمرو بن مالك بن ثعلبة بن دودان، ويظهر لنا من خلال ما قال سحيم أن خلافاً دب بينهم وبين بني عمومتهم من أبناء عمرو بن مالك مما اضطر بني الحسحاس إلى أن يحالفوا أبناء عمومتهم الأبعدين(٢) تاركين بني عمهم الأدنيين ولم يكن هذا الموقف يرضي سحيماً فهو يقول لبني عمرو بن مالك ناصحاً:

بَنِي عَمِّنا مَنْ تَجْعَلُونَ مكانَنا إذا نحنُ سِرْنا نَبْتَغِي مَنْ نُحالِفُ
ألَمْ تعلموا أنّا فوارسُ نَجْدَةٍ إذا خامَ فِي الهَيْجا الضِّعافُ الزعانِفُ
وكُنّا لَهُمْ كالغَيْثِ مالَ نباتُهُ حَيَا سَنَةٍ أَزْجَى إليهِ الضَعائِفُ
وَصِرْنا إلى السَّعْدَيْنِ سَعْدِ بنِ مالِكٍ وَسَعْدِ بِنِي الأَحلافِ تِلْكَ العَجارِفُ
وقلنا لَهُمْ والخيلُ تَردِي بِنَامِعا نُحارِبُ مَنْ حارَبْتُمُ ونُحالِفُ(٣)

ويمثل هذه المواقف المتعلقة دأب شعراء بني أسد على منوالهم هذا موجهين طاقاتهم الفكرية والفنية لصالح قضايا قبائلهم في كل صغيرة وكبيرة. فالمشكلة أياً كان نوعها قد تصدع وحدة القبيلة وبالتالي قد يترتب عليها نتائج لا تحمد عقباها، لاسيما إذا عرفنا أن قبيلة بني أسد تعتبر من القبائل الحربية المتبدية. وبناء على هذا فان شعراء بني أسد لم يدعوا شيئاً من هذا القبيل يمر دون أن يدلوا بآرائهم فيه محاولين جهد طاقاتهم حصر هذا الخلاف وحله حتى ولو كان فردياً، بسبب ورود الماء أو ما شابه ذلك مما يرويه لنا صاحب الحماسة لأحد شعرائهم دون أن يذكر اسمه حيث يقول:

كِلا أَخَوَيْنا إنْ يُرَعْ يَدعُ قومَهُ ذَوي جامِلٍ دَثْرٍ وَجَمْعٍ عَرَمْرَمِ
كلا أخوينا ذو رجالٍ كأنَّهُمْ أُسودُ الشَّرى مِنْ كُلِّ أغلبَ ضَيْغَمِ
فما الرُّشْدُ في أن تشتروا بنعيمكُمْ بَئِيساً ولا أنْ تَشْرَبُوا الماءَ بالدَّمِ(٤)

إن نظرة الشاعر الفكرية هنا لا تخلو من عمق وتبصر بالنتائج الوخيمة التي قد يتطور عنها

---

١ـ انظر حماسة البحتري ص ٢٤٩.
٢ـ حالفوا بني عمهم الأبعدين وهم بنو الحارث الحلاق بن سعد بن ثعلبة بن دودان وبنو سعد بن مالك.
٣ـ انظر ديوان سحيم ص ٥١.
٤ـ انظر الحماسة الجزء الأول ص ٢٥٤.

الحدث البسيط وما يمكن أن يسفر عنه من تبعات، كما يتجلى لنا حرص الشاعر على حسم هذا الخلاف البسيط من خلال تقديمه النصيحة القيمة في البيت الأخير حفاظاً على وحدة القبيلة وتضامنها الذي لا غنى عنه في ظل تلك الظروف التي كانت تحياها القبيلة بوجه عام. وبلغ الأمر بالشاعر الأسدي ـ أحياناً ـ تحذيره لأعداء قبيلته من إشعال نار الحرب لعلمه بما قد تجره من ويلات على الطرفين، فهذا بشر بن أبي خازم يحذر بعض بطون تميم من العودة إلى الحرب لأنهم سيخسرونها حتماً حيث يقول:

فأبلغْ بني سَعْدٍ وَلَنْ يَتَقبَّلُوا ... رَسُولي ولكنَّ الحَزازَةَ تُنْضِبُ
حلفتُ بربٍّ الداميات نحورُها ... وما ضَمَّ أجوازُ الجِواءِ وَمِذْنَبُ
لَئِنْ شُبَّتْ الحربُ العَوانُ التي أرى ... وَقَدْ طَالَ ايعادٌ بِهَا وَتَرَهُّبُ
لَتَحْتَمِلَنْ مِنكُمْ بِلَيْلٍ ظَعِينَةٌ ... إلى غَيْرِ موثوقٍ مِنَ العِزِّ تَهْرُبُ
وينصُرنا قومٌ غِضَابٌ عليكُمُ ... متى نَدْعُهُمْ يوماً إلى النَّصْرِ يركبُوا
فَمَنْ يكُ لَمْ يَلْقَ البيانَ فإنَّهُ ... سيأتيهِ بالأنباءِ مَنْ لايُكَذَّبُ(١)

إن موقف الشاعر الأسدي هنا موقف الحذر من ويلات الحرب العازف عن خوضها برغم ثقته بالنصر، وهذا يدل على أن العربي الجاهلي لم يكن يلجأ إلى السيف إلا في حالات محددة وليس حباً بسفك الدماء فهي خسارة ودمار وهلاك لكل الأطراف فهو لا يلجأ إليها إلا إذا فرضت عليه وبعد أن يستنفذ كل ما لديه من وسائل. كما يفعل بشر فهو يلجأ إلى أكثر من وسيلة لمنع هذه الحرب حتى أنه يهدد بني سعد باللجوء إلى حلفاء بني أسد ليعظم في عينهم الأمر، فربما عدلوا عن رأيهم وجنحوا إلى السلم وآثروه على خوض غمار الحرب. وهي كما يبدو ليست حرباً عادية وإنما هي حرب عوان قوتل فيها مرة بعد مرة وبالتالي فقد كان لها ضحايا من الجانبين.

ونرى أنه من المفيد أن نقف على موقف شعراء بني أسد في تلك المحنة التي مرت بهذه القبيلة في بداية الدعوة الإسلامية، لنتبين حرص هؤلاء الشعراء على قبيلتهم ولنتعرف معالجتهم لهذه الفتنة التي كان على رأسها طليحة بن خويلد الأسدي.

والواقع أن تلك الفتنة قد شطرت قبيلة بني أسد وقسمتها بصورة خطيرة، فأمسى قسم منها مسلماً، والآخر مرتداً. وهنا يبرز دور الشاعر الأسدي الواضح بعقله المستنير ومعالجته الحكيمة للأمور بعد أن نظر إلى ما آلت إليه قبيلته. وكان نتيجة لما سبق أن وقف عدد من الشعراء الأسديين في وجه الفتنة قبل أن تستفحل ويعم شرها سائر بطون القبيلة، ولعل من أظهر هؤلاء الشعراء ضرار بن الأزور الأسدي وأخوه عبد الرحمن الأزور. ولنستمع إلى ضرار يخاطب المرتدين من أبناء قبيلته حيث يقول:

عَصَيْتُمْ ذوي ألبابكُمْ وَأطَعْتُمْ ... ضُجَيْماً وَأَمْرُ ابنُ اللقيطةِ أَشْأَمُ
وَقَدْ يَمَّمُوا جيشاً إلى أرضِ دَوْمَةٍ ... فَقُبِّحَ مِنْ وَفْدٍ وما قَدْ تَيَمَّمُوا(٢).

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ٨ - ١.
٢ـ انظر معجم البلدان المجلد ٤ ص ١٠٩.

فالشاعر يأخذ على قومه أنهم تركوا أهل الرأي والسداد فيهم، وانساقوا وراء من لا يأتي منه إلا الشؤم والشر على القبيلة كلها، ويشارك شراراً في موقفه هذا شاعر أسدي آخر هو جعونة بن مرثد الأسدي الذي يقول محذراً من فعلة طليحة:

بَنِي أَسَدٍ قَدْ سَاءَنِي مَا فعلتُمُ وليس لقوم حاربوا الله محرَمُ
فإنِي وإنْ عِبْتُمْ عَلَيَّ سَفاهَةً جنيفٌ عَلى الدِّينْ القويم ومُسْلِمُ[1]

ولعلنا تستطيع الآن أن نتبين مواقف شعراء بني أسد الذين رفعوا راية التوجيه ولواء الحكمة بفكر مستنير، وإدراك كامل لما يمكن أن يحل بالقبيلة لو ترك الحبل على الغارب للسفهاء منها. فهم كانوا يتسارعون - غير مدخرين جهداً فنياً أو معنوياً أو فكرياً في سبيل الحفاظ على وحدة القبيلة - إلى الوقوف لمعالجة كل مشكلة قد تعترض المسيرة القبلية والتي قد يكون من شانها إضعاف تماسك القبيلة.

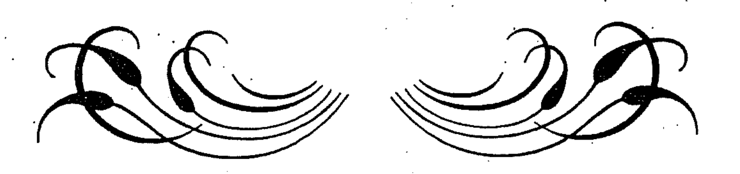
ويمكننا أن نطمئن إلى القول بأن هؤلاء الشعراء كانوا على الدوام مرتبطين أوثق الارتباط بقبائلهم، مناظرين بعيون ساهرة إلى كل الطرق التي قد تسبب الانقسام فيها. ولعل مما يؤكد لنا ذلك نتاجهم الشعري الذي وقفنا عليه وعرفنا من خلاله الظواهر التي ارتبط فيها ذلك النتاج بالحياة القبلية من بيئة تتمثل في الموطن، وبمحيط معاش للقبيلة وهجاء ورثاء وتوجيه لكل أمر مهما صغر أو كبر، ويمكننا، - أيضاً - ملاحظة ذلك الحرص الشديد على وحدة قبائلهم وتلاحمها صفاً واحداً لمواجهة الأخطار المحتملة، ويبدو لنا ذلك - جلياً - من خلال معالجة الشعراء للخصومات والفتن التي نشبت بين أبناء القبيلة الواحدة، غير أنهم لم يكونوا دعاة سلم بالنسبة للقبائل المجاورة لهم فهذا شأن آخر. إن ما يهمهم بالدرجة الأولى عدم نشوب الفتن والخصومات الداخلية التي قد تهدد وحدة القبيلة ونستطيع أن نتلمس ذلك الطموح في إيجاد القبيلة القوية المحاربة لدى شعراء بني أسد. فقد كان الطموح غاية وهدفاً غالياً سعى إليه كل من شعراء بني أسد في تلك المرحلة.

---

١- انظر الإصابة الجزء الأول ص ٢٧٤.

# الفصل الثاني

# الشعر الفردي



## في هذا الفصل:

ظاهرة المدح الفردي في شعر بني أسد

النظرات الشخصية

المرأة في شعر بني أسد

علاقة الشاعر بأسرته

الفخر الفردي عند شعراء بني أسد ومظاهره

لاشك في أن شعراء بني أسد قد وقفوا أكثر فنهم الشعري على قبائلهم، وعاشوا معها في كل أمر يهمها، وارتبطوا بها ارتباطاً أقل ما يمكن القول فيه: انه وثيق بل يصل ـ أحياناً ـ إلى حد التداخل والتمازج بين وجود الشاعر ووجود القبيلة.

ولكن ليس معنى هذا الكلام أن شخصية الشاعر الأسدي قد ذابت ـ تماماً ـ في بوتقة القبيلة فلم يعد لها حضورها الخاص، وغنائيتها الفردية، ونظراتها للأمور المحيطة بها من منظار شخصي، فلقد عبر هؤلاء الشعراء عن قضايا ومواقف معينة بصورة فردية لا دخل لانتمائهم القبلي فيها، وذلك لأن العلاقة بين الفرد والقبيلة لم تكن علاقة تبعية ـ كما قد يظن البعض ـ وإنما كانت علاقة عضوية متداخلة، فيها قيم خلقية ونفسية، والاعتراف بالفردية موجود ولكنه ليس مطلقاً تماماً، وإنما يستمد وجوده هذا من خلال الوجود العام للقبيلة، وضمن الإطار العام لتلك الأعراف والتقاليد السائدة وخضوع الفرد لهذا الإطار لا يلغي شخصيته الفردية بأي حال.

إن الشاعر الجاهلي ـ بعامة ـ يعبر عن أحاسيسه ومشاعره بوصفه فرداً له وجدانه الخاص، ورؤيته الفكرية الخاصة بكل حرية شريطة أن لا يمس ذلك التعبير كيان القبيلة، ولا يهدم تلك الضوابط القبلية المتعارف عليها.

وقد أشار الدكتور محمد مصطفى هدارة إلى هذا الارتباط بين الشاعر والقبيلة فقال: "إن الشعر الجاهلي ـ قبل كل شيء ـ شعر غنائي يعبر به الشاعر عن ذاته وما يعتلج فيها من خطوات نفسية، وعن كل ما ينتابه من أحاسيس ونوازع تجاه المواقف والبشر والأشياء من حوله، صحيح أن الشاعر الجاهلي كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بقبيلته، ولكن ذلك في الحدود التي تلتزم بها القبيلة في حربها وسلامها، وحين يبتعد عن هذه الرابطة القبلية لا ينسى عواطفه ونوازعه بكل ما فيها من خير وشر بحيث نجد صورة متكاملة للإنسان، ويضيف الدكتور هدارة قائلاً:

"وهو في تصوير علاقته بغيره يقترب من النموذج الإنساني السامي كما يتصوره إن كان في موقف مدح وإعجاب، ويداني النموذج الإنساني الكريه ـ كما يتمثله ــ إن كان في موقف هجاء وإعراض، وهذا الجانب الذاتي في أشعار الجاهليين لا نعني به القيم الثابتة التي كان المجتمع الجاهلي متفقاً عليها كمدح الكرم، وذم البخل، والإشادة بالشجاعة بل نعني بها مواقف فردية يختلف فيها كل شاعر عن سواه"(١).

ولقد كانت فردية الشاعر الأسدي تأتي تبعاً لحياة كل شاعر بكل ما فيها من مواقف، وقضايا، فنحن نجد منهم الذي حاول التكسب بشعره كي يستعين على أعباء الحياة الاقتصادية في بعض الأحيان، وقد تتجلى لنا فردية بعضهم الآخر في علاقته بفرسه أو ناقته، ومنهم من تظهر فرديته في تصوير علاقاته مع المرأة التي لعبت دوراً مهماً في حياة المجتمع الجاهلي بشتى مناحيه، وربما ظهرت لنا فردية الشاعر الأسدي في نظرته إلى قضية الموت والحياة تلك القضية التي أرقت الإنسان الجاهلي إلى حد بعيد، ولعل فردية بعض منهم كانت تكمن في مواقف أخرى، وسنعرض لكل ما سبق بشيء من الإسهاب والتفصيل في الصفحات التالية.

إن الذي بين أيدينا من شعر هذه القبيلة يشير إلى أن الشاعر الأسدي قد أكثر من وصف فرسه وناقته، وليس يخفى على أحد ما لعبته الناقة من دور خطير في حياة المجتمع الجاهلي، وهو دور لا

---

١ ـ انظر كتاب الدكتور محمد مصطفى هدارة "الشعر الجاهلي ـ التطور والنشأة" ص ٣٩ ـ ٤٠.

يستطيعه سواها في تلك البيئة الصحراوية المترامية الأطراف، ولا نبالغ إذا قلنا: إنها كانت عماد الحياة سواء أكان ذلك في حروبهم أم سلمهم، وكذلك الفرس فقد لعب دوراً خطيراً في حياة الجاهليين حتى أن الدكتور سيد نوفل يذهب إلى أن العرب كانوا يرتضون في حالات خاصة إلى ضرب من التقديس لهذا الحيوان(١).

والواقع أن الناقة والفرس كانا يمثلان أساساً قوياً من أسس الحياة في الجاهلية، ومن هنا كانت هذه العلاقة الحميمة بين الشاعر الأسدي وبين ناقته وفرسه فالشاعر إنسان ـ قبل كل شيء له أحزانه وأفراحه، وهمومه التي تعتاده من حين لآخر وسط تلك الفيافي والقفار القاسية المهلكة، ورفيقه في كل ذلك ناقته القوية التي لا تخذله أبداً، ولعلها من هذه الزاوية كانت وسيلته للتفريج عن همومه، وللترويح عن نفسه المتعبة التي هي في مسيس الحاجة إلى مواس أو معين، وقد يلجأ الشاعر إلى فرسه لمعركة أو صيد أو غير ذلك، فهو وسيلة أخرى تعينه على النصر أو كسب الرزق وتحقيق الكسب. ولا غرو بعد هذا أن يصور الشاعر الأسدي هذه العلاقة ويوليها كثيراً من اهتمامه، ويصف كل عضو فيها، ويدير الحوار معها وكأنها صديق عاقل، وحول هذا المعنى يشير الدكتور محمد مصطفى هدارة قائلاً: "وقد اهتم الشاعر الجاهلي بأكثر ما في الصحراء من حيوان، واستأثرت الناقة بقدر كبير من هذا الشعر لاعتماده الرئيسي عليها في مأكله وملبسه ورحلته، وكثيراً ما شبه الشاعر ناقته بالصخر أو الحمر الوحشية أو القصور أو النعام أو الشجرة الضخمة، ووصف كل أجزائها وحالاتها وفضائلها، وكذلك اهتم بالفرس اهتماماً بالغاً لأنه عدته في القتال وكثيراً ما شبهه ـ بالجذع أو الجرادة أو الظبي، ووصف كل جزء فيه، وحالاته المختلفة، ومواقفه في أثناء المعارك أو عند الصعيد أو عند الراحة، وكان الشاعر الجاهلي يقترب ـ أحياناً ـ بوجدانه من فرسه فيحس مشاعره، ويخفق قلبه نحوه بالعاطفة ويحشد له من الصفات ـ أحياناً ـ ما يجعله حيواناً مثالياً في قوة بنائه وتحمله"(٢).

وعبيد بن الأبرص أحد شعراء هذه القبيلة يصور علاقته بناقته، وكأنها شخص يعقل ويحس ويدير حواراً طريفاً معها، يعبر من خلاله عن شوقه وحنينه، إلى أرض الحجاز موطن قبيلته يقول عبيد:

وحَنَّتْ قَلُوصِي بَعْدَ وَهْنٍ وَهاجَها ... مَعَ الشَّوْقِ يوماً بالحجازِ وَمِيضُ
فَقُلْتُ لَها: لا تَضْجَري إنَّ مَنْزِلاً ... نَأَتْنِي بِهِ هِنْدٌ إلىَّ بَغِيضُ
دَنَا مِنْكِ تَجْوَابُ الفَلاةِ فَقَلِّصِي ... بما قَدْ طَبَاكِ رِعْيَةٌ وَخُفُوضُ
إذا جَاوَزَتْ مِنْها بِلاداً تَناوَلتْ ... مَهامِهَ بيداً بينَهُنَّ عَرِيضُ(٣)

ويشارك عبيداً في هذا الحوار شاعر أسدي آخر هو سلمة بن حبيش الأسدي في أثناء رحلته إلى يثرب ليعلن إسلامه فيقول:

إنِّي وَنَاقَتِي الخَوْصَاءَ مُختلِفٌ ... منّا الهَوى إذ بَلَغْنا الهَوى مَنزِلَ التِين
حنّتْ لأرحبِها خَلفِي فقلْتُ لَها ... إنّكِ لو تَبْلُغِينِي تنعِشِي دِيني

---

١ـ انظر شعر الطبيعة في الأدب العربي للدكتور سيد نوفل ص ٢٠.

٢ـ انظر كتاب الدكتور محمد مصطفى هدارة، "الشعر الجاهلي، التطور والنشأة" ص ٢٨ ـ ٣٠.

٣ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٨٠.

تَذَكَّـرْتُ مرتعـاً منهـا بناصِفَـةٍ إلى أثـالَ وقَلْبي مُبتغَـى الدِّيـنِ[1]

لقد أحس الشاعر من ناقته عدم رغبة في متابعة السفر، ومغادرة مرتعها الخصب إلى حيث يريد، فحاورها حوار الإنسان العادي، والواقع أننا لو دققنا النظر في أوصاف الشاعر الأسدي للناقة لوقعنا على لوحة فنية دقيقة عند الشاعر عبيد بن الأبرص، ولعل أولى ما يلفت الانتباه هو أن صور هذا الشاعر لناقته كلها مستقاة من واقع البيئة الصحراوية البدوية فهي من واقعه المعاش، فالناقة عنده كالسيف الهندواني، وهذه إيماءة من الشاعر إلى فحول هذه الناقة وضمورها لكثرة الأسفار عليها، وهي في حالة الإدبار تشبه القارورة المملوءة بالطيب ونعومة صدرها شبيهة بنعومة مداك العروس حيث يطحن فيه الطيب. يقول عبيد:

أَمّـا إذا اسـتَقْبَلْتَها فكأنّهـا ذَبُلَـتْ مِـنَ الهِنْـدِيِّ غَـيرُ يَبُـوسِ
أَمّـا إذا مـا أَدْبَـرَتْ فكأنّهـا قَـارورَةٌ صَفْـراءُ ذاتُ كَبِيـسِ
وإذا اقْتَنَصْنَـا لا يَجِـفُّ خِضَابُهـا وكـأنّ بِرْكَتَهَـا مَـدَاكُ عَـرُوسِ[2]

لاشك أن مثل هذه الصور الفنية النابعة من المرئيات اليومية للشاعر تعطينا انطباعاً بالصدق الفني، وبشدة الملاحظة عند الشاعر لأحوال ناقته، وتكشف لنا عن مدى ارتباطه بها ومشاعره نحوها تلك المشاعر التي جسدها ذلك الحوار الحي بينهما، ولعل الناقة المثالية عند شاعرنا هي تلك الناقة الخبوب البادن، التي أشبه ما تكون سرعتها بسرعة العير، وهي موثقة الفقار، هلبة ممتلئة السنام الذي يشبه الأكمة أو المرتفع من الأرض، وهي فوق ذلك قد أتمت ثماني سنوات فهي في أشد حالات قوة الجسم وصلابة العود يقول عبيد:

فَـرُبَّ مـاءٍ وَرَدْتُ آجِـنٍ سَـبيلُهُ خَـائِفٌ جَدِيـبُ
رِيـشُ الحَمَـامِ عَلَـى أَرْجَائِـهِ للقَلْـبِ مِـنْ خَوْفِـهِ وَجِيـبُ
قَطَعْتُـهُ غُـدْوَةً مُشِيـحاً وصَـاحِبي بـادِنٌ خَبُـوبُ
عَيرانَـةٌ مُؤْجَـدٌ فَقَارُهَـا كـأَنَّ حَارِكَهـا كَثِيـبُ
أَخْلَـفَ مـا بَـازِلاً سَدِيسُـهَا لاحِقَّـةٌ هِـيَ ولا نَيُـوبُ[3]

والملاحظ ـ هنا ـ أن الشاعر لا يأتي على وصف الناقة إلا ويقرن به ركوب الأخطار والافتخار بذلك، وهذه طبيعة جاهلية عامة عند الشعراء، إلا أننا نلحظ شيئاً من المبالغة عند عبيد في هذا المجال إذ يقول في قصيدة أخرى مصوراً قطعة لمفازة مهلكة:

وَخَرْقٍ تَصِيحُ الْهَامُ فِيهِ مَعَ الصَّدَى لَخُـوفٍ إذَا ماجَنَّـه اللَّيْـلُ مَرْهُـوبِ
قَطَعْـتُ بِصَهْبَـاءِ السَّـراةِ شِـمِلَّةٍ تَـزِلُّ الوَلاَيَـا عَـنْ جَوانِـبِ مكْـرُوبِ

---

١ـ انظر الإصابة لابن حجر الجزء الثالث ص ١١٥.
٢ـ انظر ديوان عبيد ص ٧٠.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ١٦ ـ ١٧.

لَهَا قَمَعٌ بِذْرِي بِهِ الكُورَ تَامِكٌ ... إِلَى حارِكٍ تَأْوِي إِلَى الصُّلْبِ مَنْصُوبِ(١)

وهذه رحلة خطرة ثالثة بصحبة ناقته في تلك البيداء المهلكة إذ يقول:

هَذَا وَدَوِّيَّةٌ يَعْيَا الهُداةُ بِهَا ... نَاءٍ مَسَافَتُهَا كَالبُرْدِ دَيْمُومَهْ
جَاوَزْتُ مَهْمَهَهُ يَهْمَاهَا بعَيْهَمَةٍ ... عَيْرَانَةٍ كَعَلاةِ القَيْنِ مَعْقُومَهْ
أَرْمِي بِهَا عُرُضَ الدَّوِّيِّ ضَامِزَةً ... فِي سَاعةٍ تَبْعَثُ الحِرْبَاءَ مَسْمُومَةْ(٢)

ويبدو ـ لنا ـ الشاعر الأسدي عمرو بن شأس موافقاً سابقه عبيداً في ركوبه للأهوال، وتقحمه للمخاطر ـ وافتخاره بذاك فهو يقول مصوراً ما يلحق بقاطع هذه الصحراء من مخاطر:

وَخَرْقٍ يَخافُ الرَّكْبُ أَنْ ينطِقُوا بِهِ ... قَطَعْتُ بِفَتْلاءِ الذِّراعَيْنِ عِرْمِسِ
لها دَوْلَجٌ دَوْجٌ متى ما تَنَلْ بِهِ ... مَدَى الغِبِّ أو تَرْبَعْ بِهِ الغَدَ تَخْمِسِ
يظَلُّ يُغَنِّيهِ الحَمامُ كأَنَّهُ ... مآتِمُ أنواحٍ لَدى جَنْبِهِ رُمَّسِ(٣)

ويقول في موضع آخر واصفاً اجتيازه لمفازة شبهها بأهدام العباءة، ولعله أراد بهذا التشبيه أنها ذات ألوان عدة، وبأنها تبدو لانهاية لها مما يدل على مدى الأخطار المحيطة بقاطعها يقول:

وَخَرْقٍ كَأَهْدَامِ العَبَاءِ قَطَعْتُهُ ... بَعِيدَ النِّياطِ بَيْنَ قُفٍّ وَأَرْمُلِ
بناجِيَةٍ وَجْنَاءَ تَسْتَلِبُ القَطَا ... أَفَاحِيصُهُ زَجْرِي إذا التَفَتَتْ حَلِي
وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي الجَلاَمِيدِ بَعْدَمَا ... مَضَى نِصْفُ لَيلٍ بَعْدَ لَيلٍ مُلَيَّلِ(٤)

ونقع على أكثر من صورة مفصلة لهذه الناقة القوية عند الكميت بن معروف الذي نراه من أكبر الشعراء الأسديين الذين صوروا علاقتهم بهذا الحيوان، وبالغوا في رسم صورة الصحراء ومدى أخطارها، وما ذاك إلا ليكسبوا هذه الناقة كل المميزات التي تؤهلها لمجابهة مثل تلك الأخطار ـ وقد سبقت الإشارة إلى هذا الشاعر في الباب الثاني ولا نريد التكرار لعدم جدواه هنا مرة أخرى.

وأما بقية شعراء بني أسد فالواقع: انهم تحدثوا عن الناقة بوصفها وسيلة لتفريج الهموم عنهم، فهذا بشر بن أبي خازم يلجأ إلى ناقته بوصفها معينة له على نسيان همه الذي يعتاده كل حين يقول بشر:

وَلَقَدْ أُسَلِّي الهَمَّ حِينَ يَعُودُنِي ... بِنَجاءِ صَادِقَةِ الهواجِرِ ذِعْلِبِ
حَرْفٍ مُذَكَّرَةٍ كَأَنَّ قُتُودَهَا ... بَعْدَ الكَلالِ عَلَى شَتِيمٍ أَحْقَبِ(٥)

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ٢٧.
٢ـ انظر ديوان عبيد ص ١٢٩ وانظر ديوانه ص ٩٦، ١٠٦، ١١١، ١١٤ ففيها شبيه بما ذكرنا من الصور.
٣ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٢٦ ـ ٢٧.
٤ـ انظر المصدر السابق ص ٤٣ ـ ٤٤.
٥ـ انظر ديوان بشر ص ٣٥ وصفه للناقة الذي لا يتجاوز هذا المعنى في الصفحات ٤٥، ٥٠، ١٤٥، ١٥٣، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٨، ١٧٩، ١٨٧، ٢٠٤.

وبعد أن فارق محبوبته التي خلفت في نفسه شيئاً من الألم والحسرة يقول سحيم عبد بني الحسحاس:

فَعَزَّيْتُ نَفْسِي واجْتَنَبْتُ غِوَايَتِي وَقَرَّبْتُ حُرْجُوجَ العَشِيَّةِ نَاجِيا

مَرُوحاً إذا صَامَ النَّهارُ كأنَّمَا كَسَوْتُ قُتُودِي نَاصِعَ اللَّونِ طَاوِيَا(١)

ولا ريب في أن الشاعر الجاهلي بعامة، والأسدي بخاصة قد أفاد كثيراً من تجاربه الخاصة، وتجارب قبيلته في حياته، واستوعب ما تتطلبه حياة الصحراء، ووعى ما يحيط به، فانطلق يصور هذه الحقائق من زاوية فردية وذلك بالقدر الذي سمحت له به قدراته الفنية، وظروفه الطبيعية. وقد أضفى على تلك الصور خصوصيته وحضوره الشخصي، وضمنها ما كان يشعر به من أحاسيس وهو يقطع تلك المفاوز، أو يرتحل من مكان لآخر، معطياً الأبعاد المختلفة لهذا الحيوان في حالتي الحرب والسلم.

ولعله من المفيد أن نذكر - هنا - أن أغلب شعراء الجاهلية التقوا حول هذه المعاني للناقة، وبخاصة كونها وسيلة لتسلية الهم، وكانوا يلجأون إلى ذكر هذا بعد أن يفرغوا من الوقوف على الأطلال، ويبدو أن هذه الظاهرة قد أملتها عليهم طبيعة التقليد الدارج في ذلك الوقت، والملاحظ أن هذه الظاهرة قد جاءت مرتبطة بالمقدمة الطللية للقصيدة العربية القديمة، التي تعد هي الأخرى مظهراً ذاتياً بحتاً عبر فيه الشاعر عن خصوصيته، ونوازعه الفردية تجاه من يحب، وقد حوت تعبيرات متشابهة، إلى حد بعيد عند أغلب الشعراء الجاهليين من مثل "دع ذا" "فعد عما ترى" "عد عن ذا" ومن ثم يشرع الشعراء في وصف الناقة على أنها معبر من حالة الاكتئاب والحزن والذهول أمام الطلل، إلى حالة أخرى تتمثل في مواصلة السير، والخروج إلى أرض الواقع بعد غفلة الشاعر وشروده أمام الدمن والديار الدائرة.

وقد لاحظ نقادنا القدامى هذا عندما تحدثوا عن بناء القصيدة فابن قتيبة يقول "وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار، والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها. ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد، وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل، وحر الهجير وانضاء الراحلة والبعير"(٢).

فالقضية عند ابن قتيبة لا تعدو أن تكون تقليداً تطلبه بناء القصيدة، اعتاد عليه الشعراء.

والواقع أننا مع من لا يسلمون بهذا الرأي، فنحن لا ندري شيئاً عن بواكير مقدمات الشعر العربي حتى نحكم بشكل أكثر دقة، حول هذا الموضوع يقول الدكتور حسين عطوان في كتابه "مقدمة القصيدة العربية" أنه ليس من السهل أن نسجل أهم ملامح المقدمة وقسماتها، ونحدد أشهر عناصرها ومقوماتها في دور طفولتها، ونرصد الخيوط والعناصر المبتدعة التي ابتكرها الشعراء في

١- انظر ديوان سحيم ص ٢٨.

٢- انظر الشعر والشعراء الجزء الأول ص ٢٠.

المرحلة اللاحقة، وأضافوها إلى نسيج المقدمة في المرحلة السابقة"(١).

وأيا ما كان الأمر فإنه لا ينفي العلاقة القائمة بين الشاعر وناقته، فهو لائذ بها لاجئ إليها في أغلب قصائده.

والحقيقة التي تبدو لنا عند شعراء بني أسد ـ لدى وصفهم للناقة وتصويرهم لتلك العلاقة: هي أنهم كانوا يستطردون في ذلك الوصف ويمتدون بذلك التصوير ـ شأنهم في ذلك شأن ذلك أغلب الشعراء الجاهليين ـ حيث يشبهها الشاعر بظليم ذو غزال أو ثور وحشي، وهو في تلك التشبيهات يكاد ينسى الموضوع الأساسي، وينسبينا معه المقصود من هذا الوصف وهي الناقة، ذلك أنه يقص علينا ما يكون من أمر تلك الحيوانات من صراع من أجل البقاء، وعراك وكفاح من أجل الفوز مع كلاب الصيد والصيادين المهرة، ويبدو أن هذه الظاهرة صدرت عنهم نتيجة احتذاء الشعراء بعضهم لبعض فيها. ويخيل إلينا أن الظاهرة امتداد طبيعي لصورة الناقة، وهي متفرعة عنها، حيث أن الشاعر والناقة وذلك الحيوان الصحراوي الموصوف إنما هم أطراف في مشكلة واحدة فهم يكابدون ـ جميعا ـ ظروفاً قاسية، بل هي في منتهى القسوة أحياناً كثيرة، وتتربص بهم الأخطار في كل لحظة وتتهدد وجودهم من جوانب كثيرة في تلك البيئة.

إلا أننا نلاحظ في ما خلفوه لنا من شعر في هذا الموضوع انتصاراً ساحقاً للثور الوحشي أو الحمار أو الظليم على أعدائه، وخروجه من ساحة المعركة ظافراً، وقد أشار الجاحظ إلى هذا قائلاً: "ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً ـ وقال: كأن ناقتي بقرة صفتها كذا ـ أن تكون الكلاب هي المقتولة ليس على أن ذلك حكاية من قصة بعينها، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها. وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها هو الغانم"(٢).

والحقيقية أنه لم يرد في شعر بني أسد ـ إطلاقاً ـ ما يؤيد هذا الرأي للجاحظ فالثيران هي المنتصرة دائماً، بالإضافة إلى أن شعراء بني أسد وهو سحيم عبد بني الحسحاس قد قال قصيدته الشهيرة المسماة بالديباج الخسرواني، وهو فيها لم يمدح ولم يرث ولم يعظ وإنما تناول موضوعات شتى أهمها تغزله بعميرة، ووصفه لصور السحاب والغيث، وعلى الرغم من ذلك فقد أتى على ذكر الثور الوحشي في معرض الحديث عن ناقته، وقد رأينا كلاب الصياد عاجزة عن النيل منه، فهو يذودها بقرنيه كما تزاد الابل عن الماء بعد سفر طويل وعطش قاتل إذ يقول:

فَصَبَّحَهُ الرَّامِي مِنَ الغَوْثِ غُدْوَةً ... بِأَكْلُبِهِ يُغْرِي الكِلَابَ الضَّوَارِيَا
فَجَالَ عَلَى وَحْشِيِّهِ وَتَخَالُهُ ... عَلَى مَتْنِهِ سِبّاً جَدِيداً يَمَانِيَا
يَذُودُ ذِيَادَ الخَامِسَاتِ وَقَدْ بَدَتْ ... سَوَابِقُهَا مِنَ الكِلَابِ غَوَاشِيَا(٣)

وهذا عبيد بن الأبرص يشبه ناقته بالعقاب الكاسر الذي يصطاد الطيور بكثرة بل الثعالب أيضاً، ويسوق ذلك لنا في أسلوب يغلب عليه القصص في معلقته "أقفر من أهله ملحوب" وهذه القصيدة ليست رثاء ولا مدحاً، وإنما الصفات الغالبة عليها بكاء الديار والوصف والحكمة والنظرات

---

١ـ انظر مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي د حسين عطوان ص ٧١.

٢ـ انظر الحيوان للجاحظ الجزء الثاني ص ٣٠

٣ـ انظر ديوان سحيم ص ٣٠ والغوث فرع من طيء اشتهروا بجودة الرمي والسب ضرب من الثياب البيضاء.

الشخصية في الحياة. ويذهب أحد شعراء بني أسد إلى أبعد من هذا، فهـو في قصيدة المديح يستغني عن ذكر القصة أصلاً يقول حاجب بن حبيب من قصيدة له أوردها المفضل الضبي في مدح الحارثين:

أَعْلَنْتُ فِي حُبِّ جَمْلٍ أَيَّ إِعْلانِ ... وَقَدْ بَدَا شَأْنُهَا مِنْ بَعْدِ كِتْمَانِ(١)

ثم يتابع القصيدة دون التعرض لظروف تلك المعركة المعتادة. ويشاركه بشر بن أبي خازم في إحدى قصائده التي يمدح فيها الملك عمرو بن أم اياس، فنراه يقتصر على ذكر الناقة وتشبيهها بالثور الوحشي دون التعرض إلى معركة ذلك الحيوان مع كلاب الصيد ولعله أراد أن يدلف إلى غرض المديح مباشرة حيث يقول في نقلة مباشرة إلى المدح:

فَإِلَى ابْنِ أُمِّ إِيَاسٍ عَمْرٍو أَرْقَلَتْ ... رَتَكَ النَّعَامَةِ فِي الجَدِيبِ السَّبْسَبِ(٢)

وقصارى القول في هذا الجانب: إن الشاعر الأسدي قد وصف ناقته، وصور ارتباطه الوثيق بها كتصوير بقية الشعراء الجاهليين لهذه العلاقة وهي ـ في رأينا ـ تمثل علاقة فردية خالصة أولاها الشاعر جزءاً كبيراً من نفسه وشغلته إلى حد بعيد ككل موضوعات قصيدته ـ بل ربما أكثر من بعضها ـ وإلى هذا يشير الدكتور الحوفي قائلاً: "إذا كانت القصيدة العربية قد جرت على تعدد الموضوعات في الغالب الأعم فان هذه الموضوعات المتعددة ومنها وصف الناقة، تلتقي عند نقطة واحدة هي أنها مشغلة الشاعر وأنها وحي البيئة التي يعيش فيها"(٣).

ومما يدل على أن الناقة كانت ـ حقاً ـ مشغلة الشاعر الأسدي أنه كان يكثر من التعبير عنها، وبها، حتى في الأغراض التي لا تتصل بها، فهذا عمرو بن شأس الأسدي يصور لنا آثار سيوف بني أسد في أجساد أعدائهم، فلا يجد إلا الناقة الأثيرة ليشركها في تلك اللوحة التي يريد التعبير عنها فيقول:

وأَسْيافُنَا آثارُهُنَّ كَأَنَّها ... مَشَافِرُ قَرْحَى فِي مَبَارِكِها هُدْلُ(٤)

ولعل الكميت أخذ هذا المعنى من عمرو حين قال:

تُشَبِّهُ فِي الهَامِ آثارُهَا ... مَشَافِرَ قَرْحَى أَكَلْنَ البَرِيرا(٥)

ويشارك بشر بن أبي خازم عمرو بن شأس في صنع صورة خيالية أخرى يقرن فيها السفينة بالناقة إذ يقول:

أُجَالِدُ صَفَّهُمْ وَلَقَدْ أُرانِي ... عَلَى قَرْواءَ تَسْجُدُ لِلرِّيَاحِ(٦)

---

١ـ انظر المفضليات ص ٣٧٠.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ٣٨.
٣ـ انظر الغزل في العصر الجاهلي ص ٢٦٩.
٤ـ انظر شعر عمرو بن شأس الأسدي ص ٦٩.
٥ـ انظر الشعر والشعراء الجزء الأول ص ٤٢٦.
٦ـ انظر ديوان بشر ص ٤٧ والقرواء الناقة الطويلة السنام شبه بها السفينة.

ويلجأ سحيم عبد بني الحسحاس إلى ناقته حين يتغزل فيصف المحبوبة في صورة حسية إذ يقول

مَــنْ كُــلِّ بيضـاءَ لَهـا كَثْعَـبٌ مِثْــلُ سِـنَامِ البَكْـرَةِ المـائِرِ

وصفوة القول: فإن الناقة كانت عند شعراء بني أسد معبراً إلى الخلاص من واقع أليم في وسط تلك الصحراء المخيفة، وقد تغنى الشاعر الجاهلي بعامة والأسدي بخاصة - وكان في ذلك التغني يعبر عن مشاعره وأحاسيسه الفردية، وأحلامه الخاصة، وقد أسبغ عليها كل ما من شأنه أن يجعل هذه الناقة قوية وصلبة وسريعة الحركة، وذلك كي يطمئن إلى الوصول بسلام إلى المكان المقصود فرحلته ليست نزهة بسيطة بل هي تحفل بكل هول ومخاطرة، وما أشبه هذه الرحلة بميدان قتال تبدو فيه هذه الناقة مقاتلة جلوداً، ترد كل ما يتهدد صاحبها بكل اقتدار يقول عبيد:

فَكَأَنَّمَـا تَحْنُـو إذا مـا أُرْسِـلَتْ عُـودَ العِضَـاهِ وَرَوْقَـهُ بِفُـؤُوسِ[١]

وهي ناقة ناجية تغري الصحراء وهجيرها بضروب من السير يقول عبيد:

زَيَّافَـةٍ بِقُتُـودِ الرَّحْـلِ نَاجِيَـةٍ تَغْـرِي الهَجِـيرَ بِتَبْغِيـلٍ وإرْقَـالِ[٢]

وهكذا يتضح لنا أن وصف الناقة عند شعراء بني أسد كان مظهراً فردياً حاداً، عبر الأسديون من خلاله عما كان يعتمل في نفوسهم تجاه قضايا محددة، ومواقف معينة صاغها الشاعر كما يريد هو، وبث من خلال تلك الصياغة ما كان يود أن يقوله للآخرين، وكل ذلك جاء بصيغة المفرد البعيدة عن ضمير الجماعة الذي قد يحد من حرية الشاعر - أحياناً - ولو إلى حد ضئيل، وقد استطاع الشاعر الأسدي أن يحمل صورة الناقة أكثر من بعد نفسي مما كان يجول في نفسه، وأن يضمنها دلالات عميقة أحياناً، وقد جاءت الصورة كاشفة لبعض جوانب الحياة في تلك البيئة الجاهلية.

وإذا نظرنا إلى صورة الخيل وتطلعنا إلى رسم العلاقة التي تربط الشاعر بفرسه وجدنا أنفسنا لسنا بعيدين عن الصورة السابقة المتمثلة في علاقة الشاعر بالناقة، والواقع أن الفرس احتل منزلة خاصية عند الإنسان الجاهلي بعامة، وتبوأ مكانة عالية عند كل فارس بصورة خاصة، حيث كان يمثل الوسيلة الدفاعية وكذلك الهجومية في الحياة القبلية القائمة على الغارات والحروب، وهو على هذا دعامة مهمة من دعامات المعركة فيها قد تحقق الغاية ويبلغ الهدف وهو بالإضافة إلى ذلك وسيلة للصيد والترفيه والتسلية وقت السلم، وليس أدل على أهميتها من تخير سلالتها والتفاخر باقتنائها، وكثيراً ما نجد الشعراء الجاهليين يتغنون بأنساب خيلهم الكريمة، وقلما يخلو ديوان شاعر جاهلي من الحديث عن الخيل، والمبالغة في إكرامها، وحسن معاملتها، وأحياناً قد يناجي الشاعر فرسه ويتوجه إليه بالحديث - كما رأينا عند عبيد بن الأبرص الأسدي - وكما تحدث عامر ابن الطفيل إلى فرسه النجيب قائلاً:

---

١- انظر ديوان عبيد ص ٦٩.

٢- انظر المصدر السابق ص ١٠٢.

لَقَدْ عَلِمَ المَزْنُوقُ أَنِّي أُكُرُّهُ عَشِيَّةَ فَيْفِ الريحِ كَرًّا المُشَهَّرِ
وأنبأْتُهُ أنّ الفِرارَ خَزايَةٌ عَلَى المرءِ ما لَمْ يُبْلِ عُذراً فَيُعْذَرِ
ألستَ تَرى أرماحَهُمْ فِيَّ شُرَّعاً وأنتَ حصانٌ ماجدُ العِرْقِ فاصبرِ(١)

وشعراء بني أسد - كغيرهم من الشعراء الجاهليين - قد تحدثوا عن خيولهم وأفاضوا في ذكرها، وكان ذلك من خلال مجالات ثلاثة - فيما يبدو لنا - وأول هذه المجالات الصيد، وفرس الصيد عند الشاعر الأسدي يتمتع بصفات خاصة كما يريدها الشاعر، وكما حددتها الطبيعة - فيما يبدو - كي يفلح الصائد في مسعاه، والصفات التي يؤكد عليها الشاعر الأسدي دقة الأظلاف، وسعة الصدر، وسعة الحركة، ووفرة النشاط، بالإضافة إلى بعض الصفات الأخرى التي تتعلق بجمال الهيئة لتلك الفرس كنعومة الجسم وملاسته وقد اجتمعت هذه الصفات كلها لفرس عبيد إذ يقول:

وَقَدْ أَغْتَدِي قَبلَ الفَسطَاطِ وَصَاحِبِي أَمِينُ الشَّظَا رَخْوُ اللَّبانِ سَبُوحُ
إذا حَرَّكَتْهُ السَّاقُ قُلتَ مُجَنَّبٌ غَضِيضٌ غَذَتْهُ عُهدَةٌ وَسُرُوحُ
مَرَابِضُهُ القِيعَانُ فَردٌ كَأنَّهُ إذا ماتَماشِيهِ الظِّباءُ تَطِيحُ(٢)

وهو رغم هذه الصفات إلا أنه قد يفشل في اللحاق بالطريدة أحياناً فهو معرض للنجاح مثلما هو معرض للفشل يقول عبيد:

فَيُخفِقُ مَرَّةً وَيُفِيدُ أُخْرَى ويُلْحِقُ ذَا المَلامَةِ بالاريبِ(٣)

ولأول وهلة قد يتبادر إلى الذهن ذلك التشابه في وصف الخيل بين عبيد بن الأبرص وبين امرئ القيس بن حجر الكندي الشاعر المعروف، فأبيات عبيد تذكرنا بقول امرئ القيس: "وقد اغتدى والطير في وكناتها" في معلقته ولكن عبيد ألم يستغرق في وصف الفرس كما فعل امرؤ القيس الذي أبدع في رسم صورة فرسه، على حين رأينا عبيداً مكتفياً بتركيزه على صفات السرعة والأصالة وسهولة الجري.

والواقع أن كلا من عبيد وامرؤ القيس كانا متفقين في أكثر من موضع وفي أكثر من غرض، وأحياناً يصل بهما حد الاتفاق إلى وحدة القافية، وقد عالج هذه النقطة الدكتور سيد حنفي في كتابه "الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية" (٤) وقد وفى الدكتور سيد هذه القضية بحثاً ولا نريد الخوض فيها في هذا البحث، وخاصة ما قاله الدكتور سيد هو أن امرؤ القيس كان تلميذاً لعبيد بن الأبرص - نديم والده حجر بن الحارث - وليس ببعيد أنه تأثر به بل روى له الشعر في أثناء صغره، وبخاصة أنه كان يعيش بين ظهراني بني أسد، ولعل كل توافق في هذا المجال مرده إلى هذا التأثر والتأثير بين الشاعرين، ونحن لا نستطيع التسليم بهذا الرأي فلم يرد إلينا ما يشير إلى أن امرأ القيس

---

١- انظر ديوان عامر بن الطفيل ص ٦٢ طبع بيروت ١٩٦٢.
٢- انظر ديوان عبيد ص ٣١.
٣- انظر المصدر السابق ص ٢٩.
٤- انظر الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية للدكتور سيد حنفي ص ٦٢ وما بعدها.

كان راوية لعبيد، فكل ما وصل إلينا أن امرأ القيس كان معاصراً لعبيد، وأن عبيد كان أكبر منه سناً كما تشير الأخبار، وكما يبدو من شعره، أفنعد كبر السن دليلاً على التلمذة؟ وإذا كان الأمر كذلك فماذا نصنع بخبر أبي الفرج في الأغاني الذي مفاده أن عبيداً لم يقل الشعر إلا بعد أن تقدمت به السن»[١] بينما تدل الروايات على أن امرأ القيس قد قال الشعر صبياً وأن والده طرده نتيجة لهذا الأمر[٢] وأياً ما كان الأمر فان الرأي الراجح هو أن كلا الشاعرين عبيد وامرؤ القيس ربما تأثرا بمن سبقهما أو عاصرهما، في هذا المجال وهو أبو دؤاد الإيادي. فعبيد كان ـ كما نعلم ـ يتردد على بلاط الحيرة، وليس ببعيد أنه كان يلتقي هناك بأبي دؤاد ويسمع منه شعره في وصف الخيل شأنه في ذلك شأن امرئ القيس الذي يروي لنا ابن رشيق خبراً عنه في هذا الصدد وأنه كان يتوكأ على أبي دؤاد ويروي شعره[٣] ثم أن الشاعرين عبيداً وامرئ القيس هما من أبناء بيئة واحدة، وقد خضعا لمؤثرات طبيعية واجتماعية شبه موحدة، فلا عجب أن يصدر شعرهما متفقاً في بعض نواحيه، فالمنابع واحدة عند كليهما. وقد يتفق أكثر من شاعر في القافية والبحر العروضي بل في بعض الكلمات والتعبيرات أحياناً ومثل هذا وارد في الشعر الجاهلي.

وإذا كنا قد وقفنا على فرس الصيد عند عبيد بقي فرس الحرب، وهو المجال الثاني الذي أفاض فيه شعراء بني أسد في وصف خيولهم وتصوير علاقاتهم بها، فهذا عبيد يرسم لنا صورة مفصلة لفرسه في الحرب حيث يقول:

وأَمِيرِ خَيْلٍ قَدْ عَصَيْتُ بِنَهْدَةٍ ... جَرْدَاءَ خَاطِيَةِ السَّرَاةِ جَلُوسِ
خُلِقَتْ عَلَى عُسُبٍ وَتَمَّ ذَكَاؤُهَا ... وأَحَالَ فِيهَا الصُّنْعُ غَيْرَ نَحِيسِ
وإذا جُهِدْنَ وقَلَّ مَاءُ نِطَافِهَا ... وَصَلَقْنَ فِي دَيْمُومَةٍ إِمْلِيسِ
تَنْفِي الأَوَاثِمُ عَنْ سَوَاءِ سَبِيلِهَا ... شَرَكَ الأَحِزَّةِ وهْيَ غَيْرُ شَمُوسِ
أَمَّا إذا اسْتَقْبَلْتَهَا فَكَأَنَّهَا ... ذَبُلَتْ مِنَ الهِنْدِيِّ غَيْرُ يَبُوسِ
أَمَّا إذا مَا أَدْبَرَتْ فَكَأَنَّهَا ... قَارُورَةٌ صَفْرَاءُ ذَاتُ كَبِيسِ[٤]

ففرس الحرب عند شاعرنا يجب أن تكون مقتدرة قوية لأنها طرف مهم في المعركة وربما توقفت على مميزاتها أشياء كثيرة في ساحة المعركة، ولهذا فقد جاءت صورة الفرس المحاربة جامعة للصفات المعنوية والمادية معاً، فهي هنا مرة الجسم، ملساء المتن، جميلة الطلعة، قليلة شعر العرف مكتنزة الظهر، موثقة الخلق، دقيقة القوائم، وهي بالإضافة إلى ذلك كله سريعة الجري تنهب الأرض نهباً وتنفي بقية الحيوانات خلفها.

والحقيقة أن فرس الحرب حظيت باهتمام ملحوظ وعناية كبرى من قبل شعراء هذه القبيلة، ولعل حياة هذه القبيلة الحربية قد فرضت عليها مثل هذا الاهتمام، وبخاصة شعراؤها الذين رسموا لنا صوراً عديدة لهذه الفرس توفرت فيها كل أسباب النجابة والتفوق والجمال أيضاً، وقد جاءت تلك

---

١ـ انظر الأغاني الجزء ١٩ ص ٨٤.
٢ـ انظر المصدر السابق الجزء الثامن ص ٩٥.
٣ـ انظر العمدة لابن رشيق الجزء الأول ص ٦١.
٤ـ انظر ديوان عبيد ص ٦٩، ٧٠.

الصور عاكسة لقدرات كل شاعر منهم، وأول هؤلاء الشعراء عبيد بن الأبرص الذي يرسم لنا صورة ثانية لفرسه حيث يقول:

وَلَقَدْ أَذْعَرُ السُّرُوبَ بِطَرْفٍ ... مثلِ شَاةِ الإِرَانِ غيرِ مُذَالِ
غيرِ أَقْنَى ولا أَصَكَّ وَلَكِنْ ... مِرْجَمٌ ذُو كَرِيهَةٍ وَنَقَالِ
يَسبقُ الأَلفَ بِالمُدَجَّجِ ذي القَوْ ... نَسِ حتى يَؤُوبَ كالتِّمثالِ
فهْوَ كالمِنْزَعِ المَرِيشِ مِنَ الشَّوْ ... حَطِ مالَتْ بهِ شِمالُ المُغالِي
يغفِرُ الظَّبْيَ والظَّلِيمَ ويُلْوِي ... بِلَبُونِ المَعْزابَةِ المِعْزالِ(١)

لقد صور عبيد فرسه مسبغاً عليها ما من شأنه أن يرتفع بها إلى درجة المثال، فهي تذعر جماعات الخيل المجتمعة وتفرقها، وهي فرس كريمة النسب نشطة كثور وحشي خفيف الحركة، وهي معززة غير مهانة تحسن معاملتها، وفوق ذلك فقد حوت من أسباب الجمال ما يؤهلها لأن تكون على درجة علية من جمال المنظر والمخبر، فليس فيها عيب مما تعاب به الخيل كطول أنف أو فطس أو اصطكاك في رجليها، وفرس عبيد سريعة إلى حد أنها ترجم الأرض بحوافرها في أثناء الجري، والأهم من ذلك كله فهي صبورة على الشدائد والمكاره.

وقد يهم الشاعر في فرس الحرب الصفتان الأخيرتان أكثر من بقية الصفات لاسيما إذا كان فارساً، لأنه في حالة كر وفر، وهو يحتاج إلى فرس مثل تلك يطمئن بها على قدرته على المحاورة والمناورة، وإذا كنا قد وقفنا على صورة فرس عبيد في مجالي الصيد والحرب، فلنعرج على شاعر أسدي آخر هو سحيم عبد بني الحسحاس حيث نراه يرسم صورة فرس الحرب فقط يقول سحيم:

وَخَيْلٍ تَكَدَّسُ بالدَّارِعِيـ ... نَ مَشْيَ الوُعُولِ تَؤُمُّ الكِهَافَا
ضَوَامِرَ قَدْ شَفَّهُنَّ الوَجِيـ ... فُ يُثِرْنَ العَجَاجَةَ دُونِي صِنافَا
تَقَدَّمْتُهُنَّ عَلَى مِرْجَلٍ ... يَلُوكَ اللِّجَامَ إذا ما اسْتَهَافَا
يُبَارِي مِنَ الصُّمِّ خَطِّيَّةً ... مُقَوَّمَةً قَدْ أُمِرَّتْ ثِقَافَا(٢)

إن الشاعر ـ هنا ـ يصف الفرس المحاربة حين تجهز للمضي إلى المعركة، والواقع أن سحيما قد أجاد في تصويره هذا للفرس في حالة تأهبه لخوض غمار المعركة، وطبيعي أن يجيد سحيم مثل هذا الضرب من الوصف ذلك لأنه عبد رقيق لا يغزو ولا يحارب في الغالب، وقصارى ما يفعله هو أن يجهز الفرس لسيده، وبالتالي فهو أقرب إليه من صاحبه في تلك اللحظات، وأقدر على تصوير انضاله وخلجاته من سواه.

أما الشاعر عمرو بن شأس الأسدي فنقع عنده على صورة لفرس الحرب غير واضحة المعالم، وأغلب الظن أن ما قاله هذا الشاعر في هذا قد أتى عليه الضياع. ذلك أن عمرو بن شأس شاعر فارسي، وليس من المعقول أن لا يهتم بفرسه كما اهتم بها الشعراء الفرسان من أبناء قبيلته، كعبيد

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ١٠٩ وانظر ديوانه ص ٥٩، ١٠٢ حيث يصف فرس الحرب أيضاً.

٢ـ انظر ديوان سحيم ص ٤٦ والوجيف: السرعة في السير وانظر ديوان سحيم ص ٣٩، ٤٢، ٥٠ ففيها للفرس المحاربة وله إشارة واحدة إلى فرس الصيد وهي انه يرد هوادي الوحش.

بن الأبرص وبشر بن أبي خازم. ولعل مما يرجح ما ذهبنا إليه هو بقايا هذه النتف التي يتعرض فيها لذكر فرس الحرب، مما يدل على أنها ربما كانت مطالع قصائد ضاعت أو نهايات لها. من مثل قوله:

وأفْرَاسُنا مثْلُ السَّعَالِي أصَابَهَا ... قطارٌ وبلّتهَا بنافِجَةٍ شَمْلُ(١)

ويقول في موضع آخر:

مُضَبَّرةٌ قُبُّ البُطُون تَرَى لَهَا ... مُتوناً طِوالاً أُدمِجَتْ وَشَوىً عَبْلا

إذا امتُحِنَتْ بالقَدِّ جَاشَتْ وأزْبَدَتْ ... وإنْ راجَعَتْ تَقْرِيبَها نَقَلَتْ نَقْلا

نَفَيْنَا سُليماً عن تِهامَةَ بالقَنَا ... وبالجُردِ يَمْعَلْنَ السِّخَاخَ بِنَا مَعْلا(٢)

ففرس عمرو ضامرة البطن، ووافرة الصحبة، موثقة الخلق، وهي فوق هذا سريعة مرحة، تعدو بكل حيوية ونشاط في الأرض الصلبة أو الرطبة، وتكتمل صورة فرس عمرو بن شأس المثالية لفرس الحرب بتوافر الصفات التالية فيه حيث يقول:

مُدْمَجٍ سَابِغُ الضُّلُوعِ طَوِيلُ الشَّـ ... ـخصِ عَبْلُ الشَّوَى مُمَرُّ الأعَالِي(٣)

وعلى أية حال فان الشاعر في رسمه لصورة فرسه لم يخرج عما ألفناه من صفات عند غيره من شعراء بني أسد، وما كانوا يريدونه في فرس الحرب من أصالة ونجابة وسرعة ونشاط.

والواقع أننا لا نستطيع أن نتبين صورة الفرس لدى شعراء هذه القبيلة ما لم نقف على صورتها عند الشاعر الفارس بشر بن أبي خازم، الذي أكثر من الحديث عن فرسه، وهذا أمر طبيعي لأنه قائد من قواد بني أسد وسيد كريم من ساداتها، وقد اشترك في أهم أيام القبيلة التي كان النصر فيها حلف بني أسد كيومي النسار والجفار وعكاظ(٤) ونلمس في حديث بشر عن فرسه الزهو والإعجاب، وهو أكثر ما يتحدث عنه في معرض سوقه لانتصارات قبيلته على الأعداء ومن أهم الصفات الواجب توافرها في فرس بشر أنه فرس كريم يبدو غرموله كزق خمر فارغ علقه التاجر على صدر متجره، وهو فرس معتنى بغدائه فهو يأكل العشب اليابس عشاء، وهو فرس جسيم ضامر، وهو كالحبل في متانة منسجه يباري الركبان إذا ساروا، وهو بالإضافة إلى ذلك واسع المنخر غير كتوم للنفس عند الجري، تلك أهم صفات فرس الحرب عند بشر بن أبي خازم، ولنسمعه في إحدى قصائده يصف لنا مثل هذه الفرس حيث يقول:

وخِنْذِيذٍ تَرَى الغُرْمُولَ مِنْهُ ... كَطَيِّ الزِّقِّ عَلَّقَهُ التِّجَارُ

يُضَمَّرُ بالأصَائِلِ فَهْوَ نَهْدٌ ... أقَبُّ مُقَلِّصٌ فِيهِ اقْوِرَارُ

كَأنَّ سَرَاتَهُ والخَيْلُ شُعْثٌ ... غَدَاةَ وَجِيفِهَا مَسَدٌ مُغَارُ

يَظَلُّ يُعَارِضُ الرُّكْبَانَ يَهْفُو ... كَأنَّ بَيَاضَ غُرَّتِهِ خِمَارُ

---

١- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٦٩ وانظر شعره ص ٧٠، ٥٣ ففيه إشارتان في بيتين لذكر الخيل.

٢- انظر سعر عمرو بن شأس ص ٤٠.

٣- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٧٦.

٤- انظر حروب القبيلة في الباب الأول من هذا البحث.

كـــأنَّ حَفِيـــفَ مِنْخَـــرِهِ إذَا مَـــا   كَتَمْـــنَ الرَّبْـــوَ كِيـــرٌ مُسْـــتَعَارُ
ومَـــا يُدْرِيكَ مَـــا فَقْـــرِي إِلَيْـــهِ   إِذَا مَـــا القَـــومُ كَـــرّوا أَوْ أَغَـــارُوا (١)

ولعلنا ندرك العلاقة الوطيدة التي تربط بين شخص الشاعر الأسدي وبين فرسه، وهي علاقة واضحة جلية من خلال شعرهم بما لا يحتاج إلى استقصاء أكثر من الباحث، ويبدو أنها علاقة نابعة من واقع الحياة المعاشة حين ذلك، ولعلنا نرى فيها ملامح الصدق والحب وتبادل الأحاسيس بين الشاعر وفرسه علاوة على أنها قد كشفت لنا بعض جوانب نفسية الشاعر الأسدي، الذي رأيناه معتزاً إلى أبعد الحدود بعدته الحربية.

ولعل المتتبع لصورة الفرس عند الشاعر الأسدي بشر بن أبي خازم يرى أن الشاعر قد ركز في أكثر من موضع على صفة العناد في فرسه، ومن مظاهر ذلك العناد قطعها لحزام السرج أثناء المعركة نتيجة لكثرة حركتها وسرعتها، مما يفيدنا بقوة شكيمتها وذاك من مثل قوله:

عَلَـــى جَـــرْدَاء يقطَـــعُ أَبهَرَاهَـــا   حِـــزَامَ السَّـــرْجِ في خيـــلٍ سِـــرَاعِ(٢)

ويقول في موضع آخر على هذه الميزة:

بكُـــلِّ قِيَـــادِ مُسْـــنَفَةٍ عَنُـــودٍ   أَضَـــرَّ بهـــا المَسَـــالِحُ والغِـــوَارُ
نُسُـــوفٍ للحِـــزَام بمِرْفَقَيْهَـــا   يَسُـــدُّ خَـــوَاءَ طُبْيَيْهَـــا الغُبَـــارُ
مُهَارِشَـــةِ العِنَـــانِ كَـــأَنَّ فِيـــهِ   جَـــرَادَةَ هَبْـــوَةٍ فِيهَـــا اصْفِـــرَارُ(٣)

إننا لنشعر بأن عناد هذه الفرس نابع من إصرار الشاعر على مواجهة أعدائه، ولعله أراد بهذا التصوير أن يبرز لنا تعجله واشتياقه لملاقاة خصومه فلجأ إلى هذه الطريقة الطريفة في التعبير عما أراد تبيانه، وفوق هذا وذاك فلابد من توفر صفة الصبر في هذا الفرس، ولقد ألح معظم الشعراء في الجاهلية على هذه الصفة، ومنهم الشعراء الأسديين في أثناء خوضهم للمعارك ومن ذلك ما قاله بشر:

عَلَـــى ربـــذٍ قَوَائِمُـــهُ إِذَا مَـــا   شَـــأَتْهُ الخَيْـــلُ يَنْسَـــرِبُ انْسِـــرَابَا
صَبُـــوراً عَنـــدَ مُخْتَلَـــفِ العَوَالِـــي   إِذَا مَـــا الحَـــرْبُ أَبـــرَزَتِ الكِعَابَـــا
وَطَـــالَ تَشَـــاجُرُ الأبطَـــالِ فيهَـــا   وأَبـــدَتْ نَـــاجِذاً منْهـــا ونَابَـــا(٤)

وقد مر بنا في هذا الفصل كيف حاور عامر بن الطفيل فرسه المزنوق وحثه على الصبر والثبات لأن الهزيمة عار وخزي، ولكن بشرا يسوق لنا هزيمة الطفيل أما خيل بني أسد على الرغم من أصالة فرس الطفيل ولجابته يقول بشر:

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ٧٦ ـ ٧٨.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ١١١ وانظر ص ١٨٨ حيث يركز على الصفة ذاتها.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٧٥، وانظر ص ٤٧.
٤ـ انظر المصدر السابق ص ٢٨.

أمـا طُفيـلٌ فنجّـاهُ أخُـو ثِقَـةٍ ... مـنْ آل أعـوَجَ يَعـدُو وهْـوَ مُشْـتَرِفُ
مُزَلَّـمٌ كَصَلِيـفِ القِـدِّ أَخْلَصَـهُ ... إِلى نَحِيزَتِـهِ المِضْمَـارُ والعَلَـفُ(١)

ويزيد بشر ـ على شعراء بني أسد ـ في وصف فرس الحرب بأنْ يجعل لها بديلاً، فهو لا يكتفي بفرس واحدة في أثناء المعركة بل ربما أبدل بها إذا تعبت فرساً أخرى مجهزة لمثل هذه الظروف، ففرسان بني أسد لا يمشون قط في المعارك على أرجلهم يقول بشر:

ومَـا يَسْـعَى رجـالُهُمُ وَلكِـنْ ... فضُـولُ الخَيْـلِ مُلْجَمَـةٌ صِيـامُ
فبـاتَتْ لَيْلَـةً وأدِيـمَ يَـوْمٍ ... عَلَـى المِهْـى يُجَـرُّ لَهـا الثِّغَـامُ
فلمّـا أَسْـهَلَتْ مِـنْ ذِي صَبَـاحٍ ... وسـالَ بِهَـا المَدافِـعُ والإِكَـامُ
أَثَـرْنَ عَجَاجَـةً فخَرجْـنَ مِنْهَـا ... كمـا خَرَجَـتْ مـنَ الغَـرَضِ السِّـهَامُ
ينـازِعْنَ الأَعِنَّـةَ مُصِغِيَـاتٍ ... كمـا يتَفَـارَطُ الثَّمَـدُ الحَمَـامُ(٢)

ويذهب ببشر الأمر إلى أبعد من هذا في وصف الخيل فقد غدت عنده شعلة من دم نتيجة لما تراكم عليها من دماء الأعداء حتى غطى أجسادها، وصورة بشر هذه على ما فيها من مبالغة إلا أنها لا تخلو من الجمال والإشارة إلى كثرة حروب هذه القبيلة يقول:

نَعْلُـو القَوَانِـسَ بالسُّـيوفِ ونَعْـتَزِي ... والخَيْـلُ مُشْـعَلَةُ النُّحُـورِ مِـنَ الـدَّمِ
يَخرُجْـنَ مِـن خَلَـلِ الغُبَـارِ عَوابِسـاً ... خَبَـبَ السِّباعِ بِكُـلِّ أَكْلَـفَ ضَيْغَـمِ(٣)

ويخاطب شاعر أسدي آخر هو الكميت بن معروف أعداءه مهدداً إياهم بتلك الخيل المسومة التي قد عرفوها، وخبروا فعلها وفعل فرسانها قائلاً:

فـإنَّ لنَـا الخيـلَ التِـي كنـتَ تَتَّقِـي ... بفُرسـانِهَا يَـومَ الصِيَـاحِ العَوالِيَـا(٤)

ويفخر الكميت بخيول بني أسد الكريمة النسب فيقول:

نَجَـائِبُ مِـنْ آلِ الوجيـهِ ولاحِـقٍ ... تُذَكِّرُنـا أحْقَادَنـا حِـينَ تَصْهَـلُ(٥)

فالشاعر يبوح لنا بالسبب الحقيقي الذي دفعه لاقتناء هذه الخيول النجيبة، وقد ربط لنا الشاعر بين صهيل هذه الخيل وبين جو الحرب، وكأن هذه الخيل بصهيلها تذكر الأسديين الفرسان بأعدائهم وتدفعهم إلى محاربتهم، ومثل الكميت بن معروف الجميح حيث يتوعد بالانتقام على صهوات الخيول الأسدية الجرد من أعداء وقاتلي خالد بن نضلة الأسدي فيقول:

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ١٤٠ وطفيل هو أبو الفارس المشهور عامر بن الطفيل من بني جعفر بن كلاب بن عامر بن صعصعة.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ٢٠٩ وما بعدها.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ١٨١.
٤ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.
٥ـ المصدر السابق.

يَنْعُونَ نَضْلَةَ بالرِّمَاحِ علَى جُرْدٍ تَكَدَّسُ مِشْيَةَ العُصْمِ
مِنْ كُلِّ مُشْتَرِفٍ وَمُدْمَجَةٍ كالكَرِّ مِنْ كَمْتٍ وَمِنْ دُهْمِ(١)

والجحيم في رسم صورة فرس الحرب يؤكد على صفة السرعة حيث يقول:

يَغْدُو بِهِ قَارِحٌ أَجَشُّ يَسُوءُ الخَيْلَ نَهْدٌ مُشاشُهُ زَهِمُ
لَوْ خَافَكُمْ خالدُ بْنُ نَضْلَةَ نَجَّتْهُ سَبُوحٌ عِنانُها خَذِمُ
جرداءُ كالصعدةِ المُقامَةِ لا قُرٌّ زَوَى مَتْنَها ولا خَرِمُ(٢)

ولعل صورة فرس أبي سمال الأسدي لا تختلف كثيراً عن صفات الخيول الأسدية الأخرى، وهي لا تقل في مميزاتها عما تتمتع به بقية الخيل الأسدية من صفات يقول أبو سمال:

وَخَيلٍ دَعَتْنِي للنِّزَال أَجَبْتُهَا وفِي الكَفِّ مِنِّي مَشْرَفِيٌّ مُذَكَّرُ
وَتَحْتِي طِمِرٌّ مُسْتَطَارٌ فُؤادُهُ سَلِيمُ الشَّظَا نَهْدٌ كُمَيْتٌ مُضَمَّرُ(٣)

وهكذا نرى هذه الخطرات من شعراء بني أسد وهو يرسمون صورة للفارس المحارب وكذلك لفرس الصيد، ولا ريب في أنهم قد حملوها من المضامين الإنسانية، وأضفوا عليها ما كانوا يرغبون في وجوده في الفرس من صفات تتلاءم مع الواقع الجاهلي الذي عاشوه، وقد جاءت صورة نابضة بالحياة، معبرة عن جوانب معينة في نفوس الشعراء، وكاشفة عن مدى تلك العلاقة بين الشاعر وفرسه، وهي علاقة أقل ما يقال فيها. أنها علاقة وثيقة لأنها ترتبط بالحياة مباشرة، ولعلنا لا نبالغ إذ نقول: أن الشاعر الأسدي بفرسه قد فاقت علاقته بناقته، وكانت أكثر صفاء وأقل نفعية ـــ إن صح التعبير ـ ولعل هذا الاهتمام الكبير الذي أولاه الشاعر الأسدي لفرسه ـ وبخاصة في مجال الحرب ـ إنما يعكس اهتمام هذه القبيلة وميلها إلى الحرب ومدى حاجتها إلى الخيول، ولقد كان الشاعر الأسدي ـ واقعياً في تصويره لعلاقته مع فرسه، وهو وان بالغ ـ في بعض الأحيان، ـ في هذا التصوير فانه يبقى ضمن دائرة المعقول، ولعله أراد أن يرهب أعداءه أحياناً بذكره فضائل هذا الحيوان الذي لعب دورا كبيراً في حياة الجاهليين بعامة، ومن الملاحظ أن صور الفرس المحاربة كانت مجتزأة وغير مفصلة كما ينبغي، أو كما سنرى في رسم صورة فرس أخرى في مجال آخر هو مجال إحساس الشاعر بجمال هذه الفرس، ولعل ذلك عائد إلى أن الشعراء كانوا يرسمون صورة الفرس المحاربة وهم في عجلة من أمرهم، ووقعتهم لا يتسع لمثل ذلك التفصيل، وعلى الرغم من ذلك كله فقد جاءت صورهم للفرس واضحة في كثير من جوانبها مما يعطينا فكرة لا بأس عليها في تصور هيئة فرس الحرب وطباعها وما ينبغي أن تكون عليه

ويبقى المجال الثالث ـ والأخير ـ في وصف وتصوير الفرس عند شعراء بني أسد يحسن بنا الوقوف عليه، وهذا المجال هو إحساس الشاعر الأسدي ـــ بجمال فرسه، واعترافه بدوره الفعال في حياته،

١ـ انظر المفضليات ص ٣٦٦.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ٣٦٥.
٣ـ انظر المعمرين ص ٦٥ ـ ٦٦.

وقربه من قلبه ومدى حسن معاملته وإعزازه.

فقد رأى الشاعر الأسدي في هذا الحيوان مخلوقاً جميلاً وفياً، إلى جانب ما كان يؤديه من خدمات في مجالي الحرب والسلم، ولقد سجل الشاعر الأسدي ما كان يدور بينه وبين أفراد أسرته من نزاع وخصام حول إكرام هذه الفرس، وهو حوار يدل على ما كان يشعر به ويحسه تجاه فرسه من عاطفة وحب وما كان يراه فيه من جمال هيئة وحسن طلعة.

وقد حفظ لنا التاريخ بعض هذه الصور لشعراء من بني أسد كالتي نراها عند حاجب بن حبيب الأسدي وهو يخاطب زوجه التي عرضت عليه بيع فرسه "ثادق" للانتفاع بثمنه المرتفع من جهة، وللخلاص من طعامه وما يكلفه هذا الفرس من أعباء معيشية في ظل ظروف اقتصادية ربما كانت ضعبة، وربما كان ذلك الموقف من الزوجة نابعاً من غيرتها كامرأة ترى اهتمام زوجها منصرفاً أكثره إلى ذلك الحيوان ورعايته ودلاله - إن صح التعبير - يقول حاجب بن حبيب:

بـاتَتْ تلـومُ عَلَـى ثـادِقٍ ... لِيُشْـرىَ فَقَـدْ جَـدَّ عِصْيانُهـا

ألا إنَّ نَجـواكِ في ثـادقٍ ... سـواءٌ عَلَـيَّ وإعلانُهـا

وقـالتْ أغِثْـنا بِـهِ إنَّنِي ... أرَى الخَيْـلَ قَـدْ ثـابَ أثمانُهـا

فقلـتُ ألَمْ تعلمـي أنَّـهُ ... كريـمُ المَكَبَّـةِ مِيدانُهـا

كُمَيْـتٌ أمِـرَّ عَلَـى زَفْـرَةٍ ... طويـلُ القوائِـمِ عُرْيانُهـا

تـراهُ عَلَـى الخَيْـلِ ذا جُـرأةٍ ... إذا مـا تَقَطَّعُ أقرانُهـا

وَهُـنَّ يَـرِدْنَ وُرُودَ القَطَـا ... عُمَـانَ وَقَـدْ سُـدَّ مُرّانُهـا

وقلـتُ ألَمْ تعلَمـي أنَّـهُ ... جميـلُ الطُّلاَلَـةِ حُسّـانُها

يَجِـمُّ عَلَـى السَّـاقِ بَعْـدَ المِتـانِ ... جُمومـاً وَيَبْلُـغُ إمكانُهـا(١)

والواقع أن الناظر في وصف حاجب الأسدي لفرسه سيجد كلف الشاعر البعيد وحبه الكبير لثادق، وهو يتحدث عنه كما لو كان أحد أبنائه وليس مجرد فرس عادي، ويأخذه العجب بل الإنكار على زوجته وهي تطلب منه هذا الطلب الغريب ببيع ثادق لقاء شيء من المال، ورغم أن حجج الزوجة فيها شيء من المنطق الذي يسوغ لها أن تطلب بيع ثادق إلا أن حاجبا يرفض بشدة هذا الأمر، ويرد هو الآخر بحجج أكثر منطقية على زوجته، وقد كان مقنعاً في رفضه بيع تلك الفرس برغم ارتفاع ثمن الخيل، فلقد أبرز لنا من خلال ذلك الرفض مدى ذلك الحب وتلك الصلة الوجدانية القائمة بينه وبين فرسه، كما أفصح لنا عن كفاءات ثادق وما يتمتع به من خصال، ولعل صفة القوة والحيوية في الحرب والصيد تأتي في المرتبة الأولى من بين تلك الخصال والمميزات.

وقد أضاف حاجب عناصر جمالية أخرى على ثادق من حسن الطلعة، وسهولة جري وحسن صوت، وجمال هيئة وجسم، وكرم نسب، وقد بدا ثادق قريباً من نفس الشاعر أثيراً لديه إلى حد بعيد، فقد حوى كثيراً من القيم المادية المطلوبة في الفرس كالقوة والصلابة، وكذلك القيم الجمالية من حسن هيئة وجمال خلق، والواقع أن حاجبا يعد من أكثر الشعراء الأسديين نظرة إلى المناحي الجمالية في الخيل - كما يبدو لنا من خلال هذه القصيدة، وليس معنى هذا أن بقية شعراء القبيلة لم

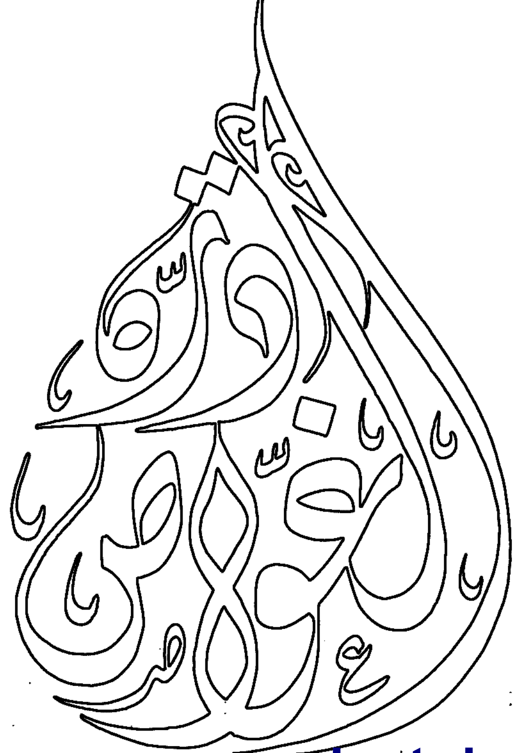
---

١- نظر المفضليات ص ٣٦٨.

يلتفتوا إلى مثل تلك النواحي في الفرس، فبشر بن أبي خازم يضفي قيمة جمالية على غرة فرسه في قوله:

يَظَلُّ يُعَارِضُ الرُّكبَانَ يَهْفُو ... كَأَنَّ بيَاضَ غُرَّتِهِ خِمَارُ(١)

والواقع أن شعراء بني أسد قد لمسوا جمال هذا الحيوان، وأشاروا في وصفهم له إلى هذا الجمال إلى أنهم لم يفصلوا تلك القيم الجمالية له، ولعل انشغالهم بالحروب كان مانعهم من ذلك، إلا أننا نشعر بوجوده في أشعارهم التي رأينا، وعلى أية حال فان الملاحظ على شعراء بني أسد هو عدم رسمهم صورة متكاملة لهذا الحيوان، كما هو الحال في رسم صورة الناقة - مثلاً - وإنما كانوا يأتون على ذكره في البيت والبيتين أو أكثر قليلاً، وأغلب ما ورد من صور لهم في هذا المجال كان مقترناً بالحديث عن الحرب كما رأينا، ويبدو أن انشغال الشعراء الفرسان بأمور الحرب وأحداثها هو الذي منعهم من رسم صورة موسعة للفرس، شأنهم في ذلك شأن أغلب شعراء الجاهلية الآخرين، والذي بين أيدينا من شعر بني أسد يشير إلى أن شعراء هذه القبيلة لم يكن لهم منهج معين في وصفهم للفرس، ولقد جاءت صورة بشكل إجمالي يدور في الغالب حول صفات القوة والصلابة والصبر في المعارك، بالإضافة إلى السرعة وضمور الجسم ودقة القوائم وضخامة المتن، وقد حرص شعراء بني أسد على إبراز هذه الصفات في خيولهم و لم يدخروا جهداً في ذلك، وقد استعانوا بمختلف الوسائل التعبيرية للإفصاح بجلاء عن تلك الخصال والمميزات، ونلحظ كثرة التشبيه عندهم في هذا المجال، وإذا كنا قد رأيناهم يفرغون لوصف الناقة بعد الانتهاء من مقدماتهم الطللية عادة، فإننا لا نراهم كذلك في تصويرهم للخيل، فقد جاءت صورهم لها متناثرة في ثنايا القصائد على غير اتفاق أو مكان محدد من القصيدة.



١ـ انظر ديوان بشر ص ٧٣ ـ ٧٤.

# ظاهرة المدح الفردي في شعر بني أسد:

عرفت شبه الجزيرة العربية ـ قديماً ـ أكثر من نمط للحياة، فهناك الحياة البدوية الصرفة التي تعتمد على الرعي بالدرجة الأولى، ويمثل هذا النمط عرب نجد وصحراء النفوذ واليمامة والدهناء بوجه خاص، وقبيلة بني أسد ـ كما تشير الروايات ـ كانت من سكان هذه المنطقة ـ، فقد كانت منازلها في أقصى الشمال الغربي من نجد على الطريق من تيماء إلى حائل والقصيم، فهي على هذا قبيلة رعوية بالدرجة الأولى حياتها بسيطة في المأكل والملبس، ولكنها ليست سهلة كما يقول الدكتور شوقي ضيف فهي حياة مليئة بالمخاوف والمخاطر(١).

وإذن: فقد كانت حياة الأسديين حياة حربية دامية ضد تلك المخاطر المتنوعة، ويمكننا القول: بأن حياة الفرد في قبيلة بني أسد وغيرها من القبائل العربية التي عرفت هذا النوع من الحياة كانت تعتمد إلى حد كبير وبعيد على الحرب ـ في أغلب الأحيان ـ فالقبيلة أما مغيرة أو مغار عليها، وقد تحولت هذه الحياة الحربية من بعض وجوهها إلى مصدر رزقهم، إذ كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف»(٢).

فالغزو وما يخلفه من غنائم علاوة على الصيد والرعي عماد الحياة عندهم، ويبدو أن الشعراء في الجاهلية كانت لهم مصادر رزق أخرى من ذوي الأمر، ورؤساء القبائل، وأجواد العرب. ولعل هذه المصادر كانت خاصة بالشعراء من أسديين وغير أسديين لا ينازعهم فيه أبناء قبائلهم، فمدح الأمراء وذوي الغنى والجاه والسادة كان معروفاً في الجاهلية، وقد رأينا أكثر من شاعر جاهلي قد ولج مثل هذا الباب، ولعل معرفتنا أن شبه الجزيرة العربية كانت مسرحاً للخلافات السياسية، والمنازعات بين القبائل العربية بعضها مع بعض من جهة، وبين آل نصر اللخميين في الحيرة وآل غسان في الشام من جهة ثانية، يعيننا على فهم هذا الأمر، وبروز عنصر جديد في ذلك الصراع وهي إمارة كندة بزعامة أسرة آكل المرار قد زاد الأمر تعقيداً، فقد أصبح كل طرف من هذه الأطراف الثلاثة حريصاً على أن تنضوي أغلب القبائل العربية تحت نفوذه، وتخضع لسلطته، وتفيدنا الروايات أن علاقة شعراء بني أسد بن خزيمة بأمراء كندة كانت أظهر وأقوى منها عن علاقاتهم مع كل من إمارتي الحيرة وغسان، ويبدو أن هذه العلاقة قد بدأت وتوطدت منذ تمكن الحارث بن عمرو الكندي من بسط نفوذه على القبائل النزارية الشمالية بنجد، وكان ذلك بتوليه إمارة الحيرة من قبل ملك فارس وقت ذاك قباذ بن فيروز(٣) وتنصيب أبنائه ملوكاً على قبائل نجد ومنهم ابنه حجر الذي ملك بني أسد.

والواقع أن علاقة شعراء بني أسد لم تكن متصلة بالحارث نفسه، وإنما كانت مع أبنائه من ملوك القبائل العربية، وأول علاقة من هذا النوع تواجهنا هي علاقة عبيد بن الأبرص الأسدي ـ وهو أقدم الشعراء الجاهليين الأسديين الذين وصلت إلينا أشعارهم ـ بحجر بن الحارث وهي علاقة وثيقة كما

---

١ـ انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ٧٨ ـ ٧٩.

٢ـ انظر المرجع السابق للدكتور شوقي ضيف ص ٧٩.

٣ـ انظر الباب الأول من هذا البحث علاقة بني أسد بأمارة الحيرة.

يفهم من الروايات التي تذكر أن عبيداً كان نديماً لحجر بن الحارث[١].

والذي بين أيدينا من شعر عبيد لا يشير إلى مثل هذه العلاقة الوثيقة، فهو لم يكن كثير المدح لهذا الأمير الكندي، ولم نقع له على شعر يدل على الاستجداء سوى تلك القصيدة التي قالها أمام حجر بن الحارث عندما تأزمت الأمور، وأقدم حجر على نفي بني أسد إلى تهامة، وأهان سراتهم وأشرافهم، كما نقع على قصيدة أخرى في ديوانه تشير إلى وجود علاقة بينه وبين شراحيل بن الحارث الذي كان ملكاً على بني عامر، وفي هذه القصيدة نجد عبيداً يمدح شراحيل ويطلب نواله مسترفداً، ولعلنا نرد مثل هذا المديح من عبيد إلى مجاراة سياسة القبيلة في ذلك الوقت، ولا يمكننا أن نفسر مثل هذا المديح على أنه يقصد به التكسب، رغم أنه أبرز صفة الكرم في الممدوح إلى جانب صفة الشجاعة والجرأة. يقول عبيد:

وَإِلَى شُرَاحِيلَ الهُمَامِ بنصرهِ ... نصرَ الأَشَاءِ سَرِيُّهُ مُسْتَرْغَدُ
مِن سَيْبِهُ سَحَّ الفُرَاتِ وَحَمْلُه ... مُزَنُ الجِبَالِ وَنَبْلُهُ لا يَنْفَدُ[٢]

ونتصفح ديوان عبيد بن الأبرص فنقع على علاقة ثالثة له مع أبي كرب عمرو بن الحارث الذي كان ملكاً على بكر بن وائل، غير أننا لا نظفر بشيء يفيدنا عن تلك العلاقة، خلا قصيدة واحدة يخاطب فيها الشاعر عمرو بن الحارث المسمى "بأبي كرب" حيث تبدو لنا هذه العلاقة ليست وطيدة إلى حد الذي يمكن معه مقارنتها بعلاقته بحجر بن الحارث أو شراحيل بن الحارث يقول عبيد:

أَبلِغْ أَبَا كَرْبٍ عَنِّي وأُسرَتَهُ ... قولاً سَيَذهَبُ غوراً بعدَ إِنْجَادِ
يا عمرُو ما راحَ من قومٍ ولا ابْتَكَرُوا ... إلاّ ولِلمَوتِ في آثارِهمْ حَادِي
فإِنْ رَأَيتَ بِوادٍ حَيَّةً ذَكَراً ... فامضِ ودَعْنِي أُمَارِسْ حَيَّةَ الوَادِي
لأعْرِفَنَّكَ بعدَ المَوتِ تَنْدُبُنِي ... وفِي حَيَاتِي مَا زَوَّدتَنِي زَادِي
فإِنْ حَيِيتُ فَلاَ أَحْسِبُكَ فِي بَلَدِي ... وإِنْ مَرِضْتُ فَلا أَحْسِبْكَ عَوَّادِي[٣]

وتبدو نبرة الجفاء والغلظة واضحة في شعر عبيد وهو يخاطب الأمير الكندي، مما يرجح معه أن العلاقة لم تكن على ما يرام بين الرجلين، ولكنها ليست سيئة أيضاً، وهذا كل ما في ديوان عبيد بن الأبرص من شعر يتوجه به إلى مديح فرد من أسرته، سواء أكان من الأمراء والسادة أو غيرهم، وعلى أية حال فإننا نرى أن مديح هذا الشاعر الأسدي كان موجهاً لخدمة سياسة القبيلة، ومن موقع الحرص الشديد على مصالحها في ظل تلك الظروف الدقيقة التي كانت تمر بها قبيلة بني أسد، ولم يكن مدح عبيد بقصد التكسب أو ينل الرفد بقدر ما كان مديحاً سياسياً ـ إن صح التعبير.

ونغادر عبيداً إلى شاعر آخر هو بشر بن أبي خازم وأول ما يواجهنا به بشر هو مدحه لعمر بن الحارث "أبي كرب" فهناك أكثر من قصيدة في ديوانه تفيد أن الشاعر كان يقصد هذا الملك ليطلب

---

١ـ انظر ديوان عبيد المقدمة بقلم تشارلز لايل.

٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤٥.

٣ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤٨.

عطاءه، ويمدحه، ويحفزه على الجود والسخاء الذي غالباً ما كان من الابل، وربما كان من الجواري والقيان، فأما عطاء الابل فنحن نعرفه عند أغلب الجاهليين وهو الذي كان يدفع للشعراء عموماً، ولكننا تقف عند عطاء الجواري قليلاً لأن مثل هذا الأمر يثير انتباه الباحث وهو يستحق التسجيل، ولعل أسرة آكل المرار كانت كثيرة الجواري والقيان في تلك الفترة، فنحن رأينا زبيعة بن نوفل الأسدي يغنم جاريتين من جواري حجر بعد قتله[1].

ويحدثنا المرزباني عن تعليم امرئ القيس قيانه لشعر مرة بن الرواع الأسدي[2] ويبدو أن كثرة الجواري لدى أمراء وملوك كندة كانت تدفعهم إلى الرفد بها، ويمكن رد مثل هذا الرفد إلى سبب آخر وهو التنافس والتفاخر بين أسرة آكل المرار وبين غيرهم من ملوك المناذرة أو الغساسنة، وعموماً فقد كان الأمراء يهبون الجواري في الجاهلية وهذا أمر معروف، فهذا نابغة بن ذبيان يمدح المناذرة بهذه الخصيصة حين يقول في مدح النعمان بن المنذر:

الواهبِ المائةَ المِعْكاءَ زَيَّنَها ... سَعْدان توضَح في أَوْبارِها اللِّبَدُ
والراكضاتِ ذُيولَ الرَّيْطِ فانقَهَا ... بَرْدُ الهَواجرِ كالغِزْلانِ بالجُرْدِ[3]

قلنا إن عطاء أسرة آكل المرار لبشر بن أبي خازم كان إما إبلاً، وإما جواري وقينات، ولعله يشير إلى هذا في قوله يمدح عمرو بن الحارث:

فإلَى ابنِ أُمِّ إياسَ أَرْحَلُ ناقتِي ... عَمْرٍو سَتَنْجَحُ حاجَتِي أَوْ تَزْحَفُ
مَلِكٌ إذا نَزَلَ الوُفودُ ببابِهِ ... غَرَفُوا غَوارِفَ مُزْبِدٍ لا يَنْزِفِ
مُتَحَلِّبُ الكَفَّيْنِ غَيْرُ غُضُبَّةٍ ... جَزْلُ المَواهِبِ مُخْلِفٌ ما يُتْلِفُ
يَكْفِيكَ ما اجْتَرَحَتْ يَداكَ وَيَعْتَلِي ... ما كانَ مِنْ نَطَفٍ وما لا يَنْطَفُ
الواهِبُ البِيضَ الكَواعِبَ كالدُّمَى ... حُوراً بأيدِيهَا المَزاهِرُ تَعْزِفُ
يُعْطِي النَّجائِبَ بالرِّحالِ كأنَّها ... بَقَرُ الصَّرائِمِ والجِيادِ تَوذَّفُ[4]

وإذا نظرنا إلى القصيدة المادحة عند شعراء هذه القبيلة وجدناها أوضح ما تكون وأكمل عند بشر بن أبي خازم، الذي اقترب بها من كمال النية - إن صح التعبير - وربما استطعنا أن نقول أن بشراً يمثل مرحلة متقدمة من نضج هذا اللون الشعري عند بني أسد بعامة، فهو يبدأ حديثه عن المحبوبة، ويقف على أطلالها الدارسة، ويسترجع الذكريات السالفة، ثم يكفكف عبراته منتقلاً - كالعادة - إلى ناقته القوية بوصفها وسيلة لتمضية الهموم، وليس أدل على قوتها من انضاء جسمها بالأسفار المتوالية يقول بشر:

أَطْلالُ مَيَّةَ بالتِّلاعِ فمِثْقَبِ ... أَضْحَتْ خَلاءً كَما طِرَادِ المُذْهَبِ
ذَهَبَ الأُلَى كانوا بِهِنَّ فَعَادَنِي ... أَشْجَانُ نَصْبٍ للظَّعائِنِ مُنْصِبِ

---

١- انظر الأغاني الجزء الثامن ص ٦٢ وما بعدها.
٢- انظر معجم الشعراء ص ٢٩٤.
٣- انظر ديوان النابغة الذبياني ص ٣٨.
٤- انظر ديوان بشر ص ١٥٥ - ١٥٦.

فَــانْهَلَّ دَمْعِــي فِي الـرِّداء صَبَابَــةً ... إِثْـرَ الخَلِيـطِ وكُنْتُ غَـيرَ مُغْلَـبِ
فَكَــأَنَّ ظُعْنَهُـــمُ غَـــدَاةَ تَحَمَّلُـوا ... سُـفُنٌ تَكَفَّـأُ فِـي خَلِيـجٍ مُقْـرَبِ
وَلَقَـدْ أُسَـلِّي الهَـمَّ حِـينَ يَعُودُنِـي ... بِنجـاءِ صَادِقَـةِ الهَواجِـرِ ذِعْلِـبِ
حَـرْفٍ مُذَكَّـرَةٍ كَـأَنَّ قُتودَهَـا ... بَعْـدَ الكَـلاَلِ عَلَـى شَتِيمٍ أَحْقَـبِ(١)

ثم يمضي الشاعر في وصف هذا الحمار الوحشي الذي شبه به ناقته، إلى أن يستوفي ماله من صفات، وكيف ورد الماء بصحبة أتنه، ونجا من سهام الصائد ثم يخلص إلى موضوع المديح ممهداً له الحديث عما أوجبه من وعثاء السفر، ومتاعب الطريق بصحبة ناقته، وكأنما يحاول بذلك حفز الممدوح على الجود والعطاء إذ يقول:

فَـإِلى ابـنِ أمِّ ايـاسَ عمـرٍو أَرْقَلَـتْ ... رَتْـكَ النَّعَامَـةِ في الْجَدِيـبِ السَبْسَـبِ
أَرمِـي بِهَـا الفَلَـواتِ ضَـامِزَةً إِذَا ... سَـمِعَ المُجِـدُّ بِهَـا صَرِيـرِ الجُنْـدُبِ
حَتّـى حَلَلْـتُ نُسـوعَ رَحْـلِ مَطِيَّتِـي ... بِفِنَـاءِ لاَ بَـرِمٍ ولا مُتَغَضِّـبِ(٢)

وينتهي بشر إلى الممدوح فيتناول صفاته في الجود والسخاء، ويعدد خصاله الحميدة الأخرى كالشجاعة وتلبية حاجات المعوزين، وهو في ذلك إنما يفصح عن حاجته ويعقد رجاءه عند هذا الممدوح.

والحقيقة أن منهج بشر هذا في المدح ليس حكراً عليه، بل كان معروفاً لمعظم الشعراء الجاهليين الآخرين ممن مدحوا ذوي الشأن من السادة والوجهاء وأغنياء القوم، أو هؤلاء الذين توجهوا بمديحهم إلى الأمراء العرب على أطراف الجزيرة العربية كالنابغة وحسان بن ثابت وغيرهم ويتابع بشر حديثه إلى ممدوحه قائلاً:

بَحْـرٌ يَفِيـضُ لِمَـنْ أنـاخَ ببابِـهِ ... مِـنْ سـائِلٍ وثِمـالُ كـلِّ مُعَصَّـبِ
وَلأَنْـتَ أَحْيَـا مِـن فتـاةٍ غَالَهـا ... حَـذَرٌ وأَشْجَعُ مِـنْ هَمُـوسٍ أَغْلَـبِ
الحَـافِظُ الحَـيَّ الجَمِيـعَ إذا شَـمِتُوا ... والواهِـبُ القَيْنَـاتِ شِبْهَ الرَّبْـرَبِ
والمَـانِحُ المِئَـةَ الهِجَـانَ بِأَسْـرِهَا ... تُزْجِـي مَطافِلُهـا كَجَنَّـةِ يَـثْرِبِ(٣)

ثم يأتي الشاعر على نهاية قصيدته بعد أن يفرغ من المدح، وبهذه الصورة تكون القصيدة قد تمت واكتملت من حيث البناء والغرض الذي قيلت - أصلاً - من أجله. والواقع أننا لم نلمس فرقاً يذكر في قصيدة المدح لدى شعراء بني أسد وغيرهم من الشعراء الجاهليين من القبائل الأخرى، غير أنه من الملاحظ أننا لم نجد شعراً لهذه القبيلة في مديح كل من آل نصر اللخميين وآل غسان، الأمر الذي يجعلنا نرجح أن العلاقة بين شعراء هذه القبيلة وكل من أمراء هاتين الأمارتين لم تكن على ما يرام، وأنها لم تصل إلى الدرجة التي تربطهم بملوك كندة في تلك الفترة، مع أن الروايات تذكر أن

١- انظر المصدر السابق ص ٣٣ - ٣٤.
٢- انظر ديوان بشر ص ٣٨.
٣- انظر المصدر السابق ص ٣٩.

بعض هؤلاء الشعراء الأسديين قد تردد على بلاط الحيرة، مثل عبيد بن الأبرص، وأنه من الطبيعي أن نجد شعراً له يشير إلى تلك العلاقة، إلا أننا لا نظفر بشيء من هذا، ويبدو أن عبيد بن الأبرص قد قال شعراً يمدح فيه آل المنذر إلا أنه ضاع في الأغلب ولم يصل إلينا، وربما يستدل على ذلك من كون الشعر ـ كما تشير الروايات ـ قد ذهب إلى المنذر بن ماء السماء مسترفداً إلى أنه قتل على يديه.

وباستثناء عبيد فنحن لا نجد شاعراً أسدياً واحداً اتصل بهؤلاء الأمراء أو مدحهم وليس ذلك بغريب علينا، لأن الشاعر الأسدي لم يكن ليتحرك في سبيل فرديته فقط، وإنما كان تحركه الفردي من خلال توافقه مع تحركات قبيلته بوجه عام، وعلاقة بني أسد بكل من المناذرة والغساسنة ــ كما أوضحنا في الباب الأول ـ كانت علاقة حرب ودماء في أغلب الفترات، فكيف يذهب أحد شعرائهم مادحاً هؤلاء وطالباً منهم الرفد والعطاء؟ ورب قائل يقول بم تفسر ذهاب عبيد إلى بلاط الحيرة؟ والجواب هو أن عبيداً لم يذهب إلى المناذرة ـ على ما يبدو ـ إلا في أخريات حياته، وعلى هذا فانه رجل طاعن في السن قد تشتت رهطه وقد بكاهم بكاء مراً في ديوانه حيث يلوح لنا أن ذلك الصراع قد حسم لصالح هؤلاء الخصوم(١).

ولم يكن شعراء بني أسد الذين مدحوا أشخاصاً معينين، وطلبوا رفدهم ونوالهم يتوجهون بتلك القصائد إلى الملوك والأمراء فقط، بل ربما مدحوا بها سيداً من سادات العرب رأوا فيه من الصفات ما يستحق المدح، فذكروا فضائله إعجاباً به، لا طلباً لعطاء ومن ذلك ما نراه عند الشاعر الأسدي حاجب بن حبيب، فقد جاء في المفضليات بعض شعر له يمدح فيه قوماً جاورهم، فأحسنوا جواره ــ على ما يبدو ـ وهذه قيمة عالية في نفس العربي الجاهلي، وقد خص بالذكر سيدين منهم يدعيان الحارثين ولسنا ندري من يكونان؟ ولا من أية قبيلة يقول حاجب:

وَيْـلُ أُمِّ قـومٍ رأينـا أَمْسِ سـادَتَهُمْ ... في حادثـاتٍ أَلَمَّتْ خَيْرَ جيرانِ
يَرْعَيْـنَ غِبّـاً وإنْ يَقْصُرْنَ ظـاهِرَةً ... يعطفْ كِرامٌ عَلى مـاأحدثَ الجاني
والحارثـانِ إلى غايـاتِهِمْ سَبَقاً ... عفواً كمـا أحرزَ السَّبْقَ الجوادانِ
والمُطيـانِ ابتغـاءَ الحَمْـدِ مالَهُمـا ... والحمدُ لا يُشتَرى إلا بأثمـانِ(٢)

ونظرة فاحصة إلى ما يقوله حاجب كافية للتدليل على أن هذا المدح لم يصدر ابتغاء العطاء، وإنما كان مبعثه تلك الأخلاق والصفات التي يتمتع بها الحارثان، وواضح إعجاب الشاعر ــ هنا ــ بشخصية الممدوحين. أفنعد مثل هذا المديح كسباً بالشعر؟

وأما مديح بشر بن أبي خازم لأوس بن لأم بن حارثة الطائي بعد هجائه له بصورة مقذعة ـ كما مر معنا ـ "فانه مدح مبعثه التكفير عن الذنب أولاً من قبل الشاعر، ثم أن موقف بشر نفسه كان موقفاً تكتنفه الشكوك في هذه القضية، وربما لم يقره قومه على ما فعل في الهجاء أو المديح بالنسبة لأوس، بدليل أن موقف بشر من قومه بني أسد يبدو غريباً إذ يجعلهم فداء لهذا الممدوح وكذلك يجعل نفسه إذ يقول:

---

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٨ ـ ٩ ففيه أشارت واضحة لتشتت قومه وتشردهم.
٢ـ انظر المفضليات ص ٣٧٠.

فَهَبْ لي حَيَاتِي فالحياةُ لِقَائِمٍ بِشُكْرِكَ فِيهَا خَيْرُ ما أَنْتَ وَاهِبُ(١)

ويقول:

تَدارَكَنِي أَوْسُ بنُ سُعْدَى بِنِعْمَةٍ وقَدْ ضَاقَ مِنْ أرضٍ عَلَيَّ عَرِيضُ
فَمَنَّ وأَعْطَانِي الجَزِيلَ وإنَّهُ بأمثالِها رحبُ الذراعِ نَهوضُ
تداركْتَ لَحْمِي بعدمَا حَلَقَتْ بِهِ فَرُدَّتْ كَما رَدَّ المنيعَ مُغِيضُ
يَكُنْ لَكَ فِي قَومِي يدٌ يَشْكُرُونَها وأَيْدِي النَّدَى فِي الصَّالِحِينَ قُروضُ(٢)

ويصل الأمر بالشاعر إلى الاستهانة بقومه، وبذل ماء الوجه أمام هذا الممدوح فيقول:

فَأَصْبَحَ قَوْمِي بعدَ بُؤسِي بِنِعْمَةٍ لقومِكَ والأيامُ عُوجٌ رواجعُ
عبيدُ العَصا لمْ يمنعُوكَ نفوسَهُمْ سِوَى سَيْبِ سُعْدَى إن سَيْبَكَ نافِعُ(٣)

والحقيقة أن مثل هذا الموقف لم نألفه في شعر بني أسد ـ إطلاقاً ـ ونرجح أن بشراً قد إضطر إلى قوله وهو أسير عند أوس حفاظاً على حياته، إذ أنه من غير المعقول أن يصل به الأمر إلى هذه الدرجة من الذل والمهانة.

وبعد، فان المبالغة المقيتة واضحة جداً في هذا المدح لأوس بن حارثة ولنأخذ مثلاً قوله:

فَما وَطِئَ الحَصَى مثلُ ابنِ سُعْدَى ولاَلَبِسَ النِّعَالَ ولا احْتَذَاهَا(٤)

ومن الواضح لنا أن بشر بن أبي خازم قد مدح أكثر من شخص، وتوجه بشعره يطلب العطاء، حتى أنه توجه إلى أغنياء القوم من مثل رجل يدعى ابن قران حيث يقول:

إلَى رَبِّكِ الخَيْرَ ابنِ قُرَّانَ فاعْلَمِي ثُمامَةَ مأْوَى كُلِّ مُثْرٍ وَمُعْدِمِ
مَتَى تَبْلُغيه تَبْلُغِي خَيْرَ سُوقَةٍ فَعَالاً وأَعْطَى مِن تِلادٍ وَمَغْنَمِ
متَى تَبْلُغِيهِ تَعْلَمِي أَنَّ سَيْبَهُ علَى الرَّاكِبِ المُنْتَابِ غيرُ مُحَرَّمِ(٥)

ولعل ظروف هذا الشاعر الاقتصادية قد ألجأته إلى مثل هذا المدح في فترة من فترات حياته التي لا نعلم عنها الكثير، وفوق هذا فان التكسب بالشعر لم يكن خلقاً من أخلاق الفروسية عند العرب بوجه عام، وقد عهدنا بشر فارساً مقداماً شارك في بعض أيام بني أسد، إلا أنه ــ فيما يبدو ــ قد مرت عليه ظروف سيئة في أخريات حياته جعلته يتخذ من شعره سبيلاً للرزق اضطر فيه أحياناً لإراقة ماء الوجه.

١ـ انظر ديوان بشر ص ٤٢
٢ـ انظر ديوان بشر ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ١١٤.
٤ـ انظر المصدر السابق ص ٢٠٠.
٥ـ انظر المصدر السابق ص ٢٠٠.

خلاصة القول في هذا الجانب من الشعر الفردي عند شعراء بني أسد أن ظاهرة التكسب بالشعر بوصفه وسيلة للرزق - لم تكن لتشمل كل شعراء القبيلة، فقد كان المدح عندهم ينبعث من سياسة القبيلة العامة ومجاراة مواقفها بالنسبة للقبائل الأخرى أحياناً، وكان في أحياناً أخرى ينبعث من إعجاب الشاعر الأسدي بشخصية الممدوح، بما لها من فضائل وقيم، فلهج بذكره، وأفاض في مدحه، وقد كان أحياناً ينبعث ربما من الخوف والرغبة في المحافظة على الحياة، وإذا كان بعض الشعراء قد طلب النوال بشعره من الآخرين ومدحهم، فليس معنى هذا أنه اتخذ من المدح وسيلة أساسية لكسب عيشه، وإنما كانت وسيلة ثانوية طارئة لجأ إليها الشاعر الأسدي نتيجة ظروف غاية في الصعوبة والقسوة، فكما نعلم أن شعراء هذه القبيلة كانوا فرساناً - بالدرجة الأولى - يغزون ويغنمون ويغتنون ويفتقرون، وهذا هو الجميح الأسدي يقول بعد أن طعنت به السن مخاطباً زوجه:

فـإنْ تَقَـرّي بنـا عَيْنـاً وَتَختَفِضِـي ... فِينـا وَتَنْتَظِـري كَـريٍّ وَتَغْريبـي

فـاقْني لعلّـكِ أنْ تَحْظِـيْ وتَحْتَلِبـي ... في سَحْبلٍ من مُسُوك الضَّأْنِ مَنْجُوبِ(١)

ولا نستطيع الزعم بأن شعراء بني أسد في هذا المجال قد تفردوا عن غيرهم من الشعراء الجاهليين الآخرين، وتميزوا عنهم في هذا الجانب من حياتهم، فقد كانت حياتهم المعيشية لا تختلف كثيراً عن سائر القبائل العربية الأخرى.



١- انظر المفضليات ص ٣٤.

## النظرات الشخصية:

ولعل الاتجاه الآخر في شعر هؤلاء الشعراء الأسديين الأحرار يتمثل في النظرات الشخصية التي لا تخلو من عمق لما أحاط بهم من ظواهر، والتي يطلق عليها اصطلاح الحكمة وهي مظهر فردي أيضاً.

والواقع أننا لا نستغرب وجود مثل هذا الاتجاه عند شعراء قبيلة بن أسد، فالتأمل والتفكير في حقائق الوجود، وما يحيط بالمرء من ظواهر شيء مألوف منذ أن عرفنا تاريخ الإنسانية على هذه البسيطة، وكان لابد للإنسان من نظرة خاصة به تجاه الأشياء، ورأي يبديه فيما حوله من أشياء وقضايا تلح عليه، كقضية الموت والحياة وغيرها من قضايا اجتماعية كانت تفرزها طبيعة الحياة في تلك البيئة.

ولعل مناقشة هذه الأمور كانت تلازم الشاعر الجاهلي بل الإنسان ـ بعامة ـ في كل مراحل حياته، ومن هنا جاءت آراء شعراء بني أسد في الحياة مبثوثة في ثنايا قصائدهم دون أن يفردوا لها قصائد معينة، وربما كان عمق بعض تلك النظرات ونفاذها وسدادها هو الذي حدا ببعض النقاد إلى الشك فيها، فهل من المعقول أن تصدر مثل تلك الأحكام عن أناس قضوا حياتهم بين رمال الصحراء؟ ولم يعرفوا المدنية ولم يسمعوا بوجود نظريات الفلسفة؟.

والملاحظ أن هذه النظرات الشخصية جاءت في عمومها متشابهة، وكانت تدور حول حقائق معينة، كنظراتهم إلى حتمية الموت، وفناء الحياة، وفعل الخير، وسجايا النفس البشرية ـ بوجه عام ـ ومرد ذلك إلى أن هؤلاء الشعراء كانوا يخضعون لظروف معيشية وبيئية وثقافية واحدة، وكان لابد أن ينتج عن ذلك النمط الموحد من الحياة نظرة شبه موحدة من قبل الخاضعين لهذا النمط من العيش، فما بالك ونحن نعالج نظرات صدرت عن أبناء قبيلة واحدة، الأمر الذي من شأنه أن يكون تأثير هذه العوامل السابقة الذكر أكبر وأكثر التصاقاً بحياة الفرد، ولذا فقد جاءت نظرات هؤلاء الشعراء مستمدة من الواقع المعاش لهؤلاء الشعراء وكانت مستمدة من البيئة الجاهلية، بالدرجة الأولى، ومن ملاحظة الشاعر الجاهلي لتقلب أحوال الدهر وشؤون الحياة. ولعل قبيلة كبني أسد اصطلحت عليها الخطوب في فترة من حياتها، ثم تنقلت من حال إلى حال، وتنوعت ظروف معيشتها، وخاضت حروباً ومعارك لا تحصى لهي أقدر على استكناه الحكمة واستخلاص العبرة والعظة، وصوغ كل هذا في آراء سديدة تعبر عن تجارب أبناء هذه القبيلة.

ورب قائل يقول: وهل اختصت قبيلة بني أسد بالحكمة دون سواها من القبائل الأخرى؟ والجواب بالنفي ـ طبعاً ـ فشعراء بني أسد الجاهليين، كل أدلى بدلوه وصرح بآرائه، غير أننا نلاحظ الإكثار من هذا التصريح عند شعراء بني أسد ولعل هذا ما يميزهم عما سواهم.

وعلى أية حال فان ما جاء على ألسنة هؤلاء الشعراء من نظرات شخصية إنما هي تجارب الشاعر ذاته، صاغها في نظرات عامة وعبر عنها بكل عفوية وسهولة وصدق. وذلك في معرض حديثه عن مختلف القضايا في حياته، ولاسيما إذا عرفنا أن الشعراء هم أكثر أناس تدقيقاً وتعمقاً في التفكير في بيئة كل ما فيها يدعو لذلك، فهم قبائل متناحرة يتنازعون لأتفه الأسباب، وتسيل الدماء بين مضاربه لأبسط الأمور، وتتناثر أشلاء القتلى هنا وهناك في صور مفزعة، ويمسي الحر عبداً ورقيقاً،

وتسبى النساء ويشرد الأطفال، وهكذا كانت تدور الحياة القبلية الجاهلية،

ولعل في هذا ما يدعو العقلاء منهم إلى التفكير والتأمل في هذا اللغز المحير: لغز الحياة والموت، ووضع الحلول المناسبة للقضايا والمشاكل المحيطة، فأرسلوا حكمهم وأطلقوا أمثالهم معبرين بها عن عصارة تجاربهم وخبراتهم في الحياة،

وبنو أسد كغيرهم من القبائل بلوا ألواناً شتى من العيش، وخاضوا التجارب، وربما عرفوا بالكهانة في جاهليتهم كأمثال الكاهن عوف بن ربيعة غامراً الذي سبقت الإشارة إليه حيث تكهن لمقتل حجر بن الحارث، ولقد وجدنا أن هذا الاتجاه عند الشعراء الأسديين الأحرار قديم، ولعله يعود إلى عهد شاعرهم عبيد بن الأبرص، فنحن نقع على حكم ونظرات شخصية عند هذا الشاعر تدل على عمق فكر، نضوج تجربة، ودقة نظر وتعبر في مجملها عن تجارب الشاعر، وتفصح عن أفكاره حول عدد من القضايا كقضية الحياة والموت والبعث والحساب.

والمدقق في حكمة وآراء عبيد بن الأبرص الأسدي يجدها تتراوح بين العمق مرة، والسذاجة والبساطة ـ إن صح التعبير ـ مرة أخرى، ولا يستطيع الباحث أن يكون صورة واضحة للوعي الديني الذي كانت عليه هذه القبيلة بالذات، ولا يمكنه استجلاء المزيد عن هذا الوعي بعامة في شبه الجزيرة العربية.

ومن المعروف أن شاعرنا عبيد بن الأبرص قد عاش عمراً مديداً، وهناك بعض أشارت وردت في القرآن الكريم تشير إلى هؤلاء العرب الجاهليين الذين عبدوا الأوثان كانوا على علم ببعض الشعائر السماوية وعقيدة التوحيد، ولو أننا لا نستطيع تحديد مبلغ ذلك العلم في أذهانهم غير أننا نرجح أن تصورهم عن هذه الأمور كان غائماً وغامضاً في كثير من جوانبه.

يقول سبحانه "وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى"(١).

ولعل الصورة المشوشة لعقيدة التوحيد التي جاءت بها اليهودية ثم قالت بها النصرانية بعد ذلك، قد جعلت بعض العرب يعودون في تصوراتهم إلى عقيدة إبراهيم الخليل عليه السلام للوقوف على حقيقة الأمر، وهم ما نطلق عليهم اسم "الحنفاء" ممن كانوا على بقية من دين إبراهيم، وإذن فان الأمر لم يكن جديداً كل الجدة على الجاهليين ممن ساورهم القلق في هذا المجال، وعبيد بن الأبرص على ما يبدو كان من هؤلاء القلقين، ولعل لهذا السبب دخل في كونه من أكثر شعراء هذه القبيلة تناولاً لهذه الآراء والنظرات، بالإضافة إلى أسباب أخرى كطول عمره، وتمرسه بالحياة، ورؤيته لكثير من التجارب وقد وردت أقوال عبيد في تضاعيف ديوانه معبراً بها عن فكر شخصي اتجاه أمر من الأمور، وها هو ذا يخاطب الحارث ولا ندري على وجه التحديد أي حارث يكون؟ غير أننا نرجح أن يكون الحارث هذا هو الحارث بن عمرو أبو حجر، والد امرئ القيس الشاعر المشهور يقول عبيد:

| | |
|---|---|
| ياحارِ ماراحَ مِنْ قَوْمٍ ولا ابْتَكَرُوا | إلاّ ولِلْمَوْتِ فِي آثارِهِمْ حَادِي |
| ياحارِ ما طَلَعَتْ شمسٌ ولا غَرَبَتْ | إلاّ تَقَرَّبَ آجَالٌ لِمِيعَادِ |
| هَلْ نَحْنُ إلاّ كأَجْسَادٍ تَمُرُّ بِها | تَحتَ التُّرابِ وأَجْسادٍ كأَجْسَادِ(٢) |

---

١ـ انظر سورة الزمر آية ٣.

٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤٦.

فالموت حقيقة مؤكدة، وما الدنيا إلا عرض زائل، والمصير لآيل هو محدد لا يتجاوز وقته يقول:

وَلِلْمَــرءِ أيَّــامٌ وَقَــدْ رعَــتْ ... حِبَــالُ المَنَايَــا للفَتَــى كُــلَّ مَرْصَــدِ
منِيَّتُــهُ تَجْــرِي لِوَقْــتٍ وَقَصْــرُهُ ... مُلاقَاتُهَــا يَومــاً عَلَــى غَيْــرِ مَوْعِــدِ(١)

ولعل في وقوف عبيد بن الأبرص على الديار، واعتباره بما أصابها من تحول وتبدل، ورؤيته لذلك كأمر طبيعي، مما يوضح طغيان فكرة الموت على نفسية عبيد، وهو يذهب ليمد هذا الأمر على الحياة ومظاهرها المختلفة، فهذه الديار ليست الأولى تخلوها من أهلها وساكنيها، ولعله يشير بذلك إلى سنة الدهر وشريعة الأيام مع الناس، فهي العادية عليهم دائماً وهي سالبتهم كل ما ظنوا أنهم يمتلكونه.

يقول عبيد:

إنْ يَــكُ حُــوِّلَ منهــا أَهْلُهَــا ... فَــلاَ بَــدِيءٌ ولا عَجِيــبُ
أوْ يَــكُ أقْفَــرَ منْهــا جوُّهَــا ... وَعَادَهَــا المَحْــلُ والجُــدُوبُ
فكُــلُّ ذِي نعمَــةٍ مَخْلُوسُــهَا ... وكُــلُّ ذِي أمــلٍ مَكْــذُوبُ(٢)

ثم يمضي في إرسال نظراته الشخصية التي يستمدها من البيئة الجاهلية كواقع معاشي، ومن تجاربه الفردية قائلا:

وَكُــلُّ ذِي غَيْبَــةٍ يَــؤُوبُ ... وغَــائِبُ المَــوْتِ لا يَــؤُوبُ
أَعَــاقِرٌ مثْــلُ ذاتِ رحْــمٍ ... أو غَــانِمٌ مثْــلُ مَــنْ يَخِيــبُ
لايَعِــظُ النَّــاسَ مَــنْ لايَعِــظُ الــدَّ ... هْــرُ ولاينفَــعُ التَّلْبِيــبُ
فقــد يعــودون حبيــب شــانئ ... ويرجعــن شَــانِئاً حَبِيــبُ
سَــاعَدْ بِــأَرْضٍ إذا كُنْــتَ بهــا ... ولاتَقُــلْ إنَّنِــي غَرِيــبُ
والمــرءُ مَــا عَــاشَ فِــي تَكْذِيــبٍ ... طُــولُ الحَيَــاةِ لَــهُ تَعْذِيــبُ(٣)

والملاحظ أن فكرة الموت والفناء مسيطرة على تفكير الشاعر بشكل دائم، فصاحب الابل موروث مسلوب، ومن غاب في سفر أو غيره فقد يعود إلى أهله إن رزق السلامة، ما عدا غائب الموت فلا عودة له أبداً.

ولعل حكمة الشاعر كانت تعبر أصدق تعبير عن واقع الحياة الاجتماعية في الجاهلية التي كانت إحدى دعائمها القوة، ولعل التفاخر بالأموال والأولاد شيء مألوف في النفس البشرية، ولهذا فان العاقر لا تستوي عند عبيد مع الولود، ولا ترقى إلى منزلتها، فهي التي تمد القبيلة بالفرسان، كما لا

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ٥٧ وانظر ديوانه ص ١٥ ـ ١٤ فهناك إشارات واضحة تدل على وعي ديني متقدم عند عبيد.

٢ـ انظر ديوانه المعلقة ص ١٢ وما بعدها، والواقع أن عبيد بن الأبرص في وقوفه على الديار والأطلال الدارسة يمثل حيثية مختلفة عن باقي الشعراء بني أسد، فنحن نحس بمدى حزنه وشعوره بالأسى العميق، ولعل ما أصاب قومه من نكبات دخل في هذا الاتجاه لديه وقد سبقت الإشارة إليه عن دراستنا عن هذا الشاعر لنيل درجة الماجستير.

٣ـ انظر الهامش السابق.

يستوي الناجح في سعاه مع الفاشل، إن الشاعر هنا ليتراءى لنا وهو في حلة الشيخوخة رجلاً محنكاً عصرته الأيام، وحفرت مسارب حكمته السنون، فجاءت بعيدة الأغوار عميقة في دلالاتها، وقد ضمنها الشاعر أغلب القضايا التي كانت تلح على ذهنه وصور بها جانباً من العلاقات القبلية مما كان سائداً حين ذاك، و لم يكن ليتأتى ذلك لعبيد لولا طول معاشرته للأحداث، وتأمله وتبصره بعواقب الأمور. فالحياة صائرة إلى زوال وفعل الخير أجدر بالإنسان العاقل يقول عبيد:

الخَيْرُ يَبْقَى وإنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ ... والشرُّ أخبَثُ ما أوْعَيْتَ مِنْ زَادِ(١)

ولعل التعقل غير نافع صاحبه إن لم يكن سجية خالصة من نفس المرء ومن حل بدار قوم وجبت عليه مداراتهم، فان لم يفعل أخرجوه من ديارهم، ونستطيع القول بعد كل ما سبق: إن نظرات عبيد بن الأبرص الشخصية التي لا تخلو من حكمة راجعة إلى مصادر ثلاثة: وهي البيئة الجاهلية بما فيها من علاقات سلب ونهب، وغارات وحوادث، واضطرابات روحية وسياسية واجتماعية وغير ذلك مما عايشه الشاعر، وأما المصدر الثاني فهو تجارب الشاعر ذاتها، لاسيما إذا عرفنا أن عبيداً عاش عمراً مديداً وبلى كثيراً من الأحداث والتجارب الخاصة.

وأما المصدر الثالث فربما كان نتيجة لتطواف الشاعر في شبه الجزيرة العربية، وزيارته لأمارة الحيرة وغيرها على تخوم شبه جزيرة العرب. كل ذلك قد أسهم إلى حد في صقل الوعي الديني عند هذا الشاعر الأسدي وفي توسع نظراته وأفقه نحو الأشياء، ولابد أن يكون قد عايش أو رأى واختلط بنصارى الحيرة وغيرهم من أهل الديانات السماوية وغير السماوية، وعرف شيئاً عن الإيمان والوحدانية من أهل تلك البيئات:

وهذا عمرو بن شأس يستمد من بيئته ومن نفسه بعد طول تجارب وبلاء للحياة، الحكمة وبعد النظرات، ويقر بالمصير المحتوم فيصرح قائلاً:

نُطَوِّفُ ما نُطَوِّفُ ثمَّ يَأْوي ... ذَوُو الأَمْوالِ مِنّا والعَدِيمُ

إلى حُفَرٍ أسافِلُهُنَّ جَوْفٌ ... وأَعْلاهُنَّ صُفَّاحٌ مُقِيمُ(٢)

ولقد أدرك عمرو بن شأس حقيقة أخرى وهي أن لكل شيء نهاية، فهو لا يكتمل حتى ينقص ولا يبلغ تمامه حتى يهدم، وكأنه يشير بذلك إلى تعاور الأيام للمرء فهي تنقلبه من حال إلى حال، وتتقلب به كيفما شاءت دون أن يملك لذلك دفعاً. يقول عمرو:

متى يَبلُغُ البُنْيانُ يوماً تَمامَهُ ... إذا كُنتَ تبنيهِ وآخَرُ يَهْدِمُ(٣)

وكان ممن تناول هذه الأفكار من شعراء بني أسد الشاعر بشر بن أبي خازم: وتبدو لنا أفكاره عن قضية الموت والفناء في صورة نظرات شخصية أقرب ما تكون إلى العمومية في إطلاق الحكم، فهو يقول مثلاً في رثاء أخيه سمير:

---

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤٩.

٢ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٥٠، ٥١ وانظر شعره ص ٤١ حيث يؤكد فكرة طغيان الموت.

٣ـ انظر المصدر السابق ص ٧٩.

وكـلُّ نفـسِ امـرئٍ وإنْ سـلِمَتْ يومـاً ستحْسُـو لِميتـةٍ جُرَعَـاً[١]

وقد رأى بشر أن الموت دافع له، وهو إلى جانب ذلك فانه يشكل نوعاً من الاغتراب الموحش المخيف، وكفى به نأيا يقول بشر في هذا المعنى:

فمـنْ يـكُ سـائِلاً عـنْ بيـتِ بِشْـرٍ فـإنَّ لـهُ بجنْـبِ الـرَّدْهِ بَابـا
ثَـوى في مُلْحَـدٍ لابُـدَّ مِنْـهُ كَفَـى بـالمَوْتِ نأيـاً واغْتِرَابَـا
مضَـى قصـدَ السَّبِيل وكـلُّ حَـيٍّ إذا يُدْعَـى لميتَتِـهِ أجَابَـا[٢]

وقد أدرك بشر هذه الحقائق وعايشها إلى جانب حقيقة أخرى تمثلت له في موت أخيه سمير، فلا المال نافع، ولا الغزوة بنافعة في إبعاد شبح الموت عن الإنسان مهما بلغ به الغنى والجاه. يقول بشر:

لاأرى النّائِبـاتِ عَرَّيْـنَ حَيّـاً لِعَديـدٍ ولا لِكَثْـرةِ مَـالِ[٣]

وإذا كان الأمر كذلك فلم لا ينهب المرء لذات الحياة، ويغتنم فرصها قبل فوات الأوان، ـــ كما فعل طرفة بن العبد وغيره من الجاهليين ـ وربما كان هذا النزوع من بشر نحو المتع واللهو هروباً من واقع مؤرق، وفكر محير في قضية كهذه، ولذا نجد بشراً ينهج نهجاً خاصاً به دون سائر شعراء بني أسد. يقول معبراً عن هذا المذهب:

وَعِشْـتُ وقـدْ أُفْنِـي طَرِيفـي وَتـالِدِي قَتِيـلَ ثَـلاثٍ بَينَهُـنَّ أُصَـرَّعُ
فـانّ سِـقَاطَ الخَمْـرِ كَـانَتْ خَبَالَـهُ قديماً فلُومُـوا شـاربَ الخمـرِ أوْ دَعُـوا
وَحُـبُّ القِـدَاحِ لايَـزالُ مُنادِيـاً إلَيْهـا وإنْ كـانَتْ بلَيـلٍ تَقَعْقَـعُ
نِغَـاءُ الحِسَـانِ المُرْشِـقاتِ كأنَّهـا جَـآذِرُ مِـنْ بَـينِ الخُـدورِ تَطَلَّـعُ[٤]

وربما استقى الشاعر الأسدي حكمته من الحياة ذاتها بتصويره موقف الإنسان منها، ولعلها في جوهرها ليست إلا ضرباً من التعب والنصب، وعلى افتراض أن المرء قد سلم من الموت لفترة فان أمره سيؤول إلى الهرم، وسيكون عرضة للهموم ونائبات الدهر، وهذا ما عبر عنه عبيد بن أبرص ثم عبر عنه شاعر جاهلي آخر هو زهير بن أبي سلمى فقال:

رأيتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْواءَ مَـنْ تُصِـبْ تُمِتْـهُ ومَـنْ تُخْطِـئْ يُعَمَّـرْ فَيَهْـرَمِ[٥]

فالمنايا لا تسير على سنة مألوفة وهي تتخطف الأرواح بغتة، ولعل هذه الحقيقة لمسها شاعر أسدي آخر وهو خالد بن حذام الأسدي إذ يقول:

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ١٢٣.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ٢٦ ـ ٢٧.
٣ـ انظر ديوان بشر ص ١٧١.
٤ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١١٨ وما بعدها.
٥ـ انظر شرح المعلقات العشر للتبريزي ص معلقة زهير.

مـــن لاتُعالِجُـــهُ مَنِيَّتُـــهُ . يُـبترَكْ إلى كـافٍ مِـن الهَـرَمِ
والمَـرءُ مـادامَ حشاشـتُهُ وقـفُ علـى الحِدْثـانِ والأَلَـمِ(١)

والواقع أن نظرة الإنسان الجاهلي إلى الهرم كانت نظرة غير مريحة للنفس بل هـي نظرة كريهة، وربما داخلها شيء من الخوف حتى أن الأمر قد يصل به إلى أن يضعها بمقابل الموت - كما رأينا - ولعل الموت في ساحة الوغى أو على الأقل قبل أن يصل المرء إلى أرذل العمر كان في عرف الجاهلي أفضل حالاً من الثانية، حيث لا يستطيع المرء أن يتلاءم مع البيئة التي هو فيها، وهي بيئة تتطلب القوة والحركة والسرعة، ولا يعوذ قادراً على قضاء حاجاته في ظل تلك الظروف المعيشية، وقد يتغلب منه أهله وذووه ممن سيقومون على خدمته، وربما عزفت عنه زوجه وجفاه أبناؤه. ولذا فقد نظر إلى هذا الأمر بذلك المنظار الأسود، فهو يعدل الموت في رأيه، ومن هنا لم يحبذ طول العمر واعتبره ضرباً من التعذيب والشقاء والعناء، ولم تكن هذه النظرة خاصة بشعراء بني أسد دون غيرهم من الجاهليين، فالأعشى يعبر عن رأيه ويسوقه في حكمة معبرة عن هذه النظرة حيث يقول:

لَعمـرُكَ مـا طـولُ هـذا الزمـنْ عَلَـى المـرءِ إلاّ عنـاءٌ مُعَـنْ
يَظـلُ رَجيمـاً لِريـبِ المَنُـون ولِلسُّـقمِ فـي أهلِـهِ الحَـزَنْ(٢)

وربما ألبس الشاعر الأسدي حكمته وآراءه الشخصية في الحياة ثوب الإرشاد والنصح، وهنا قد يلجأ إلى الخطاب المباشر، واستخدام أسلوب النهي والأمر لترسيخ هذه المعاني في الأذهان، ولعلنا نتلمس شيئاً من هذا النوع في قول أعشى بني أسد الذي يقول:

هَـوِّنْ عليـكَ الدَّهـرَ مُنْجَـدِبُ كـلُّ امرئٍ عـنْ أخيـهِ سـوفَ ينْشَـعِبُ
فـلا يَغُرَّنْـكَ مـنْ دهـرٍ تقلُّبُـهُ إنَّ الليـالي بالفِتيـانِ تَنْقَلِـبُ(٣)

وبمثل هذا عبر الشاعر الأسدي منظور بن فروة من مرثد الفقعسي:

إذا أنـتَ أكـثرتَ المجـاهِلَ كَـدَّرَتْ عليـكَ مـنَ الأخـلاقِ مـا كـانَ صافِيـا
فَـلا تـكُ حَقّـاراً بِظِلْفِـكَ إنّمـا تُصيـبُ سِـهامُ الفَـيّ مَـنْ كـانَ رامِيـاً(٤)

ومن ذلك قول شاعرهم كلدة بن عبدة حيث يقول:

وإنْ يكـنِ الحَمـدُ فِـي بـاذِخٍ مِـنَ المجـدِ أسـلُكْ إليـهِ سَـبيلا(٥)

---

١- انظر حماسة البحتري ص ٩٦.
٢- انظر ديوان الأعشى الكبير ص ١٢٣.
٣- انظر الأغاني الجزء التاسع ص ١٠٩ طبع دار الكتب.
٤- انظر معجم الشعراء ص ٢٨١.
٥- انظر معجم الشعراء ص ٢٥٠ وقد جاء نسبه فيه كالآتي: كلدة بن عبدة بن مرارة بن سواءة بن الحارث بن سعد بن مالك بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد وهو جاهلي.

ولعلنا رأينا هذا الاتجاه بوضوح في شعر الكميت بن معروف في قضية سالم بن دارة، فقد سلك الشاعر هذا الطريق - وكان أكثر واقعية ومشاركة لأفراد قبيلته ولحلفائها بالتوجيه والإرشاد والنصح ومن ذلك قوله:

خُذُوا العَقْلَ إنْ أَعطاكُمُ العقلَ قومُكُمْ ... وكُونُوا كَمَنْ سِيمَ الهوانَ فأرتَعا

ولا تُكْثِرُوا فيها الضَّجاجَ فإنَّهُ ... محا السَّيفُ ما قالَ ابنُ دارَةَ أَجْمَعَا(١)

ويطول بنا الأمر لو رحنا نستقصي ما قاله الشعراء الأسديون الجاهليون في هذا المجال، وإنما أردنا أن نضرب بعض الأمثلة على هذا الاتجاه في تلك المرحلة المتقدمة من حياة هذه القبيلة، ولعلنا بعد هذا التدليل نستطيع أن نزعم بأن شعراء بني أسد كانوا على مكانة رفيعة بين قبائلهم بحيث يتمتعون بتوجيه مغانيهم وآرائهم عن طريق أسلوب الأمر والنهي مرة، والنصح والإرشاد مرة أخرى، ويملكون أن يصرحوا بأفكارهم وخبراتهم بوصفهم صفوة في القوم ينبغي أن تحتذي وصولاً إلى حياة أكثر رقياً وأعمق فهماً وأقرب إلى المثال.

وهكذا وقفنا على هذا الاتجاه لشعراء بني أسد الجاهليين، وهو - كما رأينا - قد تفاوت فيه حظ كل شاعر، فمن مكثر فيه ومن مقتصد مقل، وبحسب ذلك لعديد من الأسباب والظروف التي أحاطت بهذه القبيلة - بالدرجة الأولى - ولخبرة كل شاعر ودربته وتمرسه في دروب الحياة الجاهلية وشعابها، وتفرده عن غيره ببعض السمات الخاصة.

والذي نخلص إليه هو أن هذا الاتجاه في أشعار الأسديين كان نتاجاً طبيعياً للبيئة الجاهلية، وللإطار الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي كانوا يخضعون إليه، وينهلون من مشاربه. وقد استطاع الشاعر الأسدي - من خلال ذلك - التعبير عما كان يعتمل في نفسه من تساؤلات وقضايا، بل الإنسان الجاهلي بعامة. وقد أفصح كذلك عن بعض جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية في تلك المرحلة المتقدمة.

وقد جرى ذلك كله على ألسنة الشعراء بكل تلقائية وعفوية وصدق، ولذا وجدنا تلك الآراء قريبة من نفوسنا، وتمتاز بسهولة المأخذ لدى القارئ لأنها تعبر - حقاً - عن خلاصة تجارب الإنسان العربي الجاهلي، وتعالج قضايا تمس جوهر الإنسان في كل زمان ومكان.

---

١- انظر الوحشيات لأبي تمام ص ١١٦ وقد تطرقت لقضية ابن دارة في هذا البحث.

# المرأة في شعر بني أسد:

شغلت المرأة مساحة واسعة من قصائد الجاهليين، واحتلت مكانة متميزة في قلوبهم فنحن لا نكاد نقع على قصيدة من قصائدهم تخلو من ذكرها، أو الإشارة إليها بصورة من الصور.

ولم يقتصر ذكر المرأة عندهم على بدايات قصائدهم. وإنما كان ذلك في مواضع مختلفة من القصيدة، فهي في بدايات القصائد ـ غالباً ـ فيما يسمى بالنسيب وهي في لوحة الطلل التي تبدأ فيها ـ في كثير من الأحيان ـ القصيدة الجاهلية. وعلى وجه العموم فإننا نرى الشاعر الجاهلي يعمد إلى ذكر المرأة الحبيبة، ويخاطبها متغزلاً بجمالها الحسي، أو محاوراً لها حيناً، أو دافعاً عن نفسه تهمة من التهم الموجهة إليه منها بوصفها عاذلة له.

والواقع أن صورة المرأة تبدو مثالية في أغلب الأحيان عند الشعراء الجاهلين عموماً، وإلى هذا أشار الدكتور محمد مصطفى هدارة قائلاً: "وصورة المرأة في الشعر الجاهلي مثالية دائماً حتى تقرب أن تكون وثنا يعبد، وكثيراً ما شبهها الشعراء بدمية في محراب، وغالوا في حرصهم عليها، ونادراً ما يصف الشاعر الجاهلي المرأة وصفاً حقيقياً يعكس واقعها، بل يوجد مثال دائم للجمال متفق عليه في كل جزئياته، فقوام المرأة وساقها، وذراعها، كفها، وخصرها، وصدرها، وكل جزئيات وجهها الأنف، والخد، والشفة، والفم والأسنان والريق والعين... كل هذا يخضع لمقاييس جمالية مثالية ثابتة لا تكاد تتغير، وفيها قدر كبير من المبالغة، وهي دائماً معطرة تفوح منها الروائح الزكية، وقد يعبر الشعر الجاهلي عن هذا المثال بنوع من الرمز يشعر بمعاني الجمال والراحة والمتعة، والأوصاف الجمالية للمرأة ليست مقصورة على جمالها الحسي بل تشمل أيضاً أخلاقها وشمائلها"[1] من حياء وخفر وبر بجيرانها وعفة في الحديث.. الخ، ولدى النظر في شعر قبيلة بني أسد في الجاهلية وجدنا أن شعراء هذه القبيلة كانوا كغيرهم من الجاهليين الذين وصفوا المرأة بدقة، وتغزلوا بمفاتنها الجسدية وغير الجسدية، ويمكننا أن نصف ما قاله هؤلاء الشعراء الأسديون في ثلاثة اتجاهات، فأما الاتجاه الأول: فيتمثل في بدايات قصائدهم ذات المقدمات الطللية، وأما الاتجاه الثاني: فيتمثل في الوصف الحسي المباشر حيث يعبر الشاعر فيه عن نوازع وعواطف بعيدة عن التحرج أو التعفف، فعلاقته بالمرأة في هذا الاتجاه علاقة متعة وحسب، وتبرز هنا الأوصاف الجسدية للمرأة بكل تفصيل، وقد نجد بعض الشعراء الأسديين يفصل في هذا الوصف الحسي بل يسهب فيه غير آبه بما في المرأة من فضائل أو عواطف مجردة[2].

وأما الاتجاه الثالث: فهو ما يمكن أن ننطلق عليه اسم "الغزل العفيف" ـ إن صح التعبير ـ وفي هذا الاتجاه لا نجد أثراً لوصف الجسم أو الخوض في وصف أعضاء المرأة وهو غزل رقيق نشعر بدفء الحرارة المنبعثة في أثنائه، ونحس سمو عاطفة الشاعر فيه، وصدقه في التعبير الذي يقترب من الواقع إلى

---

١ـ نظر الشعر العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجري للدكتور محمد مصطفى هدارة ص ٤٦ ـ ٥٠.

٢ـ انظر الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري للدكتور نجيب محمد البهبيتي ص ١٤٧ فقد تحدث عن هذا الاتجاه في وصف المرأة.

درجة كبيرة حتى أنه ليلتصق بنفوسنا، ويمس قلوبنا في كثير من الأحيان لأنه يعبر عن منزع إنساني عميق، وقد أشار الدكتور الحوفي إلى هذا الاتجاه وعرفه بقوله: "أريد بالغزل العذري هذا الضرب من الغزل الذي تشيع فيه حرارة العاطفة، وتشع منه الأشواق، ويصور خلجات النفس، ولا يحفل بجمال المحبوبة بقدر ما يحفل بجاذبيتها وقوة أسرها"(١).

والواقع أن ما يقصده الدكتور الحوفي لا ينطبق تماماً على الاتجاه الذي نتحدث عنه عند شعراء بني أسد الجاهليين، وان كان يقترب منه في بعض الوجوه والجوانب، وعلى أية حال فان تلك أهم اتجاهات الشعر الذي خاطب فيه الشعر الأسدي المرأة، وحاول أن يبرز فرديته وحضوره الخاص، ويؤكد ذاتيته وهو يعبر عن عواطفه اتجاه المرأة ويصور صلته بها، وسنقف عند كل تجاه من الاتجاهات السالفة الذكر لنتعرف على مدى ما كشف لنا الشاعر الأسدي وأفصح عن نفسه، وإلى أي حد كان ارتباطه بالمرأة، وما هي الأبعاد التي نستطيع أن نرصدها من خلال ذلك كله.

فإذا أجلنا النظر في الاتجاه الأول، وهو ذكر المرأة في بدايات القصائد ذات المقدمات الطللية ألفينا أن جميع شعراء بني أسد الجاهليين يلتقون فيه، ولعلنا نستطيع التعميم فنقول: بل أغلب شعراء الجاهلية كانوا يشتركون في هذا الاتجاه، ولعل أهم النقاط التي تميز هذا الاتجاه وتحدد معانيه هو حديث الشاعر عن فراق محبوبته، والوقوف على الأطلال الدائرة لها، ووصف تلك الأطلال والبكاء عليها، ودعوة الرفيق أو الصاحب للوقوف بها لمواساة الشاعر الحزين في مصابه، ومن ثم قد يستتبع ذلك عودة إلى الماضي واسترجاع للذكريات السالفة، وتصوير ما أحدثه الرحيل من آثار في النفس تتمثل في اللوعة والحسرة والألم الذي خلفه ذلك الفراق، ونلمس هذا الاتجاه عند شعراء بني أسد منذ وقت مبكر، إذ نجده في شعر عبيد بن الأبرص، ومرة بن الزواع، وكعب بن الرواع، وهم من أقدم شعراء هذه القبيلة فيما نعلم، وفيما ذكره المرزباني من أن مرة بن الرواع وكعب بن الرواع كان امرؤ القيس بن حجر يأمر قيانه بأن يغنين من أشعارهما ومنها قصيدة لمرة يقول في بدايتها:

أَشَاقَكَ مِنْ فَكِيهَتِكَ ادِّلاَجُ ... وَبُتَّ الحَبْلُ وانْقَطَعَ الخِلاَجُ(٢)

ويورد الآمدي مطلع قصيدة لكعب بن الرواع يقول فيها:

ذَكَرَ ابْنَةَ العَرْجِيِّ فَهوَ عَمِيدُ ... شَغَفاً شَغِفْتَ بها وأَنتَ وَلِيدُ

وَيَخالُها المَرِحُ السَّفيهُ تُحِبُّهُ ... ونوالُها غيرَ الحديثِ بعَيدُ(٣)

أما عبيد بن الأبرص، فالحقيقة أنه أكثر من ذكر المقدمات الطللية مقترنة بعلاقته بالمرأة، ولكن الملاحظ - هنا - أن ذكر هذه العلاقة لم تكن بامرأة بعينها فمرة سعدى، وتارة أخرى فاطمة، وثالثة سليمى، ورابعة هند، وقد يذكر علاقته بامرأة أخرى تدعى أم سلم يقول في ذلك:

تُحاوِلُ رسماً من سُلَيمَى دَكادِكَا ... خَلاءً تُعَفِّيهِ الرِّياحُ سَوَاهِكَا

تَبَدَّلَ بَعْدِي مِنْ سُلَيْمَى وأَهْلِها ... نَعاماً تَرَعَّاهُ وأُدْماً تَرائِكا

---

١- انظر الغزل في العصر الجاهلي للدكتور أحمد الحوفي ص ١٤٤.
٢- انظر معجم الشعراء ص ٢٩٤، وانظر المؤتلف والمختلف ص ١٢٧.
٣- انظر المؤتلف ص ١٢٧ - ١٢٨.

وقفتُ بهِ أبكي بُكاءَ حمامةٍ ... أراكيَّةٍ تدعو الحمامَ الأوارِكا(١)

ويقول في أم سلم:

أمِنْ أمِّ سلمٍ تلكَ لا تَسْتَريحُ ... وليسَ لحاجاتِ الفُؤادِ مُريحُ(٢)

ويقول في هند:

يا دارَ هندٍ عَفَاها كلُّ هَطَّالِ ... بالجَوِّ مثلَ سَحيقِ اليُمْنَةِ البَالي
حَبَسْتُ فيها صِحَابي كَيْ أسائِلَها ... والدمْعُ قَدْ بَلّ مِنّي جَيْبَ سِرْبَالي(٣)

ويقول في فاطمة:

لِمَنِ الدِّيارُ بصاحَةٍ فَحْرُوسِ ... دَرَسَتْ مِنَ الإِقْفَارِ أيَّ دُرُوسِ
دَارٌ لفاطِمَةَ الرَّبيعَ بغَمْرَةٍ ... فَقَفَا شَرَافٍ فَهَضْبِ ذَاتِ رُؤُوسِ
وَسَبَتْكَ نَاعِمَةٌ صَفِيٌّ نَواعِمٍ ... بيضٍ غرائِرَ كالظِّبَاءِ العِيسِ
خَوْدٌ مُبَتَّلَةُ العِظَامِ كأنّهَا ... بَرْدِيَّةٌ نبتَتْ خلالَ غُرُوسِ(٤)

وأخيراً سعدى حيث يقول:

لِمَنْ دِمْنَةٌ أقْوَتْ بجُوَّةِ ضَرْغَدِ ... تَلُوحُ كَعُنْوانِ الكِتَابِ المُجَدَّدِ
لِسَعْدَةَ إذْ كَانَتْ تَثِيبُ بُودِّهَا ... وإذْ هِيَ لا تَلْقَاكَ إلاّ بأسْعَدِ
وإذْ هيَ حَوْراءُ المَدامِعِ طِفْلَةٌ ... كَمثلِ مهاةٍ حُرَّةٍ أمِّ فَرْقَدِ
فَقَدْ أورَثَتْ فِي القَلْبِ سُقْماً يَعُودُهُ ... عِياداً كَسُمِّ الحَيَّةِ المُتَرَدِّدِ
غَداةَ بَدَتْ مِن سِتْرِهَا وكأنّمَا ... تَحَفُّ ثَنَاياهَا بحَالِكِ إثْمِدِ
وتبْسُمُ عنْ عذبِ اللّثَاتِ كأنّهُ ... أقاحِي الرُّبَى أضْحَى وظَاهِرُهُ نَدِي
فإنّي إلى سُعْدَى وإنْ طَالَ نأيُها ... إلى وصلِها ما عشتُ كالحائِمِ الصَّدِي(٥)

إن وصف عبيد للعلاقة التي تربطه بالمرأة ـ على هذا النحو ـ ليدل على غزل يقترب إلى حد كبير من معاني العفة والبعد عن متطلبات الجسد، وهو وان فضل أحياناً في أوصافه إلا أنه كان في هذا التفصيل يقصد إبراز المقاييس الجمالية للمرأة كما يتصورها، وما ذاك إلا كي يزيد من جمالها في أعيننا، فهي ناعمة غريرة كالظبي، وهي مبتلة العظام ممشوقة القد جوراء العينين تتجمل بضروب من الطّيب، وكل هذه الصفات التي يوردها الشاعر إنما هي استكمال للنظرة إلى الجمال المثالي الذي

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ٩١ ـ ٩٢.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ٢٩ ـ ٣٠.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ١٠١ ـ ١٠٢.
٤ـ انظر المصدر السابق ص ٦٧ ـ ٦٨.
٥ـ انظر ديوان عبيد ص ٥٢ ـ ٥٤.

ينشده الشاعر في المرأة. وهو يصدر عن ألم ومعاناة في ذلك كله ولعل حديثه عن المرأة مملوء بالحزن ومفعم بالأسى، ويصل به الأمر إلى درجة البكاء أحياناً، والملاحظ أن الصورة المقابلة وهي صورة المحبوبة لا تطرأ عليها تغييرات ونستطيع القول: إن موقف هذه الحبيبة غامض أننا لا نجد أي رد فعل صادر عنها في هذا كله، ولا نشعر بأي صوت لها. وعلى وجه العموم فان اتجاه المقدمة الطللية عند شعراء بني أسد يضعنا أما صورة امرأة هاجرة أو راحلة، وشاعر يائس يبكي الدمن الدارسة دون جدوى ويجتر ذكرياته الماضية، ولعل مما يظهر لنا لوعة الشاعر الأسدي يصوره أكثر جلاء هو تعداده الأماكن التي تخص المحبوبة أو كانت تخصها في الماضي، وتفحصه لهذه الأماكن وتأمله فيها.

والواقع أن عبيد بن الأبرص لم يكن ليوقف علاقته بالمرأة عند هذا الحد بل سنراه يتجه اتجاهاً حسياً تاماً إلى المرأة في أثناء دراستنا الاتجاه الحسي عند شعراء بني أسد، مما يرجح لدينا أن، الشاعر إنما لجأ إلى عدم الحسية أو الغزل العفيف هذا في فترة متأخرة من حياته.

على أن شعراء آخرون من بني أسد قد نهجوا هذا النهج ونفذوا من خلال المقدمة الطللية إلى وصف علاقتهم بالمرأة، وهي نراها تتسم بالعفة، وعدم الخوض في وصف جسم المرأة المحبوبة. ومن هؤلاء عمرو بن شأس الأسدي الذي يطل علينا في أكثر من قصيدة مصوراً علاقته بالمرأة حيث يقول في إحداها:

أتعرفُ منزلاً من آلِ لَيْلَى ... أَبَى بالثَّعْلَبِيةِ أنْ يَرِيمَا
أَرَبَّ بها مِنَ الأرْواحِ سَافٍ ... فَغَيَّرْنَ المنازلَ والرُّسُوما
وقدْ تَغْنَى بها لَيْلَى زَمَاناً ... عَرُوباً تُونِقُ المرءَ الحَلِيمَا
ليالِي تستَبِيكَ بجيدِ رِئْمٍ ... وعَيْنَيْ جُؤْذَرٍ يَقْرُو الصَّرِيمَا
وأنفٍ مثلِ عِرقِ السَّامِ حُرٍّ ... وتسمعُ منطقاً منها رَخِيماً
بَرَهْرَهَةٌ يحارُ الطَّرْفُ فيها ... وتبدِي واضِحاً فَخْماً وَسِيماً
وتبسِمُ عن شَتِيتِ النَّبْتِ غُرٍّ ... عِذابٍ تُبرِئُ الدَّنِفَ السَّقِيمَا
تُبُذُّ الغانياتِ بِكُلِّ أرْضٍ ... إذا أخَذَتْ وِشاحاً أَوْ بَرِيمَا[1]

إن الشاعر الأسدي لا يتجاوز المعاني المعهودة في مثل هذه المواقف، بل زادنا تفصيلاً بإيراده صفات محبوبته حتى أننا تصورناها ملكة جمال فاتنة قلما يوجد لها مثال، وله أكثر من قصيدة على هذه الشاكلة[2] ونلمس في اللوحات الطللية التي تحدث فيها هذا الشاعر مصوراً تجاربه مع المرأة وعلاقاته بها ترداده لاسم ليلى أكثر من مرة فقد أورده ثلاث مرات، واكتفى باسم هند فذكره مرة واحدة، وأما زوجه أم حسان فقد ورد ذكرها مرتين في شعره، واللافت للنظر عند شعراء بني أسد هو كثرة شكواهم من النساء، وأغلب تلك الشكوى كانت تأتي نتيجة لكبر الشاعر وشيبه أو فقره وعوزه، وسوف نقف عند هذه الظاهرة في هذا الفصل.

وإذا انتهينا إلى شاعر أسدي آخر هو بشر بن أبي خازم وجدناه ممن يمثلون هذا الاتجاه في شعر بني أسد - أيضاً - فهو لم يفرد قصيدة واحدة في الغزل تدل على أنه تعلق بامرأة معينة دون سواها،

---

١- انظر شعر عمرو بن شأس الأسدي ص ٥١ وما بعدها.

٢- انظر المصدر السابق ص ٥٥، ٧٧، ٨٢، ٢٥.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن بشراً يعد من أكثر الشعراء الأسديين وقوفاً على الأطلال، وهو في ذلك الوقوف المتكرر كان لا يقيم على ذكر واحدة معينة، فهو يذكر سلمى أكثر من ثماني مرات في ديوانه ويتفاوت في ذكر هند، وفاطمة، وأميمة، وليلى، وأسماء إلى غير ذلك من أسماء النساء.

وواقع الأمر في هذه الأسماء وتعددها - كما نراه - أنه ليس أكثر من مجرد أسماء نساء تعرفهن الشاعر في أثناء حله وترحاله، إذ أن طبيعة الحياة الجاهلية كانت تقوم على عدم الاستقرار المكاني، وبالتالي فان القبيلة الواحدة كانت تجاور قبائل كثيرة، ويستتبع هذا قيام علاقات بين الناس ما تلبث أن تنفصم عراها بمجرد رحيل القوم مخلفة آثاراً في نفس الشاعر الجاهلي، ومحدثة هذه اللوعة في نفسه.

ولعل بشر بن أبي خازم - كغيره من شعراء هذا الاتجاه - كان يصدر عن علاقة بعيدة عن الوصف الحسي للمرأة، فهو يبرز لنا جمالها بشكل عام، ويبالغ في وصف ذلك الجمال - كالعادة - وقد مر بنا مثل هذا الوصف عند عبد بن الأبرص وعمرو بن شأس ومرة بن الرواع وكلهم من بني أسد.

وعلى أية حال فصورة محبوبة بشر تتمثل في أنها آنسة لعوب لم تر بؤساً في حياتها، فهي منعمة، وهي ضامرة الكشح ثقيلة الأرداف يقول في وصفها:

أَلاَ بَانَ الخَلِيطُ ولَمْ يُزَارُوا ... وقَلْبُكَ فِي الظَّعائِنِ مُسْتَعَارُ
أُسائِلُ صَاحِبِي ولقَدْ أُرَانِي ... بَصِيراً بالظَّعائِنِ حيثُ صَارُوا
وفِي الأَظْعانِ آنِسةٌ لَعُوبُ ... تَيَمَّمَ أَهْلُها بلَداً فَسَارُوا
مِنَ اللاتِي غُذِيْنَ بغيرِ بُؤْسٍ ... مَنازِلُها القُصَيْبَةُ فالأُوَارُ(١)
نَبِيلةُ موضِعِ الحِجْلَيْنِ خَوْدٌ ... وَفِي الكَشْحَيْنِ والبَطْنِ اضْطِمارُ
ثِقالٌ كلَّما رامَتْ قِياماً ... وفِيها حِينَ تَنْبَعِثُ انبِهارُ(٢)

وهي ذات فم عذب الريق، وشعر، فاحم اللون يشبه ظلمة الليل يقول:

تَغَيَّرتِ المنازلُ مِن سُلَيْمَى ... بِرامَةَ فالكَثِيبِ إلى بُطاحِ
لَيالِي تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ ... يُشَبَّهُ ظُلْمَةٌ خَضِلَ الأَقاحِي
كأَنَّ نِطافَةً شِيبَتْ بِمِسْكٍ ... هُدُوّاً فِي ثَناياها بِراحِ(٣)

وهي علاوة على ذلك كله تتزين بالحلي وتتقلد السموط يقول بشر:

أَهَمَّتْ منكَ سَلْمَى بِانطِلاقِ ... وليسَ وَصالُ غانِيةٍ بِباقِي
مُقَلَّدةً سُمُوطاً مِنْ فَرِيدٍ ... يَزِينُ الجِيدَ مِنْها والتَّراقِي(٤)

---

١- البيت في المفضليات: ( من اللائي ).
٢- انظر ديوان بشر ص ٦١ وما بعدها ويؤكد على هذا المعنى في ص ١٦١.
٣- انظر المصدر السابق ص ٤٣ ويؤكد على هذا المعنى في ص ٢٠١.
٤- انظر المصدر السابق ص ١٦١ وانظر الصفحات ٢٠، ٣٣، ٩٩، ١٥٧، ١١٣، ١٦٧، ٤٩، ١٨٦.

ويضيق بنا المجال إذا نحن رحنا نستقصي كل ما قاله هذا الشاعر الأسدي في تصوير علاقته بالمرأة من خلال المقدمة الطللية التي أصبحت ـ على هذه الشاكلة ـ تمثل نغمة فردية، يلوذ الشعر بها كي يحقق خصوصيته وحضوره الذاتي، ويعبر عن تجربته الخاصة، ويجتر الذكريات السالفة، ولعلها في الوقت ذاته أمست مجالاً خصباً لاستعراض قدرات الشعراء ـ الأسديين والجاهليين بعامة ـ الفنية في تلوين هذه اللوحة بما كان يعتمل في نفوسهم في مثل تلك اللحظات، إلا أننا نستبعد أن تكون هذه المقدمات الغزلية قد قيلت ـ كلها ـ على محمل الجد والصدق والواقعية، فربما لاح لنا أن الشاعر الأسدي كان في بعض الأحيان يلجأ إلى ذكرها لمجرد أنها تقليد فني متعارف عليه لا أكثر، وهذا لا يمنع من أن قدراً منها قد قيل من واقع حياة الشعراء الجاهليين، ومن الغريب أن يأتي صاحب كتاب "الموشى" فيقول: أن بشراً كان يعشق امرأة واحدة هي هند(1) مع أنه لم يتطرق إلى ذكر هند سوى مرتين في قصيدته التي مطلعها:

أَتَعْرِفُ مِنْ هُنَيْدَةَ رَسْمَ دارٍ بِخَرْجَي ذَرْوَةٍ فَإِلى لِوَاهَا
وَمَا أَشْجاكَ مِنْ أطلالِ هِنْدٍ وَقَدْ شَطَّتْ لِطِيَّتِها نَوَاهَا(2)

ولا ندري من أين استقى هذا الخبر؟ فشعر الشاعر لا يدل على ذلك، بل إذا نظرنا إلى أسماء النساء اللواتي ذكرهن بشر وجدنا هنداً أقلهن ذكراً فإذا كان مجرد ذكر الاسم في شعر الشاعر يدل على عشقه لها، فمن الأولى أن يعشق بشر من تسمى "سلمى" لأنها كانت أكثر النساء وروداً في شعره كما يتضح من الديوان، ولكن الأمر ـ كما يخيل إلينا ـ لا يعدو كونه رمزاً للمرأة بصورة عامة كما هو الحال عند معظم الشعراء الجاهليين، وربما يكون الأمر مجرد تقليد جرى عليه الشعراء في بدايات قصائدهم فالاسم ـ في نظرنا ـ لا يعني شيئاً معيناً، ولا يحمل دلالات خاصة(3) ولذا فان الأسماء كلها تتساوى في المقدمة الطللية عند شعراء بني أسد.

وليس وجود المقدمة الطللية شرطاً أساسياً عند شعراء بني أسد فنحن نرى بعض القصائد التي خلت من هذه المقدمة ـ أصلاً ـ فعبيد بن الأبرص يخاطب بني جديلة متوعداً وشامتاً بغير مقدمة إذ يقول:

أُنبِئْتُ أنَّ بني جُدَيْلَةَ أَوْعَبُوا نُفَرَاءَ مِنْ سَلْمى لَنا وتَكَتَّبُوا(4)

وفي قصيدة أخرى يرد فيها على لوم زوجه إذ بدأها بقوله:

هَبَّتْ تلومُ وليستْ ساعةَ اللاّحِي هلاّ انتظَرْتِ بهذا اللومِ إصْبَاحِي(5)

---

١ـ نظر كتاب الموشى طبع الخانجي بمصر ص ٦٨.

٢ـ انظر ديوان بشر ص ٢١٩.

٣ـ يذهب بعض الباحثين إلى تحميل أسماء المرأة رموزاً ودلالات خاصة فيها يربطون فيها بين المرأة والشمس وتقديسها وكذلك بين المرأة ومظاهر الخصب والنماء ومن هؤلاء الدكتور نصرت عبد الرحمن في كتابه "الصورة الفنية في الشعر الجاهلي" والدكتور أحمد كمال زكي في كتابه "الأساطير".

٤ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٣ وما بعدها.

٥ـ انظر المصدر السابق ص ٣٤ وله قصيدة أخرى من هذا القبيل يمدح فيها شراحيل بن عمرو بن الحارث ص ٤٢ وله بقصيدة أخرى ص ٥٨.

ولا ندري - في الحقيقة - إن كانت لهذه القصائد مقدمات طللية ضاعت ولم تصل إلينا، أو أنها قيلت هكذا دون مقدمات. ومما يرجح لدينا الأمر الأخير أن بعض القصائد الجاهلية وردت بلا مقدمات طللية[١].

وهناك شاعر أسدي آخر هو ربيعة بن أسعد جذيمة "أبو ذؤاب" يقول مخاطباً بني تميم لقتلهم ابنه:

أَبْلِــغْ قَبــائِلَ جَعفــرٍ مَخْصُوصــةً ... مــا أنْ أُحــاولَ جعفــرَ بــنَ كــلابِ[٢]

بيد أن الذي يهمنا من شعر هذا الاتجاه، وما حوى من مقدمات طللية هو كنه العلاقة بين الشاعر الأسدي والمرأة، وهل عبر في هذا الاتجاه عن صدق العواطف والمشاعر تجاه المرأة؟ والحقيقة أن القطع بمثل هذه الإجابة يعد ضرباً من المجازفة والمقامرة، إلا أنه على الرغم من أن كثيراً من هذه المقدمات الطللية قد جاء نتيجة لتقليد درج عليه معظم الشعراء الجاهليين وليس الأسديون فحسب، فان الغالب من هذه المقدمات إنما يدل على مكانة المرأة في نفس الشاعر، ويعبر عن مدى إعزازه لها، ويظهر ذلك بصورة واضحة من خلال هذا الحنين الجارف الذي يصوره الشاعر نحوها، كما يبدو من خلال تتبع الشاعر الدقيق لرحلاتها من مكان إلى مكان، ووقوفه على ديارها باكياً مستوقفاً الصاحب والرفيق، ولعل وقوف الشاعر الأسدي الجاهلي بعامة على الطلل هو ارتباط بإنسانيته أولاً، وبميوله ونوازعه الفردية في ماضيه وحاضره، وهي كما يقول الدكتور نوري القيسي "تمثل الحنين إلى الوطن فلا غرابة إذا رأينا هذا الشاعر يبرز شخصيته محاولاً إثبات وجوده المبعثر هذه الصحراء التي لم يضمن فيها مسكناً يلم حياته الضائعة وسط رحلة لا تستقر، وهو في تذكره للأحبة وبكائه عليهم إنما يبكي نفسه وذلك الجزء الذي مضى من عمره ولن يعود بأي حال"[٣].

والحقيقة أن المقدمات الطللية لا تدل على عاطفة الشاعر نحو المرأة فحسب وتصوير مدى ارتباطه بها، وإنما تدلنا على الارتباط الذي شعر به الشاعر نحو تلك الأماكن التي قضى فيها أوقاتاً سعيدة في يوم ما، وكان له فيها ذكريات حلوة مع من أحب، وبناء على هذا فان هذا الاتجاه قد صور لنا فيه الشاعر الأسدي - بخاصة - والجاهلي — بعامة — أصدق العواطف الإنسانية والمشاعر الفردية، ولا نستطيع اتهام الشاعر الجاهلي - هنا - بتزييف العاطفة أو المجيء بها بوصفها نوعاً من التقاليد والمحاكاة المتعارف عليها في هذا المقدمات الطللية.

أما إذا كنا قد أشرنا إلى أن هؤلاء الشعراء الأسديين لم يثبتوا على ذكر امرأة بعينها في قصائدهم في أثناء تناولهم لهذه المقدمات فليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا الوفاء والإخلاص لواحدة دون سواها، وليس من شك في أن بعضهم قد شغفه حب امرأة واحدة، وعرف الحب في حياته بصورة أو بأخرى فهذا هو الأمر الطبيعي في حياة الإنسان ويشير الدكتور البهبيتي إلى مثل هذا حين يقول موضحاً الفرق بين الغزل في العصر الجاهلي والعصر الإسلامي، مشيراً إلى رمزيته الأول وجريان الثاني مجرى تحقيقياً معتمداً على المكابرة والإحساس، ويقول الدكتور البهبيتي بعد هذا "ولست

١- انظر كتاب: "مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي للدكتور حسين عطوان ص ١٠٨ طبع دار المعارف.

٢- انظر المؤتلف والمختلف ص ١٢٦ والحماسة بشرح المرزوقي ص ٨٤٣ الجزء الثاني.

٣- انظر وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية للدكتور نوري القيسي طبع الموصل ١٩٧٤. المقدمة.

أقصد أن الشاعر الجاهلي لم يعرف الحب أو أنه لم يتذوقه، فتلك دعوى تافهة لا تستحق النظر، إذ كيف يستطيع الشاعر أن يصور الأمور بغزله الرمزي دون أن يستخلص عناصر هذا التصوير من ممارسته لمثل هذه العواطف"[١].

وصفوة القول في هذا الاتجاه أن شعراء بني أسد قد صوروا عواطفهم الفردية، ونظر كل شاعر منهم نظرته الخاصة للطلل وان اجتمعوا في الإطار العام لهذه الصورة، وقد نفذ كل منهم إلى تصوير علاقاته بالمرأة وهي عموماً علاقة حب، وإعزاز، وتقدير، وحنين عارم يملأ جوانح الشاعر الذي استطاع من خلال وصفه الشخصي وتلوينه في رسم هذه الصورة أن يمس أعمق مشاعر النفس الإنسانية، ويجعل من تجربته الخاصة تجربة عامة اكتسبت صفة الشمولية التي تذكر الفرد بماضيه، وبمزائع لهوه وشبابه، وتضعه وجهاً لوجه أمام حاضره المشتت الذي لف نفسه الحزينة بثوب من الكآبة بوجه عام.

وأما الاتجاه الثاني فهو اتجاه الغزل الحسي المباشر، ووصف محاسن المرأة ومفاتنها دون تحرج، ولعل الأقدمين حين تساءلوا أي الثلاثة أحسن وصفاً للغيث عبيد أم امرؤ القيس أم سحيم؟[٢] قد تنبهوا إلى وجود رابطة ما تربط بين هؤلاء الشعراء، ويذهب بعض الباحثين إلى القول بتلمذة امرئ القيس على يد عبيد بن الأبرص في بعض مناحي الوصف وبخاصة وصف الغيث[٣].

ويذهب الدكتور الحوفي إلى أن امرؤ القيس وسحيما قد اتفقا في بعض وجوه الغزل الصريح[٤] ويكاد هؤلاء أن يجمعوا على أن امرأ القيس وسحيما والأعشى يقفون على قمة الشعراء الجاهليين الذين اتجهوا هذا الاتجاه الحسي في التعبير عن علاقاتهم بالمرأة وقد خلا حديثهم من ذكر عبيد بن الأبرص الذي يمثل - في رأينا - قمة هو الآخر في هذا الاتجاه، وقد رأينا أنه لا يقل جرأة وصراحة وحسية في التعبير عن امرئ القيس بن حجر، فعبيد بن الأبرص لا فرق عنده في مطارحته الغرام لأمة أو حرة عذراء وربما عبر بكل فحش عن هذا الفعل بقوله:

وقـدْ تَبَطَّنْـتُ مثـلَ الرئـمِ آنِسـةً ... رُودَ الشَّـبابِ كِعَابـاً ذاتَ أَوْضَـاحِ
تُدْفِـي الضَّجيـعَ إذَا يشـتُو وتَخصِـرُهُ ... فِي الصَّيفِ حينَ يطيبُ البَرْدُ للصَّاحِي
تَخـالُ ريـقَ ثَناياهَـا إذا ابتسـمَتْ ... كَمـزجِ شَـهْدٍ بـأُتْرُجٍ وتُفّـاحِ
كـأنَّ سُـنَّتَها فِـي كُـلِّ داجِيَـةٍ ... حينَ الظَّـلامُ بَهِيـمٌ ضَـوءُ مِصْبَـاحِ[٥]

فالعلاقة - كما هو واضح - علاقة مضاجعة جنسية بحتة مع هذه المرأة رائدها المتعة واللذة، وقد جاء وصف الريق والوجه هنا ليس من قبيل المقياس الجمالي - كما رأينا في الاتجاه السابق - بل لتعميق هذه النظرة الحسية للمرأة لأنها تشعرنا بالممارسة لما قصده الشاعر. وقد يلج الشاعر بيت العذارى دون تحرج أو تعفف فيصرح بذلك بكل جرأة حيث يقول:

---

١- انظر تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث هـ. للدكتور البهبيتي ص ١٤٤.
٢- انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٧٦.
٣- انظر مقدمة ديوان عبيد بقلم تشارلز لايل ص ١٦ وانظر كتاب سيد حنفي "الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية" ص ٦٢ وما بعدها. انظر "العصر الجاهلي" للدكتور شوقي ضيف ص ٢٤٨.
٤- انظر الغزل في العصر الجاهلي ص ٢٣٨ وما بعدها للدكتور أحمد الحوفي.
٥- انظر ديوان عبيد ص ٤٠.

وبيتِ عَـذارَى يرْتَمِيـنَ بخِـدْرِهِ دَخَلْـتُ وفيـهِ عـانسٌ ومريـضُ
فَأقرضْتُهـا وِدّي لأجْـزاهُ إنّمـا تَـدُقُ أيـادِي الصَّالِحينَ قُـرُوضُ(١)

وقد يزور الشاعر بائعة هوى فيعبر عن ذلك قائلاً:

وبَيْـتٍ يفـوحُ المسـكُ مـن حُجُراتِـهِ تَسَـدَّيتُهُ مـن بيـن سترٍ ومَخطُـوب
ومُسْمِعَةٍ قدْ أصحَـلَ الشَّـرْبُ صوتَهـا تـأوّى إلى أوتـارِ أجْـوَفَ مَحْنُـوبِ(٢)

ويبدو أن من كانت هذه عادته وهذا دأبه لا يفرق كثيراً بين النحيفة. والمرأة السمينة الجسيمة، فالمهم أولاً الاستمتاع واللذة. خمر ونساء متعتان معاً لشاعرنا عبيد في وقت واحد حيث يقول:

وقَهـوةٍ كَرُفـاتِ المسـكِ طـالَ بهَـا فِـي دنّهـا كَـرُّ حَـوْلٍ بعـدَ أحْـوَالِ
باكرتُهـا قبـلَ أنْ يبـدُو الصبـاحُ لنـا في بيـتِ مُنْهَمِـرِ الكفّيـنِ مِفْضـالِ
وغيلَـةٍ كَمَهـاةِ الجَـوِّ ناعمـةٍ كـأنَّ ريقتَهـا شِـيبَتْ بسَلْسَـالِ
قَـدْ بِـتُّ أُلعِبُهـا طـوراً وتُلعِبُنِـي ثـمَ انصَرَفْتُ وَهِـي مِنّي عَلـى بـالِ(٣)

والشاعر لا يكتمّ ما يحدث بينه وبين المرأة من فعل أو حركة في مثل تلك الأحوال، فهو لا يبقي على نفسه ويصف أدق ما يحدث بين الرجل والمرأة في موقف كذاك. إذ يقول:

ولَقَـدْ أدخُـلُ الخِبـاءَ عَلـى مهـ ضُومـةِ الكَشْـحِ طفلـةٍ كـالغَزالِ
فَتَعـاطَيْتُ جيدَهـا ثـمَّ مـالَتْ مَيَـلانَ الكَثِيـبِ بيـنَ الرِّمـالِ
ثـم قـالتْ: فَـدىً لنفسِـكَ نفسِـي وفـداءٌ لِمـالِ أهلِـكَ مـالِي(٤)

وقد لا يكتفي عبيد بمباشرة امرأة واحدة بل يعمد إلى أكثر من واحدة في مجلس لهو وعبث إذ يقول:

فقَـدْ أَلجُ الخِبـاءَ علـى العَـذارَى كـأنّ عيونَهُـنَّ عيـونُ عِيـنِ
يَمُلْـنَ علـيَّ بـالأقرابِ طَـوراً وبالأجْيـادِ كـالرَّبْطِ المَصُـونِ(٥)

وبهذا ومثله كان عبيد يصور علاقته الحسية بالمرأة أو يعبر عن غزله الصريح على هذه الشاكلة مع بائعات الهوى ذوات الرايات الحمراء باللواتي أشار إليهن صاحب العقد(٦) والإماء وحتى الحرائر لم يسلمن من الشاعر فحديثه عنهن حديث المتعة واللذة إذ يقول:

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ٨٠.
٢ـ انظر ديوان عبيد ص ٢٧.
٣ـ انظر ديوان عبيد ص ١٠٣.
٤ـ انظر المصدر السابق ص ١١٠.
٥ـ انظر المصدر السابق ص-١٣٤.
٦ـ انظر العقد الفريد الجزء الثالث ص ٢.

فأُبْنا ونازَعْنا الحديثَ أَوانِساً ... عليهنَّ جَيْشَانِيةٌ ذاتُ أغْيَالِ
فمِلْنَ إلينا بالسَّوالِفِ وانْتَحَى ... بنا القَولُ فيما يَشْتَهِي المَرِحُ الخَالِي[١]

فإذا كان امرؤ القيس بن حجر أجرأ الشعراء وأفحشهم في الحديث عن النساء فربما يكون ذلك عائداً إلى كونه ابن ملك لا يخشى لوم لائم أو تعنيف معنف، لكن عبيد رجل عادي قد تحاسبه القبيلة على ما يصدر منه إذا كان ذلك يضر بمصلحتها فهو ملتزم إلى حد ما بما تفرضه عليه الأعراف والتقاليد القبلية، هذا من جهة أما الاستغراق في الوصف الحسي للمرأة، وتصوير المتعة واللذة ومجالس اللهو فنجده عند امرئ القيس بصورة واضحة، علي أن عبيد بن الأبرص كان يعرض لذلك في ثنايا شعره عرضاً خاطفاً، ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعل الباحثين يغفلون عنه فلا يضعونه ضمن أصحاب بل مؤسسي هذا الاتجاه، وإذا كان لنا أن نتساءل من أين جاءت هذه الجرأة في وصف المرأة لعبيد؟ فكما معروف أن العربي عموماً لم يصل به الحد إلى مثل هذه الدرجة من التصريح بمثل هذه العلاقات ـ نقول ربما جاءت إلى شاعرنا ومعه امرؤ القيس بن حجر من جراء اتصالهما بالحيرة وبيئتها، وكثرة الجواري عند أسرة آكل المرار في الوقت الذي شاع فيه مذهب فردك في أرض فارس من إباحية للأموال والنساء، وليس من المستبعد أن الشاعرين قد تأثرا وانغمسا في ذلك التيار الوافد من أرض فارس في فترة من فترات حياتهما، وهذا مجرد احتمال وفرض قابل للنقاش وبخاصة إذا ما علمنا أن عبيدا كان نديما في بلاط حجر بن الحارث وعلى اتصال وثيق به.

على أن هذه الحسية في الغزل عند عبيد لم تكن الوحيدة في قبيلة بني أسد بل نجدها عند شاعر آخر وهو من موالي بني أسد انه سحيم عبد بني الحسحاس، وكان عبدا من عبيدها وكان سحيم هذا عبدا حبشياً بيد أنه شديد الكبرياء والاعتزاز بنفسه، طموحاً إلى ما لا يؤهله وضعه الاجتماعي للوصول إليه مما ساقه ذلك إلى مصرعه[٢].

ولسنا بصدد مناقشة ظروف مصرعه فذلك حديث سنعرض له في حينه، وإنما الذي يهمنا هو ذلك الاتجاه الحسي في الغزل الذي صدر عن هذا الشاعر المتأخر عن عبيد موصل هذا الاتجاه في قبيلة بني أسد ـ وليس من المستبعد أن يكون سحيم قد تأثر بما قاله عبيد وامرئ القيس ـ كما مر بنا من إشارة بعض النقاد القدامى إلى ذلك ـ ولعل أول نقطة يجدر بنا الوقوف عندها ـ كي تتضح لنا الصورة ـ هي مشكلة اللون عند سحيم، فربما كانت هذه المسألة هي التي دفعته إلى الخوض في مثل هذا الاتجاه الحسي ـ كرد فعل منه على ما هو فيه ـ وفيما تروى الأخبار عن هذا المولى أنه كان شديد التأثير في النساء، وكثير التصبب بهن، وكانت النساء تنظر إليه نظرة فيها شيء من الاحترام، وسنعرض لهذه الأخبار في حينها في أثناء دراستنا لهذا الشاعر في الفصل الخاص بشعراء بني أسد الموالي والعبيد منهم. على أن سحيما هذا كان سليط اللسان لا يكتم سرا لعلاقته بامرأة، ـ وكأنه يتباهى بالحصول على مالا يحصل عليه بعض الأحرار، وقد تحدث كاشفاً ما يربطه من علاقات مع النساء الأسديات من أبناء سادته أو غيرهم من نساء القبائل الأخرى، ومن ذلك ما يرويه أبو عبيدة معمر بن المثنى من أن سحيماً "جالس نسوة من بني صبير بن يربوع من تميم وكان من شأنهم إذا

---

١ـ انظر ديوان الشاعر ص ١١٤.
٢ـ انظر تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري للدكتور البهبيتي ص ٢١٥.

جلسوا للغزل أن يتعابثوا بشق الثياب وشدة المعالجة على إبداء المحاسن فقال سحيما:

كـأنّ الصُّبَيْرِيّـاتِ يـومَ لقِيْنَنـا ظِبَـاءٌ حَنَـتْ أعْنَاقَهـا في المَكَـانِسِ
وهُـنَّ بنـاتُ القَـومِ إنْ يشـعُرُوا بنـا يَكُـنْ فِـي بناتِ القَـوْمِ إحـدَى الدَّهـارِسِ
فَكَـم قـدْ شَـقَقْنا مِـنْ رداء مُنَيَّـرٌ ومِـنْ بُرقـعٍ عـنْ طِفْلـةٍ غـيرِ عَـانِسِ
إذا شُـقَّ بُـردٌ شُـقَّ بـالبُردِ بُرقُـعٌ دَوالَيْـكَ حتّـى كلُّنا غـيرُ لابِـسِ(١)

والواقع أننا نقف من خبر أبي عبيدة هذا موقف الشك وذلك لأننا لم نسمع بمثل هذه العادة عند القبائل العربية في الجاهلية، ولم يقل بذلك أحد ـ سوى أبي عبيدة ـ من المؤرخين أو النقاد القدامى الذين عاصروا أبا عبيدة. ونرجح أن يكون هذا الأمر لا يعدو كونه ضرباً من اللهو ربما كان غريبا عن البيئة العربية كلها، وبناء على ذلك فنحن نرفض قبوله على أنه عادة اعتاد عليها القوم.

ومما نلمس فيه هذه النزعة الحسية عند سحيم قصيدته المشهورة "عميرة ودع إن تجهزت غاديا" بل يخيل إلينا ونحن نقرأ أبياتها أننا أمام قصيدة لامرؤ القيس في هذا المجال، ففيها من الغزل الصريح المكشوف، والتعبيرات الفاحشة ما يحدث عنه الباحث بلا حرج. وتتضح صورة المرأة ـ هنا ـ بأنها لا تعدو مجال تجربة جنسية يصورها لنا الشعر، ولا تتخطى هذا الرمز الشهوي بأي حال حيث يقول:

فَبِتْنَـا وسَـادَانَا إلَـى عَلَجَانَـةٍ وحِقْـفٍ تهـادَاهُ الرِّيـاحُ تَهادِيَـا
تُوَسِّـدُ فِـي كَفّـاً وتُثْنِـي بِمِعْصَـمِ عَلَـي وتَحْـوي رِجْلَهَـا مِـنْ وَرَائِيَـا
وهَبَّـتْ لَنَـا رِيـحُ الشَّـمالِ بِقِـرَّةٍ ولا ثَـوْبَ إلا بردُهَـا وَرِدَائِيَـا
أُقَبِّلُهَـا للجـانِبَيْنِ وأتَّقِـي بِهـا الريـحَ والشَّـفّانَ مِنْ عـنْ شَـمالِيَا(٢)

وهكذا فانّ نظرة سحيم للمرأة لا تعدو كونها نظرة رجل استحوذت عليه الشهوة دون تبصر بالعواقب، ودون مراعاة لوضعه بوصفه عبداً رقيقا، وسيان عنده النساء أكن من تميم أو من نساء سادته من بني أسد بل من نساء بني الحسحاس سادته الأقربين، ونجده غير آبه بالتهديد، ونلمح فيه كل إصرار على مواصلة تعهره والتعبير عن علاقاته بكل فحش إذ يقول:

إن تقتُلونـي فقَـدْ أسـخَنْتُ أعيُنَكُـمْ وقـد أتيـتُ حرامـاً مـا تَظُنُّونَـا
وقـد ضمَمْـتُ إلَـى الأحْشَـاءِ جَارِيَـةً عـذبٌ مقبَّلُهـا مِمّـا تصُونُونَـا(٣)

ويصل به الأمر إلى التحدي فنراه يتحدى سادته من بني أسد عندما هموا بقتله للتشبيب بنسائهم وتصريحه بذلك، إذ يقول بعد أن شدوا وثاقه لإنزال عقابهم به:

شُـدُّوا وِثـاقَ العَبْـدِ لا يَفْلِتَنَّكـم إنَّ الحيـاةَ مِـنَ المَمَـاتِ قريـبُ

---

١ـ انظر ديوان سحيم ص ١٥ ـ ١٦ والدهارس: الدواهي.
٢ـ انظر ديوان سحيم ص ١٩ ـ ٢٠.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٥٩.

فَلَقَدْ تَحَدَّرَ مِنْ جَبِينِ فَتَاتِكُم عرقٌ علَى ظَهْرِ الفِرَاشِ وَطِيبُ[1]

أو بعد هذا من تفحش وتعهر؟ ولا شك أن، كون الشاعر أسود اللون، بالإضافة إلى كونه عبدا رقيقا مملوكا قد كان له أثر في حياته العاطفية وفي علاقته بالمرأة، وذلك أنه بحكم عمله قريب من النسوة من أبناء سادته، وكثير المكوث بينهن، وعلى هذا فالمخاطبة ميسورة سهلة ودون أية إثارة للشبهة فهو خادم من الخدم، ويبدو أن سادته من بني أسد كانوا كثيري الغياب عن الحي لمشاغلهم مما أتاح للعبد سحيم وقتاً أطول لتطوير علاقاته بالمرأة، ولا غرو في ذلك فقد عرفنا حياة بني أسد الحربية وكثرة غزواتهم وغاراتهم، ومن المؤكد أن الاستعداد الشخصي متوفر لديه بصورة تامة، ونضيف سببا آخر لعله يسهم إلى حد في توضيح هذه الشخصية الغريبة وهو كون الأحباش يميلون إلى ذكر المقابح أكثر من غيرهم، وبأنهم أهل مشاجرات وعداوات يستخفون بالحياة ومن الطبيعي أن تعاشر المرأة أو الرجل على السواء أكثر من شخص[2] فهل يمكن أن تلعب هذه الاستعدادات الوراثية إلى جانب حياة الرقيق التي يبلو فيها العبد ضروباً من العيش دوراً في تعهر سحيم في غزله إلى هذا الحد؟

على أية حال. فان الدكتور الحوفي لم يذهب بعيداً عما قلناه في هذا الشأن فهو يرى أن هذا الغزل الحسي أجنبي المتبع، نقل من الحبشة إلى اليمن وساعدت حضارة اليمن على نمائه، وتعهده بعض الشعراء المتأثرين باليمن والأحباش. وهو يبني كلامه هذا على العلاقة التي كانت تربط كندة بالحبشة، وعلى كون الأعشى كان كثير التردد على بني عبد المدان باليمن، وعلى أن عمر بن أبي ربيعة كان يعيش في جو مليء بالعبيد من الأحباش[3].

والواقع أنه ليس من المستبعد عندنا ـ بالنسبة لشعراء بني أسد وامرئ القيس ـ أن مرد هذا الاتجاه الحسي هو إتصال هؤلاء الشعراء ببيئته الحيرة والفرس، وقد تكون بعض ظواهر الزندقة تسربت إليهم من هذا الاتصال، لاسيما أن الزندقة كانت معروفة في بلاد فارس في ذلك الوقت على يد فردك ودعاته للإباحية.

وهكذا نصل إلى نهاية الحديث في هذا الجانب، ونخلص منه إلى أن بعض شعراء بني أسد قد صوروا علاقاتهم مع المرأة بلا تحرج أو تعفف، وقد بدا لنا أنهم كانوا يتفاخرون بقصهم علينا مثل تلك المغامرات ـ مظهرين لنا جوانب أخرى من شخصياته الفردية وسلوكياتهم في العيش، وقد تنوعت الصور عند كل شاعر وتفاوتت قلة أو كثرة، إلا أننا لا نجد عند بعضهم الآخر مثل هذا الاتجاه الحسي مثل بشر بن أبي خازم وعمرو بن شأس وغيرهما من شعراء هذه القبيلة المقلين، مما يرجح لدينا أن هذا التيار إنما وفد على شعراء بني أسد من خارج بيئتهم العربية، ونلمس في تعبيرهم عن هذا الاتجاه عدم الإفاضة في وصف الأعضاء بل كان همهم الأول تصوير علاقة اللذة والمتعة بصورة عامة.

---

١ـ انظر المصدر السابق ٦٠.

٢ـ انظر صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٤٠ وما بعدها وانظر كتاب الأغاني الجزء ١٥، ص ٢٢٦ طبع الدار وانظر دائرة المعارف للبستاني الجزء السادس ص ٦٧٥ وانظر الإصابة الجزء الأول ص ٨١ مطبعة مصطفى محمد ١٩٣٩ وانظر بلال الحبشي للعقاد ص ٥٤.

٣ـ انظر الغزل في العصر الجاهلي ص ٢٣١ وما بعدها.

وأما الاتجاه الثالث في علاقة الشاعر الأسدي بالمرأة فهو كما أطلقنا عليه - إن صح التعبير - اتجاه الغزل العفيف، ويقصد شعراء بني أسد في هذا الاتجاه الشاعر الفارس عمرو بن شأس الأسدي الذي صنفه ابن سلام في طبقاته في الطبقة العاشرة، وقال عنه: "انه كثير الشعر في الجاهلية والإسلام وأنه أكثر أهل طبقته شعراً"(١) وقد قال عنه أبو الفرج: "وكان عمرو مع شجاعته ونجدته من أهل الخير"(٢) ويورد أبو الفرج قصة عمرو بن شأس مع الرجل العامري، وهي قصة تدل على شهامة هذا الشاعر ومروءته ووفائه، ويقول عمرو بن شأس في هذا الشأن شعراً رقيقاً يدل على شفافية عاطفته، وسمو نفسه كما تتضح من خلاله نظرته للمرأة:

إذا نحــنُ أدلَجْنَــا وأنــتِ أمامَنَــا ... كَفَــى لِمطايَانــا بريَّــاكِ هادِيــا
أليــسَ يزيــدُ العِيــسَ خِفَّــةَ أذْرُعٍ ... وإن كُــنَّ حَسْــرَى أنْ تكونِــي أمامِيــا
ولــولاَ اتقــاءُ اللّــهِ والعهــدُ قــد رأى ... منيتَــهُ مــنِّي أبــوكِ اللّياليَــا
لنــا حــاضِرٌ لمْ يحضُــرِ النــاسُ مثلَــهُ ... وبــادٍ إذَا عــدُّوا علينــا البَوادِيَــا(٣)

والواقع أن شعر عمرو بن شأس يمثل هذا الاتجاه على أوضح ما تكون صوره عند بني أسد، فهو بعيد عن الحسية الجسدية التي رأيناها عند عبيد بن الأبرص وسحيم، والمرأة عنده ليست مجرد وسيلة للعبث والتسلية والمتعة فصورتها في شعره مشرقة موحية، وربما كانت مصدر الهام للشاعر في ظلام ليله - كما رأينا - وإذا تصفحنا ديوان هذا الشعر الفارس وجدنا فيه أكثر من قصيدة تفيض رقة وعذوبة وسمو نفسه وأنفة واعتزازا، وكل ذلك في تصوير علاقته بالمرأة، وبذلك مما يذكرنا بحب الشعراء الفرسان - كحب عنترة مثلا. يقول عمرو بن شأس:

متــى تَعْــرفِ العَيْنــانِ أطــلالَ دِمْنَــةٍ ... لِلَيْلَــي بــأعْلَى ذِي مَعَــارِكَ تَدْمَعَــا
علَــى النَّحْــرِ والسِّــرْبَالِ حتــى تَبُلَّــهُ ... سَجُومٌ ولم تَجْــزَعْ إلى الــدارِ مَجْزَعَــا
خَليلَــيَّ عوجَــا اليــومَ نَقْضِــي لُبانَــةً ... وإلاَّ تَعُوجَــا اليــومَ لا تَنْطَلِــقْ معــا
وإن تَنْظِرانِــي اليــومَ أتبعْكُمــا غَــداً ... قِيَــادَ الجَنِيــبِ أو أذلَّ وأطوَعَــا
وقــد زَعَمــا أنْ قــدْ أمَــلَّ عليهمــا ... ثَــوايَ وقِيلِــي كُلَّمــا ارْتَحَــلا ارْبَعَــا
ومــا لُبَثَــةٌ في الحــيِّ يومــاً وليلــةً ... بكـافِيكَ عمّــا قلــتَ صيفــاً ومَرْبَعــا
فجُــودَا لِلَيْلَــي بالكرامَــةِ منكُمَــا ... ومــا شــئْتُما أن تمنَعَــا بَعْــدُ فامنَعَــا
ومــازَالَ يُزجِــي حُــبُّ ليلَــى أمامَــهُ ... وَليدينِ حتّــى عُمْرُنــا قَــدْ تَسعْسَــعا(٤)

وليس بغريب أن نجد هذا السمو في الوصف، وهذا الصدق في التعبير، وهذه الحرارة في العواطف من عمرو فهو شاعر رقيق الطبع، وفارس يعتد به في قبيلته وللفروسية أخلاق تدل على صاحبها

---

١- انظر طبقات فحول الشعراء ص ١٦٤ وانظر جمهرة الأنساب لابن حزم ص ١٩٤ حيث يقول ان بني سعد بن ثعلبة بن دودان رهط الشاعر عمرو بن شأس كانوا كثيري الشعر ومنهم عبيد بن الأبرص والكميت.

٢- انظر الأغاني الجزء الحادي عشر ص ٢٠١.

٣- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٨٤ - ٨٥.

٤- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٢٩ وما بعدها.

المتمثل بها حقا.

ولعل صورة عمرو بن شأس تتضح لنا أكثر وتتكشف ملامح شخصيته وسلوكياته إذا ما وقفنا على موقفه من زوجته أم حسان التي كان - كما تقول الرواية[1] - يحبها ويخلص الود لها، ولكنها عندما تجاوزت حدودها مع عرار - ولد عمرو لامرأة غيرها - سرحها لأنه رأى في موقفها من ابنه تحديا للقيم التي يؤمن بها، وعلى الرغم من اقتناعه بما فعل إلا أنه يشير بألم وحسرة ولوعة إلى فراق أم حسان زوجته يقول عمرو في هذا:

تذكَّرَ ذِكْرِيَ أمِّ حَسَّانَ فاقْشَعَرْ ... على دُبرٍ لَّما تَبَيَّنَ منا ائْتَمَرْ

فَكِدْتُ أذوقُ الموتَ لو أنَّ عاشِقاً ... أمرَّ بمُوسَاهُ الشَّوارِبَ فانتَحَرْ

تَذكَّرْتُها وهناً وقد حالَ دونَها ... رعانٌ وقيعانٌ بها الزَّهرُ والشَّجَرْ

فكنتُ كذاتِ البَوِّ لَّما تَذكَّرتْ ... لَها رُبَعاً حَنَّتْ لمعهدِهِ سَحَرْ

حِفاظاً ولم تَنزِعْ هَوايَ أثيمةٌ ... كذلكَ شأْوُ المَرْءِ يَخلِجُهُ القَدَرْ[2]

وتبدو لنا حكمة عمرو وسداد رأيه وصواب نظرته، ومدى حرصه على الحياة الأسرية مع أم حسان في انه لم يتخذ هذا الموقف منها وهو تسريحها إلا بعد أن استنفد معها الوسائل الأخرى من نصح وإرشاد، وتوجيه وتحذير إذ يقول من قصيدة طويلة له:

أرادَتْ عِراراً بالهَوان ومَنْ يُرِدْ ... عِراراً لَعمري بالهَوان فقدْ ظَلَمْ

فإنّ عِراراً إن يكُنْ غيرَ واضحٍ ... فإنّي أحبُّ الجَوْنَ ذَا المنكِبِ الصَمَمْ

وإنَّ عِراراً إن يكُنْ ذا شَكيمَةٍ ... تُقَاسِينَها منهُ كالسَّمْنِ رُبَّتْ لَهُ الأَدَمْ

فإن كنتِ مِنّي أو تُريدِينَ صُحْبَتِي ... فكونِي لَهُ كالسَّمْنِ رُبَّتْ لَهُ الأَدَمْ

وإلاّ فَسِيرِي مثلَ ما سارَ راكِبٌ ... تَيَمَّمَ خِمْساً ليسَ فِي سَيْرِهِ يَتَمْ[3]

ويطالعنا ابن سلام في طبقاته باسم شاعر أسدي آخر هو الكميت بن معروف وقد وضعه في الطبقة العاشرة مع عمرو بن شأس، وقال عنه ابن سلام: "انه أشعر من جده الكميت بن ثعلبة، والكميت بن معروف من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، وقد أورد له شعراً نستشف منه أن علاقة هذا الشاعر بالمرأة كانت علاقة عفيفة - إن صح التعبير - من حيث التعبير عنها، وبعيدة عن تلك الحسية التي رأيناها عند بعض شعراء بني أسد، ويبدو أن الكميت قد أزمع على الشعر لسبب من الأسباب، وهو يصور لنا وداع محبوبته له من خلال حديثه إلى صاحبه إذ يقول:

أقولُ لِندْمَانِيَّ والحُزنُ بيننا ... وغُبرُ الأعالِي من خِفافٍ فَوارِعُ

أَنا رُبَدَتْ بين المَسَنَّاةِ والحِمَى ... لِعَيْنَيْكَ أمْ برقٌ لم يُخلِفِ الشَّيْمِ رائعُ

فإنْ يَكُ بَرقاً فهوَ برقُ مَخِيلَةٍ ... لَها ريِّقٌ لم يُخلِفِ الشَّيْمِ رائعُ

---

١- انظر الأغاني الجزء الحادي عشر ص ١٩٨.

٢- انظر شعره ص ٦٧ - ٦٨.

٣- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٥٧ - ٥٨ وانظر الصفحات ٤٢، ٥١، ٥٩ ففيها وصف لعلاقة الشاعر مع المرأة على نحو ما أشرنا إليه من تعلق وهوى بعيد عن طلب اللذة والمتعة.

وإنْ تـكُ نـاراً فَهْـيَ نـارٌ تَشُـبُّهَا قَلُـوصٌ وَتزْهَاهـا الرِّيـاحُ الزَّعـازِعُ
وَمَـا مُغْـزِلٌ أدْمـاءُ مربَـعُ طِفلِهَـا أراكٌ وَسِـدْرٌ بـالمَراضَيْنِ يَـانِعُ
بأحْسَـنَ مِنْهـا يـومَ قـالَتْ لِتِرْبِهـا سَـليِهِ يُخبِّرْنَـا متَـى هُـو رَاجِـعُ
فَقُلـتُ لَهـا واللهِ مـا مِـنْ مُسـافِرٍ يُحيـطُ لَـهُ عِلْمٌ بِمـا اللّـهُ صَـانِعُ(١)

هكذا صور لنا الكميت علاقة المرأة الحرة بالرحل، وكذلك علاقته معها، ولا شك أننا لمسنا نبرة الصدق وعمق عاطفة الحب بينه وبين هذه المرأة المودعة، ولعل تلك اللهفة التي صدرت عنها في صيغة الاستفهام "متى هو راجع" قد صورت لنا مدى الحياء والخفر المعهود في المرأة الحرة في مثل هذه ا لمواقف، فهي لا توجه إليه السؤال مباشرة، وإنما يتم ذلك من خلال وسيط فتلجأ إلى صديقتها لتعرف تاريخ عودته، وموعد رجوعه.

وختاما لحديثنا في هذا الجانب عند شعراء بني أسد نخلص إلى أن المرأة كان لها شأن خطير، ومتعدد الجوانب في سلوك كل شاعر من شعراء هذا القبيلة، و قد نظروا إليها من زوايا متعددة، فمنهم من نظر إليها على أنها مصدر وحي والهام وبخاصة في مفتتح القصائد على اختلاف أغراضها، ويلاحظ على هؤلاء أن تصويرهم للمرأة جاء خالياً من رد الفعل من جانب هذه المرأة التي تبدو لنا في صورة امرأة هاجرة راحلة، غير مكترثة بما حدث، وهي في الوقت نفسه قد يممت وجهة أخرى غالباً ما تكون معروفة لدى الشاعر البائس الذي لا يملك إلا البكاء وتذراف الدموع، والإفصاح من خلال ذلك كله عن مدى شوقه لها، وشغله الشاغل بها، وعموما فان الحزن والكآبة في هذه اللوحة نراه من جانب الشاعر فقط أما الحبيبة الهاجرة فإننا لا نعلم عنها إلا القليل.

والمرأة ـ كما رأينا ـ عند طلاب اللذة والمتعة المكان المفضل الذي يلوذون به لتحقيق نزواتهم، وقد عبر هؤلاء عن علاقاتهم معها بكل جرأة دون مراعاة لأي عرف أو قيمة قد لا تقرها البيئة القبلية أو غيرها، ومنهم من نظر إليها بوصفها أهلا للاحترام والتقدير وارتفع بتصوير علاقته بها إلى مستوى إنساني رفيع، وقد وقفنا على نماذج من كل الاتجاهات سابقة الذكر، ونضيف: أن المرأة فوق كل ما سبق كانت ذات أثر لا ينكر في حياتهم الأدبية، فقد شحذت قرائحهم في أغلب ما قالوه من شعر حتى أننا رأيناها تقتحم فخرهم وحماستهم، فيشركونها فيما قالوه في ذلك الغرض الذي عبروا به عن حياتهم وحياة قبائلهم خير تعبير مصورين بذلك جوانب كثيرة من صورة الإنسان الجاهلي.

ولعلنا نرى اتجاها رابعاً في شعر هذه القبيلة كان هو الآخر مسرحاً فسيحاً عبر فيه الشاعر الأسدي عن رؤيته للحياة، وساق لنا تجربته الخاصة في هذا الجانب منها، وهو لا يقل إفصاحا في التعبير عن فردية هؤلاء الشعراء عن الاتجاهات السابقة، ذلك هو علاقة الشاعر الأسدي بأسرته وأهل بيته، وكيف نظر الشاعر الأسدي إلى كنه هذه العلاقة وصورها لنا بكل واقعية بعيدا عن تكلف الجهد الفني، والصنعة الشعرية التي زوت إلى حد بعيد في تصوير هذا الجانب من حياتهم.

١ـ انظر طبقات فحول الشعراء ص ١٦٣.

## علاقة الشاعر بأسرته:

وقفنا على علاقة شعراء بني أسد بالمرأة الحبيبة والمعشوقة، والخليلة، أو تلك التي في أماكن اللهو والعبث حيث اتجه إليها الشاعر الأسدي بعواطفه، وعبر عن علاقته بها ضمن الاتجاهات التي تحدثنا عنا، ولكن هل صور لنا هذا الشاعر كل علاقاته بالمرأة؟ وهل حديثه عن المرأة كان كما تعودنا حديث الفتوة، والقوة، والمغامرة في سبيل الوصول إليها وانتهاب اللذة والمتعة؟ أم أن هناك علاقات أخرى بالمرأة أكثر رقياً وأعمق أثرا في حياته؟

في الواقع لقد كانت صلة الشاعر الأسدي بالمرأة داخل البيت أو في نطاق الأسرة تختلف اختلافاً بيناً عن علاقته السابقة بالمرأة، فهو هنا رب أسرة مسؤول قبل كل شيء، وعليه تبعات كثيرة، وهو مرتبط بهذه المرأة ارتباطا آخر، ولعل أول ما يلفت النظر في هذه العلاقة كثرة الشكوى وسوء المعاملة من الزوجة، وبخاصة في حالة الفقر والشيب، وكلا الحالتين - في نظرنا — مرتبطة بالأخرى، ويبدو أن طبيعة الحياة الحربية لهذه القبيلة كما أفصح عنها الشعراء الأسديون قد أفرزت هذه الظاهرة عند شعرائها، حيث كان يعول عليها الأسديون - أحيانا - في معيشتهم وكسب رزقهم، فكبر السن يعني القعود عن الغزو والكسب الوفير، بالإضافة إلى ما يجره من وهن في الجسم وخور في قوة المرء الجسدية، وهو في ظل هذه الحالة سيطيل من مكوثه في البيت هذا من جهة، وأما من جهة أخرى فان العداء المستحكم، والنفور من الشعر الأبيض للرجل ظاهرة معروفة لدى الجاهليين بعامة بل الإنسان في كل زمان ومكان وبخاصة المرأة.

وقد أكثر شعراء الجاهلية بوجه عام من الشكوى في هذا الجانب، وصوروا نفور النساء وتفرقهن من حولهم، وخسارة ودهن إذا ما افتقر الإنسان أو طعنت به السنن، وأفاضوا في هذا الجانب مصورين حياتهم الخاصة من خلاله في ظل تلك الظروف، ولعل الشاعر الأسدي أسرف قليلا وهو يصور لنا هذا الجانب من الحياة الاجتماعية، ولكنه لم يكن أقل واقعية في تصويره هذا من بقية الجوانب التي رسمها لنا من خلال أشعاره التي تنم عن مشاهداته وواقع حياته، ولذلك فان صوره في هذا المجال كانت أقرب إلى الصدق والأمانة أبرزها الشاعر بكل جزئياتها، ولعله كان يستكمل هذا الصدق، وتلك الواقعية بذلك الأسلوب القصصي الذي ساق لنا به هذه التجارب الخاصة.

ولقد استطاع الشاعر الأسدي أن يتخذ من تجاربه الفردية تلك محطة فكر وتأمل لواقعه وواقع مجتمعه، وأن يلائم قدر ما استطاع بينهما، فسجل على المستوى الفردي فكره وخلاصة تجربته ورؤيته للحياة - بعامة - وحدد موقفه من بعض القضايا في هذا الشأن.

وأما على المستوى الاجتماعي الآخر فقد استطاع أن يرسم لنا صورة الإنسان - بعامة — في مثل تلك الظروف من خلال فرديته، وليس هذا حكراً على شعر بني أسد وحدهم، فكثيراً ما رأينا مثل هذه الشكوى عند الجاهليين الآخرين، ولعل عبيد بن الأبرص يمثل أقدم صورة - نعرفها من شعراء بني أسد لهذه الشكوى المرة من الشيب وقد تمثل ذلك في تصويره للوم الزوجة وعتابها وهجرها له، وعدم الاكتراث به أن فارقه الشباب إلى غير عودة، والشاعر في هذا يبدو لنا رجلا متفهما بل زوجاً عاقلا خبيراً بمعالجة الأمور وبسجايا المرأة، وهو إذ يحاورها ثم يتولى الإجابة عنها إنما يدل ذلك منه

على خبرة واسعة في علاقاته الأسرية. يقول عبيد:

تِلْـكَ عِرْسِـي غَضْبَـى تُرِيـدُ زِيَـالِي ... أَلِبَيْـنٍ تريـدُ أَمْ لِـدلالِ
إنْ كَـنْ طِبُّـكَ الفِـراقَ فَـلاَ أحْـ ... فِـلُ أنْ تَعْطِفِـي صُـدُورَ الجمـالِ
أوْ يكـنْ طِبُّـكَ الـدَّلاَلَ فَلَـوْ فِـي ... سَـالِفِ الدَّهْـرِ واللَّيـالِي الخَوالِـي
ذاكَ إذْ أنـتِ كالمَهَـاةِ وإذْ آ ... تِيـكِ نَشْـوانَ مُرْخِيـاً أذْيَـالِي
فَدَعِـي مَـطَّ حَـاجِبَيْكِ وَعيشِـي ... مَعَنَـا بالرَّجَـاءِ والتَّأمَـالِ
زَعَمَـتْ أنَّنِـي كَـبِرْتُ وأنِّـي ... قَـلَّ مَـالِي وَضَـنَّ عَنِّـي المَوالِـي
فَـارفُضِي العَـاذِلِينَ وَاقْنَـيْ حَيَـاءً ... لاَيكونُـوا عليـكِ خَـطَّ مِثَـالِ
وبحَـظٌّ مِمَّـا نعيـشُ فَـلا تَـذْ ... هَـبْ بـكَ التُّرَّهَـاتُ فِـي الأهْـوالِ
منهـمُ ممسِـكٌ ومنهـمْ عَدِيـمٌ ... وبَخيـلٌ عليْـكِ فِـي بُخَّـالِ(١)

لعل عبيدا هنا يطرح أمامنا قضية عامة لا خاصة به فالمشكلة قد تحدث في أية أسرة، وكذلك الحل الذي صدر عن الشاعر فهو يتسم بالواقعية، فاللوم والعتاب والهجر والتذمر كل ذلك قد يبدو من المرأة أحياناً بيد أن مناقشة الدوافع لذلك كله على غاية من الأهمية كما يرى ذلك الشاعر. فربما كان الدافع الدلال أو رغبة المرأة في معرفة مكانتها عند زوجها بعد هذه السنين من العيش معا، وربما كان من قبيل استدعاء الذكريات الجميلة في سالف الأيام ولكن قد يكون الأمر على خلاف ذلك كله، وهنا يختلف الحل ويتبدل الموقف، فقد تكون هذه المرأة قد ملت العيش بجوار هذا الرجل الطاعن في السن ـ وهنا ـ يتوجب عل الشاعر اتخاذ موقف حازم، فهو وان كان حريصا على الروابط الأسرية وعلى هذه العلاقات أن تدوم إلى أبعد حد، وفي ظل ظروف من التفاهم المشترك، إلا أنه يدرك تماما أن الحفاظ على أسرة تنافرت القلوب فيها يعد أمرا مستحيلا، ولعله انطلاقا من هذا الفهم العميق لأغوار الحياة العائلية ـ إن صح التعبير ـ يطلق الشاعر حكمه السديد وهو إعطاء هذه المرأة حريتها، وهو في فعله هذا مجبور ربما يكون متألما لما آل إليه الأمر، ولكنه يكتم عواطفه، ويضغط مشاعره، ويرفض أن يعيش بجانب امرأة لا تضمر له الحب والوفاء: ـ ذاك هو الحل عند عبيد لمثل تلك المشكلة، ساقه لنا بكل صراحة وحزم معبراً عن تجربته وخلاصة رؤيته للحياة العائلية.

أما إذا كان الأمر صادراً عن دلال من الزوجة ـ كما أشرنا ـ ومداعبة وتذكير بما قد سلف، فإننا نرى شاعرنا يتحول من مواقف الحسم والحزم إلى المحاورة والمفاوضة الناجحة التي ترتدي ثياب النصح، والتقويم بالإرشاد، والتبصير بعواقب الأمور، وهنا نستشف نظرة الشاعر للمرأة الزوجة ولا نبالغ إذا قلنا: إنها نظرة تحتوي على كثير من التعقل والحكمة، وهي في الوقت نفسه تفصح لنا عن مدى احترام الشاعر للروابط الأسرية، ورغبته الملحة في المحافظة عليها. والملاحظ في هذا الجانب أن غزل الشاعر قد خلا من تلك الأوصاف الحسية والخوض في مفاتن المرأة ـ كما هو الحال في تغزله بالمرأة العشيقة ـ وربما يفسر ذلك لنا بعض جوانب نفسية العربي عموماً كالغيرة على هذه الزوجة وعلى عرضه بوجه عام.

ويحذر الشاعر زوجته من المحيط الذي تعيش فيه، فهناك العاذل وهناك المبغض والحاسد، وما على

---

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

المرأة العاقلة إلا أن تحافظ على بيتها وأسرتها، وألا تعير أذنا صاغية لأمثال هؤلاء الناس حتى وان كانوا من الأقربين، وبهذا يكون قد صور لنا بعض شرائح المجتمع الجاهلي من خلال رؤيته الفردية وتصوير علاقته بأسرته.

وقد تكررت شكوى عبيد من مثل هذا الأمر من قبل زوجته في أكثر من قصيدة[١].

ويشارك عبيداً شكواه شاعر أسدي آخر هو الجميح "منقذ بن الطماح" ويطالعنا الجميح بشكواه من زوجته التي أفسدها عليه أهلها، ويبدو من خلال حديثه أنهم قد أفلحوا في مسعاهم وهو إفساد هذه العلاقة الزوجية. ونكاد نلمس هذا التشرد والتشتت الذي يعيشه الشاعر وهو يعالج هذا الأمر، فهو في حيرة بين أمرين أولهما: إبعاد تلك الأفكار المسمومة عن ذهن زوجته النافرة، وكان مصدرها أهل الزوجة وذويها. وثانيهما: محاولة التخفيف من غلواء الإعراض الذي يلاقيه منها.

ومن المعروف أن الجميح كان من فرسان بني أسد الذين يشار إليهم بالبنان ـ كما تقول الروايات ـ وأنه كان غزاء وهو صاحب الغارة على ابل النعمان بن المنذر[٢].

ويبدو أن هذا الحديث بينه وبين زوجه قد كان سببه الأول فقره، ثم كبر سنه. بالدرجة الثانية، ونستشف من القصة أن هذه الزوجة كانت تنعم في كنف الجميح بحياة رافهة منعمة وذلك عندما كان شاباً يغزو ويكسب، ومع مرور الزمن وتعاقب السنين يدب الوهن في أوصال الجميح ويشح ماله، ويمسي غير قادر على أن يحقق كل مطالب البيت، وهنا يبدأ أهل زوجته بتحريضها عليه ولعلهم كانوا يوعزون إليه بين الحين والحين بإزعاجه، وذلك كي يطلقها، ويحس الشاعر بعزوف زوجته عنه وتبديل أحوالها اتجاهه وعدم رغبتها بالتحدث إليه، وبإيثارها الصمت على غير عادتها فيقول:

أَمْسَتْ أُمامَةُ ما تُكَلِّمُنا ... مَجْنُونَةٌ أَمْ أَحَسَّتْ أَهْلَ خَرُّوبِ

مَرَّتْ بِراكِبِ مَلْهُوزٍ فَقالَ لَها ... ضُرِّي الجُمَيْحَ وَمُسِّيهِ بِتَعْذِيبِ

ولَوْ أَصابَتْ لَقالَتْ وَهْيَ صادِقَةٌ ... إِنَّ الرِياضَةَ لا تُنْصِبْكَ لِلشِّيبِ

يَأْبَى الذَّكاءُ وَيَأْبَى أَنْ شَيخَكُمُ ... لَن يُعْطِيَ الآنَ عَن ضَرْبٍ وتَأْديبِ

أَمّا إِذا حَرَدَتْ حَرْدِي فَمُجْرِيَةٌ ... جَرْداءُ تَمْنَعُ غِيلاً غَيرَ مَقْرُوبِ

وإنْ يكُنْ حادِثٌ يُخْشَى فَذُو عِلَقٍ ... تَظَلُّ تَزْبُرُهُ مِنْ خَشْيَةِ الذِّيبِ

فَإِنْ يَكُنْ أَهْلُها حَلُّوا عَلى قِضَةٍ ... فَإِنَّ أَهْلِي الأُلَى حَلُّوا بِمَلْحُوبِ

لَمّا رَأَتْ إِبِلِي قَلَّتْ حَلُوبَتُها ... وكُلُّ عامٍ عَلَيْها عامُ تَجْنِيبِ

أَبْقَى الحَوادِثُ مِنها وهْيَ تَتْبَعُها ... والحَقُّ صِرْمَةَ راعٍ غَيرِ مَغْلُوبِ

كَأَنَّ راعِيَنا يَحْدُو بِها حُمُراً ... بَينَ الأَبارِقِ مِن مَكْرانَ فَاللُّوبِ

فَإِنْ تَقَرِّي بِنا عَيْناً وتَخْتَفِضِي ... فِينا وتَنْتَظِري كَرِّي وتَغْرِيبي

فَاقْنَيْ لَعَلَّكِ أَنْ تَحْظَى وتَحْتَلِبي ... في سَحْبَلٍ من مُسُوكِ الضَّأْنِ مَنْجُوبِ[٣]

---

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٣٢ ففيها شكوى مماثلة.

٢ـ انظر المفضليات ص ٣٤.

٣ـ انظر المفضليات ص ٣٤ وما بعدها.

لاشك أن الحوار على درجة عالية من التفهم للأمور من قبل الجميح، ولا شك أنه ينطلق من أرضية واقعية ومنطقية في الوقت نفسه، فالزوجة المعرضة عنه لفقره، وقلة ابله، ولكبر سنه قد أخطأت الصواب في الحكم عليه وربما فاخرته بأهلها الأغنياء، وتصورت أنه في موقف قوة يمكنها من النيل من الجميح، ولكننا رأيناه يرد الرد المناسب فيذكرها بغنى أهله عندما كانوا يحلون بملحوب وغيره من المناطق الخصيبة في نجد، ويعلل سبب افتقاره بالجود والكرم وفعل ما يلزم فعله حتى ذهبت أو كادت وكأنه يشير من طرف خفي إلى أن هذا ليس معيبا للرجل، فالغنى والفقر يتعاوران المرء في الحياة فلا غنى يدوم ولا فقر يبقى. وهو بهذا إنما يحاول إقناعها بأنه سوف تتغير الأحوال، ويطالبها بالصبر وبالتزام الأناة ريثما يجد حلاً لما هو فيه، ويبدو أن الجميح في هذا كله الزوج الحريص على أسرته وعلى ألا يهدم تلك الرابطة الأسرية، والواقع أن الحل الذي طرحه الجميح كان حلاً منطقيا من فارس شديد المراس من بني أسد، أنه الغزو واجتلاب الغنائم، وهل من حل سواه؟ كما يتضح لنا من خلال هذا الحل ان الشاعر كانت لا تزال لديه بقية من قوة جعلته يكابر أمام زوجه غير معترف بفعل الزمن وغير مستسلم لسنة الدهر كما رأينا ذلك عند الشاعر عبيد بن الأبرص وربما كان ذلك الأمر هو الذي دفعه إلى الاشتراك في يوم جبلة مع بني أسد قومه ولم يرجع فقتل فيه[1] ولعل الجميح قد آثر الموت على أن يرجع إلى هذه الزوجة المزورة عنه.

وما دمنا في حديث الشكوى من الشيب والتحسر على الشباب وأيامه الخاليات فيجدر بنا الوقوف عند شاعر أسدي ثالث هو عمرو بن شأس الشاعر الفارس حيث يقول بعد أن خطه المشيب، وأصبح يعاني من آلامه وويلاته في مثل تلك البيئة التي تمجد كل مظاهر القوة يقول عمرو بن شأس:

فَوَانَدَمِي عَلَى الشَّبابِ وَوَانَدَمْ ... نَدِمْتُ وَبَانَ اليومَ مِنِّي بِغَيْرِ ذَمّْ
وإذْ إخوتِي حَوْلِي وإذْ أنا شائِخٌ ... وإذْ لا أجيبُ العاذلاتِ من الصَّمَمْ[2]

ولا غرو أن نرى هذا من عمرو بن شأس الفارس المعلم في قومه أو ليس هو الذي يمجد القوة والشباب بقوله مخاطباً المرأة، ومن يدرينا فلعلها هي ذاتها التي خاطبها في المرة الأولى بكل حسرة وندم وألم: يقول عمرو بن شأس ـ ونظن أنه قال هذا في مرحلة الشباب:

أبلِّي إنْ بَلَلْتِ بِـأَرْيَحِيٍّ ... مِنَ الشُّبَّانِ لا يُضْحِي بَطِينَا
يَـؤُمُّ مَخارِمَاً بالقومِ قَصْدَاً ... وهُنَّ لغَيْرِهِ لا يَبْتَغِينَا[3]

فالشباب أجدر بالحب وأقدر على جلب المغانم وتقحم المخاطر وإحراز الأمجاد، وهو يحذر المرأة من الارتباط بالرجل الضعيف العاجز الكسول يقول:

فَلا تُمْنَى بِمَطْرُوقٍ إذا مَا ... سَرَى فِي القَوْمِ أصْبَحَ مُسْتَكِينَا
يُطِيعُ ولا يُطَاعُ ولاَ يُبَالِي ... أَغَثّاً كانَ حَظُّكَ أمْ سَمِينَا

---

١ـ انظر الأغاني الجزء الحادي عشر ص ١٤.
٢ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٨٠.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٦٠.

وَيُضْحِي فِي فَنَائِكَ مُجْلَخِدّاً كما أَلْقَيْتَ بِالْمَتْنِ الوَضِينَا (١)

وقد يبدو لنا لأول وهلة تناقض الموقف عند عمرو بن شأس في شكواه من جهة، وتمجيده من جهة ثانية دون التماس أي مبرر أمام المرأة، وعلى الرغم من رأي عمرو في المرأة الذي يتمثل في قوله:

وَمِنْ شَرٍّ مَنْ وَاثَقْتَ عَهْداً وذِمَّةً أُلاتُ الخِضَابِ اللاّمِحاتُ إِلَى اللِّمَمْ(٢)

إلا أننا نرى سلامة موقف الشاعر وبعد نظره وتبصره بنواميس الحياة، فالشباب مرحلة ولها حقوقها وهي ذاهبة لا محالة، والشيب لابد آت ولا دافع له، والاعتراف بالحقيقة لا يضير المرء طالما أن ذلك فوق قدرة المرء مهما سبب ذلك للإنسان من حسرات وألم وندم نلمسه في أسلوب الندبة عند شاعرنا، وتكراره مرتين في شطر واحد من البيت، ولعل عزاء الشاعر في ذلك كله أنه قد أمضى فترة شبابه بكل زهو و لم يقصر في تلك المرحلة من عمره حقها.

أما الشاعر بشر بن خازم فلا نكاد نقع له على شكوى من الشيب في ديوانه خلا إشارتين عابرتين يحدثنا فيهما عن صدود المرأة عنه لكبر سنه وشيب لداته. يقول في الأولى:

أَجَدَّ مِنْ آلِ فَاطِمَةَ اجْتِنَابَا وأَقْصَرَ بعدَ ما شَابَتْ وشَابَا

وشَابَ لِدَاتُهُ وَعَدَلْنَ عَنْهُ كَمَا أَبْلَيْتَ مِنْ لُبْسٍ ثِيابَا

فَإنْ تَكُ نَبْلُهَا طَاشَتْ ونَبْلِي فَقَدْ نَرمِي بها حِقَباً صِيَابَا(٣)

ويقول في الثانية:

نَأَتْ سَلْمَى وَغَيَّرَهَا التَّنَائِي وقد يَسْلُو المُحِبُّ عن الحَبِيبِ

فإنْ يكُ قدْ نَأَتْنِي اليومَ سَلْمَى وصدَّتْ بَعدَ إِلْفٍ عَنْ مَشِيبِي

فقدْ أَلْهو إذا ما شِئْتُ يوماً إلى بيضاءَ آنسةٍ لَعُوبِ(٤)

فالشيب أوقع بشرا في صدود المرأة عنه وهجرها له، وهو يوهم نفسه ولا يريد الاعتراف بالحقيقة والخضوع لسنة الزمن، وقد صور له وهمه أنه يستطيع اجتذاب الأوانس البيضاوات اللواتي يصغرن هذه المرأة المسماة "سلمى" ويخيل إلينا أن هذه المرأة ربما كانت زوجه حيث تكرر اسمها أكثر من عشر مرات على لسان الشاعر في ديوانه، ويبدو أن أمرها يهمه كثيراً وتصرفاتها ذات شأن في حياته ولعله لكل ذلك ذكرها ويتألم لصدها وهجرانها، ويتراءى لنا بشر هنا يعاني من مركب نقص فيحاول المكابرة وعدم الاستسلام ودفع التهمة عنه مما أمكنه إلى ذلك سبيلا، وهو فوق ذلك يحاول أن يشرك هذه المرأة معه في الشيب ليتساويا في هذا المضمار.

---

١ ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٥٩.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ٨٢.
٣ـ انظر ديوان بشر ص ٣١.
٤ـ انظر ديوان بشر ص ٢٠.

ونتابع المسيرة مع شعراء بني أسد في ظاهرة من الشكوى من الشيب، وإحساسهم المرير بوقع هذا الزائر الذي سبب لهم المتاعب في بيوتهم وخارجها، بل في أنفسهم التي بدت قلقة حائرة في حين، ومكابرة في حين آخر، ومستسلمة لسنة القدر في حين ثالث، فنجدها ظاهرة عامة لم تقتصر على ما ذكرنا من الشعراء الأسديين، فهذا الكميت بن معروف يتحدث إلى زوجه طارقاً أكثر من سبيل لتبرير بياض شعره فيقول:

أَلاَ زَعَمَتْ أُمُّ المُهَنَّدِ أَنَّنِي ... كَبِرتُ وأنَّ الشيبَ فِي الرَّأْسِ طَالِعُ

وما الشَّيبُ إلاّ رَوعَةٌ فِي ذُؤَابَتِي ... وأيُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبْهُ الرَّوائِعُ(١)

ولقد يكون لهذه الظاهرة أكثر من سبب فلا شك أن السبب المادي يعد من أقوى الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه الظاهرة، فحب المرأة لحياة الرفاهية والغنى يجعلها تتبرم وتظهر تذمرها إذا ما هي فقدت مثل تلك الحياة، ولعل بعض شعراء بني أسد قد حاول أن يبرر لها سببه ولكن دون جدوى من مثل الشاعر الأسدي عائذ بن حبيب الذي يعزو ذلك إلى سوء الحظ فيقول:

أَلا بَكَّرَتْ عرسِي عَلَيَّ تلُومُنِي ... وتَزْعُم أَنِّي راكِبٌ جَمَلٌ الفَقْرِ

تَرِيشُ الجُدُدَ الصَّالِحَاتِ بينهمْ ... وَجَدْي بسكينيهِ مُبْتَرِئاً يَبْرى(٢)

وبوجه عام فقد صور شعراء بني أسد حياتهم الفردية وخصوصيات بيوتهم، وعبروا عن المشكلات التي كانت تواجههم وبينوا أسبابها، وقد اختلف رد فعل كل شاعر منهم عن الآخر بحسب رؤيته وتجربته في الحياة، مما جاء منطقياً مع واقع تلك أسرة وما تعانيه من متاعب اجتماعية، ويبدو لنا الشاعر الأسدي رب أسرة يتروى في اتخاذ القرارات التي يتوقف عليها مستقبل أسرته، وقد وقف هؤلاء الشعراء الأسديون من الشيب عموما - موقف الكاره له. فقد وجدنا الشاعر الأسدي يتقبل المشيب وهو يحاول أن يدفعه عن نفسه، ولكن لابد من الاستسلام أخيراً، والخضوع لنواميس الحياة، وإذا ما اقر الشاعر الأسدي بشيبه ووهنه لجأ إلى ماضيه يلوذ به، ويسرد طرفاً منه على مسامع المرأة تعويضاً له عن هذا الحاضر الذي لا يسر.

ولابد لنا من أن تعترف لهؤلاء الشعراء بقدرتهم على المحاورة والإقناع فهم مفاوضون ناجحون إلى حد بعيد، وقد بدا أغلبهم بمظهر الحريص على الروابط العائلية، والمحافظ على الحياة الزوجية.

غير أن ذلك الحرص والمحافظة ليس معناهما التنازل والإغضاء عما لا يجب السكوت عليه، فالحزم وحسم الأمور وحل المسألة وفق ما يتطلبه العقل البصير والإدراك الواعي كان في متناول هؤلاء الشعراء وبناء على ما سبق فإننا نستطيع أن نصف العلاقة بين الشاعر الأسدي وبين المرأة الزوجة بأنها علاقة واقعية صرفة، فيها الأسباب المادية التي تتعلق بمطالب العيش التي قد تودي بحياة الأسرة فيحدث الانفصال أو — على الأقل — تودي بحياة رب الأسرة، وهو يحاول تأمين تلك المتطلبات كما رأينا عند الجميح وعبيد بن الأبرص.

كما أن فيها الأسباب المعنوية التي تتعلق بوهن الإنسان في الكبر، وبعدم قدرته على معاشرة

---

١ـ انظر حماسة البحتري ص ١٩٤.

٢ـ انظر حماسة البحتري ص ١٧٨. متجنا ـ مقبلا.

النساء كما كان في ميعة الصبا، وربما احتاج المرء في هذه السن إلى من يرعاه ويغوله ويشعره بالعطف والحنان والتقدير، وبشيء من الأهمية وبخاصة من زوجه، وقد رأينا أن الشاعر الأسدي قد عبر عن كل هذه بحرقة وألم، وكان يصدر في تعبيره ذلك عن رؤية فردية خاصة في الحياة، وهذا أمر طبيعي لأنه إنسان قبل كل شيء، وله حياته وحضوره الخاص إلى جانب كونه يمثل القبيلة في كثير من قضاياها في غالب الأحيان، ولكن هذا الإنسان قد يعجب بإنسان آخر فيمدحه، وقد تصيبه حاجة فيطلب نوالا من سيد من السادات، وقد يشكو همه لناقته أو فرسه كما يحلو له التعبير عن ذلك، وهو كائن اجتماعي يقيم علاقات مختلفة مع الآخرين بوصفه فرداً منهم وقد تختلف ردود أمثال هؤلاء الناس تجاهه، وهو يواجه مشكلاته الخاصة ويضع لها الحلول المناسبة له، كل ذلك بعيداً عن دائرة القبيلة والالتزام بها.

وقد عبر هؤلاء الشعراء عن حياتهم الخاصة مؤكدين في كل ما سبق ذكره بكل واقعية وصدق بعيداً عن التكلف وإجهاد النفس ذلك لأنه يصور لنا جوانب حياته الفردية التي تقترب من نفوسنا إلى حد بعيد، فهي تمس حياة الإنسان في كل زمان ومكان.

والواقع أننا لا نلمس فردية هؤلاء الشعراء في ما مر بنا من مظاهر فقط وإنما قد نجدها في فخر هؤلاء الشعراء وحماستهم، فهم لا ينسون ذواتهم حتى وان كانوا مشغولين بقضايا القبيلة وبالتعبير عنها.



# الفخر الفردي عند شعراء بني أسد ومظاهره:

ان القارئ لشعر هذه القبيلة في العصر الجاهلي ليشعر بوضوح أن شعراء بني أسد - وهم يعبرون عن روحهم القبلية العالية، وأمجاد قبيلتهم العريقة - لم ينسوا أنفسهم بوصفهم جزءاً من تلك الروح، ولبنة في ذلك البناء الشامخ الذي نتصوره من خلال أشعارهم وأحاديثهم عن القبيلة ومنزلتها بين قبائل العرب.

ان الشاعر الأسدي الذي رأيناه مرتبطاً إلى حد بعيد بقضايا قبيلته لم يذب كما قد يتصور البعض في تلك البوتقة الواسعة، وإنما كان يصدر عن نفسه ويعبر عن شخصيته الفردية، من خلال فخره وحماسه القبلي، وكان يفصح عن طبيعته الخاصة في كثير من المناسبات ليؤكد كرمه وبطولته التي قد تتمثل في منازلة أكفائه من الأبطال الصناديد كما يقول عبيد بن الأبرص:

قَدْ أتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَراً أنامِلُهُ كأنّ أثْوابَهُ مُجَّتْ بِفِرْصَادِ
أوْجَرْتُهُ ونَواصِي الخَيْلِ شاحِبَةٌ سَمْرَاءَ عامِلُها مِن خَلْفِهِ بَادِي(١)

ومن المظاهر الفردية عند الشاعر الأسدي القديم سموه للحرب العوان بل إشعاله لها بيده تأكيداً لبطولته إذ يقول:

هَذا وحَربٍ عَوان قد سَمَوْتُ لَها حتى شَبَبْتُ لَها ناراً بإشْعَالِ
وكَبْشِ مَلْمُومَةٍ بادٍ نَواجِذُهُ شَهباءَ ذاتِ سرابيلٍ وأبطالَ
أوْجَرْتُ جُفْرَتَهُ خُرْصاً فمالَ بِهِ كمَا انْثَنَى مُخَضَّدٌ من ناعِمِ الضَّالِ(٢)

ولعله مما يدل على أهمية فردية عبيد في هذا المجال هو أنه يستطيع أن يطفئ هذه الحرب كما أشعلها، وكأن دوره الفردي قد طغى على دور قبيلته فأصبح له الدور الرئيسي في هذا المعترك إذ يقول:

وإنّي لأُطْفِي الحَرْبَ بعدَ شُبوبِها وقد أُوقِدتْ للغَيِّ في كلِّ مَوْقِدِ
فأوقَدْتُها للظّالِمِ المصْطَلِي بِها إذَا لَمْ يَزَعْهُ رأْيُهُ عَنْ تَرَدُّدِ(٣)

ومما يحرص الشاعر الأسدي عليه هو أن يصور ما تتحلى به نفسه من حكمة وسداد رأي إذ أن هذه الصفة تشكل عاملاً مهماً من عوامل السيادة والفتوة في العصر الجاهلي - فيما نعلم - يقول عبيد:

---

١- انظر ديوان عبيد ص ٤٩.
٢- انظر المصدر السابق ص ١٠٢، ١٠٣.
٣- انظر المصدر السابق ص ٥٥.

وإنّي لذو رأيٍ يُعاشُ بفضلِهِ ... وما أنا من عِلْمِ الأمورِ بمُبْتَدي[(١)]

ولم يعبر الشاعر الأسدي عن فرديته وتجربته الخاصة ورؤيته للحياة بشكل عام من خلال الحماسة فقط بل كان ذلك من خلال كل ما قاله من شعر في شتى الأغراض، ولعل مجال التمدح يظهر واضحاً في مجالس اللهو والطرب والغناء ومن ذلك ما نجده عند عبيد في قوله:

وبيتٍ يفوحُ المِسْكُ من حَجَرَاتِهِ ... تَسَدَّيْتُهُ مِنْ بينِ سِرٍّ ومَخْطُوبِ
ومُسْمِعَةٍ قدْ أصحَلَ الشُّربُ صَوْتَها ... تَأَوَّى إلى أوْتارِ أَجْوَفَ مَحْنُوبِ
شَهِدتْ بِفتيانٍ كِرامٍ عَليهِمُ ... حِياءٌ لِمَنْ يَنْتابُهُمْ غيرُ مَحْجُوبِ[(٢)]

ولم يقتصر تأكيد الذات عند الشاعر الأسدي على المواقف السابقة فحسب بل ربما يمتد ليشمل النواحي المعنوية التي أدرك الشاعر أنه يتمتع بها، من مثل قوة شعره وبيانه حيث يهدد به كما يهدد بالسلاح وقوته يقول:

وفتيانِ صِدْقٍ قدْ ثَنَيْتُ عليهمُ ... رِدَائِي وفي شَمْسِ النَّهارِ دُحُوضُ
ألستُ أَشُقُّ القَولَ يَقْذِفُ غَرْبُهُ ... قَصائِدَ مِنها آبِنٌ وَهضِيضُ[(٣)]

ولا يقل الشاعر الأسدي عن أي شاعر آخر يتمسك بقيم العصر وبصفات النفس الجالية للحمد كما يراها إذ يقول:

لَعمُرُكَ إنّي لأَعِفُّ نَفْسِي ... وأسْتُرُ بالتَّكَرُّمِ مِنْ خِصَاصِ
وأُكْرِمُ والِدِي وأَصُونُ عِرْضِي ... وأكْرَهُ أنْ أُعَدَّ مِنَ الحِرَاصِ[(٤)]

ان الفخر الفردي لدى هؤلاء الشعراء كان مظهراً مميزاً لهم في أشعارهم، وغالباً ما كانوا يدورون حول معان معروفة ليؤكدوا ذواتهم مما تعارف عليها المجتمع الجاهلي، ومما يصور الإنسان في اكمل صورة كالشجاعة، والبطولة، والفروسية، والكرم، وحماية الجار، وغير ذلك من الفضائل التي تواضع عليها المجتمع الجاهلي بعامة. فهذا بشر بن أبي خازم الأسدي يؤكد شخصه وحسن بلائه وسط جموع قبيلته فيقول:

وخيلٍ قدْ لَبِستُ بجَمْعِ خَيْلٍ ... علَى شَقَّاءَ عِجْلِزَةٍ وَقَاحِ
أُجالِدُ صَفَّهُمْ ولقَدْ أَرانِي ... علَى قَرْواءَ تَسْجُدُ للرِّيَاحِ[(٥)]

كما نجد هذا المنزع العقلي الذي يشير إليه بشر وهو أنه قادر على تميز الأمور والأخذ

---

١- انظر المصدر السابق ص ٥٥.
٢- انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٢٥.
٣- انظر المصدر السابق ص ٨١.
٤- انظر المصدر السابق ص ٧٨.
٥- انظر ديوان بشر ص ٤٧.

بصحيحها وأصوبها فيقول:

نَزَعْتُ بأُسبابِ الأمُورِ وقَدْ بَدَا ... لِذِي اللُّبِّ مِنْها أَيُّ أَمْرَيْهِ أَصْوَبُ(١)

وهو على هذه الحكمة والسداد في الرأي لا يجنح للسلم فهو سعور للحروب كغيره من شعراء هذه القبيلة يقول:

فَلَو لاقَيْتِنِي لَلَقِيتَ قِرْناً ... لِنَارِ الحَرْبِ إذْ طَفِئَتْ سَعُورَا(٢)

وقد يؤكد فرديته ويعلن عن رؤيته من خلال تصريحه بهذا السبيل الذي اتخذه منهجاً له في حياته فهو يقول:

فقدْ أرانِي بِبَانِقْيَاءَ مُتَّكِئاً ... يَسْعَى وَلِيدانِ بالحِيتانِ والرُّغُفِ

وقَهْوَةٍ تُنْشِقُ المُسْتَامَ نَكْهَتُها ... صَهْبَاءَ صَافِيةٍ مِنْ خَمْرِ ذِي نَطَفِ

فِي فِتْيَةٍ لايُضامُ الدَّهْرُ جَارُهُمُ ... هُمُ الحُماةُ عَلى البَاقِينَ والسَّلَفِ(٣)

ولا يقل بشر عن عبيد بن الأبرص في قوة شعره وفصاحة بيانه التي يخشاها الخصوم، وأشعاره تسري بها الركبان وإلى هذا يشير قائلا:

سَأُرْمِي بالهِجَاءِ ولا أُفِيه ... بَنِي لأُمٍ وللمَوْقِيّ وَاقِي

إذَا مَا شِئْتُ نَالَكَ هَاجِرَاتي ... ولم أُعمِلْ بِهِنَّ إلَيْكَ سَاقِي

قَوافٍ عُرَّمٌ لم يَسْبِقُوها ... وإنْ حَلُّوا بِسَلْمَى فَالوِرَاقِ(٤)

وربما كان اللهو أحد مظاهر فخر بشير بنفسه وبفتوتها إذ يقول:

فإنْ تَكُ نَبْلُها طاشَتْ ونَبْلِي ... فقدْ نَرْمِي بها حِقَباً صِيَابا

فَتَصْطَادُ الرِّجَالَ إذا رَمَتْهُمْ ... وأصْطَادُ المُخَبَّأةَ الكَعَابَا(٥)

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ٩.

٢ـ انظر المصدر السابق ص ٩٠.

٣ـ انظر المصدر السابق ص ١٥٩ ومما يقول بهذا المعنى أيضاً ص ١١٨:

وعشت وقد أفنى طريفي وتالدي ... قتيل ثلاث بينهن أصرع

فان سقاط الخمر كنت حباله ... قديماً فلوموا شارب الخمر أو دعوا

وحب القداح لا يزال مناديا ... إليها وان كانت بليل تقعقع

نغاء الحسان المرشقات كأنها ... جازر من بين الخدور تطلع

٤ـ انظر ديوان بشر ص ١٦٤.

٥ـ انظر ديوان بشر ص ٣١ في هذا المعنى أيضاً في ص ٢٠.

فان يك قد نأتني اليوم سلمى ... وصدت بعد ألف عن مشيبي

فقد ألهو إذا ما شئت يوما ... إلى بيضاء آنسة لعوب

ولعل من مظاهر فروسية بشر أيضاً قدرته على قطع المفاوز والقفار الموحشة إذ نراه يقول:

وَمَوْمَــاةٍ عَلَيْهــا نســجُ رِيــحٍ ... يُجــاوِبُ يومَهــا فِيهــا صَدَاهــا
فَــلاةٍ قــدْ سَــرَيْتُ بِهــا هُــدوءاً ... إذا مــاالعَيْنُ طــافَ بِهــا كَرَاهــا(١)

ومن المظاهر التي يبرز فيها الشاعر الأسدي فرديته وكذلك الشاعر الجاهلي بعامة وحمايته للجار ووفائه له، فهذا الكميت بن معروف الأسدي يشير إلى ذلك مفتخراً بمثل هذه الخصلة التي تميزه عن غيره إذ يقول:

ومــا أنــا لِلمَوْلَــى بِذئــبٍ إذا رأى ... لــهُ غــرةٌ أذْلَــى مَــعَ المُتَذَئّــبِ(٢)

ويؤكد الكميت على قوة شعره ـ شأنه شأن بقية شعراء هذه القبيلة ـ إذ يقول:

وإنــي لَقَــوَّالٌ لِكُــلِّ قَصيــدَةٍ ... طَلُــوعِ الثَّنَايــا لَــذَّةٍ لِلْمُشَــبِّبِ
إذا أُنْشِــدَتْ لَــذَّتْ إلى القَــوْمِ وارتَمَــي ... بِهَــا كُــلُّ رَكْــبٍ مُصْعِــدٍ أو مُصــوِّبِ
وإنّــي لأســعَى للتكَــرُّمِ راغِبــاً ... ومَــنْ يُحــصِ أخْــلاقَ التكــرُّمِ يَرْغَــبِ
وإنّــي امــرؤٌ مــا يَخْبُــأُ النــارَ مَوْقِــدِي ... بسِــتْرٍ ومــا تَسْتَنْكِرُ الضَّيْــفُ أَكلُبِــي (٣)

وقد رأى الكميت بن معروف أن المجازفة بقطع السباسب والقفار هي ميزة شخصية لا يقدر عليها إلا القادرون من الرجال إذ يقول:

بدَوِيَّــةٍ لا يَبلُــغُ القَــومُ مَنْهــلاً ... بِهــا دُون خِمْسٍ يُتْعِــبُ القــومِ مُطْنِــبِ
قَليــلٍ بهــا الأصــواتُ إلا تَفَجُّعــاً ... مِن الذئــبِ أو صَوتِ الصَّدَى المُتَحَوِّبِ
بهــا العِيــنُ أَرْفاضــاً كــأن سِــخَالَها ... وُقـوفَ عَـذَارَىَ سُـوقِطَتْ حَـولَ مَلْعَـبِ
قَطَعْــتُ بِمِقْــلاَقِ الوِشَــاحِ كأنّهَــا ... طَرِيـدَةُ وحـشٍ أُفلِتَــتْ مـن مُكَلِّـبِ(٤)

وطبيعي أن يكون مثل هذا الفارس المقدام عماد قومه في كل ملمة قد تنزل بهم بل في كل أمر يشكل عليهم وإلى هذا يشير الكميت بن معروف قائلاً:

ولكنَّنِــي إنْ خَــافَ قَوْمِــي عَظِيمــةً ... رَمُونِــي بِنَحْــرِ المَــانِعِ المُتَــأَرِّبِ
فصرَّفْــتُ صعــبَ الأمــرِ حَتــى أُذِلَّــهُ ... ويركــبُ مَــنْ أظفــارِهِ كــلَّ مَرْكَــبِ
ولســتُ إذَا الفِتْيَــانُ هَــزّوا إلى العُلَــى ... بِــذِي العِلَّــةِ الآبِــي ولا المُتَخَيِّــبِ(٥)

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ٢٢١.
٢ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.
٣ـ انظر المرجع السابق.
٤ ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥ شعر الكميت بن معروف بقلم الدكتور حاتم الضامن.
٥ ـ انظر المرجع السابق.

ويدل الكميت بن معروف ـ فوق هذا كله ـ بعراقة محتده ونبل أصله في بني أسد فيقول:

وَجَدتُ أَبِي يُنمِي بَنِيهِ وَيَنْتَمِي ... إلى الفرعِ مِنهمْ واللُّبابِ المُهَذَّبِ
إِلَى شَجَرِ النَّبعِ الذِي ليسَ نابتاً ... مِنَ الأرضِ إلاّ في مكانٍ مُطَيَّبِ
وجدْتُ أبي فيهمْ وَخالي كِلاهُما ... يُطاعُ ويُعْطَى أمرُهُ وهو مُحْتَبِي
فلمْ أتعمَّلْ للسِّيادةِ فيهمُ ... ولكنْ أتتْنِي وادعاً غيرَ متْعَبِ(١)

والكميت بن معروف يفصل في رسم صورته الشخصية لنا أكثر من غيره من شعراء بني أسد، وها هو ذا يشيد بخصلة أخرى يتمتع بها وهي علو همته وسموها إذ يقول:

ولستُ بجثَّامٍ يبيتُ وهَمُّهُ ... قصيرٌ وانْ ضَاقَتْ عَلَّي المَضاجعُ
إذا أعنَقتْنِي بلدةٌ لم أكُنْ لَها ... نَسِيّاً ولم تَستَنْدِفْ عَلَّي المَطالِعُ
وما قَصَّرَتْ بي هِمَّتِي دُونَ رَغْبَةٍ ... ولا دَنَّسَتْنِي مُذْ نَشَأْتُ المَطَامِعُ(٢)

وكما رأينا الشعراء السابقين من بني أسد يؤكدون على فرديتهم ويعبرون عن أنفسهم وعن رؤيتهم الخاصة للحياة، فكذلك الشاعر الأسدي عمرو بن شأس الذي نراه لا يبتعد كثيراً عمن سبقه من شعراء قبيلته في هذا المجال بل شعراء الجاهلية بوجه عام إذ أن فخر هذا الشاعر بنفسه لا يتجاوز في معانيه ذلك الفخر الفردي الذي وقفنا على بعض مظاهره عند غيره من شعراء بني أسد، فهو يفخر بقطعة الصحراء الموحشة إذ يقول:

وَماءٍ بمَوْماةٍ قَليلٍ أنيسُهُ ... كأنَّ بهِ مِنْ لَوْنِ عَرْمِضِهِ غِسْلا
حَبَسْتُ بهِ خُوصاً أَضَرَّ بَنِيهَا ... سُرَى الليلِ واستقبالُها البَلَدَ المَحْلا(٣)

وها هو ذا يفخر بتكرمه وسخائه فيقول:

وَإنِي لأَشْوِي للصِّحابِ مَطِيَّتِي ... إذا نَزَلُوا وَحْشاً إلى غَيْرِ مَنْزِلِ
فَباتُوا شِباعاً يَدْهَنُونَ قِسِيَّهُمْ ... لَهُمْ مِجْلَدٌ مِنْهَا وَعَلَّقْتُ أَحْبُلِي
وَعَرْجلةٍ مِثْلِ السُّيُوفِ رَدَدْتُهَا ... غَداةَ الصَّباحِ بالكَمِي المُجَدَّلِ
وأيسارِ صِدْقٍ قَدْ أَفَدْتُ جَزُورَهُمْ ... بِذِي أَوَدٍ خَبْشِ المَذاقةِ مُسْبِلِ
أَلا تِلْكَ أَخْلاقُ الفَتَى قَدْ أَتَيْتَهَا ... فَلا تسألونِي واسألُوا كُلَّ مُبْتَلِي(٤)

---

١ـ انظر المرجع السابق.
٢ـ انظر المرجع السابق.
٣ـ انظر شعر عمرو بن شأس الأسدي ص ٤١ وله في هذا المعنى قوله في ص ٤٣:
وخرق كأهدام العباء قطعته ... بعيد النياط بين قف وأرمل
٤ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٤٥ ـ ٤٦.

وربما تمدح بشرب الخمر إذ يقول:

وندمـــان يزيـــدُ الكـــأسَ طيبـــاً سَـــبَقْتُ إذا تَفَـــوَّرتِ النُّجُـــومُ

رفعـــتُ برأسِـــهِ فكشـــفتُ عَنْـــهُ بِمُعْرَقَـــةٍ مَلامَـــةَ مَـــنْ يَلـــومُ(١)

ويبدو أن محتد الشاعر ونبل اصله في قبيلته دعاه إلى أن يفتخر به و لم لا؟ انه عميد سعد بن ثعلبة كما يقول:

وَقَـدْ عَلِمَـتْ سَـعْدٌ بـأنّي عَميدُهـا قديماً وأنّي لَسْـتُ أَهْضِـمُ مَـنْ هَضَـمْ

خزيمـةُ ردّانـي الفِعـالُ ومَعْشَـرٌ قديمـاً بَنـوْ لِـي سورَةَ المَجْدِ والكَـرَمْ(٢)

ولدى النظر في شعر سحيم عبد بني الحسحاس الأسد سنقع له على مظاهر فردية للفخر بنفسه وشجاعتها وفتوتها وسخائها أيضاً إذ يقول سحيم وهو يرسم لنا صورة التي كان عليها أو نبغي أن يكون عليها:

فَقَـدْ أعْقِـرُ النّـابَ ذاتَ التليـبِ ل حتّـى أُحـاوِلَ مِنْهـا سِـدَافَا

بِمَثْنـى الأيـادي لِمَـنْ يَعْتَفِـي وأرفـعُ نـارِي إذا مـا اسـتضَافَا(٣)

وكما هو معروف لدينا فان سحيما كان عبداً رقيقاً، ولكننا نرى منه هذا الشعور الحاد بالفردية، والتمدح بأخلاق السادة والفرسان من بني أسد الصرحاء وغيرهم، فهو لا يقل عنهم فتوة وجاذبية إذ نراه يقول:

وَمِثْلُكِ قَدْ أخرجْتُ مِنْ خِدْرِ بَيْتِها إلى مَجْلِسٍ تَجَرُّ بُرْداً مُسَهَّمَا (٤)

ولعل أشعار سحيم لا تقل في مضائها وقوة تأثيرها، وشهرتها عن أشعار الصرحاء بل ربما قامت له مقام الأصل كما يقول:

أَشْعارُ عَبْدِ الحَسْحاس قُمْنَ لَهُ يومَ الفَخارِ مَقَامَ الأَصلِ والورقِ

إنْ كُنْتُ عَبْداً فنفسِي حُرَّةٌ كَرَماً أَوْ أَسْوَدَ اللَّوْنِ إنّي أبيضُ الخُلقِ(٥)

وهو صروم مواصل لا يقبل بوده على أحد إلا إذا شعر منه بحب نحوه:

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنّي صَرُومٌ مُواصِلُ إذا لَمْ يَكُنْ شَيءٌ لِشَيْءٍ مُواتِيَا

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ٤٩.

٢ـ انظر المصدر السابق ص ٥٨.

٣ـ انظر ديوان سحيم ص ٤٥.

٤ـ انظر المصدر السابق ص ٣٥.

٥ـ انظر المصدر السابق ص ٥٥.

فَــإنْ تُقْبِلِـــي بِـــالودِّ أُقْبِـــلْ بِمِثْلِـــهِ ... وَإنْ تُدْبِـرِي أذهَـبْ إلى حـالِ بَالِيَـا[١]

ويلوح لنا أن فردية سحيم الجادة إنما كانت تصدر عنه نتيجة لوضعه الاجتماعي أقرب ما تكون إلى تعويض لنفس الشاعر قبل أن تكون موجهة لإقناعنا بهذه الشخصية التي لا تملك من أمرها شيئاً - وقد سبقت الإشارة إلى هذا في الفصل الخاص بسحيم في هذه الدراسة - ومن الواضح أن شعراء بني أسد لم يخرجوا عما افتخر به الجاهليون الآخرون من صفات كانوا يرونها في أنفسهم، أو يصورونها في الإنسان المثالي الذي كانوا يرون فيه مثل تلك الصفات، ولعل هذا الاتجاه كان مرافقاً شعراء هذه القبيلة منذ أقدم شعرائها الذين وصلت إلينا أشعارهم، فهذا مرة بن الرواع يؤكد فروسيته ويصور قطعه المفاوز المهلكة. وإقدامه في الحرب فيقول:

وَقَــدْ أَقُــودُ لَغَيْــثٍ لا أَنيــسَ بِــهِ ... إلاّ البعــــوضُ وإلاّ الأَزرقُ الهَـــزِجُ

نَهْـدَ المَراكِـــلِ يَطويــه ويركُبُـــهُ ... حتّـى يُكَفِّـتَ عَـنْ مُصْرانِـهِ العَفَـجُ

بِمِثْلِـهِ كنـتُ أعلـو الخَيـلَ إذ رَكِبـتْ ... إذا الجيـادُ كَسَـا فرسـانَها الرَهَـجُ[٢]

ويكرر عباد بن انف الكلب الصيداوي الأسدي ما قاله شعراء هذه القبيلة وغيرهم من حماية المستجير ويذكر ضروباً من الكرم والسخاء وإتلاف المال فيقول:

فقلـتُ لَهُـمْ بـاللهِ هَـلْ تُنْكِرُونَنـي ... وَهَـلْ عـابَنِي إلا السَّـخَا والتَّمَجُّـدُ

وإنّـي جـوادُ الكـفِّ سَمْحٌ بمـا حَـوَتْ ... يَـدايَ مِـنَ المَعْـرُوفِ لا أَتَلَـدَّدُ

أجـودُ وأحْمِـي المسـتجيرَ مِـنَ الـرَّدَى ... إذا عَـرَّدَ النِكْـسُ الأحَـمُّ الأَلَنْـدَدُ

ويومـاً تـرى الأبطـالَ مَنْ خَـوْفِ شَـرِّهِ ... سُـكارى عَلَيْهِـمْ غبيـةٌ تَـتَرَدَّدُ

شَـهِدْتُ فَجَلَّيْـتُ البلايـا وأَوْقَهـا ... بـاسمرَ نَحْـوَ المُبْتَغِـي الشَـرَّ يَقْصِـدُ[٣]

ومثله فعل أبو سمال الأسدي بقوله يتحدث عن نفسه:

وَقَـدْ كـانَ مِدْلاجـاً إلى المَجْـدِ مُتْعِبـاً ... إليـهِ المَطايـا عُمْـرُهُ ليـسَ يَفْـتُرُ

وخيـلٍ دَعَتْنِـي للـنِّزالِ أَجَبْتُهـا ... وفِـي الكَـفِّ مِنّـي مَشْـرِفِيٌّ مُذَكَّـرُ

وتحتـي طِمِـرٌ مسـتطارٌ فـؤادُهُ ... سـليمُ الشَّـظا نَهْـدٌ كُمَيْـتٌ مُضَمَّـرُ

فنـازلتُ إذ نـادُوا نَـزالِ وَنِلْـتُ مـا ... يَنـالُ الكريـمُ الأحْـوَذِيُّ المُشَمِّـرُ

وَقَـدْ كنـتُ أبّـاءً عَلَـى القِـرْنِ مِرْجَمـاً ... أجـودُ وأحمِـي المسـنفاتُ وأَخْـبُرُ[٤]

وخلاصة القول في هذا الجانب: أن شعراء بني أسد قد أكدوا فرديتهم وحضورهم الخاص في أشعارهم، وقد كان ذلك من خلال مجالات شتى - فالواحد منهم لم ينس نفسه حتى وهو يتحدث

١- انظر المصدر السابق ص ٢٤ وما بعدها.

٢- انظر المؤتلف والمختلف للآمدي ص ١٢٧، ١٢٨.

٣- انظر كتاب المعمرين "لأبي حاتم الآمدي السجستاني ص ٥٥.

٤- انظر المصدر السابق ص ٦٥.

عن القبيلة ويعالج قضاياها بل كان يعطف على ذاته بين الحين والآخر، فيرسم صورة لما يعتمل فيها من مشاعر وأحاسيس.

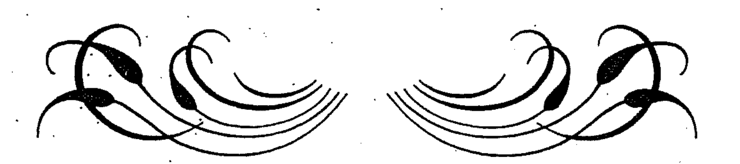
وليس معنى هذا أن هؤلاء الشعراء كانوا ذاتيين بما تعنيه هذه الكلمة من معنى فيما تلا ذلك من عصور، وإنما كانت فرديتهم نابعة من قلب ذلك الخضم الواسع، والإطار العام المسمى بالقبيلة، ونحن نحس أن كل ما فخر به الشاعر الأسدي بخاصة والجاهلي بعامة إنما كان يفخر به لإعجاب الآخرين به سواء من أبناء قبيلته أم من أبناء بيئته الجاهلية بوجه عام، وعلى الباحث أن يقف بحذر شديد وهو يعالج مثل هذه القضية. فالفردية هنا تكاد تتداخل في القبلية إلى حد بعيد ومسألة الفصل بينهما فيها شيء من الصعوبة والعناء، وإذا كان الدكتور يوسف خليف قد حاول أن يصنف الشعراء الجاهليين في فئات أربع هي: شعراء المذهب القبلي، وشعراء عبروا عن شخصياتهم الفردية بدون تمرد على الشخصية القبلية أو رفض لها. وشعراء من طائفة ثالثة كانوا مغالين في فهم ارتباط الفرد بالقبيلة، وقد أرادوا لهذا العقد الفني بين الفرد والقبيلة أن يرتفع إلى حد عدم محاسبة القبيلة للفرد على تصرفاته بغض النظر عن صحة تلك التصرفات أو خطئها. وفرقة رابعة بالغت في فهم الشخصية الفردية إلى حد التمرد على الأعراف القبلية ويعني به الدكتور خليف "الصعاليك"[(١)] فإننا نرى أن شعراء بني أسد كان أغلبهم من الفئة الثانية التي حاولت أن تعبر عن شخصياتها وتصور ما يدور في نفوسهم بشكل مستقل، وما ذلك إلا لترسم في محاولة منها صورة للإنسان العربي في ذلك العصر.



١ـ انظر كتاب "دراسات في الشعر الجاهلي" للدكتور يوسف خليف طبع مكتبة غريب ص ١٧١ وما بعدها.

# الباب الرابع

# الدِّراسَةُ الفَنِّيَّةُ



## في هذا الباب:



الفصل الأول:

بِنَاءُ القَصِيدَةِ وَمُوسِيقَاهَا



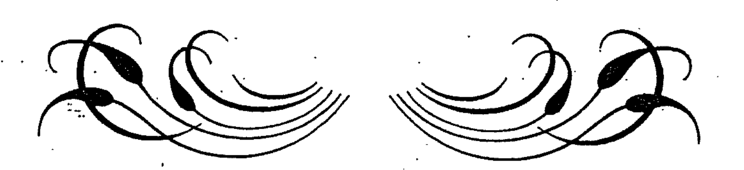
الفصل الثاني:

الصُّورَةُ الفَنِّيَّةُ عِنْدَ شُعَرَاءِ بَنِي أَسَدٍ الجَاهِلِيِّينَ



# الفصل الأول

# بِنَاءُ الْقَصِيدَةِ وَمُوسِيقَاهَا



## في هذا الفصل:

الوقفة الطللية

الانصراف إلى الناقة والحيوان

الثور الوحشي

النزعة القصصية في بنية القصيدة

الميل إلى قصر القصائد

لغة الشعر عند بني أسد

الأوزان والقوافي

من المفيد بعد أن وقفنا على أهم اتجاهات الشعر عند شعراء بني أسد في الجاهلية، وأوضحنا جانبا من المعاني التي دارت في أشعارهم من حيث كونهم يمثلون قبائلهم من جهة، ويمثلون فرديتهم من جهة ثانية، أن نتعرف أهم خصائص هذا الشعر في هذا الباب، وقد جعلناه في فصلين: يدور الأول منهما: حول بناء القصيدة وموسيقاها، وسوف نتناولها من حيث الهيكل الذي وجدناه أمامنا، متعرضين لنظام القصيدة الجاهلية بوجه عام، محاولين ـــ ما وسعنا الجهد ـ تحليل مواقف الشعراء الأسديين في هذا المضمار، وسوف نقف على أجزاء القصيدة عند شعراء هذه القبيلة، وعلى مدى تداخلها بعضها ببعض، وأدوات الشاعر الأسدي في ذلك، وهل وفق أو أخفق؟

ولن يفوتنا الحديث ـ في هذا الفصل ـــ عن لغة الشعر عند بني أسد، ومحاولة الوقوف على المستوى اللغوي الذي نظموا فيه ما وصل إلينا من أشعارهم حيث يشكل هذا المستوى عنصرا هاما من عناصر البناء في القصيدة.

وأما الفصل الثاني: فسوف نتناول فيه عنصر الصورة في شعر هذه القبيلة محاولين الكشف عن فنية الشاعر الأسدي في هذا المضمار، ولعل هذا التصوير الفني يشكل هو الآخر جزءا مهما لا غنى لدارس الشعر عنه ليتفهم عمق معاني هذا الشعر ورقتها ويدرك صورة الحياة الجاهلية من جميع جوانبها، ولعله بذلك يستكشف كثيرا من مواقف الإنسان الجاهلي من المظاهر المحيطة به، وعلى هذا فانه يمكننا القول: إن الصورة الفنية في الشعر تعد مرجعاً مهماً لترجمة حياة هؤلاء الناس، وهي فوق ذلك كله تدلنا على فردية الشاعر وشخصيته، وما تتمتع به هذه الشخصية من سمات مميزة، وحس بالجمال ينفرد عن غيرها من الشخصيات إذ أننا سنجد لكل شاعر منهم مواقفه الخاصة وأدواته التصويرية المميزة.

والواقع أن بناء القصيدة يشكل دعامة أساسية من دعائم العمل الشعري بفنيته ودقته، ولعله يعكس لنا رؤية الشاعر وطريقة معالجته للقضية المطروحة أمامه، كما أنه يدل في بعض جوانبه على الحياة العقلية والاجتماعية للعصر[1].

ومن المعروف أن نقادنا القدامى تحدثوا عن نظام القصيدة العربية القديمة، وقد عرفت القصيدة الجاهلية عندهم ببناء محدد التزم به الشعراء الجاهليون ونظموا فيه جل أشعارهم، ويبدو أنه أصبح سنة من الصعب الخروج عليها، ومن غير المألوف مخالفتها.

ولقد أوضح ابن قتيبة ذلك النهج المحدد فقال: "سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا وخاطب الربع، واستوقف الرفيق ليُجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين... ثم وصل ذلك بالنسيب. فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق، وفرط الصبابة ليميل إليه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ليسترعي به إصغاء الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وألف النساء، فلا يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب، وضاربا فيه بسهم. بحلال أو حرام. فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل وحر الهجير، وانعقاد الراحلة والبعير... فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل أحدا منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل

١ ـ انظر رأي الدكتور محمد مصطفى هدارة حول هذا الموضوع في كتابه القيم الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٣٦٥ وما بعدها.

السامعين"[١].

وعلى هذا فإن ابن قتيبة يستخرج للشعر نظاما، وللقصيدة نهجا، والشاعر المجيد - في نظره - من التزم بهذا النظام - وسار على هذا النهج وحول هذا يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة معلقا على رأي ابن قتيبة هذا: "هذا هو منهج القصيدة العربية القديمة، وهذه هي أقسامها التي ليس للشاعر مناص من اتباعها إذا كان يريد لشعره الحياة والذيوع في أوساط النقاد والرواة"[٢].

وقد جاء بعد ابن قتيبة ناقد آخر هو ابن رشيق القيرواني فذهب إلى ما قرره سلفه وأيده[٣] كما وجد من الدارسين والنقاد المحدثين من أيد رأي ابن قتيبة ومن عارضه متهما هذا النظام التقليدي بالحد من قدرات الشاعر عن ممارسة فنه كما يشاء له خياله، وبعدم السماح له بالتحليق إلا في دائرة ضيقة، وأن هذا النظام قد يكون سببا في خلق قوالب متكررة ونماذج متداولة[٤].

وقد بين الدكتور حسين عطوان أن النظام التقليدي للقصيدة العربية لم يكن ليلتزم به الشعراء الجاهليون دائما كما حدده ابن قتيبة، وذلك في دراسته لمقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، وضرب لنا أمثلة متنوعة تؤيد ما ذهب إليه[٥].

وللدكتور عبد القادر القط رأي في هذه المسألة يتلخص في أن القصيدة العربية القديمة على الرغم من نظامها، وتعدد أغراضها، نابعة من أعماق الشاعر الجاهلي الذي انصهرت شخصيته بالقبيلة إلى حد بعيد، ويدافع الدكتور القط عن نظام القصيدة العربية بالقديمة قائلا:

"والحق أن القصيدة بالعربية القديمة إذا تحقق لها الصدق الفني والموهبة النادرة — لم تكن على النحو من التفكك الذي رماها به هؤلاء النقاد والشعراء، ولم يكن من المعقول أن يكون شعر أمة متحضرة مجرد أبيات متنافرة لا يربط بينها إلا قافية مشتركة، وبعض صلات يسيرة من معنى أو شعور، ولعل الذي ساق بالنقاد المحدثين إلى هذه النظرة الظالمة ما رأوه في القصيدة القديمة الطويلة من تعدد الأغراض، ومن انصرام الروابط اللفظية بين أبياتها، ويعزو الدكتور عبد القادر القط تعدد هذه الأغراض إلى اختلاط وامتزاج شخص الشاعر بتجاربه الخاصة مع التجربة الجماعية للقبيلة، وبهذا يفسر مطالع القصائد الطللية وأن إحساس الشاعر بالفقد فيها إنما يصور إحساس قبيلة كاملة بهذا الفقد الذي أملته طبيعة حياة البدوي[٦].

ولابد لنا - ونحن نتحدث عن بناء القصيدة الجاهلية — أن نقف عند رأي أو رد الجاحظ حول نشأة العصر الجاهلي، وبمعنى آخر تحديد الفترة الزمنية التي وصلت إلينا فيها هذه النصوص الأدبية والتي تدل دلالة قاطعة على نضج التجربة الشعرية، ورقي اللغة التي صيغت فيها هذه التجربة على ألسنة كافة الشعراء العرب في شبه الجزيرة العربية، وأعني بذلك شعراء القبائل الشمالية:

يقول الجاحظ: "وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن أول من نهج نهجه، وسهل إليه امرؤ

---

١- انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر طبع دار المعارف الجزء الأول ص ٧٤ - ٧٥.

٢- انظر كتاب مشكلة السرقات في الدب العربي للدكتور محمد مصطفى هدارة الطبعة الثالثة ١٩١٨ - طبع المكتب الإسلامي — بيروت ص ٢١٧.

٣- انظر العمدة لابن رشيق ص ٢٣١ الجزء الأول. كما وجد من يعارض هذا النظام من الدارسين المحدثين، كالدكتور شكري فيصل في كتابه تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام حيث يرى أن الغزل ليس غرضا بذاته ص ٢٩ - ٣٠ طبع دار العلم.

٤- انظر كتاب السرقات في الأدب العربي للدكتور محمد مصطفى هدارة ص ٢١٧.

٥- انظر مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي للدكتور حسين عطوان طبع دار المعارف بمصر في أماكن متفرقة.

٦- انظر الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر للدكتور عبد القادر القط ص ٣٦٨.

القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة فإذا ما استظهرنا الشعر، وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام، وإذا ما استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام"(١).

ولعل الجاحظ بهذا يثبت فكرة البساطة على أن الشيء يكون في البداية صغيرا، ثم يكبر كما أنه يقر بنظام القصيدة العربية القديمة الذي هو بين أيدينا، وفي رأينا أن الجاحظ قد أخطأ الصواب في الحكم على الشعر الجاهلي فما بين أيدينا من شعر يؤكد أنه على مستوى رفيع من النظم والأداء، كما ينبئ عن تجارب سابقة موغلة في القدم تخطاها وتجاوزها حتى وصل إلينا على هذه الصورة الفنية الرفيعة، وما أظن هذا ليحدث في زمن قصير كما حدده الجاحظ، ولو كان حكمه صحيحا لوجب أن تكون قصائد عبيد بن الأبرص - مثلا - وأقل شأنا من قصائد لاحقيه، وكذلك قصائد معاصريه من أمثال امرئ القيس، على اعتبار أنهما من أقدم الفحول الجاهليين الذين وصل إلينا شعرهم.

ويعارض الدكتور نجيب محمد البهبيتي في كتابه "تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري" ما ذهب إليه الجاحظ فيقول: "إن الشعر العربي والحضارة العربية أقدم من ذلك بكثير، وبخاصة على أطراف الجزيرة العربية، وأن القصيدة العربية قديمة قدم هذه الحضارة، ثم إن النمو الطبيعي للقصيدة العربية أوزانها وموضوعاتها وأساليبها ولغتها وإيجازها يستدعي أن تكون مرت قبل زمن امرئ القيس بأطوار كثيرة، وتعثرت عثرات جمة حتى اكتمل لها بالشكل الذي نجدها عليه في شعر امرئ القيس ومن جاء بعده"(٢).

ويرى الدكتور شوقي ضيف "أن النصوص الأدبية التي وصلتنا من العصر الجاهلي تدل دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى كان الشعراء على اختلاف قبائلهم، وتباعدها، وتقاربها، ينظمون فيها شعرهم"(٣).

وإذا كان الأمر كذلك فان قبيلة بني أسد تعتبر واحدة من هذه القبائل الشمالية المشاركة في هذه الاصطلاح، وتبعا لذلك فانه يمكن القول: بأن الشعر الذي جمعناه لشعراء هذه القبيلة قد قيل بعد شيوع هذه اللهجة بين شعراء القبائل العربية، وسيطرتها على الحياة الأدبية في كل أنحاء شبه الجزيرة.

ولعل ما يؤيد نظرتنا لهذا الشعر الأسدي هو أن بعض شعراء هذه القبيلة قد سبقوا امرأ القيس في الظهور الأدبي فعبيد بن الأبرص وكعب بن الرواع، أقدم من امرئ القيس وأكبر منه سنا، وإذا تسامحنا قلنا: إنهما عاصراه، ومع هذا فشعرهما على غاية من النضج في الأداء، والتصوير الفني والأسلوب، وليس من المعقول أن لا يكون هناك شعراء أسديون قبل عبيد بن الرواع في قبيلة بني أسد.

وفي تاريخ الآداب العربية يقول المستشرق كارلونا لينو حول هذا الموضوع: "والحق أن من يسرح أبصاره في رياض الشعر الجاهلي لا يجد في شذراته التي نجت من أيدي الضياع ما يدل على كونه فنا صغير السن فان جميع ما نقل إلينا منه يظهر لنا غاية الإتقان وزنا وتقفية، وفي نهاية التفنن من الافتخار والزجر والإغراء والوعد والوعيد... وهو يجمع رقة العبارة إلى دقة الإشارة، ومتانة

---

١- انظر الحيوان للجاحظ طبع مصطفى البابي الحلبي الجزء الأول ص ٧٤.

٢- انظر تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري للدكتور نجيب محمد البهبيتي طبع مؤسسة الخانجي سنة ١٩٦١ ص ٣٨ إلى ٤٦.

٣- انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ١٣١.

التراكيب إلى رشاقة الأسلوب، فليس من الممكن مثل هذا الكمال في صناعة حديثة لأنه من المعلوم أن كل مبتدئ لشيء لم يسبق إليه...»(١).

ونخلص من هذا كله: إلى النقاد والعلماء العرب الذين قالوا بمدة مائة وخمسين سنة تقريبا عمرا للشعر الجاهلي لم يبعدوا عن الصواب إذا فرضنا أنهم إنما أرادوا بذلك ما وصل إلينا من شعر الجاهليين، وليس نشأة لهذا الشعر.

وعلى هذا، فإننا سنعد عبيد بن الأبرص أقدم شاعر أسدي وصلت إلينا أشعاره، وهو يشكل بداية طريقنا للدخول إلى بناء القصيدة عند شعراء هذه القبيلة، وهل تطور هذا البناء عند بقية شعراء بني أسد شكلا وموضوعا أم لا؟ وسنتناول في دراستنا لبناء القصيدة البناء الهيكلي في المطلع والموضوعات، وطول الأوزان وقصرها، وكذلك القوافي التي تداولت بين شعرائهم، وهل ميزوا في ذلك عن سواهم؟

وأول ما يلفت نظر الباحث في قصائد هؤلاء الشعراء الأسديين وقوفهم على الأطلال الدائرة، وهذه ظاهرة تتكرر في أشعارهم ـ وأشعار الجاهليين عموما ـ وغالبا ما تأتي في بدايات تلك القصائد، والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هل كان وقوف الشاعر على الأطلال تقليدا متواضعا عليه؟ أم أن له أهمية أخرى ـ خاصة ـ تحتاج منا إلى وقفة متأنية وتوضيح لهذه اللحظات الذاهلة.



١ـ انظر تاريخ الآداب العربية لكارلونا لينو الطبعة الثانية ١٩٧٠ دار المعارف ص ٦٨ ـ ٦٩.

## الوقفة الطللية:

والواقع أن الوقفة الطللية تترجم مواقف إنسانية عديدة تتصل بنظرة الشاعر إلى الكون والحياة، وإلى الصراع بين الحياة والموت، وقد عبر عنها الشاعر الجاهلي بعاطفة دافقة، وحرارة ظاهرة لأنها تتناول نوازعه وإنسانيته، ونظرته إلى مظاهر الكون من حوله.

وهي وقفة تعكس لنا تأثر الشاعر بكل ما سبق، ولعلها في الوقت ذاته تدل على فنية الشاعر الجاهلي، وقدراته التعبيرية في إضفاء الظلال والألوان المناسبة لمثل تلك الوقفة، وإذا نظرنا إلى شعراء بني أسد الجاهليين من خلال وقوفهم على الأطلال، وجدنا أنهم لم يلتزموا بعدد معين من الأبيات في وقوفهم هذا، فشاعر منهم قد يصل به التعبير عن هذه الوقفة إلى عشرة أبيات، وآخر قد يكتفي ببيت أو اثنين، ثم ينتقل إلى غرض آخر، وأحيانا قد لا نرى هذه الوقفة أساسا في قصائدهم، وعلى هذا فان الأطلال لا تشكل - في رأينا - جزءا أساسيا من قصيدة الشاعر بدليل أنه يستطيع الاستغناء عنها، وعلى أية حال: فقد وقف الشعراء الأسديون على الأطلال كعادة الجاهليين في ذلك وشكوا وبكوا واستوقفوا الصحب، وتأملوا فعل الزمن في ديار الأحبة، ويمكن القول: إن الأطلال قد شكلت جزءا مهما مما كانت تقع عليه عينا الشاعر الأسدي في بيئته غير المستقرة المغرقة في البداوة فالدمن تذكره بحب مضى، والأثافي والخطوط المحفورة في الأرض تعيده إلى الذكريات الحلوة الخالية، وبقايا الديار قد تذكره بمعركة نشبت، أو غارة وقعت، فقد فيها عزيزا، وعلى هذا فانه يمكن القول أيضا: إن وصف الأطلال فن نابع من صميم الحياة العربية البدوية، وكان ركنه الأساسي الذي قام عليه بكاء الأحبة، وتذكرهم، وبمعنى آخر فان هذا الفن ارتبط بذكر المرأة الحبيبة الظاعنة، فالشاعر الجاهلي كان يعبر عن عاطفة الشوق والبين، وحول هذا يقول الدكتور نوري حمودي القيسي: "يعد الطلل بالنسبة للقصيدة الجاهلية بداية المرحلة الشعورية التي تمر من خلالها أحاسيس الشاعر الجاهلي، وتنبسط بعدها أفكاره لتتناسق في إطار موضوع متكامل، ومن الطبيعي أن تسهم خفقات الطلل وهي تبدو بشكلها المتقادم في خلق المناخ العاطفي من هذه الإثارة، وقد وجد الشعراء في مثل هذه المواقف ما يثير عواطفهم الحادة، ويلزمهم بالوقوف عند هذه القطعة العزيزة التي ذهبت بين حناياها أعز الأيام.. ولم يكن البكاء أو الوقوف عند هذه البقايا الطللية عاطفة آنية ضائعة، أو وقفة تأملية عابرة، ولم تكن هذه المشاعر ذاتية يعانيها الشاعر وحده، وإنما هي ظل حزين يلف نفس الشاعر، وقد فرض هذا الظل شعور الجماعة التي ينتمي إليها بالحرمان من الوطن المكاني والبعد عن المباشرة الجماعية التي يوجبها الاستقرار(١).

إذن فالوقفة الطللية ليست عبثا من الشعراء ذلك أنها تؤدي وظيفة خلق مثل ذلك الجو الشعري المشحون بالعواطف، وهي على هذا النحو ليست عاطفة عشوائية، فالشاعر يحسن ترتيبها، ويخضعها لسلطان عقله وإرادته.

---

١- انظر وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية للدكتور نوري حمودي القيس - طبع دار الطباعة والنشر بالموصل ١٩٧٤ ص ٩ — ١٠.

والواقع ان هذه الوقفة عند شعراء بني أسد ارتبطت بمشاهد معينة وصيغ محددة، فالعفاء والخراب، ومشاهد الحيوان الراتع في تلك الديار، وتأمل القوة التدميرية للزمن والمتمثلة في الرياح والعواصف، والأمطار، وتلك الصيغ الإستفهامية التي تنم عن جهل الشاعر، وعدم معرفته للديار ـ وآهلها، وهو في حقيقة الأمر يعلم علم اليقين لمن تكون ومن هم أهلها؟ بل لعله يعرف أكثر من هذا، ويعلم إن السؤال لا يجدي نفعا، ومع ذلك فهو يسأل، ولعل ذلك مما كان يؤلمه أكثر، ولعله السبب الذي يحدو بالشاعر لأن يهرب من صورة الطلل، ويتخلص منها إلى غيرها قبل أن تتشرد نفسه، ويتعاظم حزنه، وغالبا ما كان يلوذ بناقته كي تنجيه من لحظات ذهوله تلك، يقول عبيد بن الأبرص:

يـاخليليَّ قِفـا واستخبرا المَنْـ ـزلَ الـدّارسَ مِـنْ أهـلِ الحِـلالِ
مِثْلَ سُحقِ البُرْدِ عفّى بعدكَ القَطْـ ـرُ فعناهُ وتـأويبُ الشـمالِ
فـانصرِفْ عَنْهُـمْ بعنسٍ كـالوأي الجَأْ بِ ذي العانَـةِ أو شـاةِ الرمـالِ(١)

ويقول بشر بن أبي خازم:

تغـيّرتِ المَنـازلُ بـالكَثيبِ وغـيَّر آيهَـا نَسْـجُ الجَنـوبِ
وقفـتُ بهـا أسـائلُها ودَمْعِـي علـى الخدَّيْـنِ في مِثْـلِ الغُـروبِ(٢)

وعبيد بن الأبرص يسأل الربع الدارس، ويستفهم عن أهلها وقد خانه الدمع يقول:

لِمَـنِ الدّيـارُ ببرقـةِ الرَّوحـانِ دَرَسَـتْ وغيَّرهـا صُـروفُ زمـانِ
فوقفـتُ فيهـا نـاقتي لِسُـؤالِهَا فَصَرِفْـتُ والعينـانِ تَبْتـدرانِ
سُـجماً كـأن شُـنانةً رجبيّـةً سـبقتْ إليَّ بمائهـا العَينـانِ(٣)

والشاعر هنا يعلم أنه في مكان مقفر خرب بيد أنه بوقوفه هذا يحاول تأمل هذه القوة المتمثلة في الدهر وتعاقب الأيام وما فعلته بالطلل، ولعله بذلك يشعر بضآلته أمام هذا العملاق الذي لا يقهر، غير أننا نلمس من الشاعر عدم الاستسلام التام أمام هذه المشيئة، فما يزال قسم من الديار قد استعصى على تلك القوة، وصمد أمامها، وهاهي ذي جماعات النعام في تلك البقايا، بل تتوالد يقول عبيد:

لَيْسَ رَسْمٌ على الدَّفـينِ ببـالِي فَلِـوى ذَرْوَةٍ فَجَنْبَـيْ أُثـالِ
فـبالمَرْوَراةِ فالصفيحـةِ قَفْـرٌ كُـلُّ وادٍ وروضـةٍ مِحْـلالِ
مقفـراتٍ إلا رمـاداً غَبيّـاً وبقايـا مِـنْ دِمْنَـةِ الأطـلالِ
وأوارِّيَ قـدْ عَفَـوْنَ ونؤيـاً وَرُسـوماً عُرِّيـنَ مُـذْ أحـوالِ
بُدِّلَـتْ مِنْهُـمُ الديـارُ نعامـاً خاضبـاتٍ يُزجِـينَ خَيْـطَ الرِّئـالِ

---

١ـ انظر ديوانه ص ١١٥.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ٢٠.
٣ـ انظر ديوان عبيد ص ١٣٠.

وظبـــــاءٌ كـــــأنهنَّ أباريـــــقُ لُجَيْـنٍ تحنـو علـى الأطفـالِ[١]

فالشاعر ينظر بعين كسيرة حزينة إلى هذه الأطلال، ويتأمل ما أصابها من دمار وخراب بفعل الزمن، وعوامل الطبيعة القاسية، ويحدد المواضع والأماكن إمعانا في تصوير عنف التجربة ومرارتها، غير أنه يحاول في لحظة ما أن يجدد الحياة، ويبعثها في هذه الرسوم الدارسة، وينفي عنها صفة العدم، فالظباء والنعام قد اتخذت من هذه الأطلال مرتعا لها خصبا، بل توالدت فيها، وتكاثرت آمنة مطمئنة، ويمكن القول: بأن هذه الحياة الجديدة التي أنشأها الشاعر في بقايا الطلل الدارس إنما كانت نشأتها على حساب حياة أخرى سلفت وعايشها الشاعر، ولكنها انقضت ولا سبيل إلى رجوعها، ولعل الطلل - هنا - يمثل الموت والخراب والدمار، كما يمثل في الوقت ذاته الحياة والخصب والنماء، وكان المنشئ في كلتا الحالتين هو الطبيعة القاسية القوية القادرة على الاستمرار والتحول على عكس الشاعر الذي يقف بعيدا في زاوية موقف الضعيف العاجز.

ولقد أكد الشاعر الأسدي هذا المعنى في غير موضع يقول عبيد:

حَلَّـتْ كُبَيْشَـةُ بَطْـنَ ذاتِ رُؤامِ وعفـتْ منازلُهـا بجـوِّ بُـرامِ
أقـوتْ معالمُهـا وغيَّـر رسْمُهَا هـوجُ الريـاحِ وَحِقْبـةُ الأيـامِ
حتـى أَذَعْـنَ بـهِ وكـلُّ مُجَلْجِـلٍ حَـرَقِ البـوارقِ دائـمِ الإرْزامِ
دارٌ بهـا عِيْـنُ النعـاجِ رواتعًـا تقـرو مسـارِبَهَا مـعَ الأرْآمِ[٢]

ويقول بشر بن أبي خازم:

فكـأنَّ أطـلالاً وبـاقِي دِمنـةٍ بجَـدُودَ ألـواحٌ عليهـا الزُخـرفُ
فجمـادُ ذي بَهْـدَى فجـوُّ ظُلامـةٍ عُرِّيـنَ ليـس بهـنَّ عَيْـنٌ تَطْـرِفُ
إلا الجـاذِرُ تمـتري بأنوفِهَـا عـوذاً إذا تلـعَ النهـارُ تَعَطَّـفُ
حـمُّ القَـوادِمِ مـا يَقَـرُّ ضروعهَـا حلبُ الأكـفِ لَهَـا قـرارٌ مؤنـفُ[٣]

وقد ألح الشاعر الأسدي على توضيح فعل عوامل الطبيعة في الطلل، وإظهاره في صورة قاسية، وهو في ذلك استخدم الفعل عفا، وأزبى، وأقفر وكذلك اندفاع المطر بأشكاله المختلفة كالملث، والصيت، والهطل، حتى أصبحت الورتان متلازمتين في حديثه عن المطر. فالفعل أولا ثم يعقبه الحديث عن المطر، يقول عبيد:

---

١ - انظر المصدر السابق ص ١٠٥.
٢ - انظر ديوان عبيد ص ١٢١.
٣ - انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٥٢، ١٥٣ ويقول في موضع آخر:

أي المنـازل بعـد الحـي تعـترف أم مـا هبـاك وقـد حكمـت مطـرف
أم مـا بكـاؤك في دار عهـدت بهـا عهـدا فـأخلف أم في آيهـا تقـف
أضحـت خـلاء قفـارا لا أنيـس بهـا الا الجـوازئ والظلمـان تختلـف

ديوانه ص ١٣٧ وما بعدها.

أَمِــنْ رُسُــومٍ نؤيُهــا نــاحِلُ ... وَمِــنْ ديــارٍ دَمْعُــكَ الهــامِلُ
قــد جــرَّتِ الريــحُ بِــهِ ذَيْلَهــا ... عامــاً وَجَــوْنٌ مُسْــبِلٌ هــاطِلُ
حتــى عفاهــا صيِّــتٌ رعــدُهُ ... دانــي النواحِــي مُسْــبِلٌ وابــلُ
ظِلْــتُ بِهــا كــأنني شــارِبٌ ... صهبــاءَ ممــا عتقَــتْ بــابِلُ(١)

ويقول في موضع آخر:

يــا دارَ هنــدٍ عفاهــا كــلُّ هطّــالِ ... بــالجوِّ مِثْــلَ ســحيقِ اليَمْنــةِ البــالِي
جرتْ عليها رِيــاحُ الصيــفِ فــاطَّرَدَتْ ... والريــحُ فيهــا تُعَضّيهــا بأذيــالِ(٢)

ويؤثر عمرو بن شأس استخدام الفعل غير حيث يقول:

أتعــرفُ مــنزلاً مِــنْ آلِ ســلمى ... أَبَــى بالثعلبيَّــةِ أَنْ يَرِيمَــا
أربَّ بِهــا مِــنَ الأرْواحِ ســافٍ ... فغــيَّرْنَ المنــازلَ والرُسُــوما(٣)

ولتبيان فعل الريح العاصفة يستخدم سحيم عبد بني الحسحاس الفعل ذاته فيقول:

عفتْ مِنْ سُلَيْمى ذاتُ فِرْقٍ فَأَوْدُها ... وأقفــرَ مِنْهــا بَعْــدَ ســلمى جديدُهــا
أربَّــتْ عليــهِ كــلُّ هَوْجــاءَ مُعْصِــفٍ ... وأســحَمَ دانٍ مُتْرَنُــهُ يســتعيدُها(٤)

وقد يمعن الشاعر في تصوير فعل الرياح بذلك الطلل العافي، ومن ذلك قول الشاعر عمرو بن شأس:

قفــا تعرفــا بــين الرحــى فَقُراقِــرٍ ... منــازلَ قَــدْ أَقْوَيْــنَ مِــنْ أُمِّ نوفــلِ
تهــادتْ بِــهِ هــوجُ الريــاحِ كأنمــا ... أَجَلْنَ الــذي استَودِعْنَ منها بِمُنْخَلِ(٥)

فالرياح هي الأخرى عامل مساعد على المحو والتعفية يقول عبيد:

لِمَــنْ الــدارُ أقفــرتْ بالجَنــابِ ... غــيرَ نُــؤْيِ ودمنــةٍ كالكتــابِ
غيرَّتْهــا الصَبــا ونفــحُ جَنــوبٍ ... وشمــالٌ تــذْرو دُقــاقَ الــترابِ
فتراوحْنَهــا وكــلُّ مُلِــثٍّ ... دائــم الرعــدِ مرحجــنٌ الســحابِ(٦)

ويشارك بشر بن أبي خازم في هذه اللوحة فلا يخرج عن بقية شعراء قبيلته إذ يقول:

---

١ـ انظر ديوانه ص ٩٧ ـ ٩٨.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ١٠١.
٣ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٥١.
٤ـ انظر ديوان سحيم ص ٤٩.
٥ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٤٢.
٦ـ انظر ديوان عبيد ص ٢١ ـ ٣٢.

أتعرفُ مِنْ هُنَيْدَةَ رسمُ دارٍ بخرجَى ذَرْوَةٍ فإلى لِواهَا
وفيها منزلٌ ببُراق خَبْتٍ عفتْ حِقَبًا وغيَّرها بلاهَا
أربَّ على مغانيها مُلِثٌ هزيمٌ وَدْقُهُ حتى عفاهَا(١).

وفي صورة أخرى يقول بشر:
منازلُ مِنْ سُلَيْمى مُقْفِراتٍ عفاها كلُّ هَطَّالٍ سَكُوبِ(٢)

ولعل الشاعر الأسدي بجمعه لعوامل التعفية هذه إنما يوجد بين مظاهر الطبيعة من أمطار، وأنواء، ورياح، وعواصف، ورمال، لإزالة معالم الطلل، وهو يعطي الريح من مظاهر القوة ما يكفي لتلك المهمة، فأصواتها شديدة مزمجرة، وذلك إمعانا في تجسيد الصورة الدارسة، ثم يبدل ـ أحيانا ـ بسكان تلك الأطلال من الأحبة سكانا جددا وغالبا ما يختارهم من الظباء والنعام، ويحيل قفر ووحشة ذلك المكان إلى خصوبة ونماء يمكن تلك الحيوانات من العيش بسلام ودعة، والشاعر في اختياره هذا إنما يبرهن عن فنية وذكاء، وكأنه يريد أن يؤكد صلاحية هذا المكان للعيش غير معترف بما لحقه من أسباب البلى، فمعروف أن الظباء والنعام من أشد الحيوانات حذرا وهي لا تألف إلا المكان الآمن البعيد عن المخاطر علاوة على عامل الخصب، وتوفر أسباب العيش في ذلك المكان.

ولعل الشاعر الأسدي بهذا أراد أن يخلع على المجتمع الحيواني الذي اتخذ من الأطلال مسكنا له صفات هو نفسه بحاجة إليها كالاستقرار والأمن والطمأنينة.

ومن ظواهر الوقفة الطللية في شعر الأسديين الاستفهام والتعجب ثم زجره لنفسه على هذا التساؤل والاستغراب، لأنه يدرك تماما أنه يخاطب أحجارا وأثافي سفعا لا تجيب سائلا، ولذا نجده يتولى الإجابة بنفسه يقول بشر بن أبي خازم:

وقفتُ بها أسائلُها طويلاً وما فيها مُجاوَبَةٌ لِداعِي
عفاها كلُّ هطَّالٍ هزيمٍ يُشَبَّهُ صوتُهُ صوتُ اليَراعِ(٣)

ويقول عمرو بن شأس:
أتعرفُ مِنْ ليلى رسومَ مُعَرَّسِ بَلِيْنَ وما يَقْدُمْ بِهِ العهدُ يَدْرُسِ(٤)

ويأبى الشاعر إلا استنطاق هذه الديار برغم علمه المسبق بأنه لن يلقى جوابا حيث يبلغ به الوجد أشده إلى استرجاع ماضيه. يقول عمرو بن شأس مستنطقاً الديار الدائرة:
ديارَ ابنةِ السعديِّ هِنْدٍ تكلَّمي بدافعةِ الحَوْمانِ والسَّفْحِ مِنْ رَمَمْ(٥)

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ٢١٩، وانظر ص ١٠٩ وص ١٧٧.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ٢٠ وانظر ص ٤٣.
٣ـ انظر ديوان بشر ص ١٠٩ وانظر ص ١١٣٧، ٩٩، ٦١، ١٢٩.
٤ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٢٥ وانظر ص ٥١.
٥ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٥٥.

ويشارك عبيد بن الأبرص في هذا التساؤل في غير موضع من ديوانه يقول عبيد:

أَمِنْ منزل عافٍ وَمِنْ رَسْمِ أَطلال بكيتَ؟ وهلْ يبكي من الشوق أمثالي؟
ديارُهُمُ إِذْ هُمْ جَميعٌ فأُصبحتْ بَسابِسَ إلاّ الوَحْشَ في البَلَدِ الخَالِي(١)

ويقول:

لِمَنْ دمنةٌ أَقْوَتْ بِجَوَّةِ ضَرْغَدِ تَلوحُ كَعُنْوانِ الكتابِ المُجَدَّدِ(٢)

وتتردد في أشعار بني أسد ظاهرة أخرى في أثناء وقوفهم على الرسوم الدارسة ألا وهي تشبيه البكاء الإنساني أو ما يصدر عن الإنسان من حشرجات في مثل هذه المواقف ببكاء الحمام يقول عبيد:

تحاولُ رَسْماً مِنْ سليمى دَكا دِكَا خلاءً تُعَفِّيهِ الرياحُ سَواهِكا
وقفتُ بهِ أبكي بكاءَ حمامةٍ أراكيةٍ تدعو الحمامَ الأوارِكَا
إذا ذَكَرَتْ يوماً مِن الدهرِ شَجْوَها على فرعِ ساقٍ أذْرَتِ الدَّمعَ سافِكا(٣)

ويقول بشر بن أبي خازم:

غشيتُ لليلى بِشَرْقٍ مُقاما فهاجَ لكَ الرسمُ منها سَقَاما
ذكرتُ بِها الحَيَّ إذْ هُمْ بِهَا فأسيلتْ العينُ مِنّي سِجامَا
أُبكّي بكاءَ أراكيَّةٍ على فرقِ ساقٍ تُنادي حَمامَا(٤)

ويقول عمرو بن شأس مستبدلا الحمامة بالناقة المفجوعة بولدها:

تذكّرَ ذكرى أمِّ حسانَ فاقشعرْ على دُبُرٍ لما تبيَّنَ ما ائتَمَرْ
فكدتُ أذوقُ الموتَ لو أنَ عاشقاً أمرّ بمُوسَاهُ الشَواربَ فانتحَرْ
فكنتُ كذاتِ البَوِّ تَذكّرَتْ لَهَا رُبَعَاً حنَّتْ لمعهدِهِ سَحَرْ(٥)

ولا ندري لماذا اختار الشعراء الأسديون الحمام في هذا الموقف بالذات؟ إلا أننا نشعر بأن حرارة البكاء، والإحساس المرير بالفقد، إنما يكون أشد عند هذا الطير، وربما كان ذلك مرتبطا بشيء من الأساطير القديمة عن هذا النوع من الطيور، ونلاحظ دعوة الشعراء لمشاركتهم في هذا الموقف من خلال دعوة الطير لجماعته لمشاركته في مصابه، كما تلاحظ ارتباط هذا الموقف منهم بالتذكر لما قد

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١١٢.
٢ـ انظر ديوان عبيد ص ٥٢.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٩١ - ٩٢.
٤ـ انظر ديوان بشر ص ٦٧ - ١٨٦.
٥ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٦٧ - ٦٨.

مضى، وعلى أية حال: فان دلالة هذه الظاهرة التي شاعت في أشعارهم - بل أشعار الجاهليين عموما - تفيد بحرارة البكاء وشدته - وتظهر الأسى العميق الذي تمكن من جوانح الشعراء في مثل تلك المواقف.

والشاعر لا يريد تحديد فترة زمنية لمثل هذه المواقف المؤلمة الحزينة، ولذا نراه يدع الأمر عائما، وجل ما نعرفه عن هذه الفترة التي يتحدث عنها أنها سنون ذواهب غير معلومة العدد، يقول عبيد:

كـأنَّ مـا أبقـتِ الرَّوامِـسُ مِنْـهُ  والسـنونُ الذواهِـبُ الأُوَلُ(١)

وهي عند بشر بن أبي خازم مدة ليست بالقصيرة، ولعلها لا تقل عن سنين عبيد بن الأبرص المتعاقبة يقول بشر:

تَجَـرَّمُ بَعْـدَ عَهْـدي بِهَـا  سُنُونَ تُعَفِّيـهِ عامـاً فعامـا(٢)

وهي فترة غير محددة عند عمرو بن شأس، وسحيم عبد بني الحسحاس، والذي يهمنا - هنا - أن الشاعر الأسدي بعدم تحديده لهذا الزمن الضائع يضعنا أمام حقيقة مألوفة لدى النفس البشرية، وهي أننا لا نريد ذكر ما نكره من وقت حتى وإن كنا نعرف تفاصيله ودقائقه، وإذا كنا لابد فاعلين فليكن ذلك بوجه استذكار عام وسريع دون الدخول في التفصيلات التي قد تؤلمنا أكثر، والشاعر هنا في موقف استذكار لما فات من زمن قاس فقد بمروره جزءا غاليا من عمره، ولعلنا نلتمس له العذر بإسبال الدموع أو أنه يخلق لنفسه العذر والمبرر لذرف العبرات، ففي الحقيقة إن الشاعر لا يبكي الطلل ولا أظنه يجود بدموعه السخية على ما فات ولن يعود فحسب، وإنما يبكي نفسه التي ستؤول إلى هذه الحالة الماثلة أمام عينيه، لأنه يعلم أن بكاء ما قد فات جهلا يقول بشر:

أَلَيْسَ طِلاَبُ مـا قَـدْ فـاتَ جَهْـلاً  وَذِكْـرُ المَـرْءِ مـالا يسـتطيعُ؟(٣)

ويدرك الشاعر - من خلال ذهوله أمام هذه البقايا العافية - المصير الذي ينتظره، وأن لامناص من المواجهة، وعبثاً يحاول أن يستوقف صحبه ليفرجوا عنه بعض ما هو فيه من ألم، أو لعله يجد عندهم بعض العزاء. ولكنهم يتابعون المسير غير ملتفتين إلى ندائه، فينطلق صوته الكسير المتهدج وكأنه يطلب الرحمة، ويستجدي الشفقة فيقول:

ألا تقفـانِ اليـومَ بَعْـدَ تَفَـرُّقٍ  وَنَـأْيٍ بعيـدٍ واختـلافٍ وأَشـغالِ(٤)

ويمكننا أن نتلمس ظاهرة أخرى في بناء القصيدة عند شعراء بني أسد وهي غالبا ما تتكرر عندهم في هذا الوقفة الطللية، فالناظر في شعرهم يلاحظ وقوف الشعراء على عدة أماكن، وليس على مكان واحد، فهي عند عبيد بن الأبرص قد تتجاوز العشرة أماكن يقول:

---

١ - انظر ديوان عبيد ص ٩٦.
٢ - انظر ديوان بشر ص ١٨٦.
٣ - انظر ديوان بشر ص ١٢٩.
٤ - انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١١٣.

أقفرَ مِنْ مَيَّةَ الدوافِعُ مِنْ ... خَبْتٍ فلبْنى فَيْحانَ فالرِّجَلُ
فالقطبياتُ فالدكادِكُ فال ... هَيْجُ فأعلى هَبيرَةِ السَهلُ
فالجُمُدُ الحافظُ الطريقَ من الـ ... زيغ فَصَحْنُ الشقيقِ فالأملُ
فالطلْبُ فالحدُّ مِنْ تَبالةَ لا ... عهدَ لهُ بالأنيسِ ما فعلُوا
كأنَّ ما أبقتِ الروامِسُ منه ... والسنونُ الذواهِبُ الأُوَلُ(١)

وهي عند بشر بن أبي خازم ستة أماكن على الأقل يقول بشر:

تغيَّرتْ المنازلُ مِنْ سُلَيْمى ... برامةَ فالكثيبِ إلى بطاحِ
فأجزاعِ اللوِّي فبراقِ خَبْتٍ ... عفتْها المعصفاتُ من الرِّياحِ(٢)

ولعل الظاهر من تعدد هذه الأماكن يشير إلى أن أحبة الشاعر قد حلوا بتلك الأمكنة كلها، ثم نزحوا عنها إلى غيرها، وهذا معقول بالنسبة إلى حياة القبائل البدوية التي كثيرا ما ترتحل في تلك البيئة تبعا لمساقط الغيث والكلأ.

غير أننا لو دققنا النظر، وعدنا إلى معلقة عبيد التي يقول في مطلعها معددا أماكن عديدة، لخيل إلينا أن هذه الظاهرة ترتبط بحالة الشاعر النفسية في تلك الوقفة المؤلمة يقول عبيد:

أقفرَ من أهلِهِ ملحوبُ ... فالقطبياتُ فالذَنوبُ
فراكِسٌ فعرتيناتٌ ... فذاتُ جَبَيْنٍ فالقَلِيبُ
فعردَةٌ فَقَفَا حِبِرٍّ ... ليس بها منهُمُ عَريبُ(٣)

إن الشاعر في هذا التعدد - اللافت للنظر - إنما يخرج إلى نطاق العمومية وكأنه يريد أن يقول: كل شيء إلى زوال، فملحوب مثل غيره من الأمكنة التي سيؤول بها الأمر إلى الاندثار، وما حدث هنا يمكن أن يحدث هناك، فلا عبرة للمكان بعينه، ولكن العبرة في الخواتيم والنتائج، وواضح سيطرة فكرة الفناء على فكرة الشاعر في هذا الموقف، فبدا له كامنا في كل زاوية. وهو بذلك يوجد مأساة الإنسان، وعلى هذا: فان عامل التكرار - هنا - لم يكن عبثا، بل هو تأكيد من الشاعر على هذه القضية التي عاشها شعراء هذه القبيلة بالذات، وشعراء الجاهلية بوجه عام.

إن هذه الأماكن التي قد تبلغ عند بعضهم خمس عشرة مكانا(٤) ويمكن أن تكون كلها مساكن

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ٩٥ ـ ٩٦.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ٤٣ ـ ٤٤.
٣ـ انظر ديوان عبيد ص ١٠ ـ ١٢.
٤ـ انظر ديوانه ص ١٠٤ حيث يقول:

للحبيبة، ولا يمكن من جهة ثانية أن يكون الشاعر قد تابعها في هذه الأماكن، وإلا لكان يطوف نصف شبه الجزيرة العربية وراء كل حبيبة، وهذا غير معقول طبعا.

وإذا عدنا إلى مواطن هذه القبيلة، وجدنا أن أكثر هذه الأماكن التي ورد ذكرها عند الشاعر ليست واقعة ضمن المنطقة التي عرفت بها هذه القبيلة، وهي "منطقة القصيم وحائل الحالية" عدا بعض هذه الأمكنة من مثل ملحوب، والقطبيات، والذنوب، وراكس فهي واقعة ضمن مواطن هذه القبيلة وقد تكرر ذكرها عند أكثر من شاعر أسدي[١].

إن تعاطف الشاعر مع هذه الأمكنة، وسؤاله لها، واستنطاقه إياها، ترغم علمه بأنها جماد لا ينطق، لهو دليل آخر على قدرة الشاعر الفنية، فهو قد يرى الحياة فيما لا حياة فيه أصلا، وقد يبث الشاعر الحياة في بقايا هذه الأطلال، ويندمج معها في مواقف تصور جانبا كبيرا وعميقا من أعماق نفسه الشفافة التي تضطرب في مثل هذه المواقف المؤثرة.

وإزاء هذا كله كان لابد لهذا الشاعر الذاهل أن يتلمس له طريقاً للخلاص من هذا الموقف المؤلم، وأن يشق له سبيلا وسط تلك الآلام المنبعثة من جراء تذكره لأحبائه الذين سكنوا هذه الديار، وعمرت بهم ذات يوم، وكان عليه أن يفعل ذلك بجهده الذاتي بعد أن عز الرفيق والمواسي، ويجيل الشاعر طرفه فلا يجد حوله إلا ناقته القوية الجسور، فيستعين بها على الخلاص مما هو فيه، ويرى فيها المنقذ والمساعد والصديق، وبذلك فهو يضع لبنة أخرى في بناء قصيدته يقول عبيد بعد أن صحا من ذهول الوقوف:

فانصرفْ عنهمْ بِعَنْسٍ كالوَأيِ الـ ... ـجَأبِ ذي العانَةِ أوْ شاةِ الرمالِ[٢]

ويمكننا أن نستخلص من ظاهرة الوقوف على الأطلال أن هذه الوقفة نابعة من صميم حياة الإنسان العربي في الجاهلية، وهي نتيجة منطقية لظروف حياته في تلك البيئة غير المستقرة، وعلى الرغم من أن هذه اللوحة الطللية هي نتيجة موقف فردي من الشاعر الجاهلي إلا أنها جاءت ضمن صيغ شبه موحدة، وأصبحت شبه تقليد فني عند شعراء الجاهلية عموما، وقد جاءت هذه الظاهرة مرتبطة - في أشعارهم - بالمرأة ارتباطا وثيقا، ولعل ذلك عائد إلى ارتباط الموقف كله بمرحلة سعيدة كان الشاعر قد قضاها هانئا مستقرا في مرحلة من شبابه الذاهب.

إن المسألة أكبر من تذكر الماضي المندثر، والوقوف على بقايا دمن وآثار عافية، وتذارف الدموع أثر حبيبة راحلة، إنها حياة ذاهبة بكل ما فيها من آمال وأحلام وآلام، وهي تعبير عن مضامين نفسية، وأبعاد عميقة الغور تمس صميم النفس البشرية، وهذه اللوحة على ما فيها من تقليدية بين

---

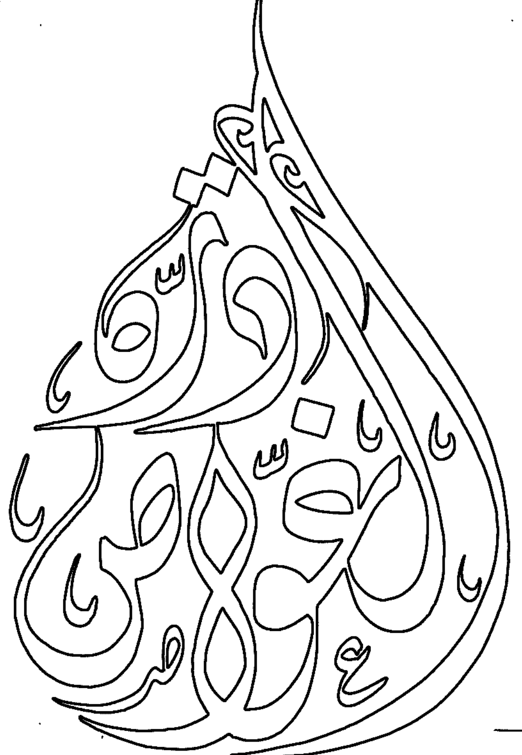
أقفر من دمينة الدوافع من ... خبت فلبنى فيحان فالرحل
فالقطبيات فالدكادك فالـ ... ـهيج فأعلى هبيرة السهل
فالجمد الحافظ الطريق من الـ ... ـزيغ فصحن الشقيق فالأمل
فالطلب فالحد من تبالة لا ... عهد له بالأنيس ما فعلوا
كأن ما أبقت الروامس منه ... والسنون الذواهب الأول

١- انظر موطن القبيلة في الباب الأول من هذا البحث.
٢- انظر ديوان عبيد ص ١١٦.

الشعراء فإنها جاءت مرسومة من قبل كل شاعر بألوان خاصة، وبمعاناة فردية ظاهرة كان الشاعر فيها يتخذ من المواقف ما يوافق رؤيته الذاتية للتجربة، وكان يختار لها من الجزئيات ما يخالط به غيره، وهذا طبيعي لأن الشعر منبعه النفس المتفردة في قليل أو كثير عن سواها.

وقد اختلفت ردود الأفعال من الشعراء الأسديين تجاه هذه الأطلال، فمنهم من وقف منها موقفا سلبيا كعبيد بن الأبرص، وبشر بن أبي خازم، في بعض لوحاتهما، ومنهم من لم يكن حاد الشعور إلى نفس الدرجة التي وصل إليها غيره من الشعراء كسحيم عبد بني الحسحاس، وبغض النظر عما إذا كان الشاعر الأسدي قد وقف على الأطلال حقا أو لم يقف، وتخيل هذا الموقف واستحضره بنفسه فإننا نرى هذه اللوحة لا تخلو من أبعاد عميقة الغور أفصح الشاعر عنها من خلال ذلك الوقوف، وقد أشار الدكتور كمال أبو ديب إلى هذه المسألة فقال: "إن الشاعر في لحظة الخلق الشعري ليس واقفا في الحقيقة على الأطلال بل إنه على مسافة زمنية منها تقصر أو تطول، وهي مسافة زمنية تقاس بالسنين، ويوحي لنا هذا بأن تجربة الأطلال لم تكن تجربة واقعية فعلية، بل تجربة متخيلة قد تكون إعادة خلق واستحضار لتجربة ماضية شخصية أو متخيلة فعلا(١).

وأيا ما كان الأمر: فان موقف الشاعر الجاهلي - بعامة - في لوحة الطلل يمثل كما قال الدكتور محمد زكي العشماوي: "ان موقف الشاعر أمام الأطلال موقف إنساني، وتجربة تمثل الصراع الذي يحدث في نفوسنا جميعا عند كل حدث جديد في الحياة، وعندما يقف بالإنسان حائرا بين ماضيه العذب، وبين مستقبله وما فيه من حياة مجهولة، إنه موقف الإنسان الواعي بالحياة مع شعوره بضعفه أمام قوة الطبيعة"(٢).



١- انظر مجلة المعرفة العدد ١٩٥ ص ٤٣، ٤٤ نشر دمشق سوريا.

٢- انظر النابغة الذبياني ص ١٠٣، ١٠٤.

## الانصراف إلى الناقة والحيوان:

لقد جسد لنا الشاعر الأسدي مأساته من خلال وقوفه بالأطلال، وعبر عن ذلك الموقف المؤلم، ووصل به إلى ذروة الشعور بفعل الطبيعة المدمر باستخدام وسائل فنية معينة من أفعال دالة على ذلك العفاء، والخراب، والإقفار، ولم يأل جهدا في إشراك مظاهر الطبيعة في تدمير هذه الأطلال، ومحو آثارها، من رياح معصفة وأمطار وسيول، تعاورت هذه الدمن فأحالتها إلى ما يشبه الخرائب المهجورة.

وكان لابد للشاعر من الخروج من هذا الموقف القاسي، وقد وجد هذا المخرج في ناقته الصلبة القوية، والواقع إن الانتقال من لوحة الطلل إلى قطاع الناقة عند الشعراء الجاهليين بعامة كان يتم بواسطة أدوات رابطة معينة من مثل "دع ذا" و"عد عما ترى" "فدع عنك ذا".. الخ. من صيغ وحروف، وشعراء بني أسد - كغيرهم من الشعراء الجاهليين - استخدموا هذه الروابط ومنها حرف الفاء حيث يقول بشر بن أبي خازم:

فَعَدِّ طِلابِهَا وَتَعَزَّ عَنْهَا ... بِحَرْفٍ مَا تخوَّنُها النُسُوعُ(١)

ويقول في موضع آخر:

فَسَلِّ طِلابَها وتعزَّ عنها ... بناجيةٍ تَخَيَّلُ بالرِدّافِ(٢)

ويقول في موضع آخر:

فقمتُ إلى مَقْذُوفَةٍ بجنينِها ... عُذافِرَةٍ كالفَحْلِ وَجْناءَ عَرْمِسِ(٣)

ويقول أيضا:

فَسَلِّ هَمَّكَ عَنْ سلمى بناجِيَةٍ ... خَطَّارَةٍ تَغْتَلِي في السَبْسَبِ القَذِفِ(٤)

وله:

وَقَدْ أُمَضِّي الهُمومَ إذا اعترتْني ... بِحَرْفٍ كالمُولَّعَةِ الشَناعِ(٥)

ويقول عبيد:

---

١- انظر ديوان بشر ص ١٢٩.
٢- انظر المصدر السابق ص ١٤٢.
٣- انظر المصدر السابق ص ١٠٠.
٤- انظر المصدر السابق ص ١٥٨.
٥- انظر ديوان بشر ص ١١٠.

أفـــلا تَناســـى حُبَّهــــا بِجُلالَنـــةٍ     وجنـــاءَ كـــالأجَمِ المَطـبينِ وَلُـــوسِ(١)

ويقول سحيم:
فعزّيــتُ نفســي واجتنبــتُ غِوايَــتي     وقرَّبْـتُ جُرجــوجَ العَشـيّةِ ناجيــا(٢)

ويقول في موضع آخر:
فَـدَعْ ذا وَسَـلِّ الهَـمَّ عنـكَ بِجَسْـرَةٍ     جُماليــةٍ تنـبي القُتــودَ ضُلوعُهـــا(٣)

ويقول عمرو بن شأس الأسدي:
فـــاقطعْ بلادَهُـــــمُ بناجيَـــــةٍ     كالسَـيْفِ زايـلَ غِمْـدَهُ النَّصْــلُ(٤)

وقد يستخدم الشاعر الأسدي رابطة أخرى من مثل قد أو "الواو" أو "الباء" أو تعبير "سراة الضحى" إلى غير ذلك مما كان يراه مناسبا للربط بين أجزاء قصيدته.

يقول الكميت بن معروف:
لكـل سَـنَبْتاةٍ إذا الخِمْـسُ ضَمَّهَـا     تُقَطِّـعُ أضغـانَ النَواجِـي هِبابُهــا(٥)

ويقول مستخدما حرف الواو:
وقمــتُ إلى عَيْرانَـــةٍ قَـــد تَخَــدَّدَتْ     وقاسـتْ يداها كـلَّ خِمْـسٍ مُذَيَّـبِ(٦)

وهذا عمرو بن شأس يستخدم عددا من الحروف الرابطة فيقول:
علـى كُـلِّ فتــلاءِ الذراعــينِ جَسْــرَةٍ     تَمُرُّ على الحـاذَيْنِ ذا خُصَـلٍ جَثْـلا(٧)

ويقول:
وَخَــرْقٍ يَخــافُ أنْ ينطِقـــوا بِـــهِ     قطعـتُ بِقَتْـلاء الذِراعَيْـنِ عِرْمِـسِ(٨)

ويكرر قوله ولكنه يستخدم حرف الباء فيقول:

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ٦٨.
٢ـ انظر ديوان سحيم ص ٢٨.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٥٣.
٤ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٣٤.
٥ـ انظر مجلة المورد العراقية سنة ١٩٧٥ عدد فبراير.
٦ـ انظر مجلة المورد العراقية سنة ١٩٧٥ عدد فبراير.
٧ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٣٧.
٨ـ المصدر السابق ص ٢٦.

بناجيـــةٍ وجنـــاءَ تســـتلبُ القطـــا أفـا حيصُهُ زجري إذا التفتتْ حِلِـي(١)

وهذا بشر بن أبي خازم يستخدم عددا من الصيغ والروابط في التي يراها مناسبة لهذا الغرض فيقول:

ســراةَ الضُحــى ثُــمَّ هَيَّجتُهــا مــروحِ السُرى تَسْــتَخِفُ الزمامَــا
لــولا تسـلي هــمَّ عنــكَ بجَسْــرَةٍ عيرانــةٍ مِثْــلِ الفنيــقِ المُكْــرَمِ
علــى أن قــد أســلى الهــم عــني بناجيـــةٍ مـــن الأُدْمِ العِتـــاقِ
ولقــد أُسـليٍّ الهــمَّ حــين يعودُنــي بنجــاءَ صادقــةِ الهواجــزِ ذِعْلِــبِ
وقــد اتنــاس الهــمَّ عنــد احتضــارهِ إذا لم يكــنْ فيــهِ لِــذي اللُّــبِّ مَعْــبَرُ
ثــم اغــتزرتُ علــى عَنْــسٍ عُذافِــرَةٍ سِــيٌّ عليهــا خَبــارُ الأرضِ والجَــدَدُ(٢)

وعبيد بن الأبرص يستعمل هو الآخر روابط تخصه من مثل:

وحنَّتْ قَلوصــي بَعْــدَ وَهْــنٍ وهاجَهــا مــع الشــوق يومــاً بالحجــازِ وميــضُ
فــاقطع لبــانتَهُمْ بــذاتِ بُرايَــةٍ أُجُــدٍ إذا وَنَــتِ الركــابُ تَزَيَّــدُ
وقــد أســليٌّ هُمومــي حــينَ تَحْضُرُنــي بجســرةٍ كَعَــلاةِ القَيْــنِ شِــمْلالِ
ســراة الضحــى حتــى إذا مــا صَبــابَتِي تَجلَّتْ كَسَوْتُ الرَّحْلَ وجنــاءَ تامِكــا
أفــلا تنــاس حُبَّهــا بَجُلالَــةٍ وجنــاءَ كــالأجَمِ المَطــينِ ولُبــوس(٣)

إن الشاعر الأسدي في استخدامه هذه الروابط اللغوية المتقاربة للانتقال بين أجزاء قصيدته، وعلى وجه التحديد في النقلة بين لوحة الطلل والبدء في الحديث عن غرض جديد هو قطاع الحيوان في القصيدة يبدو لنا وكأنه يتخذ من حديثه الجديد وسيلة مقنعة له في هذه النقلة بعد لحظات وجوم وذهول أمام الطلل العافي، ويبدو لنا وكأنه على عجلة من أمره في هذا الانتقال ليفرج عن نفسه المثقلة بالهموم. فالناقة تمثل رمزا للخلاص من همومه، ولذلك نراه يسرع الخطى نحوها أو بالأحرى نحو الحديث الجديد الذي يمثل لبنة أخرى من البناء الهيكلي للقصيدة الجاهلية، ولعله من الملاحظ ــ هنا ـ أن الشاعر يعترف في كثير من الأحيان بأنه كان صبابة وعماية غمت عليه أمره، ويقر بأن ما كان فيه لا يليق بمثله وربما كان يريد بهذا الاعتراف أن يعود بنفسه أولا إلى أرض الواقع، وأن يتلاءم معها من جديد ليتابع الحياة في عزم ومضاء وإرادة، أو لعله أراد بهذا كله أن يجدد عهده مع الحياة بكل نمائها وخصوبتها.

وعلى هذا فان الانتقال الذي لا نكاد نشعر به بين لوحة الطلل وبين لوحة الناقة ـ ان صح التعبير ـ في كثير من الأحيان لم يكن عبثا هكذا، وهو يمثل ـ في رأينا ــ انتقالا منطقيا أملته طبيعة الوقفة على الأطلال، وهي لاشك وقفة حزينة تلفها الكآبة، ويغلفها الحزن العميق وموقف الشاعر فيها

---

١ـ المصدر السابق ص ٤٣.
٢ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٨٧، ١٧٩، ١٦٢ ـ ٣٥ ـ ٨٢.
٣ـ انظر ديوان عبيد ص ٨٠، ٤٣، ١٠١، ٩٦، ٦٨.

ضعيف عاجز أمام تلك القوى العاتية فكان عليه أن يعيد التوازن من جديد مع نفسه، ولم ير من سبيل متاح أمامه إلا تلك الناقة رفيقه الدائم، ولعلنا نتلمس رغبة الشاعر في الخروج من مأزقه هذا ــ وهو الأطلال ـ بسرعة بعد أن ضاقت نفسه بتذارف الدموع، ولذلك رأيناه يلجأ إلى وسائل رابطة تنبئ من بعيد عن هذا الضيق والضجر من مثل "وقد أتناس الهم" "فعد طلابها" "فدع عنك" "فاقطع لبانتهم" "أفلا تناس" إن هذه الروابط قد جاءت معبرة تماما ـ في وضعها بمكانها في النص الشعري ــ عن الموقف النفسي للشاعر وهي في الوقت ذاته شواهد على قدرة الشاعر الفنية في تطويعها لنمو النص وتطور البناء في قصيدته، ولعلها تفصح ـ أيضا ـ عن جهد الشاعر الجاهلي، وهو يستخدم عباراته وألفاظه في الأمكنة المناسبة لها في داخل بنية القصيدة، ثم يمضي الشعراء الأسديون بعد هذا كله إلى وصف الناقة، ويسبقون عليها من الصفات المتصلة بالقوة والصلابة والحيوية والنشاط والسرعة، ويستطردون في معظم الأحيان في تشبيهها بما كانوا يصادفون من حيوان الوحش أو الطيور الجارحة ملتمسين لها كل أسباب القوة والخفة والنجاء، للاستعانة بها في تلك الرحلة الخطرة التي قد يبالغون في تصوير أهوالها إلى حد بعيد، ولعلهم بهذا كانوا يريدون التأكيد على أن هذه الناقة بمقدورها قطع المفاوز المهلكة، وأنها قادرة على إيصالهم إلى حيث يبغون.

إن الانتقال من حديث الطلل الحزين حيث يبدو الشاعر مخلوقا ضعيفا إلى حديث القوة والتصميم والإرادة، المتمثل في لوحة الناقة أمر طبيعي لإعادة الأمور إلى نصابها، ولذلك جاءت الروابط التي سقنا طرفا كبيرا منها حاسمة قاطعة لأن الشاعر قد هيأ نفسه لموقف جديد فيه كثير من الإيجابية وتحدي مظاهر الضعف بكافة أشكالها، وعلى هذا تكون الناقة اللبنة الطبيعية الثانية التي تلي الأطلال في بناء القصيدة الجاهلية ـ كما يبدو لنا ـ وإن كانت تبدو للبعض أنها نقيضة اللبنة الأولى حيث الضعف والخوار والجدب والخراب، بينما الثانية عكس ذلك تماما فالنماء والخصوبة والقوة والرغبة في الحياة من أهم ملامحها هذا من جهة، وأما من جهة ثانية فلوحة الطلل تتناول قطاع الماضي المندثر بحلوه ومره بينما تعالج صورة الناقة الزمن المستقبل، وهو ما بقي للشاعر في هذه الحياة، ولذلك فالاحتفاء به أولى والسيطرة عليه أمر مقدور، عليه ومن هنا مبالغة الشعراء في تصويرهم للناقة فهي تمثل الأمل الباقي لهم بعد لحظات شتات وضياع وهي حصنهم المنيع وسط مظاهر تلك القوى العاتية يقول عبيد:

أفلا تُناسَ خَبَّها بِجُلالَةٍ ... وَخْباءَ كالأَجَمِ المَطِينِ وَلُوسِ(١)

ويمكن أن نعد الناقة ـ على هذا ـ رمزا للإرادة والخصب والحياة عند شعراء بني أسد والجاهليين بعامة، والواقع إن هذه الصورة العريضة التي رسمها الشعراء الأسديون لنوقهم تتصل ــ كما قلنا ــ بالطلل الدايس خرابه وعفاؤه وإقفاره في لمعان صورة الناقة على وجه أفضل، كذلك فهي تتصل بالصحراء من جهة أخرى فكنا نرى ـ مثلا ـ بعض شعراء بني أسد يصورون الناقة للوصول إلى تصوير أخطار الصحراء المهلكة وكأنهم كانوا يقصدون تصوير الصحراء ومدى رعبهم من مخاطرها يقول عبيد:

هذا وداويةٍ يَعْيا الهُداةُ بِهَا ... ناءٍ مسافتُها كالبُرْدِ دَيْمُومَهْ

---

١ ـ انظر ديوان عبيد ص ٦٨.

جــاوزتُ مَهْمَــهَ يَهْماهــا بعَيْهَمَــةٍ عيرانــةٍ كعــلاةِ القَيْــنِ معقوْمَــهْ
أرمــي بِهــا عَــرْضَ الـدّوّي ضــافرةً في ســاعةٍ تبعــثُ الحِرْبــاءَ مَسْــمُومَهْ(١)

ويقول بشر معبرا عن خوفه من مثل تلك الصحراء:
فســلٍّ هَمَّــكَ عــنْ ســلمى بناجيــةٍ خطّــارةٍ تَفْتَلــي في السَّبْسَــبِ القَــذِفِ
وجنــاءَ مُجْفــرةِ الجَنْبَيْــنِ عاسِــفَةٍ بكــلِّ خِرْقٍ مَخــوفٍ غــيرِ مُعْتَسَــفِ(٢)

وكأن الشاعر أتى بهذه الصفات الدالة على القوة لكي يمهد لذكر هذه البيداء المخوفة.
وهذا عمرو بن شأس يقول:
وَخِــرْقٍ كــأَهْدامِ العَبَــاءِ قطعتُــهُ بعيــدِ النيــاطِ بــينَ قُــفٌّ وَأَرْمُــلِ
بناجيــةٍ وجنــاءَ تســتلبُ القطــا أفاحيصَـهُ زَجْـرى إذا التفتـتْ حِلِـي(٣)

وله:
وَخِرْقٍ يخــافُ الركــبُ أنْ ينطِقــوا بــهِ قطعــتُ بفتــلاءِ الذراعــينِ عِرْمِــسِ(٤)

وهذا الكميت بن معروف يقول مفصحا عن تلك المخاوف:
بدوّيــةٍ لايبلــغُ القــومُ مَنْهــلاً بهــا دونَ خمْــسٍ يُتعِــبُ القــومَ مُطْنِــبِ
قليــلٍ بهــا الأصــواتُ الا تَفَجُّعــاً من الذئْــبِ أو صَوتِ الصدى المُتَحَوِّبِ
قطعــتُ بِمِقْــلاقِ الوِشــاحِ كأَنَّهــا طَريـدةُ وحـشٍ أُفلتـتْ مِـنْ مُكَلِّـبِ(٥)

وخصة القول: إن الطلل والصحراء قد أسهما إلى حد في إبراز صورة الناقة، وفي إعطائها ذلك الزخم الذي نشعر به في القصيدة العربية القديمة، والناظر في أشعار الأسديين التي صوروا بها الناقة يلاحظ أن تلك الأوصاف وتكرار الحروف فيها ظاهرة تستحق الوقوف والتأمل، فعبيد يكرر حرف الجيم ثلاث مرات في قوله السابق:
أفــلاَ تَنــاسَ حُبَّهــا بجلاَلَــةٍ وجنــاءَ كــالأَجَمْ المَطــينِ وَلُــوسِ(٦)

وهذا بشر يقول:

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ١٢٩.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ١٥٨.
٣ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٤٣.
٤ـ المصدر السابق ص ٢٦.
٥ـ انظر مجلة المورد العراقية عام ١٩٧٥.
٦ـ انظر ديوان عبيد ص ٦٨.

وجنـــاء مجفـــرة الجنبـــين عاســـفة بكـل خـرق مخـوف غـير معتسـف[(١)]

والذي لاشك فيه هو أن هؤلاء الشعراء كانوا يريدون من خلال كل ما مر من احتفائهم بالناقـة وإلصاقهم بها كل تلك الصفات وتفننهم في اختيار الألفاظ والكلمات الموحية أن يدللوا علـى مـدى أهمية هذا الحيوان بالنسبة إليهم، ولذلك كله جاءت صورة الناقة صورة محكمـة البنـاء مرتبطـة فيمـا قبلها وفيما بعدها من أجزاء في القصيدة الجاهلية.

والواقع أن استخدام الشعراء للحيوان على أنه رمز لمشـكلات البقـاء، والفنـاء، والحيـاة والمـوت، والقوة والإرادة، إلى غير ذلك. كان نابعا مـن البيئـة، ومفصحا في الوقـت نفسـه عـن نظـرة هـؤلاء الشعراء لتلك الحيوانات، وقد رأينا قطاع الطلل، وكذلك قطاع الناقـة، ووقفنـا علـى مـدى الـترابط الداخلي بين القطاعين، وحاولنا تفسير تلك النقلة ووسائلها المتمثلة في عـدد مـن الصيـغ والحـروف، وكيف أسهمت تلك الصيغ في نمو بناء القصيدة، ومما يلفت النظر في حديـث الشـعراء الأسـديين في قطاع الحيوان استطراد كثير منهم في الحديث عن المشتبه به ـ وهو عادة حيوان آخر كالثور الوحشي أو الحمار أو النفاقه ـ وعزوفهم عن المشتبه ـ وهو الناقة ـ موضوع الشاعر الأساسـي وعـادة مـا يبـدأ الشاعر الحديث في هذا القطاع بأداة تشبيهية تتمثل في "كأن" لا بوصفهـا أداة تشـبيه فحسـب، بـل بوصفها نقلة يصل الشاعر بواسطتها بين أجزاء لوحة واحدة ـ ان صح التعبير ـ هـذه المـرة فـالحديث عن الناقة متصل بأكثر من سبب بالحديث عن باقي الحيوانـات الأخـرى كـالثور الوحشـي والحمـار الوحشي والظليم، وأحيانا بعض الطيور الجارحة كالعقاب، الحديث عن ذلك كله حديث واحد بين هذه الحيوانات تكاد تكون واحدة أيضا، ولعل من أهـم مميزات هـذا القطـاع الحديـث عـن القـوة، وصراع البقاء، وحب الحياة، وإظهار فعل الأيام بهذه المخلوقات، ونستطيع القول: إن هذا الجزء من القصيدة الجاهلية يعد من أكثر أجزائها ترابطا وحيوية، ولعـل لجـوء الشـعراء إلى هـذه الأداة "كـأن" يوضح لنا شعور الشاعر بأنه ما يزال في حديث واحـد، وفي لوحـة واحـدة يختلـف الأمـر فيهـا عمـا رأيناه في أثناء الحديث عن الطلل ثم الانتقال إلى حديث الناقة.

ولعل النزعة القصصية ظاهرة على هذا القطاع من القصيدة، فالشـاعر يبـدأ لوحتـه بتصويـر ثـور وحشي، أو حمار وحشي راتع من أتنه بغلاة ممرعة وسرعان ما يستبد به العطـش فيقصـد مـورد مـاء بعيد كان يعرفه في الماضي فيعزم على السفر إليه، وتعارضه بعض الأتن مفضلة البقاء في المكان برغـم إمحاله وإجدابه، ولكنه يجبرها على الذهاب ومرافقته إلى الهدف الذي يقصد إليه، ولعل الشـاعر بهـذا كان يصور الأحداث التي ربما مر بها وجماعته، أو تخيلها تخيلا، وهي على أية حـال: تصـور قطاعـا حيويا رمز إليه الشاعر من عالم الحيوان، وهو بهذا ـ أيضا ـ يظهر مدى حاجة هذه الحيوانـات للمـاء بعد أن رتعت في سهل مرع، ويمهد بحدث آخر وهو الرحلة نحو مورد هذا الماء، وهي رحلة محفوفة بالمخاطر. يقول بشر بن أبي خازم:

حَـــرْفٍ مذكـــرةٍ كـــأن قتودَهـــا بَعْـدَ الكَـلالِ علـى شَـتِيمٍ أَحْقَـبِ
جَـوْنٍ أضَّـرَ بمُلْمِـعٍ يعلـو بهَـا حَـدَبَ الإكـامِ وكـلَّ قـاعٍ مُجـدِبِ
ينـوي وسـيقتَها وقـد وسـقَتْ لَـهُ مـاءَ الوسـيقةِ في وعـاءٍ مُعْجِـبِ

---

١ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٥٨.

فتصك مِحْجَرُهُ إذا ما اسْتافَها | وجبينَهُ بحوافر لم تُنْكَبِ
وتشجُّ بالعير الفلاةَ كأنّها | فتخاءُ كاسرةٌ هوتْ مِنْ مَرْقَبِ
والعيرُ يُرْهِقُها الخَبارُ وجحشُها | ينقضُّ خَلْفَهُما انقضاضَ الكوكبِ
فَعَلاهُما سَبْطٌ كأنَّ ضَبابَهُ | بجنوبِ صاراتٍ دواخِنُ تَنْضُبِ
فتجاريا شَأْواً بَطيناً مَيْلُهُ | هيهاتَ شأوهُما وشأوُ التوْلَبِ[1]

ومن الملاحظ - هنا - إبراز صورة الفحل وإعطاؤه أهمية خاصة لأنه يمثل الدليل والهادي لهذا القطيع من الحمر إلى مورد الماء، وهو على هذا قائد ينبغي أن يطاع أمره ولو كان ذلك بالقوة يقول بشر:

مذكرةٍ كأن الرَّحْلَ منها | على ذي عانةٍ وافِي الصِّفاقِ
ألظَّ بِهِنَّ يَحْدُوهُنَّ حتى | تبيَّنَ حولهُنَّ مِنْ الوِسَاقِ[2]

وغالبا ما يصور لنا الشاعر الجاهلي في هذه اللوحة حقد الأتن على هذا الفحل الذي أرغمهن على الرحيل، وعلى أية حال: فقد فصل الشاعر في تصوير العلاقة بين الحمار والأتن، مما يدل على معرفة الشاعر بأحوال هذا الحيوان من واقع البيئة، وعلمه بخصائصه، وصورة الحمار تشكل جزئية من قطاع الصورة الحيوانية العامة التي ترمز في عمومها إلى إبراز الصراع بين الحياة والموت، ويلاحظ الدكتور محمد النويهي أن: "الشعراء الجاهليين يصورون الأتن بأنها غبية قصيرة النظر أما الحمار فهو الحكيم البعيد النظر الذي يدرك حاجتها إلى مورد ماء جديد"[3].

وللدكتور محمد زكي العشماوي رأي في هذه القصة إذ يقول: "إننا هنا أمام أتان حامل، وفي هذا رمز للحياة والخصوبة والنماء والميلاد، ثم أننا أمام علاقة حية بين أتان وفحلها يمثلان الصراع من أجل الحياة، ومن أجل بقاء النوع، ويستنفذان طاقتهما وجهدهما، وتقاوم إرادتهما الحية كل ما يعترض طريقهما من صعاب وعقاب"[4] ولعلنا نصل بهذا إلى تقرير حقيقة وهي أن صورة الحمار إنما تمثل جزئية من مجموع جزئيات في قطاع الحيوان ضمن القصيدة الجاهلية بوجه عام.

والواقع إن تطرق الشعراء إلى هذه الجزئية إنما كان يحدث في فصل الربيع عادة على عكس ما سنرى في صورة الثور الوحشي التي صورها الشعراء في زمن معين وفي ظل ظروف معينة غاية في الصعوبة والقسوة، وغالبا ما يكون هذا الحمار سعيدا هانئا في معيشته جميل المنظر يقول عبيد:

كَأَنَّ قُتودي فَوْقَ جَأْبٍ مُطَرَّدٍ | رأي عانةً تَهْوِي فَظَلَّ مُواشِكا[5]

ويقول بشر:

---

١- انظر ديوان بشر ص ٣٥ وما بعدها.
٢- انظر المصدر السابق ص ١٦٢ - ١٦٣.
٣- انظر الشعر الجاهلي دراسة في منهجية وتقويمه الجزء الثاني ص ٤٨٤ وانظر ص ٧١٩.
٤- انظر قضايا النقد الأدبي للدكتور محمد زكي العشماوي ص ١٦٥.
٥- انظر ديوان عبيد ص ٩٢.

كـــأن قتـــودي علـــى أَحْقَـــبٍ يريـــدُ نحوصـــاً يَـــؤُمُّ السِـــلاما
شــــتيمٍ تربَّـــــعَ في عانـــــةٍ حيـــالَ يكـــادِمُ فيهـــا كِدَامـــا[1]

والواقع أننا لا نلاحظ تفصيلات مرضية عن هذه الجزئية عند شعراء بني أسد، فغالبا ما أوجزوا في الحديث عن الحمار فقد تطرق عبيد لذكره مرة واحدة وفي بيت واحد، ونجد بشر بن أبي خازم يذكر قصته ثلاث مرات فقط[2] بينما لا نقع له على ذكر عند بقية شعراء بني أسد من مثل الكميت بن معروف، وسحيم، وعمرو بن شأس، وغيرهم ممن وصلتنا بعض أشعارهم، ويعد بشر من أكثر الشعراء الأسديين تعرضا لهذا الحيوان واهتماما به، فقد رأينا في صورته السابقة للحمار أن الشاعر نفذ إلى داخل طباع هذا الحيوان من حذر وغيرة وقدرة على التذكر للأمكنة وعيون الماء في تلك الصحراء، ويذهب الدكتور عبد القادر القط إلى أن دور الحمار الوحشي يشبه إلى حد بعيد دور شيخ القبيلة المحنك[3] وأيا ما كان الأمر: فقد جاءت صورة الحمار كتطور طبيعي للحديث عن الناقة وقوتها وتقحمها المفاوز، وخوضها ذلك الصراع من أجل الحياة، وهي صورة رامزة في الوقت نفسه لما كابده الشاعر من شوق وحنين، وما كان يتعرض له من مخاطر في أثناء حله وترحاله بحثا عن مساقط الماء ومنابت الكلأ، ولعلها تعويض عما فقده الشاعر في أيام سالفة.



١ـ انظر ديوان بشر ص ١٨٧.
٢ـ انظر ديوان عبيد ص ٩٢ وانظر ديوان بشر الصفحات ٣٥ ـ ١٦٢ ـ ١٨٧.
٣ـ انظر إلى الشعر الإسلامي والأموي الجزء الثاني ص ٤٢٦.

## الثور الوحشي:

والجزئية الثانية التي تحدث عنها الشعراء الجاهليون بعامة ومنهم الأسديون هي صورة الثور الوحشي، وهي امتداد طبيعي لهذا الصراع القائم في نفس الشاعر، وهو يواجه الحياة بكل صعابها، وقد اعتاد الشعراء على الانتقال من صورة الناقة إلى صورة أحد الحيوانات الصحراوية، وربما استطرد الشاعر في وصف هذا الثور الوحشي، وصوره في أحرج اللحظات وأصعب المواقف التي يواجه فيها الأخطار من قبل الطبيعة والإنسان معا، وغالبا ما كان ذلك التصوير يأخذ طابعا سرديا قصصيا ــ شأنه في ذلك شأن الحمار الوحشي ـ فيه كثير من عناصر التشويق والإثارة التي أبرزها الشاعر بفنية عالية، وهو في ذلك يتخذ من وصف الناقة ذريعة وحجة لرسم صورة هذا الحيوان، ويلجأ الشاعر ــ عادة ـ إلى وسيلة تخلص أو ربط بين انتقاله من لوحة الناقة إلى هذه الجزئية تتمثل في الأداة "كأن" وهي في العموم صورة متفرعة من صورة الناقة ولكنها غنية بالدلالات والبعاد، وتوضح لنا مدى ترابط جوانب القصيدة الجاهلية من حيث البناء والعاطفة، وتتلخص هذه الجزئية في تصوير الثور الوحشي وحيدا في الصحراء وهو يجابه ليلة باردة ذات ريح وأمطار من ليالي الشتاء الأمر الذي يضطره إلى اللجوء إلى شجرة أرطي ليحمي نفسه من البرد والمطر منتظرا طلوع الصباح بفارغ الصبر، وهو على تشوقه هذا للإصباح الا أننا نلاحظ الحذر والتوجس منه لأنه يعلم ما ينتظره من أخطار تهدد حياته ووجوده. تتمثل في الصياد الماهر وكلابه المدربة، وأخيرا ينبثق النور، ويطلع الصباح، ويصدق ظن الثور، فتبدأ المعركة بين الطرفين تنتهي غالبا بانتصار الثور وهروب الكلاب أو قتلها، والواقع ان شعراء بني أسد ـ كغيرهم من الشعراء الجاهليين ـ قد تعرضوا لرسم هذا الحيوان واستطرد بعضهم في تصوير الجزئيات فيها منذ بدايتها حتى نهايتها كبشر بن أبي خازم، وعبيد بن الأبرص، وسحيم عبد بني الحسحاس، الا أن الأول كان أشد عناية، وأكثر اهتماما من الشاعرين الأسديين الآخرين، ولذا فسنقف عند صورة لهذا الثور في شعر بشر لأنه يصور الحدث ويتطور به حتى نهايته إذ يقول:

وقـد أتناسَ الهَم عِنْدَ احتضارِهِ ... إذا لم يكنْ فيهِ لذِي اللُّبِّ مَعْبَرُ

بأدماءَ مِنْ سِرِّ المَهاري كأنَها ... بحربةَ مَوْشِيُّ القوائِم مُقْفِرُ

فباتتْ عليهِ ليلةٌ رجَبِيّةٌ ... تُكفكِفُهُ ريحٌ خَرِيقٌ وتُمْطِرُ

وبـاتَ مُكِبّاً يتقّيها بِرَوْقِهِ ... وارطاةِ مِقْفٍ خانَها النَّبْتُ يَحْفِرُ

يثيرُ وَيُبدِي عَنْ عُروقٍ كأنَّها ... أَعِنّةُ خَرّازٍ تَحُطُّ وتُبْشَرَ

فأضحى وصِبْانُ الصقيعِ كأنَّها ... جمانٌ بضاحِي مَتْنِهِ يتحدَّرُ

فأدَّى إليهِ مَطْلَعُ الشمسِ نَبْأَةً ... وقد جعلتْ عنهُ الضَبابَةُ تَحْسَرُ

تمارى بها رَأْدَ الضحى ثم رَدَّها ... إلى حُرِّيَّتِهِ حافظُ السَمْعِ مُبْصِرُ

فجالَ ولمّا يستبِنْ وفُؤادُهُ ... برينِتِهِ مما توجَّسَ أَوْجَرُ

وباكرهُ عِنْدَ الشُروقِ مُكَلِّبٌ ... أزلُّ كسرحانِ القصيمَةِ أَغْبَرُ

أبـو صِبْيَـةٍ شُـعْثٍ تُطيـفُ بشـخصِهِ كـوالحُ أمثـالُ اليعاسـيبِ ضُمَّـرُ(١)

هذا هو المشهد الأول من الصورة، وقد اقتصر الشاعر على رسم هيئة هذا الحيوان، والظروف التي تجابهه، وزودنا ببعض صفاته الجسدية والمعنوية - إن صح التعبير - كما رسم لنا عناصر الصورة بالطرف المقابل وهي تتمثل في شخص الصياد الضعيف الذي خرج إلى الصيد بصحبة كلابه الضامرة يحدوه الأمل بصيد ثمين يسد به جوع أولاده، وحدد لنا الشاعر المكان والزمان، ونفذ إلى تصوير الحالة النفسية لأطراف الصراع، وما ذلك الا ليمهد لما سيأتي من أحداث، وكل ذلك نزع فيه الشاعر نزعا قصنصيا مقبولا لا يبعث على الملالة والسأم، وقد جاءت جمل الشاعر في هذا المشهد معبرة عن الحالة خير تعبير، فالثور يعاني من ريح حزيق تمطر، وهو إزاء هذا الوضع يجد في البحث عن مبيت له، فلا يظفر الا بشجرة أرطي يلوذ بها يحتفر أصولها، ولعل الحذر والتوجس من أهم الصفات التي حرص عليها الشاعر، فقد أبرزها بجلاء وأكدها في أكثر من موضع، فهذا الحيوان لا يسمع الصوت وحسب بل النبأة البسيطة وهو على ذلك حافظ السمع مبصر لأن التلاؤم مع حياة الصحراء يستدعي أن يكون ساكنها على قدر كبير من رهافة السمع والبصر، وهو مرتاب متوجس مهيأ لكل طارئ قد يفاجأ به، ويبدو شخص الصياد النحيل التعب من كثرة الانتظار ذلك أنه هو الآخر طرف يعاني من كثير من تلك الظروف القاسية وكذلك كلابه الكوالح الضامرة، وقد حاول الشاعر بكل هذا أن يفجر كل إمكاناته اللغوية، ويستعين بكل ما أوتى من قدرة فنية على الرسم والإيحاء، لينقلنا إلى نفس الجو الذي عاشته أطراف هذا الصراع، مما يكشف لنا عن اهتمام الشاعر بفنه، وتصويره الراقي، وقد توزعت الأبيات الأفعال الدالة على حالة المعاناة - باتت عليه - تكفئه، يحفر، يثير ويبدي، تحط وتبشر، تمارى بها ثم ردها فجال، توجس، باكرة عند الشروق، كل ذلك جعلنا نحس بمدى ما كان يعانيه هذا الحيوان بل نتعاطف معه إلى حد كبير على امتداد الصورة منذ الخيط الأول في نسيجها وقد حظيت الطبيعة بنصيب وافر وعناية لا تنكر في صورة بشر الذي يصرف اهتمامه إلى شجرة الأرطي وعروقها التي تشبه سيور الجلد، ويشبه صبيان الصقيع بلؤلؤ يتحدر من على متن ذلك الثور.

إن المشهد الأول من هذه الجزئية في قطاع الحيوان إنما يمثل بداية، أو تمهيدا لما سيأتي بكل معاناته، وقسوته، فالمعركة الحقيقية التي تحمل الموت، وتهدد الوجود لم تبدأ بعد، وغالبا ما يكون موعدها محددا بوقت انبثاق خيوط النور، ووضوح الرؤيا، حيث يبدأ المشهد الثاني إذ يقول بشر راسما لنا هذا المشهد بما يحمله من أحداث:

فبـاكَرَهُ عنـد الشـروق غُدَيَّـةً كـلابُ ابنِ مُـرٍّ وكـلابُ ابـنِ سِنْبِسِ
فأرسـلَها مُسْـتَيْقِنَ الظـنِّ أنهـا ستجدِسُـهُ في الغيبِ أقـربَ مَجْـدِسِ
وأدركْنَـهُ يـأخُذْنَ بالسـاق والنَّسـا كمـا خَـرَّقَ الولـدانُ ثـوبَ المُقَـدَّسِ
فـأزهقَ زنباعـاً وأتلـفَ فارعـاً وأنفـذَهُ منهـا بطعنـةِ مُخْلِـسِ
فلمـا رأى ربُّ الكـلابِ عذيرَهـا أصلـتَ بهـا مِـنْ غـائطٍ مُتَنفِّـسِ
ومـرَّ يبـارِي جانبيـهِ كأنـهُ علـى البيـدِ والأشـرافِ شُـعْلَةُ مَقْبِـسِ

---

١ - انظر ديوان بشر ص ٨٢، ٨٣.

يقوم إذا أوفى على رأس هضبةٍ ... قيامَ الفنيقِ الجافرِ المتشمِّسِ[١]

وعنصر المفاجأة في مهاجمة الثور يحرص عليه بشر بن أبي خازم إذ يقول في موضع آخر:

ففاجأته ولم يرهبْ فجاءَتَها ... عضفٌ نواحلُ في أعناقها القِدَدُ
معروقةُ الهامِ في أشداقِها سِعَةٌ ... وللمرافقِ فيما بينها بَدَدُ
فأزعجتْهُ فأجلى ثم كَرَّ لَهَا ... حامي الحقيقةِ يَحْمِي لَحْمَهُ نَجُدُ
فمارسْتهُ قليلاً ثم غادرها ... مجربُ الطَّعْنِ قتّالٌ لَهَا جَسُدُ[٢]

إن المعاناة التي صورها لنا الشاعر في أثناء الليل، والقسوة البالغة من قبل الطبيعة على ذلك الثور، كأنها لم ترض بشرا ـ والشعراء الجاهليين بعامة ـ وكنا نتوقع أن ينال هذا الحيوان قسطا من الراحة مع شروق الشمس، وقد لاح لنا أن تشوق الثور للإصباح يحمل في طياته بذور ذلك الأمل إذ يقول بشر:

فبَاتَ يقولُ أصْبِحْ لَيْلُ حَتّى ... تَجلّى عن صريمَتِهِ الظَّلامُ[٣]

بيد أن الصباح حمل أخطارا أشد من تلك التي مر بها، وهي هذه المرة حقيقية الأمر الذي يدفع الثور بالغريزة إلى الهروب أول الأمر، تفاديا لهذا اللقاء غير المضمون في نتائجه، وتلحقه الكلاب أو تكاد، ويدرك أن لامناص من المواجهة والقتال، ودفع الذل الذي أصابه من جراء هذا الهروب، فيكر راجعا إليها بقرنيه السحماوين، ويوردها حياض الموت، ويخرج منتصرا مزهوا منطلقا إلى هدف جديد غير محدد ـ عادة ـ مما يوحي لنا باستمزارية الصراع في المستقبل.

ويلاحظ على بشر في تصويره لهذه الجزئية ـ وهي صورة الثور الوحشي ــ اهتمامه، وإجادته في تصوير هذا الحيوان في أدق حالاته النفسية، وكان حريصا على إظهار المفارقة بين الثور وبين الكلاب بعد أن غادرها جريحة أو مقتولة فيقول:

وَمَرَّ يُباري جانبيهِ كأنَّهُ ... على البيدِ والأشرافِ شُعْلَةُ مَقْبِسِ
يقوم غداً أوفى على رأس هضبةٍ ... قيامَ الفنيقِ الجافرِ المتشمِّسِ[٤]

والواقع أن هروب الثور ـ رغم علمه المسبق في الانتصار ـ يثير سؤالا في الذهن لماذا لم يواجه الثور الكلاب منذ البداية؟ ان للإجابة على هذا السؤال تحتمل أكثر من وجه فربما كان هروب الثور ناتجا عن عامل غريزي أسهمت المفاجأة فيه إلى حد، وقد يكون هذا الهروب ناتجا عن رغبة الثور في الابتعاد أولا عن مسرح المعركة ليتهيأ لها بصورة أفضل، وقد يكون متعمدا من الشاعر ليظهر لنا عدم عدوانية الثور، وأنه لا يهاجم الا في حالة الدفاع عن النفس، ومما يؤيد هذا الرأي أن الثور عند

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ١٠٣، ١٠٤.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ٥٦.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٢٠٥.
٤ـ انظر ديوان بشر ص ١٠٤.

بشر لم يرهب فجاءه الهجوم، وكذلك لم يشعر بالضعف بل بضيق وإزعاج فقط.

وعلى أية حال، فان الشاعر قد احتفى بألوان الصورة بكل أطرافها، وقد وفاها وصفا حركيا، ونفسيا، ومعنويا - ان صح التعبير - وكان يختار من الكلمات والأفعال ما يدلل به بعمق على الأبعاد النفسية التي حاول إبرازها لنا، وقد نجح إلى حد كبير في هذا المجال، وأفلح في تصويره هذا إلى حد بعيد حتى أننا ونحن نقرأ نحس بأننا أمام صورة مرسومة لا مكتوبة.

لقد جاءت صورة الثور عند بشر بن أبي خازم الأسدي بكل أطرافها من صياد ماهر وكلاب مدربة رائعة المنظر مبرزة عظم الأخطار التي استطاع هذا الثور أن يجتازها، وأن يخرج من هذه المعمعة منتصرا ظافرا.

وقد تعرض الشعراء الأسديون لهذه الصورة في أشعارهم بدءا من أقدم شعرائهم عبيد بن البرص الذي نقع له على صورتين لهذا الحيوان تتمثل الأولى منهما في بيت واحد يقول فيه:

مقذوفةٍ بِلَكِيْكِ اللَّحْمِ عَنْ عُرُضٍ ... كَمُفْرَدٍ وَحِدٍ بالجَوِّ ذَيَّالِ(١)

وكان الثانية أكثر تفصيلا إذ يقول فيها:

وكأن أقتادى تَضَمَّنَ نَسْعُهَا ... مِنْ وَحْشِ أورالَ هَبِيطٌ مُفْرَدُ(٢)

باتَتْ عليه ليلةٌ رَجَبِيَّةٌ ... نَصَباً تسحُّ الماءَ أَوْ هِيَ أَبْرَدُ

ينفي بأطرافِ الألاءِ شَفِيفَهَا ... فَغَدا وكلُّ خَصِيلِ عُضْوٍ يَرْعُدُ

كالكوكبِ الدّريء يُشْرِقُ مَتْنُهُ ... خَرِصاً خميصاً صُلْبُهُ يتأَوَّدُ

وقد تعرض بشر بن أبي خازم لصورة الثور ست مرات في ديوانه(٣) وفصل في تصويره ونفذ إلى أدق الجزئيات مما يدل على معرفة الشاعر الدقيقة بأحوال هذا الحيوان، وتوغل إلى أعمال الصورة، ولذلك جاءت لغته لا تخلو من عمق على بساطتها في التعبير وسهولة نظمها، وهي زاخرة بالدلالات والأبعاد، وقد اقتربت عند هذا الشاعر من الكمال حيث توسع في جوانبها، ودقق في مظاهر البيئة أكثر من غيره من شعراء قبيلته، وحدد الأماكن والأسماء، وفصل في سير المعركة، وأبرز ذلك لنا في سياق قصصي طريف، ولعل ذلك عائد إلى تجارب الشاعر الشخصية، وكثرة الثيران الوحشية في البيئات التي تردد عليها بشر، وعموما فان قصة الثور الوحشي - بغض النظر عن واقعيتها أو عدمها - تجسد جانبا من حياة الإنسان في العصر الجاهلي في صراعه شبه الدائم مع القوى الطبيعية والإنسانية من حوله، ولعل صورة الثور بالراهب، وحامي الحقيقة، ومجرب الطعن وحافظ السمع مبصر، إلى آخر ما هنالك من صفات البطولة والفروسية توضح لنا شيئا مما نذهب إليه، ويذهب بشر إلى الموازنة بينه وبين نفسه فيقول بعد أن يفرغ من تصوير الثور مباشرة:

على مِثْلِها آتى المتالِفَ واحداً ... إذا خامَ عن طُولِ السُرى كلُّ أَجْبَسِ(٤)

---

١- انظر ديوان عبيد ص ١٠٢.

٢- المصدر السابق ص ٤٣ - ٤٤.

٣- انظر ديوان بشر الصفحات ٨٢، ١٠٠، ١٢٠، ٥٥، ٥٨، ٤٥، ٣٥.

٤- المصدر السابق ص ١٠٥.

وإذا ما تعمقنا قليلا في صورة الثور الوحشي - المتفرعة من صورة الناقة أصلا - لمسنا وحدة الصراع في القصيدة الجاهلية التي أشار إليها الدكتور محمد زكي العشماوي وفي صورة الثور تتجلى فكرة الصراع: حتميته واستمراريته في أوضح وأكمل صورها؛ لأن لحظة الصباح التي ينتظرها الثور بفارغ الصبر والتي تعني لديه انبثاقة الحياة والخلاص من مأزقه هذا والبحث عن طعامه وشرابه. والاتصال بقطيعه هي ذات اللحظة التي يبرز فيها شبح الموت المتمثل في الصياد الكريه وكلابه، ويمكن أن نعد انتصار الثور هو انتصار الشاعر على مجمل الظروف التي واجهته في أثناء رحلته وقبلها في وقوفه على الطلل.

ونقع على صورة يتيمة للثور الوحشي عند سحيم عبد بني الحسحاس الأسدي يقول فيها مفصلا:

شَبوباً تحاماهُ الكِلابُ تحامياً ... هو الليثُ مَعْدُوداً عليهِ وعاديا

حمتْهُ العِشاءَ ليلةٌ ذاتُ قِرَّةٍ ... بوعساءِ رَمْلٍ أو بحزنانَ خاليا

يُثيرُ ويُبْدِي عن عُروقٍ كأنها ... أعِنَّةُ هزّازٍ جديداً وباليا

يُنحّي تُراباً عَنْ مَبيتٍ ومكنسٍ ... رُكاماً كبيتِ الصيدنانيِّ دانيا

فصبّحهُ الرّامي مِنَ الغَوْثِ غُدْوَةً ... بأكلبِهِ يُفرى الكِلابَ الضَّواريا

فجالَ على وحشِيهِ وتخالُهُ ... عَلى مَتْنِهِ سِبّاً جديداً يمانيا

يزودُ ذِيادَ الخامساتِ وَقَدْ بَدَتْ ... سوابقُها مِنَ الكِلابِ غَواشِيَا(١)

بينما لا نقع له على ذكر عند بقية شعراء بني أسد مثل الكميت بن معروف، وعمرو بن شأس، والأغلب أن ما قالوه في هذا المجال قد ضاع مع أشعارهم الكثيرة التي ضاعت، وسبقت الإشارة في أكثر من موضع إلى ضياعها.

ومما يلفت النظر عند شعراء بني أسد - وهم يصورون الثور الوحشي في أثناء بناء القصيدة - كثرة تشبيه هذا الثور بالكوكب المشرق، وأحيانا المضيء وتارة أخرى بشعلة مقبس، أو بثوب مقدس، إلى آخر ما هنالك مما يوحي بشيء من التقديس نحو هذا الحيوان، وقد ترددت هذه الصورة عند كل من عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم على وجه الخصوص. يقول عبيد بن الأبرص وهو من أقدم شعراء هذه القبيلة الذين وصلت إلينا أشعارهم:

باتتْ عليهِ ليلةٌ رجَبيةٌ ... نَصَباً تسحُّ الماءَ أوْ هِيَ أبْرَدُ

ينفي بأطرافِ الألاءَ شفيفهَا ... فغدا وكلُّ خَصِيلِ عُضْوٍ يَرْعُدُ

كالكوكبِ الدّريءِ يُشْرِقُ مَتْنُهُ ... خَرِصاً خَميصاً صلبُهُ يتأوَّدُ(٢)

ويقول بشر بن أبي خازم:

فألجأهُ شفانُ قَطْرٍ وحاصِبٌ ... بِصحراءِ مَرْتٍ غيرِ ذاتِ مُعَرَّسِ

---

١- انظر ديوان سحيم ص ٢٩، ٣٠.

٢- انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤٤.

وبِتْـنَ رُكُـوداً كـالكواكبِ حولَـهُ ... لَهُـنَّ صريـرٌ تحـت ظلمـاءَ حِنْـدِسِ (١)

ويقول في موضع آخر:

فجـالَ علـى نفْـرٍ تَعَـرُّضَ كوكـبٍ ... وقَدْ حـالَ دونَ النَّقْـعِ والنقعُ يسـطعُ(٢)

وله أيضا:

طـاوٍ برملـةِ أورال تَضيَّفَـهُ ... إلى الكِنَـاسِ عَشِيـيٌّ بـاردٌ صَـرِدُ

فبـاتَ في حِقْـفِ أرطـاةٍ يَلـوذُ بهَـا ... كأنـهُ في ذَرَاهـا كوكـبٌ يَقِـدُ(٣)

إن هذه الظاهرة التي تسترعي الانتباه مـن البـاحث ربمـا تعـود في حقيقتهـا إلى بقايـا ديانـة قديمـة كانت تقدس فيها الكواكب عند تلك الأقوام التي لا نعرف شيئا عن ماهيتها وأصولها، فالمعروف أن العرب في عصورهم القديمة عرفوا شيئا عن هـذه العبـادات فقـد عبـدوا الشـمس والقمـر والزهـرة، وربطوا بين الثور الوحشي والقمر جاعلين منه رمزا للإله، "ود" أو "سين" وإذا كـان الثـور قـد ورد كثيرا في أنساب العرب اسما لفرد، أو لقبيلة، فربما كان ذلك يشير إلى بقايا طوطمية قديمة وقد عرف القمر باسم "ثور" كما يقول الدكتور جواد علي وكانت تقدم له النذور والقرابين ليس عند عـرب الجنوب وحدهم بل عند شعوب سامية أخرى(٤) وقد ذهب بعض الباحثين إلى تفسير قصة الثور الوحشي بل القطاع الحيواني كله على أساس أسـطوري مؤكديـن هـذا "الغـرض" وقـالوا: ان الثـور الوحشي والبقرة والحمار والظليم كلها تعود إلى بقايـا ديانـات قديمـة، وأسـاطير موغلـة في التـاريخ، وهي على هذا تحتل مكانا مقدسا في نفوس الجاهليين، وقد اعتمدوا فيما عليه لإثبات صحة ما ذهبوا إليه على إفاضة الشاعر الجاهلي في وصف هيكل الثور ونفسيته وقوته وسرعته، إلى آخـر مـا هنـالك من صفات البطولة والقوة التي مرت بنا(٥).

والحق أن هذا الرأي فيه شيء من الاعتساف والمبالغة فنحن أولا لا نملك أدلة قاطعة على ألوهيـة هذا الحيوان، وان كنا نسلم بأن عبادة الكواكب قد عرفت عند القبائل العربية القديمة هذا من جهة، ومن جهة ثانية فان رؤية الشاعر الجاهلي للثور ـ على هذا النحو ـ وتشبيهه لـه بـالكوكب النـاصع البياض ربما كان يحمل في طياته إعجـاب الشـاعر بقـوة هـذا الثـور وخفتـه وسـرعته وجمـال هيئتـه، وبمجمل ما يتمتع به من خصال، ولكن هذا الإعجاب لا نظنه يصل إلى درجة التقديـس والألوهيـة، أليس من الجائز والمنطقي أن معرفة الجاهلي العميقة وبخاصة البداة منهـم بـالكواكب والأنـواء وشـدة ملاحظتهم لأحوالها في تلك البيئة والصحراء المكشوفة مما يحتاج المرء لهـذه المعرفـة كـي لا يضـل في مسالك تلك الصحراء ويتوه في شعابها وطرقها التي تكاد لا تبين هي مصدر هـذا الإعجـاب؟ ولعـل ربط سرعة هذا الثور بسرعة انقضاض الكوكب والنيازك والشهب والنجوم مما نراه في بعض الليـالي

١ـ انظر ديوان بشر ص ١٠٣.

٢ـ المصدر السابق ص ١٢١.

٣ـ المصدر السابق ص ٥٥.

٤ـ انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام في الجزء السادس ص ٥٠ وفي ص ١٧٤ ـ ١٧٦.

٥ـ انظر الصورة في الشعر العربي للدكتور علي البطل نشر دار الأندلس ص ١٢٣ وما بعدها.

جاء من مشاهدات ذلك العربي العليم بأحوال بيئته كما تشهد على ذلك أشعاره التي وصلت إلينا.

لقد ذهب أحد الباحثين إلى أبعد من هذا غورا في تفسير هذه الظاهرة على أساس أسطوري رمزي فقال إن كلاب الصائد تمثل مجموعة في السماء(١) أفليس هذا هو الاعتساف بعينه؟ إننا نميل إلى تفسير مقنع في هذه المسألة جاء به الدكتور محمد مصطفى هدارة حين قال: "إن الثور الوحشي والحمار الوحشي يرمزان إلى القوة، ولكنهما لا يصمدان أمام الموت"(٢) مهما بلغت هذه القوة من عتو، وعلى هذا فإننا نميل إلى هذا التفسير الذي لا يعتسف الطريق في هذا الجزء الحيوي من بناء القصيدة لأن مصدر إعجاب الشاعر الجاهلي بهذا الحيوان إنما يكمن في قوته، وشدة احتماله وسرعته الفائقة، وقدرته على تجاوز ما يعترضه من عقبات، ولذلك كان أحد العناصر البنائية في تكوين الصورة الفنية عند الجاهليين والذين اتخذوا من هذا الحيوان رمزا لإظهار صراع الحياة، وإبراز فعل الأقدار بالأحياء، وقد ضمنوا هذا الرمز أبعادا نفسية متعددة مما كان يعتمل في نفوسهم في ذلك العصر البعيد، وجاء مفصحا عن جوانب من حياة الإنسان، وقد عبر الشعراء من خلال مواقفهم المختلفة عن تلك الصور والمعاني بعبارات وألفاظ أفلحت إلى حد بعيد في نقل مشاعرهم إلينا حتى إننا نتخيل ونحن نقرأ صور هذا الحيوان أننا أمام شريط سينمائي معروض يتحرك بكافة شخوصه.



١ـ انظر الصورة الفنية في الشعر الجاهلي للدكتور نصرت عبد الرحمن ص ١٣٩ وما بعدها.

٢ـ انظر الشعر العربي من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري للدكتور محمد مصطفى هدارة ص ٣١.

# النزعة القصصية في بنية القصيدة:

ولعلنا نتلمس ظاهرة أخرى جنح إليها شعراء بني أسد الجاهليون في بنية القصيدة وهيكلها العام، وهي تميل إلى ما يشبه الأسلوب القصصي السردي فقد جاء في بعض شعر هذه القبيلة ما يقترب من هذه الروح القصصية وبخاصة في تصوير علاقتهم بالمرأة ـ وقد رأينا هذا الاتجاه في القطاع الحيواني من القصيدة ـ وأحيانا كان يرد في شعرهم الحماسي، ولعل ذلك يتضح عند بشر بن أبي خازم في قصيدته اللامية التي يقول فيها متحدثا عن وقعة بين قومه وبين بني ضبيعة:

ألا هَلْ أتاها كيفَ نَأَوْا قومُها ... بجَنْبِ قُلابٍ إذْ تَدانَى القبائِلُ
فلاقاهُمُ مِنّا بدَمْخٍ عِصابَةٌ ... على المُقْرَباتِ الجُرْدِ فيها تَخايُلُ
رَمَوْهُمْ فلما استمكنتْ في نُحورِهِمْ ... قطاعٌ خِفافٌ ريشُها والمَعابِلُ
تَوَلَّوا عليهِمْ يضربُونَ رُؤوسَهُمْ ... كما تَعْضُدِ الطَّلْحَ الوريقَ المَعاوِلُ
قتلنا الذي يسمو إلى المجدِ مِنْهُمُ ... وتأوي إليهِ في الشتاءِ الأرامِلُ(١)

فنحن نلاحظ هذا التسلسل في الأحداث من قبل الشاعر، وهو يصور المعركة منذ بدايتها إلى أن أتى على نتيجتها التي رأينا، ومن ذلك ـ أيضا ـ ما جاء في شعر عبيد وهو يصور معركة بين قومه وبين الغساسنة حيث يقول:

نحن قُدْنا من أهاضيبِ المَلا الـ ... ـخيلَ في الأرْسانِ أمثالَ السَّعالي
شُزَّباً يفشينَ مِنْ مجهولةِ الـ ... أرضِ وَعْثاً مِنْ سُهولٍ ورمالِ
فانتجعنا الحارثَ الأعرجَ في ... جحفلٍ كالليلِ خَطّارِ العَوالي
ثم غادرنا عَدِيّاً بالقنا الـذُّ ... بَّلِ السُّمرِ صريعاً في المَجالِ
ثم عُجناهُنَّ خوصاً كالقطا الـ ... قاربِ الماءَ مِنْ أيْنِ الكَلالِ
نحو قُرْصٍ يوم جالتْ جولَةَ الـ ... خيلِ قُبّاً عَنْ يمينٍ وشِمالِ
كَمْ رئيسٍ يَقْدُمُ الألفَ على الا ... أجْرَدِ السابحِ ذي العُقْبِ الطِوالِ
قد أباحتْ جمعَهُ أسيافُنا الـ ... بيضُ في الرَوْعَةِ من حيٍّ حلالِ
فاتبعنا ذأبَ أوْلانا الألى الـ ... موقدي الحَرْبَ وموفٍ بالحِبالِ(٢)

وقد مر بنا هذا الاتجاه في شعر سحيم أيضا وبخاصة في أثناء وصفه لرحلة السحاب منذ لحظة البرق في أعالي الجو، ثم كيفية الرحلة بدقائقها حتى نزل إلى الأرض على هيئة قطرات متتابعة من المطر المنسكب الذي شكل سيلا وعم الأرض، ثم تصويره لأثر ذلك السيل على الحيوان والنبات

---

١ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٧٥ وما بعدها.
٢ـ انظر ديوان عبيد ص ١١٦ ـ ١١٨.

وقد ساق لنا كل ذلك بعين المتابع والملاحظ الشديد الدقة مما لسنا بحاجة إلى تكـرار قصيدتـه اليائيـة هنا[١].

وقد تمثل هذا الاتجاه في شعر الأسديين بتصوير علاقتهم بالمرأة فهذا عبيـد بـن الأبـرص في حـوار طريف مع زوجته يخيل إلينا أنه يحمل السمات القصصية إلى حد بعيد يقول عبيد:

ألا عتبَـت علـيَّ اليـومَ عِرْسِـي ... وقَـدْ هَبَّـتْ بليـلٍ تشـتكيني
فقـالتْ لي كـبرتَ فقلـتُ حقبـاً ... لقـد أخلفـتُ حينـاً بعـد حـينِ
تُريـنِي آيـةَ الإعـراضِ منهـا ... وَفَظَّـتْ في المقالـةِ بعـد لـينِ
وَمَطَّـتْ حاجبَيْهَـا أنْ رأتْـنِي ... كـبرتُ وأن قـد أبيضَّـتْ قُرونِـي
فقلـتُ لهـا رويـدَكِ بَعْـدَ عَتْبِـي ... فـإني لا أرى أن تَزْدَهِينِـي
وَعِيْشِـي بـالذي يفنيـكِ حتـى ... إذا ماشـئتِ أنْ تَنْـأَىْ فَبِينِـي
فـإنْ يَـكُ فـاتَنِي أسَـفاً شـبابي ... وأضحـى الـرأسُ في كـاللُّجَيْنِ
وكـان اللهـوُ حـالفَنِي زمانـاً ... فـأضحى اليَـوم منقطـعُ القَريـنِ
فقـد أَلِـجُ الخِبـاءَ علـى العَـذارى ... كـأنَ عيونَهُـنَّ عيـونُ عيـن
يَمِلْـنَ علـيَّ بـالأقرابِ طـوراً ... وبالأجيـادِ كـالرِّيَطِ المَصـونِ[٢]

ولعل محاورة الجميح وزوجه أمامة ليست ببعيدة عنا، وكذلك حاجب بن حبيب في محاورته مـع امرأته بشأن فرسه "ثادق" وقد مرت كلتا الحادثتين في هذا البحث مما يغنينـا عـن تكرارهمـا في هـذا الفصل، ونخلص من هذا الحديث إلى القول بوجود نوع من القصصية في شعر الأسديين في الجاهليـة، ولو أنه لا يحتوي على عناصر هـذا الأسـلوب بمعنـاه الـذي تطـور إليـه فيمـا بعـد فمـا هـو الا بـذرة استرعت انتباهنا في شعر هذه القبيلة.

١ـ انظر ديوان سحيم ص ٣٠ وما بعدها وانظر فصل سحيم في هذا البحث.
٢ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

## الميل إلى قصر القصائد:

ولعل مما نستطيع الوقوف عليه في بناء القصيدة عند شعراء بني أسد الجاهليين ظاهرة أخرى لاحظناها من خلال إطلاعنا على تلك الأشعار ألا وهي الميل إلى قصر القصائد بالنسبة للقصائد الجاهلية التي اتصفت بالطول، ويبدو أن ابن سلام الجمي قد فطن إلى هذه الملاحظة حين قال: "لم يكن لأوائل العرب من الشعر الا الأبيات يقولها الرجل في حادثة وإنما قصدت القصائد، وطول الشعر في عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف[1]. ويبدو هذا الأمر واضحا في أشعار الجاهليين بوجه عام، حيث نرى قصر القصائد كلما أوغلنا في الجاهلية القديمة، فعلى العكس تماما نراها كلما اقتربنا من فجر البعثة النبوية، ونهاية العصر الجاهلي، وباعتبار أن أقدم شاعر أسدي هو عبيد بن الأبرص فسوف ننظر إلى قصائده، التي تعد مقياسا لشعر هذه القبيلة، وقد وجدنا أن أطول قصائده هي التي تبدأ بقوله:

أقفر من أهله ملحوبُ فالقطبياتُ فالذنوبُ[2]

وعدد أبيات هذه القصيدة خمسون بيتا، وتعد أشهر قصائده، ثم تليها قصيدته الدالية التي يقول في مطلعها:

لمن دمنةٌ أقوتْ بجوةِ ضرغدِ تلوحُ كعنوانِ الكتابِ المجدَّدِ[3]

وقد بلغ عدد أبياتها ستة وثلاثين بيتا، وقد ذهب الدكتور حسين نصار إلى أن الشاعر قد قال هاتين القصيدتين في وقت متأخر من عمره، وهذا ما تؤيده وقائع الأحداث وكذلك المعاني التي أتى بها الشاعر فيهما، فهو يقدم لنا خلاصة تجاربه في الحياة الطويلة التي عاشها عبيد، ثم إنه يتعرض فيهما لما يشبه اليأس من الحياة، أو لعلها حالة إحباط - وبخاصة بعد أن فقد أهله وأحبته، ونلاحظ نضوج تجربة الشاعر في هاتين القصيدتين مما يدل على تمرسه الطويل في هذا الفن الأمر الذي حدا بأبي زيد القرشي أن يضعها على رأس المجمهرات[4].

وإذا نظرنا إلى ديوان الشاعر بعد ذلك وجدناه موزعا بين القصائد والمقطوعات فهنالك ست وعشرون قصيدة تتراوح أبيات كل منها بين ثمانية أبيات، وخمسة وثلاثين بيتا، أما المقطوعات فقد بلغ عددها إحدى وعشرين مقطوعة تتراوح بين بيت واحد، وسبعة أبيات، ولا ندري على وجه التحديد هل كانت هذه المقطعات بقايا من قصائد ضاعت أصولها و لم تصل إلينا أم أنها قيلت على هذا النحو الذي أمامنا؟

---

١- انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٢٣ - ٢٤.

٢- انظر ديوان عبيد ص ١٠ وما بعدها.

٣- انظر المصدر السابق ص ٥٢ وما بعدها.

٤- انظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص ١٣٧.

وإذا سلمنا بما قاله ابن سلام من أن القصائد إنما طولت في عهد عبد المطلب فمعنى ذلك أن المقطوعة أسبق في الظهور من القصيدة، وعلى هذا يمكننا القول: ان المقطعات التي وردت في ديوان عبيد بن الأبرص قد قيلت على النحو الذي نراه، وهذا لا يمنع من أن بعضها ربما كان بقايا من قصائد طويلة قالها الشاعر، وامتدت إليها يد الضياع كالمقطوعة الرابعة في الديوان التي يبكي فيها ديار بني سعد بن ثعلبة رهطه، فقد وصل إلينا منها خمسة أبيات فقط يقول في مطلعها:

لِمَنْ طَلَلٌ لم تَعْفُ منهُ المَذانِبُ ... فجنبا حِبِرٍّ قد تعفّى فواهِبُ[١]

فنحن نشعر أنها مبتورة، ونرجح كونها قصيدة طويلة في الأصل ضاع أكثرها، ولعل بشر بن أبي خازم يلي عبيدا من حيث قدمه الزمني في شعراء هذه القبيلة، وإذا ما نظرنا في ديوان هذا الشاعر، وجدنا أن أطول قصائده قد بلغ عدد أبياتها ثمانية وخمسين بيتا، وهي التي يقول في مطلعها:

ألا بانَ الخليطُ ولم يُزاروا ... وقلبُكَ في الظعائِنِ مُسْتَعارُ[٢]

وكذلك قصيدته الميمية التي يقول في مطلعها:

أحُقٌ ما رأيتَ أمِ احْتِلامُ ... أمِ الأهوالُ إذْ صَحْبِي نِيَامُ[٣]

فقد بلغ عدد أبياتها ثمانية وثلاثين بيتا، وقد اختارهما المفضل الضبي في كتابه "المفضليات" والواقع أنهما من أجود شعر بشر الذي وصل إلينا، ثم تتوزع ديوانه القصائد والمقطعات ـ أيضا ـ غير أننا نجد بشرا أقل ميلا إلى المقطعات من عبيد، فقد بلغ عدد مقطعات بشر إحدى عشرة مقطعة تراوح عدد أبيات كل منها بين سبعة أبيات، وبيت واحد، وهناك اثنتان من مقطعاته نرجح أنهما بقايا من قصيدتين طويلتين لهذا الشاعر[٤] بينما بلغت قصائده نحوا من ثلاثين قصيدة تراوح عدد أبيات كل منها بين ستة عشر بيتا، وثمانية وثلاثين بيتا، وقد ألحق الدكتور عزة حسن بعض الأبيات المفردة في ذيل الديوان الذي حققه أثبتها من مظان مختلفة.

ثم يأتي من حيث الترتيب الزمني لشعراء هذه القبيلة الشاعر عمرو بن شأس الأسدي الذي شهد القادسية، وإذا ما تصفحنا شعره المجموع من قبل الدكتور يحيى الجبوري وجدنا أن أطول قصائد هذا الشاعر قد بلغ عدد أبياتها خمسة وأربعين بيتا، وهي التي يقول في مطلعها:

قِفا تَعْرِفا بينَ الرَّحى فَقُراقِرِ ... منازلَ قد أقوينَ مِنْ أمِّ نوفلِ[٥]

كما نجد له قصيدة أخرى بلغ عدد أبياتها ستة وثلاثين بيتا، ويقول في مطلعها:

أتصرِمَ لَهْواً أمْ تَجِدُّ لَها وَصْلا ... وما صَرَمتْ لَهْوٌ لِذي خلَّةٍ حَبْلا[٦]

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ٨ ومن ذلك المقطوعة التاسعة ص ٢٩ وما بعدها.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ٦٠ وما بعدها.
٣ـ انظر المصدر السابق ص ٢٠١ وما بعدها.
٤ـ انظر المقطعة ص ٣٢ والمقطعة رقم ٢٠ ص ٩٩.
٥ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٤٢ وما بعدها.
٦ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٣٦ وما بعدها.

ثم تتوزع المقطوعات، والقصائد بشعر عمرو، وقد جمع الدكتور الجبوري اثنتي عشرة قصيدة لهذا الشاعر بالإضافة إلى سبع عشرة مقطوعة. والواقع أن شعر عمرو بن شأس قد ضاع أكثره زغم أنه متأخر عن عبيد وبشر وكان المنطقي في الأمر أن يصل إلينا شعره كاملا، وعلى الأقل كسابقيه من شعراء هذه القبيلة، وذلك أن عمروا يعد من فحول شعراء بني أسد، ومن فرسانها المعدودين كما يدل شعره الذي وصل إلينا، ولسنا ندري لماذا أهمله الرواة و لم يرووا له سوى هذا القدر الضئيل من الشعر؟ والمظنون أن المقطعات التي وردت في شعر عمرو بن شأس هي بقايا لقصائد ضاعت إذ ليس من المعقول أن يعيش عمرو هذه الحياة المديدة، ولا يقول من الشعر الا هذا الكم البسيط.

ونصل إلى سحيم عبد بني الحسحاس وهو آخر الشعراء الأسديين الذين جمع شعرهم، ووصل إلينا، بالإضافة إلى أن سحيما يعد آخرهم من حيث الترتيب الزمني فهو مخضرم - كما رأينا - وقد عاش زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأطول قصيدة لهذا الشاعر قد بلغ عدد أبياتها في ديوانه واحد وتسعين بيتا، وواضح من مطلعها أنه قالها في الإسلام إذ يقول:

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إنْ تجهزتَ غاديا     كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا(١)

ثم تتوزع ديوانه المقطعات القصيرة، وقد بلغت حوالي سبع عشرة مقطعة وبعض القصائد التي لم يتجاوز عددها العشر.

وعلى هذا فان قلة القصائد الطوال عند شعراء بني أسد الجاهليين يعتبر ظاهرة لافتة للنظر في بناء القصيدة عندهم، ويمكن القول: بأن بداية القصائد الطويلة عند شعراء هذه القبيلة قد بدأ بها سحيم في أول ظهور الإسلام، ويصعب التكهن بالأسباب التي أدت إلى هذه الظاهرة في الشعر الأسدي دون ظهورها في كثير من أشعار القبائل الأخرى، ويلوح لنا: أن هؤلاء الشعراء قد انشغلوا بحروب قبائلهم إلى حد جعلهم ينصرفون عن الإطالة في قصائدهم، فهم المتابعون الأوائل لأحداث القبيلة، ولعله لهذا لم يتأت لهم التحبير والإطالة، وربما أننا نظلم هؤلاء الشعراء في هذا الحكم عليهم فما الذي يدرينا أنهم لم يطيلوا في قصائدهم؟ أليس من المعقول أن تكون أجزاء كثيرة من قصائدهم قد ضاعت؟ كما ضاع كثير من تراثنا الأدبي في تلك الفترة.

ولابد لنا ونحن نعالج بناء القصيدة عند شعراء بني أسد الجاهليين أن نقف عند ظاهرة أخرى في مطالع قصائدهم ألا وهي التزام هؤلاء الشعراء بالتصريع في قصائدهم حتى وان كانت قصيرة، والمتصفح لدواوين هؤلاء الشعراء الأسديين يقر بهذه الظاهرة، وعلى أية حال، فهي ظاهرة عامة في الشعر الجاهلي كله، ونادرا ما تجد شاعرا يخرج على هذه السنة المتواضع عليها بين الشعراء، الا أننا لا نعدم وجود من لم يصرع في المطلع من شعراء بني أسد كقول عمرو بن شأس:

ديارَ ابنةِ السعديِّ هندٍ تكلّمي     بادفعةِ الحَوْمانِ فالسَفحِ مِنْ رَمَمْ(٢)

---

١- انظر ديوان سحيم ص ١٦ وما بعدها.

٢- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٥٥.

وقوله:

قفـا تعرفـا بـين الرحـى فقراقـر ... منـازلَ قـد أقويـن مـن أم نوفـلِ(١)

ولعل ذلك مما يدل على ضياع كثير من شعره فليس من المألوف خروج الشاعر الجاهلي عموما على القصرية في بداية القصيدة، ويحضرنا قول ابن سلام الجمحي عن عمرو بن شأس بأنه كان كثير الشعر(٢) وأحيانا قد لا يصرع الشاعر في بداية قصيدته نتيجة لموقف معين كالارتجال، أو السرعة ـ مثلا ـ ولعل من ذلك قول عبيد بن الأبرص:

وَعَـا مَعاشِـرَ فاسـتكَّتْ مسـامعُهُمْ ... يـالَهْفَ نَفْسِيَ لَوْ تَدْعُـو بـني أَسَـدِ(٣)

ومن ذلك قول بشر وهو يحتضر:

أسـائلةٌ عمـيرةُ عَـنْ أبيهـا ... خِـلالَ الجيـشِ تعـترفُ الرِّكَابـا(٤)

وكقوله معتذرا أمام أوس بن حارثة لما ظفر به:

وإنّـي لَـراجٍ منـكَ يـا أوسُ نِعْمَـةٍ ... وإنّي لأُخرى مِنكَ يا أوسُ أرهَـبُ(٥)

وغالبا ما يكون الشاعر في حالة تعجل من أمره الأمر الذي يضطره للانصراف عن التصريع الذي يحتاج إلى شيء من التؤدة وإعمال الفكرة، لأنه صنعة لابد أن يسبقها تصور الشاعر لها، ولعل من تلك المواقف موقف عبيد بن الأبرص أمام حجر بن الحارث وهو يتشفع لقومه بني أسد لديه:

يـاعين فـابكي مـابني أَسَـدٍ فَهُـمْ أهـلُ النَّدامـةْ(٦)

وقد انصرف شعراء بني أسد عن التصريع في المقطعات القصيرة أيضا، وقد روى أبو تمام اكثر من مقطوعة لشعراء أسديين جاءت كلها غير مصرعة الأمر الذي يدفعنا إلى القول: ان الشاعر كان لا يصرع في المقطعات لأنها لاتصل إلى مستوى القصائد الطويلة التي يمكن أن تشيع بين الناس، وبالتالي قد يحكم على الشاعر من خلالها ان كان مجيدا أم غير مجيد.

والى جانب ما مر معنا من ظواهر في بناء القصيدة عند شعراء بني أسد الجاهليين يمكننا أن نلاحظ ظاهرة أخرى تتصل بهذا البناء من حيث الهيكل، فقد انصرفوا ـ أيضا ـ عن المقدمة الطللية في بناء بعض قصائدهم، ولم يلتزموا بها ونجد هذا في شعر الحماسة، ووصف الطبيعة، وغيره من الموضوعات، وكذلك القصائد التي تختص بموضوع واحد، ومن ذلك قول عبيد بن الأبرص مخاطبا

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ٤٢ وانظر ص ٥١ وانظر ص ٢٩ وغير هذا في شعره.

٢ـ انظر طبقات فحول الشعراء الجزء الأول ص ١٩ وما بعدها.

٣ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٥٨ وانظر ١٤١.

٤ـ انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ٢٤.

٥ـ المصدر السابق ص ٤١.

٦ـ انظر ديوان عبيد ص ١٣٧ وانظر ص ١٢٠.

بني جديلة:

أُنبئْتُ أنَّ بني جُدَيْلَةَ اَوْعَبُوا نُفَراءَ مِنْ سَلْمَى لَنَا وتكتَّبُوا(١)

وكقول عمرو بن شأس في بداية قصيدة له:

لا هُمَّ رَبَّ الناسِ إنْ كَذَبَتْ لَيْلَى فَعُرٌّ بِثَدْيِها ثُكُلُ(٢)

ومن هذا القبيل - أيضا - بعض قصائد بشر بن أبي خازم في ملاحاته مع أوس ابن حارثة الطائي:

أما قصائد هؤلاء الشعراء الأسديين التي تعددت فيها الموضوعات فقد جاءت غالبيتها ملتزمة بتلك المقدمة الطللية، وقد راعى هؤلاء الشعراء - كما رأينا - في بناء القصيدة حسن الانتقال من لوحة إلى أخرى، ومن جزء إلى جزء مستخدمين في ذلك بعض الصيغ والأدوات الرابطة، وكانت تلك الروابط تختلف من شاعر إلى آخر - كما وضحنا ذلك في لوحة الطلل والناقة وكذلك الثور الوحشي - وان كان هناك إطار عام يجمعها بحيث يبدو فيها شيء من التقليد، وبخاصة في لوحتي الناقة والثور.

ويمكننا ملاحظة مدى عناية الشعراء الأسديين ببناء قصائدهم من خلال التأمل فيما أوردوه من ألفاظ وعبارات تفصح عن قدرة فنية عالية تميز بها بعض هؤلاء الشعراء، وللنظر على سبيل المثال قول عبيد في تصويره للثور الوحشي:

كالكوكبِ الدرّي يُشْرِقُ مَتْنُهُ خَرِصاً خميصاً صلبُهُ يتأوَّرُ(٣)

فالشاعر كرر حرفي الصاد والخاء أولا ثم جاء بهذه الصفات في تتابع معين ما أعطى الصورة جمالا وعمقا في الوقت ذاته يتناسب ووضع هذا الثور الناصع البياض المتكور على نفسه من شدة المعاناة، وهذا بشر بن أبي خازم يورد في إيقاع متناغم معين ما لهذا الثور من صفات فيقول:

طاوٍ برملةِ أورالٍ تَضَيَّفَهُ إلى الكِنَاسِ عَشِيٌّ بارِدٌ صَرِرُ(٤)

ويقودنا هذا الحديث إلى حديث آخر وهو عن لغة الشاعر الجاهلي بعامة والأسدي بخاصة لنقف على إمكانات هذا الشاعر أو ذلك من حيث لغته الشعرية، ومدى حسن استخدامه للعبارات والألفاظ والتراكيب وإشراكها في العمل الفني على اعتبار أنها تمثل عنصرا مهما من عناصر العمل الفني برمته.

---

١- انظر ديوان عبيد ص ٢.

٢- انظر ديوان عمرو بن شأس ص ٣٣.

٣- انظر ديوان عبيد ص ٤٤.

٤- انظر ديوان بشر ص ٥٥.

# لغة الشعر عند بني أسد:

والحق إن لغة الشعر الجاهلي بعامة لغة راقية وناضجة كما وصلت إلينا منذ القرن السادس الميلادي بدليل أنها نقلت إلينا التراث الشعري بل الأدبي الذي خلفه لنا هؤلاء الناس، ولاشك في أن هذا التراث اللغوي استطاع أن يعبر بكل جدارة فنية ـ إن صح التعبير ـ عن علاقات كثيرة قد تكون معقدة أحيانا، وأن ينفذ إلى أعماق النفس البشرية فيصور لنا أدق حالاتها، وقد تحدث باحثون كثيرون وعلماء كبار عن سعة اللغة العربية، ومدى استيعابها للأفكار، وعن إيجازها وتركيزها وبلاغتها، إلى غير ذلك مما تتمتع به لغتنا العربية من صفات وإمكانات، ويهمنا في المقام الأول ـ هنا ـ أن نقف عند لغة الشاعر الجاهلي بخاصة هذا الشاعر الذي إستطاع بواسطة هذه اللغة وتراكيبها ومفرداتها، وألفاظها، أن يعبر عن مختلف المنازع الإنسانية على اختلاف حالاتها تعبيرا دقيقا يكاد يبلغ حد الإعجاز ـ أحيانا ـ أو قل مالا تستطيع التعبير عنه أي لغة أخرى.

ويشير الدكتور حسن ظاظا إلى كمال هذه اللغة ونضوجها منذ وقت مبكر فيقول: "لقد كانت من الكمال منذ بدايتها بدرجة تدفعنا إلى القول بإيجاز أنها منذ ذلك الوقت حتى العصر الحديث لم تتعرض لأي تعديل ذي بال. اللغة العربية لا طفولة لها، وليست لها شيخوخة أيضا"(١). إذن فالشاعر الجاهلي بعامة قد تعامل مع لغة ذات إمكانات هائلة، وليس من العجيب أن يستغل ذلك كله في فنه الشعري، بل إنه من المألوف ذلك حقا، ثم إن هذه اللغة هي سبيله المتاح الوحيد في ذلك الحين لتوصيل أفكاره إلينا، والى أبناء بيئته، ولابد لهذا الشاعر من أن يكون على درجة كبيرة وعالية من الإتقان لهذه اللغة، ومن العلم في أسرارها وعلاقاتها البنائية كي يستطيع أن يبرز فنه الشعري ناضجا متكاملا.

والواقع أن الشاعر الجاهلي لم يكن ليفكر بكل هذا عن قصد بل اهتدى إليه بسليقته السليمة، وذوقه الفني الراقي، وهكذا عرف الشعر ونظمه والى هذا المعنى ذهب الدكتور محمد مصطفة هدارة إذ قال: "لقد عرف الإنسان العربي القديم الشعر الغنائي الذي يتحدث فيه عن ذاته، ويصور مشاعره، واهتدى بفطرته إلى وحدة النغم في كلامه التي ينبعث منها جمال الموسيقى، واستطاع برهافة حسه أن يحدث نغمات موسيقية مختلفة عرفت فيما بعد باسم البحور، وكل بحر يتألف من مجموعة وحدات إيقاعية نطلق عليها اسم التفعيلات يتكون منها الوزن الذي يتم بناء القصيدة عليه"(٢).

وإذن فان الشاعر الجاهلي لم يكن يفكر، وهو ينظم قصيدته في حذف أو زيادة أو تبديل كلمة بأخرى ـ بعامة ـ بل حدث هذا بعد ذلك في عصور الصنعة اللغوية، وإظهار مقدرة الناظم في التعامل مع هذه اللغة.

واللغة تتكون من ألفاظ وعبارات، وجمل وصيغ وأفعال وضمائر إلى غير ذلك من التراكيب التي

---

١ـ انظر الساميّون ولغاتهم للدكتور حسن ظاظا ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

٢ـ انظر الشعر الجاهلي للدكتور محمد مصطفى هدارة (حتى القرن الأول هـ) ص ٩.

يدل على معان بعينها تواضع عليها الناس منذ أقدم العصور، والى هذا يشير الدكتور شوقي فيقول: "وأول ما يلقانا في نصوص الشعر ألفاظه، وهي ليست ألفاظا محددة الدلالة يدل بها الشعراء على أشياء حسية من واقعهم الخارجي فانهم لا يعبرون عن هذا الواقع ومسمياته، وإنما يعبرون عن واقعهم النفسي، وما تختلج به نفوسهم من مشاعر وأحاسيس، واللغة إنما تحددت ألفاظها بالقياس إلى عالم "الأشياء الحسي أما عالم النفس المعنوي فلا تزال ألفاظ اللغة قاصرة عن أن تحدد معانيه، ولا تزال تضرب في تيه من ماهياته، وهي ماهيات غير متناهية، ومالا تناهى له لا يدرك إدراكا دقيقا بحيث يوضع لفظ محدد بازائه"[١].

ويمكن القول على هذا: ان الألفاظ إنما تكتسب قيمتها من خلال وجودها في النص بصورة معينة من قبل الشاعر الذي أراد لها أن تكون في هذا المكان، أو ذاك، وقصد بذلك أن يعبر عن معنى محدد فلا يعود اللفظ مجرد لفظ، ولكن له وظيفة يؤديها بالتضافر مع غيره من العناصر المختلفة في القصيدة لإبراز العمل الفني في أكمل صورة، وقد ذهب الدكتور رجاء عيد إلى رأي في هذه القضية فقال: "وهنا يتحول اللفظ في جسد القصيدة من مجرد علامة إلى ما يشير إليه في منعطفات جسدها ليكتسب دلالته من موقعه على خريطة هذا الجسد، وبذلك ننتهي من القضية المزعجة قضية اللفظ والمعنى والشكل والمضمون، ولما كان الفكر موجها إلى الخارج فان تجسده يكون في اللغة أو الألفاظ، وهي ليست رداء للفكر أو قالبا له، وإنما هي الفكر نفسه مجسدا في ألفاظ لغوية"[٢]. وعلى ذلك فان لكل شاعر لغته وتركيبه الخاصة التي يبني بها قصيدته النابعة من تجربته الذاتية ورؤيته الفردية"، وما يعبر عنه في ألفاظ معينة قد لا يعبر به شاعر آخر بنفس الدرجة، أو الرؤية فعبيد بن الأبرص - مثلا - عندما يقول في إحدى قصائده واصفا الخيل في معركة مع خصوم بني أسد:

وإذا الخيلُ شَمَّرَتْ في سَنا الحر ... بِ وصارَ الغُبارُ فوقَ الذُّوابِ
واستجارتْ بنا الخيولُ عِجَالاً ... مثقلاتِ المُتونِ والأصْلابِ
مصفياتِ الخُدودِ شُعْثِ النواصي ... في شماليطِ غارةٍ أَسْرَابِ
مسرعاتٍ كأنهنَّ ضِراءٌ ... سمعتْ صوتُ هاتفٍ كَلَّابِ
لاحقاتِ البُطونِ يَضْهَلْنَ فَخْراً ... قد حَوَيْنَ النِّهابَ بعدَ النهابِ[٣]

فان الشاعر قصد أن يصور لنا حالة الخيل في جو المعركة لا الخيل ذاتها برغم أن كثيرا من الألفاظ في هذه القطعة يشير إلى الخيل، ولكننا نقع أيضا على بعض الألفاظ التي لا تشير إلى الخيل بل لا تدل عليها أصلا "مصفيات الخدود - عجالا - شعث النواصي - قد حوين النهاب بعد النهاب - " ولا شك في أن رؤية الشاعر وتصويره باستخدامه الخاص للألفاظ جاء مغطيا الصورة أبعادا جديدة - أن صح التعبير - ويمكننا أن نلاحظ مدى اهتمام الشاعر وشدة ملاحظته للخيل وتصرفاتها، ولعل هذا الاهتمام والتفكر بحالة هذه الخيل هي بالتي فرضت على الشاعر استخدام مثل هذه الصفات والعبارات المعينة.

---

١ـ انظر النقد الأدبي للدكتور شوقي ضيف ص ١٢٩

٢ـ دراسة في لغة الشعر للدكتور رجاء عيد ص ٤٨.

٣ـ انظر ديوان عبيد ص ٢٥.

ان الشاعر لا يمكن أن ينطق بالشعر دون إعمال فكره، وانفعاله بحالة معينة، وامتزاجه الشعوري بها، ومن ثم تكوين رؤية خاصة نحوها، وبالتالي وصفها على نحو معين من الإحساس بها، ومن هنا فان التأثير يختلف من حالة إلى أخرى، ولو كان الشعر في نفس الغرض، ومن ذات الشاعر، لأن تجربة الشاعر اختلفت، وكذلك الظروف والملابسات المحيطة بالقضية، أو بالشاعر ولنأخذ مثالا على ذلك. فبشر بن أبي خازم يصف ناقته القوية السريعة في موضعين يقول في الأول:

فَسَلِّ طِلابَهـا وتعزَّ عنهـا ... بناجيـةٍ تَخَيَّلُ بالرِّدافِ
بجرجوجٍ يئطُّ النِّسْعُ فيها ... أطيطَ السمهريةِ في الثِقافِ
كأن مواضعَ الثَفِناتِ مِنْها ... إذا بركتْ وَهُنَّ على تَجافِي
مُعَرَّسُ أربعٍ متقابلاتٍ ... يبادِرْنَ القطا سَمَلَ النِّطافِ
فأبقى الأيْنُ والتهجيرُ منها ... شُجُوباً مِثْلَ أعْمِدَةِ الخِلافِ
تخر نعالها ولها نفي ... من المغراء مثل حصى الخذاف
شجحت بها إذا الآرام قالت ... رؤوس اللامعات من الفيافي(١)

ويقول في الموضع الثاني:

وَمَوْماةٍ عليها نَسْجُ ريحٍ ... يجاوبُ يَوْمُها فيها صَدَاها
فلاةٍ قد سَرَيْتُ بها هُدوءا ... إذا ما العَيْنُ طافَ بها كَرَاها
بصادقةِ الهواجرِ ذاتِ لَوْثٍ ... مُضَبَّرَةٍ تَخَيَّلُ في سُراها
إليكَ نَصَصْتُها تعلو الفَيافِي ... بمَوْماةٍ يَحارُبها قَطَاهَا
عُذافِرةٍ أضَرَّ بها ارتحالي ... وحَلْيٌ بَعْدَهُ حتى بَرَاهَا
أشُجُّ بِها الظلماءُ أَلْقَتْ ... مراسِيَها وأردَفَها دُجَاهَا(٢)

ان الموقفين متشابهين إلى حد بعيد، فهو يصف لنا رحلته إلى ممدوحه أوس بن حارثة الطائي، ويركز في هذا الوصف على ناقته ليبرزها في صورة صلبة تستطيع الوصول به إلى ذلك الممدوح، وهو يتعرض لقطع الصحراء المهلكة في أثناء رحلته، ولأول وهلة قد لا تبدو لنا هذه الفروق بين الصورتين فإذا ما دققنا في الأمر وكشفنا عن بعض جوانب النص بعلاقاته اللغوية، ربما كان لنا رأي آخر، فتراكيب الشاعر تختلف من موقف إلى آخر بل من جزء إلى جزء، فالشاعر في الموقف الأول يختار لناقته من الألفاظ ما يدل على نجائها وسرعتها، وهو متأكد إلى حد بعيد من أن هذه الناقة تستطيع أن تبلغه هذا الممدوح بصحبة رديف له عليها فكلمة "الرداف" هنا عبرت عن قيمة عالية في هذه الناقة أرادها لها الشاعر وهي وفرة نشاط هذه الناقة، ثم يلتفت إلى بقية صفاتها، فهي حرجوج خفيفة ضامرة يسمع صوت سير الزجال على جسمها كما يسمه صوت القناة الملوحة على النار لإدخالها في ثقاف سمهرية، ومن ثم يختار لها من العبارات والألفاظ، ما يدلل به على شدة هذه الناقة فمواضع الثفنات منها إذا ما بركت يشبه موضع أربع من القطا قرب مورد ماء.

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ١٤٥ ـ ١٤٦.
٢ـ انظر المصدر السابق ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

ويختار بشر صورة لهزال ناقته والتدليل على ضعفها صورة بدوية صرفة من واقع بيئته، وهي أعمدة البيت ولكنها أعمدة متخذة من شجر الصفصاف الضعيف، ويشدد على هذا الهزال بألفاظ "الأين والتهجير"، وكان يكفيه واحدة من الصفتين السابقتين ثم يعود إلى وصف سرعتها فهي تخر نعالها، ولها نقي من الحصي والحجارة في الأرض، وهي تنفي هذه الحجارة كما ترمني بالأصابع حجارة صغيرة فأنت في هذه الحالة ترميها بسرعة عالية، ودون جهد يذكر، وقد اختار الشاعر لهذه الصورة عبارة (حصى الخذاف) ولا نرى بشر - هنا - يشدد أو يبالغ في وصف الصحراء المهلكة، وكل ما نشعر به أنه قطع رحلته وشق هذه الصحراء حين قالت الآرام من الظباء وقت المهاجرة حيث السراب يتراءى لكل سائر في تلك البيداء، كما أننا نحس التفات الشاعر إلى ناقته وإبراز صفاتها، بعباراته تلك التي جاء بها على نحو معين في النص أملته في الغالب طبيعة التجربة، فهو لا يعاني حقا من رحلة خطرة، وتشعرنا عبارات بشر في موقفه هذا بأنه كان على شيء غير يسير من الراحة النفسية.

أما الموقف الثاني. فيبدأ الشاعر به بداية مختلفة لأنه مختلف حقا عن الموقف الأول. فالشاعر فيه يعاني من حالة نفسية معينة، وهو يجابه هذه الصحراء الموحشة، ولذلك يختار لها لفظة "موماة" وهي المغارة الواسعة التي لا ماء بها ولا أنيس ثم يأتي بما يؤكد هذا الواقع "عليها نسج ريح" حيث تجيل الرياح تراب هذه الموماة في كل جانب، ويعزز الشاعر هذه الصورة الموحشة بأشراك الطير خلاف عوامل الطبيعة فالبوم يجاوب الصدى، ومما يدلنا على حسن استخدامه اللغة - هنا - أن البوم والصدى لا يكونان عادة الا في الأماكن الخربة المهجورة هذا من جهة، وأما من جهة ثانية فالمشهور عن القطا أنه من أهدى الطيور إلى الأمكنة وموارد الماء وكونه يضيع في هذه الموماة شيء له دلالته العميقة في نفس الشاعر، الذي وضع كل لفظ في مكانه المحدد، أما الصدى فمعروف عنه أنه يعشعش في المقابر واستخدام الشاعر هنا يلوح لنا أنه نفسي أكثر منه لغوي اضطرته القافية إليه، فرجل في مثل هذه الظروف لابد أن تحضره صورة الموت والمقابر الأمر الذي استدعى لفظة الصدى.

وقد جاءت لفظة فلاة مشيرة إلى سعة تلك الموماة التي تحدث عنها الشاعر في البداية، وهي ساكنة لا حركة فيها "سريت بها هدوءا" فهدوء الليل هنا يجلب النعاس بل الصداع - ان صح التعبير - في مثل هذا الوضع ولعل استدعاء صورة العين والكرى واستخدام الفعل طاف "وإذا ما العين طاف بها كراها" يدل على قلق الشاعر العميق، ورغبته في الراحة والاسترخاء ولكن أنى له ذلك؟

وهنا يأتي دور الناقة بعد هذه المقدمة المخيفة عن أهوال هذه الفلاة، وقد اختار لها الشاعر من العبارات والألفاظ الدالة على القوة والصلابة، والصدق مما يضمن له الفوز في قطعها، فهي صادقة الهواجر - ذات لون - مضبرة - مما لم نجده في الموقف الأول للشاعر، وعلى هذا فإنها تستطيع اعتلاء الفيافي بهذه الموماة التي يحار بها القطا، وهي فوق ذلك ناقة عذافرة قوية شديدة، وبرغم كل ما سبق فقد هزلت هذه الناقة لكثرة السفر، ونستطيع أن نتصور مدى ما لحق بهذه الناقة من ضعف إذا تأملنا عبارة "أضر" فقد كانت أبلغ من أي تحليل.

وهكذا فإننا نرى أن البنية اللغوية قد أسهمت مع غيرها من العناصر في إبراز صورة العمل الفني للشاعر، ومنحت النص إيحاء معينا، وتأثيرا خاصا جاء متلائما مع نفسية الشاعر والموقف الذي كان يعاني منه، وهكذا فان اللفظ له علاقة عميقة بالمعنى كما يقول ابن رشيق "اللفظ جسم وروحه المعني وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه، ويقوى بقوته فإذا سلم المعنى واختل يعطي اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور

وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك حظ أوفر كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب»[1].

والحق إن الشاعر الجاهلي لم يكن يقصد إلى الصنعة في شعره، ولغته وإنما كانت إجادته آتية من تمرسه الطويل بأساليب هذه اللغة، وحسن وسلامة ذوقه الفني في هذا المجال، ولهذا وجدنا لديه عمقا في الصورة وقدرة على الانتخاب الواعي لمفردات اللغة في التعبير عما كان يحسه، ولم يكن يشعر بصعوبة لفظ أو سهولة آخر فمسألة الصعوبة والسهولة في الألفاظ طرحت فيما تلا العصر الجاهلي من عصور أدبية، وقد أشار الدكتور يوسف خليف إلى هذه المسألة برأي صائب حيث قال: "وفي رأينا أن اللفظ الغريب أو الوعر هو ما تقلقل في مكانه داخل النص وأفسد بموقعه أو وصفه بقية العناصر الأخرى»[2].

وقد يكون لتتابع الألفاظ على نسق معين، أو عبارات على نحو خاص تأثير وإيقاع موسيقي نشعر به في القصيدة، ويجعلنا نحس بقيمة هذا اللفظ أو تلك العبارة في الربط بين أجزاء القصيدة كلها، ولنأخذ مثالا على ذلك: يقول عمرو بن شأس الأسدي فور وقوفه على أطلال ليلى:

أتعرفُ منزلاً من آلِ ليلى ... أبي بالثعلبيةِ أنْ يَرِيمَا
أَرَبَّ بها من الأرواحِ سافٍ ... فغيَّرْنَ المنازلَ والرُسُوما
فَرُدَّا فيهِ طَرْفَكُما تُبِينا ... لِلَيْلى منزلاً أقوى قَدِيما
بواقِي أَبْصُرٍ ورَمادِ دارٍ ... وَسُفْعاً في مناكِبِها جُثُوما
وقد تغنى بها ليلى زماناً ... عَرُوباً تونقُ المرءَ الحَليما
ليالِيَ تَسْتَبيكَ بجيدِ رِئْمٍ ... وَعَيْنَيْ جُؤْذَرٍ يَقْرو الصَّرِيما
وأنفٍ مِثْلِ عِرْقِ السَّامِ حُرٍّ ... وتسمعُ منطقاً منها رَخِيما
بَرَهْرَهَةٌ يحارُ الطَّرْفُ فيها ... وَتُبْدِي واضحاً فخماً وسيماً
تَبُذُّ الغانياتِ بِكُلِّ أرضٍ ... إذا أخذتْ وِشاحاً أو بَرِيما[3]

ان الشاعر باختياره هذه العبارات والألفاظ التي أراد بواسطتها أن يعبر عن حالة ذلك الطلل العافي فإنما يرى أن الوضع الذي هو فيه يستدعي منه الإفصاح عن عوامل التغير والتبدل التي اعترت هذا الطلل، وتعاورت عليه لتحيله إلى بقايا خربة، وهو كذلك يكرر بعض الحروف التي توحي لنا بالتغيير، ويستخدم بعض الأفعال والصفات المتوالية للاستعانة بها في الوصول إلى ما أراد الوصول إليه، فحرف الراء الذي أكثر من ترداده الشاعر ليس عبثا ووروده هنا بل وظيفته تبيان مدى التغيير الذي حدث، فهو يكرره في البيت الثاني أربع مرات:

أربَّ بها من الأرواحِ سافٍ ... فَغَيَّرْنَ المنازلَ والرُسُوما

---

١ـ انظر العمدة لابن رشيق الجزء الأول ص ١٢٤.
٢ـ انظر الشعراء الصعاليك للدكتور يوسف خليف ص ٣١٤.
٣ـ انظر شعر عمرو بن شأس الأسدي ص ٥١ ـ ٥٢.

ولا يكاد بيت من أبيات الشاعر يخلو منه في اكثر من موضع مما أضفى إيقاعا خاصا، وجوا معينا يسيطر عليه الخراب، والعفاء، والإقفار، وكان يستخدم الشاعر اللغوي أثره في التحام الجزء الذي يتحدث عن الطلل بالجزء الذي يذكر فيه هذه المحبوبة، ولذلك فهو يكثر من الصفات المتوالية في هذا الجزء مما يناسب الحديث في هذا المقام.

برهرهة - واضحا فخما وسيما - عروبا، وفي مثل هذه الوقفات عادة تعودنا من الشعراء تذراف الدموع وإظهار الحزن، الا أننا لم نجد في نص عمرو ما يشير إلى ذلك، وكأن الشاعر قد أتى به ليفصح لنا عن شيئين اثنين هما: حالة هذا الطلل الخرب، وما آل إليه أمره، وهذه الصفات التي تتمتع بها ليلى حتى إن القارئ ليشعر أنه أمام لوحة وصفية لامرأة فاتنة الجمال، وقد ساعدت الشاعر على إبراز هذه الصورة في عمله الفني هذه العبارات والألفاظ التي لم يكن المجيء بها عبثا بل التحمت بباقي الأجزاء لتكون في النهاية هذه الصورة الفنية، وللنظر إلى البيت التالي:

برهرهـةٌ يحـار الطـرفُ فيهـا وتُبـدي واضحـاً فخمـاً وسـيما

ان وصف المرأة بأنها برهرهة أملى على الشاعر أن يصفها بصفة أخرى فيها شيء من الضخامة والامتلاء لا الضعف والفحول والنحافة فقال: وتبدي واضحا فخما وسيما قد جاء الترتيب اللغوي ملائما هذا الوضع، وله إيقاعه الخاص مما رفع من قيمة جمال هذه المرأة في أعيننا.

وللنظر إلى مثال آخر نقتطعه من قصيدة لعبيد بن الأبرص وهو في وصف مظهرين من مظاهر الطبيعة وهما البرق والسحاب، ثم الصحراء، إذ يقول عبيد:

يـا مَـنْ لِـبَرْقٍ أبيـتُ الليـلَ أرْقُبُـهُ في مُكْفَهِـرٍّ وفـي سـوداءَ مَرْكومَـةْ

فبرقُهـا حَـرِقٌ وماؤُهـا دَفِـقٌ وتحتَهـا رَيِّـقٌ وفوقَهَـا دِيَمَـةْ

فذلـكَ المـاءَ لـو أنّـي شَـرِبْتُ بـهِ إذَنْ شـفى كَبِـداً شـكّاءَ مَكْلُومَـةْ

هـذا وَداويـةٍ يعيـا الهُـداةُ بهـا نـاءٍ مسـافَتُها كـالبُرْدِ دَيْمُومَـةْ

جـاوزتُ مَهْمَـهَ يهماهَـا بغيهمـةٍ عيرانـةٍ كعَـلاةِ القَيْـنِ معقومَـةْ

أرمـي بهـا عُـرَضَ الـدَّوي ضـافرةً في سـاعةٍ تبعـثُ الحربـاءَ مسـمومةْ(١)

ان الشاعر الجاهلي بل الإنسان الجاهلي بعامة كان شديد الفقر للمطر في أغلب الأحيان، وبالتالي فان فرحته بنزول الغيث لا تقدر، فهو يعني بالنسبة له الحياة بكل نمائها وخصوبتها، ولا غرابة أن يبدأ عبيد الحديث في هذه الصورة باختيار ياء النداء بما تعبر عنه هذه الأداة من لهفة وأمل، ولا يكتفي الشاعر بهذه الأداة وحدها ليبين لنا عما في نفسه، بل يلجأ إلى مخاطبة العموم، "من" يا من البرق إننا نحس منذ اللحظة الأولى بمدى شوق هذا الشاعر إلى المطر، وقد زاد من إحساسنا هذا لغة الشاعر وألفاظه، التي عبر بها عن هذا الجانب، وشدة الشوق تستدعي القلق، ولذا جاء الفعل ارقبه ليفصح عن هذه الحالة للشاعر بل امتد قطاع هذا الترقب إلى السحب المتراكمة في الجو، وبخاصة تلك السحابة السوداء المركومة التي يتتبعها الشاعر بعينيه وهو يشرئب بعنقه نحو السماء، ولعل استخدام الشاعر هنا لاسم المفعول جاء موحيا بكثرة الماء في هذه السحابة الضخمة، ثم يأتي البيت

١- انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٨، ١٢٩.

الثاني مربوطا بالأول بهده ىسء العاطفة حيث نرى إيقاعا موسيقيا أملته اللغة الشاعرة بتقسيمها للبيت على نحو معين.

فبرقُها خَرِقٌ، وماؤُها دَفِقٌ وتحتَها رَيِّقٌ، وفوقَها دِيَمَهْ

إنها صورة سحابة راقصة تتلألأ من شدة نور البرق المحيط بها وقد جاء تصوير الشاعر باستخدامه هذه المشتقات التي تدل على المبالغة، والكثرة، تعزيزا لها وهذا الطباق اللغوي بين تحت وفوق أفاد شدة الامتلاء لهذه السحابة، وأفصح عن شدة ملاحظة الشاعر في تتبعها وترسم أحوالها، وهذا الإيقاع الخاص للبيت الذي جاء نتيجة لفنية الشاعر ومقدرته على هذا التنسيق اللغوي الماهر.

ثم يأتي البيت الثالث مربوطا بالثاني بواسطة فاء عاطفة - أيضا - مما يفيد التعبير المستمر عن حالة الشاعر دون الالتفات إلى شيء آخر يسترعي انتباهه:

فذلِكَ الماءُ لو أنّي شَرِبْتُ بِهِ إذنْ شَفَى كَبِداً شَكّاءَ مَكْلُومَهْ

ويكفي بأن ننظر إلى لفظين في هذا البيت لنقف على مدى فنية بالشاعر عبيد في صورته هذه، بل في اختياره الذكي المعبر عما في نفسه الظمي "لو" "إذن" أما الأولى فلا أظن أن معناها يغيب عنا، ودلالتها هنا أكبر وأعمق مما تفيده كحرف، ويلوح لنا أن الشاعر إنما أتى بالبيتين السابقين وصولا إلى هذا البيت الذي تكمن خلفه حقيقة مشاعر وأحاسيس الشاعر، "لو أني شربت به" والجواب: إذن شفى كبدا شكاء مكلومه. إن المبالغة في تصوير عطش الشاعر، وتشوقه الدائم لمثل هذا الماء عبرت عنه كلمة شكاء، وأكدته لفظة "مكلومه" وما أكثر ما عانى الإنسان الجاهلي بسبب الماء.

ثم ينتقل الشاعر إلى جزئية أخرى في الطبيعة، ويربط بينها وبين الجزئية السابقة باسم الإشارة "هذا" حيث يصور لنا هذه الداوية، أو الدوية التي يقصد بها البيداء، وفي صورته هذه التي لا تخلو من حقيقة واقعة في عالم الإنسان الجاهلي في شبه الجزيرة العربية نلمح التشديد على وحشة هذه الصحراء، وبالتالي صعوبة اجتيازها، ولعل هذا التشديد جاء من قبل الشاعر ليؤكد قدرته على الظفر رغم كل مظاهر الوحشة والإقفار اللا محدود، فهذه الصحراء تدوي الرياح بها لسعتها وتستعصي على الهداة، وهي على درجة من الحرارة بحيث لا تتحملها الحرباء المشهود لها بذلك، وبرغم هذا كله فان ناقة عبيد استطاعت أن تجتازها بكل اقتدار، والتركيب اللغوي الذي جاء به الشاعر هنا أوضح لنا عن هذه العلاقات المتشابكة في هذا الجزء من القصيدة.

وعمرو بن شأس يتخير لمثل هذه المفازة لفظه "وخرق" وهذه اللفظة تتردد في أشعار عمرو بن شأس ثلاث مرات[1] إذ يقول:

وَخَرْقٍ يَخافُ الركبُ أنْ ينطِقُوا بِهِ قطعتُ بِقَتْلاءِ الذراعَينِ عِرْمِسِ

لها دَوْلَجٌ دَوْحٌ متى ما تنلْ بِهِ مدى الغَبِّ أو تَرْبَعْ بِهِ الغَدَ تُخمِسِ

يظلُّ يُغَنِّيهِ الحَمَامُ كأنَّهُ مآتِمُ أنواحٍ لَدى جَنْبِ مَرْمَسِ[2]

---

١- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٣١ - ٤٣ - ٢٦.

٢- انظر المصدر السابق ص ٢٦ - ٢٧.

وهذا التعبير إنما هو كناية عن شدة هبوب الرياح في الصحراء، والشاعر باستخدامه هذا اللفظ يريد إظهار عنصر ثان بالإضافة إلى عنصر الصحراء الرملية، وهو "الرياح" وما ذلك الا ليزيد في معالم القفر الذي هو بصدد تصويره، بل اجتيازه وتقحمه، ومن ثم يأتي على صفات ناقته المؤهلة لمثل هذه المهمة، ويختار لها من العبارات والألفاظ ما يكفل لها النجاح في هذه المهمة، وما يشعرنا بذلك حقاً.

فهي ناقة شديدة قوية مفتولة الذراعين ضخمة "عرمس ولها دولج دوح" وقد جاءت لغة عمرو بن شأس أبلغ في التعبير من لغة عبيد في هذه الصورة عن الصحراء، فالبيداء التي يتحدث عنها يخشى الإنسان حتى من الكلام فيها وكأنه في حالة من الذهول أعجمته عن الكلام، وأنت غير واجد فيها مخلوقاً عدا هذا الحمام الحزين الذي يبدو كأنه في مأتم إلى جانب قبر حبيب، وهذا منتهى الحزن والكآبة، ولقد جاءت الألفاظ معبرة عن نفسية الشاعر أولاً، وهو يواجه مثل هذه الظروف القاسية، ولعل استخدام الفعل المضارع هنا من قبل الشاعر إنما جاء للتدليل على ديمومة واستمرارية هذه الحالة إلى أطول مدى ممكن.

وهكذا نرى أن لغة الشاعر الجاهلي بوجه عام، والأسدي على وجه الخصوص كان لها دور فعال في بناء القصيدة، وتوضيح معانيها، وربط أجزائها، لنصل في النهاية إلى صورة القصيدة الجاهلية بمختلف عناصرها، وقد استطاع الشاعر الأسدي ــ كغيره من شعراء الجاهلية ــ أن يرتقي بلغته ويجوب بها أغوار النفس البشرية، ويحقق بواسطتها التصوير العميق، والنفاذ إلى أدق المضامين والأبعاد.

والحق ان شعر هذه القبيلة جاء في لغة راقية - مثله مثل بقية الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا - وإذا كنا نرى أحيانا بعض الصعوبة في كلمة ما مما يضطرنا إلى العودة إلى المعاجم اللغوية فإنما ذلك عائد لهجر هذه الكلمة، وعدم استعمالها في هذا العصر باستحداثه كلمات أخرى إذ ليس من الإنصاف ان نحكم على شعر بيننا وبينه فاصل زمني يقدر بأكثر من ألف عام، ولنأخذ مثلا على ذلك:

يقول عبيد في وصفه للغيث:

لسـاني بالنَّشـير وبـالقَوافِي ... وبالأسْـجاعِ أَمْهَـرُ في الغِيـاصِ
تـلاوَصَ في المَـداصِ مـلا وَصـاتٍ ... لَـهُ مَلْصَـى دواجـنُ بـالمَلاص
بَنـاتُ المـاءِ ليـس لهـا خيـاةٌ ... إذا أَخرَجْتَهُـنَّ مِـنَ المَـداصِ[1]

لا ريب في أن قارئ هذه الأبيات سيقول: ان هذه الألفاظ من الصعوبة بمكان، وبخاصة القافية ونقول: ان هذه المسألة لم تكن واردة في أثناء صياغة هذا الشعر من قبل الشاعر الذي كان يعلم أن لغة شعره إنما يوجهها لأبناء بيئته جميعاً، وأن هذه العبارات ستنتشر بين القبائل، ومن غير المعقول أن يختار لهم مالا يفهمونه بل ما لا يكون مستساغاً لديهم.

ان الشاعر الجاهلي لم يكن ليعرض شعره وأفكاره دون إعمال فنه وفكره فيه، فليست المسألة هكذا جزافا، ومهما قيل عن هذا الشاعر الجاهلي من أنه كان يرتجل الشعر وأنه شاعر طبع وسليقة،

---

١- انظر ديوان عبيد ص ٧٦، ٧٧، وكذلك القصيدة رقم ٣١ والقصيدة ٣٢ ففيها شيء من هذا القبيل وقد نبه إليه الدكتور حسين نصار محقق الديوان.

فإن ذلك لا ينفي اعتناءه بلغة شعره، وتخيرها لفظاً، ودلالة، كما رأينا، وشعراء بني أسد عموما كانوا جزءاً من كل، ولغتهم الشعرية هي لغة الجاهليين جميعاً، وقد وقفنا على جانب منها بألفاظها، ودلالاتها، وأساليب عرضها، في بناء قصائدهم، ولسنا بحاجة إلى تحليل كل ما قالوه من شعر فهو كثير وحسبنا النماذج السابقة لندرك أن لغة الشعر عند بني أسد كانت لغة غنية لا تقل عن أية لغة شعرية لقبيلة أخرى، ولعل هذه اللغة قد طابقت مقتضى الحال كما يقولون فرقت حيناً، وخشنت حيناً أخرى، فنحن نعلم أن بعض بطون بني أسد قد سكنت الحواضر مثل مكة، وأكناف يثرب، وبالتالي فإن على هؤلاء الاسديين أن يستجيبوا للعوامل الجديدة، ولنمط الحياة المختلف عن حياة البداوة في قليل أو كثير، وكذلك كان فهذا أبو أحمد بن جحش بن رئاب يخاطب أبا سفيان حين استولى على دار لهم في مكة بعد هجرتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة:

أبلغ أبا سفيانَ عَنْ ... أمْرٍ عواقبُهُ نَدامَهْ
دارُ ابنِ عمِّكَ بعْتَها ... تقضي بها عنك الغَرامَهْ
وحليفُكُمْ باللهِ ربِّ النا ... سِ مُجْتَهِدُ القيامَهْ
اذهبْ بها اذهبْ بها ... طوقْتَها طَوْقَ الحَمامَهْ(١)

وهذا سحيم عبد بني الحسحاس يقول بلغة شعرية لا تخلو من سهولة إذ يقول:

تَجَمَّعْنَ مِنْ شتّى ثَلاثٍ وأربعٍ ... وواحدةٍ حتى كَمُلْنَ ثَمانيا
وأَقْبَلْنَ مِنْ الخيامِ يَعُدْنَني ... نواهِدَ لم يَعْرِفْنَ خَلْقاً سِوائيا
يعُدْنَ مريضاً هُنَّ هَيَّجْنَ داءَهُ ... ألا إنّما بعضُ العوائِدِ دائيا(٢)

وهذا مثل ثالث من الحضرمي بن عامر الأسدي يخاطب ابنته:

ألا عجبتْ عميرَةُ أمْسِ لَمّا ... رأَتْ شَيْبَ الذؤابةِ قَدْ عَلاني
تقولُ أبي قَدْ شابَ بَعْدِي ... وأَقْصَرُ عَنْ مُطالبَةِ الغَواني
وكلُّ قرينةٍ قُرِنَتْ بأخرى ... ولو ضَنَّتْ بها سَتُفَرَّقانِ
وكلُّ أخٍ مُفارِقُهُ أخوهُ ... لَعَمْرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدانِ(٣)

والواقع ان هذه السهولة في لغة الشعر، وألفاظها، والميل إلى قصر الأوزان، من قبل بعض شعراء بني دودان في مكة، أو غيرهم ممن سكن الحواضر، أو تأثر بطابع الحياة فيها في بداية الدعوة الإسلامية لا يعد لازمة للبساطة اللغوية، وقد نرى العكس تماما فالبساطة ليست مقصورة على من عاش في الحواضر ولا الخشونة مقصورة على من عاش في شعاب الصحراء وعلى ضهوات الخيل ولكننا لاحظنا هذه الملاحظة فسقناها في هذا المجال.

---

١ـ أنظر سيرة بن هشام الجزء الثاني ص ١٠٥ طبع دار الجيل ١٩٧٥.
٢ـ انظر ديوان سحيم ص ٢٥.
٣ـ انظر المؤتلف والمختلف ص ٨٤، ٨٥.

# الأوزان والقوافي:

ان ارتباط الشعر بالموسيقا ارتباط وثيق فهما وليدا العاطفة الإنسانية، ولعل الباعث عليهما واحد فموسيقا الألفاظ تقابلها موسيقا "النغم" في الموسيقا، وهذا ليس معناه وجود نظرية بهذا الشأن تقوم على الإيقاع الموزون كما زعم بعض الباحثين[1] عند العرب القدماء وكل ما في الأمر أن هؤلاء كان عندهم ضرب من الحداء يغنون به وهم على ظهور ابلهم، ولكن لا ندري على وجه الدقة هل تطور هذا الحداء إلى هذه الدرجة أم لا؟

وقد أشار ابن خلدون، وكذلك المرزباني إلى فكرة ارتباط الشعر والوزن بالموسيقا، فابن خلدون يرى أن الحسن المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة يكون في الأصوات المتناسبة لا المتنافرة[2] ولأستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة رأي في هذه المسألة إذ يقول: "لقد عرف الإنسان العربي القديم الشعر الغنائي الذي يتحدث فيه عن ذاته ويصور مشاعره، واهتدى بفطرته إلى وحدة النغم في كلامه التي ينبعث منها جمال الموسيقا، واستطاع برهافة حسه أن يحدث نغمات موسيقية مختلفة، عرفت فيما بعد باسم البحور وكل بحر يتألف من مجموعة وحدات إيقاعية نطلق عليها اسم التفعيلات يتكون منها الوزن الذي يتم بناء القصيدة عليه، والمتتبع لأوزان الشعر العربي يجد أنها تسير وفق الأصول الموسيقية المعروفة، وتتماثل مع نغماتها، فالنغمات في الموسيقا تتغير بحسب اختلاف حركاتها وسكناتها، وكذلك التزم الشاعر العربي القديم قافية واحدة يبني عليها أبياته وهي الكلمة الأخيرة في البيت، وقد ساعدت القافية على استكمال البناء الموسيقي للشعر، وأسهمت في سهولة حفظه وروايته"[3].

والواقع ان الرأي الذي يشير إليه الدكتور هدارة لهو رأي جدير بالاهتمام والمناقشة، ولعله أصاب به الحقيقة ذلك أن العرب القدماء كانوا على درجة عالية من الإحساس واليقظة، والوعي لما حولهم، وشدة ملاحظتهم، وسرعة بديهتهم شيء معروف عنهم، ثم ان هؤلاء العرب عبروا بشعرهم هذا عن أعمق عواطفهم، وشؤون حياتهم، وكان موضع اهتمام عظيم منهم، وليس من المستبعد أبدا أن يصلوا إلى هذه النتيجة التي قررها الدكتور هدارة كأثر لتلك الحياة البدوية، وذلك الاهتمام الكبير، وبذلك يمكن القول: بأن تحديد القوالب العروضية والأوزان الشعرية كان منشؤه من ذات العربي وصميم حياته، ولم يقدر له أن نغرز نغماتها، ويطلق عليها أسماءها، حتى جاء الخليل بن أحمد فوضع كل ما سبق ذكره في خمس دوائر عروضية، وهي المعروفة لدينا.

---

١ـ انظر القيان والغناء في العنصر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد طبع دار المعارف ص ١٢٨.

٢ـ انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٥ وما بعدها مطبعة محمد أما خلاصة رأي المرزباني فهو أن الشاعر مغن وأن الشعر غناء ويسوق قول حسان:

تغن في كل شعر أنت قائله ... ان الغناء لهذا الشعر مضمار

انظر الموشح ص ٤٠ تحقيق علي محمد البجاوي طبع نهضة مصر ١٩٦٥.

٣ـ انظر كتاب الدكتور محمد مصطفى هدارة "الشعر العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول" ص ٨ ـ ١٠.

ولقد لاحظ الشعراء الجاهليون وحدة الوزن، وهي ما سمي فيما بعد بالتفعيلة، فالتزموها في أبيات القصيدة كلها، ومنهم من زاد على ذلك فالتزم في القافية أكثر من حرف كما نجد في معلقة لعبيد بن ربيعة العامري.

وتعتبر القافية على درجة من الأهمية كبيرة في الشعر لارتباطها بالوزن والموسيقى "النغم" والواقع ان الشاعر الجاهلي لم يكن ليربط بين اختيار قوافيه وبحوره، وبين الموضوعات الشعرية، المطروقة كما يشيع اليوم على ألسنة بعض الدارسين، فالكلام في ارتباط كهذا ضرب من العبث والجهد الضائع، فهو ان صح في بعض القوافي التي تناسب موضوعا معينا فانه لا يصح في اغلب الحالات، وكذلك فان البحر الواحد قد يعبر به الشاعر عن حالات نفسية متغايرة من حزن وفرح.... الخ[1] وإذا كان الشاعر الجاهلي قد أخذ يدقق في اختيار القوافي والبحور، ويحبر بعض قصائده، فان ذلك جاء في مرحلة متأخرة من الجاهلية، ثم انه لم يشمل الا جزءا يسيرا من الشعراء الجاهليين الذين أطلق عليهم ما يسمى "بعبيد الشعر".

ان الشعراء الجاهليين بعامة ومنهم شعراء بني أسد قد نظموا أشعارهم على هذه الأوزان والقوافي بالسليقة والطبع، وليس بالضعة، وقد دخل عنصر الوزن الشعري بوصفه أحد العناصر المكونة للقصيدة الجاهلية مع بقية تلك العناصر ليسهم في تكوين موسيقية تلك القصيدة، وما دمنا قد عرفنا أن هذه القصيدة الشعرية كانت نتاجاً للبيئة التي عاش فيها هؤلاء الشعراء فلا عجب أن تكون الموسيقا من أظهر السمات لهذا الشعر العربي الجاهلي، ولا حاجة بنا إلى أن نكرر القول: بأن أذن الإنسان العربي أذن مرهفة الإحساس تطرب للنغم، ويلذ لها سماعه، وبخاصة إذا كان موقعا توقيعا فريدا الأمر الذي لا نستبعد معه أن تكون هذه الأذن هي التي كانت من أقوى الدوافع لبعث هذه الأوزان الشعرية عند الإنسان العربي، وقد أشار الدكتور إبراهيم عبد الرحمن إلى هذا المعنى بقوله: "ولا نستطيع أن نتصور أن الشاعر في هذا البحر أو ذاك، وفي هذه الموضوعات والمعاني المختلفة يعرض لها في القصيدة الواحدة من الوقوف على الأطلال إلى الغزل، والوصف والمديح، أو الهجاء، إنما يعزف مقطوعة موسيقية واحدة، أو يصدر عن نغم رتيب متكرر فحياة الجاهلي كانت حياة متجددة متغيرة، وظروف الحياة من حوله لم تكد تبقي شيئاً على حاله، ومثل هذه الرتابة الموسيقية من شأنها أن تعقد نفسيته وتفسد عليه وظيفة الشعر الفنية بوصفه وسيلة للخلاص من هذا التوتر الدائب بين الشاعر وبيئته في أشكالها المختلفة الاجتماعية، والقبلية، والدينية، والاقتصادية، ونريد أن نصل من هذا إلى القول بأن عالم الشعر الداخلي ينبع عن موسيقا متغيرة، ومتجددة، في داخل هذا الإطار الموسيقي الخارجي إطار البحر الشعري، وهذا التنوع الموسيقي الداخلي - ان صح ما نذهب إليه - إنما ينبع من هذه الرتابة الموسيقية الخارجية التي تتمثل في هذه الأشكال الخارجية الموسيقية المعروفة بالبحور"[2].

والحق ان شعراء بني أسد الجاهليين قد تصرفوا في بحور الشعر وقوافيه، وأوزانه، بفن وذوق، وبرهنوا على مقدرتهم الفنية العالية، وبراعتهم في الاختيار، وقد جاءت أشعارهم على أغلب الأوزان العروضية المعروفة غير أن الطويل والكامل، والبسيط، والوافر قد حظيت بنصيب كبير من أشعار هؤلاء الأسديين تتلوها بقية الأوزان بتفاوت بين قلة وندرة.

---

١- انظر الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه للدكتور النويهي الجزء الأول ص ٦١.

٢- انظر الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية للدكتور إبراهيم عبد الرحمن مكتبة الشباب ١٩٧٩ ص ٢٦٤.

وإذا كان هناك من سبب يعلل استخدام هؤلاء الشعراء لهذه الأبحر، والإكثار منها دون سواها، فهو كما يخيل إلينا شيوع تلك الأوزان وانتشارها بين الجاهليين بعامة، ومعرفة الشعراء لها قبل غيرها، ولعل كثرة وتنوع حركات هذه البحور قد أعطى الشاعر مجالاً أوسع للتعبير عن عواطفه وأحاسيسه، مما جعله يميل نحوها.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد هو أن بعض الباحثين والدارسين والنقاد المتأخرين قد تناول قضية ربط بحور الشعر بموضوعاتها، أو بالحالة النفسية والشعورية للشاعر، ومن هؤلاء صاحب "منهاج البلغاء" ومترجم الإلياذة سليمان البستاني الذي يقول عن البحر الطويل - وثلا - "فالطويل بحر خضم يستوعب مالا يستوعب غيره من المعاني ويتسع للفخر والحماسة والتشابيه والاستعارات ووصف الأحوال ولهذا ربا في شعر المتقدمين على سواه من البحور"[1] وهذا الأمر مرفوض تماماً - عندنا - إذ لا يمكن أن نسلم بصحة هذا الرأي الذي لا يستند إلى حقيقة أو سند يقبله العقل فالشعر نابع من النفس. والشاعر لم يكن ليختار البحر الذي يناسب موضوعه، وقد نجد البحر الواحد يعبر به الشاعر عن حالات مختلفة من الشعور، وعلى هذا فان عملية ربط البحر بالموضوع الشعري هي مجرد هراء لا جدوى منها ثم ان عامل الذوق، فردي أيضاً يختلف من شخص إلى آخر كيف لنا أن نغفله؟ والذي بين أيدينا من شعر قبيلة بني أسد في الجاهلية لا يشير إلى تميز شعرائها ببحر من البحور دون سواه، فالواقع أنهم نظموا أشعارهم على معظم بحور الشعر المعروفة الا أنهم كانوا يميلون إلى استخدام البحور الطويلة مثل: الطويل، والكامل، والوافر، والبسيط، وان نظرة متأنية إلى ما خلفوه من شعر وصل إلينا ليوضح لنا هذا الميل، ولنبدأ بأقدم شعراء هذه القبيلة، وهو عبيد بن الأبرص الذي جاء شعره موزعاً على البحور والقوافي التالية:

أولاً - قافية الدال، وقد نظم عبيد عليها عشر قصائد جاء حرف الروي في هذه القصائد مجروراً ثماني مرات، ومرفوعاً مرتين، وتلى الدال "الباء" وقد نظم عليها الشاعر تسع قصائد جاء حرف الروي فيها مرفوعاً خمس مرات، ومجروراً في خمس منها، ومرفوعاً في اثنتين.

وتلت اللام "الميم" وقد نظم عليها الشاعر خمس مرات، وقد ورد حرف الروي فيها شاملاً جميع الحركات، أما النون والقاف والراء، فقد نظم الشاعر على كل منها ثلاث قصائد جاءت حركة الروي فيها متنوعة، ومما تجدر الإشارة إليه - هنا - أن حركة الروي عند عبيد بن الأبرص قد وردت مشبعة في أربع قصائد، وهي بالأرقام القصائد ٣٧، ٢٩، ٢١، ٥٢، ومن القوافي نادرة الورود في الشعر العربي الجاهلي قافية الضاد الا أننا لا نعدم وجودها عند هذا الشاعر، فقد نظم عليها قصيدة واحدة يقول فيها:

تَبَصَّرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ ... سَلَكْنَ عميْراً دُونَهُنَّ غُمُوضُ[2]

ومثلها قافية الطاء، وقد نظم عليها الشاعر قصيدة واحدة، ومطلعها:

بانَ الخليطُ الأُولى شاقوكَ إذْ شَحَطُوا ... وفي الحُدوجِ مَهاً أعناقُها عُيُطُ

---

١- انظر منهاج البلغاء لحازم القرطاجني طبع تونس ص ٢٦٠ وانظر إلياذة هوميروس تعريب سليمان البستاني مطبعة الهلال ١٩٠٤ ص ٩١ وما بعدها وانظر المرشد إلى فهم أشعار العرب للدكتور عبد الله الطيب الجزء الأول منه.

٢- انظر ديوان عبيد ص ٧٩.

وقد أشار بعض النقاد إلى استكراه بعض الحروف في الروي مثل الثاء، والخاء، والصاد، والطاء، والظاء[١]، وقد تطرق لهذه المسألة الدكتور علي الجندي في كتابه "الشعراء وإنشاء الشعر" كما ذكرها الدكتور محمد النويهي والدكتور محمد غنيمي هلال الذي يعارض رأيه ما ذهب إليه بعض السابقين من وجود صلة بين القافية والموضوع[٢].

وعلى هذا فان عبيداً قد نظم بعض شعره على حروف روي مستكرهة، أو ثقيلة، كالصاد، والضاد، والطاء، والزاي، على حد قول هؤلاء النقاد، ونحن نرى أن هذه المسألة لا تعود إلى استكراه حروف، وحب أخرى، وإنما هي عائدة إلى ندرة استخدام الشعراء لهذه القوافي لا أكثر، أما الحديث عن اختلال الأوزان، وكثرة الزخرفات في شعر عبيد ضمن المقاييس العروضية الخليلية، فالواقع ان عبيدا لم يكن الوحيد الذي عرف بمثل هذه العيوب في الوزن من الشعراء الجاهليين، فقد عاب عليه المرزباني[٣] هذه الأشياء ومن ضمنها التخليع في بائيته الشهيرة واستخدامه للمجزوء من البحور والتدوير "الترفيل" كما في قوله:

سـقى الربـابَ مُجَلْجِـلُ الـ ... أَكْنـافِ لَمَّـاحٌ بُرُوقُـهْ[٤]

وكقوله:

يـاذا المُخَوِّفُنـا بِقَتْـلِ أبـ ... ـيـهِ إِذْلالاً وَحَيْنَـا[٥]

نقول ان اختلال الوزن في بعض قصائد هذا الشاعر لا ينقص من قيمته الشعرية، فالرجل يمثل الرعيل الأول من الشعراء الجاهليين حيث لا قواعد عروضية، ولا عروضيين، وهناك غيره ممن عاصروه كامرئ القيس بن حجر عنده ما يماثل عبيدا من هذا الاختلال، فقد جاء في قصيدته اللامية والتي مطلعها:

عينـاكَ دَمْعُهُمـا سِـجَالُ ... كـأَنَّ شَـأْنَيْهِما أَوْ شَـالُ[٦]

فهي على الوزن نفسه، وهو مخلع البسيط، وإننا لنظن أن مثل هذا الأمر هو دليل على صحة شعر عبيد، وعدم العبث به كثيراً من قبل الرواة والإخباريين.

وقد لاحظ السير تشارلز لايل هذه القضية، وتعرض لها في مقدمة "ديوان عبيد بن الأبرص"[٧] ويظل شعر عبيد على اختلاف وزنه في بعض القصائد رقيق الحاشية حلو المأخذ قريبه.

أما البحور التي نظم عليها عبيد أشعاره، فهي حسب الكثرة والقلة مرتبة كالآتي:

---

١ـ انظر كتاب الشعراء وإنشاء الشعر للدكتور علي الجندي ص ٢٠ وقد أورد رأي كل من أبي العلاء في اللزوميات الجزء الأول ص ٢٤ وابن الأثير في "المثل السائر" ص ٦٩.

٢ـ انظر النقد الأدبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال مطابع الشعب ١٩٦٤.

٣ـ انظر الموشح للمرزباني ص ٨٢ وانظر نقد الشعر لقدامة ص ٢٠٦.

٤ـ انظر ديوان عبيد ص ٨٩.

٥ـ انظر المصدر السابق ص ١٣٦.

٦ـ انظر ديوان امرئ القيس ص ١٨٩ طبع دار المعارف تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

٧ـ انظر مقدمة ديوان عبيد للسير تشارلز لايل ترجمة الدكتور حسين نصار طبع ١٩٥٧.

أولاً: الطويل وقد نظم عليه الشاعر عشرة قصائد، يليه البسيط، وقد جاء في إحدى عشرة قصيدة، ثم يليه الكامل، وقد جاء في عشر قصائد، ويتلوه الوافر، وقد جاء في ست قصائد، يليه المنسرح وقد جاء في ثلاث قصائد، ثم الرمل والخفيف ولكل منهما قصيدتان، ثم السريع والرجز والمتقارب، ولكل منها قصيدة واحدة.

أما بشر بن أبي خازم، فقد نظم على القوافي والأوزان التالية: لقد جاء شعره كما في ديوانه موزعاً على أربع عشرة قافية متنوعة، فالباء والميم حظي كل منهما بست قصائد يغلب الضم على الباء في حركة الروي كما يغلب الكسر على الميم في حركة الروي، تليها الراء، وقد جاءت في خمس قصائد في ثلاث منها مضمومة، وفي اثنتين مشبعة، وفي واحدة مكسورة، ثم يلي الراء "الفاء" وقد جاءت في خمس قصائد ضمت أربع منها، وكسرت في واحدة وتأتي العين والجاء في مرتبة واحدة، عند بشر فقد نظم على كل منهما أربع قصائد، ثم تتوزع بقية الحروف الأبجدية قوافي بشر، ومما عرف به هذا الشاعر الأسدي الاقواء وهو من عيوب الشعر المعروفة، وقد ذكر أبو عمرو بن العلاء: أن فحلين من الشعراء كانا يقويان النابغة، وبشر بن أبي خازم، أما النابغة فقد نبه إلى ذلك في مجلس المدينة "يثرب" فلم يعد إلى الاقواء، وأما بشر فقد قال له سوادة أخوه: انك تقوي فقال له: وما الاقواء؟ فأنشده بيتيه: ونسيت جذام "بالرفع" و"سقناهم إلى البلد الشآمي" وهي مكسورة، ففطن و لم يعد، أيضاً[1].

أما البحور التي توزعت شعر بشر فهي مرتبة بحسب كثرة استعمالها وقلته وهي: البحر الوافر، وقد استأثر بنصيب كبير من شعر بشر فقد جاء في تسع عشرة قصيدة، يليه الطويل وقد جاء في إحدى عشرة مرة، يليه الكامل وقد جاء في خمس قصائد، يتلوه البسيط وقد جاء في أربع قصائد، ثم المتقارب في قصيدة واحدة.

وهكذا فإننا نرى ميل بشر إلى الوافي أكثر من سواه، ثم الطويل وكذلك الكامل، وهو أقل تنويعاً في التصرف بالبحور من عبيد بن الأبرص، ثم يأتي عمرو بن شأس الأسدي، وقد توزعت شعره الذي جمعه الدكتور يحيى الجبوري البحور التالية: أولاً: الطويل وقد استأثر بمعظم شعر هذا الشاعر، فقد جاء في تسع عشرة قصيدة ومقطوعة، يليه الوافر في ثلاث قصائد، ثم الخفيف، والمتقارب، والرجز، والكامل، وقد استخدم الشاعر كلا من هذه البحور مرة واحدة، أما القوافي فقد جاءت شاملة لأغلب الحروف الأبجدية على أن حرف اللام عند هذا الشاعر قد حظي بنصيب كبير من قوافيه.

أما سحيم عبد بني الحسحاس، فالواقع الذي يشير إليه شعره هو أن الطويل كذلك حظي بالقدر الأكبر من شعر هذا الشاعر، فقد جاء في خمس عشرة قصيدة ومقطوعة، ثم البسيط، والمتقارب، والكامل، ولكل من هذه البحور قصيدة واحدة، ولعل القوافي التي استخدمت في شعر سحيم حظي

---

١ـ انظر الموشح للمرزباني ص ٥٩. والبيتان هما:

| | |
|---|---|
| ألم تر أن طول الدهر يسلي | وينسى مثلما نسيت جذام |
| وكانوا قومنا فبغوا علينا | فسقناهم إلى البلد الشامي |

ولقدامة تعليل في ظاهرة الاقواء خلاصته أن الاقواء يشيع بين الأعراب وعند غير الفحول ـ انظر نقد الشعر ص ٢٩ ـ أي أن البداوة سبب من أسباب الإقواء وهو تعليل مرفوض لا تؤيده الوقائع فالإقواء عيب قد يقع فيه أي شاعر وفي أي مكان.

فيها حرف الدال بالقدر الأكبر حيث ورد في ثلاث قصائد، ثم توزعت بقية الحروف قوافي سحيم.

وهكذا فان شعراء هذه القبيلة قد نظموا - كغيرهم من الجاهليين - في شتى بحور الشعر، ونوعوا في القوافي، وحركات الروي، مما يدل على مقدرتهم الفنية، وسعة تصرفهم في هذا المجال، ولئن غلبت بعض البحور على شعراء بني أسد دون غيرها، فذلك عائد لشيوعها بين الجاهليين بعامة، أما استخدامهم لبعض الحروف الثقيلة، والمستكرهة في الروي على حد زعم بعض الباحثين، فهو دليل في الوقت ذاته على سعة نفس هؤلاء الشعراء، وشهادة لهم على طول باعهم في نظم الشعر، ولعلنا بهذا السبب نفسر تصرفهم في استخدام المجزوءات، والمخلعات من بحور الشعر. هذا إذا أحسنا الظن بالرواة الذين نقلوا لنا شعر هذه القبيلة دون مساس بصحته، والتزيد عليه، مما جعل أوزان بعض قصائده تضطرب أحياناً.

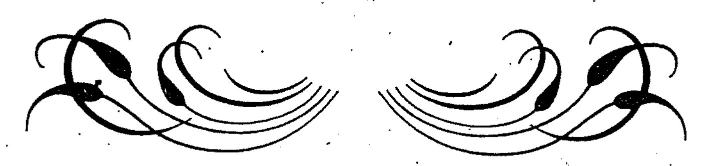
وبهذا نكون قد أوفينا على بناء القصيدة عند شعراء هذه القبيلة ووقفنا على موسيقاها متمثلة في لغتها، وألفاظها، وأوزانها، وقوافيها، التي ارتبطت جميعاً، وتعاضدت في تكوين الصورة الفنية للقصيدة، وبخاصة عند شعراء هذه القبيلة الذين سلكوا أكثر من سبيل واستخدموا أكثر من وسيلة - كما رأينا - في التعبير عن تلك الصورة.

والحق ان بناء القصيدة عند هؤلاء الشعراء قد بدا دالاً على أنه وثيق الصلة بحياة الشاعر الأسدي بل الجاهلي وبيئته المحيطة به التي كانت عنصراً من عناصر الصورة الفنية في كثير من صور هؤلاء الشعراء، وقد استطاع الشاعر أن يطوع الألفاظ، والكلمات، وأن يأتي بها بتراكيب على نسق خاص، ونحو معين مما كان يبرز عمله الفني بصورة أجلى وأوضح، وذلك بالقدر الذي أسعفت فيه المقدرة الفنية كل شاعر.

وعموماً: فان الشاعر الأسدي لم يكن في استخداماته اللغوية خارجا على المألوف في عصره فقد اعتمد - كغيره - على اللفظة الموحية، والعبارة المؤثرة، في الربط بين أجزاء قصيدته مما جعلها تسير ضمن إطار موسيقي واحد، وكان حظ كل شاعر مختلفا في التوفيق في هذا المجال، ونستطيع القول: ان لغة هؤلاء الشعراء كانت لغة ناضجة مصورة في كل مجال تطرق إليه هؤلاء، وهي على درجة عالية من القدرة على الإفصاح عما كان يختلج في نفوس الشعراء من أحاسيس، وقد كشفت لنا عن دلالات خاصة، وجوانب عديدة حاول الشعراء الأسديون وغيرهم من الجاهليين أن يوصلوها لنا منذ ذلك الزمن البعيد، فكانت مطيتهم الأولى في ذلك لغتنا العربية العظيمة بما حوته من وسائل فنية عديدة.

# الفصل الثاني

# الصُّورَةُ الفَنِّيَّةُ عِنْدَ شُعَرَاءِ بَنِي أَسَدٍ الجَاهِلِيِّينَ



## في هذا الفصل:

ماهية الصورة ووظيفتها

الناقة

العناصر الفنية في صورة الناقة

صورة الأطلال وأبعادها وعناصرها

صورة الظعائن وأبعادها

صورة المرأة وأبعادها

صورة الثور الوحشي وأبعادها

## ماهية الصورة ووظيفتها:

لا ريب أن للصورة الشعرية مكانة مهمة في عالم الشعر، ولا يخلو أي عمل فني منها، ويتضح ذلك جلياً عند استعراضنا لتاريخ أي من الفنون الإنسانية، والشعراء ــ أكثر من غيرهم ــ تتجسد حاجتهم إلى التصوير لأنهم لا يعبرون ـ حين ينظمون ـ عن فكر مجرد من الإحساس، أو عن علم ثبتت نظرياته واستقرت حقائقه وأصبحت له قواعده الثابتة عند أصحابه.

ولعل مهمة الشاعر ـ حين يعبر عن قضية ما أو رؤية ما ــ تتعدى هذا الحد إلى بحث المتعة والجمال عند المتلقي، ومن هنا كانت الصورة الشعرية أو قُل: الصفة الشعرية هدفاً من أهداف الشعر الأساسية وغاية من غايات الشاعر، ومن خلالها يستطيع الشاعر أن يعبر عما تسعفه به الكلمات في التعبير عنه، فينقل أحاسيسه ومشاعره، وعواطفه، محملاً إياها أكثر من بعد ــ في أغلب الأحيان ــ ويمكننا الحكم على مدى توفيق الشاعر أو إخفاقه في تصويره من خلال قوة الإيحاء التي تبعثها فينا صوره وأخيلته، وقد ذهب الدكتور إحسان عباس في كتابه "فن الشعر" إلى أن دراسة الصورة مجتمعة قد تعين على كشف معان أعمق من المعنى الظاهري للقصيدة ذلك لأن الصورة وهي جميع الأشكال المجازية إنما تكون من عمل القوة الخالقة، فالاتجاه إلى دراستها يعني الاتجاه إلى روح الشعر"(١).

وقد ذهب الدكتور مصطفى ناصف إلى أن الشاعر يجنح إلى نسق من الأشياء يخالف ما نرى وما نعرف من أجل الوصول إلى حقائق مستقرة باقية ومن أجل ارتياد دفائن وأسرار، وهذه الخاصية للصورة لا توجد في أي عنصر من عناصر العمل الفني، فاللغة والموسيقا عنصران قائمان بذاتهما، صحيح انهما يمتزجان تماماً بعاطفة الشاعر وفكره ولكنهما لا يحملان تلك الأبعاد العميقة الأغوار القائمة في الصورة الشعرية(٢).

وعلى أية حال: فان الصورة الشعرية مرآة لحسن الشاعر ورؤيته الجمالية، وقد برع الشاعر الجاهلي في هذا المجال التصويري فكان مصوراً لكل مظاهر البيئة من حوله عاكساً لنا بهذا التصوير تلك البيئة بكل دقائقها مرتفعاً بها إلى درجة عالية من الشعور بالجمال حتى بدت لنا الأشياء بصورة جميلة أكثر مما هي عليه في واقعها المرئي، ولعل ذلك كله يعود إلى أن الشاعر الجاهلي كان ينظر إلى تلك المظاهر من خلال نفسه هو، ويقارن بينها وبينه متمثلاً المعاناة التي يعانيها في تلك البيئة القاسية.

ومن هنا نستطيع القول: إن الصورة الشعرية لدى الشاعر الجاهلي إنما هي رؤية خاصة للواقع الذي يعيشه الشاعر، وكما هو معروف فان لكل شاعر طريقته الخاصة في التعبير قد تتحكم فيها الحالة النفسية والموقف الذي يعانيه، ومدى قدرة الشاعر على الخلق، ومن هنا جاء التمايز بين الشعراء في صورهم الشعرية فربما كانت الصورة في جزئياتها وعناصرها واحدة، ومع هذه فإننا نشعر

---

١ـ انظر كتاب فن الشعر للدكتور إحسان عباس طبع بيروت ١٩٧٥ ص٢٣٨.

٢ـ الصورة الأدبية ص ١٥ طبع دار مصر للطباعة.

باختلاف بين شاعر وآخر في طريقة التعبير عن هذه الصورة، والواقع أن الناظر إلى الصورة الشعرية لدى الشعراء الجاهليين يرى أنها تتجه إلى أكثر من اتجاه، فهي ليست حسية حرفية شكلية كما يقول الدكتور عز الدين إسماعيل والذي يتهمها بالجمود[1].

ذلك أن الصورة الشعرية القديمة لها سحرها الخاص، ولها تأثيرها الجمالي، وحيويتها التي لا تنكر، وانه ليس من الإنصاف أن يطالب شاعر عاش في بيئة قاسية، وفي ظل ظروف صعبة ومخالفة لواقعنا المعاشي اليوم أن يصور لنا صوراً كلية بمفهوم "الكلية" العصري.

إذن فما لا شك فيه أن التصوير حاجة من حاجات الإنسان الملحة، ومطلب من مطالبه الفطرية، وبخاصة الشاعر ـ كما قلنا من قبل ـ فهو مدفوع إلى استخدام الوسائل المختلفة المتعددة حتى يستطيع أن ينقل أحاسيسه ومشاعره إلى غيره من بني جنسه.

لذا فقد دأب الشعراء منذ القدم على الاستعانة بأسلوب الرسم، وغيره من الأساليب كي يستطيع الواحد منهم توصيل ما يريد قوله بأحسن الطرق وأيسر السبل، وقد يحالفه التوفيق في ذلك، أو يكون الإخفاق من نصيبه، وذلك يتوقف على عوامل كثيرة ومتعددة.

ومن المعروف أن العرب أمة عنيت بالبيان وشغلت بالبلاغة والفصاحة، وكان الشعر ديوانهم الأول، وسجلهم الأوحد فيه تظهر جميع صور حياتهم، ومظاهر معيشتهم، وقد استخدم شعراءهم معظم ألوان البيان المعروفة لنا اليوم غير أن استخدامهم لها واستعمالهم إياها كان أقرب إلى العفوية، والطبيعة فلا تكلف ولا إغراق، وقد جاءت صورهم ومعانيهم ـ نتيجة لذلك ـ واضحة بسيطة. يقول الدكتور شوقي ضيف: "وأول ما يلاحظ على معاني الشعر الجاهلي أنها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال سواء حين يتحدث الشاعر عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله في الطبيعة، ولا يعرف الغلو ولا المغالاة ولا المبالغة التي قد تخرج به عن الحدود المعتدلة"[2].

إن الشاعر الجاهلي لم يكن همه الأول ـ في تصويره ـ أن يأتي لنا باستعارة، أو يسوق لنا كتابة أو تشبيهاً، وإنما كان كل همه أن ينقل إلينا صورة أمينة ودقيقة لما يراه ولما يحسبه، والصورة عند الجاهليين ـ بعامة ـ والبدويين منهم ـ بخاصة ـ صورة محدودة ومرتبطة ـ في أغلب الأحيان ـ بعالمهم المحيط بهم والمحسوس منهم وقلما تعمق الواحد منهم في صوره، ذلك أن الشاعر الجاهلي متفاعل ـ إلى حد بعيد ـ مع بيئته ومجتمعه، ومن الطبيعي أن تكون صوره نابعة من حياة ذلك المجتمع، ومستقاة من أحوال تلك البيئة.

وعن الصورة الأدبية ومفهومها يقول الدكتور محمد زكي العشاوي "إن الصورة في الشعر: ليست إلا تعبيراً عن حالة نفسية معينة يعانيها الشاعر إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة. إن أي صورة داخل العمل الفني إنما تحمل من الإحساس وتؤدي من الوظيفة ما تحمله الصورة الجزئية الأخرى المجاورة لها، وأن من مجموع هذه الصور الجزئية تتألف الصورة الكلية التي تنتهي إليها القصيدة"[3].

إذن فالصورة الأدبية على هذا الأساس، ومن هذا المنطلق تتألف من مجموعة من العناصر المتغايرة

---

١ـ الأدب وفنونه ص ١١٢ طبع دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦٥.

٢ـ تابع الأدب العربي في العصر الجاهلي. الدكتور شوقي ضيف ص ٢١٩ طبع دار المعارف.

٣ـ قضايا النقد الأدبي د. محمد زكي العشماوي ص ١٠٨ طبعة ثالثة.

المتآزرة التي تعبر عن رؤية معينة، ولا يختلف كثيراً تعريف الدكتور مصطفى ناصف للصورة الأدبية عن تعريف الدكتور العشماوي لها[١].

وان كان الدكتور ناصف يركز على أهمية العامل النفسي في الصورة، وهي عنده عملية تحليل وتركيب، فالصورة إذن هي فكرة متخيلة أو مجموعتين الأفكار الجزئية، والمشاعر والأحاسيس، يصبها الشاعر داخل إطار فني معين ومحدد، قد يكون ذلك الإطار تشبيهاً أو استعارة، أو كناية، ويتفاوت الشعراء في كيفية نقل هذه الصور إلى القارئ، وذلك راجع إلى شخصية كل شاعر، وثقافته وظروفه، البيئية والخاصة، ومن هؤلاء الشعراء من يخرج صوره إخراجاً دقيقاً محكماً يستوفي فيه كل جزئياتها ليصل في النهاية إلى صورة كلية ملونة متقنة، ومنهم من لم يستطع الوصول بصورة الفنية إلى هذا المستوى الرفيع، والشعر في كل زمان ومكان لا يمكن أن يكون شعراً، أو أن يعد فناً إذا ما خلا من التصوير، فعن طريق التصوير يكون الشعر فناً رفيعاً يترجم إحساس قائله، ويصور ما يجيش داخل نفسه، بل ينقل هذا الإحساس وتلك المشاعر إلى سامعه وقارئه.

يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة: "فالشعر لا يمكن أن يسمى شعراً ما لم تدخله الصناعة الفنية الدقيقة لتبرز معانيه، وتضعها في صور رائعة معجبة يضفي عليها الخيال ألواناً جذابة فتعلق بالنفوس، وتناط بالعقول، ويحس الإنسان معها بمتعة الحس، ولذة القراءة والتفكير معاً. إن المعاني المجردة قد تكون أساساً في حقائق العلوم والمعارف الإنسانية، ولكنها لا يمكن أن تكون أساس الشعر وغايته، بل لا بد أن يصوغها الشاعر صياغة جديدة تظهر فيها براعته وقوة تخيله، ودقة فنه، وصدق إحساسه، وهذه الصياغة هي ما نعبر عنه بالصنعة الشعرية[٢].

وشعراء بني أسد ككل شعراء الجاهلية عبروا عن معانيهم بالصور الفنية، وعلى الرغم من أن معظم صورهم كانت مستوحاة من بيئتهم إلا أنهم قد ضمنوا هذه الصور جانباً نفسياً تجاوزوا به التقرير المباشر إلى دلالات أخرى يمكن رؤية بعضها بالرمز، ويبدو أنهم أفادوا من طاقات اللغة، ودلالات الألفاظ في صنع صورهم الجزئية منها والكلية إلى حد بعيد.

---

١ـ ينظر كتاب الصورة الأدبية للدكتور مصطفى ناصف من ص ١٢ ـ ٢٠ ومن ص ١٣٥ ـ ٢٣٧.

٢ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. د. محمد مصطفى هدارة ص ٥٦٦.

## الناقة:

ونلمس هذا على وجه الخصوص في وصفهم وتصويرهم للأطلال، والناقة، ووصفهم كذلك لمآثر قومهم ومحامدهم في مضمار الفخر، ووصفهم أيضاً لمظاهر الطبيعة وغير ذلك.

فعبيد بن الأبرص أكبر شعراء بني أسد بل من أكبر شعراء الجاهلية، وواحد من أقدم شعرائها صور ناقته، وشبهها بحمار وحشي، أو وعل لكنه كان يتوقف في أثناء تصويره لها، ويجنح إلى مشاهد جانبية فيصورها، ويعطيها حقها من الاستقصاء ثم يعود ثانية إلى تصوير ناقته فهي إذن صورة مركبة تحتوي في أثنائها على صور جزئية متنوعة يسخرها الشاعر في اقتدار لخدمة الصورة الكلية، ويبرهن من خلال ذلك على قدرة تعبيرية فائقة، وتنويع رائع في الأداء، وتطويع لمفردات اللغة، يقول عبيد في إحدى صوره التي يصف فيها ناقته:

قطعْتُهُ غدوةً مُشيحاً ... وصاحبي بادِنٌ خَنُوبُ
عيرانةٌ مؤجَدٌ فقارُها ... كأن حارِكَها كَثيبُ
أخلفَ ما بازلاً سَديسُها ... لاحقَّةٌ هي ولا يَنوبُ
كأنها من حمير غابٍ ... جونٌ بصفحتِهِ نُدوبُ
أو شَبَبٌ يحتفرُ الرُّخامى ... تلفُّهُ شَمْأَلٌ هَبوبُ
فذاك عصرٌ وقد أراني ... تحملني نَهْدَةٌ سُرحوبُ
مضَبَّرٌ خَلْقُها تضبيرا ... ينشق عن وجهها السبيبُ
زيتيةٌ ناعمٌ عروقُها ... وليِّنٌ أسرُها رحيبُ
كأنها لِقْوَةٌ طَلوبُ ... تحِنُ في وَكرِها القُلوبُ
باتت على إرَمٍ رابئةً ... كأنها شيخة رَقوبَ
أصبحت في غداةِ قَرَّةٍ ... يسقط عن ريشها الضَّريبَ
فأبصرت ثعلباً من ساعةٍ ... ودونَهُ سبسب جديبَ
فنفضت ريشها وانتفضت ... وهي من نهضةٍ قريبُ
فاشتال وارتاع من حسيسِها ... وفعْلَهُ يفعلُ المَذْؤوبُ
فنهضت نحوهُ حثيثةً ... وحردت حَرْدَةً تسُبْسِبُ
فدبَّ من رأيها دبيباً ... والعينُ حِمْلاقُها مَقْلوبُ
فأدركتْهُ فطرحتْهُ ... والصيدُ من تحتها مَكْروبُ
يضغو ومخلبها في دفِّهِ ... لا بُدَّ حيزومُهُ منقوبُ(١)

١ـ ديوان عبيد بن الأبرص تحقيق د. حسين نصار ص ١٦ ـ ٢٠.

فعبيد في هذه الأبيات، ومن خلال تلك الصورة للناقة ينتقل فجأة إلى تصوير الفرس، وبيان ميزاته، وهو في ذلك يتبع أكثر من سبيل لتلوين صورته فهي "كشيحه رقوب" أو "عقاب تطلب الصيد" تتجول في بصرها في كل اتجاه حتى أبصرت ثعلباً، وهنا يتابع الشاعر منظراً فرعياً هو منظر الثعلب فيصوره بكل دقة وعناية، ويستخدم عبيد اسم المفعول أكثر من مرة ليعطي البعد الحقيقي للصورة التي عليها الفريسة من مثل "المذؤب - مغلوب - مكروب - منقوب" واختيار عبيد لاسم المفعول هنا إنما يكمن وراءه علم الشاعر - بطبعه وسليقته - بما لهذا المشتق من دلالة قوية معبرة عن حالة الفريسة.

فالمشاهد في صورة الناقة عند عبيد متغايرة لكنها - في الواقع - تقصد مرمى واحداً هو إعطاء هذه الناقة أبعاداً جديدة، وإضفاء أكثر من خط لتلوين الصورة، ولا يقل اعتناء الشاعر بالجزئيات المكونة للصورة الكلية عن اعتنائه بالصورة الكلية نفسها، فقد صور لنا الحمار الوحشي، والثعلب والعقاب والفرس، التي أسهب في تصويرها حتى كدنا نظنه قد نسي الناقة، وكان عبيد في نقله لهذه الصور ولتلك المناظر دقيقاً وأميناً إلى درجة جعلتنا نعيش معه حالة ذلك الثعلب المطرود، كما أن صورة العقاب المنتظرة والمتوثبة لصيد تمني به نفسها بعد ليل بارد قد استطاع الشاعر من خلالها الإفصاح عن الحالة النفسية التي كانت عليها تلك العقاب، وقد جاءت الصورة الكلية موجزة في ألفاظها، وفي الوقت نفسه معبرة عن المواقف التي صورها الشاعر في أقل عدد ممكن من المفردات، هذه المفردات التي تحوي سيلاً عارماً من المعاني والأبعاد التي استقاها الشاعر من بيئته.

لقد كانت صورة الناقة عند عبيد من الصور العريضة التي ضمنها الشاعر أكثر من بعد نفسي، وكان له فيها متسع من المجال لإظهار فنيته في التصوير من حيث استخدام اللغة، وتوظيفها في التعبير عما كان يحسه من مشاعر، أو ما يعانيه من ألوان الصراعات في تلك البيئة القاسية، وكان مجيداً في كل ذلك، فقد رسم من خلال لوحاته العديدة صورة لحياة العربي، وعكس لنا كثيراً من مواقفه. وصورة الناقة واحدة من لوحات عبيد الفنية.

فها هو ذا عبيد في إحدى لوحاته يصور لنا ناقته مبرزاً صفة من صفاتها الهامة والمرجوة منها، وهي السرعة يقول عبيد:

| | |
|---|---|
| والعيس مدبرةٌ تهوي بأركُبها | كأنهنَّ نعامٌ نُفَّرٌ مُعُبطُ |
| قد نكبتْ ماءَ جزعٍ عن شمائِلها | في سبسبٍ مقفرٍ حمرٌ بِهِ اللُّمَطُ |
| ترى لهنَّ عزيفاً في مواثبةٍ | إذا هُمُ لبسوا اللأَمَاتِ وافترطوا |
| وتصبح الحقب حسرى في مناهلها | والكدر قد قصرت عن وردها الوقط(١) |

وهكذا تبدو صورة الناقة عند عبيد بن الأبرص صورة مشرقة وضاءة فها هي ذي تهوي بمن عليها، وكأنها النعام المذعور، وهو في أشد حالاته سرعة ونشاطاً، وقد خلفت هذه الإبل ماء جزع عن شمالها في ذلك السبسب المقفر الذي لا أنيس فيه ولا ماء، وهي في هويها هذا يسمع لها صوت شديد يخترق الأذن لا سيما في أثناء تلك المواثبة والمسابقة حين يتدرع الدارعون بدروعهم، وهي من السرعة على درجة عالية وحظ وفير حتى أنها أجهدت الحمر الوحشية المشهورة بسرعتها عند

١- ديوان عبيد ص ٨٤.

العرب التي كانت تقصد مورد الماء لتشرب، وها هي ذي أسراب القطا قد نفرت هي الأخرى، واضطرتها الإبل إلى الابتعاد عن الماء، ونرى الشاعر وقد أبرز لنا صورة الناقة وهي في غاية سرعتها ونشاطها، فهو في البيت الأول يشبهها بالنعام الذي اشتهر بسرعته الفائقة، وهو لا يكتفي بذلك بل يجعل هذا النعام في أشد حالاته سرعة، وخفة، ثم يدلل على مدى سرعة هذه الناقة باستخدامه للفعل "تهوى" وكأنها شيء ثقيل يهوى من عل، وفي البيت الثاني يصول لنا الشاعر تلك المفازة المقفرة التي شابها أكثر من لون ليدلل على جفافها المطلق ويبسها الدائم، وليجعل من اجتيازها مفخرة لناقته تلك، ويعود في البيت الثالث إلى تأكيد صفة السرعة فيقول في زهو: إن تلك الناقة لا تحفل بصحراء، أو ببيداء، وأن لها من السرعة والحيوية ما يؤهلها لأن تخلف قطيعاً من الحمر الوحشية السريعة وراءها متعبة لاهثة لا تستطيع الوصول إلى منهل الماء، وقد عبر الشاعر عن ذلك بلفظة "حسرى" وهي تحمل الكثير من الدلالات وقد استعار لها الشاعر هذه الصفة من الإنسان كما أن أسراب القطا قد أفسحت الطريق لهذه الإبل إلى مورد الماء، ومن المعروف والمعلوم أن القطا يشتهر بالحاجة الملحة إلى ورود الماء.

هكذا رسم عبيد صورته، ولون خطوطها معتمداً على حواسه ومشاهداته، اليومية، مما كان يعانيه في بيئته، وقد استعمل الشاعر عنصري الحركة واللون في إبراز ملامح صورته، وتوضيح معالمها، واستطاع بذلك أن ينفذ إلى دقائق الأشياء، وجعلنا نشعر حقاً بسرعة هذه الناقة الفائقة، وقد جاءت صوره البيانية مبثوثة في لوحته التي رسمها بلا تكلف أو تصنع، فتشبيه الناقة بالنعام شيء مألوف عند الجاهليين إلا أن عبيداً يختار لهذا النعام حالة يكون فيها أشد سرعة وأكثر خفة، وقد كنى الشاعر عن يبس الأرض وجفافها المطلق بصورة جزئية، أو قل منظراً فرعياً مألوفاً لمن يعيش في الصحراء، كما جاءت الكناية في البيت الأخير معبرة عن حالة التعب والإعياء التي كانت عليها الحمر الوحشية، وحالة القطا المضطر لترك مورد الماء، فلقد استطاع الشاعران يجعل من الصورة الجزئية عاملاً في إنجاح الصورة الكلية، ورافداً لها، وبرع في استخدام اللغة، وفجر ما فيها من قدرة على التعبير بكل دقة وإتقان.

ولئن شعرنا بشيء من المبالغة في التصوير فهو شعور مقبول طالما لم يخرج بالشاعر عن حدود العقل، وطالما كان في خدمة المعنى ولم يقصد إليه الشاعر قصداً.

إن تصوير عبيد للناقة كان نابعاً من وحي البيئة الجاهلية، وقد جاء تصويره لها مبثوثاً في أغلبية قصائده الطوال(١).

ومن الكنايات الجميلة التي وردت في شعر عبيد عن الناقة قوله

قُطعتُ بصهباءِ السراةِ شِمِلَّةٍ تزِلُّ الولايا عن جوانبِ مَكْرُبِ(٢)

فقد كنى الشاعر بهذه الصورة عن شعور ناقته ورشاقتها، ومن التشبيهات الطريفة قوله:

ثم أبرى نِحاضَها فتراها ضامراً بعد بُدْنِها كالهِلاَلِ(٣)

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ١٦، ٢٧، ٣٨، ٤٣، ٦٩، ٨٤، ٩٦، ١٠١، ١١٠، ١١٣، ١١٦.

٢ـ المصدر السابق ص ٢٧ والولايا: البراذع. والمكروب: ذو القيد المضيق.

٣ـ المصدر السابق ص ١٦٦.

ومن صور سرعتها المبتكرة قوله:

خَلُـوجُ برجليهـا كـأن فُروجَهـا فيافي سهوبٍ حين تُحْتَثُّ في الآلِ(١)

فقد جعل عبيد الصحراء كلها مجتمعة فيما بين رجلي ناقته ويديها، وهي صورة مبتكرة لم يسبق إليها الشاعر فهي في الذروة من إصابة التشبيه عند عبيد، وان دل هذا على شيء فإنما يدل على إعمال الشاعر لفكره فيما يقول، وفيما يختار من صور بيانية ليشكل فيها خطوط معانيه الواضحة أما التشبيهات المألوفة فكثيرة عند عبيد ـ كما أشرنا ـ وهذا مثال على ذلك ومما استخدمه معظم الجاهلين في وصف نوقهم:

يقول عبيد:

وقد أسلي هُمومي حين تحضُرُني بجمرةٍ كعلاةِ القَيْنِ شِمْلالِ

زيافةٍ بقتودِ الرحل ناجيَةٍ تَفْري الهجيرَ بتبغيلٍ وإرقالِ

مقذوفةٍ بلكيكِ اللَّحْمِ عَنْ عُرُضٍ كمفردِ وَحدٍ بالجوِّ ذَيَّالِ(٢)

أما وصفه للناقة في معلقته فهو لا يخرج به عما اعتاد الجاهليين أن يصفوا به الناقة، فهو يعني بتصوير سرعتها، وضخامتها ومتانة خلقها، وصغر سنها، ويشبهها بالثور الوحشي التماساً لعنصر القوة والجسارة.

وإذا ما تركنا عبيداً لشاعر آخر من شعراء بني أشد لنطل على صورة الناقة عنده ألا وهو بشر بن أبي خازم فإننا نراه يرسم لناقته لوحة تفيض حركة، ولوناً، وقد جاءت هذه اللوحة عنده متعددة الخطوط كثيرة الألوان مختلفة الأصباغ، فها هو ذا في قصيدته التي يمدح بها عمرو بن أم اياس يصور لنا ناقته في لوحة فنية تلي لوحة أخرى رسمها لأطلال محبوبته مية:

يقول بشرا مصوراً ناقته:

ولقد أسلي الهَمَّ حين يعودُني بنجاءَ صادقةِ الهواجر زِعْلِبِ

حرفٍ مذكرةٍ كأن قتودَها بعد الكلالِ على شتيمٍ أحقبِ

جون أضَرَّ بملمعٍ يعلو بها حَدَبَ الإكامِ وكلَّ قاعٍ مُجدِبِ

ينوى وسيقتَها وقد وسقتْ لَهُ ماءَ الوسيقةِ في وعاءٍ مُعجِبِ

فتصكُّ مِحْجَرَهُ إذا ما استافها وجبينَهُ بحوافرٍ لم تُنْكَبِ

وتشجُّ بالعَيرِ الفلاةَ كأنَها فتخاءُ كاسرةٌ هَوتْ مِنْ مَرْقَبِ

والعَيرُ يُرْهِقُها الخَبَارُ وجحشُها ينقضُّ خلفَهُما انقضاضَ الكوكبِ

فعلاهُما سَبَطٌ كأن ضبابَهُ بجنوب صاراتٍ دواخنُ تَنْضُبِ

فتجاريا شأواً بطيئاً ميلُهُ هيهاتَ شأوُهُما وشأو التولبِ

أو شَبهُ خاضبةٍ كأن جناحَها هِدْمُ تجاسرُ في رئالٍ خُضَّبِ

---

١ـ المصدر السابق ص ١١٣.

٢ـ انظر ديوان عبيد ص ١٠١ ـ ١٠٢.

فـالى أيـن أم إيـاسَ عمـرو أرقلـتْ ... رَتْـكَ النعامـةِ في الجديـبِ السبسـبِ
أرمـي بهـا الفلـواتِ ضـافِرةً إذا ... سَـمِعَ المُجـدُّ بهـا صريـرَ الجُنْـدُبِ(٣)

وهكذا تتعدد خطوط صورة الناقة عند بشر، وينتقل الشاعر خلال هذه الصورة من وصف إلى وصف، ومن تشبيه إلى تشبيه، فاللوحة عند بشر وفي هذه الأبيات تنقسم إلى أقسام ثلاثة يشبه في القسم الأول منها ناقته بحمار وحشي شديد، وهذه الصورة شبيهة إلى حد بعيد بصورة الناقة عند لبيد بن ربيعة العامري، في معلقته وعلى الأخص في القسم الذي يشبهها فيه لبيد بأتان وحشية حملت من حمار شديد الغيرة عليها.

ثم سرعان ما يترك بشر هذه الصورة لينتقل إلى صورة أخرى يرى فيها تجسيماً لسرعة ناقته فيشبهها بعقاب كاسرة هوت من مرقبها الذي اتخذته فوق رابية عالية، ويظل يشير مستطرداً في وصف ناقته وكأن الصورتين السابقتين لم ترضياه، ورأى أن ناقته أسرع مما صورها به فلجأ إلى صورة ثالثة يجسم من خلالها سرعة هذه الناقة فيشبهها في القسم الثالث من لوحته هذه بنعامة مسرعة في سيرها وذلك في قوله:

أو شـبهُ خاضبـةِ كـأن جناحهَـا ... هِـدْمٌ تجاسـرُ في رئـالٍ خُضَّـبِ
فـالى ابـن أم ايـاسَ عمـرو أرقلـتْ ... رَتَـكَ النعامـةِ في الجديـبِ السبسـبِ

ومن خلال هذه الصورة الكلية التي رسمها بشر لناقته تظهر لنا صور جزئية كثيرة حشدها الشاعر قوامها التشبيه، والاستعارة، والكناية، ويأتي التشبيه كثيراً في هذه اللوحة الفنية الرائعة من مثل "كأن قتودها - كأنها فتخاء - أو شبه خاضبة - كأن جناحها - رتك النعامة - ثم يختتم الشاعر أبياته بكتابة رائعة عن شدة الحر في الغلاة، وعلى الرغم من ذلك فهو يجشم ناقته السير في هذه المفاوز، وتأتي الكتابة في قوله: "إذا سمع المجد بها صرير الجندب" وصرير الجندب كناية عن شدة الحر، وذلك أن الجندب إذا رمض في شدة الحر لم يقر على الأرض فقفز، وطار، فيسمع لرجليه صرير.

ويرسم بشر لناقته لوحة أخرى لا تشغله فيها سرعة ناقته، بل يبدو من خلالها أن شغله الشاغل هو حديثه عن قوة هذه الناقة، وصلابتها، وقدرتها على مواجهة الإطار، ومقدرتها الفائقة في التصدي لهذه المخاطر، ومجابهتها بعزم صلب وبأس شديد.

يقول بشر متحدثاً عن ناقته الأثيرة إلى نفسه الحبية إلى قلبه:

ولم أبـرحْ رُسُـومَ الـدارِ حتـى ... أزاحـتْ عِلَّـتي حَـرَجٌ مَـروحُ
لهـا قَـرَدٌ كَجُـثِّ الفَيْـلِ جَعْـدٌ ... تغـصُّ بـهِ العَراقِـي والقُـدُوحَ
أعـانَ سـراتَهُ وبنـى عليـه ... بمـا خلـط السـواديُّ الرضـيُّ
سـناماً يرفـعُ الأحـلاسَ عنـهُ ... إلى سَـنَدٍ كمـا ارتُفِـدَ الضريـحُ
كـأن قُتودَهـا بأرينبـاتٍ ... تعطفهـنَّ موشَّـى مُشِيـحُ
تضيَّفَـهُ إلى أرطـاةِ حِقْـفٍ ... بجنـبِ سـويقةٍ رَهِـمٌ وريـحُ
فبـاكرهُ مـعَ الإشـراقِ غُضْـفٌ ... يَخُـبُّ بهـا جدابَـة أو ذَريـحُ

---

٣- ديوان بشر تحقيق د. عزة حسن طبع دمشق ص ٣٥ - ٣٨.

وأضحـــى والضبـــابُ يـــزلُّ عنـــهُ كوقـــف العـــاجِ ليـس بِـهِ كُـدوحُ
فجـــال كـــأن نِصْغَـــاً حِمْيَرِيـــاً إذا كَفَـــر الغبـــارُ بِـــهِ يَلـــوحُ
فلمـــا أن دنـــونَ لكاذتيـــهِ وأسْـــهلَ مـــن مغابِنِـــهِ المُسيـــحُ
يَسُـــدُّ فروجَـــهُ رَبِـــذٌ مُضـــافٌ يقلّبُـــهُ عجـــالُ الوَقْـــعِ روُحُ
فلمـــا أخرجتـــهُ مـــن عَرَاهـــا كريهتُـــهُ وقـــد كَـــثُرَ الجُـــروحُ
قليـــلاً ذا دهـــنٌ بصعدتيـــهِ بســحماوين لِيطُهُمـــا صَحيـــحُ
تواكَلْـــنَّ الغُـــواءَ وقـــد أراهـــا حيـــاضَ المـــوتِ شـــاص أو نَطيـــحُ
وغـــادر فلّهـــا متشـــتتاتٍ علـــى القَسَـــمَاتِ شـــاملهَا الكُـــدوحُ
وأصبـــح نائيـــاً منهـــا بعيـــداً كنصـــل السيـــفِ جـــردَّهُ المُليـــحُ
وأضحـــى لاصقـــاً بـــالصُلْبِ منـــهُ ثمائِلُـــهُ كمـــا قَفَـــلَ المَنيـــحُ
وأصبـــحَ ينفـــضُ الغمـــراتِ عنـــهُ كوقيـــف العـــاجِ طرَّتُـــهُ تَلـــوحُ(١)

من القراءة المتأنية لهذه الأبيات تبدو هذه اللوحة مختلفة عن سابقتها، فاللوحة التي سبقتها تعددت فيه الخطوط، واختلفت فيها الألوان والأصباغ، وانتقل فيها الشاعر من قسم إلى قسم، إذ عقد فيها بشر لناقته صوراً ثلاثة صورها في أولاها حماراً وحشياً، ثم شبهها في القسم الثاني بعقاب هوت من مرقب عالٍ، ثم اختتم اللوحة بقسم شبه فيه ناقته بنعامة سريعة، وقد كانت القصيدة تدور حول المدح كان الشاعر فيها يمدح عمرو بن أم اياس، وكان لا بد له من الحديث عن سرعة ناقته وتجسيد تلك الصفة فيها، ليدلل على مدى تلهفه للقاء من وجه، ومدى شوقه لرؤية ذلك الممدوح أما هذه اللوحة التي بين أيدينا، فقد جاءت في قصيدة لبشر لم يمدح بها أحداً، ولم يهج بها خصماً، ولم تكن في الفخر، بل دارت كلها حول الحديث عن رحيل المحبوبة "ليلى" تلك التي هجرته، وتركته يكفكف العبرات إثر رحيلها، فهو لم يعد يرى أمام عينيه سوى "مبيت ظعائن وهدى يصيح" وقد تلا الحديث عن رحيل هذه المحبوبة حديث عن الناقة دار كله ـ كما رأينا في اللوحة السابقة ـ حول قوة هذه الناقة، وصلابتها، فلم يشغل بشر ذهنه إلا بالحديث عن هذه القوة، لذا نراه قد عمد إلى صورة واحدة لم تتغير خطوطها، ولم تتعدد ألوانها، أو تختلف أصباغها، أو تتنوع مشاهدها، فقد شبه الشاعر ناقته بثور وحشي من صفاته الحذر، والحيطة، وقد تعرض ذلك الثور ـ كالعادة ـ لريح شديدة، لمطر غزير، ألجأه إلى شجرة نبتت في حقف رمل قد أعوج واستطال، واستكن ذلك الثور في هذه الشجرة ليله البارد، وما كاد يلوح ضوء الصباح حتى باكرت ذلك الثور كلاب غضف تطارده بغية القضاء عليه، لكنه يحمل ساقيه للريح حتى يصبح في مأمن من خطر هذه الكلاب مؤثراً السلم، وعدم المواجهة لكنه ومع إصرار كلاب الصيد على قتاله لم يجد بدا من مواجهتها، وخوض معركة معها، فيكر راجعاً عليها يذودها عن نفسه بقرنيه اللذين يشبهان قناتين مستقيمتين، وتنتهي المعركة ـ كالعادة ـ بانتصار الثور على خصومه.

وما انتصار الثور في معركته إلا تجسيداً لقوة هذه الناقة وتجسيماً لصلابتها، ومقدرتها في مواجهة المصاعب والأخطار، بل أقول وأكثر من هذا فما هذه الصورة التي رسمها الشاعر لناقته والأخطار

---

١ـ ديوان بشر ص ٥٠ ـ ٥٣.

التي واجهتها، وصبرها الشديد في مواجهة هذه المخاطر إلا تصويراً للحالة النفسية للشاعر بعد رحيل محبوبته، فقد رأى في رحيل هذه المحبوبة، ونأيها عنه مصيبة لا تكبرها مصيبة، وداء لا دواء له، وخطراً عظيماً يواجه مستقبله، وقد رمز لذلك كله بالريح الشديدة، والمطر الغزير اللذين واجها ذلك الثور في تلك الليلة القاسية، كما رمز إلى هذه الأخطار التي تواجهه بعد رحيل محبوبته ـ أيضاً ـ بتلك الكلاب النضف التي أخذت تطارد ذلك الثور حين انبلاج الصبح بغية القضاء عليه، وما الانتصار الذي نسبه الشاعر للثور الوحشي في ختام هذه الصورة إلا عملية تهدئة لنفسه الجزعة في مواجهة رحيل أحبته، وأنه سوف يستطيع أن يتجاوز هذه الصدمة، وأن يخرج منها قوياً لا ضعيفاً منتصراً لا منهزماً. إذا فالصورة في مجملها ليست إلا تصويراً نفسياً لما يعانيه الشاعر، ولما يحس به في أعماقه. وإذا كان الدكتور شوقي ضيف يرى أن قتل الكلاب في قصيدة المديح رمز لأعداء الممدوح[1]. نقول إذا كانت هذه هي رؤية الدكتور شوقي ضيف لظاهرة قتل الكلاب في قصيدة المديح، فإننا نرى أن بشراً في هذه القصيدة قد رمز ـ فيما يبدو ـ إلى الشامتين فيه بعد رحيل أحبته.

والصورة ذاتها تتكرر عند بشر كثيراً، فها هو ذا في قصيدة دالية يمدح بها بني بدر أولئك الذين كانوا يغرونه بهجاء أوس بن حارثة نرى بشراً يصور ناقته بثور وحشي تعرض لهجوم من كلاب غضب نواحل قد دربت على الصيد، لكنه قد استطاع بصبره، وأناته، أن ينتصر عليها، وأن يخرج ظافراً من أرض المعركة.

يقول بشر واصفاً ناقته بعد حديثه عن مشاهد الرحيل لأحبائه:

ثم اغتزَزْتُ على عنسٍ عُذافرةٍ ... سيٌّ عليها خَبارُ الأرض والجَدَدُ
كأنها بعد ما طال الوجيفُ بها ... من وحشِ خبَّةَ موشيٌّ الشَّوى فَرِدُ
طاوٍ برملةِ أَورال تضيَّفَهُ ... إلى الكِناسِ عشيٌّ باردٌ صَرِدَ
فبات في حقفِ أرطاةٍ يلوذُ بها ... كأنه في ذَراها كوكبٌ يَقِدُ
يجري الرذاذُ عليه وهو منكرسٌ ... كما استكان لشكوى عينِهِ الرَّمِدُ
باتت لَهُ العقربُ الأولى بنثرتِها ... وَبَلَّهُ مِنْ طلوعِ الجبهةِ الأَسَدُ
ففاجأتْهُ ولم يرهبْ فجاءتها ... غضفٌ نواحلُ في أعناقها القِدَدُ
معروقةُ الهامِ في أشداقِها سَعَةٌ ... وللمرافقِ فيما بينها بَدَدُ
فأزعجتهُ فأجلَى ثم كرَّ لَهَا ... حامي الحقيقةِ يحمي لَحْمَهُ نَجِدُ
فمارسْتهُ قليلاً ثم غادرَهَا ... مجرِّبُ الطعنِ قتالٌ لها جَسَدُ
أذاك أم تلكَ لا بل تلك تفضُلُهُ ... غِبَّ الوجيفِ إذا ما أرقلتْ تَخِدُ[2]

ولا تختلف هذه الصورة عن سابقتها كثيراً، اللهم إلا في هذه الإضافة الجديدة التي أضافها الشاعر إلى صورته هذه في البيت الأخير إذ عمد إلى التشبيه المقلوب فجعل ناقته أكثر قوة من هذا الثور الوحشي:

أذاك أم تلك لا بل تلك تفضله ... غب الوجيف إذا ما أرقلت تخد

---

١ـ انظر العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص ٢١٥.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ٥٥ ـ ٥٧.

فهي إلى جانب قوتها وشجاعتها وتصديها لأعدائها، لها من عنصر السرعة ما يجعلها تتفوق على هذا الثور، ولا عجب في هذه الصورة فعامل السرعة هنا مهم جداً إذا ما عرفنا أن القصيدة إنما صاغها الشاعر في مدح بني بدر، فهو متلهف للقائهم، والوصول إليهم، ولا بد له من ناقة قوية، وفي الوقت نفسه سريعة تضمن له الوصول إلى ممدوحيه في أقرب وقت ممكن يتجلى ذلك واضحاً في قول بشر عقب رسمه للصورة السابقة لناقته:

لما تخالجت الأهواءُ قلتُ لَهَا ... حَقٌّ عليكِ ذُؤوبُ الليلِ والسَّهَدُ
حتى تزوزي بني بدرٍ فإنهمُ ... شُمٌّ العرانينِ لا سُودٌ ولا جُعُدُ
لو يوزنون كِيالاً أو معايرةً ... مالوا برضوي ولم يَعْدِلْهُمَ أحُدُ
القاعدين إذا ما الجهلُ قِيمَ بِهِ ... والثاقبينَ إذا ما مَعْشَرٌ خَمَدُوا[1]

وهكذا ترتبط الصورة الفنية عند بشر بالحالة النفسية للشاعر، فهو خاضع في كل صوره ولوحاته لما يحس به، ولما يدور بداخله من مشاعر وإحساسات، وتتكرر الصورة نفسها عند بشر في هجائه كما تكررت في مديحه، فها هو ذا يهجو عتبة بن مالك بن جعفر بن كلاب وقومه بني جعفر في قصيدة يستهلها بالحديث عن محبوبته "ليلى" التي نأت عنه، وشحط بها المزار، ثم يخلص من حديثه عنها إلى تصوير ناقته حيث يقول:

فدع عنكَ ليلى إنَّ ليلى وشأنَهَا ... وإن وعدتْكَ الوعدَ لا يتيسرُ
وقد أتناسُ الهمَّ عند احتضارهِ ... إذا لم يكن فيهِ لذي اللبِ مَعْبَرُ
بأدماءَ من سِرِّ المَهَارى كأنها ... بحربةَ موشيُّ القَوائمِ مُقْفِرُ
فباتَ عليهِ ليلةٌ رجَبيةٌ ... تكفئهُ ريحٌ خَريقٌ وتَمْطِرُ
وباتَ مُكِبًّا يتقيها بَرْوقِهِ ... وأرطاةِ حقفٍ خانَها النيتُ يَحْفِرُ
يثيرُ ويُبدي عن عروقٍ كأنَها ... أعِنَّةَ خرازٍ تَحَطُّ وتُبْشَرُ
فأضحى وصئيانُ الصقيعِ كأنَها ... جمانٌ بضاحِي متنِهِ يتحدَّرُ
فأدّى إليه مطلعَ الشمسِ نَبْأةً ... وقد جعلتْ عنه الضبابَةُ تَحْسِرُ
تمارى بها رأْوَ الضُحى ثم ردَّها ... إلى حُرَّتيهِ حافظُ السمعِ مُبْصِرُ
فجالَ ولمّا يستبِنْ فؤادُهُ ... بريبتِهِ مما توجَّسَ أوجرُ
وباكره عند الشروق مُكَلّبٌ ... أزلُّ كسرحان القصيمةِ أغبرُ
أبو صبيةٍ شُعْثٍ تُطيفُ بِشَخصِهِ ... كوالحُ أمثالُ اليعاسيبِ ضُمَّرُ[2]

وتنتهي هذه الصورة عند الشاعر هذه النهاية التي يظهر فيها الثور وقد آثر السلامة، ورأى أن من الخير أن ينسحب من معركة لا يعلم مغبتها، ولا يضمن نهايتها. وعواقبها، فجرى ولما يستبن شيئاً

---

١ـ ديوان بشر ص ٥٧ ـ ٥٨.
٢ـ ديوان بشر ص ٨٢ ـ ٨٤.

إذ كان فؤاده متوجساً خائفاً مما قد أحاط به، فصورة الناقة عند بشر في مديحه هي ذات صورتها في هجائه، ولكن النهايتين مختلفتان تماماً ففي صوره الأولى يجسد الشاعر انتصار الثور الوحشي على ما هاجمه من كلاب وتركه إياها ملطخة بدمائها تتجرع آلام الخيبة والهزيمة، ولكنه في هذه الصورة التي رسمها لناقته، وهو بصدد هجائه لعتبة بن مالك وقومه بني جعفر قد اختار نهاية مختلفة عن النهايات السابقة، فلم يجسد انتصاراً حققه ذلك الثور الوحشي، وإنما رسمه وقد انسحب من المعركة خائفاً يترقب ـ على غير العادة ـ لا شك أن هذه النهايات لتلك الصور مجتمعة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالخيط النفسي للشاعر، وما يعمل في صدره من إحساسات ومشاعر.

وهكذا لم يكن التصوير الفني عند بشر تصويراً عفوياً، بل كان تصويراً مقدراً، محسوباً، رسم الشاعر خطوطه، ووزع ألوانه، وأصباغه، باقتدار تام بحيث يتمشى مع النفسية التي يعيشها، ويوائم اللحظة التي يحياها.

وإذا تركنا بشراً لشاعر أسدي آخر هو عمرو بن شأس لنرى صورة الناقة عنده، ونقف على أبعادها، وخطوطها العامة تبين لنا من البحث أن معظم شعر شأس جاء في الفخر، ومن آن لآخر كان الشاعر يتعرض لوصف ناقته، ولقد أفاض الشاعر في وصف ناقته حيناً في الوقت الذي أوجز في وصفها أحياناً أخرى يقول عمرو بن شأس واصفاً ناقته في قصيدة يفخر فيها، ويستهلها بالحديث عن "ليلى" تلك التي نأت، وبعد بها العهد، ولم يعد للشاعر منها سوى ذكرى يتحسر لها كلما ألمت به، يقول عمرو بعد أن يخلص من ذلك المقطع الذي استهل به قصيدته في الحديث عن محبوبته النائية:

وَخَرْقٍ يخافُ الركبُ أنْ ينطِقوا بهِ ... قطعتُ بفتلاءِ الذراعينِ عَرْمَسِ
لها دَوْلَجٌ دَوْحٌ متى ما تنلْ بهِ ... مدى الغِبِّ أو ترْبَعْ بهِ الغَدَ تُخْمِسِ
يظلُّ يغنّيهِ الحمامَ كأنَّهُ ... مآتمُ أنواحٍ لدى جَنْبِ مَرْمَسِ
مَروحٍ إذا جالت لصوتِ غَضَارَةٍ ... مِنَ الليلِ أو ربعتْ لِنَبْأَةِ هِجْرِسِ
لها عَجُزٌ مثلُ الرتاجِ يزينُها ... إلى قَرِدٍ يُنمي وليَّةَ مَجْبَسِ
وخَطْمٌ كبرطيلِ القُيونِ ومِشْفَرٌ ... خريعٌ كنعلِ السندسيِّ ابنِ أقْوَسِ
وعينٌ كمرآةِ الصناعِ وهامةٌ ... كجندلةِ الضَّبِّ الأصمِّ المُحَرَّسِ
ترى أثَرَ الأنساعِ فيها كأنها ... فوائحُ قاعٍ ذي يَبيسٍ وَعَضْرَسِ
تدقُّ الحصى بمجمراتٍ وَمَنْسِمٍ ... أصَمَّ على عَظْمِ السُّلامَى مُلَدَّسِ(١)

وهذه الصورة التي رسمها عمرو لناقته لا تختلف كثيراً عما ألفه الجاهليون، وعما تعارفوه في وصف نوقهم، فعنصر الصلابة، والقوة، مما يحرص الشاعر الجاهلي بعامة على أن يضفيهما على ناقته، فعليها يجتاز الفيافي والمفاوز المهلكة، وتتجلى قوة ناقة وصلابتها في هذا التشبيه الذي أورده في البيت الأول في وصف الناقة، فهي "عرمس" والعرمس هي الصخرة، وبها شبه الشاعر راحلته إمعاناً في إظهار قوتها، وصلابتها في مواجهة الأخطار والمصاعب، ويستطرد الشاعر في إظهار خيوط هذه الصورة التي رسمها لناقته، وآثر فيها أن يبرزها قوية ضخمة، فيحرص على أن يختار من التشبيهات ما

١ـ ديوان عمرو بن شأس ص ٢٦ـ ٢٧.

يكفل لها تلك الصفة فجاءت كل تشبيهاته في هذا المقطع لتجسد صفة القوة في هذه الناقة، ولننظر إلى تشبيهات الشاعر: "لها عجز مثل الرتاج، وخطم كبرطيل القيون، ومشفر كنعل السندسي بن أقوس، وعين كمرآة الصناع، وهامة كجندلة الضب الأصم".

ثم يختتم الشاعر صورته ببيت يجسد فيه الشاعر قوة ناقته وصلابتها:

تدقُّ الحصى بمجمراتٍ ومنسمٍ أصمَّ على عظم السُلامَى مُلَدَّسِ

والقصيدة التي ضمنها الشاعر هذه الصورة جاءت في الفخر وما الحديث عن قوة الناقة، وصلابتها، وشدتها في مواجهة المصاعب، سوى إشارة من الشاعر إلى قوته، وصلابته، وشدة عزمه، وكذلك قوة قومه وصلابتهم في مواجهة الخصوم، وليست صورة الناقة إلا تصويراً لما يحسه الشاعر، وما يخالج صدره من مشاعر، وإحساسات، ومما يؤيد ذلك ويقول به انتقال الشاعر فجأة من وصف هذه الناقة وحديثه عن صلابتها، وقوتها، وشدتها التي جمعها كلها في بيت واحد اختتم به صورته هو البيت الذي سبقت الإشارة إليه "تدق الحصى" نرى الشاعر ينتقل إلى الفخر فجأة قائلاً:

بني أَسَدٍ هل تعلمونَ بلاءَنا إذا كانَ يومٌ يستعانُ بأَنْفُسِ
قراعَ عدوٍ أو دفاعَ عظيمةٍ إذا احتُضِرَتْ يُعطى لها كلُّ مُنْفِسِ(١)

وما "دق الحصى" ذلك الذي نسبه الشاعر لناقته "وقراع العدو" الذي نسبه الشاعر إلى قومه إلا شيء واحد في نهاية المحصلة، من هنا يتضح لنا مدى ارتباط هذه الصورة الفنية التي رسمها الشاعر لناقته بمشاعره واحساساته.

وفي قصيدة أخرى ينظمها عمرو في الفخر يرسم صورة لناقته قوام هذه الصورة تجسيد سرعة هذه الناقة ومهارتها، يستهل عمرو قصيدته بالحديث عن صرمه لمحبوبته "ليلي" تلك التي عانى من خلفها للوعد كثيراً، يقول عمرو في صورته التي رسمها للناقة:

فاقطعْ بلادُهُمُ بناجيةٍ كالسيفِ زايلَ غِمْدَهُ النصلُ
تعدو إذا تَلَعَ النهارُ كما قطعَ الجفاجفَ خاضبٌ هِقْلُ
حَمِشُ المَشاشِ عَفارُهُ لُمَعٌ قَردٌ كأن جرانَهُ حَبْلُ
وكأنما بمَخَطٍّ مَنْسِمِهِ مِنْ خَلْفِهِ مَن خُفّهِ نَعْلُ
تهدي الركابَ إذا الركابُ عَلَتْ مَوْراً كأنَّ جديدَهُ سَحْلُ(٢)

فعنصر السرعة في هذه الصورة هو الذي يحتل المكانة البارزة فيها، فالشاعر يؤثر أن يشبه ناقته بظليم أكل الربيع، فهو خاضب وهو "حمس المشاش" أي دقيق الساقين، وذلك أدعى لتميزه بالسرعة عما سواه، والشاعر تشغله سرعة ناقته عن قوتها، وصلابتها وشدتها، تلك الصفات التي ظهرت بارزة في الصورة الأولى، وربما كان ذلك راجعاً لعامل نفسي أيضاً، أو أن الشاعر في هذه القصيدة ومنذ بدايتها يرى أنه هو الذي صرم المحبوبة، ولم ينتظر حتى تبادره هي بالصرم، ويتجلى ذلك في

١ـ ديوان عمرو بن شأس ص ٢٨.
٢ـ المصدر السابق ص ٣٤.

قوله:

اللهـــمَّ ربَّ النـــاسِ إن كذبـــتْ ... ليلـــى فَعُـــرٌّ بثديهـــا تُكْـــلُ
إنـــي صرمتُهُـــمُ ومـــا صرمـــوُا ... لا بـــل بِكُـــلِّ إخـــائِهِمْ دَخْـــلُ(١)

وما دام الشاعر هو الذي بادر بصرم الأحبة، وما دام هو الذي يريد ذلك، فما أحوجه حينئذ إلى ناقة غاية في السرعة حتى تكفل له الابتعاد عن مكان يجمعه بهذه المحبوبة التي عانى من إخلافها وكذبها.

إذن فحرص الشاعر على تجسيد عنصر السرعة في صورته الفنية هذه راجع إلى خيط نفسي يربطه بمشاعره وأحاسيسه، وهكذا كانت صورة الناقة عند عمرو بن شأس كما كانت عند غيره من شعراء بني أسد ـ بخاصة ـ وشعراء الجاهلية بعامة ـ كانت ـ تعبيراً عن اللحظة الشعورية التي يجتازها الشاعر، كما كانت تجسيداً لمشاعر وأحاسيس تعتمل بنفس الشاعر، وتجول بداخله فها هو ذا حاجب بن حبيب الأسدي قد علق بقلبه حب "جمل" فأعلنه بعد أن ضاقت نفسه ذرعاً بكتمانه وألح الواشون حتى تجنبها في ظاهر الأمر، ولكن قلبه كان على العهد بهما وفيا لها ضاغ إليها فهو يتمنى أن يصل إليها، فماذا عساه أن يفعل؟ انه لن يستطيع ذلك إلا إذا استعان بناقته السريعة، وها هو ذا يهرع إليها يحدوه الأمل في أن تبلغه ديار أحبته يقول حاجب:

أعلنـــتُ في حُـــبِ جُمْـــلٍ أيَّ إعـــلانِ ... وقـــد بـــدا شـــأنُها مِـــنْ بعـــدِ كِتْمـــانِ
وقـــد سـعى بيننـــا الواشـــونَ واختلفـــوا ... حتـــى تجنَّبتُهـــا مِـــنْ غـــيرِ هِجْـــرانِ
هـــل أبْلُغَنْهـــا بمِثْـــلِ الفَحْـــلِ ناجيـــةٍ ... عَنْـــسٍ عُذافَـــرةٍ بـــالرحْلِ مِذْعَـــانِ
كأنهـــا واضـــحُ الأقـــرابِ حـــلأَهُ ... عـــن مـــاءِ مـــا وانَ رام بعـــد إمكـــانِ
فجـــالَ هـــافٍ كسُـــفودِ الجديـــدِ لَـــهُ ... وَسْـــطَ الأمـــاعزِ مـــن نقـــعٍ جنابيـــانِ
تهـــوى ســـنابكَ رجليـــهِ مخبَّئـــةً ... في مُنْكَـــرِهِ مـــن صفيـــحِ القُـــفِّ كَـــذّانَ
ينتـــابُ مـــاءَ قُطَيّـــاتِ فأخْلَفَـــهُ ... وكـــانَ مـــوردُهُ مـــاءً بحـــورانَ
تظـــلُّ فيـــه نَبَـــاتُ المـــاءِ أنجيـــةً ... كـــأنَ أعينهَـــا أشـــباهُ خيـــلانَ
فلـــم يَهُلْـــهُ ولكـــنْ خـــاضَ غَمْرَتَـــهُ ... يَشْـــفِي الغليـــلَ بِعَـــذْبِ غـــيرِ مِـــدّانِ(٢)

إن صورة الناقة في هذه اللوحة تبدو نابعة من داخل النفس الشاعرة مستمدة خطوطها من خلجات صدر الشاعر، وقد عكست لنا ما كان يعتمل في نفسه، وجاءت معبرة عن محنته المتمثلة بحبه "لجمل" وبعدها عنه لكف ألسنة الوشاة الذين لهجوا بذكر الشاعر وحبيبته مما اضطر الشاعر أيضاً للتظاهر بالنسيان، والخضوع لمشيئة المجتمع ومجاراته إذ لا يليق بسيد فارس أن يتجاوز الأعراف، والتقاليد البدوية في مثل هذه الأحوال، فهو ليس بصعلوك من الصعاليك، ولا هو بالغر الحديث التجربة حتى يضرب بأقوال ذويه عرض الحائط.

وبقي الأمل يراوده في وصال جمل، ويظهر أنه لم يجد من سبيل إلى ذلك الوصال إلا ناقته، فيعقد

---

١ـ ديوان عمرو بن شأس ص ٣٣.

٢ـ انظر المفضليات تحقيق شاكر وهارون ص: ٣٧٠ مفضلية ١١١.

عليها أمله، وينيط بها رجاءه فيأخذ في الحديث عنها مبيناً ما تتمتع به من صفات، ويبدو لنا أن الشاعر قد ضمن حديثه عن الناقة حديثاً آخر نابعاً من قلبه المحزون لفراق أحبته، ونحس من خلاله بطعم المرارة التي تجرعها الشاعر وبأبعاد التشتت، والتشرد، اللذين عاشهما الشاعر، فناقته قوية كالفحل، عنس، عذافرة، مذعان، ناجية، وهذه الصفات كافية لإقناعنا بقوة هذه الناقة وصلابتها ويشبهها الشاعر بحمار وحشي شديد نال منه الظمأ، فطلب مورد الماء بما وان، ولكن وجود رام متربص له هناك حال بينه وبين ذلك المورد، فعاد أدراجه ليبحث عن مورد جديد وسط تلك الأرض الصلبة، وهو بذلك يثير الغبار بحوافره، ويصل بعد مجاهدة ونصب إلى ماء "قطيات" مؤملاً بوجود الماء، وسرعان ما يخيب ظنه، ويتبدد أمله مرة أخرى، فقد جف الماء في هذا المورد، وهذا يعني بداية رحلة جديدة إلى مورد آخر، وقد اختاره الشاعر هذه المرة في "حوران" ومن الطبيعي أن تترتب على هذه الحال رحلة أخرى، وشقاء سفر جديد، ومجابهة أخطار هذه الصحراء مرة ثانية، ثم يصل الثور إلى مبتغاه، ويروي ظمأه من ذلك النبع الحوراني حيث نشعر بتغير يعتري لغة الشاعر، وهو يصور لنا ذلك النبع حيث الطيور، والأسمال المائية ناعمة بالأمن، والاستقرار، والري، يناجي بعضها بعضاً، وكأن الشاعر يصور الأشياء التي حرم منها.

والملاحظ أن الصورة - هنا - تسيطر عليها ظلال من القلق. وتكتنفها أطياف الحيرة، والضياع، التي نحسها من خلال حديث الشاعر ولغته، فالثور لا يستقر به مكان، فهو في تنقل شبه دائم بحثاً عن الماء والأمان، فمن "ماوان" إلى "قطيات" إلى "حوران" كأن الشاعر يجسد رحلته وبحثه هو عن هذه الأشياء بالإضافة إلى أحبته الراحلين، ولعل الشاعر قد رمز بالصياد إلى ملاحقة الواشين به، والذين كانوا سبباً مباشراً في هذا التشرد الذي حل بالشاعر وأحبته.

ويبدو لنا من خلال هذه الصورة الفنية ذلك الخيط النفسي الذي يربط بين صورة الناقة وبين ما بداخل الشاعر من أحاسيس، فوصف الناقة لم يأت مجرداً من المشاعر، أو خالياً من الأبعاد والأحاسيس، بل ضمنه الشاعر فيضاً من المعاني التي كان يعتمل بها صدره مما أضفى على نسيج الصورة ظلالاً موحية، وألواناً زاهية شد بها انتباهنا، وأثار إعجابنا، وجعلنا يفش القضية التي عاناها ذلك الإنسان الجاهلي.

ونجد الشاعر الأسدي سحيم عبد بني الحسحاس يرسم لنا صورة لناقته لا تقل هي الأخرى في تشكيلها ونسيجها عن بقية الصور الفنية لهذه الناقة في شعر هذه القبيلة. فعبد بني الحسحاس، وان كان هناك من فروق في أبعاد الصورة لديه فان ذلك عائد إلى نفسية الشاعر أولاً، ثم تبعية موقف سحيم بوصفه عبداً رقيقاً، وهو أقرب إلى الناقة من غيره، وها هو ذا يرسم لوحة ناقته بعد أن فرغ من حديثه عن عميرة وصاحباتها اللواتي لهون معه حيناً، وتحدثن إليه، فقاده وهمه إلى تفسير ذلك كله، على أنه حب وكلف به، وقد غاب عن ذهنه في تلك اللحظات أنه مجرد عبد رقيق، ولا يمكن أن ينظر إليه بأكثر من هذا المنظار من قبل بنات أسياده، وأرباب نعمته، فنراه يثوب إلى رشده منذ اللحظة الأولى من التفاتته نحو ناقته التي قد يجد فيها عزاء لنفسه الكسيرة إذ يقول:

فَعَزَّيْتُ نفسي واجتنبتُ غِوايَتي ... وَقَرَّبْتُ حُرجوجَ العشيةِ ناجيا
مروحاً إذا صامَ النهارُ كأنما ... كَسَوْتُ قُتودي ناصعَ اللوْنِ طاويا
شبوباً تحاماهُ الكِلابُ تَحامِياً ... هو الليثُ مَعْدُوّاً عليه وعاديا
حمته العشاءَ ليلةٌ ذاتُ قِرَّةٍ ... بوعساءِ رملٍ أو بحزنانَ خاليا
يُثيرُ ويُبدي عن عروقٍ كأنها ... أعنةُ خرازٍ جديداً وباليا

يُنَحِّي تُراباً عن مَبيتٍ ومِكْنَسٍ رُكاماً كبيتِ الصيدنانيِّ دانيا
فصبَّحَهُ الرامِي من الغَوْثِ غدوةً بأكلبهِ يُغْري الكِلابَ الضواريا
فجالَ على وحشيِّهِ وتخالُه على متنهِ سِبّاً جديداً يمانيا
يَذودُ زِيادَ الخامِساتِ وَقَدْ بَدَتْ سوابقُها مِنَ الكِلابَ غَواشِيا(١)

إن هذه الصورة لتفصح منذ اللحظة الأولى عن نفسية سحيم الذي اختار لها من الألفاظ، والعبارات، ما يدلل به على تلك الحالة التي يمكن أن نطلق عليها "حالة الانكفاء على الذات" ـ إن صح التعبير ـ "فغريت نفسي" "اجتنب غوايتي" تعبيران يحملان من الدلالات ما يكفي لصحة ما نذهب إليه، فقد أفاق الشاعر من سباته بعد أن تأكد له عبث عميرة وصاحباتها به، سخريتهن منه بعد أن كان يمني نفسه الأماني، فالتجأ إلى ناقته لجوء الرجل الجريح المنكسرة نفسه، وفي الوقت ذاته المقر بوضعه الحقيقي، ولذلك جاءت ألفاظه ترجماناً أميناً لما بداخله من أحاسيس، وقد بدا لنا حرص الشاعر على أن يزود صورته بكل مقومات القوة، والشدة، والصلابة، فناقته تشبه ثوراً شبوباً تتحاماه كلاب الصيد تحامياً، وترهب جانبه لمنعته التي تماثل منعة الليث ذاته الذي لا تنتفي عنه المهابة حتى وان تعرض لعدوان عليه، والواقع أن سحيماً أجاد في تصوير هذه الجزئية إلى حد بعيد، فقد جاء استخدامه للمفعول المطلق تأكيداً لقوة ومنعة ذلك الثور، وهو لم يكتف لهذا بل ساق لنا بواقعية لا تخفى ما يدلل على هذه القوة، فقال "هو الليث معدوا عليه وعادياً" لأن سحيماً يعلم أن الإنسان مهما بلغت به القوة ـ وكذلك بقية المخلوقات ـ فلن يبلغ حد الإعجاز، وهناك من هو أقوى، وأعتى، وعلى ذلك فالمخلوقات كلها في صراع فإما غالبة أو مغلوبة، وقد جاء الطباق بين معدو وعاد على غاية من القيمة الإيحائية في تصوير حقيقة هذا الصراع واحتمالات الغلبة أو الهزيمة فيه.

ثم يسوق لنا بقية القصة من تعرض الثور لظروف صعبة من جانب الطبيعة من حوله، وكذلك من جانب الرامي وكلابه الضاربة، ويبالغ في وصف حالة الثور في كفاحه ضد هذه القوى، وقد أظهر لنا صموده في مواجهة أعدائه ذائداً عن نفسه، ودافعاً عنها الخطر الداهم الذي يتهدده.

وتنتهي الصورة عند سحيم عند هذا الحد، وهو ذكر المواجهة بين الثور وأعدائه دون أن يفصح لنا ـ كالمعتاد ـ عن النتيجة لهذا الصراع في مثل هذه الحالة، فانتصار الثور على كلاب الصيد لم يكن حاسماً في هذه الصورة، ولم نشعر بتلك النشوة التي شعرنا بها عند غيره من شعراء هذه القبيلة، فموقف الدفاع أظهر من موقف الهجوم والانتصار، ولعل هذا ينسجم مع موقفه النفسي فقد بدأ الحديث عن عميرة وصاحباتها اللواتي أشعرنه بهوان قدره، وليس من الغريب أن نرى سحيماً يتخذ موقف المدافع عن كرامته هنا ولذا رأيناه عازفاً عن التغني بانتصار هذا الثور، ورسم صورته بزهو كما تعودنا من الشعراء الأسديين وغيرهم في مثل هذا الموقف، لأنهم ـ في الغالب ـ كانوا يعدون انتصار الثور يمثل انتصاراً لهم في حقيقة الأمر.

والواقع أن صورة سحيم لم تخل من الأبعاد النفسية للشاعر، فقد لونها وظللها بألوان نابعة من نفسه الكسيرة أفصحت عنها تلك العبارات والألفاظ منذ البداية، وقد تعاضدت مع باقي مقومات

---

١ـ انظر ديوان سحيم ص ٢٨ ـ ٣٠.

العمل الفني الأخرى في إظهار هذا الجانب أو ذاك من شخصية الشاعر التي لم تكن تملك ذاتها.



## العناصر الفنية في صورة الناقة:

ونستطيع القول في نهاية حديثنا عن صورة الناقة: إن عناصر هذه الصورة الفنية العريضة كما بدت لنا عند شعراء هذه القبيلة وهي تتلخص في رمزية هذه الصورة إلى أشياء متعددة، وقضايا كانت تعتمل بها نفس الشاعر الجاهلي بعامة والأسدي بخاصة، وقد رأينا كيف كان الشاعر يتخلص من الوقوف على الطلل الذي يحمل أبعاداً كثيمة حزينة في غالبيتها إلى صورة الناقة لينطلق من جديد في رحاب الحياة متخذاً من الناقة معبراً لتلك الآفاق الجديدة التي غالباً ما يبدؤها الشعراء بحديث القوة، والتصميم، على المضي قدماً في الطريق المقصود.

والواقع أن شعراء هذه القبيلة لم يطلوا في حديثهم عن الناقة إلا في النادر - كما نرى عند طرفة مثلاً - بل كانوا يتخذون منها وسيلة لتصوير حيوانات أخرى شأنهم في ذلك شأن أغلب الجاهليين، وقد تعرضنا للحديث عن تلك الحيوانات في أثناء حديثنا عن بناء القصيدة، وبالتالي فان تلك الأبعاد والمضامين التي حملها حديث الشاعر وتصويره لم تكن محمولة على الناقة لذاتها بل على تلك الحيوانات الأخرى كالثور الوحشي، والحمار الوحشي، والعقاب، وغير ذلك، وهنا تمثل الناقة جزءاً من الصورة الفنية من مجموعة عناصر أخرى، وكان الشاعر الأسدي - كغيره من الشعراء - يلجأ إلى التعبير عن ذلك كله إلى اللغة أولاً، فينتخب منها ما يلائم الحالة والوضع المناسب، ويستعملها استعمالاً خاصاً سواء أكان ذلك بالمجاز، المعروف أم بالتكرار لبعض الألفاظ، والحروف، والعبارات، - كما رأينا في بناء القصيدة - التي تعطي التعبير شحنة قوية، وتكسبه دلالات خاصة، وكان في ذلك كله يربط بين جزئيات صورته ربطاً لا يخلو من تواؤم واتساق، يقول الدكتور نوري القيسي: "ومن هذه الصور نستطيع أن نؤكد أن الشعراء كانوا يقلدون في أوصافهم نماذج شعرية، سابقة، ويسلكون في تتبعهم لحركات هذه الصورة وألوانها طرقاً عرفوها، وسمعوها، وحاولوا أن يترسموا خطوات من سبقهم من الشعراء في هذا المضمار، لم يستطيعوا أن يخرجوا عن هذه الحدود إلا بما سمحت لهم قدرتهم على التعبير ومهارتهم في استخدام الصور التي اهتدوا إليها، وحذقهم في اختيار الألفاظ والمعاني الملائمة للجو الشعري الذي يريدون التعبير عنه"[١] ومهما يكن من أمر التقليد في هذه الصورة إلا أنه يبقى العامل الفردي قائماً والتمايز بين الشعراء ظاهراً في هذا المجال الذي اتخذ منه الشاعر الجاهلي سبيلاً للإفصاح عن مشكلات حياته، ووجوده، وصراعه مع بقية القوى في تلك البيئة من حوله، يقول الدكتور عز الدين إسماعيل: "إن الرغبة الملحة على الإنسان هي رغبة الوجود، وكل مغامرات الإنسان ليست إلا طريقاً لتحقيق وجوده ومن ثم لإدراك معنى هذا الوجود، وقد أخذت هذه المغامرات أشكالاً مختلفة كالبحث عن الحقيقة، أو تفهم ما في النفس، وبصورة عامة علاقة الإنسان بالكون"[٢].

والحق أن القارئ للشعر الجاهلي - بعامة - ليشعر أن وراء هذه الصورة بعض الأبعاد والمضامين

---

١- انظر الطبيعة: الشعر الجاهلي للدكتور نوري القيس ص ١٤٢.

٢- انظر الشعر العربي المعاصر ص ١٩٦ - ١٩٧.

التي قد تخفى على القارئ من القراءة الأولى ذلك لأن التصوير لهذا الحيوان لم يكن المراد منه التصوير العادي، بل كان يهدف إلى أن ينقلنا إلى عالم آخر أبعد ـ وقد فعل ـ معنوي قد لا يحسه الإنسان العادي لأول وهلة فعبيد بن الأبرص ـ مثلاً ـ عندما صور لنا "العقاب" في معرض حديثه عن ناقته وفرسه لم يكن يقصد إلى التصوير العادي لهذه العقاب، وإنما يخيل إلينا أنها كانت رمزاً لصراع الحياة والموت، وهي صورة تتصل بالقدر وانقضاضه على الأحياء، فالشاعر كهذه العقاب يخضع لمشيئة القضاء والقدر، وهو لا بد من أن يواجه ما تواجهه هذه العقاب، أو تلك الفريسة، ولعلها سنة الكون فالعقاب إن لم تطرح هذه الفريسة، وتنعم بها ربما قتلت جوعاً في تلك البيئة، ولذلك فهي تطلب الحياة من خلال موت الآخرين، والفريسة لا تريد الموت، ولذلك يبدو عليها الرعب الشديد، فتحاول الهرب بشتى الطرق، ولكن بدون جدوى، فالنصر في مثل هذه المواجهة للأقوى، يقول عبيد:

| | |
|---|---|
| فأبصرتْ ثعلباً من ساعةٍ | ودونه سبسب جديبُ |
| فنفضت ريشها وانتفضت | وهي من نهضة قريبُ |
| فاشتال وارتاع من حسيسها | وفعلهُ يفعلَ المذْؤوبُ |
| فنهضتْ نحوَهُ حثيثةً | وحردتْ حردةً تسُيبُ |
| فدبَّ من رأيها دبيباً | والعينُ حِمْلاقُها مَقْلوبُ |
| فأدركتْهُ فطَرحَتْهُ | والصيدُ من تحتها مَكْروَبُ |
| فرنَّحتْهُ ووضعتْهُ | فكدَّحتْ وجهَهُ الجَبُوبُ |
| فعاودتْهُ فرفعتْهُ | فأرسلتْهُ وهو مَكْروُبُ |
| يضغو ومخلبُها في دفِّهِ | لا بدَّ حيزومُهُ مَنْقوبُ[1] |

والواقع أن الشاعر أبدع في وصف حالة الفريسة، وهي تعاني سكرات الموت بعد أن أيقنت بالهزيمة، كما أبدع في تصوير العقاب الجارحة المترقبة الجائعة، ولعل استخدام الشاعر للغة هنا يأتي في المقام الأول في كشف العلاقات وإعطاء الدلالات المؤكدة على هذه الحالة، فنفضت ريشها، وانتفضت، ثم هذه الفاءات المتتابعة التي جاء بها الشاعر على هذا النحو، ربما أوحت لنا بهذه السرعة الخاطفة بين الفعل والفعل، وكأن ما حدث قد حدث في ثوان معدودات، "فاشتال ـ فنهضت ـ فدب ـ فأدركته ـ فرنحته ـ فعاودته ـ فرفعته ـ فأرسلته" إن بروز عنصر اللغة ـ هنا ـ قد أسهم إلى حد كبير في جلاء جوانب الصورة، وكذلك استعانة الشاعر باسم المفعول في تصوير هيئة الفريسة "مقلوب ـ مكروب ـ منقوب" وبذلك كانت اللغة ملتحمة مع باقي الأجزاء في تكوين هذه الصورة في تكوين هذه الصورة الفنية وإثرائها وكشفت لنا مدى مقدرة الشاعر الفنية على التصوير.

والحق ان الشاعر الجاهلي ـ على وجه العموم ـ استعان بكل الوسائل الفنية الممكنة، أو التي استطاع الوصول والاعتداء إليها في تصويره الفني، وبخاصة في أثناء حديثه عن الناقة التي لسنا بحاجة إلى الحديث عن أهميتها وخطورة دورها في حياته، ويمكن القول بإيجاز شديد: لا حياة في الصحراء بدون ناقة في ذلك الوقت.

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ١٩ ـ ٢٠.

وللوقوف على عناصر وأبعاد هذه الصورة الفنية لا بد لنا من أن نبحث عما قبلها، وعما بعدها، لنحدد موقعها من القصيدة الجاهلية، ومن ثم ندرك بعض ما لهذا من دلالات، وقد سبق الحديث عن ارتباط الطلل بكل ما يحمله من مشاعر الحزن والكآبة والضعف بالناقة التي يتحول فيها موقف الشاعر إلى موقف قوي هو أشبه ما يكون برد فعل منه على مظاهر الخراب التي رآها في الأطلال، ولاحظنا ـ في بناء القصيدة ـ أن استخدام عنصر اللغة هنا جاء معبراً عن هذا الوضع تماماً، وأن الألفاظ والعبارات التي استعملها الشاعر كي يخرج من خرائب الطلل إلى رحاب جديدة كانت تمثل ـ ولو أنها لا تدل على الاستفهام الصريح ـ القلق والشك والحيرة من مثل: "فدع ذا" "فعد عن كذا" و "اقطع لبانتهم هل تسلينك" "هل تبلغنيهم" أفلا تناس" وهنا نرى الشاعر الجاهلي بعامة والأسدي كذلك يجنح إلى تصوير الناقة بالقوة الخارقة ـ أحياناً ـ مما يشكل عنصراً جديداً من عناصر الصورة، ويعطيها بعداً آخر من أبعادها، فهذا القلق لا يبدده إلا الثقة الكاملة في هذه الناقة القادرة على السير والنجاء، والوصول بهذا الشاعر إلى حيث يريد، وقد سلك الشاعر الأسدي في هذا التصوير أكثر من سبيل فعبيد يجعلها كالحصن المنيع إذ يقول:

أَفَـلاَ تنـاسَ حُبَّهـا بِجُلاَلَـةٍ وجنـاءَ كـالأَجَمِ المَطـينِ وَلُـوسِ[1]

والشاعر يلجأ إلى تكرار حروف معينة في الصورة مما أعطانا إيحاء معيناً عن قوة هذه الناقة العظيمة، ويلجأ شاعر أسدي أخر إلى مظهر آخر من مظاهر القوة ليضفيه على صورته لها، ولم يجد أقوى من الصخر يقول عمرو بن شأس:

وَخَرْقٍ يخـافُ الركـبُ أَنْ ينطقُـوا بِـهُ قطعـتُ بِفَتْـلاءِ الذراعـينِ عِرْمِـسِ[2]

وإذا كان الصخر يمثل قوة فعلية بالنسبة إلى الإنسان بعامة فهو أدعى أن يمثلها عند ساكن الصحراء الرملية بصورة أشد، ويلجأ بشر إلى المظهر ذاته فيقول:

فقمـتُ إلى مقذوفـةٍ بجنينِهَـا عُذافِـرَةٍ كـالفحلِ وَجْنـاءَ عِرْمِـسِ[3]

ويتلمس الكميت بن معروف لناقته مظهراً من مظاهر القوة فلا يجد إلا القدوم والفأس يفيان بهذا الغرض فيقول:

تُنِيـفُ بـرأسٍ في الزمـامِ كأنَّـهُ قَـدومُ فُـؤوسٍ مـاجَ فيهـا نِصَابُهـا[4]

إن عنصر القوة في صورة الناقة، وما اختار له الشعراء الأسديون من ألفاظ وعبارات ليحمل في طياته خوف هؤلاء الشعراء من ارتياد الصحراء، ويعكس رغبتهم في الارتفاع فوق مظاهر الضعف أمام قوى الطبيعة الأخرى.

---

١ـ النظر ديوان عبيد ص ٦٨.
٢ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٦٦.
٣ـ انظر ديوان بشر ص ١٠٠.
٤ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.

وربما نعثر على عنصر آخر عند شعراء هـذه القبيلـة يجلو لنا هـذه الصـورة الفنيـة بالإضافـة إلى عنصري اللغة، والقوة، وهو عنصر الخصب والنماء، فقـد رأينـا بعـض شعـرائهم يربـط بـين مظـاهر الخصب، وبين ناقته هذه، ومن ذلك ما قاله الشاعر الأسدي بشر بن أبي خازم:

كـأن علـى أنسـائِها عِـذْقُ خَصْبَـةٍ ... تَـدَلَّى مِـنَ الكـافورِ غَـيْرِ مُكَمَّـمِ(١)

ولعلنا نتلمس بعداً آخر في الصورة التي أوردها بشر يعكس لنا مدى حاجة هذا الإنسان إلى المـاء في ذلك الجفاف والإقفار، فإذا ما أضفنا حب العربي لهذهٌ الشجرة العريقة، ومـا تمثلـه لـه مـن الخير عرفنا ما يرمي إليه بشر من صورته هذه.

ولعل في قول عمرو بن شأس دليلاً لا يقبل المجادلة أو الشك في هـذا العنصـر الـذي يفصـح عـن مدى شوق العربي إلى الماء بوصفه يمثل أقوى مظاهر الخصب إذ يقول:

وَخَـرْقٍ كَـأَهْدامِ العَبَـاءِ قطعتُـهُ ... بَعيـدِ النِّيـاطِ بـين قُـفٍّ وَأَرْمُـلِ
بناجيـةٍ وجنـاءَ تسـتلبُ القطـا ... أفاحيصُـهُ زَجْـرى إذا التفتْـت حِلِـى
إذا صَـدَرَتْ عَـنْ مَنُهـلٍ بَعْـدَ مَنْهَـلٍ ... إلى مَنْهَـلٍ تَـردي بـأسمرَ مُعْسَـلِ(٢)

إن ورود كلمة "منهل ثلاث مرات في بيت واحد" أمرله دلالتـه العميقـة وبخاصـة في مثـل هـذه الحالة التي يكون الإنسان فيها في أشد حاجته إلى المـاء أحـد أسس الحيـاة برمتهـا إن التكـرار لهـذه الكلمة لم يكن عبثاً من الشاعر، وإنما قصد إليه قصداً ليبـين بعـض مـا في نفسـه الظامئـة مـن جهـة، وليربط بين هذا العنصر وبين ناقته التي ترمز بدورها إلى الوصول إلى هذه الحياة، وقد سبق الحديث عن عنصر الصحراء الذي أشركه الشاعر في هذه الصورة ليبرز فنية عالية في تصويره لناقته، ويكسبها دلالة معينة قصد إليها شعراء بين أسـد جميعـاً مـن خلـف مبـالغتهم في رسم صـورة هـذه الصحـراء المهلكة.

وهكذا نجد أن شعراء بني أسد ـ كغيرهم من شعراء الجاهلية ـ قد رسموا صورة الناقة بفنيـة عاليـة وضمنوها أبعاداً معينة، ولونوها بعدد من العناصر الفنية اللازمة كي يبرزوها واضحة جليـة في ذلـك العصر الجاهلي البعيد فكانوا مصورين بارعين حقاً.

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ١٩٦.
٢ـ انظر ديوان شعر عمرو بن شأس ص ٤٣، ٤٤.

## صورة الأطلال وأبعادها وعناصرها:

لا شك في أن وقفة الشاعر الجاهلي على الأطلال في بدايات قصائده لم يكن عبثاً، وكذلك لم يكن ذكره لتلك الأماكن الخربة خالياً من الأبعاد والمضامين الإنسانية، إن هذه الوقفة تشكل تجسيداً لحياة ماضية بأكملها، وان هذا البكاء هو بالدرجة الأولى بكاء على جزء من العمر قد تولى ولن يعود، ويمكن أن نفسر تعداد الشاعر لهذه الأماكن بأنه محاولة يائسة من الشعراء لإقناع أنفسهم بإمكانية رجوع ما فات ولو على سبيل الذكريات، وهو في الوقت ذاته يعبر عن مدى الحب الذي يكنه الشعراء لساكني هذه الأماكن في يوم من الأيام، وان حرص الشعراء على بقاء الأطلال صامدة أمام قوى الطبيعة التي تعاورت عليها هو أسلوب رفض من الشاعر بالتسليم والهزيمة.

وعلى أية حال فان صورة الطلل تبدو ـ عند شعراء بني أسد ـ حزينة في ألوانها وخطوطها، وهي كذلك عند الشعراء الجاهليين الآخرين، وهي صورة تتداخل خيوط الكآبة فيها بخيوط الذكريات المؤلمة القاسية إلى حد بعيد، ومن هنا جاء نسيج الصورة عند هؤلاء الشعراء بكل عناصره يدل على جو معين من الهموم الكثيرة المتلاحقة التي ألمت بنفس الشاعر الجاهلي التي نراها ضعيفة عاجزة في هذه الصورة، وقد انعكس ذلك كله على العناصر المكونة لهذه اللوحة فجاءت معبرة عن هذه الحالة بلغتها وألفاظها، وتراكيبها، ودلالاتها، يقول عبيد بن الأبرص:

لَيسَ رَسْمٌ على الدفينِ ببالٍ ... فَلِوى ذِرْوَةٍ فجنبَيْ أُثَالِ
فالمَرْوَراةُ فالصحيفةُ قَفْرٌ ... كُلُّ وادٍ وروضةٍ مِحْلالِ
دارُ حيٍّ أصابَهَمْ سالفُ الدَّهْـ ... ـرِ فأضحتْ ديارَهَمْ كالخِلالِ
مقفراتٍ إلاَ رَماداً غبيّاً ... وبقايا من دِمْنَةِ الأطلالِ
وأوارِيَّ قَدْ عَفَوْنَ وَنُؤْياً ... وَرَسُوماً عُرِّينَ مُذْ أَحْوالِ
بُدِّلَتْ منهُمُ الديارُ نَعاماً ... خاضباتٍ يُزجينَ خَيْطَ الرِّئَالِ
وظباءً كأنهنَّ أباريـ ... ـقُ لُجَيْنٍ تَحْدوُ عَلَى الأَطْفَالِ(١)

إن عبيداً يصور ديار الأحبة، وما أصابها بفعل الزمن والطبيعة، ويتجاوز ذلك إلى تصوير الأثر الذي أحدثته عوامل الطبيعة، وتضافرت عليه مع قوى أخرى في تلك الربوع العزيزة.

والواقع أن تصوير مثل هذه اللحظات عند الشاعر الجاهلي كان يشكل موقفاً من أصعب المواقف، وأشقها على نفسه، وذلك لأنه يمس دخيلة نفسه، وجوهر وجوده، ويعكس لنا الصراع الدائم بين الإنسان وبين الطبيعة هذا الصراع الذي يشكل كثيراً من سلوك الأفراد في عواطفهم وتصرفاتهم وبخاصة عندما تكون الطبيعة شحيحة قاسية كتلك التي عاش في ظلها الإنسان الجاهلي.

ولكل هذا فقد تفنن الشعراء الجاهليون ـ عموماً ـ وكذلك الأسديون في رسم هذه الصورة،

---

١ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٠٥، ١٠٦.

وأفاضوا في تأملاتهم أمام هذا الطلل، وكانت نفوسهم تفيض ألماً وحسرة وبؤساً، ويعد عبيد بن الأبرص الأسدي من أقدم شعراء هذه القبيلة بل من الرعيل الأول من الشعراء الجاهليين الذين وصلت إلينا أشعارهم، ولذا فانه يعد من أوائل الشعراء الذين ارسوا هذه المقدمة الطللية لمن جاء بعدهم - إن صح التعبير - والحق أن هذا الشاعر الأسدي لم تكن صورة الأطلال عنده مرتبطة بالمرأة، بل سنراها تبتعد عنها في كثير من الأحيان على الرغم من أن المرأة تشكل عنصراً هاماً من عناصر الصورة في الطلل.

إن صورة الطلل - هنا - صورة أصيلة نابعة من وجدان الشاعر، وهو فيها شاهد على الفناء والحياة في آن واحد، فعبيد في هذه اللوحة يقف موقف المصور الذي يجرد نفسه، ولا يقحمها في أتون ذلك الصراع المرير بين الطلل وعوامل الطبيعة، فهو في البيت الأول من هذه الصورة يعدد لنا الأمكنة التي عرفها الشاعر ذات يوم آهلة عامرة بأهلها، ثم ما لبثت أن استحالت إلى بقايا متناثرة هنا وهناك، وهي في ذلك التشتت والتبعثر شبيهة بالنقوش البالية على غمد سيف هندواني، ويظل الشاعر متابعاً صورته ليبين لنا ما حل بتلك الديار المنكوبة، وليستكمل عناصرها الدالة على الفناء والعفاء، فالرمح مقفر إلا من بقايا رماد ثم ينظر الشاعر إلى محبس الإبل فيراه هو الآخر قد امتدت إليه يد الزمن فتهدم وانهالت عليه الرمال، وتعاقبت عليه الأحوال التي لا يعلم عددها، ثم يجيل الشاعر بصره في المكان فتقع عينه على جماعات من النعام الراتعة بين الأعشاب الخضراء مع صغارها، وبجانبها قطعان الغزلان والظباء الطويلة الأعناق تقضم العشب هي الأخرى، وتداعب صغارها فقد تكاثرت وتزاوجت، وهذا دليل الخصب والنماء وانبعاث الحياة من جديد.

إن عبيداً في هذه الصورة قد استطاع بقدرة الفنان أن يرسم لنا صورة الطلل واضحة المعالم بينة القسمات، وقد استطاع أن يبرز لنا من خلال صورته ذلك الفناء الذي أطبق على كل شيء والذي خيم على تلك الديار بكل قسوة وعنف، ولقد كان الشاعر بارعاً في هذا التصوير إلى حد بعيد ففي البيتين الأول والثاني أكثر من ذكر الأمكنة إمعاناً في واقعية الصورة، وقد عبر بكلمتي رسم وقفر عن وحشة تلك الديار في الزمن الحاضر، ثم قابل بين هاتين اللفظتين وبين كلمتي روضة، ومحلال، ليدلل على حال الديار في الزمن الماضي. وقد كان موفقاً في ذلك إلى حد بعيد، ثم يعود الشاعر في البيتين الثالث والرابع إلى ما بدأ به من تصوير حالة الديار مستعيناً هذه المرة بالمجاز فقد عمد إلى التشبيه، والاستعارة، لزيادة إظهار ما يريد إظهاره وتوضيح ما يبغي توضيحه، فالدهر قد فتك بأهل هذه الديار وحولها إلى ما يشبه النقوش البالية على غمد سيف فجاءت الصورتان تعبيراً عن قسوة الفعل وضراوة الفتك.

وقد استقى الشاعر تشبيهه من واقعه المعاش، وبيئته المحيطة به، لقد تفحص الشاعر كل ما في الديار من بقايا ودمن ورسوم ونؤى وأواري، حتى انه تلمس ذلك الرماد المختلط بالرمال فوصفه "بالغباء" وهي صورة استعارية فيها شيء من الغرابة فقلما وصف الرماد بهذه الصورة إلا أنها استعارة جميلة ولعلها تكشف لنا عما في داخل الشاعر الحزين من كآبة لما أصاب الديار من فناء وخراب، أما البيتان السادس والسابع فقد جاءت الصورة فيها مشرقة القسمات ترمز إلى تجدد الحياة في تلك الديار، وتعكس لنا أمل الشاعر في الخصب والنماء، بل أقول أكثر من هذا فان تغير موقف الشاعر من الديار هنا إنما يعكس تصميم الشاعر وإرادته القوية في المضي قدماً في مسيرة الحياة، وعدم الاستسلام لمظاهر الفناء مهما بلغ من عتوها وجبروتها وقد التقط الشاعر عناصر هذه الصورة المشرقة الجميلة من عالم الحيوان فالنعام يرعى ويمرح مع صغاره، وهو مخضر السيقان وهذه كناية

لطيفة من الشاعر عن خصب هذه الربوع مرة أخرى، وتجدد الحياة بها وعودتها إليها مرة ثانية، وكذلك الظباء فقد وجدت إلى جانب جماعات النعام متسعاً فسيحاً للرزق، فتزاوجت هي الأخرى وتكاثرت وقد صورها الشاعر وهي تشرئب بأعناقها التي تشبه أباريق الفضة وكأنه بهذه الصورة الحية يعزي نفسه الحزينة، ويفرج عن أساه لفقد أحبته. ذلك الأسى وتلك الكآبة التي نلمح معالمها منذ البيت الأول من هذه الصورة، "ليس رسم على الدفين ببال" وكأنه يريد أن يقول: "ليته قد بلى واندثر إذن لاسترحت" ولقد جاءت الصورة معبرة عن أثر الحزن في قلب الشاعر ووجدانه، بل لقد نقل إلى السامع هذا الشعور الكئيب الذي يتسرب إلى النفس بدون ضجة، أو عويل، أو دموع، وتلك سمة من سمات الصورة عند عبيد بن الأبرص فهو يستعيض عن البكاء برسم صورة للحزن تبكي القارئ، أو تشعره بجو جد حزين كما أحدثت هذا الأثر في جوارح الشاعر بصمت مما يجعلنا في مواجهة صورة فنية أبلغ في تصوير مثل هذا الجو، وان نظرة متأنية إلى ديوان هذا الشاعر لهي كاشفة لنا عن هذه الحقيقة(١).

وتكاد صورة الطلل تكرر نفسها عند عبيد، فهو لا يخرج بها عما اعتاده الجاهليون من أطر لرسم هذه الصورة وهي صورة من واقع حياة الشاعر الجاهلي، بل من أقرب وأكثر الصور اتحاداً بنفسه ومشاعره، فهو راحل مقيم على الدوام، وكانت خطوط هذه اللوحة الطللية بما فيها من أشكال المجاز وبما اختار لها الشاعر من تراكيب فنية معبرة منسوجة ضمن إطار في مألوف لدى أغلب شعراء الجاهلية، فالطلل كالكتاب المجدد، والديار كالخلال، أو كسحيق اليمنة البالي، وهي خلاء، أو هي كالصحيفة البالية المهترئة، وأما المجاز فقد جاء عند شاعرنا عبيد بسيطاً واضحاً لا تكلف فيه ينساب بين ثنايا قصيده دون قصد إليه سواء ذلك في تشبيهه أو استعاراته أو كناياته، وليس معنى هذا أن الشاعر لم يكن ليعمل فكره فيما يقول فلم يقل بذلك أحد، وإنما نريد أن نوضح أن ذلك لم يكن شغل الشاعر الذي يسعى إليه بإلحاح.

ومن صور الطلل عند عبيد هذه الصورة الفنية التي يقابل فيها بين حال الديار الخربة، وبين زهو عوامل الطبيعة بانتصارها على تلك الرسوم، وقد استقر الموقف لصالحها يقول عبيد:

أَمِنْ رُسُومٍ نؤْيُها ناحِلُ ... وَمِنْ دِيارٍ دَمْعُكَ الباسِلُ
قَدْ جَرَّتِ الرِّيحُ بِهِ ذَيْلَهَا ... عاماً وجَوْنٌ مُسْبِلٌ هاطِلُ
بَلْ ما بكاءُ الشيخِ في دِمنَةٍ ... وَقَدْ علاهُ الوَضَحُ الشامِلُ(٢)

إن الرسوم ناحلة قد برتها عوامل الطبيعة، وها هي ذي الريح تجر ذيولها تيهاً بما فعلته في هذه الديار، وكأنها تظهر قدرتها واقتدارها على خرابها، وتبتهج بانتصارها، ولعل الكناية ـ هنا ـ جاءت في مكانها المُناسب ـ في تعبير الشاعر عن حالة الطلل، وأكسبت الصورة إيحاءاً حاداً بمدى التدمير الذي لحق بهذا الطلل ولعلها وضحت لنا ذلك التعاطف الذي بدا من الشاعر تجاه هذه الديار ـ كما يخيل إلينا ـ ونتلمس بعض صور الطلل عند شعراء أسديين آخرين لنقف على مدى ما حملته هذه الصور من مضامين وأبعاد، وما عكسته لنا من حياة هؤلاء الشعراء والإنسان الجاهلي بعامة، ولندرك

---

١ـ انظر ديوان عبيد الصفحات: ١٠، ٢١، ٣٢، ٥٢، ٦٧، ٧٩، ٨٤، ١١٥.
٢ـ انظر ديوان عبيد ص ٩٧، ٩٨.

مدى ما أعد لهذه الصورة من عناصر فنية تتمثل في اللغة أولاً وغيرها من العناصر الأخرى التي تكون في مجموعها الصورة الفنية، يقول بشر بن أبي خازم:

أتعـرفُ مِـنْ هُنَيْـدَةَ رَسْـمَ دارٍ ... بخرجَـى ذَروةٍ فـإلى لِواهَـا
وَمِنْهَـا مَـنْزلٌ بـبُراق خَبْـتٍ ... عَفَـتْ حِقَبـاً وغيَّرهـا بلاهَـا
أربَّ علـى مغانيهـا مُلِـثٌّ ... هزيـمٌ وَدْقُـهُ حتـى عَفاهَـا
ومـا أشـجاكَ مِـنْ أطـلالِ هِنْـدٍ ... وَقَـدْ شَـطَّتْ لِطِيَّتِهـا نَواهَـا(١)

إن الشاعر وهو يصور عفاء الطلل، ويحدد المكان يبدأ بصيغة الاستفهام المعهودة "أتعرف" ثم يجيب بنفسه على تساؤله، ويتظاهر بعدم معرفة المدة التي مرت على عهده بهذه الديار غير أنه يحددها بكلمة "حقب" وهي تحتمل الكثرة على كل حال، بدليل أن التغيير الذي لحق بهذه الرسوم كان شديداً، ومظاهر البلى كانت ظاهرة عليها فهي عفت أولاً، ثم غيرها بلاها ثانياً.

ويشرك الشاعر عوامل الطبيعة في إلحاق الخراب، والدمار، لتلك الرسوم العزيزة على نفس شاعرنا ويستعين هنا بالفعل "أرب" لأنه يقوم بهذه المهمة، ويلوذ بالمشتقات فهذا المطر من الشدة والغزارة على درجة كبيرة انه مثل هزيم ودقة، وفي هذا دلالة واضحة على قوة فعله، ومما يوضح لنا معزة هذه الديار في نفس الشاعر استخدام كلمة "مغانيها" ليدلل بها على ما قضاه من أوقات هانئة فيها أيام كانت عامرة بأهلها.

والواقع أن بشر بن أبي خازم يكرر من استعماله لصيغة الاستفهام كثيراً في صورة الطلل فيقول في موضع أخر:

هَلْ للحليمِ عَلَى ما فاتَ مِنْ أسَفٍ ... أمْ هَلْ لِعَبْدٍ مَضَى في الدَّهرِ مِنْ خَلَفِ
ومـا تذكـرٌ مِنْ سَلْمَى وَقَدْ شَحَطَتْ ... في رسـم دارٍ ونـؤىٍ غَـيْرِ مُعْـتَرَفِ
جـادَتْ لَـهُ الدَّلْـوُ والشِـعْرىَ ونوْهُمـا ... بِكُـلِّ أَسْحَمَ دانِـي الـوَدْقِ مُرْتَجِـفِ(٢)

ويلاحظ على هذا الشاعر الأسدي استخدامه اللغوي لعدد من الألفاظ والعبارات من مثل: "لمن الديار، أي المنازل، أتعرف، أمن ليلى، آنية الغداة، أمن دمنة، أحق ما رأيت، أهمت منك، وذلك عند تصويره للطلل.

والناظر في شعر بشر الطللي سيجد أن هذا الشاعر يشدد على ذكر عوامل الطبيعة، وبخاصة الأمطار، والرياح، ويذكر فتكها بتلك الأطلال، وهو ما رأيناه عند عبيد وما سنراه عند عمرو بن شأس مما يجعلنا نؤكد هذا الاتجاه شعر الأسديين ولعل لموطنهم في شمالي الجزيرة العربية دخل في هذا الاتجاه حيث الأمطار تأتي غزيرة إن أتت، والرياح المتغيرة في تلك المنطقة أشد منها في غيرها من المناطق في شبه الجزيرة يقول عمرو بن شأس:

تَهَـادَتْ بِهَـا هُـوجُ الريـاحِ كأنَّمـا ... أَجَلْـنَ الـذي اسـتُودِعْنَ منهـا بِمُنْخُلِ

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ٢١٩.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ١٥٧ وانظر الصفحات ١٣٧، ١٧٧، ٦١، ١، ٢، ٩٩، ١٢٩.

منــازلُ يُبكــينَ الفتــى فكأنّمــا ... تَسُحُّ بِغَرْبَـيْ نـاضِحٍ فـوقَ جَـدولِ[١]

ويقول الكميت بن معروف:

حيِّيَــا بــالفُراتِ رسمــاً مُحيــلا ... أذهبَتْــهُ الريــاحُ إلا قليــلا

مــرةٌ تعْفيــه ريــحُ جَنــوبٍ ... ومِــراراً تَهُــبُّ ريحــاً شَــمولا[٢]

ويقول سحيم:

عفتْ مِنْ سُلَيْمى ذاتُ فِرْقٍ فَأَوْدُهَـا ... وأقفـرَ مِنْهـا بَعْـدَ سَـلْمَى جديدُهَـا

أربَّـتْ عليـهِ كُـلُّ هوجـاءَ مُعْصِـفٍ ... وأَسْـحَمَ دانٍ مُزْنُـهُ يسـتعيدُهَا[٣]

ويكرر بشر في تصويره للطلل هذا الأمر كثيراً فيقول:

عفاهــا كُــلُّ هَطَّــالٍ هَزيــمٍ ... يُشَـبِّهُ صوتُـهُ صـوتُ الـبَراعِ[٤]

ويقول:

لعبـتْ بهـا ريـحُ الصَبـا فتنكَّـرَتْ ... إلا بقيــةَ نُؤْيِهــا المُتَهَــدِّمِ[٥]

ويقول:

تعــيرتِ المنــازلُ بــالكَثيبِ ... وَعَفَّــى آيهــا نَسْــجُ الجَنــوبِ

منــازلُ مِــنْ ســليمى مقفــراتٍ ... عفاهــا كــلُّ هَطَّــالٍ سَــكوبِ[٦]

والحق أن بشراً أطال في تصويره للأطلال، فلا تكاد قصيدة من قصائده تخلو من وقفة طللية تطول أو تقصر، ولذلك فانه يعد من أكثر شعراء هذه القبيلة تصويراً لهذه اللوحة[٧] على حين نجد بقية الشعراء الأسديين أقل ذكراً ومما يسترعي الانتباه في هذه الصورة عند بشر أنه يقف أولاً بالطلل يسائله، ثم بعد ذلك يبكي، فالبكاء عنده في المرحلة الأخيرة من الصورة يقول:

غشـيتُ لليلـى بِشَـرْقٍ مُقامـا ... فهـاجَ لَـكَ الرسـمُ مِنْهـا سَـقامَا

بسَـقْطِ الكثيـبِ إلى عَسْـعَسٍ ... تخـالُ منـازلَ ليلـى وشـامَا

تَجَـرَّمَ مِـنْ عهـدِي بِهَـا ... سِـنونَ تعفّيـهِ عامـاً فَعَامـا

---

١ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٤٢.
٢ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.
٣ـ انظر ديوان سحيم ص ٤٩.
٤ـ انظر ديوان بشر ص ١٠٩.
٥ـ انظر ديوان بشر ص ١٧٨.
٦ـ انظر ديوان بشر ص ٢٠.
٧ـ انظر ديوان بشر الصفحات: ٦، ١٣، ٣١، ٤٩، ٦١، ١٦١، ١٢٩، ٢١٩، ١٥٧، ٩٩، ٨٠، ٢٠١، ١٨٦، ١٧٧، ١١، ٢٠، ١٠٩.

ذكرتُ بها الحَيَّ إذْ هُمْ بِها ... فأسْبَلَتِ العينُ مِنِّي سِجامًا[١]

مرة أخرى يحدد المكان، ويترك المدة الزمنية لنا نتصورها كما نشاء، ولكنها هذه المرة "سنون" وكانت في المرة السابقة الأطلال، وما آلت إليه يصل أولاً ثم استحضار الذكرى والحديث عن هيئة الأطلال، وما آلت إليه يصل كل ذلك بالشاعر إلى الذروة فلا يملك لدموعه دفعاً.

وربما وجدناه مرة يتماسك، أو يتظاهر بذلك فلا يبوح لنا بمسألة البكاء ولا يجود لها إذ يقول:

بانَ الخليطُ ولم يوُفُوا بما عَهِدَوا ... وزودوكَ اشتياقاً أيَّةً عَمَدُوا
شقتْ عليكَ نَواهُمْ حينَ رحلتِهِمْ ... فأنتَ في عَرَصَاتِ الدارِ تَقتَصِدُ
لما أنيختْ إليهمْ كلُّ آبِيَةٍ ... جُلْسٍ ونفضٌ عنها التامكُ القَردُ
كادتْ تَساقَطَ مني مُنَّةٌ أسفاً ... معاهدُ الحَيِّ والحُزْنُ الذي أَجِدُ[٢]

إن تجلد الشاعر هنا كان نتيجة لرؤيته حمول الأحبة وهي تزمع الرحيل وبالتالي فان عامل الحزن العميق كان أولى به من البكاء الذي لم يأت وقته المناسب بعد، ولعل هذا الموقف من الشاعر كان من مخافته للوم الآخرين له إن هم رأوه يبكي فالبكاء مظهر ضعف إنساني في مثل هذه الحالة لأنها ما زالت تعبر عن الزمن الحاضر الذي لا يختص بدموع الجاهلين مثل الزمن الماضي حيث نرى شاعراً أسدياً آخر لا يملك إلا أن يذرف دموعه. يقول الكميت بن معروف:

ألا حيِّياً بالتَّلِّ أطلالَ دمنةٍ ... وكيف تُحَيَّا المنزلاتُ البلاقِعُ
حَنَنْتَ غداةَ البينِ مِنْ لَوْعةِ الهَوى ... كما حَنَّ مقصورٌ لَهُ القيدُ نازِعُ
وظلَّتْ لعيني قَطْرَةٌ مرِحَتْ بها ... على الجَفْنِ حتى قَطْرَها متتابِعُ
وليس بناهِي الشوقِ عن ذي صبابةٍ ... تذكرُ إلْفاً أنْ تفيضَ المدامِعُ

ومثله فعل عمرو بن شأس حين قال:

متى تعرفِ العينانِ أطلالَ دمنةٍ ... لليلى أعلى ذي معاركَ تدمعَا
على النحر والسرمَالِ حتى تَبُلَّهُ ... سُجومٌ ولم تَجْزَعْ إلى الدار مَجْزَعَا[٣]

تلك نماذج من صورة الطلل عند شعراء بني أسد الجاهليين جاءت مشكلة على نسق خاص بكل شاعر، وقد رأينا بعض النقاط التي اتفق فيها هؤلاء الشعراء من مثل التساؤل وصيغه الموحدة تقريباً مما يشكل شبه تقليدية في هذه الصورة الفنية إلا أن لكل شاعر ظلاله الخاصة، وتلوينه الفردي، واستخدامه اللغوي الذاتي، في اختيار الألفاظ والعبارات التي يراها مناسبة لتشكيل صورته، والحق إن شعراء هذه القبيلة لم يلتزموا بعدد معين من الأبيات في وقوفهم هذا فواحد منهم قد يصل به التعبير عن صورة الطلل إلى عشرة أبيات، وآخر قد يكتفي ببيت أو اثنين، وأحياناً قد لا نرى هذه الصورة

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ١٨٦، ١٨٧.
٢ـ المصدر السابق ص ٥٤، ٥٥.
٣ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.

- أصلاً - في بعض قصائدهم مما يدفعنا إلى القول بأن الوقفة الطللية لم تكن تشكل جزءاً أساسياً من القصيدة عند جميع الشعراء بدليل أن بعضهم قد استطاع الاستغناء عنها، بيد أنها كانت وقفة مهمة عند أغلبهم لأنها نابعة من صميم حياة الإنسان الجاهلي بعامة، وغالباً ما ارتبطت هذه الصورة بذكر المرأة - كما رأينا في موضع سابق من هذا البحث - الظاعنة.

وإذا كان لهذه الصورة من عناصر وأبعاد محددة في شعر الأسديين، فإن العفاء، والخراب، ومشاهد الحيوان الراتع في تلك الديار، وتأمل القوة التدميرية للزمن، وعوامل الطبيعة المتمثلة في الرياح، والعواصف، والأمطار، يعد من أهم عناصر هذه الصورة عن شعراء هذه القبيلة.

وكذلك الصيغ الاستفهامية التي تنم عن جهل الشاعر، وعدم معرفته لهذه الديار، وأهلها، يعد عنصراً من عنصر من عناصر هذه الصورة الفنية أيضاً، وقد استطاع الشاعر الأسدي بل الجاهلي بعامة أن يخضع هذه الصورة لإرادته، ويشكلها حسب هواه.

ولعل شعراء بني أسد في تصويرهم للطلل قد أصروا على وجود عنصر الحياة وبعثه من جديد في تلك المظاهر التي لا تدل على حياة أصلاً، فقد رأينا الظباء والنعام تتكاثر في تلك الديار عند عبيد بن الأبرص، وهذا بشر يؤكد على وجود هذا العنصر أيضاً فيقول:

فكأنَّ أطلالاً وباقي دمنةٍ ... بجَدُودَ ألواحٌ عليها الزَخْرَفُ
فَجِمادِ ذي بَهْدَى فَجَوٍّ ظُلامَةٍ ... عُرِّينَ ليس بِهِنَّ عَيْنٌ تَطْرِفُ
إلا الجآذِرُ تَمْتَري بأنوفِهَا ... عُوذاً إذا تَلَعَ النهارُ تَعَطَّفُ
خُمَّ القوادِمِ ما يَعُرُّ ضُروعَها ... حَلَبُ الأكُفِ لها قَرارٌ مؤنِفُ(١)

ومن عناصر هذه الصورة الفنية أيضاً الإلحاح من قبل شعراء بني أسد على إظهار القسوة من قبل الطبيعة في التعامل مع هذه الأطلال، فهم يكررون الأفعال "أرب، عفا، أقفر، أقوى، حال، تثلم، وكذلك اندفاع المطر بأشكاله المختلفة التي تدل على قسوة الفعل من مثل: ملث، صيت، هطال، هزيم، ودفه، حتى أصبحت الصورتان متلازمتين في الصورة الكبيرة يقول عبيد:

قَدْ جَرَّتِ الريحُ بِهِ ذَيْلَهَا ... عاماً وجَونٌ مُسْبِلٌ هاطِلُ
حتى عفاها صَيِّتٌ رَعْدُهُ ... وانِي النواحِي مُسْبِلٌ وابِلُ(٢)

ويقول عمر بن شأس:

أربَّ بها مِنَ الأرواحِ سافٍ ... فَغَيَّرْنَ المَنَازِلَ والرُسُوما(٣)

ويقول سحيم:

أربَّتْ عليهِ كُلُّ هوجاءَ مُعْصِفٍ ... وأسْحَمَ وانٍ مُزْنُهُ يستعيدُهَا(٤)

---

١- انظر ديوان بشر ص ١٥٢، ١٥٣.
٢- انظر ديوان عبيد ص ٩٧، ٩٨.
٣- انظر شعر عمرو بن شأس ص ٥١.
٤- انظر ديوان سحيم ص ٤٩.

ويقول بشر:

وفيها منزلٌ ببراق خَبْتٍ عَفَتْ حَقباً وغيَّرها بلاهَا
أربَّ على مغانيها مُلِثٌ هَزيمٌ وَدْقُهُ حتّى عفاهَا(١)

ولعل الشعراء في جمعهم هذا لعوامل التعسفية في صورة الطلل إنما يوحدون بين مظاهر الطبيعة من أمطار، وأنواء، ورياح، ورمال لإزالة معالم الطلل، ولكنهم يضعون بالمقابل عوامل أخرى نقيضة ترمز إلى الحياة والبقاء لهذا الطلل رغم كل ما مر عليه من خراب وتدمير، وقد اتخذوا من الحيوان رمزاً لهذه الحياة الجدية التي أرادوا بعثها في تلك الديار من جديد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني الخصوبة، والعيش باطمئنان وسلام مما يعكس لنا عن أحلام الإنسان الجاهلي بحياة مستقرة هادئة.

والذي بين أيدينا من شعر الأسديين يشير إلى عنصر آخر رمزوا به صورة الطلل، وأثروها به مما أعطاها بعداً آخر ذلك هو ربط حالة البكاء الإنساني ببكاء "الحمام" أو ما يصدر عنه من حشرجات في مثل هذه المواقف المؤلمة يقول عبيد:

وقفتُ بهِ أبكي بُكاءَ حمامةٍ أراكيّةٍ تدعو الحمَامَ الأوارِكا
إذا ذَكَرَتْ يوماً مِنَ الدَّهْرِ شَجْوُهَا على فَرْعِ ساقٍ أَذْرَتِ الدَّمْعَ سافِكا(٢)

ويقول بشر:

ذَكَرْتُ بهَا الحيَّ إذ هُمْ بهَا فَأَسْبَلَتِ العينُ مِنّي سِجامَا
أُبكيٍّ بُكاءَ أراكيةٍ علَى فَرْعِ ساقٍ تُنادي حَمَامَا(٣)

ويقول عمرو بن شأس مستبدلاً الحمامة بالناقة المفجوعة بفقد ولدها:

فَكِدْتُ أذوقُ الموتَ لَوْ أَنَّ عاشِقاً أَقَرَّ بمُوساهُ الشَّواربَ فَانتحرْ
فَكُنْتُ كَذَاتِ البَوِّ لما تَذَكَّرَتْ لها رُبَعاً حَنَّتْ لِمَعْهَدِهِ سَحَرْ(٤)

والواقع أننا لا ندري لماذا اختار الشعراء الأسديون الحمام بالذات في هذا الموقف؟ إلا أننا نشعر بأن حرارة البكاء والإحساس المرير بالفقد إنما يكون أشد عند هذا الطير، وربما كان هذا مرتبطاً بشيء من الأساطير القديمة عن هذا النوع من الطيور، ولقد أراد الشاعر التدليل على حالته النفسية وعنف تجربته، وإظهار مدى أساه فجاء لكل ذلك بصورة الحمام الأراكي الذي استقله من واقعه المعاشي وشدة ملاحظته لأحوال هذا الطير ومن جملة العناصر التي شكل بها الشاعر الأسدي صورة

١ـ انظر ديوان بشر ص ٢١٩، ٢٢٠.
٢ـ انظر ديوان عبيد ص ٩٢.
٣ـ انظر ديوان بشر ص ١٨٧.
٤ـ أنظر شعر عمرو بن شأس ص ٦٧، ٦٨.

الطلل عنصر عدم تحديد المدة الزمنية ـ كما رأينا ـ التي مرت على هذه الديار فهي إما سنون ذواهب، أو حقب متلاحقة غير معلومة العدد، إلى غير ذلك مما وقفنا عليه في تصويرهم للأطلال.

ولعل عدم التحديد هذا يضعنا أمام حقيقة إنسانية أراد الشاعر أن يثري صورته بها، وهي أننا لا نريد ذكر ما ذكره من وقت حتى وان كنا نعرف تفاصيله ودقائقه، وإذا كنا لا بد فاعلين فليكن ذلك بسرعة دون الدخول في التفصيلات التي قد تجلب لنا مزيداً من الألم، ولذا رأينا الشاعر الأسدي بوجه عام يترك الأمر عائماً غير محدد.

وبعد فهذه صورة الطلل عند شعراء بني أسد كما رسموها لنا بوسائلهم الفنية من لفظ، وعبارة، ورمز، وغير ذلك من عناصر، وقد حملوها من الأبعاد والمضامين ما يكشف لنا عن جوانب كثيرة من حياتهم، وجاء تعبير الشعراء فيها دالاً على ما كان في نفوسهم من أحاسيس ومشاعر ومشكلات، وبرغم بعض مظاهر التقليد في بعض عناصر الصورة الطللية عند الشعراء عموماً، فقد رأينا أن لكل شاعر موقفه الخاص، ولغته الخاصة في التعبير عن هذه الصورة.

وأخيراً فان صورة الطلل مرآة عاكسة لواقع بيئي واجتماعي عاشه الشاعر الجاهلي بعامة، وكان فيه الطرف الأضعف، وقد بدا ضعفه واضحاً في هذه الصورة التي حاول أن يتخلص منها إلى صورة أخرى في قصيدته أعطاها من الألوان، والظلال ما أبرزها لنا واضحة جلية بكل أبعادها وعناصرها الفنية تلك هي صورة الحبيبة الظاعنة التي أفاض الجاهليون ومنهم الأسديون فيها، ولونوها باحساساتهم فجاءت خطوطها هي الأخرى مناسبة لما تحمله من دلالات ومضامين أراد الشاعر الجاهلي أن يعبر عنها من خلال صورة الأظعان المرتحلة، وهي تحمل الفيد.



## صورة الظعائن وأبعادها:

الحسان، فإننا نجد أن هذه الصورة قد اتشحت غالباً بلون واحد تقريباً.

وعند عبيد نرى هذه الصورة قد جاءت في خمس لقطات متشابهة في الديوان، وسنكتفي بتحليل إحدى هذه اللوحات مع الإشارة إلى الأربع الباقيات، ذلك أن الشاعر يدور خلالهن في فلك واحد وهو يصور الظعائن والمحبوبات.

يقول عبيد مصوراً الظعائن:

لِمَنْ جمالٌ قُبَيْلَ القبحِ مَزْمُومَهْ … مُيَمِّماتٍ بلاداً غَيْرَ مَعْلُومَهْ

عالَيْنَ رقماً وانماطاً مَظَاهرةً … وَكِلَّةً بعتيقِ العَقْلِ مَقْرُومَهْ

ما العبقريُّ عليها إذ غَدَوْا صَبَحٍ … كأنها مِنْ نجيعِ الجَوْفِ مَدْمُومَهُ

كأن أظعانَهُنْ نَخْلَ موسَّقةٌ … سُودٌ ذوائبُها بالحِمْلِ مَكْمُومَهْ

فيهنَّ هِنْدٌ وَقَدْ هامَ الفؤادُ بِهَا … بيضاءُ آنِسَةٌ بالحُسْنِ مَوْسُوْمَهْ

فَإِنَّها كَمَهاةِ الجَوِّ ناعمةٌ … تُدْنِى النصيفَ بكَفٍّ غَيْرِ مَوْشُومَهْ

كأن ريقَتَها بَعْدَ الكَرَى اغْتَبَقَتْ … صهباءَ صافيةٌ بالمِسْكِ مَخْتُومَهْ(١)

فعبيد في هذه الأبيات يتساءل تساؤل العارف المنكر، لمن هذه الجمال التي شدت عليها الهوادج وأخذت أهبتها للرحيل إلى جهة مجهولة؟ ثم يصف لنا الشاعر تلك الهوادج وقد جللت بكل برد مخطط موشي وبكل ثوب مزركش، وهي في جملتها تميل إلى اللون الأحمر وكأنها قد غمست بالدم، ثم يصف لنا تلك الإبل فيصورها لنا في منظر ظريف فهي كشجرات النخيل الخضراء الأطراف والمحملة بالثمار، ولعل هم الشاعر حين ذكر مشهد الظعائن هو أن يذكر لنا محبوبته هنداً تلك الآنسة البضاء المعلمة الجمال.

وتتحدث صورة الظعن عن اللحظات الأخيرة التي يرى فيها الشاعر أحبته قبل غيابهم السرمدي عن ناظريه وهي بالطبع صورة للحظات دقيقة يصف الشاعر فيها مشهد الوداع والرحيل، وما يستتبع ذلك من قسوة وعنف، وثقل، وطأة على نفس الشاعر، وما يلازمها من أسى وحسرة تراودانها كلما جالت صورة الأحباب بخاطرها.

وكان طبيعياً - إذن - أن ينتهي الشاعر إلى وصف الأودية وتصوير الأمكنة التي مر بها الركب، وقد بدأ الشاعر القصيدة بتصوير مشهد الظعائن في صورة كلية، ففي البيت الأول يتساءل وهو العالم بالجواب قبل غيره لمن تكون هذه الظعائن؟ وربما علم محطها وموئلها الجديد، وفي البيت الثاني ينتقل الشاعر إلى تصوير الهوادج، ويضفي عليها من الألوان والخطوط، ما يوحي بأن أهلها أهل نعمة وجاه وكرامة.

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ١٢٧، ١٢٨.

ويغلب اللون الأحمر على صورة الهوادج فهي كدم الجوف وهو أشد حمرة من باقي الدم في الأطراف، ثم يشبه الشاعر تلك الظعائن بشجر النخيل الأخضر المثقل بالثمار، وهو تشبيه بدوي صرف جاء من واقع البيئة النجدية التي عاشها الشاعر وعايشها، ولعل إعزاز العربي القديم لهذه الشجرة وحبه الشديد لها قد أمليا على الشاعر أن يشبه بها ظعن أحبته.

ثم يصرح عبيد باسم محبوبته فهي هند الحسناء، الجميلة، البيضاء، الندبة الحديث، التي تشبه البقرة الوحشية في نعومتها واستدارة أوراكها، ثم يركز الشاعر على صفحة الاحتشام، والعفاف عندها، وذلك في كناية لطيفة تحمل لنا عادة اجتماعية جاهلية هي وشم كف البغى لتميزها عن المرأة الحرة، ويأتي الشاعر في البيت الأخير ليشبه ريق محبوبته هذه بالخمر الصافية المعتقة.

وقد أشار عبيد في أكثر من قصيدة إلى مشهد الظعائن هذا فمن شاء فليعد إلى ديوانه[1].

ولقد تناول الدكتور شكري فيصل تحليل بعض مشاهد الظعن عند عبيد في كتابه "تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام"[2].

والملاحظ أن عبيداً في تصوير مشاهد الظعن يجنح إلى الحسية في الصفات، ويلون الصورة بأكثر من لون، وقد يغلب اللون الأحمر على غيره وغالباً ما يخلع الشاعر على الصورة آثار النعمة من مثل قوله:

لِمَنْ جمالٌ قُبَيْلَ الصُبْحِ مَزْمُومَهْ ... مُيمِّمَاتٍ بِلاداً غَيْرَ مَعْلُومَهْ

عَالَيْنَ رَقْماً وأنماطاً مُظَاهَرَةً ... وَكِلَّةً بعتيقِ العَقْلِ مَقْرُومَهْ

ما العبقريُّ عَلَيْها إذْ غَدَوْا صَبَحٌ ... كَأنَّها مِنْ نَجِيْعِ الجَوْفِ مَدْمُومَهْ[3]

ومن الصفات الحسية في لوحة الظعن عند عبيد:

تَبَصَّرْ خَليلي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ ... سَلَكْنَ غُمَيْراً دونَهُنَّ غُمُوضُ

وفوقَ الجِمَالِ الناعجاتِ كَوَاعِبٌ ... مَخاميصُ أبكارٌ أوانسُ بيضُ[4]

لقد جاءت الصور البيانية عند عبيد في صورة الظعائن ملائمة للمعاني التي أراد الشاعر التعبير عنها، ومناسبة للمقام إذ ساقها الشاعر بكل عفوية وهي تلبس في عمومها ثوباً حزيناً، وترتدي حلة من الكآبة والتشاؤمية، وقد أكثر الشاعر من اتكائه على صيغة الاستفهام الحائر شأنه في ذلك شأن معظم الشعراء الجاهليين بالإضافة إلى استخدام أسلوبي النفي والنداء من مثل قوله:

ليسَ رسمٌ على الدفينِ بِبَالِ ... فَلِوَى ذَروةٍ فجنْبَي أُثَالِ[5]

وقوله:

---

١- ديوان عبيد ص ٣٢، ٧٩، ٨٤، ١٣٢.

٢- انظر تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام د. شكري فيصل ص ٨٤ إلى ٨٨.

٣- انظر ديوان عبيد ص ١٢٧.

٤- انظر ديوان عبيد ص ٧٩ - ٨٠.

٥- المصدر السابق ص ١٠٥.

يــا دارَ هِنْــدٍ عفاهَــا كُــلُّ هَطَّــالِ بــالجَوِّ مِثْـلَ سَـحيقِ اليُمْنَـةِ البَـالي(١)

ونجد عبيداً يلح في استعمال الفعل "أقفر" في أكثر من موضع(٢) مما يجعلنا نرجح أن الشاعر قد قصد هذا الفعل بالذات للدلالة النفسية العميقة بما يتضمن من معاني القحط، والمحل والجدب، والغربة، وكذلك المعاناة. إن صورة الهوادج وهي تتمايل بالأحبة الشبيهة عند شاعرنا بصورة السفينة وهي تتمايل بين يدي الأمواج يقول عبيد:

تَبَيَّـنْ صـاحِبي أَتَـرىَ حُمُـولاً يُشَـبَّهُ سَـيرُها عَـوْمَ السـفينِ(٣)

ويقول في موضع آخر:

تبصرْ خليلـي هـل تـرى مـن ظعـائنٍ يَمانيـةٍ قـد تَفْتَـدي وَتَـرُوحُ
كَعَـوْمِ سـفينٍ في غـواربِ لُجَّـةٍ تكفئُهـا في وَسْـطِ دَجْلَـةَ ريـحُ
جوانُبهـا تغشـىً المتـالِفَ أشـرفتْ عليهِـنَّ صُهْـبٌ مِـنْ يَهـوُدَ جَنـوحُ(٤)

ويستدل من الصورة السابقة على أن عبيداً قد تنقل أو قد زار منطقة سواد العراق والخليج العربي، وعرف شيئاً عن الملاحة والسفن، وحياة البحر كما يستدل من الصورة أيضاً على أن هذه المهنة كانة مقصورة على غير العرب من يهود ونصارى وغيرهم، لاحتقار العرب لمثل هذه الصنائع والحرف وان كان هذا لا يمنع من وجود عدد قليل من العرب قد مارسوا هذه المهنة في حدود ضيقة.

ومن صورة عبيد أيضاً في مشاهد الظعائن قوله:

بـانَ الخليـطُ الأُلى شـاقوكَ إذ شَـحَطُوا وفي الحُـدوجِ مَهـاً أعناقُهـا عَيُـطُ
نـاطُوا الرِعـاثَ لِمَهـوىً لـوَ يـزلُّ بـهِ لانـدَّق دون تلاقـي اللَّبَّـةِ القُـرُطُ(٥)

فالنساء في الهوادج كالمها الطوال الأعناق وقد استخدم الشاعر في هذه الصورة أسلوب الكناية في البيت الثاني بإيجاز جميل ووافٍ بالغرض، فما بين موضع القرط في الأذن والصدر مهوى سحيق البعد فلو سقط ذلك القرط لانفرط ولتبعثرت حباته قبل الوصول إلى الصدر، وهي صورة لا تخلو من مبالغة إلا أنها مبالغة مقبولة ومستساغة وجميلة في مكانها هذا.

ومن خلال المشهد لاحظنا استخدام عبيد للأفعال التي تدل على الحركة مما يتناسب مع الارتحال والظعن، كالفعل "سلك" و"تفتدى" و"تروح". كذلك استخدامه للعبارات الدالة على الظعن وما يستتبع ذلك من تهيئة لهذا الجو من مثل: "كعوم سفين ومنيممات، مزقوم،" وقد جاءت لغة الشاعر

---

١ـ المصدر السابق ١٠١.
٢ـ المصدر السابق ص ١٠، ٣٩، ٩٥.
٣ـ ديوان عبيد ص ١٣٢.
٤ـ ديوان عبيد ص ٣٢.
٥ـ أنظر ديوان عبيد ص ٨٣.

هنا تصب في حوض واحد من الدلالة، وهو الارتحال والظعن، فكانت بألفاظها وعباراتها عنصراً ملوناً أسهم في تشكيل الصورة الفنية لهذا الظعن، ونلاحظ ميل الشاعر - من خلال ما أورده في هذا المضمار من لغة شعرية - إلى التفصيل في جزئيات الموصوف في الصورة على الإيجاز، ولعل ذلك عائد إلى أن الصورة - هنا - وليدة العاطفة في كل جوانبها يقول الدكتور شكري فيصل "وفرق ما بينها وبين الوقوف على الأطلال في ذلك فرق بين ذلك أنها لا تتصل بمخلفات هؤلاء الناس بديارهم التي غادروا، وآثارهم التي تركوا، بنؤيهم وأثافيهم، وإنما تتصل بهؤلاء الناس ذاتهم، بأنفسهم، بخفق قلوبهم والتياع عواطفهم بقدرهم الذي يجري بغير ما يهوون، ثم لا يملكون لذلك دفعاً"(١).

ولا تخرج الصورة عن التقليد المعروف في صورة الظن في بعض جوانبها كالبدو، في السؤال - مثلاً - حيث نرى أن أغلب الشعراء الأسديين بل الجاهليين يبدؤون بما بدأ به عبيد "تبصر خليلي، لمن جمال، تبين صاحبي" أو غير ذلك من الصيغ الدالة على الاستفهام، أو الحيرة، والتي لا تخلو من حث هذا الصاحب على النظر والتأمل.

ومن الملاحظ ميل الشاعر إلى استخدام اللغة على نحو معين كاطراد الأوصاف وتراكمها بعضها فوق بعض حيث يقول مثلاً:

"بيضاءُ آنسةٌ الحُسْنِ مَوْسُومَةْ"

ويقول في موضع آخر:

وفوق الجمال الناعجات كواعب مخاميص أبكار أوانس بيض(٢)

وهو إذ يفعل ذلك فإنما يريد تثبيت أركان هذه الصورة وملامحها في الأذهان عن طريق هذا الاستمرار بحشد الصفات المترادفة.

ونتلمس هذه الصورة الفنية في شعر الأسديين الآخرين فنجدها تتلون بخطوط أخرى بحسب مقدرة الشاعر على دمج هذه العناصر المكونة لها، ومدى فنيته في التأليف بينها يقول بشر بن أبي خازم الذي رسم صوراً عديدة لأطلال أحبته وارتحالهم يسيطر عليها الحزن، وتبعث جواً من الأسى في نفس قائلها، إن المتصفح لشعر بشر ليشعر بأن هذا الشاعر في تصويره الفني كان يصور ما بداخله - في كثير من الأحيان - وها هو ذا يصور رحيل "سلمة" وأهلها وظعنهم، وتتبع بعينه الكسيرة مسار هذه الأظعان، ويسلك في تصويره هذا أكثر من سبيل، ويستخدم أكثر من عنصر فني لإظهار مقدرته الفنية على تلوين هذه الصورة بذات الألوان التي اصطبغت بها نفس الشاعر فيقول:

تَعَنَّي القلبُ مِنْ سلمى عَنَاءُ فما القلبِ مُذْ بانوا شفَاءُ
هُدوءاً ثم لأياً ما استقلوا فوجْهَتِهمْ وَقَدْ تَلَعَ الضَّحَاءُ
وأَذَنَ أَهْلُ سَلْمَى بارتحال فما للقلبِ إذْ طَعَنُوا عَزاءُ
أُكاتِمُ صاحبي وَجْدي بسلمَىً وليس لوجدِ مُكْتَتِمٍ خفَاءُ
فلما أدبروا ذرفتْ دمُوعي وَجَهْلٌ مِنْ ذوي الشيبِ البُكاءُ
كأنَّ حمولَهُمْ لّما استقلّوا نخيلُ مَحَلِّمٍ فيها انحناءُ

---

١- انظر تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام للدكتور شكري فيصل ص ١٢٥.
٢- انظر ديوان عبيد ص ٧٩.

وفي الأظعـــان أبكـــارٌ وعـــونٌ　　كَعَيْـــنِ السِـــدَّرِ أوجهُهَـــا وِضَـــاءُ
عفـــا منهـــنَّ جِـــزْعُ عُرَتينـــاتٍ　　فصـــارةُ فـــالفوارعُ فالحِمَـــاءُ(١)

إن المتأمل في هذه الصورة التي رسمها الشاعر لرحيل محبوبته، وأهلها يرى أنه لم يستطع أن يتمالك نفسه، أو أن يسيطر على مشاعره، ويضبط أحاسيسه حين رأى الحبيبة وقد انتوت الفراع فضاع عزمه، وذابت شجاعته وجمد كل نبض في عروقه، وانهار وضعف أمام هذه النكبة، وحيال تلك المصيبة التي لم يكن يتوقعها يجسد بشر ذلك كله في استخدامه اللغوي من خلال الألفاظ والعبارات التي جاءت ذات دلالات نفسية واضحة تظهر ما بداخله، وتجلو ما يعانيه وذلك من مثل قوله: "تعنى القلب من سلمى عناء، ما للقلب مذ بانوا شفاء، ما للقلاب إذ ظعنوا عزاء، ليس لوجد مكتتم خفاء، فلما أدبروا ذرفت دموعي".
لقد أوحت كل هذه الاستخدامات اللفظية بما كان الشاعر يعانيه من مشاعر واحساسات عند رحيل محبوبته، وقد لونت هذه الأساليب تلك الصورة بألوان قاتمة، وظلال كئيبة تترجم كلها مشاعر بشر وأحاسيسه.
ويبدأ الشاعر في الإفاقة من أحزانه لائماً نفسه على البكاء في اثر محبوبته، وقد علاه الشيب وخطته خيوطه:

فلمـــا أدبـــروا ذرفـــت دموعـــي　　وجهـــل مـــن ذوي الشـــيب البكـــاء

وتلي هذه الإفاقة التي أفاقها الشاعر صورة لظعن المحبوبة يقول بشر فيها:

كـــأن حمولهـــم لمـــا اســـتقلوا　　نخيـــل محلـــم فيهـــا انحنـــاء
وفي الأظعـــان أبكـــار وعـــون　　كعـــين الســـدر أوجههـــا وضـــاء
عفـــا منهـــن جـــزع عريتنـــات　　فصـــارة فـــالفوارع فالحســـاء

وهكذا يستخدم بشر التشبيه فيشبه حمولهم وقد سارت في طريقها تنحني بانحنائه وتستوي إذا استوى شبيهها في طولها وانحنائها بنخيل نهمر "محلم" بالبحرين ثم يشبه النساء اللاتي في الهوادج ببقر الوحش في اتساع عيونها، وجمالها ويختتم الشاعر صورته بذكر الفناء والخراب، اللذين شملا المكان وخيما عليه بعد رحيل أهله عنه، وقد كان بهم عامراً وآهلاً:

عفـــا منهـــن جـــزع عرتينـــات　　فصـــارة فـــالفوارع فالحســـاء

وذكر الشاعر لأماكن نزول المحبوبة وسكناها، وتكراره لذكر أكثر من مكان دليل على تحسره الشديد، وحزنه العميق، لخلو هذه الأماكن كلها من محبوبته وصويحاتها، ولعلنا نقف عند تشبيهه للحمول بالنخيل فنقول: إن ربط الشاعر هنا بين الظعن وبين مظهر من مظاهر الخصب والنماء المتمثل في النخيل إنما يدل على مدى إعزاز الشاعر لمن في هذه الأظعان حتى انهم يمثلون الحياة بالنسبة إليه، وما رحيلهم إلا فناء لهذه الحياة وإقفار من مظاهر الخصب.

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ١، ٢.

وبشر في صورة أخرى للأطلال يبدو أكثر جزعاً، وأعظم هلعاً، لفراق محبوبته "سلمى" التي ذرف الدمع غزيراً في إثرها بعد ما شطت بها النوى، يقول بشر:

عَفَتْ مِنْ سُليمى رامةٌ فكثيبُها ... وشطَّتِ بها عنكَ النَّوى وشعوبُها
وغيرَّها ما غيَّرَ الناسَ قَبْلَهَا ... فبانَتْ وحاجاتُ النفوسِ تُصيبُها
ألمْ يأتها أنَّ الدموعَ نِطافَةٌ ... لِعَيْنٍ يوافي في المنامِ حبيبُها
تَحَدَّرَ ماءِ البئرِ عن جُرَشِيَّةٍ ... على جِرْبَةٍ تعلو الدِّيارَ غُروبُها
بِغَرْبٍ وَمَرْبُوعٍ وَعَوْدٍ تُقيمُهُ ... مَحَالَةُ خُطَّافٍ تَصِرُّ ثُقُوبُها
مُعاليَةٌ لا هَمَّ إلا مُحَجَّرٌ ... وَحَرَّةُ ليلى: السَّهْلُ مِنْهَا ولوبُها
رَأَتْنِي كَأُفْحوصِ القَطَاةِ ذؤابَتِي ... وما مَسَّها مِنْ مُنْعِمٍ يستثيبُها(١)

وهكذا يتحدث بشر عن رحيل محبوبته، وعفاء الديار منها، ثم يسجل ما أصابه بعد فراقها في صورة كئيبة الظلال قاتمة الألوان، فهو باك ودموعه لا تنقطع تلك الدموع التي تنحدر كمنحدر ماء البئر على دلو تستقي بها ناقة جرشية، وهذه صورة فنية قوامها تشبيه التمثيل الذي يوضح ويظهر مدى حزن الشاعر، ذلك الحزن المتمثل في هذا البكاء المر، وهذه الدموع الغزار.

ويعتمد بشر كذلك على التشبيه الذي يوضح مدى ما أصابه بعد فراق تلك المحبوبة، وذلك في البيت الأخير من هذه الصورة حين يقول:

رأتني كأفحوص القطاء ذؤابتي ... وما مسها من منعم يستثيبها

فها هو ذا قد صلع حتى صار رأسه كأفحوص القطاة ولم يكن ذهاب شعره لأنه كان قد اسر وجزت ناصيته طلباً للثواب والجزاء، وإنما الذي حدث له كان من تأثير هذه الفاجعة المتمثلة في فراق المحبوبة، ومن وجده الشديد عليها، فقد أصابه ما أصابه، وصورة الطلل عند بشر في مجملها متشابهة، فالشاعر كلف بتصوير أحزانه وآلامه، ورسم لوحات لدموعه وبكائه في اثر محبوباته الذاهبات، إلا أن هناك من هذه الصور ما يسجل الشاعر في نهايته سلوه بعد أن يتبين مدى صد محبوبته له، يقول بشر في إحدى هذه الصور:

تغيَّرتِ المنازلُ بالكثيبِ ... وعفّى آيهَا نسجُ الجنوبِ
منازلُ مِنْ سَليمى مقفراتٍ ... عفاها كلُّ هطالٍ سَكوبِ
وقفتُ بها أسائِلُها ودمعي ... على الخَدَّيْنِ في مِثْلِ الغُروبِ
نَأتْ سلمى وغيَّرها التنائي ... وَصَدَّتْ بَعْدَ إلْفٍ عَنْ مَشِيبي
فقد ألهو إذا ما شئتُ يوما ... إلى بيضاءَ آنسةٍ لَعُوبِ(٢)

فالشاعر ـ كعادته ـ باك حزين واقف على طلل محبوبته ليسأله، ولا جواب يأتيه. صورة توضح مدى ضياع الأمل وانقطاع الرجاء، وان من المؤلم حقاً في هذه الصورة والباعث على الأسى ـ في

---

١ـ ديوان بشر ص ١٣ ـ ١٤.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ٢٠ ـ ٢١.

الوقت نفسه ـ أن "سلمى" لم تكره على الرحيل، و لم يفرض الفراق عليها، بل هي اختارت البعد والنأي بعد أن علا الشيب صاحبها، وهذا ما يثير عليها بشراً فيعلن قدرته على السلو ومقدرته على وصال الأخريات، وهو وان كان يعلن ذلك، ويصرح به فما ذاك إلا من قبيل تعزية نفسه الكسيرة وقلبه الجريح، إذ أنه لم يستطع أن يخفي أنه الحزن ورنة الألم التي تسيطر عليه خلال مشاهد الصورة كلها، والتي كانت في عمومها حالكة الظلال والألوان، وتتكرر هذه الصورة كثيراً عند بشر صورة الاعتزاز بالنفس والقدرة على سلو الهم ونسيان الخطوب، وقد رأينا مثل هذا الموقف عند عبيد بن الأبرص من قبل، فها هو ذات بشر في موضع آخر وقد هجرته صاحبته يقول:

أَجَدَّ مِنَ آل فاطمةَ اجتنابا ... وَأَقْصَرَ بَعْدَ ما شابتْ وَشَابا
وشابَ لِداتُهُ وَعَدلْنَ عنهُ ... كما أبليتَ مِنْ لُبْسٍ ثِيابَا
فإنْ تَكُ نَبْلُها طاشتْ ونَبْلِي ... فَقَدْ نرمي بهِ حِقَبْا صِيابَا
فتصطادُ الرجالَ إذا رَمَتْهُمْ ... وأصطادُ المُخَبَّأةَ الكَعَابَا(١)

وللأطلال في شعر بشر نصيب كبير يحذو فيه أحياناً حذو من سبقه من شعراء الجاهلية فتأتي صورة الطلل عنده شبيهة إلى حدٍ كبير بصورهم، وها هو ذا يستهل قصيدة في مدح عمرو بن أم اياس بصورة فنية للطلل يحذو فيها حذو عبيد بن الأبرص، وغيرهم من شعراء الجاهلية حين يشبه حمول المحبوبة بالسفين يقول بشر:

أطلالُ مَيَّةَ بالتلاعِ فَمِثْقَبِ ... أضحتْ خَلاءً كاطّرادِ المُذْهَبِ
ذَهَبَ الأُلى بهنَّ فعادَنِي ... أشجانُ نَصْبٍ للظعائنِ مُنْصِبِ
فانهلَّ دمعي في الرداءِ صبابةً ... إثْرَ الخليطِ وكنتُ غَيْرَ مُغَلَّبِ
فكأنَّ ظَعْنَهُمُ غداةَ تَحَمَّلُوا ... سُفُنٌ تكَفَّأُ في خليجٍ مُغْرِبِ(٢)

وكما يظهر من هذه الصورة فبشر هو بشر في كل صورة التي رسم من خلالها الطلل، وتحدث في ثناياها عنه وعن تأثيره عليه، فدموعه المنهالة الغزيرة وأشجانه الكثيرة المتزايدة التي تعاوده حين يقع بصره على طلل الأحبة هما أهم مظهرين من مظاهر صوره، ويلونها باللون القاتم الحزين، وصورة الظعن التي حذا فيها حذو السابقين، عليه حين شبهه بالسفن قد أضفى عليها من مشاعره وأحاسيسه، ما أكسبها جدة ورونقاً فالظعن ليس كالسفن وحسب بل هو كالسفن التي تنكفأ في خليج مغرب، ولعل استخدام الشاعر للفعل "تنكفأ" جاء عنصر حركة أولاً لهذه السفن في اضطرابها، ولعل ذلك يعبر بوضوح عما يختلج في صدر الشاعر من قلق واضطراب أثر رحيل المحبوبة.

ولبشر صورة أخرى يتحدث من خلالها عن الظعن وما تركه رحيل الأحبة في نفسه من أسى ولوعة، وما خلفه له من دهشة وذهول، فلم يعد يدري شيئاً مما حوله، وهو العالم بكل شيء فهو كمن صدم صدمة أنسته ما يعلم، وأفقدته توازنه، وهو في هذه الصورة للظعن سائر على النهج ذاته،

١ـ ديوان بشر ص ٣١.
٢ـ ديوان بشر ص ٣٣ ـ ٣٥.

ذلك الذي رأيناه عبد بقية الشعراء الأسديين بل الجاهليين بعامة، مقتف أثرهم سالكاً دربهم. يقول بشر في صورة تلعب الحركة فيها دوراً مهماً إلى جانب العناصر المختلفة الأخرى:

ألا بـــانَ الخليـــطُ ولم يُــزاروا ... وقلبـــك في الظعـــائن مُســـتعارُ
أســائلُ صــاحبي ولقــد اراني ... بصــيراً بالظعــائنِ حيــث صــارُوا
تَــؤُمُّ بهــا الحُــداةُ ميــاهَ نَخْــلِ ... وفيهــا عــن أبـــانينِ أزورارُ
أحــاذرُ أنْ تبــينَ بَنــو عَقيــلِ ... بجارتنَــا فَقَــدْ حُــقَّ الحِــذَارُ
فلأيــاً مــا قَصَــرْتُ الطَــرْفَ عَنْهُــمْ ... بقانيــةٍ وَقَــدْ تَلَــعَ النهــارُ
بليــلٍ مــا أتَيْــنَ علــى أروم ... وشــابَةَ عــن شمائِلِهــا تَعــارُ
أَراهــمْ كلمــا بــانوا تَوَلَّــوْا ... بِرَهْــنٍ منــكَ لَيْــسَ لَــهُ حَــوَارُ
كــأن ظبــاءَ أَسْــنِمَةٍ عليهــا ... كَوانــسُ قالِصــاً عنهــا المَغَــارُ
يُفَلِّجْــنَ الشــفاءَ عــن اقحــوانٍ ... جــلاءُ غِــبَّ ســاريةٍ قَطــارُ(١)

فالشاعر - هنا - في هذه الصورة يسائل صاحبه في دهشة وذهول، مصطنعين إلى أية وجهة تتجه هذه الظعائن؟.

يسائل صاحبه وهو العالم بمصيرها ومستقرها، وليس بمسيرها ووجهتها المقصودة فحسب، ولكنها الصدمة النفسية التي أحس معها الشاعر - أو هكذا خيل إليه - أنه لم يعد قادراً على استيعاب شيء مما حوله، وبالتالي فانه لا يريد أن يصدق ما يرى أمامه من منظار الرحيل وهذه الصورة، أو هذا التساؤل مكرر في الشعر الجاهلي، ولقد مر بنا لعبيد تساؤله:

لِمَــنْ جِمــالٌ قُبَيْــلَ الصُبْــحِ مزمومَــةْ ... ميممــاتٍ بــلاداً غــيرَ معلومــةْ(٢)

إلا أن بشراً قد أضفى على تساؤله هذا جمالاً حين صرح في صدق ووضوح أنه "بصير بالظعائن حيث صاروا" وتظهر دقة الشاعر في اختيار ألفاظ لها في النفس وقعها وصداها، فهو يستخدم "أسائل" ولا يقول أسأل، ويستخدم "بصيراً" ولا يقول عارفاً، ويتسخدم "حيث صاروا" ولا يقول حيث ساروا، وهذه كلها يعيشها الشاعر، أو قل يعايشها اثر صدمته برحيل محبوبته - أقول - مما يجسد لحظة الذهوب هذه خطاب الشاعر لنفسه وكأنه لا يحس بوجوده فيحدث نفسه على أنها إنسان آخر:

ألا بـــان الخليـــط ولم يـــزاروا ... وقلبـــك بالظعـــائن مســـتعار

ثم يكرر ذلك في بيت آخر:

أراهـــم كلمـــا بـــانوا تولـــوا ... برهـــن منـــك ليـــس لـــه حـــوار

والعجيب أن حديثه إلى نفسه في البيت الأول هو نفس حديثه لها في البيت الثاني، فالشاعر يردد

---

١- انظر ديوان بشر ص ٦١ - ٦٣.
٢- ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٧.

لنفسه ـ متحسراً ـ ذهاب قلبه مع أحبائه. "وقلبك في الظعائن مستعار"، "برهن منك ليس له حـوار" ففجيعة الشاعر في قلبه قد طغت على فجيعته في محبوبته، ثم يترك بشر الحديث عن الأظعان ليتحدث ـ في حسرة وألم ـ عمن هم في هذه الأظعان من نساء جميلات كأنهم ظباء أسمنة رقة وجمالاً ووداعة، ثم يصف ثغورهن فتتراءى له هذه الثغور في صورة الأقحوان الذي أصابه المطر فجعله أندى وأرق:

| | |
|---|---|
| إن ظبـــــاء أسمنـــــة عليهـــــا | كوانـــس قالصـــا عنهـــا المغـــار |
| يفلجـــن الشـــفاه عـــن أقحـــوان | جـــلاه غـــب ســـارية قطـــار |

وجميل هذا البيت الأخير بما فيه من تشبيه تمثيلي، وقد أورده أبو هلال العنطري في "ديوان المعاني" بين الأبيات التي أتى بها أمثلة على أجود ما قيل في الثغر من شعر المتقدمين، وقال المرتضى بصدده: "قال الأصمعي: ما وصف أحد الثغر إلا احتاج إلى قول بشر بن أبي خازم، يفلجن الشفاه، البيت".

ونبحث عن هذه الصورة الفنية في شعر بني أسد الجاهليين فنجدها عند عمر بن شأس تكتسب أبعاداً ومضامين أخرى، يقول عمرو وهو يصور ديار أحبته ورحيلهم، وذلك في مشاهد تبعث على الحزن والأسى. نلمسها من خلال حوار الشاعر مع صاحبيه ذلك الحوار الذي يكتشف الشاعر فيه نفسه، ويضع يده على ما يعانيه وكأن ذلك كان غائباً عنه من قبل.

إن صاحبي الشاعر لا يريدان الانتظار فما همهما؟ إنها مشكلة الشاعر ذاته وعليه يترتب حلها، ويمضيان برغم توسل الشاعر إليهما بالبقاء إلى جانبه ومواساته وخليلي عوجاء ولكن بدون جدوى يقول عمرو بن شأس:

| | |
|---|---|
| متـى تعـرفِ العينـان أطـلالَ دِمْنَـةٍ | لليلـى بـأعلى ذي معـاركَ تَدْمَعَـا |
| علـى النحـرِ والسـربَالِ حتـى تُبُلَّـهُ | سُـجومٌ ولم تَجْـزَعْ إلى الـدارِ مُجْزَعَـا |
| خليلـيَّ عوجـا اليـومَ نَقـضِ لُبانـةً | وإلاّ تعوجـا اليـومَ لا ننطلـقْ مَعَـا |
| وإن تُنظرانـي اليـومَ أُتبِعْكُمـا غَـداً | قيـادُ الجنيـبِ أو أَذِلَّ وأطْوعَـا |
| وقـد زعمـا أن قـد أَمَـلَّ عليهمـا | ثَـوايَ وقيلـي كلمـا ارتحـلا ارْبَعَـا |
| ومـا لبثـةٌ في الحـيِّ يومـاً وليلـةً | بكـافيكَ عمّـا قلـتَ صيفـاً فامنعَـا |
| فجـودا لليلـى بالكرامـةِ منكمـا | ومـا شـئتما أن تمنعـا بعـدُ فامنعَـا |
| ومـا زال يُزجـي حـبُّ ليلـى أمامَـهُ | وليديـنِ حتـى عُمْرُنـا قَـدْ تَسَعْسَـعَا |
| تذكـرتُ ليلـى والمطـيُّ كأنهـا | قطـا منهـلٍ أَمَّ القِطـاطَ فَلَعْلَعَـا |
| تراهَـنَّ بالركبـان عـن ليلـةِ السُـرى | عَواسِـرَ يَذْعَـرْنَ الشَـبُوبَ المؤَلّعَـا |
| إذا هبطـتْ خَرْقَـاً عليـه غَبـاوَةٌ | ركضْـنَ دِقاقـاً لَبْطُهـا قَـدْ تَسَـلَّعَا |
| ومـا جأبـةُ القرنـين أدمـاءُ مُخـرِفٌ | ترعَّـى بـذي نَخْـلِ شِـعاباً وَأَفْرُعَـا |
| بـأبعدَ مـن ليلـى نَـوالاً فـلا تكـنْ | بذكـراكَ شـيئاً لا يواتيـكَ مُولَعَـا[1] |

---

١ـ ديوان عمرو بن شأس الأسدي ص ٢٩ إلى ٣١.

وهكذا يلون الحزن والألم صورة الطلل عند عمرو بألوان كئيبة، وظلال قاتمة، تظهر من خلال دموعه المنسابة على نحره وسرباله لحظة أن وقعت عيناه على طلل تبينتا أنه "لليلى" تلك المحبوبة التي ملكت على عمرو نفسه، وتحكمت في مشاعره وأحاسيسه، وتظهر هذه الأحزان وتلك الآلام - أيضاً - في هذا التوسل من الشاعر إلى خليله حتى يطاوعاه فيعوجا على ذلك الطلل المتهيدم ليقفا مع الشاعر لحظات في محراب حبها.

ولا يأتي هذا التوسل إلا من إنسان قد أضناه الشوق، وشفه الوجد، وأسقمه حب ليلى وتعلقه بها، ولعل أقسى ما في هذه الصورة هو ذلك اليأس الذي تحطمت معه كل آمال الشاعر حين علم أن بعاد "ليلى" لا يدانيه بعاد، وأن عودتها أو بجرد التفكير في هذه العودة نوع من الجنة وضرب من الخيال، ولقد جسد ذلك اليأس عمق أحزان الشاعر التي تبدو جلية من خلال حديثه لنفسه في ختام هذه الصورة:

| | |
|---|---|
| ومـا جابـة القرنـين أدمـاء مخـرف | ترعـى بـذي نخـل شـعاباً وأفرعـا |
| بـأبعد مـن ليلـى نـوالا فـلا تكـن | بذكـراك شـيئاً لا يواتيـك مولعـا |

هذه حقاً قمة المأساة حين يعلم الشاعر أن كل ما يأمل فيه قد ذهب أدراج الرياح وفي ثنايا هذه الصورة الكلية جاءت صور جزئية جميلة قوامها التشبيه حين تحدث الشاعر عن الإبل فصورها قطا مذعورة تخشى ثور الوحش المسن الضاري:

| | |
|---|---|
| تذكـرتُ ليلـى والمطـي كأنهـا | قطـا منهـل أم القطـاط فلعلعـا |
| تراهـن بالركبـان عـن ليلـة السـرى | عواسـر يذعـرن الشـبوب المولعـا |

فهي صورة جزئية تزيد من جمال الصورة الكلية إذ تقوم على الخوف والذعر اللذين يخلفان دائماً الأحزان والآلام، هكذا كانت صورة الطلل عند عمرو بن شأس صورة قاتمة كئيبة حزينة تغلف النفس البشرية بالحزن والأسى.

ويرسم عمرو صورة أخرى لأطلال "ليلى" أيضاً تبدو كسابقتها فيها يحاور عمرو صاحبيه، ويدعوهما إلى مشاركته أحزانه وآلامه برؤية أطلال هذه المحبوبة، وتمثل فعل الزمن فيها، يقول عمرو:

| | |
|---|---|
| أتعـرفُ مـنزلاً مـن آلِ ليلـى | أبـى بالثعلبيـةِ أن يَريمَـا |
| أربَّ بهـا مـن الأرواحِ سـافٍ | فغـيَّرْنَ المنـازلَ والرسُـوُما |
| فَـرُدّا فيـهِ طَرْفَكُمـا تُبينـا | لليلـى مـنزلاً أقـوى قَديمـا |
| بواقـيِ أَبْصُـرٍ ورمـادِ دارٍ | وَسُـفعاً في مَناكِبِهـا جُثومـا |
| وقـد تَغْنـى بِهَـا لُيلـىَ زمانـاً | عَروُبـاً تُوثِـقُ المـرءَ الحَليمَـا(١) |

وهي صورة - أيضاً - يلفها الحزن، وتغلفها الكآبة، ذلك الحزن وتلك الكآبة اللتان تظهرهما صورة الدار وقد بدلت الرياح منازلها ورسومها، وصورة ذلك المنزل الذي كان عامراً بليلى وأهلها

---

١- ديوان عمرو بن شأس ص ٥١ - ٥٢.

سعيداً بوجودهم، ها هو ذا قد أقوى بفعل الزمن وقسوته، وانه لمنظر يفجع الحبيب حقاً في أحبائه الذين تركوه وحيداً يقاسي مرارة الوحدة، وعذاب البعاد، ولا يجد من يواسيه، أو يخفف تلك اللحظات القاتلة، فها هو ذات يستجدي صاحبيه أن يمنا عليه ولو بمشاركة وجدانية منهما لن تكلفهما سوى لحظات عابرة يريان معه خلالها ماذا أصاب هذه الديار التي كانت في يوم من الأيام آهلة بساكنيها عامرة بهم.

ولعمر بن شأس لوحة رسمها لطلل محبوبته التي كنى عنا بـ "أم نوفل" وهو في هذه اللوحة يبدو على قدر من الإتقان في استخدام ألوانه وأصباغه، حتى توحي صورته بالجو النفسي العام الذي يعيشه بعد فراق محبوبته، وخلو الديار منها ومن أهلها وذويها، يقول عمر مخاطباً ـ كعادته ـ هذين الصاحبين اللذين طالما عناهما الشاعر معه بإيقافهما على أطلال محبوبته أو قل محبوباته:

قفـا تعرفـا بـين الرَّحـى فقراقِـر ... منـازلَ قَـدْ أقويْـنَ مِـنْ أُمِّ نوفـلِ
تهـادتْ بهـا هـوجَ الريـاحِ كأنمـا ... أَجَلْـنَ الـذي استوْدِعْنَ منهـا بمُنْخُـلِ
منـازلُ يبكـينَ الفتـى فكأنمـا ... تَشُـعُّ بغربَـيْ نـاضجٍ فـوق جَـدْوَلِ
يسحان مـاءَ البشر عَـنْ ظَهْـرِ شـارفٍ ... بـأمراسِ كِتّـان وَفَـدٍ مُوَصَّـلِ
كمـا سَـالَ صفـوانٌ بمـاءِ سَـحَابةٍ ... عَلَتْ رَصَفَاً واستكْرهتْ كُـلَّ مَحْفَـلِ
تـراءتْ لنـا جنيـةٌ في مَسـاجدٍ ... وثوبَـيْ حريـرٍ فـوقَ مِـرْطٍ مُرَحَّـلِ
وأهللـتُ لمـا أن عرفـتُ بأنَّـهُ ... على الشَحْطِ طَيفٌ مِنْ حبيبٍ مُؤَمَّـلِ
وحلَّتْ بـأرضِ المنحنـى ثـم أصْعَـدَتْ ... بعَقْـدَةَ أوْ حلَّـتْ بـأرضِ المكَلَّـلِ
يَحُـلُّ بِعِـرْقٍ أوْ يَحُـلُّ بِعَرْعَـرٍ ... فَفـاءَتْ مَـزَارَ الزائـرِ المُتَدَلِّـلِ(١)

وهكذا تبدو ألوان الصورة قاتمة الظلال من خلال تلك الكآبة التي يستشعرها الشاعر حين تلم به أحزانه اثر محبوبته التي نأت وغيرت الرياح رسوم ديارها، حتى أصبحت هذه الديار المتهدمة والتي أقوت بفعل الزمن ـ أصبحت تبكي الفتى ـ كما يقول الشاعر ـ وجميلة تلك الصورة فإذا كانت هذه الديار الخاوية قادرة على تحطيم عزيمة الفتيان من البشر فما بالنا بمن أضعفهم الزمن، وأخنى عليهم الدهر، وتبدو عاطفة الشاعر من خلال هذه الصورة متقلبة لا تستقر على حال فهو حزين كئيب لبعاد المحبوبة ورحيلها، ولكن حين تلوح له بارقة أمل في أن يرى طيف هذه المحبوبة ولو على البعد ــ يتهلل وجهه مستبشراً مكتفياً برؤية ذلك الطيف البعيد، وأنى له ذلك، وقد حلت محبوبته بأرض بعيدة عنه لم يستطع الشاعر أن يقطع في معرفتها برأي فقد تكون بأرض "المنحنى" وقد تكون بأرض "المكلل" وقد لا تكون في هذه أن تلك، وتكون قد حلت بأرض "عرق أو عرمر" وهكذا يبدو الشاعر متحسراً على ما أصابه اثر رحيل محبوبة لها في نفسه المنزلة والمكانة، وأصبح لا يعرف لها منزلا ولا يتبين لها داراً.

ولعمر بن شأس لوحة فنية أخرى يرسم من خلالها صورة لظعائن محبوبته "لهو" تلك التي صرمته وقطعت حبل وداده بعد مطال طال واستطال يقول الشاعر في هذه الصورة بعد حديثه عن مماطلة "لهو" وقطعتها له وأقصادها إياه بنبالها التي كانت تريشها له كلما رام وصالها، يقول عمرو:

---

١ـ ديوان عمرو بن شأس ص ٤٢ ـ ٤٣.

وَرَدَّ جَــواري الحَـــيِّ لمـــا تَحَمَّلـــوَا ... لبينهـــمَ مِنّـــا مُخَيَّســـةً بُـــزْلا
فتبْعَـــتُ عينـــي الحُمـــولَ صبابـــةً ... وشـوقاً وقـد جـاوزْنَ مِـنْ عـالجٍ رَمْـلا
رَفَعـــنَ غَـــداةَ الْبَيْـــنِ خَـــزاً وَيَمْنَـــةً ... وَأَكْسَـيةً الديبـاجِ مُبْطَنَـةً خمْـلا
علـى كـل فتـلاءِ الذراعــين جسْـرةٍ ... تُمـرُّ علـى الحـاذَيْنِ ذا خُصَـلٍ جَثْـلا
وَأَعْيَـــسَ نَضَّـــاحِ المِقَـــذِّ مفـــرَّحٍ ... يَخُـبُّ علـى الحِـزَّانِ يَطَّلِـعُ الحِمْـلا
تنـــاضَلُ أيديهـــا بمســـتدْرجِ الحَصَـــى ... وإنْ عِيـجَ مِـنْ أعناقِهـا وَبَلَـتْ وَبْـلا
ظعـائِنُ مِـنْ ليـثِ بـنِ بَكْـرٍ كأنَّهـا ... دُمَـي العـيْنِ لم يُخْزيْـنَ عمّـاً ولا بَعْـلا
هِجانٌ إذا استيْقَظْنَ مِنْ نومـةِ الضُّحَـى ... قَعَـدْنَ فباشَـرْنَ المَسـاويكَ والكُحْـلا
رعـــابيبُ يركُضْـــنَ المُـــروْطَ كأنمـــا ... يَطَـأْنَ إذا أعنقْـنَ في جَـدَدٍ وَحْـلا(1)

وهكذا ومما يبدو من خلال هذه الصورة الفنية التي رسمها عمرو بن شأس لأظعان محبوبته الراحلة "لهو" تبدو دقته البالغة في تتبع خطوط هذه الصورة بعين قد علقت بالأظعان، وراحت تسجل كل ما تقع عليه بعدسة قوية، واقعية، وقد بدت ألوان هذه الصورة من خلال وصف الشعراء لهذه الأكسية من الديباج والخز المبطن، الذي تسترت به هذه المحبوبة وصويحباتها أولئك اللائي شغلن الشاعر بجمال خلقن، وخلقن، وبحياتهن الناعمة الرغدة نقول: تبدو هذه الصورة زاهية الألوان مقلونة الخطوط برغم موقف الشاعر الكئيب فيها.

ولقد جاءت صورة الظعن تالية لصورة الطلل بل متداخلة فيها في كثير من الأحيان فبعد أن يقف الشاعر بالديار، ويبكيها فتثور في نفسه عواطف شتى من الشوق والحنين، نراه يشرع في الحديث عن أحبته الراحلين الذين تعلق بهم قلبه مرسلاً لغته على سجيتها في التعبير عن حالته، وعلى هذا فان الوقوف بالديار - في رأينا يشكل العنصر الأول في صورة الظعن ثم يتلوه تعبير الشاعر عن عواطفه.

والحق إن بكاء الشاعر - هنا - يمثل طلباً لاستجداء الشفقة من الآخرين حيث يبدو لنا إنساناً لا حول ولا طول فيما يحدث أمامه، وقد وزع الشاعر ألفاظه - في وصف الظعائن - منذ اللحظة الأولى لتتبعه تلك الحمول فحدد لنا وجهة هؤلاء القوم الراحلين، وغالباً ما كان يستخدم صيغة الماضي في مثل هذا التحديد لأنه يتناسب مع الذكريات يقول عمرو بن شأس:

فَتَبَّعْـــتَ عينـــي الحُمـــولَ صبابـــةً ... وشـوقاً وقـد جـاوزْنَ مِـنْ عـالجٍ رَمْـلا
رَفَعْـــنْ غـــداةَ البَيـــنِ خَـــزاً وَيُمْنَـــةً ... وأكْسِـيَةً الديبـاجِ مُبْطَنَـةً خمْـلا

ويقول سحيم:

تبصرْ خليلـي هَـلْ تَـرَى مِـنْ ظعـائِنٍ ... تَحَمَّلْـنَ مِـنْ جَنْبَـي شَـرَوْرَي غواديـا
تَـأطَّرْنَ حتَّـى قلـتُ لَمْـنَ بَوارحـاً ... ولاحقـــاتِ الحـــيِّ ألا سَـــواريا
أَخَـذْنَ علـى المِقْـراةِ أَوْ عَـنْ يمينِهـا ... إذا قلـتُ قَـدْ وَرَّعْـنَ أنزلْـنَ حادِيـا(2)

---

١ - ديوان عمرو بن شأس ص ٣٧ - ٣٨.
٢ - انظر ديوان سحيم ص ٦٤.

ويقول عبيد مستخدماً صيغة الماضي - أيضاً -:

تبـــين صـــاحبي أتـــرى حُمـــولاً يُشَـــبَّهُ ســـيرُها عَـــوْمَ الســـفين
جعلْـــنَ الفَـــجَّ مِـــنْ رَكَـــكٍ شِـــمالاً وَنَكَّبْـــنَ الطـــويَّ عَـــنْ اليَمـــينِ(١)

ويقول الكميت بن معروف رابطاً بين خلعين أحبته وبين النخيل:

اذرى النخـــل بالســـواد رأينـــا أم رأينـــا لآل هنـــد حمـــولا(٢)

ويقول بشر بن أبي خازم:

تبيَّـنْ خليلـي هَـلْ تَـرى مِـنْ ظعـائِرٍ غرائِـــرَ أَبْكـــارٍ ببرقـــةِ ثَمْثَـــمِ
دعـــاهُنَّ رِدْفِي فـــارعَوَيْنَ لصوتِـــهِ فيـــا لـــكِ بُعْـــداً نظـــرةً مِـــنْ مُكَلِّـــمِ (٣)

والملاحظ على الشعراء في مثـل هـذا الموقـف أنهـم يتوجهـون إلى صـاحبهم بـالحديث في صيغـة المضارع مثل: تبصر - تبين، انظر، وكأنها دعوة منهم للمشاركة الوجدانية في تـأمل مـا يحـدث، ثـم نراهم يميلون إلى صيغة الماضي بعد ذلك في أثناء حديثهم عن الأظعان ذاتها، وهم يحـددون الأمـاكن بدقة كما رأينا ولعل ذلك قد أعطى صروهم شيئاً من الواقعية وصدق الحدث، وأثـرى تلـك الصـور الفنية ببعد جديد، ولذلك فان تحديد المكان يعد من عناصر صورة الظعن عند هؤلاء الشعراء.

والذي بين أيدينا من شعر الأسديين في هـذا المضمـار يشـير إلى أنهـم قـد ربطـوا صـورة الظعـن بمظاهر الخصب والنماء، فمرة هي تشبه النخل وأخرى تشبه السفينة في الماء.

يقول عبيد:

كـــأن أظعـــانهُنْ نَخْـــلٌ موسَّـــقَةٌ ســـودٌ ذوائبهُـــا بـــالحِمْلِ مَكْمُومَـــةْ(٤)

ويقول بشر بن أبي خازم:

كـــأنَّ حُدوجَهُـــمْ لَمّـــا اســـتقلُّوا نَخِيْـــلُ مَحَلُـــمٍ فيهـــا يُنـــوعُ(٥)

ويكرر بشر هذه الصورة في موضع آخر فيقول:

كـــأن حمولهُـــمْ لمـــا اســـتقلّوا نخيـــلُ محلـــمٍ فيهـــا الخنـــاءُ(٦)

---

١- انظر ديوان عبيد ص ١٣٢ - ١٣٣.
٢- انظر بمجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.
٣ - انظر ديوان بشر بن أبي خازم ص ١٩٣.
٤ - انظر ديوان عبيد ص ١٢٨.
٥ - انظر ديوان بشر ص ١٣٠.
٦- انظر المصدر السابق ص ٢.

وهي عند عمرو بن شأس كالشجرة المثمرة من الدوم حيث يقول:

فانظرْ خليلي هَلْ تَرى ظُعُناً ... كالدَّوْمِ أو أشباهِهَا الأَثْلُ(١)

وكذلك هي عند عبيد بن الأبرص:

تبيَّنْ صاحبي أتَرى حُمولاً ... يَشَبَّهُ سيرُها عَوْمَ السفينِ(٢)

ويكرر عبيد الصورة في موضع آخر فيقول:

تبصرْ خليلي هَلْ ترى من ظعائِنٍ ... يَمانيةٍ قَدْ تَفْتَدي وَتَروُحُ(٣)

والواقع إن ربط الشعراء لصورة الظعن بمظهر من مظاهر الخصب المتمثل في النخيل المثمر، أو السفن العائمة، لهو في المقام الأول ارتباط ناتج عن البيئة النجدية التي عاشها هؤلاء الشعراء، ونستطيع أن نفهم منه مدى ما كان يكنه العربي من إعزاز لهذه الشجرة الخيرة، وحبه الشديد لها مما دفعه لأن يشبه ظعن محبوبته بها، وقد ذهب بعض الباحثين إلى تغيير آخر لا نستطيع قبوله، أو التسليم به فقد ربطوا بين صورة هذه المرأة الظاعنة، وبين مظاهر أسطورية قديمة تتلخص في أن صورة المرأة الراحلة هذه ترتبط بصورة الشمس التي عبدها العرب قديماً أو ربما عبدوها(٤) وعلى هذا فان إشراك الطبيعة في صورة الظعن يعد عنصراً من عناصرها الفنية، وعلى أية حال فان صورة الظعن جاءت صورة غير واقعية في كثير من جوانبها، وعلى وجه الخصوص صورة المرأة فيها، فقد بالغ الشعراء الأسديون والجاهليون ـ بعامة ـ في تصويرهم لموكب الرحيل هذا، وما يستتبع ذلك من زينة وطيب وحلي، حتى أننا لنشعر بأن هذا الموكب لا يمكن أن يكون موكب رحيل لأناس عاشوا وسط تلك الفيافي القاحلة.

يقول عبيد بن الأبرص مصوراً هذه الظعائن المنعمة:

لمن جمالٌ قبيل الصبح مزمومهْ ... ميممات بلاداً غير معلومَهْ

عالَيْنَ رقماً وأنماطاً مظاهرةً ... وَكِلَّةً بعتيقِ العَقْلِ مَقْرُومَهْ

ما العبقريُّ عليها إذْ غَدَوْا صَبَحٌ ... كأنَّها مِنْ نجيعِ الجَوْفِ مَدْمُومَهْ(٥)

وهي لا تقل نعمة وجمالاً وطيباً عند بشر إذ يقول:

كأنَّ ظباءَ أسنمةٍ عليها ... كوائسُ قالِصاً عنها المَغَارُ

يَفلِّجْنَ الشفاهَ عن أقحُوانٍ ... جلاهُ غِبَّ سارِيةٍ قِطارُ

---

١ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٣٤.

٢ـ انظر ديوان عبيد ص ١٣٢.

٣ـ انظر المصدر السابق ص ٣٠ - ٣١.

٤ـ انظر كتاب الأساطير للدكتور أحمد كمال زكي في مواضع متفرقة وانظر "الصورة الفنية في الشعر الجاهلي" للدكتور نصرت عبد الرحمن ص ١٤٢ وما بعدها.

٥ـ انظر ديوان بشر ص ٦٣، ٦٤.

وفي الأظعـــان آنســـةٌ لعَـــوبٌ تَبَيَّـــمَ أهلُهـــا بَلَـــداً فمـــارُوا
مـــن اللاتـــي غُذِيْـــنَ بغَـــيْرِ بُـــؤْسٍ منازِلُهـــا القُصَيْبَـــةُ فـــالأوارُ
نبيلـــةُ موضِـــعِ الحِجْلَيْـــنِ خَـــوْدٌ وفي الكَشْـــحَيْنِ والبَطْـــنِ اضطّمـــارُ(١)

وكذلك عند عمرو بن شأس:
رَفَعْـــنَ غـــداةَ خَـــزّاً وَيُمْنَـــةً وَأَكْسِـيَةَ الديبـــاجِ مُبْطَنَـــةً خَمْـــلا(٢)

وهي تحكي الذهب والياقوت عند الكميت بن معروف إذ يقول:
وَفِي الهـــوادِجِ غِـــزْلانٌ مُنَعَّمَـــةٌ تَحْكِي الزبرجَـدَ واليـاقوتَ والذَهَبـا(٣)

والحق أننا لم نر مبالغة أشد من هذه المبالغة التي نراها في صورة الظعن عند شعراء بني أسد في تصويرهم للمرأة بعامة، ويمكننا أن نطمئن إلى أن هذا العنصر قد أسهم في تشكيل الصورة الفنية هذه، ومن الملاحظ أن صورة المرأة الظاعنة تبدو صورة قوية الأركان، وان تجاوزنا في القول فإننا نقول: بأن الشاعر قد جردها من العواطف نحوه فلم نشاهد لها صوباً أو حركة، أو رد فعل، في كل ما يحدث بل رأينا أن المصائب كلها تحل على الشاعر وهو وحده المتحمل والمتألم، المعاني الذي يكابد هذه الحسرات بينما الطرف الآخر ينعم بكل أسباب الراحة والنعمة ومظاهر الثراء، وقد دلت لغة الشاعر في هذا المجال على هذه المعاني بكل وضوح حيث وزع الشعراء ألفاظهم وعباراتهم على تلك المعاني بصورة عادلة ـ إن صح التعبير ـ فمنها ما جاء متصلاً بالحياة البدوية في الجاهلية من مثل الظعائن، الجمال، مزمومه، حمول، الحداة، حدوج، الخ.. ومنها ما جاء متصلاً بالبيئة ذاتها من مثل ذكر أسماء الأماكن والمياه والأودية وغير ذلك، ومنها ما جاء متصلاً بالبيئة ذاتها من مثل ذكر أسماء الأماكن والمياه والأودية وغير ذلك، ومنها ما جاء متصلاً بالحياة الحضرية التي عرفها بعض العرب من خلال اختلاطهم بالأمم الأخرى كالأنماط، والرقم، وغير ذلك من أدوات الزينة والطيب. وعلى أية حال، فقد صور لنا الشعراء الأسديون صورة الظعن في لغة شعرية ذات دلالة خاصة عبروا من خلالها عن بعض المشكلات التي عانوا منها، وقد أظهروا من وراء ذلك بعض جوانب حياتهم، وهي وإن جاءت متسمة بالحزن إلا أنها خرجت من إطارها هذا لتشمل قطاعاً واسعاً من حياة الإنسان في ذلك العصر البعيد، وقد حملت من الأبعاد والمضامين ما يؤهلها لأن تكون جزءاً مهماً، أو وسيلة من وسائل الشاعر الفنية المثيرة.

---

١ـ انظر ديوان بشر ص
٢ـ انظر شعر عمرو بن شأس ص ٣٧.
٣ـ انظر مجلة المورد العراقية عدد فبراير ١٩٧٥.

# صورة المرأة وأبعادها:

إن صورة المرأة من الصوز التي وقف عندها الجاهليون طويلاً، ولم يتركوا شيئاً فيها إلا صوروه من جمال وزينة، وأخلاق، وان نظرة متأنية إلى آثارهم الأدبية التي خلفوها لنا لتوضح إلى أي مدى بلغ اهتمامهم بالمرأة فقد احتلت المرأة مكاناً فسيحاً في أشعار الجاهليين والأسديين على وجه الخصوص.

والحق أن المرأة كانت تمثل في حياتهم عنصراً من عناصر الاستقرار، فمنزلها هو المكان الذي تطلع إليه الشاعر في حربه وسلمه، وديارها كانت محور عواطفه في أحاديثه عنها، وإزجاء التحية إليها.

وإذا ما نظرنا إلى أشعار بني أسد في الحقبة الجاهلية لنتلمس صورة المرأة، وجب علينا أن نتتبع هذه الصورة في أقدم ما نعرفه من شعر لهذه القبيلة أولاً، ثم نتدرج مع هذا الشعر حتى نصل إلى بداية الفتوحات الإسلامية أو بالأحرى ـ نهاية الحقبة الجاهلية ـ كي نقف على معالم الصورة ومدى التطورات التي لحقت بها سواء على صعيد الأبعاد والمضامين، أم اللغة والعبارات والألفاظ.

إن شعراء بين أسد ـ كغيرهم من الجاهليين ـ صوروا المرأة من خلال أشعارهم في ثلاثة اتجاهات ـ مرت بنا في غير هذا الموضع ـ إلا أننا سنقف في الصفحات التالية على ضروب هذا التصوير، ووسائله الفنية التي اتبعها هؤلاء في تصويرهم للمرأة، وبما أن عبيد بن الأبرص يعد من اقدم شعراء هذه القبيلة، فقد رأينا أن نبدأ به، ويمكننا القول: أن صورة المرأة عند هذا الشاعر الأسدي تنقسم إلى ضربين من التصوير كان الشاعر في الضرب الأول منهما يصور المرأة الحرة ـ عموماً ـ وقد غلب هذا الضرب من التصوير معاني العفة، والطهارة، والنقاء، والأصالة في المحتد والمنبت، وكانت لغة الشعر في هذا الضرب تميل إلى الإيجاز في العبارات، ولا تجنح بالشاعر نحو الخيال الجامح، أو العاطفة المشبوهة، وهذا العنصر من عناصر الصورة الفنية سنجده عند بقية شعراء بني أسد وليس عند عبيد وحسب، وأما الضرب الثاني من هذا التصوير، وذلك الوصف فان عبيداً ـ يبدو من خلاله ـ مثله مثل كل شعراء الجاهلية غير المتعففين، عندما يعبرون عن عواطفهم تجاه المرأة كامرئ القيس مثلاً وان كنا نرجح أن يكون غزل امرئ القيس الفاضح نتيجة تأثره بعبيد بن الأبرص.

فعبيد في هذا الضرب من التصوير صور المرأة بوصفها مخلوقة للمتعة الحسية، ويفيض في ذكر محاسنها، وإبراز مفاتنها، وقد يصرح باسمها في بعض الأحيان، وهو لا يخرج في هذا التصوير عما ألفه سائر الشعراء الجاهليين في هذا المضمار.

ولسوف نورد لعبيد أهم صوره للمرأة العشيقة، أو الخليلة. يقول عبيد مصوراً إحدى مغامراته:

وَلَقَدْ أدخلُ الخِباءَ على مَهْضُو  مَةِ الكَشْحِ طَفْلَةٍ كالغَزالِ
فتعاطيتُ جيدَها ثُمَّ مالتْ  مَيَلانَ الكثيبِ بينَ الرمالِ
ثُمَّ قالتْ فدىً لنفسكَ نَفْسي  وفداءٌ لمالِ أهلِكَ مالي(١)

---

١ـ ديوان عبد ص ١١٠.

إن هذه الصورة الفاضحة التي رسمها عبيد لهذه المعشوقة لهي صورة جريئة إذ تنصب في كل خيوطها على تصوير جسد المرأة تصويراً سافراً منكشوفاً دونما أي اقتصاد من الشاعر في الحديث عن لذته مع هذه المعشوقة التي اعتمد في تصويره لها على التفصيل مستخدماً التشبيه الذي يبرز المعنى الذي يصبو إليه الشاعر، فمعشوقة عبيد في هذه الصورة دقيقة الخصر ناعمة الجسم كالغزال، وهذه من أجمل صفات المرأة أن يكون خصرها دقيقاً لا مكتنزاً باللحم، وأن يكون جسدها بضاً ناعماً يثير الرجل العابث والمحب غير الوقور، ثم يفرغ الشاعر من حديثه عن جسد محبوبته، وخصرها خلال بيت واحد ليسجل علاقة المرأة بعشيقها، ويصور لحظات ضعفها أمام الرجل، وكيف تهاوت كما يتهاوى كثيب من الرمال الهشة أمام الريح القوية، وإنها لصورة فاضحة لا نراها عند أغلب شعراء الجاهلية، وليس شعراء بني أسد وحسب.

ولعل الشاعر قد قالها في فترة من فترات شبابه العابث اللاهي لاسيما إذا عرفنا أن هذا الشاعر كان كثير التردد على بلاد الحيرة حيث الجواري والقيان، وما يستتبع وجود أولئك من انحلال خلقي وفساد اجتماعي.

والملاحظ على عبيد في تصويره لهذه العلاقة تركيزه على فتوة وشباب هذه المرأة المعشوقة وما تتمتع به من صفات حسية من جمال صدر، ونعومة وبياض، ولهذا فهو ينتخب من اللغة ما يشير إلى تلك الصفات "مهضومة الكشح، طفلة"، ثم انه لا يقتصد في تصوير ما يحدث بين الرجل والمرأة في مثل تلك العلاقة غير البريئة، وعلى هذا فان المبالغة في تصوير الجمال الجسدي والجرأة الفاضحة يعدان عنصرين من عناصر صورة المرأة في هذا المضمار.

وقد استطاع الشاعر أن يرسم لنا ذلك الجو المحموم المستعر بالشهوة من خلال استخدامه لعناصر اللغة وتفجيره لإمكاناتها، فهو يدلل على المشاركة باستعماله "تعاطيت" "ثم مالت ميلان الكثيب" "ثم فدى لنفسك نفسي" "ثم" وفداء لمال أهلك مال" إن هذه التركيبات اللغوية لتفصح إلى حد بعيد عن تجربة الشاعر، وقد أثرت الصورة بظلال وألوان عديدة وهو يكرر تصوير مثل هذه العلاقة في صورة أخرى حيث يقول:

وَقَدْ تبطَّنْتُ مِثْلَ الرئْمِ آنسةً ... رودَ الشبابِ كَعاباً ذاتَ أَوْضاحِ
تُدفِي الضجيعَ إذا يشتو وَتَخْصِرُهُ ... في الصيفِ حين يطيبُ البردُ للصاحِ[1]

إن الشاعر في هذه الصورة التي لا تقل عرياً وافتضاحاً، عن سابقتها يركز اهتمامه على فترة تلك المعشوقة، وعلى جمالها أولاً، ثم يشير إلى رغد عيشها ومظاهر زينتها، ونلمح عنصراً ثالثاً يضيفه الشاعر إلى هذه الصورة، وهو حسن المعاشرة من قبل هذه المرأة، وعموماً فان الصورة لا تعدو في خطوطها العامة الصورة السابقة عليها، فالمرأة رئم هنا وهناك وذلك تشبيه مألوف عند الجاهليين - بعامة - وهي صغيرة السن ناعمة الملمس بضة الجسد، وبها ميل شديد إلى الرجال الذين تحسن معاشرتهم واجتذابهم إليها، وقد استعان الشاعر بوسائل فنية مختلفة من أجل إبراز صورتها كاللغة وغيرها مما كان يحمل دلالات خاصة أراد الشاعر الإفصاح عنها.

---

١- انظر ديوان عبيد ص ٤٠

وقد استخدم الشاعر عبارات محددة في تصويره مثل مثل "تبطنت" وساق لنا بشكل متلاحق بعض الصفات التي تختص بها تلك المرأة من مثل آنسة، رود، الشباب كعاباً ذات أوضاح، ليؤكد بها أركان صورته الفنية، ثم نراه يستعمل الفعل "تدفي" بما يحمله هذا الفعل من دلالة وبخاصة حين اختار له الشاعر وقت الشتاء حيث يكون الإنسان بحاجة إلى الدفء، أما في الصيف فهي "تحضره" وبالتالي: فان هذه المرأة تكون الحاجة إليها على الدوام هذا ما كان يود عبيد أن يفصح عنه فيما يبدو.

ونقع على صورة فنية ثالثة لهذه المرأة يشكلها الشاعر على نحو آخر، وضمن إطار معروف في الصورتين السابقتين إذ يقول:

وَغَيْلَةٍ كمهاةِ الجَوِّ ناعِمَةٍ ... كأنَّ رِيقَتَها شِيبَتْ بِسَلْسَالِ
قَدْ بِتُّ أَلْعَبُها طَوراً وَتُلْعِبُنِي ... ثم أنصَرَفْتُ وَهْيَ مِنِّي على بالِ(١)

هذه صورة المعشوقة عند هذا الشاعر، وقد جاءت في عمومها موجزة غير مطولة أو مسهبة كما رأينا في صورة الحرب والفخر ووصف الطبيعة، وقد لونها الشاعر بما يناسبها من ظلال وخطوط، وأعد لها من العبارات والألفاظ، والتراكيب اللغوية ما يبرزها بشكل جلي فدلل على حركتها، وأثراها بالحيوية، وعبر عن مدى تذوقه للجمال، وهو تذوق عال كما يشير شعره في هذا المجال، ولقد ساق الشاعر صوره بحسية دون أدنى التزام، أو تقيد بالأعراف والتقاليد. وقد كان في ذلك يستقي مادة صوره من بيئته المحيطة به، فإذا استطلعنا صورة المرأة الحرة عنده، وجدناها تقف على النقيض ـ تماماً ـ من صورة المعشوقة أو الخليلة، فالالتزام والتحرج، وعدم الخوض في التفاصيل وفي تصوير المفاتن والاهتمام بدلاً من ذلك كله ببعض النواحي المعنوية من حسن حديث وغيره كل هذه سمات تميز هذه الصورة، وتفردها عن غيرها من صور المعشوقات اللاتي كان الشاعر يلهو بهن في أوقات معينة.

ويبدو عبيد من خلال تصويره للمرأة الحرة، أو الزوجة رجلاً متزن العواطف كابحاً لجماح نفسه، غير منساق وراء خياله وعاطفته المشبوبة، كما نلحظ كذلك علو صوت العقل في الصورة، وقد استطاع الشاعر أن ينفذ إلى أعماق المرأة، يصورها لنا في لقطات بارعة برزت فيها مقدرة الشاعر على التلوين المعبر ـ حقاً ـ عن نفسية تلك المرأة، وزاد عليها عنصر الحركة يقول عبيد مخاطباً زوجه ناصحاً لها:

وَدَعِي مَطَّ حاجِبَيْكِ وَعِيشي ... مَعَنا بالرجاءِ والتأمالِ(٢)

لا شك أن هذه الصورة نابعة من صميم النفس البشرية ـ إن صح التعبير ـ لا من نفس الشاعر فحسب ابتعد فيها الشاعر عن الاهتمام بالجانب البلاغي إلى حد بعيد، وذلك لأن الموقف فيما يبدو موقف حياة يخط العقل دروبها، وتمهد الحكمة والاتزان مسالكها، فهو يخاطب زوجته من موقع المسؤول لا اللاهي العابث، ثم انه يعالج بل يصور مشكلة دائمة في بيته، مما يترتب على ذلك أن

---

١ـ انظر ديوان عبيد ص ١٠٣.
٢ـ انظر ديوان عبيد ص ١٠٧.

يحسمها ويصل فيها إلى حل مقنع - وقد مر بنا في غير هذا المكان من البحث موقف شعراء بني أسد من المرأة الزوجة والحياة السرية بوجه عام - كنا قد وقفنا على بعض الحلول المشابهة له عند الجميح وحاجب بن حبيب ولا حاجة بنا إلى التكرار هنا.

ولعل الصورة تختلف عند بشر بن أبي خازم الأسدي حيث تمثل المرأة عنده المحبوبة التي تعلق بها قلبه واطمأنت إليها سريرته، فإذا ما رحلت بكى واشتكى وسل الدمع وجناته وبدا ضعيفاً لا يجد في نفسه العزيمة والصبر، ولذلك فهو عند الحديث عنها نراه يجمع فيها كل ما يستطيع من الصفات المعنوية والحسية يقول بشر مصوراً المرأة:

وَفِي الأَظْعَانِ آنسةٌ لَعُوبٌ ... يَتَمَّمُ أهلُها بَلَداً فساروا
مِنَ اللائِي غُذِينَ بِغَيْرِ بُؤْسٍ ... منازلُها القصيبةُ فالأوارُ
غذاها قارص يَجْرِي عليها ... ومحضٌ حين تنبعثُ العِشَارُ
نَبِيلَةُ موضعِ الحِجْلَيْنِ خَوْدٌ ... وَفِي الكَشْحَيْنِ والبَطْنِ اضطمارُ
ثَقَالٌ كلما رامتْ قِيَاماً ... وفيها حينَ تنبعثُ انبهارُ(١)

فمحبوبة بشر آنسة ولعوب، وجميلة الجسم، ضامرة الخصر والكشحين، وهي شابة حسنة، وعلاوة على هذا كله فهي ابنة نعمة، وهذه كلها أوصاف تضفي على محبوبة بشر حسناً وجمالاً دون أن تخدش لها حياء، أو تريق لها ماء وجه.

ويتطرق بشر - بعد أن ينتهي من سرد صفات هذه المحبوبة - إلى وصف لقائه بمحبوبته - كما فعل عبيد - وشتان ما بين اللقاءين، فلقاء بشر يقف عند حدود ذكر الصفات السالفة الذكر، ثم يتحدث الشاعر عما أصابه من وجد، وعما ألمّ به من ألم بعد رحيل الحبيبة التي تمتلك كل أدوات هذه الزينة وذلك الجمال، وان حبيبة كهذه ليخلف رحيلها وبعادها بمن تحب حسرات في النفس، وخور في العزيمة والقدرة على الاصطبار، فهذا أمر طبيعي وقد عبر عنه بشر حين قال بعد فراغه من الحديث عن تلك الخصال:

فَبِتُّ مسَهَّداً أَرِقاً كأنّي ... تَمَشَّتْ في مفاصِلِيَ العُقَارُ
أراقبُ في السماءِ بناتِ نَعْشٍ ... وقد دارتْ كما عَطَفَ الصُّوارُ(٢)

وهذه صورة أخرى لمحبوبة بشر قوامها الحديث عن جمالها، ووداعتها ولطفها ومدى رقتها، ولعلها تفصح عن نظرة بشر تجاه المرأة أو على الأقل توضح لنا جانباً من هذه القضية يقول بشر:

كَأَنَّ الأتحميةَ قامَ فيها ... لِحُسْنِ دلالِهَا رشأٌ مُوافِي
مِنَ البيضِ الخُدودِ بِذي سُدَيْرٍ ... يَنُشْنَ الغُصْنَ مِنْ ضَالٍ قِضَافِ
أو الأُدْمِ المُوَشَّحةِ العَواطِي ... بأيديهِنَّ مِنْ سَلِمِ النِّعَافِ
كَأَنَّ مَدامةً مِنْ أَذْرُعَاتٍ ... كُمَيْتاً لونها لونُ الرُّعَافِ

١- ديوان بشر ص ٦٤ - ٧٥.
٢- ديوان بشر ص ٦٥.

عَلَى أنيابِها بغريضِ مُزْنٍ ... أحالتْهُ السحابةُ في الرِّصافِ(١)

فبشر في هذه الأبيات يرى محبوبته وقد ظهرت في الثياب الأتحمية كأنها الرشأ المشرف من مكان عال ينظر، أو أنها من غزلان، "سدير" التي تتناول أغصان الشجر الدقيق الرقيق، أو هي ظبية قد أشرب لونها بياضاً لها طرتان من جانبيها تخالفان لونها كالوشاح تتطاول وترفع يديها على الغصن وتضعهما ثانية في محاولة منها لتناول طعامها، وهكذا فالمحبوبة خلال هذه الأبيات الثلاثة لم تخرج - في نظر الشاعر - عن كونها ظبية أو غزالاً رقيقاً هادئاً وديعاً، وهي صورة تحمل من خلال ظلالها، وألوانها وحركاتها، وسكناتها كل ما يختلج في نفس الشاعر، وما يجيش بصدره من أحاسيس تجاه هذه الحبيبة الوادعة.

ونرى الشاعر كلفا بالحديث - في صورة أخرى - عن استمتاعه بقضاء الوقت عند محبوبته ولكنه ليس كذلك الاستمتاع الذي وقفنا على بعض منه عند عبير فاستمتاع بشر مشوب بالحياء منوط بالخجل محاط بسياج التمسك بالقيم يقول بشر في لوحة يصور فيها المرأة الحبيبة:

أهمتْ منكَ سلمى بانطلاقِ ... وليس وِصَالُ غانيةٍ بباقِ

تغَيّرَ عَسْعَسٌ مِنْها فَشَبْرقُ ... فأيْنَ مِنَ آلِ سلماكَ التلاقي

غداةَ تبسَّمَتْ عن ذي غُروبٍ ... لذيذٍ طَعْمُهُ عَذْبُ المَذاقِ

مُقلَّدةً سُموطاً مِنْ فَريدٍ ... يزينُ الجيدَ مِنْها والتَّراقي

هضيمِ الكَشْحِ ما غَذِيَتْ بِبُؤْسٍ ... ولا مُدَّتْ بناحيةِ الرِّبَاقِ(٢)

وهكذا فان أقصى ما يصرح به بشر في هذه الصورة التي رسمها لمحبوبته هو عذوبة ريقها، ولا أكثر من هذا، ثم يتحدث عن حليها وزينتها ورفاهيتها وجمال خصرها، وكشأنه في كل صورة رسمها لهذه المحبوبة.

وإذا تركنا بشراً إلى شاعر أسدي آخر لننظر فيما رسم من لوحات للمرأة المحبوبة، وجدنا هذا الشاعر وهو عمرو بن شأس الأسدي لا يبعد كثيراً عما صور به الشعراء المتعففون المرأة حين تحدثوا عن جمالها وحيائها، ورقتها إلى غير ذلك من الصفات التي أحبوها في المرأة، يقول عمرو بن شأس في إحدى لوحاته:

ليالِيَ تستبيكَ بجيدِ رئمٍ ... وعينَيْ جُؤذَرٍ يَقْرو الصرَّيما

وأنفٍ مِثْلِ عِرقِ السامِ حُرٍّ ... وتسمعُ منطلقاً منها رَخيما

بَرَهْرَهَةٌ يَحارُ الطَّرفُ فيها ... وتُبْدِي واضحاً فخماً وسيما

وتَبْسِمُ عن شتيتِ النَّبْتِ غُرٍّ ... عِذابٍ تُبْرِئُ الدَّنِفَ السَّقيمَا

تَبُذُّ الغانياتِ بكُلِّ أرضٍ ... إذا أخَذتْ وِشاحاً أوْ بَريمَا

وتملأُ عَيْنَ مَنْ يَلْهو إلَيْها ... ولَسْتَ بواجدٍ فِيهَا مَذيما(٣)

---

١- ديوان بشر ص ١٤٣ - ١٤٤.
٢- ديوان بشر ص ١٦٠ - ١٦٢.
٣- انظر ديوان عمرو بن شأس ص ٥٢ - ٥٣.

وهكذا فجمال محبوبة عمرو يستوي وجمال الرئم، وأنفها دقيق، كأنه عرق من الذهب الخالص، وتمتاز بصوت هادئ رخيم غير مزعج، وهي مؤنسة لصاحبها غير منفرة له، وإذا ما تبسمت فمن ثغر جميل حلو الملامح والقسمات، وعلى هذا فهي تبذ كل الغانيات، لأنها مثال الجمال في عين الشاعر تملأ عينيه، وعين كل من تطلع إليها، أو وقع بصره على جمالها، هذه الصورة المفضلة للمرأة في شعر عمرو بن شأس الأسدي، وقد مر بنا في غير هذا الموضع موقفه من المرأة الزوجة أم حسان، وقصتها مع ابنه عرار ولا نريد التكرار حيث لا مكان له في هذا الفصل[1].

وخلاصة القول: إن صورة المرأة عند شعراء بني أسد ـ الجاهليين منهم ـ قد جاءت صورة فيها بعض ملامح الصفة الشعرية التي كانت تمثل في استخداماتهم اللغوية وفي اختيار عباراتهم وألفاظهم بما يناسب المواقف التي عانوا منها، وأرادوا تصويرها والإفصاح عنها، وهم لم يعمدوا إلى الجانب البلاغي كثيراً في تصويرهم ذاك، إلا أننا لم نعدم وجوده بوصفه عنصراً من عناصر الصورة الفنية في الشعر بعامة، وقد رأينا هذا الجانب مبثوثاً في أثناء صورهم من غير ما قصد إليه، ولكنهم تلمسوا هذه البلاغة في حسن الاستخدام اللغوي على نحو آخر بالإضافة إلى التشبيه والكناية، فقد رأيناهم يكررون بعض الحروف أو الألفاظ المعينة، وربما أتوا بالصفات المتوالية المتلاحقة على نحو معين مما يثري الصورة، ويجعل قيمتها التعبيرية عالة جداً، ويزودها بإيقاع خاص كما مر بنا في مواضع كثيرة من بناء القصيدة والصورة الفنية عند هؤلاء الشعراء.

وقد اختلف خط هؤلاء الشعراء في تناول هذه الصورة الفنية فمنهم الذي أفحش في التعبير والتصوير، ومنهم من اقتصد في ذلك إلى حد، ومنهم من كان أكثر اتزاناً وأسمى عاطفة، ولقد كانت صورة المرأة ـ عموماً ـ مرآة عكست لنا جانباً مهماً من حياة هؤلاء الشعراء، وطرفاً من الحياة الاجتماعية السائدة في ذلك الزمان، وقد أفصحت لنا عن بعض الدلالات التي حملها الشعراء لهذه الصورة مما كان يعمل في نفوسهم من صراع تجاه ما يحيط بهم من ظواهر، أو ما كان محيطاً بأنفسهم ذاتها.

---

١ـ انظر في هذا البحث ـ الفصل الخاص بالشعر الفردي ومثله موقف حاجب بن حبيب الأسدي من زوجته ومحاورته إياها حين ألحت عليه ليبيع فرسه "نادق".

# صورة الثور الوحشي وأبعادها:

لقد كان الحديث عن هذه الصورة التي شغلت أذهان الجاهليين ـ بعامة ـ في معرض الحديث عن الناقة، وقد جاءت الصورة في أشعار الأسديين زاخرة بالأشكال والألوان والخطوط، ومعبرة عن أبعاد نفسية عميقة الغور في نفوس هؤلاء الشعراء، فشملها تصويرهم كما شمل كل مظاهر البيئة المحيطة بهم التي دققوا فيها النظر إلى حد بعيد.

والواقع إن شعراء بني أسد قد صوروا هذه الصورة الفنية بكل جزيئاتها، وربطوا بين عناصرها وبين مظاهر البيئة، وكانوا موفقين في ذلك الربط إلى درجة كبيرة حتى انه ليصل ـ أحياناً ـ إلى درجة التوحد والمزج في تأليفهم لنسيج هذه الصورة.

والثور الوحشي يمثل رمزاً للقوة في أشعار الجاهليين عموماً كما يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة[1] إلا أنه لا يصمد أمام قوة الموت وقدرته، وقد كان كذلك حقاً في أشعارهم إلا أنه بالإضافة إلى كونه أحد رموز القوة، فقد حمله الشاعر الجاهلي أبعاداً أخرى، جعلت منه رمزاً للكفاح والنضال والمعاناة القاسية التي كان يعاني منها الشاعر ذاته، فالثور الوحشي ـ عند كل الشعراء الجاهليين ـ يواجه ليلة باردة ذات ريح ومطر غزير، وينبغي أن تكون هذه الليلة من ليالي الشتاء، ويحاول الثور ـ إزاء هذا الوضع الصعب ـ أن يجد له ملجأ يحميه من صروف الطبيعة، وغالبا ما يجد مثل هذا الملجأ في ظل شجرة من الأرطي يحتفر لنفسه عند أصولها مبيتاً فلا يكاد يفلح نتيجة للرمال الهشة المتداعية فإذا ما لاحت خيوط الضوء مع إشراقة الشمس صبحه خطر آخر يتمثل في شخص صياد ماهر يتربص به، ولعل هذا الصياد قد عرف بعمق التجربة والخبرة والدربة، وكذلك كلابه المدربة الضاربة، ويمعن الشاعر في تجسيم الخطر المحدق بالثور، وبإضفاء الواقعية على الحدث، فيسوق لنا نسب الصياد ـ غالباً ـ ويسمي كلابه مما يدفعنا إلى الاقتناع بضخامة ذلك الخطر الذي يتهدد الثور.

ولا يجد الثور بدا من المواجهة، ويقبل التحدي ـ كارهاً ـ بعد أن يسلم قوائمه القوية للريح هرباً من المعركة في بداية الأمر، ولا تبدأ المعركة ـ عادة إلا بعد أن تلحق الكلاب بالثور وتجرحه، أو تكاد تنال منه عندها يكر راجعاً عليها بروقيه، ويوردها حتوفها، ويكشفها عنه حتى إذا زال خطرها، ونجا منها رأيناه مزهواً بانتصاره قاصداً إلى هدف غير محدد، وكأنه يقصد المجهول، وعن هذه اللوحة يحدثنا الدكتور نوري القيس فيقول: "إن الخيوط التي ربط الشاعر بها حركات هذا الحيوان ظلت في يده منذ اللحظة الأولى، وظل الشاعر هو الشخص الوحيد الذي يملك القدرة على تحريكه كيف يشاء لأنه العنصر الأساسي في نهاية الصورة ونقطة الارتكاز في نقل مشاعر الشاعر إلى الممدوح، ولهذا كان الاهتمام به اهتماماً كبيراً وقد نسجت وفق تصور قصصي بارع والشاعر قد رسم لكل واحد من شخوص الصورة دوره المرتقب، ووضع له مجال تحركه وحدد له الخطوات التي

---

١ـ انظر الشعر العربي من الجاهلية إلى القرن الأول الهجري للدكتور محمد مصطفى هدارة ص ٣٠ ـ ٣٢.

يجب أن يخطوها، فالصياد له دوره الذي يؤديه والكلاب لها موقفها الذي حدد لها، ولا يمكن أن تحيد عنه فهي مهزومة أو مقتولة، والثور في الصورة يمثل البطل الذي رسم له الانتصار، وكتب عليه أن يكون الفائز في المعركة الحاسمة لأنه صورة الناقة ونموذج الوسيلة التي ركبها الشاعر من أجل الوصول إلى الغاية"(١).

واهتمام الجاهليين بالثور الوحشي ويجعله رمزاً للقوة والنشاط ربما كان راجعاً إلى مكانة هذا الثور عند قدمائهم، وليس من المستغرب أن يجعلوه رمزاً للبطولة أيضاً فالدكتور جواد علي يذكر في كتابه المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام أن عبادة الثور كانت سائدة في صورة الجاهلية الأولى، وقد اتخذ العرب الجنوبيون من الثور رمزاً لإلههم "القمر" فعد من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الآلهة وقد دعى القمر في بعض النصوص ثوراً"(٢).

ولسوف نحاول في الصفحات التالية أن نستعرض صورة هذا الثور عند شعراء بني أسد الجاهليين لنتبين إلى أي مدى قد اتضلت هذه الصورة بأحاسيسهم ومشاعرهم، وارتبطت بدخائل أنفسهم وخلجات صدورهم، ولنقف على المضامين التي حملتها هذه الصورة، أفصح عنها شعراء هذه القبيلة في أشعارهم، وقد خيل إلينا أنه من المستحسن أن نبدأ بآخر شعراء هذه القبيلة من حيث الترتيب الزمني لهؤلاء الشعراء ذلك هو سحيم عبد بني الحسحاس الشاعر الأسدي "المخضرم". يقول سحيم في معرض حديثه عن ناقته وتشبيهها بثور وحشي:

شَبوباً تَحاماه الكِلابُ تحامياً ... هو الليثُ مَعْدُوّاً عليهِ وعادِيا
حَمَتْهُ العِشاءَ ليلةٌ قِرَّةٍ ... بوعساءِ رَمْلٍ أو بَحَزْنانَ خَالِيا
يُثيرُ ويُبْدِي عن عُروقٍ كأنَّها ... أعِنَّةُ خَرّازٍ جديداً وبالِيَا
يُنَحِّي تُراباً عن مَبيتٍ ومَكْنَسٍ ... رُكاماً كَبَيْتِ الصَدنانّي دانِيا
فَصَبَّحَهُ الرامِي مِنَ الغَوْثِ غُدْوَةً ... بأكلُبِهِ يُغْرِي الكِلابَ الضَّوارِيَا(٣)

والمتأمل في صورة سحيم للثور الوحشي هذا يدرك كيف ربط الشاعر بذكاء بين ذلك الثور الأبيض اللون القلق، المتيقظ، المتنقل من مكان إلى مكان، وقد تحاشته كلاب الصيد لمنعة جانبه، وبين الأرض التي كانت هي الأخرى عامل منع برملها الهش المهيل هذا من جهة، وبين حياة هذا الحيوان في فصل الشتاء القارس حيث يبحث الثور عن ملجأ يلوذ به ليقيه شرور الطبيعة من برد وريح، وأمطار، وقد اختار له الشاعر ليلة باردة فهي "ذات قرة" ونراه يحفر في أصول شجرة للوصول إلى جذورها الغائرة في التربة ليتمكن من إيجاد مبيت له، وهو في ذلك كله إنما يفعل كما يفعل الثعلب، وهو يزيل التراب عن مبركه، لقد ارتبطت صورة الثور عند سحيم بتقاليد العرب في

---

١ـ انظر وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية للدكتور نوري القيسي ص ٤٠ وما بعدها.

٢ـ انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد علي الجزء الخامس ص ١٢٣ وما بعدها "وان من معاني كلمة الثور بالعزبية" السيد" راجع لسان العرب، ويبدو أن أقوام الهلال الخصيب قد عبدت الإله الثور أو نظرت إليه نظرة مقدسة. وتقربت إليه بالصلاة والقرابين لتنال صفاته المميزة وهي القوة والخصب، ويبدو أن المصريين القدماء قد عرفوا عبادة الثور أيضاً في زمن مبكر جداً. انظر أسطورة إيزيس وأوزوريس تأليف بلوتارجري ترجمة الدكتور حسن صبحي بكري طبع القاهرة ١٩٥٨ ص ٤٠، ٥١.

٣ـ انظر ديوان سحيم ص ٢٩ - ٣٠.

الصيد والقنص حيث الصياد بصحبة كلابه الضارية المدربة المجموعة، وقد اختاره سحيم بن قبيلة الغوث المشهورة بالمهارة في مثل هذا المجال، ومن ثم نجد سحيماً قد اختار الوقت المناسب للمواجهة، وهو الصباح الباكر، ويبدو لنا أن سهام الصياد قد طاشت فلم يجد بداً من إغراء كلابه باللحاق بهذا الثور علها تفلح فيما أخفق فيه، ومن الملاحظ إيثار اللون الأبيض، وخلعه على هذا الثور ـ من قبل الشاعر ـ المنتصر، يقول سحيم:

فجـالَ علـى وحشيِّهِ وتخالُهُ ... علـى مَتْنِـهِ سِبّاً جديـداً يَمانيـا
يـذودُ ذِيـادَ الخامسـاتِ وَقَـدْ بَـدَتْ ... سـوابقُها مِـنَ الكِـلاَبِ غَواشـيا(١)

والواقع أننا نطالع أكثر من لوحة عريضة لهذا المنظر عند شعراء بني أسد ومن هؤلاء بشر بن أبي خازم، وعبيد بن الأبرص، وقد يخيل إلينا في هذه اللوحات جميعاً أن مبدعها واحد، وأنها كانت نتيجة عدسة واحدة في التصوير لما فيها من عناصر التشابه وتوحد الظروف المحيطة بهذه الصورة، فبشر بن أبي خازم يصور لنا لوحة لهذا الثور لا تختلف كثيراً عن لوحة سحيم السابقة، ولنتأمل مدى توافق الشاعرين في هذا المجال.

من المعروف أن بشراً كان قد عاش في مرحلة سابقة على تلك التي عاش سحيم خلالها مما يحملنا على الظن بأنه أثر فيمن جاء بعده من شعراء بني أسد، وعلى وجه الخصوص سحيم عبد بني الحسحاس. يقول بشر مصوراً ثوراً وحشياً:

فبـاتتْ عليـهِ ليلـةٌ رجبيـةٌ ... تكفئـه ريـح خـروق وتُمْطِـرُ
وبـاتَ مُكِبّـاً يتّقيهـا بِرَوْقِـهِ ... وأرطـاةِ حقـفٍ خانَهـا النَّبْـتُ يحفِـرُ
يثـيرَ ويبـدي عـن عـروق كأنها ... أعنـةُ خـرازٍ تَحُـطُ وتُبْشَـرُ
فـأضحى وصئبـانُ الصقيـعِ كأنّها ... جُمـانٌ بضـاحي متنِـهِ يتحـدّرُ
فـأدّى إليـهِ مطلـعُ الشـمسِ نبـأةً ... وقـد جعلـتْ عنـه الضبابـةُ تَحْسِـرُ
تمـارَى بهـا رأدَ الضُحَـى ثـمَّ ردَّها ... إلى حُرَّتَيْـهِ حـافظُ السـمعِ مُبْصِـرُ
وبـاكَرهُ عنـدَ الشـروقِ مُكَلِّـبٌ ... أزلُّ كسـرحانِ القصيمـةِ أغـبرُ(٢)

ولعل التأثر ـ هنا ـ لا يغيب على الباحث، فهو جلي واضح ولا يحتاج إلى جهد كبير أو عناء لإدراكه، فقد شارك سحيم بشراً حتى في دقائق الصورة كتشبيه عروق الشجر بأعنة الخراز، وفي حفر تلك العروق وفي جعل معاناة الثور واحدة ـ تقريباً ـ وهو يواجه عوامل الطبيعة، بل وصل الأمر بسحيم إلى استخدام ذات الأفعال التي استعملها بشر من قبله "يثير ـ يبدي" وإذا كان هذا شائعاً ومألوفاً بين شعراء الجاهلية بعامة فليس شيوعه بين شعراء القبيلة الواحدة يستغرب علينا حيث تتوحد ظروف الحياة أكثر، وتتقارب المشارب والغايات في ظل ذلك النمط من الحياة.

ولعلنا لا نغالي في القول إذا قلنا: إن بشر بن أبي خازم هو أكثر الشعراء تصويراً للثور الوحشي دون سائر شعراء بني أسد، فقد توسع هذا الشاعر في رسم خطوط هذه اللوحة، وفصل في مشاهدها

---

١ـ انظر ديوان سحيم ص ٣٠.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ٨٢ ـ ٨٤.

الفنية، وأولاها من العناية ما يجعلنا - نقف على جوانب هذه الصورة - معجبين بقدرة الشاعر الفنية على المزج بين تلك الألوان والخطوط، لرسم صورة واضحة المعالم غنية الدلالات لذلك الحيوان الوحشي. يقول بشر في إحدى لوحاته:

فقمتُ إلى مقذوفةٍ بجنينها عُذافِرةٍ كالفحل وجناء عِرْمِسِ
جُماليةٍ غَلْباءَ مضبورةِ القِرَى أمونٍ ذَمولٍ كالفنيق العَجَنَّسِ
ويفضلُ عفوَ الناعجاتِ ضريرُها إذا احتدمتْ بعدَ الكَلالِ المُفلِّسِ
كأني وأقتادي على حَمْشَةِ الشَّوَى بحربَةَ أو طاوٍ بعَسْفانَ موجسِ
تَمَكَّثَ حيناً ثم أنحى ظُلوفَهُ يثيرُ الترابَ عن مبيتٍ وَمِكْنَسِ
بُرحٍ كَأصْدَافِ الصَنَاعِ قَرائِنٍ إثارةَ مِعْطاشِ الخليقةِ مُخْمِسِ
أطاعَ لَهُ مِنْ جَوٍّ عَرنانَ بأرضٍ وَنَبْذُ خِصالٍ في الخَمائِلِ مُخلِسِ
فألجأهُ شَفّانُ قَطْرٍ وحاصِبٌ بصحراءَ مَرْتٍ غيرِ ذاتِ مُعَرَّسِ
وَبِتْنَ رُكُوداً كالكواكبِ حَوْلَهُ لَهُنَّ صريرٌ تحتَ ظلماءَ جِندِسِ
وباتَ على خَدٍّ أحمٍّ ومكتبٍ ودائرةٍ مثلِ الأسيرِ المُكَرْدَسِ
فباكرَهُ عند الشروقِ غُدَيَّةً كِلابُ ابنُ مُرٍّ أو كلابُ ابنُ سِنبِسِ
فأرسلَها مُسْتَيْقِنَ الظَّنِّ أنها سَتَحدِسُهُ في الغيبِ أقربَ مَحْدِسِ
وأدرَكْنَهُ يأخذنَ بالساقِ والنَّسَا كما خرَّقَ الولدانُ ثوبَ المُقَدِّسِ
فأزهقَ زنباعاً وأتلفَ فارعاً وأنفذَهُ منها بطعنةِ مُخلِسِ
فَلَمّا رأى رَبُّ الكِلابِ عَذيرَها أصاتَ بها مِنْ غائِطٍ مُتَنَفِّسِ
وَمَرَّ يُبَارِي جانبيهِ كأنَّهُ على البِيدِ والأشرافِ شُعْلَةُ مَقْبِسِ
يقومُ إذا أوفى على رأسِ هَضْبَةٍ قيامَ الفنيقِ الجافرِ المُتَشَمِّسِ
على مِثْلِها آتى المتالفَ واجِداً إذا خامَ عن طُولِ السُّرى كُلُّ أجْبَسِ(١)

لا شك أنها صورة واضحة القسمات تامة المعالم لهذا الثور الصابر على الأذى والتعب من كثر السير والتطواف في ظلام الصحراء وفي خضم أهوائها، ويبدأ بشر برسم هيكل هذا الثور وبرسم أعضاءه، وغالباً ما تكون متناسقة الخلق ثم يحدد الزمان والمكان، ومن ثم يرسم صورة للطبيعة المكفهرة من حول هذا الحيوان اليائس هو وبقية أفراد القطيع الذين لم يجد تشبيهاً يوفيهم حقهم إلا أن يشبههم بمجموعة من الكواكب المضيئة، ثم ينفذ بشر إلى دقائق الصورة بريشة الفنان، فيصور مبيت الثور على خد أحم، وتجمعه بانقباض وانكماش فهو كالدائرة، وهذا إشارة من الشاعر إلى أدق حالات النفس، وهي في وضع كهذا، ويلح بشر على أن يقرن صورة الثور الوحشي بصورة الكوكب المتلألئ في أكثر من صورة، وفي أكثر من موضع ومن ذلك قوله في لوحة أخرى:

والعيرُ يُرْهِقُها الخَبارُ وجحشُها وَقَدْ خلفَهُما انقضاضَ الكواكبِ(٢)

---

١- انظر ديوان بشر ص ١٠٠ إلى ١٠٥.
٢- انظر ديوان بشر ص ٣٥.

ويقول في موضع ثان:

فجالَ على نفرٍ تَعَرُّضَ كوكبٍ وَقَدْ حالَ دونَ النَّقعِ والنَّقْعُ يَنْسطِعُ(١)

وله أيضاً في موضع ثالث:

فباتَ في حِقْفِ أرطاةٍ يلوذُ بهَا كأنَّهُ ذَراها كوكبٌ يَقِدُ(٢)

فهل كل هذه الإشارات جاءت على لسان الشاعر عبثاً أو هي لمجرد التشبيه؟ أن هذا الإلحاح الذي يبدو من الشاعر في اقتران صورة الثور بالكوكب ليحملنا على القول بأن هذه القبيلة ربما عرفت عبادة هذا الحيوان، أو على الأقل نظرت إليه نظرة مقدسة، أو فيها شيء من التقديس والإجلال، ونرجح ارتباط هذه الإشارات من الشاعر بطقوس دينية قديمة لا نعرف عنها شيئاً، وذلك في الزمن القديم، وبخاصة فان شبه الجزيرة العربية قد عرفت عبادة الكوكب في جاهليتها ـ كما أسلفنا القول ـ والملاحظ أن أكثر من شاعر أسدي قد قرن صورة الثور الوحشي بالكوكب فها هو ذات عبيد بن الأبرص ـ أيضاً ـ وهو من أقدم شعراء هذه القبيلة يقول:

وكأنَّ أقتادي تَضَمَّنَ نسْعُها مِنْ وَحْشِ أُورالٍ هَبيطٌ مُفْرَدُ
كالكوكبِ الدُّريِّ يُشْرِقُ مَتْنُهُ خَرِصاً خَميصاً صُلْبُهُ يَتَأوَّدُ(٣)

ولا نري أنه من المستغرب أن تكون هذه القبيلة العربية قد عرفت عبادة الكواكب والنجوم منذ جاهليتها الأولى، وارتبطت في أذهان شعرائها فكرة التقديس للثور واتخاذه رمزاً للقوة.

ونعود إلى متابعة لقطات لوحة بشر وهو يرسم لنا هذه الصورة التفصيلية للثور حيث ينتقل إلى مشهد الصياد وكلابه، ويحرص الشاعر على عدم إظهار هذا المنظر إلا وقت الشروق وانبلاج النور، ونراه ينسبه إلى قبيلة معينة ويسميه ـ أحياناً ـ إمعاناً في إدراك مهارته في الصيد وشهرة كلابه في هذا المجال، وتدور رحى المعركة وتكون النتيجة المرسومة هي أن يقتل الثور الكلاب ويهزمها، فتنسحب خائبة بقتيها من أرض اللقاء على الرغم مما ساقه الشاعر لنا من جرأتها في هذا المضمار، وعلى الرغم كذلك من هذه الصورة المرعبة التي صورها بها حين قال:

ففاجأتْهُ وَلَمْ يَرْهَبْ فُجاءَتَها غُضْفٌ نَواحِلُ في أعناقِها القِدَدُ
مَعْروقَةُ الهامِ في أشداقِها سَعَةٌ وللمرافقِ فيما بينَها بَدَدُ(٤)

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ١٢٠.
٢ـ أنظر ديوان بشر ص ٥٥.
٣ـ انظر ديوان عبد ص ٤٤.
٤ ـ انظر ديوان بشر ص ٥٦ وقد صورها في قوله أيضاً:

بأكلبة زرق ضوار كأنها خطاطيف من حول الطريدة تلمع

ديوانه ص ١٢١.

ولعل الشاعر قد أراد من خلال إظهار قوة الكلاب ومهارتها، وكذلك دربة الصياد وشهرته، أن يظهر عظمة انتصار الثور فهو لم ينتصر على خصم هين ضعيف، ثم نشرف على نهاية الصورة عند بشر بمنظر جديد رسمه بزهو فالثور يبدو بعد انتصاره وفوزه، وكأنه معجب بنفسه يقول:

وَمَـــرّ يُمـــارى جانِبَيّـــهِ كأنّـــهُ    على البيدِ والأشرافِ شُعْلَةُ مُقْبِسِ

ويحرص بشر على عدم نسيان هذه اللقطة فيقول في موضع آخر:

وَأَصْبَـــحَ نـــاصِلاً مِنْهـــا ضُحَيّـــا    نَصُـولَ العِقْـدِ أَسْـلَمَهُ النِّظَـامُ(١)

ويورد اللقطة ذاتها في موقف ثالث في لوحة أخرى:

وَأَصْبَـــحَ نائيـــاً مِنْهـــا بعيـــداً    كَنَصْـلِ السـيفِ جَـرَّدَهُ المُلِيـحُ
وأضحـــى لاصِقـــاً بـــالصُّلْبِ مِنْـــهُ    ثُمائِلُـــهُ وَدَدْ قَفَـــلَ المَنِيـــحُ
وأصبـــحَ ينفـــضُ الغَمَـــراتِ عَنْـــهُ    كَوَقْـــفِ العـــاجِ طُرَّتُبـــهُ تلـــوحُ(٢)

ومن الملاحظ عن هذا الشاعر دقته في التصوير، وفي النفاذ إلى أعماق هذا الحيوان الوحشي فمعاناة الثور في ظل تلك الظروف القاسية قد حدث به إلى القول متلمساً الخلاص مما هو فيه:

فبـــاتَ يقـــولُ أَصْبِـــحْ لَيْـــلُ حتّـــى    تَجَلّـــى عَـــنْ صريمَتِـــهِ الظَّـــلامُ(٣)

ونظفر أكثر من لوحة عريضة لهذه الصورة التي أصبحت تقليداً فنياً ـ لدى أغلب الشعراء الجاهليين ـ عند هذا الشاعر الأسدي، فقد ورد في ديوانه ما يزيد على تسع لوحات يصور فيها الشاعر الثور الوحشي، وهو في معرض الحديث عن ناقته(٤).

وسنقف على لوحة ثانية من لوحات هذا الشاعر، ولن نلتفت إلى بقية اللوحات لضيق المجال من جهة، ولتشابهها وتكرار مشاهدها من جهة أخرى.

يقول بشر مصوراً ناقته ومشبهاً إياها بثور وحشي في لوحة أخرى:

ثُـمّ اغـترزتُ علـى عَنْـسٍ عُذافِـرَةٍ    سِـيٌّ عَلَيْهَـا خَبَـارُ الأَرْضِ والجَـدَدُ
كأنّهـا بَعْـدَ مـا طـالَ الوَجيـفُ بِهَـا    مِـنْ وحش خَبَّةَ مَوْشِـيُّ الشَّـوَى فَـرِدُ
طـاوٍ برملـةِ أورالٍ تَضَيَّفَـهُ    إلى الكِنَـاسِ عَشَـيٌّ بـاردٌ صَـرِدُ
فبـاتَ في حِقْـفِ أرطـاةٍ يَلُـوذُ بِهَـا    كأنَّـهُ في ذُراهـا كوكَـبٌ يَقِـدُ
يجـري الـرَّذاذُ عليـهِ وهـو مُنْكَـرِسٌ    كمـا استكانَ لشكوى عينِـهِ الرَّمِـدُ
بـانَتْ لَـهُ العَقْـرَبَ الأولى بنثرتِهَـا    وَبَلَّـهُ مِـنْ طُلـوعِ الجَبْهَـةِ الأسـدُ
ففاجأتْـهُ وَلَـمْ يرهـبْ فُجاءَتَهـا    غُضْـفٌ نَواجِـلُ في أعناقِهـا القِـدَدُ

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ٢٠٤.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ٥٣.
٣ـ انظر ديوان بشر ص ٢٠٤.
٤ـ انظر ديوان بشر ص ٥٣، ٤٢، ٥٠، ٥٥، ٨٢، ١٠٠، ١٢، ١٦٢، ١٧٩، ١٨٧.

مَعْروقَـةُ الهـامِ في أَشْـدَقِها سَـعَةٌ ... وللمرافـق فيمـا بينَهـا بَـدَدُ
فأزعجْتـهُ فـأجلى ثُـمَّ كَـرَّ لَهَـا ... حـامى الحَقيقَـةِ يَحْمـي لَحْمَـهُ نَجـدُ
فمارسْـتهُ قليـلاً ثُـمَّ غادَرَهـا ... مُجَـرِّبُ الطَّعْـنِ قَتـالٌ لَهـا جَسَـدُ(١)

من الواضح أنها صورة مفصلة أخرى لبشر، يحدد فيها الملامح، ويظهر من خلالها القسمات، ويصور ببراعة فنية قصة هذا الثور منذ بدايتها إلى آخر لقطة فيها، ويؤكد على صدق تجربة الثور، وخبرته الطويلة في الطعن والكر والفر، ويحرص الشاعر على أن يجعله في موقف المدافع عن نفسه ليحمي حقيقته رغم وثوقه من الانتصار، وتوقيت المعركة عند بشر يكاد يكون واحداً بل هو كذلك حقاً في جميع لوحاته، وهو وقت الصباح الباكر ومع الخطوط الأولى للرؤية الواضحة يقول في ذلك:

فَـأَدَّى إليـهِ مطلـعُ الشَّـمْسِ نَبْـأَةً ... وَقَـدْ جَعَلَـتْ عَنْـهُ الضَّبابَـةُ تَحْسِـرُ(٢)

ويقول في موضع ثان:

ففاجَـأَهُ مِـنْ أَوَّلِ الـرَّأْيِ غُـدْوَةً ... وَلَمَّـا يُسَـكِّنْهُ إلى الأَرْضِ مَرْتَـعُ(٣)

ويقول في موضع ثالث:

فبـاكَرهُ مَـعَ الإشـراقِ غُضْـفٌ ... يَخُـبُّ بِهَـا جَدايَـةَ أَوْ ذَرِيـعُ(٤)

ولثور بشر سلاح ماض يعتمد عليه في اللقاء والمنازلة ويتمثل بقرنين سخماوين أملسين يقول بشر مصوراً هذين القرنين:

فَلَمَّـا أَنْ دَنَـوْنَ لِكاذتَيْـهِ ... وَأَسْـهَلَ مِـنْ مَغَابِنِـهِ المُسِيـحُ
يَسُـدُّ فُروجَـهُ رَبِـذٌ مُضَـافٌ ... يُقَلِّبُـهُ عِجَـالُ الوَقْـعِ رَوُحُ
فلمـا أخرجتـهُ مِـنْ غَرَاهـا ... كريهتـهُ وَقَـدْ كَثُـرَ الجـروح
قليـلاً ذا دَهُـنَّ بِصَعْدَتَيْـهِ ... بِسَـخماوين لِيطُهُمـا صَحيـحُ
تواكَلْـنَ العُـواءَ وَقَـدْ أراهـا ... حِيـاضَ المَـوْتِ شـاصٍ أَوْ نَطِيـحُ(٥)

ومن صوره لهذه القرنين اللذين لا يزج بهما الثور في المعركة إلا مضطراً قوله/

يَحُشُّـى بِمِـدْراهُ القُلُـوبَ كَأَنَّمـا ... بِـهِ طَمَـأٌ مِـن داخِـلِ الجَـوْفِ يَنْقَـعُ
بِأَسْـحَمَ لأمٍ زانَـهُ فَـوْقَ رأسِـهِ ... كَمـا نَفَـذَتْ هِنْدِيَّـةٌ لا تَصَـدَّعُ(٦)

---

١ ـ أنظر ديوان عبيد ص ٥٥ ـ ٥٧.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ٨٢.
٣ـ انظر ديوان بشر ص ١٢٠.
٤ـ انظر ديوان بشر ص ٥٠.
٥ـ انظر ديوان بشر ص ٥٢.
٦ـ انظر ديوان بشر ص ١٢٢.

ومن الملاحظ في صورة الثور عند بشر بن أبي خازم أن القلق والحذر والحيطة صفة ملازمة لذلك الثور، ولعلها من مستلزمات المعركة أو من طبيعة حياة هذا الثور المعرض للأخطار بشكل شبه مستمر، إن قوة الحدس عند الثور ظاهرة ملحوظة يشير إليها الشاعر في قوله:

فَـأَدىَّ إليـهِ مطلـعُ الشَّـمْس نبـأة ... وَقَـدْ جعلـتْ عَنْـهُ الضَّبَابَـةُ تَحْسِـرُ
تَمـارَى بهـا رأْدَ الضُّحَـى ثُـمَّ رَدَّهـا ... إلى حُرَّبَتِـهِ حـافِظُ السَّـمْعِ مُبْصِـرُ
فَجـالَ وَلَمَّـا يَسْـتَبِنْ وَفُـؤادُهُ ... برِيَبِتِـهِ مِمَّـا تَوَجَّـسَ أوجَـرُ(١)

والواقع إن الحياة في ظل ظروف ـ كتلك التي تحيط بهذا الحيوان وتصور مدى الأخطار التي تتهدده في تلك البيئة ـ لتستلزم وجود مثل هذه الصفات عند من يعيشون في تلك البيئات، يقول بشر مصوراً مدى تلك المخاطر في مثل تلك البيئة:

لَـهُ كُـلَّ نَبـأَةٌ مِـنْ مِكَلِّـبٍ ... تُريـهِ حِيَـاضَ الَمـوْتِ ثُمَّـةَ تُقْلِـعُ(٢)

فعنصر المفاجأة قد اسهم هو الآخر في خلق مثل هذا الشعور بالحذر والحيطة عند الثور حتى بات لا يأنس لمخلوق، فهو فريد محب للعزلة وحياة الوحدة أبدا.

وإذا نظرنا إلى المشهد الأخير من الصورة عند هذا الشاعر وجدناه لا يحدد فيه مكاناً معيناً للثور يستقر فيه بعد كل معركة، وإنما يدعه هائماً منطلقاً نحو مصيره المجهول في شعاب تلك الصحراء كأنه "شعلة مقبس" أو "نصل سيف لامع" يحدوه الأمل في غد آمن ليتابع مسيرة الحياة من جديد، وهي لا شك نهاية مفتوحة من بشر ترك لنا فيها تصوراً حراً لما سيكون عليه الأمر، فكان موفقاً في هذا كما كان موفقاً في رسم خطوط هذه الصورة أكثر من أي شاعر أسدي آخر.

وننتقل إلى صورة هذا الثور عند شاعر أسدي قديم وهو عبيد بن الأبرص فلا نظفر في ديوانه إلا بشذرات قليلة لا تشفي غلة باحث، ولا تسد نهم مستقص للحقيقة، وهذه الشذرات القليلة لا نظنها تتناسب مع عبيد بوصفه شاعراً أسدياً كبيراً، ويغلب على ظننا أن يد الضياع قد امتدت إلى تلك الأشعار التي رسم فيها عبيد هذه الصورة الفنية للثور الوحشي لا سيما إذا علمنا أن شعراء نجد كانوا من أكثر الشعراء الجاهليين تعرضاً لهذه الصورة، ومما قاله عبيد في رسمه لهذه الصورة الفنية:

وكـأنَّ أَقْتـادِي تَضَمَّـنَ نَسْـعُهَا ... مِـنْ وَحْـشِ أورالَ هَبِيـطٌ مُفْـرَدُ
بـاتتْ عليـهِ ليلـةٌ رجَبِيَّـةٌ ... نَصَبـاً تَسُـحُّ المـاءَ أَوْ هِـيَ أَبْـرَدُ
ينفـي بـأطرافِ الألاءِ شـفيفَها ... فَغَـدَا وكـلُّ خَصيـلِ عُضْـوٍ يَرْعُـدُ
كـالكوكبِ الـدُّريءِ يَشْـرقُ مَتْنُـهُ ... خَرِصـاً خَميصـاً صلبُـهُ يَتَـأَوَّدُ(٣)

وحتي هذه الصورة لم تكتمل عناصرها الفنية عند عبيد فلم نظفر بنهاية لها تبين انتصار هذا الثور

---

١ـ انظر ديوان بشر ص ٨٣.
٢ـ انظر ديوان بشر ص ١٢٠.
٣ـ انظر ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤٤.

على كلاب الصيد، ولم نقف على جزئيات الصراع الذي تعودناه من شعراء هذه القبيلة في رسمهم لهذه الصورة.

أما ما تبقى في ديوانه من صور وإشارات لهذا الحيوان فهي لا تتعدى البيت أو البيتين، ثم لا تلبث أن تنقطع فجأة لينتقل الشاعر بعدها إلى غرض آخر مما يرجح معه ضياع بقية أجزاء الصورة، ولعل الدليل على ذلك أن الشاعر كان يعود إلى وصف الناقة التي هي الموضوع الأساسي في الوصف والتصوير(١).

ونقع على صورة فنية لهذا الثور عند شاعر أسدي آخر في كتاب "المفضيات" للشاعر حاجب بن حبيب الأسدي، ولكنها لا تصل في تفصيلاتها إلى الدقائق التي رأيناها عند بشر بن أبي خازم وغيره من شعراء هذه القبيلة.

يقول حاجب بن حبيب الأسدي:

كأنَّها واضِحُ الأَقْرابِ جَلاَّهُ عَنْ ماءِ ما وانَ رامِ بَعْدَ إمكانِ
فجالَ هافٍ كَسُفُّودِ الحديدِ لَهُ وَسْطَ الأماعزِ مِنْ نَقْعِ جنايانِ
تَهْوي سنابكُ رجْلَيْهِ مُحَنَّبَةً في مُكْرَهٍ مِنْ صَفيحِ القُفِّ كَذَّانَ
ينتابُ ماءَ قُطَيّاتٍ فأخْلَفَهُ وكانَ مَوْرِدُهُ ماءً بحَوْرانَ
تظلُّ فيهِ بَناتُ الماءِ أَنْجِيَةً كأنَّ أعيُنَها أشْباهُ خِيلاَنِ
فلم يهله ولكن خاضَ غمرته يشفي الغليل بعذب غير مدان(٢)

وصورة الثور عند حاجب ـ هنا ـ تختلف كل الاختلاف عنها عند بشر وعند غيره من شعراء الجاهلية، فقد افتقدنا عنصر الصراع والمواجهة أولاً، في هذه الصورة، ولم نر النهاية المعروفة لهذه المواجهة بين الثور وخصومه، بل انصب تصوير الشاعر على رغبة هذا الثور بالوصول إلى مورد الماء، وهي رغبة ملحة حدت به إلى الانتقال من مكان إلى مكان ليطفئ ظمأه الشديد، ثم إننا نلاحظ وجود الموانع التي حالت بين الثور وبين مورد الماء، وهي موانع طبيعية تتعلق بالبيئة، أو موانع كان مصدرها الصياد وسهامه وكلابه.

إن كل ما ظفرنا به من صورة الثور هنا هو رسم لبيئة هذا الحيوان تمثل في الأبيات الثلاثة الأولى ثم وصف لحالة هذا الثور وهو يعاني من العطش الشديد، ويبحث عن مورد ماء يرتوي به، وليس أدل على ذلك من استخدام الشاعر للفظة "الماء" ثلاث مرات في الصورة، وهذا يعكس حالة حاجب النفسية ومدى حاجته إلى ذلك الماء، ولعل هذه الحاجة الماسة إلى الماء هي التي منعت الشاعر من الاسترسال والإسهاب في هذه الصورة، فقد شغل عنها ـ فيما يبدو ـ وهو يجد في البحث عن الري والخصب.

وقد جاءت استخدامات الشاعر موحية بمثل هذه الدلالات، فبنات الماء أنجية في ذلك المورد الغني بالماء، ولعل في هذه العبارة ما يدل على البعد الذي أراده الشاعر.

لقد ساق شعراء بني أسد صورهم في إطار عام متعارف عليه من قبل معظم شعراء الجاهلية. في

---

١ـ انظر ديوان عبيد الصفحات: ٤، ١٧، ٤٣، ٩٢، ٩٨، ١٠٢، ١١١، ١١٦.

٢ـ انظر المفضليات ص ٣٧٠.

هذا المجال، ويذهب الدكتور نوري حمودي القيسي إلى أن الشعراء كانوا يقلدون في أوصافهم للثور نماذج وصوراً شعرية سابقة، ويسلكون في تتبعهم لحركات هذه الصورة وألوانها طرقاً عرفوها وسمعوها وحاولوا أن يترسموا خطوات من سبقهم من الشعراء في هذا المضمار، ولم يستطيعوا أن يخرجوا عن هذه الحدود إلا ما سمحت لهم قدرتهم على التعبير ومهارتهم في استخدام الصور التي اهتدوا إليها، وحذقهم في اختيار الألفاظ والمعاني الملائمة للجو الشعري الذي يريدون التعبير عنه[١] وكذلك كان شعراء هذه القبيلة حيث صوروا لنا ما وقع تحت بصرهم وسمعهم، فكثرت الصور في شعرهم كثرة ملحوظة وكانوا يلجأون — في أغلب الأحيان — إلى التشبيه والاستعارة والكناية يصورون بها معانيهم وأحاسيسهم، ويغلون في التصوير أحياناً، ويستطردون في وصف شيء إلى شيء آخر، ثم يعودون إلى موضوعهم الأول كما هو الحال في صورة الثور الوحشي.

وقد لجأ بعضهم إلى وسيلة أخرى في التصوير، وهي ما يمكن أن نطلق عليه اسم "التمثيل" وهو تصوير المعنى المجرد بشيء مجسم أو تصوير الجامد بشخص يحس ويعقل، وكان الشاعر الأسدي عموماً لا يعمد إلى ربط صوره، بل يدعها تتابع دون أن تسير في نظام معين، وهو في كل ذلك يعتمد على حواسه، ويبث الحركة والحياة في المشهد الموصوف، باستثناء صورة الثور الوحشي التي جاءت عندهم وفق نظام معين، وفي تتابع محدد، قلما خرج عليه أحد منهم - كما رأينا ذلك عند حاجب بن حبيب - وإذا كان الشاعر الكبير هو الذي يحاول أن يرسم صورة متماسكة للحياة بأسرها كما يقول الناقد ستيفن سنبدر[٢] فقد حاول شعراء بني أسد أن يرسموا لنا صورة لتلك الحياة، وأن يظهروا لنا موقف الإنسان الجاهلي من كثير من القضايا والمشكلات، وذلك من خلال تصويرهم لتجربته ومعاناته، التي تمثلت إلى حد كبير في نفوسهم كما كان هؤلاء الشعراء يعمدون — أحياناً - إلى التصوير الشامل أو الكلي - إن صح التعبير — ولم يخل شعرهم من الصور الفنية التي اختاروا لكل صورة منها ما يلائمها من الألفاظ، والعبارات، والتراكيب، وبقية العناصر المكونة لهذه الصور من إشراك للطبيعة، ومن تلوين نفسي، وظلال وأبعاد كانت تفصح عنها تلك الأشعار التي وقفنا على كثير من معانيها ودلالاتها، وذلك في محاولتنا معرفة مدى ما تمكن منه هؤلاء الشعراء في استخدامهم وسائل الأداء الفني المتاحة أمامهم، أو كما يسميها أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة "الصفة الشعرية"[٣].

---

١ـ انظر الطبيعة في الشعر الجاهلي للدكتور نوري حمودي القيسي ص ١٣١ وما بعدها.

٢ـ انظر الحياة والشاعر تأليف أستيفن سبندر تعريب الدكتور مصطفى بدوي "سلسلة الألف كتاب الطبعة الأولى ص ٧٦.

٣ـ انظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري للدكتور محمد مصطفى هدارة ص ٥٦٦.

# الخاتمة

تعد قبيلة بني أسد بن خزيمة من القبائل العربية الشمالية العظيمة الشأن، وهي تنتسب إلى أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، وبنو أسد قبيلة كبيرة ذات بطون كثيرة، وأفخاذ متعددة، مما يصعب مهمة الباحث في تتبع حركتها، والإلمام بكل فروعها.

ولقد توفر لبني أسد العديد من الأسباب القوية التي أدت إلى ذيوع صيت هذه القبيلة، نذكر منها ثورة هذه القبيلة على سلطة أسرة آكل المرار، وقتلها حجر بن الحارث آخر ملوك كنده، الأمر الذي قلب موازين القوى في شبه الجزيرة العربية كلها، وكانت له آثار بعيدة على الحياة السياسية والاجتماعية فيها.

ولما كانت حياة الشعراء مرتبطة بقبائلهم كان من الضروري إن تبدأ هذه الدراسة بإلقاء نظرة على حياة هذه القبائل الأسدية في الجاهلية لنتمكن من وضع كل شاعر في موضعه المناسب، فكان الباب الأول - من دراستي هذه - منصبا على تاريخ هذه القبيلة منذ أن عرفنا تاريخا لها يعود إلى القرن الثالث الميلادي، وتحدثت في هذا الباب عن علاقة هذه القبيلة بالممالك العربية التي قامت في شبه الجزيرة وقتذاك، من مثل إمارة اللخميين في الحيرة، والغساسنة في حوران، وإمارة كندة في شمال الجزيرة العربية، وتناولت حيوات هذه القبيلة بشيء من الإيجاز للوقوف على اوجه النشاط لأفراد هذه القبيلة، والإطلاع على حروبها وأحلافها ومعتقداتها.

كما خصصت - في هذا الباب - جزءاً تحدثت فيه عن مصادر شعر هذه القبيلة مراعياً الترتيب التاريخي لهذه المصادر التي تحدثت عن شعر بني أسد ابتداء من أقدم الروايات، وانتهاء بمصدر الإسلام، ووقفت في دراستي هذه عند الشاعرين الأسديين عمرو بن شأس الأسدي، وسحيم عبد بني الحسحاس الأسدي، وذلك لكون هذين الشاعرين يعدان من الشعراء المخضرمين من شعراء هذه القبيلة. ووقفت عند قضية الانتحال في شعر هذه القبيلة، وحاولت - قدر المستطاع أن أتوخى الحقيقة في هذا المجال.

أما الباب الثاني من هذه الدراسة، فقد جعلته يدور حول الشعراء الأسديين، وقد جعلت منهجي في دراسة الشعر يقوم على اعتبار أن القبيلة هي المحور الذي يدور حوله الشعراء بشعرهم، فتناولت في الفصل الأول الشعراء الأحرار من أبناء هذه القبيلة من أمثال عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم، وعمرو بن شأس، والجميح وحاجب بن حبيب، وغيرهم من المقلين والمغمورين، وحاولت إن استخلص بعض سمات تربط بين هؤلاء الشعراء الاسديين مبيناً ما لكل شاعر من خصوصية في المعالجة الشعرية، وفي النظرة إلى القضايا القبلية والشخصية التي كانت تعترض حياة الشاعر الأسدي، وخصصت الفصل الثاني من هذا الباب لدراسة شعر الموالي من

بني أسد، وقد استأثر سحيم عبد بني الحسحاس بهذا الفصل. فقد حاولت إن ألقي الضوء على هذه الشخصية الشاعرة من خلال دراسة شعره والإلمام بالظروف التي كانت تكتنف حياته وقد أفدت من بعض الدراسات النفسية في هذا المجال.

وأما الباب الثالث من هذه الدراسة، فقد كان يدور حول النتاج الشعري لشعراء هذه القبيلة، وقد رأيت إن اقسمه ـ إن صح التعبير ـ إلى قسمين: أولاً الشعر القبلي، ثانياً: الشعر الفردي.

وقد تناول الفصل الأول من هذا الباب الشعر القبلي، وهو ما صدر عن وجدان قبلي وارتباط بالجماعة، والتزام بالأعراف والتقاليد القبلية، ثم عالجت في الفصل الثاني من هذا الباب الشعر الفردي، وهو ما صدر عن هؤلاء الشعراء بوجدان فردي ذاتي من خلال معالجتهم للموضوعات التي وردت في أشعار هؤلاء الشعراء، وعبروا فيها عن فرديتهم كشعراء يعيشون ضمن إطار القبيلة، وكان لابد لي من الوقوف عند خصائص هذا الشعر من حيث موضوعاته، ووسائل الأداء ليه، وبناء القصيدة عند هؤلاء الشعراء مبيناً ما تفردوا فيه عن غيرهم، وما شاركوا فيه الشعراء الجاهليين عموماً.

ولعله من الطبيعي إن تتعدد النتائج في دراسة شعر هذه القبيلة، فالمتتبع لتاريخها يلاحظ أنها قد جبلت على حب التمرد والثورة، وعدم الإذعان للحكام الأمر الذي انعكس بوضوح وجلاء، في شعر شعراء هذه القبيلة، ولعل هذا يفسر لنا ميل أبناء هذه القبيلة القوي نحو الحرب، مما يشكل جانباً مهماً في حياتها، وقد لمسنا ذلك في نغمة الفخر المتعالية عند أغلب شعرائها، حتى في رثائهم لقتلاهم، وصرعى حروبهم، وكذلك في خصوماتهم وهجائهم، ونستطيع القول ـ هنا ـ إن الشاعر الأسدي كان بوق حرب يدفع قبيلته إليها دفعاً، فنحن لا نقع على دعوة للسلم في أشعار الأسديين بعامة.

وقد لاحظت من خلال دراستي لنتاجهم الشعري أن علاقتهم بالمرأة كانت تمثل جانباً مهماً في حياتهم، وقد شغلت مساحة لا بأس عليها من قصائدهم، وقد اختلفت نظرة الأسديين إليها فمن متعبد في محرابها وكأنها وثن بعيد إلى مستهتر عابث بها يتخذها وسيلة لهو ومتعة وحسب. كما لاحظت إن الشاعر الأسدي رب أسرة حكيم رغم انه كثير الشكوى من زوجه وبخاصة في المراحل المتقدمة من عمره، وقد رددت ذلك إلى أسبابه التي رأيت معقوليتها نسبة إلى مجتمع لا يتمتع بأدنى أسباب الاستقرار، والأمن، بالإضافة إلى قلة المال عندهم مما يخلق جواً من السخط والشحناء بين الزوجين.

ومما يلاحظ في شعر هذه القبيلة كثرة وصفهم للغيث والبرق، والرعد، والسيول، وإجادتهم في ذلك، ولعل البيئة التي عاشوا فيها "شمال نجد" تكثر الأمطار فيها، وقد رأينا فيها امرأ القيس يصف مثل هذه الأمطار والسيول، وهو ليس أسدياً ولكنه عاش في مضارب بني أسد مما يرجح هذا الزعم.

ومما يلاحظ ـ أيضاً ـ في نتاجهم الشعري ميلهم إلى القصصية رغم غنائية شعرهم، وهذه القصصية ليست كالتي نراها في سائر شعر الجاهليين، وهم يصفون الحيوان من ناقة، وفرس، وثور وحشي، أو ظليم أو غير ذلك من الحيوانات التي عرفت بها البيئة الجاهلية، وإنما نلمحها في

أغراض شعرية أخرى - عندهم - كالحماسة، والغزل، ووصف الحرب.

وأما الباب الرابع والأخير من هذه الدراسة، فقد كان دراسة فنية لذلك النتاج الشعري الذي تحدثنا عنه، وقد قسمته إلى فصلين: الأول منهما يدور حول بناء القصيدة وموسيقاها، وقد تحدثت فيه عن خصائص هذا الشعر في البناء، والموضوع، والأداء، موضحاً - ما استطعت - ما التقوا فيه معاً، وما انفرد به بعضهم، وقد رأيت إن الشعراء الاسديين الجاهليين - عموماً - كانوا يميلون إلى القصائد القصيرة ابتداء من اقدم شعرائهم وهو عبيد بن الأبرص، كما كانوا ملتزمين - في غالب الأحيان - بالمطالع الطللية، وأخص بالذكر - هنا - عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم، ومن الملاحظ في هذا المجال كثرة الاقواء، واضطراب بعض الأوزان عند بعض شعراء هذه القبيلة من أمثال بشر بن أبي خازم.

وكان الفصل الأخير من هذه الدراسة يدور حول مفهوم الصورة الفنية، ووظيفتها في الشعر، وقد تحدثت فيه عن بعض الصور الفنية عند شعراء هذه القبيلة فحللت بعض نماذج شعرية مما صوروا من مثل صورة المرأة، والظعن، والطلل، وكذلك تصويرهم لبعض الحيوانات من مثل الناقة، والفرس، والثور الوحشي، والحمار الوحشي، والظليم وبعض الطيور الجارحة مما جاء ذكره في شعرهم.

وحاولت أن اكشف - ما استطعت - عن دلالات الصورة عند هؤلاء الشعراء، وأن اقف على الأبعاد التي ربما قصدوا إليها من وراء هذه الصور، مبينا الوسائل الفنية التي لجأ إليها هؤلاء الشعراء في سبيل ذلك مما قد يكشف لنا رؤية هؤلاء الشعراء ومواقفهم إزاء بعض المشكلات والصراعات التي كانوا يعانون، كما قد يفصح لنا عن بعض الظواهر التي كانت تحفل بها البيئة الاجتماعية، ويعرض لها الإنسان الجاهلي في كل يوم من أيام حياته، وقد رأيت أن ألحق بعض أشعار الاسديين الذين لم يجمع شعرهم من قبل، فجمعت شعر ما يزيد على ثلاثين شاعراً وشاعرة من شعراء هذه القبيلة مما جاء في المصادر القديمة لهم من شعره وحسبي أنني حاولت رصد حركة هذه القبيلة في العصر الجاهلي، فان وفقت فذلك فضل من الله، وان أخطأت فما هي إلا خطوة على الطريق وفوق كل ذي علم عليم.

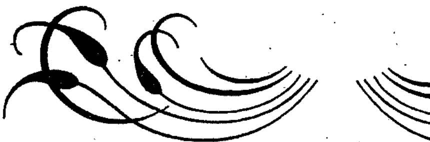
وأخيراً لابد لي من رد الفضل إلى أهله، وإرجاعه إلى ذويه، وحسبي أنني بذلت قصارى جهدي في هذا البحث وأنا أتتبع فيه مسار هذه القبيلة المتشعبة البطون والأفخاذ، فان أصبت فذلك توفيق من الله أولاً وهو ثمرة لإتباعي نصح وإرشاد أستاذي الدكتور محمد مصطفى هدارة الذي منحني من وقته وجهده وعلمه الجم ما يجعلني أدين له بالشكر والعرفان والتقدير والثناء، وان كان في هذا البحث من مواضع زلل فمردها إليّ ولعل عذري في ذلك أنني حاولت قدر مستطاعي وعلى أية حال، فان الكمال لله وحده.

الإسكندرية ١٠/١/١٤٠٨ هـ - ٣/٨/١٩٨٧ م.



# ملحق

# أشعار بني أسد في الجاهلية






# أشعار بني أسد في الجاهلية

وبعد.. فقد رأينا أن نلحق بهذه الرسالة ملحقاً نضمنه ما جاء في كتب الأدب واللغة والتاريخ من أشعار لشعراء هذه القبيلة في الجاهلية.

وقد اقتصرنا في هذا الملحق على نخبة من شعراء بني أسد ممن عاشوا في الجاهلية، وكذلك الذين أدركوا الإسلام وعاشوا ردحاً من الزمن في صدر الدعوة الإسلامية و لم تصل إلينا دواوينهم الشعرية، وقد استثنينا بعض الشعراء ممن جمعت أشعارهم من قبل باحثين سبقونا في هذا المجال مثل الشاعر الأسدي الكميت بن معروف الذي جمع شعره الدكتور حاتم صالح الضامن ونشره في مجلة المورد العراقية عدد فبراير ومارس ١٩٧٥م. و لم نتطرق لشعر كل من الجميح الأسدي "منقذ بن الطماح" وحاجب بن حبيب الأسدي وكلاهما جاهلي وذلك لإيراد المفضل الضبي لهذين الشاعرين بعض القصائد الشعرية في كتابه "المفضليات" وحيث أننا لم نقع لهما على أي جديد فقد رأينا أن نشير إلى ذلك وسنبدأ بشعراء بني أسد الجاهليين أولاً في هذا الملحق، ثم نعقّب ذلك بالشعراء الأسديين الذين أدركوا شيئا من العصر الإسلامي وهم الشعراء الأسديون المخضرمون مسندين ما ورد لهؤلاء الشعراء من شعر إلى مظانه القديمة التي أوردته ومرجحين أحياناً نسبة بعض الأبيات لشاعر دون آخر وذلك لما رأينا من أوجه شبه بين هذا البيت وبين باقي شعر ذلك الشاعر.

والواقع أن هذا الملحق يضم شعراً لحوالي خمسة وثلاثين شاعراً وشاعرة أسدية عاش جلهم في الجاهلية كما تقول الروايات وقد تراوح ما ورد لهم من شعر بين البيت والبيتين إلى بضع مقطوعات في بعض الأحيان، وربما عثرنا على قصيدة كاملة لشاعر منهم وقد أثبتنا كل ذلك التماساً للفائدة وحصراً لشعر هذه القبيلة العربية الكبيرة.



# أبو جنة بن حكيم بن عبيد الأسدي

وقد ذكره المرزباني في معجمه وهو عنده عمرو بن حكيم الأسدي جاهلي وله أرجوزة طويلة أولها:

نـــامَ طُفَيْـــلٌ نومـــةً رَداهـــا حتـى إذا مـــا انبطـــحَ انبطاحـــا[1]

وذكره أبو بشر الآمدي في "المؤتلف والمختلف" وهو عنده أبو جنة ابن حكيم بن عبيد الأسدي هكذا بدون إكمال لبقية نسبه، ولعل كنيته أبو جنة وقد أورد له مقطوعة شعرية رقيقة يقول فيها:

فلمـــا ودّعُونـــا واســـتقلُّوا علـــى صُهُـــبٍ هواديُّهـــن قُـــودُ
كتمـــتُ عـــواذِلِي مـــا في فُـــؤادِي وقلـــتُ لَهُـــنَّ ليتَهُـــمُ بَعيـــدُ
وفـــاضتْ عـــبرةٌ أشـــفقتُ منهـــا تجـــودُ كـــأنَّ وابلَهـــا الفريـــدُ
فقلـــنَ لقـــد بكيـــتَ فقلـــتُ كـــلاّ وهـــلْ يبكـــي مـــن الطَـــرَبِ الجليـــدُ
ولكـــنْ قَـــدْ أصـــابَ ســـوادَ عيـــني عُوَيْـــدُ قَـــذىً لَـــهُ طَـــرَفٌ خديـــدُ
فقـــالُوا مـــا لدمْعهُمـــا سَـــواءٌ أكلـــتي مُقلَتَيْـــكَ أصـــابَ عُـــودُ[2]

ويبدو أن الشاعرين شخص واحد فأبو جنة بن حكيم بن عبيد الأسدي هو عمرو بن حكيم الأسدي نفسه غير أننا لا نظفر بأكثر من هذا عند كل من الآمدي والمرزباني عن هذا الشاعر الأسدي الجاهلي.

# أبو الربيع بن لقيط الأسدي

وقد ورد ذكر هذا الشاعر عند أبي تمام في كتابه "الوحشيات" وذكر له أبو تمام خبرا مع الكميت بن معروف ورهطه "الكرش" حين قبلوا الدية في قتيل لهم فعيرهم بقوله:

شَرَى الكـرشُ عـن طـولِ النَّجِّـي أخـاهُمُ بمـالٍ كـأنْ لم يسـمعُوا قَـوْلَ حَذْلَـمِ
شَـرَوْهُ بِخُمْـرٍ كـالصخورِ وأجذَمُـوا علـى العـارِ مَـنْ ينكـرِ العـارَ يُجْـذَمِ[3]

---

١ـ تخريج الأبيات: انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ٢١٦.
٢ـ انظر المؤتلف والمختلف للآمدي ، ص ١٠٤.
٣ـ تخريج البيتين: انظر الوحشيات لأبي تمام ص ٧٩ ولم يذكره غير ما بين أيدينا من مصادر.

# أبو سمّال الأسدي

وقد ورد عند أبي بشر الآمدي وهو عنده: سمعان بن هبيرة بن مساحق بن بجير بن عمير بن أسامة بن نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد، وكان شريفاً شاعراً وله يرثي ابنه سمالا:

كأني وسمّالاً من الدهرِ لم نَعِشْ ... جميعاً وريبُ الدهرِ للمرءِ كاربُ
يعيِّرني الأقوامُ بالصبرِ بَعْدَهُ ... وليسَ لصدعٍ في فؤادِيَ شاعبُ[1]

وله عند أبي حاتم في كتابه "المعمرين" قصيدة يتحدث فيها عن طول عمره وما شاهده من أحداث فيقول:

وهادئةٍ من شيبتي وتحنني ... وطول قعودي بالوحيد أُفَكِّرُ
تقولُ فَتَى سمعانُ بعد اعتدالِهِ ... وبعد سوادِ الرأسِ فالرأسُ أَزْعَرُ
فقلتُ لها لاتهزئي إن قصرك الـ ... منايا وريبُ الدهرِ بالمرءِ يَغْدِرُ
فكمْ مِنْ صحيحٍ عاشَ دهراً بنعمةٍ ... فحلَّ بهِ يومٌ أَغَرُّ مُشَهَّرُ
فصار لقىً في البيتِ لايبرحُ الفَنا ... رذياً عليهِ كآبةٌ وَتَوَقُّرُ
وقد كان مِدْلاجاً إلى المجدِ مُتْعِباً ... إليهِ المطايا عُمْرُهُ ليس يَفْتُرُ
فلما ترامتْهُ المنايا وريبُها ... تَقَوَّسَ مِنْهُ الظهرُ فالخَطْوُ مُقْصِرُ
وعادَ كفرخِ النَّسرِ أعمى عن النتي ... يريدُ طوالَ الدهرِ يَهْذِي وَيَهْدرُ
فإن أكُ شيخاً فانياً فلربّما ... أصبتُ الذي أهوى وما كنتُ أحذَرُ
وربُّ خَيورٍ قد لقيتُها ... وشرٌّ كثيرٌ عن شواتِي تَحَدَّرُ
وخيلٍ دعتني للنزال أجبتُها ... وفي الكفِّ مني مشرفيٌّ مذكَّرُ
وتحتي طِمْرٌ مستطارٌ فؤادُهُ ... سليمُ الشظا نهدٌ كميتٌ مُضَمَّرُ
فنازلتُ إذ نادوا نَزالِ وَنِلْتُ ما ... ينالُ الكريمُ الأحوذيُّ المُشَمِّرُ
فذلك دهرٌ قد مضى حلوُ عيشِهِ ... وغادرني شِلْواً لي الذئبُ يَكْشِرُ
وقد كنتُ أبّاءً على القِرنِ مِرْجَماً ... أجودُ وأحمي المسنفاتِ وأخْبُرُ
وللموتُ خيرٌ لامرئٍ من حياتِهِ ... بدارةِ ذُلٍّ عَلْبلايا يُوَقَّرُ[2]

وذكره ابن حجر في الإصابة وأورد له مقطوعة يخاطب فيها قبائل جذام ولخم وعاملة يقول: وقال أبو سمال سمعان بن هبيرة:

أبلغْ جُذاماً ولخماً معاً ... على اليَعْمُلاتِ أولاتِ الحقيبِ
وقولاً لعاملةَ الآخرينَ ... كأنَّ أولئك أولى نسيبِ

---

١ـ التخريج: انظر المؤتلف والمختلف للآمدي ص ١٣٧.
٢ـ التخريج انظر المعمرين لأبي حاتم ص ٦٥، ٦٦ تحقيق عبد المنعم عامر وطبع البابي الحلبي.

قبــائلُ منــا نــأتْ دارُهُــمْ وهــم في القرابَــةِ أدنــى قريــبِ
هلمّــوا إلينــا نجلــو إلى أخٍ مُقْسِــفٍ وَمَحــلٌ رحيــبِ(١)

ويبدو أن هناك من ينسب جذاما ولخما وعاملة إلى عمرو بن أسد بن خزيمة مثل البلاذري في "أنساب الأشراف" ويظهر أن هذه القبائل قد تحولت إلى اليمن في زمن مبكر جداً ولعل أبي سمال ما يؤيد هذا الرأي. ويورد البلاذري شعراً آخر لأبي سمال يدعو فيه جذاماً ولخماً إلى العودة إلى القبيلة الأم فيقول:

أبلــغْ جُذامــاً ولخمــاً إنْ لقيتهُــمُ والقــومُ ينفعُهُــمْ عِلْــمٌ إذا عَلِمُــوا
إنّــا نذكّــر بــالله أن تَدْعُــوا أبــاكمْ حــين جَــدَّ القــومُ واعــتزمُوا
لاتَدْعُــواْ معشــراً ليســوا بــاخواتِكُمْ حتى المماتِ وإنْ عَزُّوا وإنْ كَرُمُــوا(٢)

# أبو المهوش الأسدي

وقد ذكره صاحب الخزانة فقال: هو ربيعة بن رئاب الأشتر ابن حجوان بن فقعس بن طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان ابن أسد. وله يهجو بني نهشل بن حري يقول:

وإذا تَسُــرُّكَ مــن تميــمٍ خِلّــةٌ فلمــا يســؤوكَ مِــنْ تميــمٍ أكْــثرُ
قــد كنــتُ أحســبكم أســودَ خَفِيّــةٍ فــإذا لصــافِ تبيــضُ فيــهِ الحُمَّــرُ
فــترفعوا هَــدَجَ الرئــال فانّمــا تجــني الهجيــمُ عليكُــمُ والعَنْــبَرُ
عضّــتْ تميــمٌ جلْــدِ أيــرِ أبيهــمُ يــومَ الوقيــطِ وعاونتْهَــا حَضْجَــرُ
وكفــاهُمُ مِــنْ أُمِّهِــمْ ذوبنَــةٍ عَبْــلُ المشــافرِ ذو قليــلٍ أســعرُ
ذهبــتْ فشيشــةُ بالأبــاعرِ حولَنــا سَــرَقاً فصــبٌّ علــى فشيشــةِ أبْجَــرُ
منعــتْ حنيفــةَ واللهــازمُ مِنْكُــمُ قِشْــرَ العــراقِ ومــا يلــذُّ الحَنْجَــرُ
يــا نهشــلُ بــنُ أبــي ضُمَــيْرٍ إنّمــا مِــنْ مِثْــلِ سَــلْحِ أبيــكَ مــا تســتقطِرُ
إذا كــان حــريّ ســقيطُ وليــدةٍ بظــراءَ يركُــضُ كاذتَيْهَــا العُهَّــرُ(٣)

---

١- انظر الإصابة الجزء الثالث، ص ١٦٩.

٢- انظر أنساب الأشراف طبع القدسي الجزء الأول ص ٣٧ وقد رأينا من قبل قول عبيد بن الأبرص في هذا الشأن مما يؤيد هذا الرأي إذ يقول عبيد:

أبلــغ جذامــا ولخمــا ان عرضــت لهــم والقــوم ينفعهــم علــم إذا علمــوا
بــأنكم في كتــاب الله اخوانـنــا إذا تقســمت الأرحــام والنســم

٣- التخريج: انظر الخزانة الجزء السادس ص ٣٧٣، ٣٧٩ وقد أورد البكري بيتا جديدا يبدو أنه من القصيدة ذاتها يقول فيه:

وأورد له المبرد ثلاثة أبيات يهجو فيها بني تميم يقول فيها:

إذا مامـــاتَ مَيْـــتٌ مِـــنْ تميـــمٍ فَسَـــرَّكَ أن يعيـــشَ فَجِيْـــىء بِـــزادِ

بخـــبزٍ أو بتمـــرٍ أو بســـمنٍ أو الشـــيءَ الملفـــفَ في البَجـــادِ

تـــراهُ يطّـــوّفُ الآفـــاقِ حِرْصـــاً ليـــأكلَ رأسَ لقمـــانِ بـــنِ عـــادِ(١)

وقد خلط ابن حجر في الإصابة بينه وبين حوط بن رئاب الأسدي وهو على ما يبدو أخو الشاعر فظنهما شخصاً واحداً، ولعل ذلك اللبس الذي وقع فيه ابن حجر سببه أن الشاعرين قد عاشا في عصر واحد وهما يعدان من المخضرمين.

وقد أورد له صاحب اللسان: مادة "عجا".

ومغصـــبٍ قطـــعَ الشـــتاءَ وقوتُـــهُ أكـــلُ العجـــا وتكسُّـــبُ الأشـــكادِ

فبدأتُـــهُ بـــالمَحْضِ ثـــم ثنيتُـــهُ بالشـــحْمِ قبـــل محمـــدٍ وزيـــادِ

# الأشعر الرقبان

وهو كما يذكر الآمدي عمرو بن حارثة بن ناشب بن سلامة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد وهو شاعر جاهلي خبيث وهو القائل:

إذا مـــاانتدى القـــومُ لم تـــأتِهِمْ كـــأنَّكَ قـــدْ وَلَدَتْـــكَ الحُمُـــرْ

كـــأنك ذاك الـــذي في الضُّـــرو عِ قُـــدّامُ دُرَّتِهـــا المُنْتَشِـــرْ

مســـيخٌ مليـــخٌ كلحـــمِ الحُـــوارِ لا أنـــتَ حلـــوٌ ولا أنـــتَ مُـــرْ

وقـــد علـــم الجـــارُ والنـــازلونَ بـــأنك للضيـــفِ جـــوعٌ وَقَـــرْ(٢)

وذكره المرزباني في معجمه وقال: وقال الأشعر الرقبان بعد أن سرق ولدين لعمرو بن هند

---

أكلـــت أســـيد والهجيـــم ودارم أيـــر الحمـــار وخصيتيـــه العنـــبر

أ ـ انظر سمط اللآلئ، الجزء الثاني ص ٨٥٨، ٨٥٩ تحقيق الميمني طبع لجنة التأليف.

١ـ انظر المصدر السابق ص ٨٦٣ الجزء الثاني.

ـ وقد ورد ذكره في الكامل للمبرد تحقيق أبو الفضل إبراهيم الجزء الأول، ص ١٧١.

ـ وقد أورد له صاحب اللسان شاهدا واحدا في مادة "حور" يقول فيه:

يـــا ورد انـــي ســـأموت مـــرة فمـــن حليـــف الجفتـــة المقـــورة

٢ـ التخريج: انظر المؤتلف والمختلف ص ٤٧ وتكرر ذكره في ص ١٣٣.

وذبحهما في ثأر له:

أنّـا كذلـك كـان عادتُنـا ... لم نُفْـضِ مِـنْ مَلْـكٍ علـى وِتْـرِ(١)

وقد أورد ابن قتيبة واحدا من الشعر في "ديوان المعاني" يقول فيه:

بِحَسْـبِكَ في القـومِ أنْ يعلمُـوا ... بـأنك فيهـم غنـيٌّ مُضِـرْ(٢)

ويبدو أن هذا الشاعر الأسدي قد أدرك الإسلام وأسلم وعلى هذا فانه من شعراء بني أسد المخضرمين.

وقد أورد هذه الأبيات صاحب اللسان برواية أخرى تقول:

قال الأشعر الرقبان الأسدي جاهلي يهجو ابن عمه رضوان:

تجـانف رضـوانُ عـن ضيفِـهِ ... ألم يـأتِ رضـوانَ عـني النُّـذُرْ

بحسـبك في القـوم أن يعلمُـوا ... بـأنك فيهـم غـنيٌّ مُضِـرْ

وقـد علـم المعشـرُ الطـارحونَ ... بـأنك للضيـف جـوعٌ وَقَـرْ

وأنـت مسـيخٌ كلحـمِ الحُـوارِ ... فـلا أنـتَ حلـوٌ ولا أنـتَ مُـرْ

انظر اللسان مادة "مسيخ".

# أعشى بني أسد

وقد ذكره أبو بشر الآمدي في المؤتلف على أنه بجرة بن منقض بن طريف جد مطير بن الأشيم الشاعر والأعشى هذا جاهلي وهو القائل:

ابلـغ بـني الطِّرْمـاحِ إن لاقيتَهُـمْ ... كلمـاتِ موعظـةٍ وَهُـنَّ قِصَـارُ

لأعرفـنَّ سـيوفنا ورماحَنـا ... غَـدواً كـأنكُمُ لَهُـنَّ دُوارُ

وكأننـا فيكُـمْ جِمـالٌ ذَبَّـةٌ ... أُدْمٌ علاهُـنَّ الكحيـلُ وَقَـارُ(٣)

وذكره المرزباني في معجمه فقال: أعشى بن أسد اسمه قيس بن بجرة بن قيس بن منقذ بن طريف بن عمرو بن قعين جاهلي وهو جد عبد الله ابن الزبير وكان قيس الأعشى شاعراً مذكوراً معروفاً(٤).

ويعود الآمدي إلى ذكره فيقول: ومنهم أعشى آخر وهو طلحة ابن معروف أخو الكميت بن

---

١ـ انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ١٩/ وأمالي القالي جـ٢ ص ٢٠٧ ونوادر أبي زيد في اللغة ص ٧٣.

٢ـ انظر ديوان المعاني الكبير لابن قتيبة نشر حيدر آباد الجزء الأول، ص ٤٩٦.

ذكر الشاعر في حماسة التبريزي طبع أوربا ص ٣٨٧.

٣ـ تخريج الأبيات: انظر الخبر وأبيات الشعر في المؤتلف ص ١٧، ١٨.

٤ـ انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٢٦.

معروف الأصغر بن الكميت الأكبر بن ثعلبة بن الأشتر بن حجوان بن فقعس وهو القائل:

أَجَدَّكَ لن تلقى الكميتَ ولا صخرا ... وإنْ أنتَ أعملتَ المطِيّةَ والسَّفرا

هما أخواي فرَّقَ الدهرُ بيننا ... إلى الأَمَدِ الأقصى ومن يأمَنِ الدَّهرا

ويتابع الآمدي قائلاً: ووجدت في آخر ديوان الكميت بن ثعلبة الأعشى هو خثيمة بن معروف بن الكميت بن ثعلبة فلست أدري خثيمة هذا أهو طلحة أم وقع في اسمه غلط وهما أخوان أعشيان ووجدت له قصيدة طويلة يقول فيها:

قد يخبر الله أقواما ويعقبهم ... غني ويحدث من بعد الغنى الكرب

فلا يغرنك من دهر تقلبه ... ان الليالي بالفتيان تنقلب(1).

الأغاني ج٢٢ ص١٣٧ وما بعدها.

وأعشى بن أسد أخو الكميت واسمه خثيمة الذي يقول يرثي الكميت وغيره من أهل بيته:

هَوِّنْ عليكَ فإنَّ الدَّهْرَ منجذِبُ ... كل امرئٍ عن أخيهِ سوف ينشعبُ

فلا يغرَّنْكَ مِنْ دهرٍ تقلبُهُ ... إنّ الليالي بالفتيان تنقلبُ

نام الخَلِيُّ وبتُّ الليلَ مرتفقاً ... كما تزاورَ يَخْشى دِفْأَهُ النَّكِبُ

إذا رجعتُ إلى نفسي أحدثُها ... عَمَّنْ تضمَّنَ من أصحابيَ القُلُبُ

مِنْ أخوةٍ وبني عمٍ رزئتهُمُ ... والدهرُ فيه على مُسْتَعْتِبٍ عَتَبُ

عاودتُ وجداً على وجدٍ أكابدُهُ ... حتى تكادُ بناتُ الصدرِ تلتهبُ

هل بَعْدَ صخرٍ وَهَلْ بعد الكميتِ أخٌ ... أمْ هَلْ يعودُ لنا دهرٌ فنصطحبُ

لقد علمتُ ولو مليّتُ بعدَهُمُ ... أني سأنهلُ بالشُّربِ الذي شَربُوا



---

١ـ انظر المؤتلف والمختلف ص ٣٠ والذي يفهم من حديث الآمدي ان هناك أكثر من أعشى واحد في بني أسد وبما أن له شعرا يرثي فيه الكميت فالأغلب أن الأعشى هذا هو خثيمة بن معروف أخو الشاعر الكميت بن معروف الذي رجحنا وفاته بسنة ستين هجرية فيكون الأعشى هذا قد مات بعد هذا التاريخ.

# الأقشر الأسدي

وهو الأقشر صاحب لواء بني أسد شاعر جاهلي قال ابن حبيب واسمه عامر بن طريف بن مالك بن نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد وهو الذي يقول:

لا أعقُّ ولا أحـوبُ ولا أُغيرُ على مُضَرْ ... لكنما غزوي إذا صحَّ المطيُّ مِنَ الدُّبُـرْ(١)

# أهبان بن خالد بن نضلة الأسدي

وهو أهبان بن خالد بن نضلة الأسدي، قال يرثي هماما رجلاً من بني أسد ولعل هماما هذا أخوه، وكان يقال له أهبان النواح لحسن مراثيه(٢).

قال أهبان:

ألَمّـا نُسَـلِّمْ إنهـا حاجـةٌ لَنَـا ... علـى قـبرِ هَمّـامٍ سَـقَتْهُ الرَّواعِـدُ

هنـاك الفـتي كـلُ الفـتي كـان بينَـهُ ... وبـين المُزَجّـي نفنـفٌ متبـاعِدُ

إذا انتضلَ القـومُ الأحـاديثَ لَـمْ يكُـنْ ... عييّـاً ولا عبئـاً علـى مَـنْ يُقـاعِدُ(٣)



---

١- التخريج: انظر المؤتلف والمختلف للآمدي ص ٥٥.

٢- تخريج الأبيات: انظر المؤتلف والمختلف ص ٣٠.

٣- انظر المصدر السابق ص ٣٠ وقد وردت الأبيات في الحماسة لأبي تمام مع زيادة وهي كالتالي: الجزء الثالث ص ١٠٦٥: قال ابن أهبان الفقعسي:

علـى مثـل همـام تشق جيوبهـا ... وتعلـن بـالنوح النسـاء الفواقـد

فتـى الحـي إن تلقـاه في الحـي أو يـرى ... سـوى الحـي أو ضـم الرجـال المشـاهد

إذا نـازع القـوم الأحـاديث لم يكـن ... عييـا ولا عبئـا علـى مـن يقـاعد

طويـل نجـاد السـيف يصبـح بطنـه ... خميصـا وجاديـه علـى الـزاد حـامد

والغالب ان الشخصين هما واحد وربما حدث اختلاط بالاسم من قبل النساخ أو الرواة.

وقد وردت هذه الأبيات في "الكامل" للمبرد على أنها لرجل من العرب ونجد المرزباني نسبها إلى عمرو بن أهبان بن دثار الفقعسي ص ٢١٥.

# بغثر بن لقيط الأسدي

وقد ذكره أبو تمام في الحماسة وله:

أمـا حكيـمٌ فالتمسـتُ دماغَـهُ ... ومقيـلَ هامتِـهِ بحـدِّ المُنْصُـلِ
وإذا حملـتُ علـى الكريهـةِ لم أقـلْ ... بَعْـدَ العَزيمَـةِ ليتَـني لَـمْ أَفْعَـلِ(١)

# ثوب بن تلدة الوالبي الأسدي

وهو أحد بني نصر بن والبة بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد قال أبو سعيد السكري تلـدة امه وأبوه ربيعة وهو القائل:

أمـمـتُ بهـا بـين العَذِيـبِ وفـارسٍ ... وربـمـانَ لَمـا خِفْـتُ أنْ أتنصّـرا
فمـا هـي ممـا يـأخذُ ابـنُ مُسـاحِقٍ ... ولا المـرأ عـلاّقٌ إذا مـاتَخفّرا
كريمـاً كريـمِ ألفيـا أبويهِمـا ... ضَروبَيْـنَ في يـوم اللقـاءِ السنّورا(٢)

وذكر ابن الكلبي في جمهرة النسب ورقة ٥٥ أن ثوب بن تلدة عمِّر في الجاهلية دهرا ثـم أدرك الإسلام فقال له معاوية: ما تعقل؟ قال: أعقل بني والبة ثلاث مرات(٣).

ويروي له أبو حاتم في كتابه "المعمرين" بيتين من الشعر يذكر فيهما طول عمره فيقول:

وان امـرءاً قـد عـاشَ عشـرين حِجَّـةً ... إلى مئتـين كلُّهـا هـو دائِـبُ
لَرَهْـنٌ لأحـداثِ المنايـا وإنّمـا ... يلهّيـهِ في الدنيـا مُنـاهُ الكَـواذِبُ(٤)

---

١ـ تخريج البيتين: انظر الحماسة لأبي تمام بشرح المرزوقي الجزء الثاني ص ٦٩٤ وذكر صاحب تاج العروس في الجزء الثالث ص ٥٤ إنه: بغثر بن لقيط ابن خالد بن نضلة الشاعر الجاهلي.

٢ـ التخريج: انظر المؤتلف والمختلف ص ٦٩.

٣ـ انظر المصدر السابق فقد أشار إلى الخبر ص ٦٩.

٤ـ انظر كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني ص ٨٤.

# جريبة بن الاشيم

وهو من شعراء بن أسد الجاهليين، وقد ذكره أبو بشر الآمدي في "المؤتلف والمختلف" فقال عنه: هو جريبة بن الاشيم بن عمرو بن وهب بن دثار ابن فقعس بن طريف، وهو جد مطير بن الاشيم[1] وقد أورد له بيتين من الشعر يخاطب فيهما ابنا له يدعى يسارا فيقول:

ولقـد حللـتَ يسـارُ منزلـةً ... مـني فويـقَ الخلـبِ والكَبِـدِ

وبذلـتُ مـا جمعـتُ مِـنْ نَشَـبٍ ... وفرشـتُ خـدَكَ سـاعدِي ويـدِي[2]

وقد ذكره أبو تمام في الحماسة وذكر له حماسية مؤلفة من سبعة أبيات يقول فيها:

فـدىً لفـوارسَ المُعْلَمِيـ ... نَ تحـتَ العجاجـةِ خـالي وَعَـمْ

هُـمُ كشـفوا عيبـةَ العـائبينَ ... في العـار أوجهُهُـمْ كـالحَمَمْ

إذا الخيـلُ صـاحتْ صيـاحَ النسـور ... حززنـا شـرا سـيفَها بـالجذَمْ

إذا الدهـرُ عضَّتْـكَ أنيابُـهُ ... لـدي الشـر فـأزَمْ بِـهِ مـا أَزَمْ

ولا تُلْـفَ في شَـرِّهِ هائبـاً ... كـأنك فيـه مُسِـرٌّ السَـقَمْ

عرضنـا نَـزالِ فلـم ينـزلوا ... وكـانت نَـزالِ عليهـم أُطَـمْ

وَقَـدْ شَـبَّهوا العَـير أفراسَـنا ... وقـد وجـدوا مَيْرَهـا ذا بَشَـمْ[3]

ويذكر له الشهرستاني في "الملل والنحل" شعرا يخاطب فيه ابنه سعدا يقول فيه بعد أن شعر بدنو أجله:

يَـا سـعدُ إمّـا أهلكـنَّ فـانني ... اوصيـكَ إنَّ أخـا الوَصـاةِ الأقـربُ

لاتـتركنَّ أبـاكَ يُحْشَـرُ راجـلاً ... في الحشـر يصـدعُ لليديـن ويُنْكَـبُ

واحمـلْ أبـاك علـى بعـيرٍ صـالحٍ ... وَتَـقِ الخطيئـةَ إنـهُ هـو أقـربُ

ولعـلَّ لي فيمـا تركـتَ مطيـةً ... في القـبر اركبُهـا إذا قيـلَ اركبُـوا[4]

وقد ذكر هذا الشاعر الأسدي خير الدين الزركلي في كتابه "الأعلام" وقال عنه: كان من القائلين بالبعث وممن يزعمون أن مطية الرجل إذا عقرت على قبر صاحبها فانه يحشر عليها[5].



---

١ـ تخريج الأبيات: انظر المؤتلف والمختلف ص ٧٧ وص ١٠٣.

٢ـ انظر المصدر السابق ص ١٠٣.

٣ـ انظر حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي الجزء الثاني ص ٧٧٣ ـ ٧٧٤ وقد وردت الأبيات في الإصابة الجزء الأول ص ٥٣٤ وانظر اللسان مادة "نزل".

ويكنى جريبة بن الأشيم "بأبي سعد" كما ورد في المؤتلف والمختلف.

٤ـ تخريج الأبيات: انظر الملل والنحل للشهرستاني الجزء الثالث ص ٢٣٠، طبع مطبعة الأزهر.

٥ـ انظر الأعلام للزركلي الجزء ١٥، ص ١١٦.

# حبيش الأسدي

وقد ذكره ابن حجر العسقلاني في الإصابة وقال: انه كان يحرض بني أسد على الإسلام حين ظهر فيهم طليحة بن خويلد قال: فواجه طليحة بالتكذيب وأنشد له في ذلك أشعاراً منها قوله:

شـــهدتُ بـــأن الله لا ربَّ غـــيرَهُ ... طليـــحُ وأنَّ الديـــنَ ديـــنُ محمـــدِ(١)

# حضرمي بن عامر

وقد ذكره أبو بشر الآمدي وهو عنده حضرمي بن عامر بن مجمع بن موألة بن هشام بن حنب بن كعب بن القين بن مالك بن ثعلبة بن دودان شاعر فارس سيد وهو بالقائل:

ألا عجبـــتْ عمـــيرةُ أمـــس لمّـــا ... رأتْ شـــيبَ الذؤابـــة قـــد علانـــي

تقـــول أرى أبـــي قـــد شـــاب بَعْـــدي ... وأقصـــرَ عـــن مطالَبـــةِ الغَوانـــي

وكـــلُ قرينـــةٍ قُرِنَـــتْ بـــأخرى ... ولـــو ضنَّـــتْ بهـــا ســـتُفرَّقان

وكـــلُ أخٍ مفارِقُـــهُ أخـــوهُ ... لعُمـــر أبيـــكَ إلا الفرقـــدان

ويذكر أن له أشعارا وأخبارا حسانا في كتاب بني أسد(٢) وزاد صاحب الخزانة على الأبيات السابقة لحضرمي بن عامر ثلاثة أبيات هي:

وذي فخـــم عزفـــت النفـــسَ عنـــهُ ... حِـــذارَ الشـــامتينَ وَقَـــدْ شَـــجانِي

قطعـــتُ قرينـــتي عنـــهُ فـــأغنى ... غنـــاهُ فلـــم أراهُ ولم يرانـــي

وكـــلُّ اِجـــابتي إيـــاهُ أنّـــي ... عطفـــتُ عليـــهِ خـــوَّارَ العِنَـــانِ(٣)

ويذكر المرزباني في معجمه ان حضرمي بن عامر كان يكنى أبا كدام وأنه كانت له صحبة وهو من ضمن وفد بني أسد على رسول الله "ص" وقال حضرمي يرد على ابن عمه جزء بن مالك:

إن كنـــتَ قـــاولتني بهـــا كذبـــاً ... جـــزءُ فلاقيـــتَ مِثْلَهـــا عَجِـــلا

يزعـــمُ جـــزءٌ ولم يقـــلْ جَلَـــلاً ... أنّـــي تَروّحـــتُ ناعمـــاً جَـــذِلا

إن كنـــت ازننتـــني بهـــا كذبـــاً ... جـــزءُ فلاقيـــتُ مِثْلَهـــا عَجِـــلا

أفـــرحُ أنْ أرزأ الكـــرامَ وأنْ ... أورثَ ذَوْداً شـــصائِصاً نَبـــلا(٤)

---

١ـ التخريج: انظر الإصابة الجزء الأول ص ٣٧٣ وانظر الجزء الثاني ص ٢٣٤.

٢ـ التخريج: انظر المؤتلف والمختلف ص ٨٤ ـ ٨٥ وقد جعل الزركلي وفاة حضرمي في السنة السابعة عشرة للهجرة ٦٣٨م انظر الأعلام الجزء الثاني ص ٢٨٩.

٣ـ انظر الخزانة للبغدادي الجزء الثالث، ص ٤٢٦.

٤ـ انظر معجم الشعراء ص ٣٧٠، وجاء في رواية للأبيات "ان كنت ازننتني... ". انظر اللسان مادة "نبل".

وذكر له البحتري في حماسته بيتين من الشعر يخاطب فيهما أبناء عمومته قائلاً:

وَلَقَـدْ لبِسْـتكُمُ علـى شـحنائِكُمْ ... وعرفـتُ مـا فيكـم مـن الأَوْصـابِ

كيمـا أعدُّكُـمُ لأبْعَـدَ مِنْكُـمُ ... أنّـي ينـازعني ذوو الأحسَـابِ(١)





١ـ التخريج: انظر حماسة البحتري ص ٢٤٩. وقد ورد البيتان في اللسان برواية مختلفة بعض الشيء: "مادة ذرب".

ولقـد طويتكـم علـى بللاتكـم ... وعرفـت مـافيكم مـن الأذراب

كيمـا أعدكـم لأبعـد منكـم ... ولقـد يجـاد إلى ذوي الألبـاب

# حوط بن رئاب الأسدي

وقد ذكره أبو تمام في كتابه "الحماسة" في باب الهجاء وأورد له ثلاثة أبيات من الشعر يقول:

دبيتَ للمجدِ والساعونَ قد بلغوا    جَهْدَ النفوس وألقوا دونَهُ الأُزُرا
فكابروا المجدَ حتى ملَّ أكثرُهُمْ    وعانقَ المَجْدَ مَنْ أوفى وَمَنْ صَبَرا
لا تحسبِ المجدَ تمراً أنتَ آكلُهُ    لن تبلغَ المجدَ حتى تلعقَ الصَبِرَا(١)

وجاء ذكره عند ابن حجر في الإصابة على أنه من المخضرمين(٢).



# دبير الأسدي

وقد ذكره أبو بشر الآمدي وهو عنده دبير وهو كعب بن عمرو بن قعين بن بني أسد وهو أحد شعرائها وهو القائل:

وديعةُ في الدنيا عليها ملاحةٌ    لها قَصَبٌ خَدْلٌ وعينُ غزال
وثغرٌ كثغرِ الأقحوانِ إذا بَدا    وتطلعُ مِنْ سِتْرٍ طلوعَ هِلالِ(٣)

# ربيعة بن أسعد بن جذيمة بن مالك الأسدي

وقد ذكره أبو بشر الآمدي وهو عنده: ربيعة بن أسعد بن جذيمة بن مالك ابن نصر بن قعين شاعر من شعراء بني أسد وهو جاهلي كان ابنه ذؤاب بن ربيعة قتل عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي وأسره رجل من بني يربوع واسمه ربيع بن عتيبة و لم يعلم أنه قاتل عتيبة، فظن ربيعة أنه قد قتل فقال:

أذؤابُ إني لم أبغكَ و لم أهبْ    بعكاظَ حيثُ تجمع الأجلاب
ان تقيلوك فقد ثللت عروشهم    بعتيبة بن الحارث بن شهاب
بأشدهم كلبا على أعدائه    وأعزهم فقدا على الأصحاب

فلما بلغت هذه الأبيات بني يربوع قتلوا ذؤابا وبلغ ذلك ربيعة فقال:

أبلغْ قبائلَ جعفرٍ مخصوصةً    ما إن أحاولُ جعفرَ بنِ كِلابِ

---

١ـ التخريج: انظر الحماسة لأبي تمام الجزء الثالث ص ١٥١١.
٢ـ انظر الإصابة لابن حجر الجزء بالأول ص ٣٨١ ـ ٣٨٣ وكرر ذكره في الجزء بالثاني ص ١٨٦.
٣ـ تخريج البيتين: انظر المؤتلف والمختلف ص ١٩٥ ولم يذكره غيره.

إنّ البقيـــةَ والهـــوادةَ بيننـــا ... شَـمْلٌ كَسُـحْقِ الريطَـةِ المُنجـابِ
إلا بجيـــشٍ لا يكـــتُّ عديـــدُهُ ... سُـودُ الجلـودِ مِـن الحديـدِ غِضـابِ
ولقـد علمـتُ علـى التجلـدِ والأسـى ... أنّ الرزيئـــةَ كـــان يـــومُ ذؤابِ
وعمـــادهُمْ في كـلِ يـومِ كريهـــةٍ ... وثِمـــالُ كـلِ مُعَصِّـبٍ قِرضـــابِ
أهـوى لَـهُ تَحْـتَ العجـاجِ بضربـةٍ ... والخيـلُ تَـردِي في الغبـارِ الكـابي
أذؤابُ صـابَ علـى صـداكَ فجـادَهُ ... صـوبُ الربيـعِ بوابـلٍ سَـكّابِ
مـا أنـس لا أنسـاهُ آخـرَ عيشِـنَا ... مـا لاحَ بـالمفزاءِ رَيْـعُ سَـرابِ(١)

# الرجال بن هند الأسدي

وقد ذكره الآمدي في "المؤتلف والمختلف" وقال: وهو أحد بني نصر بن قعين وهو بالقائل:

تعجَّـبُ مـني أُمُّ حسـانَ أنْ رَأَتْ ... نَهـاراً وليـلاً بليّـاني فَأَبْدعـا
وَقَـدْ صـارَ خِلاّنـي كـأن عليهـمُ ... مُـلاءَ العـراق بالثَغـام المنزَّعـا
يبيتهُـمُ ذو اللُـبِّ حتـى تراهُـمُ ... وسـيماهُمُ بيضـاً لحـاهُمْ وَأَصْلَعَـا(٢)

ويبدو أن الشاعر قد اشترك في الفتوحات الإسلامية في بلاد فارس ولم يرد ذكره عند غيره الآمدي.



١ ـ التخريج: انظر خبره مع الأبيات في المؤتلف والمختلف ص ١٢٥، ١٢٦، ويغلب على الظن أن الأبيات الأربعة الأخيرة كان محلها التقديم إلى المقطع الأول من القصيدة لتمشي ذلك من المعنى والسياق.

وقد وردت الأبيات في سمط اللآلي للبكري الجزء الثاني ص ٧٠٦ وأمالي القالي مع اختلاف في بعض المفردات في الجزء الثاني ص ٧١.

٢ـ التخريج: انظر المؤتلف والمختلف ص ١٢٥.

# رقاع بن قيس الأسدي

وقد ذكره كل من أبي الفرج الأصفهاني(١) وسمط اللآلي للبكري(٢) وقد ذكراه بدون إكمال نسبه في أسد وعزينا إليه بيتين من الشعر يقول:

أَحَبُّ بلادِ اللهِ ما بين مِنْعَجٍ — إليَّ وسلمى أنْ يصوبَ سحابُها

ألمْ تعلمي يا دارَ بَلْجاءَ أنني — إذا أخصبتْ أو كان جَدْباً جنابُها



---

١- التخريج: انظر الأغاني طبع دار الكتب الجزء الثاني ص ٣١٠.

٢- انظر سمط اللآلي الجزء الأول ص ٢٧٣ وقد ورد البيتان عند أبي القالي على النحو التالي:

أحب بلاد الله ما بين منعج — الي وسلمى إن يصوب سحابها

بلاد بها حل الشباب تمائمي — وأول أرض مس جلدي ترابها

وقد أورد صاحب اللسان البيت الثاني على النحو التالي: "مادة نيط"

بلاد بها نيطت عليّ تمائمي — وأول أرض مس جلدي ترابها

# رملة بنت الحصين الأسدية

وهي جاهلية كما أورد ذكرها عند ياقوت في "معجم البلدان" غير أننا لا نظفر ببقية نسبها أو بما يفيد عن حياتها شيئاً، وقد ذكر بها ياقوت شعراً تحن فيه إلى موطنها بنجد تقول فيه:

ألامُ على نَجْدٍ وَمَنْ يكُ ذا هوىً ... يُهَيِّجُهُ للشوق شتّى يُرابعُه

تُهجْهُ الجَنوبُ حينَ تغدو بنَشْرِها ... يمانيةً والبرقُ إن لاحَ لامِعُه

ومن لامني في حُبِّ نَجْدٍ وأهلِهِ ... فَلَيْمَ على مثلي وَأَوْعَبَ خادِعُه

لعمركَ لَلْغَمْرانِ غمراً مُقَلَّدٍ ... فذو نجب غلاّفُهُ فدوافِعُه

وخوٌ إذا خوٌ سَقَتْهُ ذِهابُهُ ... وأمرعَ منهُ تينُهُ وربائِعُه

وصوتُ مكاكيٍّ تجاوبُ موهناً ... من الليلِ من يأرقْ لَهُ فهو سامِعُه

أحبُّ إلينا من فراريج قرية ... تَزاقي وَمِنْ حَيٍّ تَنِقُّ ضفادِعُه[١]

# زفر بن الحارث الوالبي الأسدي

وقد ذكره الآمدي وقال عنه: انه شهد يوم "ذات الرمث" وفيه يقول:

وإني بذاتِ الرِّمْثِ لَمْ أُلْفَ عاجزاً ... ولا وَرِعاً يومَ التهايجُ أعْزَلا

منعتُ ابنَ ودّاءٍ وَقَدْ ساءَ ظَنُّهُ ... وأنقذْتُ مِنْ تحتِ الأسنةِ نوْفَلا

وصابرتُ حتى أَحْجَمَ القومُ عَنْهُما ... حِفاظاً وما استعجلتُ مَنْ قد تَعَجَّلا[٢]

# سبرة بن عمرو الفقعسي الأسدي

هكذا ورد بدون إكمال نسبه في "الحماسة" عند أبي تمام[٣] وقد أورد له شعرا يرد فيه على ضمرة بن أبي ضمرة النهشلي الذي عيره كثرة ابله ـ ولعل النهشلي أراد بخل سبرة لأنه من غير المألوف أن يعير المرء بكثرة ابله بل على العكس فان هذا مدعاة للفخر عند الجاهليين ـ فرد عليه سبرة قائلاً:

أتنسى دفاعي عنكَ إذ أنتَ مُسْلَمٌ ... وقد سالَ من ذلٌ عليكَ قُراقِرُ

ونسوتكُمْ في الروعِ بادٍ وجوهُها ... يُخَلْنَ اماءً والإماءُ حرائِرُ

---

١ـ تخريج الأبيات: انظر معجم البلدان المجلد السادس ص ٣٠٤.
٢ـ تخريج الأبيات: انظر المؤتلف والمختلف ص ١٣٠.
٣ـ تخريج الأبيات: انظر حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي الجزء الأول ص ٢٣٧.

أعيَّرتَنـــا ألبانَهـــا ولحومَهـــا وذلـك عـارٌ يـا ابـنَ ريطـةَ ظـاهِرُ
نحـــابي بهـــا أكفاءَنـــا ونُهينُهـــا ونشـــربُ في أثمانِهـــا ونقـــامِرُ[1]

وينسب إليه البكري أبياتا في رثاء سيدين من بني أسد يقول فيها:
ألا بكّـر النـاعي بخـيري بـني أَسَـدِ بعمـرِ بـن مسـعودٍ بالسـيدِ الصمـدِ
فـلا تسـألوني عـن بيـان فإنَّـهُ أبـو مَعْمَـرٍ ولا حيـد عنـه ولا صَـردُ
أثـاروا بصحـراءِ الثويّـةِ قَـبْرَهُ ومـا كنـتُ أخشـى ان يوازيَـهُ البلـدُ[2]

وقد ذكره ابن منظور في اللسان وأورد له بيتا يهجو فيه خالد بن قيس مادة "محق"
أبـوكَ الـذي يكـوِي أنـوف عنوقِـهِ بأظفـارِهِ حتـى أنَّـس وأمحقـا

وقال سبرة في اللسان: مادة "رغا"
أيبقـي آلُ شـدادٍ علينـا ومـا يرعـى لشـدادٍ فصيـلُ

وقال سبرة "حشا"
حاشـا أبـي ثوبـانَ إنَّ بـهِ ضنّـاً عـن المَلْحـاةِ والشَـتْمِ

وقال سبرة "منى"
نمـائي بهـا أكفاءَنـا ونهينُهـا ونشـربُ في أثمانِهـا ونقـامرُ

---

١- انظر الحماسة المصدر السابق ص ٢٣٧ الجزء الأول.
٢- انظر سمط اللآلى الجزء الثاني ص ٩٣٢ ويضيف البكري ان الأبيات تنسب لهند بنت معبد الأسدية ترثي أعمامها. ونرجح أن تكون الأبيات لسبرة ذلك أن الأبيات وردت عند أبي علي البكري على أنها له وكذلك رجح نسبتها لسبرة المرزباني في معجمه إذ يقول وهو عمرو بن مسعود بن عمرو بن مرارة الأسدي الفقعسي شاعر جاهلي كان معاصرا للنعمان بن المنذر ص ٢٧.

# ضرار بن الأزور الأسدي

وهو أحد شعراء بني أسد الذين أدركوا الإسلام وشاركوا في الفتوحات واسمه ضرار بن الأزور "والأزور هو مالك" بن أوس بن خزيمة بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد(١).

وجاء في الخزانة أن ضرار بن الأزور هو الذي قتل مالك بن نويرة بأمر من خالد بن الوليد واختلف في وفاته(٢).

وروى له البغدادي شعراً يعلن فيه استياءه من قومه بني أسد الذي تبعوا طليحة في حركة الردة يقول فيه:

بني أَسَدٍ قَدْ ساءَني مافعلتُمُ ... وليس لقوم حاربوا الله مَحْرَمُ

وأعلمُ حقاً أنَّكمْ قَدْ غَوَيْتُمُ ... بني أَسَدٍ فاستأخِروا أو تقدَّمُوا

نهيتكُمُ أنْ تَنْهبوا صَدَقاتِكُمْ ... وقلتُ لَكُمْ يا آلَ ثعلبةَ اعلمُوا

عصيتُمْ ذوي أحلامِكُمْ وأطعتُمُ ... ضُجَيْماً وأمرُ ابنِ اللقيطةِ أَشْأَمُ

وَقَدْ بعثوا وفداً إلى أهلِ دَوْمَةٍ ... فَقُبِّحَ مِنْ وفدٍ وَمَنْ يتيمَّمُ

ولو سأَلَتْ عنّا جنوبٌ لَخَبَّرَتْ ... عشيَّةَ سالتْ عقرباءُ بها الدَّمُ

عشيَّةَ لاتُغني الرماحُ مَكانَها ... ولا النَّبْلُ إلا المشرفيُّ المُصَمِّمُ

فإن تبتَغي الكفارُ غيرَ مُنيبةٍ ... جنوبٌ فإني تابعُ الدينِ فاعلموا

أُقاتِلُ إذ كانَ القتالُ غنيمةً ... ولله بالعبدِ المجاهدِ أعلمُ(٣)

وروى له البغدادي أيضاً قوله في حضرة رسولنا الكريم:

خلعتُ القِداحَ وعزفَ القيا ... ن والخمرَ شربُها والثّمالا

وَكَرِّيَ المُحَبَّرَ في غَمْرَةٍ ... وَجَهْدِي على المُشركينَ القِتالا

وقالتْ جميلةُ بدَّدْتَنا ... وطرحتَ أهلَكَ شتّى شِمالا

فيا ربِّ ألا أغبنَنْ صفقتي ... فقد بِعْتُ أهلي ومالي بَدالا(٤)

وروى ياقوت في معجم البلدان شعراً لضرار بن الأزور ومنه:

ونحنُ منعنا كلَّ مَنْبتِ تِلْعَةٍ ... مِنَ الناسِ إلا مَنْ رعاها مُجاورا

من السرِّ والسرّاءِ والحَزْنِ والمَلا ... وكُنَّ مِخنّاتٍ لنا وَمَصائِرا(٥)

---

١ـ التخريج: انظر الإصابة الجزء الثاني ص ٢٠٨ وانظر الخزانة جـ٣ ص ٢٩١.

٢ـ انظر المصدر السابق الجزء الثالث ص ٣٢٥ وانظر الأعلام للزركلي الجزء الثالث ص ٣١١ حيث يجعل وفاته سنة ١١ هجرية وقال غيره بأجنادين.

٣ـ انظر الأبيات في الخزانة الجزء الثالث ص ٢٩١، ٢٩٢ وانظر معجم البلدان لياقوت المجلد الثاني ص ٦٢٨.

٤ـ التخريج: انظر الأبيات في الإصابة الجزء الثاني ص ٢٠٨.

٥ـ التخريج: انظر معجم البلدان لياقوت الجزء الثالث ص ٦٢.

وروى له بيتا آخر يقول فيه:

أرقتُ ببانقيا ومَنْ يَلْقَ مثلما ... لقيتُ ببانقيا مِنَ الحربِ يأرقِ[١]

وله أيضاً في مخاطبة المرتدين:

أرادتْ حجانٌ والسفاهةُ كَبْسَمُها ... لا عقل قبلي قومَها وتَخلّدا

كذبتمْ وبيتِ اللهِ حتى ترى لَكُمْ ... حميراً وكسرى والنجاشيَّ أعبدا

وحتى تُميتوا يهمداً مِنْ مكانهِ ... وحتّى تُزيلوا بعدَ ثهلانَ صَنْدَدا[٢]

# ضرار بن فضالة بن كلدة

وقد ذكره أبو بشر الآمدي وهو عنده: ضرار بن فضالة بن كلدة بن عبد مرارة بن سواءة بن سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان شاعر فارس وكان ركب في فداء حضرمي بن عامر الأسدي المالكي ففداه وقال[٣]:

وناجية بعدَ الكَلال بعثتُها ... تجشّمُ هُذلولاً من الليلِ أسْوَدا

يُباري سهيلاً خدُّها عن يمينها ... ويجعلُ جَدْياً عن يسارٍ وفرقدا

ليدركَ سعيَ حضرميُّ بنُ عامرٍ ... مخبّاً بردفٍ ساعةً ومفرّدا

وقالوا غبّناكمْ فقلتُ كذبتُمُ ... ذهبتمْ بأذوادٍ وأطلقتُ سَيِّدا[٤]

# طليحة بن خويلد

وهو طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة بن الأشتر.. الفقعسي الأسدي وقد ذكره أبو تمام في الوحشيات ونسب له قوله في أثناء فتنة الردة التي حدثت في بني أسد:

فيوماً تراها في الجلال مصونةً ... ويوماً تراها غيرَ ذاتِ جِلالِ

ويوماً تضيءُ المشرّفيةُ وَسْطَها ... ويوماً تراها في ظلال عَوالِ

فما ظنّكُمْ بالقومِ إذْ تظلمونَهُمْ ... أليسوا وإنْ لم يُسلموا برجالِ[٥]

---

١ـ انظر معجم البلدان، المجلد الأول ص ٤٨٢.

٢ـ انظر المصدر السابق المجلد الثالث، ص ٤٢٠.

٣ـ التحريج: انظر المؤتلف والمختلف ص ١٧٢، ١٧٣.

٤ـ انظر المؤتلف والمختلف ص ١٧٢، ١٧٣.

٥ـ التحريج: انظر الوحشيات لأبي تمام، نشر دار المعارف ص ١١٥ وانظر سيرة ابن هشام طبع دار الجيل، بيروت ص٢٠٣ الجزء الثاني.

وزاد عليها ابن هشام في السيرة ما يلي:

فمـا ظنّكُـمْ بـالقومِ إذْ تقتلونَهُـمْ ... أليسـوا وان لم يُسلموا برجـالِ

فـان تـكُ أذوادٌ أُصِبْـنَ ونسـوةٌ ... فلـنْ تذهبـوا فرغـاً بقتـلِ حبـالِ

نصبـتُ لهـمْ صَـدْرَ الحِمالَـةِ إنّهـا ... معـاودةٌ قيـلُ الكمـاةِ نَـزالِ

فيومـاً تَراهـا في الجِـلالِ مصونـةً ... ويومـاً تراهـا غـيرَ ذاتِ جِـلالِ

عشـيَّةَ غـادرتُ ابـنَ أقـرمَ ثاويـاً ... وعكاشـةَ الغنمـيَّ عِنْـدَ حِجـالِ(١)

# عباد بن أنف الكلب الصيداوي الأسدي

وقد ورد ذكر هذا الشاعر عند أبي حاتم في كتابه "المعمرون والوصايا" وقد ذكر له أبو حاتم قصيدة يقول فيها:

عمـرتُ فلمّـا جـزتُ سـتينَ حِجَّـةً ... وسـتينَ قـالَ النـاسُ: أنـتَ مفنَّـدُ

فقلـتُ لهـم بـاللهِ هـل تنكرونـني ... وهـل عـابني إلا السَّـخا والتمجـدُ

وإنـي جـوادُ الكـفِ سمـحٌ بمـا حـوتْ ... يـداي مـن المعـروفِ لاأتلـدَّدُ

أجـودُ وأحمـي المسـتجيرَ مِـنَ الـرّدي ... إذا عـرَّدَ النِكْـسُ الأحـمُّ الألَنْـدَدُ

ويومـاً تَـرى الأبطـالَ مِـنْ خـوفِ شَـرِّهِ ... سـكارَى عليهـمْ غَبْيَـةٌ تـتردَّدُ

شـهدتُ فَجَلَّيْـتُ البَلايـا وأَوْقَهـا ... بـأسمرَ نحـو المُبتَغِـي الشَـرَّ يَقْصِـدُ

وَزِقٌ كمسـتدمي الغـزالِ سَـبَأْتُهُ ... لفتيـان صـدق رِفْدُهُـمْ ليـسَ يَنْفَـدُ

فقلـتُ لهـمْ عُلّـوا وتلـكَ مَطيَّـتي ... بكفِـيّ عَضْـبٌ مَشْـرفيٌّ مُهَنَّـدُ

فعـادتْ وقـامَ الطاهيـان فَـأَوْقَدا ... بعليـاءَ نـاراً حَمُّهـا ليـس يـبردُ

فلمـا اشـتهوا مِنهـا وأدْبَـرَ وحشُـهُمْ ... صببـتُ لَهُـمْ صهبـاءَ في الكـأسِ تَزْبِـدُ

وقلـتُ لَهُـمْ إنـي حميـلٌ بمثـلِ مـا ... رأيتـمْ طَـوالَ الدَّهْـرِ لاأتَزَيَّـدُ(٢)

وجاء ذكر الشاعر عباد بن أنف الكلب ـ أيضاً ـ عند الخالدين في "الأشباه والنظائر" وقد أوردنا له مقطوعة شعرية يقول فيها:

دفعنـا طريفـاً بأطرافنـا ... وبـالراح عنـا ولم تدفعونـا

فَلَـمْ يَبْـقَ إلا الـتي حـاولوا ... وخُضْنـا وأَحْـرِ بهـا أنْ تكونـا

فـإنْ كـان فيكـمْ لَكُـمْ ثَـرْوَةٌ ... فإنّـا عديـدٌ وإنْ كـانَ دُونـا

---

١ـ انظر المصدر السابق ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤ وهو يشير هنا إلى قتل ابن أخيه حبال الذي قتله المسلمون في حروب الردة ويشير إلى قتل المرتدين للصحابي ثابت ابن أقرم الأنصاري وعكاشة بن محض الأسدي. وانظر اللسان مادة "حمل".

٢ـ تخريج الأبيات: انظر كتاب "المعمرين" ص ٥٥.

وإنـــا إذا قابلَتْنـــا السـيوفُ وقـد هـاجت الحـربُ ضَرْبـاً ثُبينـا
وطــاحَ الرئيـسُ وهـادِي اللـواءِ ولا تـأكلُ الحـربُ إلا سَـمينا
وأعصَـمَ بالصـبرِ أهْـلُ البـلاءِ فإنـا هنـاك كمـا تعلمونـا(١)

ورويا له بيتاً آخر يقول فيه:

فتمسـي لاأقيِّدُهـا بِحَبْـلٍ بهـا طـولُ الضَـرارةِ والكَـلالِ(٢)

# عبد الله بن جحش الأسدي "أبو أحمد"

وهو أخو أم المؤمنين زينب اسمه عبد بغير إضافة وقيل عبد الله كان من السابقين الأولين وقيل هاجر إلى الحبشة ثم قدم مهاجرا إلى المدينة شهد بدرا وكان يدور في مكة قائلاً:

حبـذا مكـة مِـنْ وادِ بهـا أهلـي وعُـوّادِي
بهـا ترسـخُ أوتـادِي بهـا أَمْشِـي بـلا هـادِي(٣)

وذكره أبو تمام في "الحماسة" وذكر له أبياتاً من الشعر يشير فيها إلى استقرار بني غنم في مكة وهجرتهم إلى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيها:

ولـو حلفـتْ بـين الصفـا أمُّ أحمـدٍ وَمَرْوَتِهـا بـاللهِ بَـرَّتْ يمينُهـا
لَنَحْـنُ الأُلى كُنّـا بِهـا ثُـمَّ لم نَـزَلْ بمكـةَ حتـى عـادَ غَثّـاً سمينُهـا
بهـا خيَّمـتْ غنـمُ بـنُ دودانَ وابتنـتْ ومـا أن غَـدَتْ غنيـم خَـفَّ قطينُهـا
إلى اللهِ تغـدو بـينَ مثنـى وواحـدٍ وديـنُ رسـولِ اللهِ بـالحقِّ دينُهـا(٤)

ويذكر له ابن هشام شعرا يعاتب فيه أبا سفيان لبيعه لدار تخصهم نكاية بهم لأنهم هاجروا مع رسول الله إلى المدينة، ونجد أبا أحمد هنا يذكر أبا سفيان بالقربى وبالحلف القائم بين الطرفين فيقول:

أبلـغ أبـا سـفيانَ عَـنْ أمـرٍ عواقبُـهُ نَدامـهْ
دارُ ابـنِ عمِّـكَ بِعْتَهـا تقضـي بهـا عنـكَ الغَرامَـهْ
وحليفكُـمْ بـاللهِ ربِّ النـاسِ مجتهـدُ القيامَـهْ(٥)

---

١ـ انظر الأشباه والنظائر للخالدين الجزء الأول ص ٨٨.
٢ـ انظر الأشباه والنظائر للخالدين الجزء الأول ص ٢٢١.
٣ـ التخريج: انظر الإصابة الجزء الرابع ص ٣ طبع بيروت.
٤ـ انظر الحماسة بشرح المرزوقي الجزء الثالث ص ٦٥.
٥ـ انظر سيرة ابن هشام ص ١٠٥ الجزء الثاني.

وله وهو يرد على زوجه في أثناء الهجرة لمعارضتها له:

تقـولُ فـأن كنـتَ لابـدَّ فـاعلاً ... فَيَمِّـمْ بنـا البلـدانَ وَلْتنـأَ يـثربُ
فقلتُ لها بل يثربُ اليومَ وَجْهُنـا ... ومـا يشـأ الرحمنُ فـالعَبْدُ يركـبُ
إلى اللهِ وجهـي والرسـولِ وَمَـنْ يُقِـمْ ... إلى اللهِ يومـاً وَجْهَـهُ لايخيـبُ(١)

وقد ذكره ابن هشام في السيرة وأورد له مقطوعة شعرية يقول فيها:

تعـدُّون قتـلاً في الحـرامِ عظيمـةً ... وأعظـمُ منـهُ لـو يَـرى الرُّشْـدَ راشِـدُ
صدودُكُـمُ عمّـا يقـولُ محمـدٌ ... وَكُفْـرٌ بِـهِ واللهُ راءٍ وشـاهِدُ
وإخراجُكُـمُ مِـنْ مسـجدِ اللهِ أهلَـهُ ... لئـلا يُـرى للهِ في البيـتِ سـاجدُ
فإنـا وإنْ عَيّرْتُمونـا بقتلـهِ ... وأرجـفَ بالإسـلامِ بـاغٍ وحاسِـدُ
سَقَيْنا مِـن ابـنِ الحَضْرَمـيِّ رماحَنـا ... بنخلـةَ لمـا أوقَـدَ الحـربَ واقِـدُ
دمـاً وابـنُ عبـدِ اللهِ عثمـانُ بيننـا ... ينازِعـهُ غِـلٌّ مِـنَ القيـدِ عـانِدُ(٢)



١ـ انظر المصدر السابق ص ٨٤ الجزء الأول.

٢ـ التخريج: انظر سيرة ابن هشام الجزء الثاني ص ١٨١.

# فضالة بن هند الأسدي

وهو فضالة بن هند بن عوف بن ثعلبة بن حبال بن نصر بن غاضرة ابن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد.

شاعر جاهلي وهو قاتل شريح بن حصن النميري في يوم "الرثاء" وهو القائل:

يـــاويحَ أُمِّ نُمَـــيْرٍ بعـــدَ فارِسِـــها ... إذا الفـوارسُ تَحْمِـي عـورةَ الظُعُـنِ[(١)]

وروى المرزباني البيت كالتالي عن رواية لأبي عمرو الشيباني:

يـــاويح أم نمـــير بعـــد فارســـها ... إذا الفـوارس تحمـي حـاجر الظعـن[(٢)]

# قبيصة بن جابر بن وهب الأسدي

وهو قبيصة بن جابر بن وهب بن مالك بن عميرة الأسدي له إدراك صاحب عمر بن الخطاب وكان أخا معاوية من الرضاع[(٣)].

وقد ذكره صاحب الحماسة وأورد له مقطوعة شعرية يقول فيها:

بِثَنِّـــي هَضْـــمٍ جَـــدٌّ ثمـــاني ... بَطِّيـــا بالمحاولـــةِ احتيـــالي

وعـــاجمتُ الأمـــورَ وعـــاجمَتْني ... كَـأنّي كنـتُ في الأُمَـمِ الخَوالِـي

فلســنا مِــنْ بــني جــدّاءَ بكْــر ... ولكنــا بنــو جَــدٍّ النقّــال

تَفَــرَّى بيضُهــا عَنّــا فكُنّــا ... بــني الأجْــلادِ منهــا والرمــال

لنــا الحصنــان مِــنْ أجَــأ وسَــلْمَى ... وشــرقِيّاهُما غَــيْرُ انتحــال

وتيمــاءُ الــتي مِــنْ عَهْــدِ عــادٍ ... حَمَيْناهــا بــأطرافِ العَوالِــي[(٤)]

---

١- تخريج البيت: انظر المؤتلف والمختلف ص ١٧٢ - ١٧٣.

٢- انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٠٨.

وقد أورد له صاحب اللسان شاهداً يقول فيه واصفاً فرسه "الظليم".

نصبـت لهـم صـدر الظليـم وصعـدة ... شـراعية في كـف حـران ثـائر

مادة "ظلم".

٣- التخريج: انظر الأغاني الجزء الرابع ص ١٨٥ وانظر الإصابة ترجمة ٧٢٧.

٤- انظر الحماسة لأبي تمام بشرح المرزوقي الجزء الثاني ص ٧٠٦.

# قدّ بن مالك بن حبيب الأسدي

وقدّ هذا أحد شعراء بني أسد الجاهليين وإياه عني النابغة بالذبياني في قوله مادحا بني أسد:

ولِرَهْــطِ حــرَّابٍ وَقَــدٍّ ســورةٌ  في المَجْــدُ ليــس غُرابُهــا بمَطــارِ

وقد ورد ذكر قدّ في معجم الشعراء للمرزباني وهو عنده: قدّ بن مالك ابن حبيب بن حبيب بن ربيع بن أربد بن مالك بن ذؤيبة بن والبة بن الحارث بن دودان بن أسد، وهو القائل:

لعمــرُ أبيــكَ ياسـلمُ بـنَ هِنْــدٍ  لقــد لاقيــتُ منــكَ الأَقْوَرِينــا

كــأن جَــرادةٌ صفــراءَ طــارتَ  بــأحلامِ الغواضِــرِ أجمعينــا(١)





١ـ تخريج البيتين: انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٣٩.

# قران الأسدي

ذكره المرزباني في معجمه باسم قران الأسدي و لم يثبت بقية نسبه في أسد وأورد له قصة صغيرة عن زوجته ليلى التي يذكرها في أبيات له(1)، ويسميه أبو الفرج في "الأغاني" فرار الأسدي وكان قد وجد قوما يتحدثون إلى امرأته من بني عمها وضربها بالسيف طلبه بنو عمه فهرب و لم يقدروا عليه فقال في ذلك:

لَزوالُ ليلى منكُمُ آلَ بُرْثُنٍ ... على الهَوْل أمضَى من سُلَيْكِ المَقانِبِ
يزورونها ولا أزورُ نِساءَهُمْ ... ألهفِي لأولادِ الإماءِ الحَواطِبِ

وله أيضاً:

جَزَى اللهُ عنّا مُرَّةَ اليومِ ماجَزى ... شِرارَ المَوالي حيْنَ يَجزي المَواليا
إذا ما رأى مِنْ عَنْ يمينِيَ أكلباً ... عَوَيْنَ عَوَى مستحلِباً عَنْ شِماليا
ويسألُني أنْ كيفَ حالِيَ بَعْدَهُ ... على كلِّ شيءٍ ساءَهُ الدَّهْرُ حالِيا
فمالِيَ أنيّ قَدْ حللتُ ببلدَةٍ ... أصبتُ بها داراً لأهلِي وَماليا
وحالي أنيّ سوفَ أُهْدِي لَهُ الخِسا ... وأمشي لَهُ المَشْيَ الذي قَدْ مَشَى ليا(2)

وجاء ذكر هذا الشاعر في شرح أبيات سيبويه باسم فرار الأسدي وله شاهد شعري أورده المؤلف يقول فيه:

لَخُطّابُ ليلى يالَبُرْثُنَ مِنْكُمُ ... أدلُّ وأَمْضى مِنْ سُلَيْكِ المَقانِبِ(3)

---

1- تخريج الأبيات: انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٢٦.
2- انظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الجزء الثامن عشر ص ١٣٧.
3- انظر شرح أبيات سيبويه الجزء الأول ص ٣١٩ وقد ورد البيت في اللسان "مادة يرثن":

لَزوارُ ليلى منكم آل يرثن ... على الهول أمضي من سليك المقانبِ
تزورونها ولا أزور نساءَكُمْ ... ألهفي لأولادِ الإماءِ الحَواطِبِ

# قيس بن هلال الأسدي

وهو قيس بن هلال بن سعد بن حبال بن نصر بن غاضرة بن مالك بن ثعلبة ابن دودان بن أسد، ولقيس شعر في الإغارة على ابل النعمان بن المنذر ويسمى فارس "ذات الحلال" وهو القائل:

إنـي امـرؤ حَـرٌّ لبيـتي أَمْكُـنٌ لم يستطعْ قتلـي ولا إيثـاقي(١)

# كلدة بن عبدة الأسدي

وقد ورد ذكره عند أبي بشر الآمدي في المؤتلف والمختلف وكان فارسا وشاعرا وهو جاهلي وهو القائل:

طعنـةً مـا طعنـتُ في غَبَـشِ الليـل هـلالاً وأيـنَ مِثـلُ هـلالِ
طعنـةُ الثَّـائِرِ المُصمِّـمِ حتّـى خَـرَجَ الرمـحُ باديـاً كـالخِلالَ
زعمـوا أنـني أديـهِ ألا لا لا وربِّ الإحـرامِ والإحـلال
لا أديـهِ حقـاً ولا ابـنَ لبـونٍ ومعـي مهجتِـي ولا ابـنُ أفـالِ(٢)

وذكره المرزباني في معجمه وهو عنده: كلدة بن عبدة بن مرارة ابن ثعلبة بن سواءة بن سعد وهو القائل:

وإن يكـن الحَمْـدُ في بـاذِخٍ مِـنَ المَجْـدِ أَسْـلُكْ إليـهِ سـبيلا(٣)

# كليب بن نوفل الأسدي

وقد ورد ذكره عند المرزباني فقط، وهو كليب بن نوفل بن نضلة ابن الأشتر ابن حجوان بن فقعس وهو جاهلي، وقد أورد له المرزباني بيتا واحدا من الشعر يقول فيه:

فجـاءتْ كُمَيْتـاً مـاخلا رُكَباتَهـا وجاءَ سِواها حـالكَ اللـونِ أَسْـوَدا(٤)

---

١- تخريج البيت: انظر خبره في معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٢٦ و لم يرو له الا هذا البيت من الشعر.
٢- تخريج الأبيات: انظر المؤتلف ص ١٧٣.
٣- انظر معجم الشعراء ص ٣٥٥.
٤- تخريج البيت: انظر معجم الشعراء ص ٣٥٤.

# الكميت بن ثعلبة

وهو الكميت بن ثعلبة بن نوفل بن الأشتر بن حجزان بن فقعس ابن طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد.

شاعر جاهلي وهو أكبر الكمت الأسديين الثلاثة، وهو أولهم وقد ذكره غير واحد[1] ونسب إليه بعضهم أبياتا من الشعر في قضية سالم بن داره يقول فيها:

فَمَــنْ مبلــغٌ عليــا مَعَــدٍّ وَطَيئـــاً ... وكنـــدةَ مَـــنْ أصْغــى لَهــا وَتَســمَّعا

يمــانيهُمُ مَــنْ حَــلَّ بِجــرانَ مِنْهُــمُ ... وَمَــنْ حــلَ أكتــافَ الفطــاطِ فَلَعْلَعَــا

ألم يــأتهمْ أنّ الغِــزاريَّ قــد أتــى ... وإنْ طلبــوهُ أن يَــذِلَّ ويضْرَعــا

ألا زعمــتْ أمُّ الصبيّــنِ أنـــني ... كــبرتُ وأنَّ المــالَ عنـدي تضعضعـا

فــلا تنظريــني إنــني أنــا جــاركُمْ ... ليــالي حــلَّ الحــيُّ قَنّــاً فَضَلْفَعَــا[2]



١ـ التخريج: انظر المؤتلف والمختلف ص ١٧٠ وقد نسب الأبيات له وقال سمي بالكميت الأكبر تمييزا لـه عـن حفيده الكميت بن معروف وانظر معجم البلدان المجلد الثالث ص ٨٠٧ وانظر الأعلام للزركلي الجزء السادس ص ٩٢، ويضيف الزركلي بأنه كان هجاء مقذعا وكذا ورد ذكره في الإصابة الجزء الثالث ص ٦٣٩.

٢ـ انظر الأبيات في معجم البلدان ص ٨٠٧ المجلد الثالث والبيتين الأخيرين في معجم البلدان المجلد الرابع ص ١٩٣.

# كعب بن الرواغ

ولعل من أقدم شعراء بن أسد الجاهليين الذين وصلت إلينا بعض أشعارهم الشاعر الأسدي كعب بن الرواغ، فقد ذكر أبو بشر الآمدي هذا الشاعر وأورد له بعضاً من شعره، وهو كعب بن سلم بن عمرو المالكي من بني مالك بن ثعلبة بن دودان، وكان شاعراً من قدماء شعراء بني أسد وكان امرؤ القيس بن حجر يأمر قيانه أن يغنين بشعره مرة وهو أخو كعب بن الرواغ، وكان الملوك أيضاً يغنين به.

وقد قال كعب بن الرواغ "والرواغ أمه":

ذَكَـرَ ابنــةَ العرِّجــي فهــو عميــدُ ... شــغفاً شُــغِفْتَ بهــا وأنــتَ وليــدُ

ويخالُهـــا المَـــرِح الســـفيهُ تجبـــهُ ... ونوالُهـــا غـــيرُ الحديـــثِ بعيـــدُ

وتقيــك مِــنْ دون الفِــراش مَعَــاصِمٌ ... مثــلُ النمــارق وَشْــيُهُنَّ جديــدُ

وإذا تبسَّــمُ قلــتَ شــوكُ ســيالةٍ ... أو أقحـــوان صريمـــةُ مَعْهـــودُ

ريّـــأن ركـــبٍ في نِخالَـــةِ إثْمِـــدِ ... خضـــرٍ تزيّنُـــهُ غدائـــرُ سُـــودُ(١)

وذكر صاحب معجم الشعراء كعب بن الرواع الأسدي وهي أمه. وقال إنه من قدماء شعراء بني أسد وجعله من بني حيى بن مالك أيضاً موافقاً ما جاء به الآمدي(٢).

وذكره الزركلي في "الأعلام" ولم يزد شيئاً على ما قاله الآمدي والمرزباني(٣).

ويفهم من حديث الآمدي عن كعب بن الرواغ إنه كان شاعراً جاهلياً ذائع الصيت حسن الشعر وكذلك أخوه مرة بن الرواغ الذي كان يغنى شعره في بلاط الملوك.



# مرة بن الرواغ

وهو أخو كعب بن الرواغ الذي تحدثنا عنه، فقد قال عنه أبو بشر الآمدي في كتابه "المؤتلف والمختلف".

وهو مرة بن سلم بن عمرو المالكي من بني مالك بن ثعلبة بن دودان ابن أسد "والرواغ أمه" وكان امرؤ القيس يأمر قيانه أن يغنين بشعر مرة، وكذلك كان قيان الملوك يغنين به وله:

إنّ الخليــطَ أَجَــدَّ البــينَ فــادَّلجوا ... وهــم كذلــك في آثــارهم لِجَــجُ

عصــرُ الشــبابِ يغنيـــي مصلصلـــةٌ ... جيـــداءُ لاحِجَـــلٌ فيهـــا ولا رَمَـــجُ

وقـــد أقـــودُ لغيـــثٍ لاأنيـــسَ بِـــهِ ... إلا البعـــوضُ وإلا الأزرقُ الهَـــزِجُ

---

١ـ تخريج الأبيات: انظر المؤتلف والمختلف لأبي بشر الآمدي ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

٢ـ انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٤٤ وقد خالف المرزباني الآمدي في اسم أم الشاعر فهي عند أبي بشر الآمدي الرواغ وهي عند المرزباني الرواع بالعين ولعل هذا تصحيف أو سهو وقع فيه النساخ.

٣ـ انظر الأعلام للزركلي الجزء السادس ص ٨٢.

نهـدُ المراكـلِ يطويـهِ ويركبُـهُ — حتى يُكَفَّتَ عـن مُصرانِـهِ العَفَـجُ
بمثلِـهِ كنتُ أعلـو الخيـلَ إذ رُكبتْ — إذا الجيـادُ كسـا فرسـانَها الرَّهَـجُ

ومرة بن الرواغ هو القائل:
أشـاقكَ مِـنْ فكيهتِـكَ ادّلاجُ — وبُتَّ الحبلُ وانقطعَ الخِلاجُ(١)

وذكره المرزباني في معجمه وهو عنده جاهلي قديم كثير الشعر يقال إنه كان في عصر امرؤ القيس وأمه الرواع من بني سليم بن عامر(٢).



١ـ التخريج للأبيات: انظر المؤتلف والمختلف ص ١٢٧ ـ ١٢٨.
٢ـ انظر المرزباني في معجم الشعراء ص ٣٨٢ ويضيف المرزباني إن قصيدة مرة هذه طويلة ولكنها لم تصل لينا ولا نعرف له منها الا مطلعها القائل:
أشـاقك مـن فكيهتـك ادلاج — وبـت الحبـل وانقطـع الخـلاج

# مرة بن عداء الفقعسي الأسدي

وقد ذكره أبو تمام في "الحماسة" وأورد له قوله:

رأيـــتُ مـــواليّ الألى يخذلونـــــي ... علـــى حَدَثـــان الدهـــر إذ يتقلـــبُ

فهـــلاّ أعدّونـــي لمثلـــي تفـــاقدوا ... إذا الخَصْمُ أبـزى مـائلُ الـرأسِ أنكـبُ

وهـــلاّ أعدُّونـــي لِمثلـــي تفـــاقَدُوا ... وفي الأرضِ مبثـوثٌ شـجاعٌ وعقـربُ

فـلا تـأخذوا عَقْـلاً مِـنَ القـومِ إنّنـي ... أرى العـارَ يبقـى والمعـاقلُ تذهـبُ(١)

وقد ذكره الخالديان في "الأشباه والنظائر" ونسبا له شعرا يرثي فيه خالد بن نضلة وعمرو بن مسعود يقول فيه:

ياقـــبرُ بـــين بيـــوتِ آل مُحَـــرِّق ... جـــادتْ عليـــكَ رواعـــدُ وبُـــرُوقُ

هـــل تنفعنّـــكَ دمنـــةٌ مَرْعيّـــةٌ ... فيهـــا أداءُ أمانـــةٍ وحقـــوقُ

ذهبـتْ بـكَ الأيـامُ عنـا بعـد مـا ... كـادت بـكَ الأرضُ الفضـاءُ تضيـقُ

حتـى السـماءَ فكنـت قـرب نجومِهـا ... ولئـن بلغـتَ نجومَهـا لحقيـقُ(٢)



---

١ـ التخريج: انظر الحماسة لأبي تمام بشرح المرزوقي الجزء الأول ص ٢١٣، وقد نسب الأبيات لبعض بني فقعس وقيل هي لمرة بن عداء الفَقْعسي الأسدي.

٢ـ انظر الأشباه والنظائر الجزء الأول ص ٨٦ وانظر الوحشيات لأبي تمام ص ٦٧ وقد أورد البكري بيتا لمرة يقول فيه:

كـأنك لم تنصـب مـن الدهـر ليلـة ... إذا أنـت أدركـت الـذي كنـت تطلـب

ـ انظر سمط اللآلى ص ٨٤٢ الجزء الثاني.

# معقل بن عامر الأسدي

وهو شاعر جاهلي عرف بفارس الدهماء، وكان ممن شهد يوم جبلة مع بني أسد وأخوه حضرمي بن عامر من الصحابة - مر ذكره - وقد ذكره أبو تمام في "الحماسة" وأورد له قطعة شعرية يقول فيها:

يَدِيتُ على ابنِ حَسْحَاسِ بنِ وهبْ ... بأسفلَ ذِي الجداةِ يدَ الكَرِيمِ

قصرتُ لهُ من الحمَّاءِ لمّا ... شهدتُ وغابَ عنْ دارِ الحَمِيمِ

أُنَبِّئُهُ بأنَّ الجُرحَ يُشوَى ... وأنَّكَ فوقَ عِجْلِزَةٍ جَمُومِ

ولوْ أنّي أشاءُ لكنتُ منْهُ ... مكانَ الفرقَدَيْنِ منَ النُّجُومِ

ذكرتُ تَعِلَّةَ الفِتْيانِ يوماً ... وإلحاقَ الملامةِ بالمليمِ(١)

وله في يوم شعب جبلة رجز أورده المرزباني يقول فيه:

نحنُ بني مُجَمَّعِ بنِ مؤَأَلَهْ ... نحنُ حماةُ الناسِ يومَ جَبَلَهْ

بِكُلِّ عَضْبٍ صَارِمٍ ومعبَلَهْ ... وهيكلٍ نَهْدٍ معاً وهيكَلَهْ(٢)

# مفلس بن حصن الأسدي

وقد ذكره المرزباني في معجمه، وهو مفلس بن لقيط بن حبيب بن خالد بن نضلة بن الأشتر بن حجوان وهو شاعر جاهلي وله:

عَوَى نابحٌ من أرْضِهِ فعَوَتْ لهُ ... كلابٌ وأخرَى متخفٌ حُلُومُهَا

إذا هنّ لم يولفن من ذِي قرابةٍ ... دماً هَلَستْ ابدانُها ولُحومُهَا(٣)

---

١- التخريج: انظر الحماسة لأبي تمام بشرح المرزوقي الجزء الأول ص ١٩٣ وانظر معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٧٠، ٣٧١ وقد ورد البيت الثالث عند المرزباني كالتالي:

وأوسيه بأن الجرح يشوى ... وانك فوق عجلزة جموم

٢- انظر معجم الشعراء ص ٣٧٠، ٣٧١ وقد أشار المرزباني إلى سيد آخر من سادات بني أسد بهذا الاسم وأنه كان رئيس بني أسد في بعض حروبهم وأنه أوقد لهم نارا فلقب بـ "الموقد" ونسبه هو: متصل بن عامر ابن نمير بن أسامة بن والبة بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد.. وهو في ظننا غير معقل بن عامر بن مجمع من مؤألة شاعرنا المقصود. وقد ذكره صاحب الأنوار ومحاسن الأشعار ص ١٥٥، ١٥٦ وقد أورد بعض أبيات لأخته ترثيه بعد مقتله في يوم ذات الحناظل مطلعها:

ألا ان خير الناس أصبح ثاويا ... قتيل بني سعد بذات الحناظل

٣- تخريج الأبيات: انظر معجم الشعراء للمرزباني ص ٣٩١.

وذكره صاحب الخزانة إن مفلس بن لقيط وهو من ولد معبد بن نضلة كان رجلا كريماً حليماً شريفاً، وكان له ثلاثة أخوة أحدهم أطيط وكان أطيط بارا به والآخران وهما مدرك ومرة مماظين فلما مات أطيط أظهرا له العداوة فقال:

أبقتْ لكَ الأيامُ بعدَكَ مدْركاً ... ومرةَ والدُّنيا قليلٌ عتابُهَا
قَرينين كالذِّئبين يبتدرانِني ... وشرُّ صُحاباتِ الرِّجالِ ذِئابُها
وإن رَأَيَا لِي غرَّةً أَغْريا بها ... أَعادِيَ والأعداءُ كَلْبَى كِلابُهَا
إذا رأياني قد نَجَوتُ تَلَمَّسَا ... لِرجْلي مغواةً هياماً ترابُها
وأعرضتُ أستبْقِيهمَا ثُمَّ لا أرَى ... حَلُومَهُما إلاَّ وشيكاً ذَهابُها
لعلَّ جَوازي اللهِ يجزينَ منهُما ... وَمُرَّ اللَّيالي صرفُها وانقلابُهَا
فيشمت بالمرأينِ مرءٌ تخطيا ... إليهِ قراباتٍ شديداً حِجابُها
وَقَدْ جعلتْ نفسي تطيبُ ... أعضُّهُماها يقرعُ العَظْمَ نابُها
ولا مِثلَ يومِ عِندَ سعدِ بنِ نوفلٍ ... بفرتاجَ إذ توفي عليَّ هِضابُها
لأَجْعَلَ ما لم يَجعلِ اللهُ لامرئٍ ... وأكتبُ أموالاً عداءً كتابُها
خرجتُ خروجَ الثورِ قَدْ عَصَبْتُ لَهُ ... سلوقيةُ الأنسابِ خُضْعٌ رقابُها
حَبَسْتُ بفمي غَمْرةٍ فتركتُها ... وَقَدْ أتركُ الغُمى إذا ضاقَ بابُها(١)

ويذكر له البغدادي أيضاً أبياتاً يرثي فيها أطيطاً أخاه:

ذَكرتُ أطيطاً والأَداوي كأنها ... كلى من أديمٍ يَسْتَشِنُّ هُزومُها
لَعَمْري لقد خَلَّيْتَني ومواطِناً ... تشيبُ النواصي لو أتاكَ يقينُها
وأبدتْ لي الأعداءُ بعدَكِ منهُمُ ... ثَرَى دِمَنٍ ما كانَ يبدو دَفِينُها(٢)

وقد اختلط الأمر على أبي تمام فقد أورد شعرا في باب الهجاء وقال: هي لمدرك أو مفلس بن حصن والأبيات هي:

لَقد كنتُ أرمي الوَحْشَ وهي بغُرَّةٍ ... ويسكنُ أحياناً إليَّ شرودُها
فقدْ أَمْكَنَتْنِي الوحشُ مذ رَثَّ أَسْهُمي ... وماضر وحشاً قانصٌ لايصيدُها
فأعرضْتُ عن سَلْمي وقلتُ لصاحِبي ... سواءٌ علينا بَخْلُ سلمي وجودُها
فلا تحسدنْ عبساً على ما أصابها ... وذمَّ حياةً قد تولى زهيدُها
تشبه عبسٌ هاشماً انْ تَسَرْبَلَتْ ... سرابيلَ خزٍ أنكرتْها جلودُها
فلا تحسَبَنَّ الخيرَ ضَرْبةَ لازبٍ ... لعبسٍ إذا ما فاتَ عَنْها وليدُها(٣)

---

١ـ انظر خزانة الأدب للبغدادي الجزء الخامس ص ٣٠٣.
٢ـ انظر المصدر السابق نفس الصفحة. وانظر في مفلس: حماسة الخالدين، الجزء ٢، ٣٣٢.
٣ـ تخريج الأبيات: انظر الحماسة لأبي تمام بشرح المرزوقي الجزء الثالث ص ١٥٢٥.

وقد وردت الأبيات في الحماسة البصرية على أنها لمدرك بن حصن[١]. وجاء في ديوان المعاني لبي هلال العسكري بيت من الشعر لمدرك يقول فيه:

رَغا جَزعاً بعدَ البُكاءِ كما رَغَتْ ... مُوَشَّمَةُ الجَنبينِ رطبٌ عرينُهَا[٢]

وروى له البكري رجزاً يقول فيه مخاطباً امرأة:

ماذا ابتغَتْ حبي إلى حَلَّ العرى ... أحسبتْني جئتُ منْ وادِي القرَى

بفيك من سار إلى القوم البري[٣]

ولم يذكر مدركا فيما عدا ذلك أحد من الرواة أما أخوه مرة فلا يظهر له ذكر عند أي من الرواة.

# نافع بن لقيط الأسدي

وقد ذكره ابن منظور في اللسان وأورد له قصيدة يشكو فيها الشيب وقال: قال نافع بن لقيط الأسدي وقيل نويفع بن نقيع الأسدي الفقعسي:

بانتْ لِطِيَّتَهِا الغداةَ جَنوبُ ... وطربتَ إنكَ ما علمتَ طَروبُ
ولقد تُجاوِرُنا فتهجرُ بيتَنا ... حتى تفارقَ أو يقالَ مُريبُ
وزيارة البيتِ الذي لا تَبْتَغِي ... فيهِ سَواءَ حديثِهِنَّ مَعيبُ
ولقد يميلُ بي الشبابُ إلى الصبا ... حيناً فأُحْكَمَ رأيِيَ التجريبُ
ولقد تُوَسِّدُني الفتاةُ يمينَها ... وَشِمالَها البهنانةُ الرعبوبُ
نُفُجُ الحقيبةِ لا ترى لكعوبها ... حداً وليس لساقها ظُنبوبُ
عَظُمَتْ روادفُها وأُكمِلَ خَلْقُها ... والوالدانِ نجيبةٌ ونجيبُ
لما أحلَّ الشيبُ بي أثقالَهُ ... وعلمتُ أن شبابِيَ المسلوبُ

---

١- انظر الحماسة البصرية الجزء الثاني ص ٢٩٤.
٢- انظر ديوان المعاني لأبي هلال العسكري الجزء الأول ص ٢١٥.
٣- انظر سمط اللآلى الذيل ص ٢٩ وقد أورد له صاحب اللسان شاهدين يقول فيهما:

ليالي لم تنتج غدام خلية ... تسوق صريا في مقلدة صهب

ويقول:

أصلمعة ابن قلمعة بن فقع ... لهنك لا أباً لك تزدريني

مادة صلمع ومادة صري.

قـالتْ: كَـبِرْتَ وكـلُّ صـاحبِ لَـذَّةٍ ... لِبِلـىً يعـودُ وذلِـكَ التتبيـبُ
هـلْ لي مـن الكِـبَرِ المُبيـنِ طبيـبُ ... فـأعودَ غِـرّاً والشـبابُ عجيـبُ
ذهبـتْ لِداتـي والشـبابُ فليـس لي ... فيمَـنْ ترَيْـنَ مـن الأنـام ضَريـبُ
وإذا السِـنونَ دأَبْـنَ في طَلَـبِ الفتـى ... لَحِـقَ السِّـنُونَ وأُدْرِكَ المطلـوبُ
فـاذهبْ إليـكَ فليـس يعلـمُ عـالِمٌ ... مِـنْ أيـنَ يُجْمَـعُ حَظُّـهُ المكتـوبُ
يسـعى الفتـى لينـالَ أفْضلَ سَـعْيِهِ ... هيهـات ذاك ودونَ ذاك خُطـوبُ
يسـعى وَيـأمُلُ والمنيّـةُ خلفَـهُ ... توفـى الاكـامَ لَـهُ عليـهِ رقيـبُ
لا المـوتُ محتقِـرُ الصغـيرِ فَعَـادِلٌ ... عنـهُ ولا كِـبَرُ الكَبـيرِ مَهيـبُ
ولئـن كـبرتُ لقـد عَمِـرْتُ كـأنني ... غصـن تَفيّئـهُ الريـاحُ رطيـبُ
وكـذاك حقـاً مَـنْ يُعَمَّـرُ يُبْلِـهِ ... كَـرُّ الزمـان عليـهِ والتقليـبُ
حتـى يعـودَ مـن البلـى وكأنـهُ ... في الكَـفِّ أفْـوَقُ نـاصلٍ معصـوبُ
مُـرُطُ القِـذاذِ فليس فيـه مَصنـعٌ ... لا الريـشُ ينفعُـهُ ولاَ التعقيـبُ
ذهبـت شَـعُوبُ بأهلِـهِ وبمالِـهِ ... إنَّ المنايـا للرجـالِ شَـعُوبُ
والمـرءُ مِـنْ ريـبِ الزمـانِ كأنـهُ ... عَـوْدٌ تداولَـهُ الرِّعـاءُ رَكـوبُ
غـرضٌ لكـلِ منيّـةٍ يُرمَـى بهـا ... حتـى يصـابَ سـوادُهُ المنصـوبُ

وذكر صاحب اللسان شاهدا يقول فيه:

وَمُؤَلَّـقٍ أنضجـتُ كَيَّـةَ رأسِـهِ ... فتركتُـهُ ذَفِـراً كريـحِ الجَـوْرَبِ
ولأحملنْـكَ علـى نهـابرَ إنْ تُثِـبْ ... فيهـا، وإنْ كنـتَ المهنَّـتَ، تَعْطَـبِ

اللسان مادتي ألق ونهبر.

# النظار الفقعسي الأسدي

وقد ورد ذكر هذا الشاعر عند ابن قتيبة في كتابه "ديوان المعاني الكبير" وذكر له ابن قتيبة أبياتا يصف فيها فرسه، ولكنه لم يشر إلى الزمن الذي عاش فيه الشاعر. يقول النظار الفقعسي:

ظـلَّ يَقِـفُ فَرقـاً أجْـلادُهُ ... يَوفـي الصـوَّى مِثْـلَ السـليبِ العَرْيـان
مُحَـدْرَجُ العـينِ كـأنَّ خَطْمَـهُ ... في الـرأسِ صِدْعـا سـيِّةٍ حَفْيـانَ
أصـكَ صَعْـلٌ ذو جـران شـاحِضٌ ... وهامـةٌ فيـهِ كَجَحْـرْوِ الرُّمـانَ
إذا الضَّـراءُ مَشَـقَتْ عرقوبَـهُ ... مَشْـقَ الملاحـينَ ثيـابَ الدُّهْقـانِ(١)

---

١ـ التخريج: انظر كتاب ديوان المعاني الكبير لابن قتيبة الجزء الأول الصفحات: البيت الأول في ص ٤٨، والبيت الثاني في ص ٣٤١، البيت الثالث في ص ٣٤٥، البيت الرابع في ص ٧٧٣ نشر حيدر آباد.

وقد جاء ذكر النظار الفقعسي عند أبي علي القالي في "الأمالي" أيضاً ولكن بدون تفصيل يفيدنا عن حياة هذا الشاعر الأسدي، وإنما يتلخص ذكره عند أبي علي في أبيات ساقها له يفتخر فيها بنفسه يقول فيها:

فــإنْ تَــرِدْ في بَدَنِــي خِفَّــةٌ ... فســوفَ تصــادفُ حِلْمــي رَزِينَــا
وَتَعْجــمْ مِنّــي عنــدَ الحِفــاظِ ... حَصَــاةٌ تُقِّــلُ شَــبَا العاجمينــا
فإيــاكَ والبَغْــيَ لا تســتثرْ ... جديــدَ النيــوبِ أطــالَ الكُمُونَــا
ثــوى تحمــلُ السُــمَّ أنيابُــهُ ... وحــالفَ لَصْبــاً مَنيعــاً كَنِينَــا
رأتْــهُ الحُــواةُ الأُلى جرَّبــوا ... فــلا يَبْسُــطونَ إليــهِ اليمينَــا(١)

وقال الأسدي:

يبيتــونَ أمثــالَ العِشَــارِ وجــارُهُمْ ... على الفَرْثِ يُجْبِي الليلَ يفرجُ بـالَمحْلِ(٢)

وقال الأسدي:

ألا يــا طــالَ بالغُرَبــاتِ ليلِــي ... ومــا يَلْقــى بنــو أَسَــدٍ بِهِنَّــهْ
وقائلــةٍ أَسِــيْتَ فقلــتُ جَــيْرٌ ... أَسِــيٌّ إنّــي مِــنْ ذاك إنَّــهْ(٣)

وقال أحد رجال بن أسد في يوم شعب جبلة:

زعمــتَ أنَّ العــيرَ لا تقــاتلْ ... بلــى إذا مــا قَعْقَــعَ الرحــائلْ
واختلــفَ الهنــديُّ والذَوابِــلْ ... وقــالت الأبطــالُ مَــنْ يُنــازِلْ

بلـــى وفيهـــا حَسَــبٌ ونــائلْ(٤)

---

١ـ انظر الأمالي لأبي علي القالي الجزء الثاني ص ٢٠٣ مطبعة السعادة بمصر. وفي تاج العروس مادة عقد:

صــاح بهــم علــى اعتقــادٍ زمــانٌ ... معتفِــدٌ قِطــاعٌ بــينَ الأقْــرانِ

وفي اللسان له مادة قوي:

ويــومَ النســارِ ويــومَ الجفــا ... ركــانوا لنــا مُقْتَــوِى المُقْتَوِينَــا

وفي اللسان مادة صوت:

كــأنني فــوق أقــبَّ ســهوقٍ ... جَــأْبٍ إذا عشــر، صــاتَ الارْنَــانِ

٢ـ التخريج: انظر ديوان المعاني لأبي هلال العسكري الجزء الأول ص ٤١٥.
٣ـ انظر معجم البلدان المجلد الرابع ص ٢١ وص ١٩٢ حيث تكرر الشعر.
٤ـ انظر العقد الفريد الجزء الثالث ص ٥٢ وانظر معجم البلدان المجلد الثالث ص ٥٠.

وقال الأسدي:

وَسَــوْداءَ لا تكســي الرقــاعَ نبيلــةٍ لَهَــا عِنْــدَ قُــرّاتِ العشــياتِ أَزْمُــلُ
إذا مــا قَرَيْناهَــا قِراهــا تَضَمَّنَــتْ قِـرى مَـنْ عَرانـا بَـلْ تَزيـدُ فَتَفْضُـلُ(١)

وقال أحد شعراء بني فقعس مشيداً بنصرة بعض أفخاذ بني أسد له:

دَعَــوْتُ بــني قيــسٍ إلىَّ فَشَــمَّرَتْ خَنـاذيذُ مِـنْ سَـعْدٍ طِـوَالِ السَّــواعِدِ
إذا مـا قلـوب القـوم طَـارت فحافـة مِـن المـوت أرسـوا بـالنفوس المَواجـد(٢)

وقال الأسدي:

بَكِّــي علــى قَتْــلِ العِــدان فــإنهم طَــالَتْ إقــامتُهُمْ بِبَطْــنِ بُــرامِ
كــانوا علــى الأعــداء نــارَ مُحَــرِّق وَلِقَوْمِهِــمْ حَرْبــاً مِــنَ الإحــرام
لا تهلكــي جزعــاً فَــإنّي واثــقٌ برماحِنــا وعواقــبِ الأيَّــامِ(٣)

وقال بعض بني أسد:

ألبســت أثــوابَ العَــرُوسِ سَــراتَهُمْ مِـنْ بَعْـدِ مـا لبسُـوا ثِيـابَ الآئِـبِ(٤)



١ـ انظر الأشباه والنظائر للخالدين ص ٢٤٠ الجزء الثاني.
٢ـ انظر الحماسة بشرح المرزوقي الجزء الثاني ص ٤٦٨ وانظر الأمالي للقالي الجزء الأول ص ٢٧ طبع بيروت.
٣ـ انظر الحماسة بشرح المرزوقي الجزء الثالث ص ٨٦٥.
٤ـ انظر سمط اللآلى للبكري الجزء الأول ص ٤٦٤ لجنة التأليف والترجمة والنشر.



# فهرس المصادر والمراجع



القرآن الكريم - إنجيل متى
١- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري للدكتور محمد مصطفى هدارة، ط دار المعارف، ١٩٦٩.
٢- الأخبار الطوال للدينوري، ط دار الكتب.
٣- الأدب العربي في العصر الجاهلي، د. محمد مصطفى هدارة، ط ذار المعرفة الجامعية بالإسكندرية.
٤- الأدب وفنونه للدكتور عز الدين اسماعيل، ط دار الفكر العربي، القاهرة.
٥- أديان العرب في الجاهلية، محمد نعمان الجارم، مطبعة السعادة، ١٩٢٣.
٦- الأزمنة والأمكنة للمرزوقي، ط حيدر آباد، عام ١٣٣٢هـ.
٧- الأساطير للدكتور احمد كمال زكي.
٨- الأساطير العربية قبل الإسلام تحقيق محمد عبد المعين خان، ط القاهرة، ١٩٣٧م.
٩- أسد الغابة في تمييز الصحابة، لابن الأثير طبع المكتبة الإسلامية، طهران.
١٠- أسطورة إيزيس وأوزوريس، بلوتاي جزى، ترجمة الدكتور حسن صبحي بكري، ط القاهرة ١٩٥٨.
١١- أسماء من قتل من الشعراء لابن حبيب البغدادي، ط دار التأليف والترجمة والنشر.
١٢- الأشباه والنظائر للخالديين، تحقيق د. محمد يوسف، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر.
١٣- الاشتقاق لابن دريد، طبع الخانجي بمصر.
١٤- الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر، ط الدار القومية ١٩٢٤.
١٥- الأصمعيات، ط دار المعارف بمصر.
١٦- الأصنام لابن الكلبي، تحقيق د. احمد زكي، طبع الدار القومية للطباعة والنشر.
١٧- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ط دار الكتب، وطبعة بيروت، وطبعة ساسى.
١٨- الأمالي لأبي علي القالي، طبع بيروت، مركز الموسوعات.
١٩- أمالي المرتضى المسمى بغرر الفوائد ودرر القلائد للشريف المرتضى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع البابي الحلبي.
٢٠- أمراء غسان، لنولدكه، ترجمة دكتور بندلي جوزي، طبع بيروت، ١٩٣٢.
٢١- انساب الأشراف، للبلاذري، طبع القدس، القاهرة.
٢٢- انساب الخيل، لابن الكلبي، طبع الدار القومية للطباعة والنشر.
٢٣- أيام العرب في الجاهلية لجاد المولى وزملائه ط عيسى البابي الحلبي.
٢٤- البدو والعشائر، ط الجامعة العربية، معهد الدراسات العالية، ١٩٥٥.
٢٥- بلاد العرب للأصفهاني.
٢٦- بلال الحبشي للعقاد.
٢٧- بلوغ الأرب، محمد شكري الألوسي، طبع دار الكتاب العربي بمصر.
٢٨- البيان والتبين، للجاحظ تحقيق عبد السلام هرون، الطبعة الرابعة بمصر.
٢٩- تاج العروس في شرح القاموس للزبيدي، المطبعة الجمالية.
٣٠- تاريخ ابن خلدون ط نهضة مصر.
٣١- تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، ط دار المعارف.
٣٢- تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، ط دار المعارف.
٣٣- التاريخ الإسلامي للدكتور علي إبراهيم حسن، ط مكتبة الفلاح بالكويت ١٩٧٧.

٣٤ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ط مصر ١٣٤٩هـ.
٣٥ـ تاريخ التمدن الإسلامي، جورجي زيدان، ط دار الهلال.
٣٦ـ التاريخ السياسي، د. عبد المنعم ماجد، ط ١٨٧٦.
٣٧ـ تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري د. نجيب البهبيتي طبع دار الكتب.
٣٨ـ تاريخ الطبري، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٦٧.
٣٩ـ تاريخ العرب، فيليب حتى.
٤٠ـ تاريخ العرب قبل الإسلام، د. عبد العزيز سالم "جامعة الإسكندرية".
٤١ـ تاريخ الفلسفة العربية، دي بور، ترجمة د. محمد الهادي أبو ريدة، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٤٢ـ تاريخ اليعقوبي، ط دار الفكر ببيروت.
٤٣ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، د. شكري فيصل، طبع دار العلم للملايين.
٤٤ـ التطور والتجديد في الشعر الأموي، د. شوقي ضيف.
٤٥ـ تقويم البلدان لأبي الفدا، طبع مكتبة المثنى ببغداد.
٤٦ـ تهذيب اللغة للأزهري، تحقيق الدكتور عبد السلام سرحان، دار الكاتب العربي، وطبعة الدار المصرية ١٩٦٧.
٤٧ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي، طبع القاهرة ١٩٧٥.
٤٨ـ جغرافية بطليموس.
٤٩ـ جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي تحقيق علي محمد البجاوي، ط ١٣٥٨.
٥٠ـ جمهرة انساب العرب لابن حزم، ط دار المعارف تحقيق عبد السلام هارون.
٥١ـ حماسة أبي تمام بشرح التبريزي، ط المكتبة الأزهرية.
٥٢ـ حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي، طبع القاهرة ١٩٥١.
٥٣ـ حماسة البحتري ط دار الكتاب العربي، بيروت.
٥٤ـ الحماسة البصرية، ط حيدر آباد ١٩٦١.
٥٥ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلي للدكتور الحوفي، ط نهضة مصر.
٥٦ـ الحياة والشاعر تأليف استيفان سبندر، تعريف الدكتور مصطفى بدوري، سلسلة الألف كتاب، الطبعة الأولى.
٥٧ـ الحيوان للجاحظ.
٥٨ـ خزانة الأدب للبغدادي، ط بولاق ١٢٩٩هـ.
٥٩ـ خزانة الأدب للبغدادي تحقيق عبد السلام هرون ط دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٧٦.
٦٠ـ دائرة المعارف للبستاني، طبع بيروت، دار الكتب.
٦١ـ دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، مطبعة الشعب.
٦٢ـ دراسات في الشعر الجاهلي د. يوسف خليف، ط مكتبة غريب.
٦٣ـ دراسة الأدب العربي، د. مصطفى ناصف.
٦٤ـ ديوان الأعشى الكبير، تحقيق د. محمد محمد حسين، طبع دار النهضة العربية.
٦٥ـ ديوان امرئ القيس، ط دار المعارف، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
٦٦ـ ديوان امرئ القيس، حسن الندوى، الطبعة الثالثة ١٩٥٣.
٦٧ـ ديوان أوس بن حجر، طبع دار صادر.
٦٨ـ ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق عزة حسن، طبع دمشق ١٩٧٢، الطبعة الثانية.
٦٩ـ ديوان حسان بن ثابت.

٧٠- ديوان الحسين بن مطير، تحقيق د. محسن فياض، ط بغداد.
٧١- ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، تحقيق د. عبد العزيز اليمني.
٧٢- ديوان عامر بن الطفيل، تحقيق تشارلز ليال، ط ليدن ١٩١٣.
٧٣- ديوان عبيد، تحقيق لايل، ط ليدن ١٩٢٣.
٧٤- ديوان المعاني، ط مصر ١٣٥٢هـ لأبي هلال العسكري.
٧٥- ديوان النابغة الذبياني، ط دار صادر، بيروت.
٧٦- ديوان الهذليين، ط الدار القومية للطباعة ١٩٦٠.
٧٧- رسائل البلغاء، جمع محمد كرد علي.
٧٨- الروض الأنف للسهيلي، المطبعة الجمالية بمصر.
٧٩- سر صناعة الإعراب، السقا ورفاقه، ط مصر ١٩٥٤.
٨٠- سمط اللآلى تحقيق عبد العزيز اليمني طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٨١- سيرة ابن هشام، ط دار الجيل، بيروت.
٨٢- شرح أبيات سيبويه، للسيرافي، طبع القاهرة ١٩٧٤.
٨٣- شرح ديوان لبيد.
٨٤- شرح شواهد المغني للسيوطي، طبع القاهرة ١٣٣٢هـ.
٨٥- شرح المعلقات العشر للتبريزي، طبع محمد علي صبيح، القاهرة.
٨٦- الشعراء الصعاليك، د. يوسف خليف، ط دار المعارف.
٨٧- شعراء النصرانية، ط الآباء اليسوعيين، بيروت ١٨٩٠م.
٨٨- الشعر الجاهلي، التطور والنشأة، د. هدارة.
٨٩- الشعر الجاهلي، مراحله واتجاهاته الفنية، د. سيد حنفي.
٩٠- الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه للدكتور محمد النوكلي.
٩١- شعر الطبيعة في الأدب العربي للدكتور سيد نوفل، ط دار المعارف بمصر.
٩٢- الشعر العربي المعاصر، د. عز الدين اسماعيل.
٩٣- الشعر العربي من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجري، د. هدارة.
٩٤- شعر عمرو بن شأس، طبع الكويت.
٩٥- الشعر والشعراء، طبع دار الثقافة ١٩٦٤.
٩٦- الصاحبي، لابن فارس تحقيق احمد صقر، طبع المكتبة السلفية.
٩٧- صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من آثار، محمد عبد الله النجدي، ضبط محيي الدين عبد الحميد، ط دار اليمامة.
٩٨- صنعة جزيرة العرب، للمدائني تحقيق ابن بلهيد النجدي، مطبعة السعادة.
٩٩- الصورة الأدبية، مصطفى ناصف، ط دار مصر للطباعة.
١٠٠ الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، نصرت عبد الرحمن.
١٠١- طبقات ابن سعد، طبع بيروت ١٩٥٧.
١٠٢- طبقات الأمم، تأليف صاعد بن احمد، ط بيروت، المطبعة الكاثوليكية.
١٠٣- طبقات فحول الشعراء لابن سلام تحقيق شاكر ط المدني.
١٠٤- الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري القيس، طبع الموصل بالعراق.
١٠٥- العرب في سوزيا قبل الإسلام لرينيه ديسو ترجمة عبد الحميد الدواخلي، طبع الدار القومية للطبعة والنشر.

١٠٦- العرب قبل الإسلام، جورجي زيدان، ط دار الهلال تعليق حسين مؤنس.
١٠٧- العقد الفريد، تحقيق إبراهيم الابياري، ط دار النشر والترجمة والتأليف الطبعة الثالثة.
١٠٨- العمدة لابن رشيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع المكتبة التجارية بالقاهرة.
١٠٩- عيون الأخبار لابن قتيبة ط دار الكتب.
١١٠- الغزل في العصر الجاهلي للدكتور الحوفي، طبع نهضة مصر.
١١١- فجر الإسلام، احمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٢.
١١٢- فن الشعر، د. إحسان عباس، ط بيروت ١٩٧٥.
١١٣- الفهرست لابن النديم، مطبعة الاستقامة.
١١٤- فوات الوفيات د. محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ١٩٥١.
١١٥- في الأدب الجاهلي، د. طه حسين، دار المعارف ١٩٦٢.
١١٦- قضايا النقد الأدبي للدكتور زكي العشماوي الطبعة الثالثة.
١١٧- الكامل للمبرد ط نهضة مصر.
١١٨- الكامل في التاريخ لابن الأثير ط المطبعة الأزهرية، ط بيروت ١٩٧٥.
١١٩- الكتاب لسيبويه، ط بولاق.
١٢٠- كتاب المغتالين ط دار الكتب بمصر.
١٢١- لسان العرب لابن منظور، ط بولاق.
١٢٢- المجاز بين اليمامة والحجاز، نشر دار اليمامة، عبد الله بن محمد بن خميس النجدي.
١٢٣- مجمع الأمثال للميداني، طبع السنة المحمدية بالقاهرة.
١٢٤- المحبر لابن حبيب، طبع حيدر آباد ١٩٤٢.
١٢٥- مختارات ابن الشجري.
١٢٦- مراتب النحويين، ط نهضة مصر، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبع نهضة مصر.
١٢٧- مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد نشر دار الكتاب المصري ١٩٦٦.
١٢٨- المزهر في علوم اللغة، تحقيق جاد المولى وصاحبيه طبع الحلبي.
١٢٩- مسالك الممالك للاصطخري الكرخي، طبع بغداد.
١٣٠- مصادر الشعر الجاهلي د. ناصر الدين الأسد، طبع دار الكتب بمصر.
١٣١- المعارف لابن قتيبة تحقيق ثروت عكاشة، طبع دار المعارف بمصر.
١٣٢- المعاني الكبير لابن قتيبة، طبع حيدر آباد.
١٣٣- معجم البلدان لياقوت الحموي، طبع القدس، القاهرة.
١٣٤- معجم الشعراء للمرزباني، تحقيق عبد الستار فراج ط، مكتبة القدس القاهرة ١٣٥٤هـ.
١٣٥- معجم ما إستعجم للبكري، تحقيق مصطفة السقا، الطبعة الأولى ١٩٤٥، لجنة التأليف والنشر.
١٣٦- معجم قبائل العرب، عمر رضحا كحالة، ط دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٨.
١٣٧- المعمرون لأبي حاتم السجستاني، مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٥.
١٣٨- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي طبع المجمع العلمي العراقي.
١٣٩- المفضليات، تحقيق شاكر وهارون، طبع دار المعارف بمصر.
١٤٠- مقدمة ابن خلدون، طبع مكتبة المتنبي، بغداد.
١٤١- مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، د. حسين عطوان، ط دار المعارف.
١٤٢- الملل والنحل، للشهرستاني، ط مطبعة الأزهر.

١٤٣- المنازل والذيار، تأليف أسامة بن منقذ طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٩٦٨.
١٤٤- المؤتلف والمختلف، تحقيق عبد الستار فراج، طبع البابي الحلبي.
١٤٥- الموشى، للرثاء، طبع الخانجي بمصر، تحقيق كمال مصطفى.
١٤٦- النقائض لأبي عبيدة ط ليدن.
١٤٧- نهاية الأرب، للقلقشندي، طبع الشركة العربية للطباعة والنشر.
١٤٨- نهاية الأرب، للنويري، ط دار الكتب بمصر.
١٤٩- نوادر أبي زيد الأنصاري في اللغة، طبع بيروت ١٩٦٧.
١٥٠- الهجاء والهجاءون، محمد محمد حسين.
١٥١- وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية، د. نوري القبس، ط الموصل ١٩٧٤.
١٥٢- الوحشيات لأبي تمام، طبع ذخائر العرب ١٩٦٣، تحقيق اليمني وشاكر.
١٥٣- وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، ط بيروت ١٩٧٢.

## الدوريات:

١- مجلة المشرق الكاثولوكية، بيروت ١٩٣٨.
٢- مجلة المورد العراقية، عدد فبراير ١٩٧٥.



